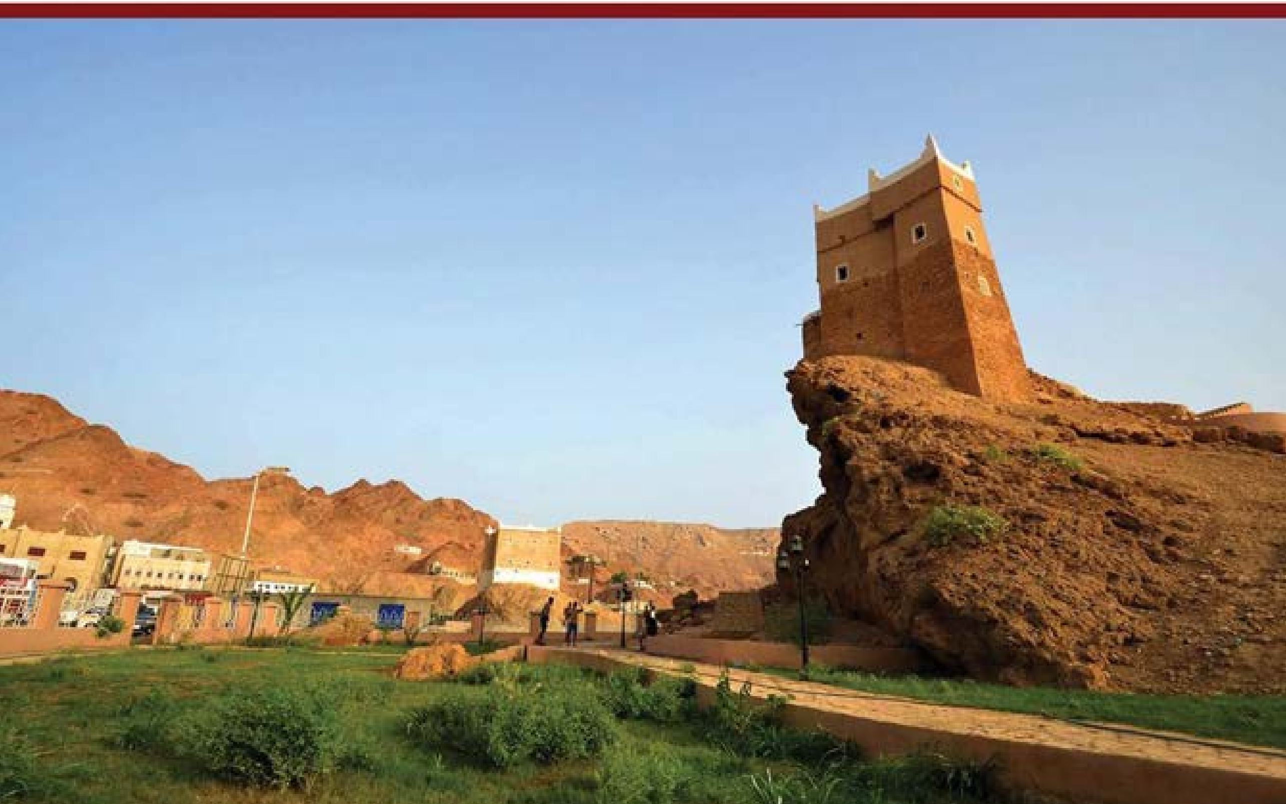
تاريخ حضرموت السياسي

مزين بالخرائط والصور والرسوم الفنية

(الجزء الأول والثاني)



تأليف

صلاح عبد القادر البكري

دار الوفاق

DAR AL WEFAQ

تَارِيخُ حَضْرَمَوْتَ السِّيَاسِيِّ

مُزيَّن بالخرائط والصور والرسوم الفنية

(الجزء الأول)

تأليف

صلاح البكري

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية بعدن (١١٥١) لعام ٢٠١٩

الطبعة الأولى: ٢٠١٩

دار الوفاق
DAR AL WEFAQ

دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر
هاتـف وواتس آب: 00201008170225
بريد إلكتروني: daralwefaqnet@gmail.com

قصة هذا الكتاب

بقلم: د. محمد أبوبكر حميد

هذا الكتاب (تاريخ حضرموت السياسي) هو أول مؤلفات صلاح البكري رحمه الله، بدأ في كتابته وهو في سن العشرين وأتمه وهو في سن الثانية والعشرين، ومع ذلك بقي من أكثر كتبه شهرة وتداولًا وجدلًا. ورغم أن خبرات صلاح البكري زادت، وثقافته اتسعت، واهتماماته تنوعت عبر مراحل حياته إلا أن ما عبَّر عنه في هذا الكتاب من فكر، وما اتخذه من مواقف، وما طرحه من رؤى ظلت كما هي لم تتغير، وظل فكره في كل كتبه يدل على ايمانه بأشياء محددة لا يحيد عنها مهما كلفه ذلك من عناء، وقد دفع صلاح البكري ثمن ثباته على مبادئه مثله مثل غيره من أصحاب المبادئ لا يهمهم اتفق معهم الناس عليها أم لم يتفقوا لأن هذا أمرًا آخر.

وصل صلاح البكري الى القاهرة سنة ١٩٢٩م فتىً يافعًا في سن السادسة عشرة من عمره ضمن بعثة دراسية إلى مصر لحكومة الدولة القعيطية الحضرمية، وهو يحمل بين حناياه وطنه حضرموت وفخره بالمجد الذي حققه الحضارم في بلدان بعيدة جدًّا عن وطنهم حين نشروا الإسلام في تلك الأصقاع من الشرق الأقصى بالأمانة وحسن الخلق والقدوة الحسنة، وقلبه يجيش بآمال وطموحات يتمنى تحقيقها مع المستنيرين من أبناء جيله. ومن هنا انقدحت فكرة كتابة تاريخ حضرموت في ذهنه وهو بعدُ تلميذ في المرحلة الثانوية بالقاهرة إيمانا منه أن الطريق الصحيح إلى المستقبل الزاهر يبدأ من الوعي المستنير بالماضي والعمل الصادق المخلص في الحاضر.

في بداية العام الدراسي سنة ١٩٣٤م التحق صلاح البكري بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا) بكلية الآداب، وبدون تردد اختار قسم التاريخ بكلية الآداب، واختار صديقه علي أحمد باكثير قسم اللغة الإنجليزية. وفي القاهرة اتسعت مداركه وتعددت مصادر ثقافته، وأظهر اهتمامًا مبكرًا بتاريخ وطنه حضرموت وبتاريخ الحضارم في مهاجرهم وخاصة مهجرهم الأكبر إندونيسيا وطن مولده.

قرأ صلاح البكري ما كُتب عن تاريخ حضرموت، فوجد الكثير منه تغلب عليه النظرة الشخصية، ويبتعد بعض هؤلاء عن الرؤية الموضوعية لأحداث التاريخ. وتمنى أن يتصدى لكتابة تاريخ وطنه برؤية جديدة تخضع لمناهج البحث الحديثة، فبدأ بالفعل في تأليف كتابه الشهير (تاريخ حضرموت السياسي) قبل التحاقه بالجامعة، وكان اختياره لتخصص التاريخ تحقيقًا لهذه الأمنية. وقد شغله تأليف هذا الكتاب عن الاهتمام بدراسته في الجامعة، فلم يحصل على درجات عالية في السنة الأولى، لكنه أتم الجزء الأول من الكتاب، وصدر المجلد الأول في ٢١ مارس ١٩٣٥م عن المطبعة السلفية، ثم صدر الجزء الثاني عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده في القاهرة صيف سنة ١٩٣٧م وهو في السنة الثالثة بالجامعة، وفي الرابعة والعشرين من عمره، وهذا دليل نبوغه المبكر وسعة اطلاعه.

أثار الجزء الاول من هذا الكتاب ضجة من الخلاف حول بعض موضوعاته، ثم تضاعف الجدل والخلاف بعد صدور المجلد الثاني. وبصرف النظر عن الخطأ والصواب في الآراء التي اختلفت معه وحوله، فإنه أثار حراكًا ثقافيًا وبث وعيًا جديدًا داخل حضرموت وفي المهاجر الحضرمية دفع الكثيرين للاهتمام بتاريخ حضرموت والتصدي للكتابة عنه. ولو لم تكن لكتاب (تاريخ حضرموت السياسي) من حسنة إلا هذه لكفته، رغم أن هذا الكتاب يُعَدُّ الرائد

للكتب التي تعرضت لتاريخ حضرموت السياسي في العصر الحديث من حيث الأسلوب والمنهج.

ونأمل أن تقدم هذه الطبعة الجديدة المنقحة والمحققة للباحثين والدارسين ولأبناء هذا الجيل الذين افتقدوا كتب صلاح البكري في المكتبات بعد نفاد طبعاتها الأولى نموذجًا من الكتابة التاريخية الرائدة، والأسلوب الشيق الممتع لكاتب شق طريقه بجدارة واقتدار وسط الزحام متجاوزا كل الصعاب، وظل يقدم الكتاب تلو الآخر خدمة لتاريخ وطنه وفكر أمته وعقيدتها حتى استغرق ذلك الجهد والجهاد حياته كلها إلى آخر نَفَس فيها.. رحمه الله.

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده على ما أنعم، ونصلي ونسلم على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا يوجد في الكتب العربية وغيرها كتاب وافٍ بتاريخ (حضرموت) قبل الإسلام وبعده، ولسنا نعرف مِن المؤرخين وأصحاب السير والأخبار واحدًا أفرد كتابًا خاصًا في هذا الموضوع الذي نحن بصدده، وإنما هي نتف متفرقة، وشذرات مبعثرة في كتب كثيرة، لمؤلفين كثيرين من العرب والفرنجة، على أن هذه النتف يناقض بعضها بعضًا، ويخالفها من نواحي جمة، وبعضها يبالغ في وصفه القُصّاص، ويتجاوزون حد المعقول، لا سيما فيما يتعلق بالتاريخ القديم (عاد، وأقيال التابعة، وملوك حمير).

ولقد بذلنا جهودًا جبارة، وتكبدنا متاعب شاقة في غربلة تلك النتف وتصفيتها، وحذف ما لا يقبله العقل، ولا تثبته المراجع المعتمدة، والذي أوردناه منها أشرنا إلى عدم صحته، وأخذنا الخلاصة من ذلك وأبرزناها -بعد أن أضفنا إليها وثائق هامة من مذكراتنا التي لم تنشر بعد- في ثوب قشيب، وبأسلوب غير ممل، ليتيسر للجمهور الاطلاع على تاريخ حضرموت، وما جرى فيها من جلائل الحوادث، وما قاسته من فجائع الأهوال، والوقوف على تاريخ الأسلاف من الآباء والجدود، وما قاموا به من الأعمال العظام، وما تكبدوه من الخطوب الجسام.

فكتابنا هذا هو أوّل كتاب من نوعه في تاريخ (حضرموت) السياسي، فهو أول منارة أقيمت لهداية أولئك السارين الذين يريدون أن يعرفوا الشيء الكثير عن تاريخ حضرموت، وهو يعد خطوة لا بأس بها في تقدّم الحضرميين، ولقد التزمنا في كل ما كتبناه العدل والإنصاف، وقول الحقيقة بحذافيرها.

ويشمل (الجزء الأول) خلاصة جغرافية وجيولوجية حضرموت، وتاريخ عاد وأقيال التبابعة، وملوك حمير وحضارتهم، وما تركوه من الآثار والرسوم، ودخول الإسلام في حضرموت وكِنْدة الإسلامية، وهجرة الحضارم إلى بغداد ومصر والأندلس لطلب العلم، وإلى سواحل أفريقيا الشرقية وإلى الهند للتجارة. ويتحدث هذا الجزء عن هجرة آل باعلوي من البصرة إلى حضرموت، وعن إمارة نَهْد وآل راشد، ثم ظهور الدولة الكثيرية، فنشوء الدولة اليافعية، وما قام بينهما من الحروب.

أما (الجزء الثاني) فيشمل النزاع الذي حدث في العائلة اليافعية المالكة، وامتداد فتوحات يافع في البلاد السواحلية، وفي دَوْعَن وغيرها من البلاد الحضرمية. ويتحدث عن (معاهدة عدن) بين الدولتين اليافعية والكثيرية، وحرب الغُرْفَة، وعن المؤتمر الحضرمي بسنغافورة، وإخفاق مساعيه، ويتحدث عن نظام الدولتين السياسي، وعن الحالة الاجتماعية في الحواضر والبوادي، ويتحدث عن هجرة الحضارم إلى جزائر الهند الشرقية (إندونيسيا) وما قاموا به من الأعمال، وما حصل بينهم من النزاع والخلاف، ويتحدث عن القريين وأحوالهم الاجتماعية، وعن بني كثير في ظَفَار.

وأرى من الواجب أن أشكر السيدين الفاضلين D.Van Der Meuler و H. Van Wissmann فقد سمحا لي بأخذ بعض صور من كتابهما Hadramaut

الذي كتباه عن رحلتهما سنة ١٩٣١م، وأشكر أيضًا من الصميم السيد الفاضل O. H. Little الذي أخذت من كتابه The Geography and Geology of Makalla بعض صور، كما اعتمدت عليه في كلامي عن جيولوجيا حضرموت.

وإني لأرجو أنني بهذا الكتاب قد أديت بعض ما عليَّ من الواجبات الوطنية والفروض القومية.

والله أدعو أن ينفع به. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

القاهرة ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٥٣هـ

٢١ مارس سنة ١٩٣٥م **صلاح عبدالقادر البكري اليافعي**

مقدمة
الطبعة الثانية

على الرغم من مضي أكثر من عشرين عامًا على الطبعة الأولى لهذا الكتاب، فلم يقم كاتب بتأليف كتاب عن (تاريخ حضرموت) هذا الجزء من جنوب شبه الجزيرة العربية، الذي كان له القدح المعلى في إنشاء حضارة معين، وسبأ، وحمير، فكتابنا هذا (تاريخ حضرموت السياسي) لا يزال محتفظًا بالأولوية، ولقد انتشر والحمد لله في بلدان كثيرة، واحتل أماكن بارزة في المكاتب العربية والأجنبية.

ونحن إذ نشكره تعالى على هذا الفضل، لا ننسى أن نتقدم بالشكر الجزيل لحضرات القراء من العرب، ومن غير العرب، الذين أقبلوا بشغف على قراءة هذا الكتاب، حتى نفدت الطبعة الأولى.

والله نسأل أن يهيئ به النفع، وأن يجعل الجهد الذي بذلناه فيه خالصًا لوجهه الكريم.

القاهرة ذي القعدة سنة ١٣٧٦هـ	**المؤلف**
يونيه سنة ١٩٥٦م	**صلاح البكري**

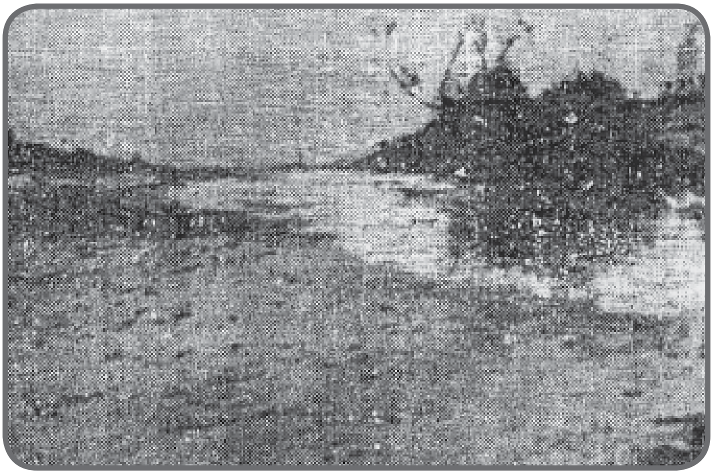
١- جغرافيا وجيولوجيا حضرموت

على بُعد خمس عشرة درجة عرضًا شمالي خط الاستواء، وخمسين درجة طولًا شرقي جرينوتش Greenwich وما بين ظَفَار شرقًا وعدن غربًا، ورمال الدهناء شمالًا والبحر العربي جنوبًا، تقوم سلسلة جبال صخرية جرداء، وبين هذه الجبال أودية فسيحة منبسطة متصلة ببعضها من جهات، ومقطوعة من أخرى، وتمتد هذه الأودية إلى الشمال حتى تبلغ ٤٩,٥ طولًا، ثم تنعطف نحو الجنوب، وتنتهي في سَيْحُوت عند خط ٥١ طولًا شرقي جرينوتش، وعلى امتداد هذه الأودية توجد المدن والقرى، وتأخذ المزارع مساحات واسعة من الأراضي، وأجود الأراضي الصالحة للزراعة هو الوادي الرئيسي بين الفُرْط وعِيْنات حيث تجتمع سيول الأودية العليا، وتنحدر إليه وتنبسط فيه، فتكسبه طميًا كثيرًا. وفي هذا الوادي الفسيح يزرع القمح في الشتاء، والذرة في الصيف بماء الآبار الارتوازية، والماكينات النازحة للماء، أما بقية الأودية الأخرى فيزرع فيها الذرة بماء المطر، لبعد ماء الآبار الذي لا يحصل عليه إلا على عمق ٣٥٠- ٤٠٠ قدم، وتستعمل للشرب.

وتشغل الكثبان الرملية مساحات كبيرة في طريق القبلة (اليمن) وبين عِيْنات وسَيْحُوت، وتهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، مشبعة ببخار الماء، فتصطدم أحيانًا في طريقها إلى الشمال بجبال الشواطئ، وتنزل هناك مطرًا، ولا يسقط المطر في الهضاب الداخلية إلا في النادر القليل، ولذلك فقد يشتد الجفاف في دَوْعَن وعَمْد ووادي العين وبلاد نَهْد وسَرْ وعِدِم. ويشتد البرد في الشتاء، وترتفع درجة الحرارة في الصيف، فيشعر الأهالي بلفح الحر الناتج من إشعاع سفوح الجبال الجرداء، ولا

يشعر المرء بالرطوبة ليلًا إلا على الجبال المكشوفة، والجو جاف وملائم للصحة، وفي الصيف تهب ريح ساخنة يقال لها (السَّموم)، وهي تساعد على إنضاج البلح.

ويمتد الإقليم الساحلي من عين بامَعْبَد غربًا إلى سَيْحُوت شرقًا، وهو عبارة عن شكل غير منتظم، مساحته نحو ٤٥٠٠ كيلو متر مربع، وهو يمتد في الداخل إلى مسافة ٨٠ كيلو مترًا من رأس الكلب، وعشرين كيلو مترًا عند الحدود الشرقية، وأعلى نقطة فيه تقع في وسطه، وارتفاعها ٢١٨٧ مترًا، وهي تتدرج نحو الشاطئ شرقًا وغربًا، وتتراجع في الوسط، فتضم بينها سلاسل جبلية، احتفرت الأنهار لنفسها فيها وديانًا إلى البحر، وعلى امتداد الوديان توجد متسعات من الأرض بها بعض المزروعات، ولكن الإقليم على وجه العموم يتكون من تلال ومنحدرات جرداء، وتتدرج سفوح التلال نحو البحر مكوّنة رؤوسًا فيها طبقات من الرواسب النهرية.



نهر حَجْر

ومن الظواهر الطبيعية في هذا الإقليم، ذلك النهر (نهر حَجْر) الذي يصب بالقرب من رأس الكلب، ويكون دلتاه إقليم مَيْفَع الخصيب، وهو يشق طريقه في ثلاثة خوانق، وعلى امتداده توجد قرى بها أكثر مساحة ممكنة من الأراضي

الزراعية، وكل مياه الإقليم تنصرف في البحر، حتى تلك الأودية التي تسير في شمال الهضبة الغربية، إذ تصب في وديان عرضية عميقة حفرت لنفسها طريقًا إلى البحر وكل الوديان متوازية تقريبًا، وهي تمتد لمسافة تتراوح بين عشرة وعشرين كيلو متر عند منتهاها بين خطَّي عرض ٣٥ْ، ٤٠ْ، والوديان ملأى بالصخور المهشمة، وترتفع تدريجيًا، وتصبح حافاتها شديدة الانزلاق، ثم تعترضها جنادل وخوانق، ثم تخترق عدة عقبات متتالية، ويبلغ ارتفاع سفح العقبة من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ متر، وقمتها من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ متر، وعند رؤوس بعض الوديان توجد كميات من المياه يحفر لها الناس القنوات على جانبي الوادي إلى مسطحات من الأرض، وبعد ري هذه المسطحات تغوص المياه في باطن الأرض، ثم تظهر بعد مسافة طويلة، إما من تلقاء نفسها، وإما بحفر آبار تتباين أعماقها، وقد يبلغ عمق البئر ٤٠ مترًا.

وتوجد بين عين بامَعْبَد وبُرُوم تعريجات عديدة ترسو فيها القوارب، ولكنها غير صالحة في إبان هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية. وفي المُكَلَّا إلى الشِّحْر يصبح الساحل رمليًا، ويتدرج نحو البحر. وميناء المُكَلَّا عميق هادئ صالح لرسو السفن، أما ميناء الشِّحْر فضحل.

وفي ديسمبر ومايو تهب الرياح على البر غالبًا من الشمال الشرقي، وعلى طول الساحل يشعر المرء بنسيم البر والبحر، ويمتد تياره إلى بضعة كيلو مترات داخل الوديان، ويشتد البرد عند ارتفاع ١١٢٠ مترًا، ويعتدل عند ارتفاع ٢٥٠ مترًا. وفي شهر مارس تصبح أشعة الشمس محرقة للغاية، والجو جاف ملائم للصحة في أعلى الهضاب، والمنطقة الوحيدة التي فيها خطر على الصحة هي منطقة مَيْفَع المليئة بالبعوض. والتغير في الطقس بين الساحل وداخل الوديان محسوس جدًا، ودرجة الحرارة في الظل في الظهيرة مرتفعة، سواء على الساحل أو على الجبال، ولكن

درجة الحرارة في الليل تنخفض كثيرًا. وفي مدينة المُكَلَّا يبلغ أدنى حد لدرجة الحرارة في شهر مايو ٦٥ْ فرنهيت. والليل في الوديان أرطب منه على الساحل، وفي بعض الوديان يهب ريح ساخن طول الليل.

الجيولوجيا الطباقية (STATIGRAPHICAL GEOLOGY)

الصخور الرئيسية للإقليم نارية مركبة، تعلوها طبقة من الحجر الجيري من العصر الجوارسي (Jurassic)، ثم تليه طبقة من الصخر من العصر الطباشيري (Cretaceous)، ثم قشور إردوازية (Shales)، وتتلو الطبقة الطباشيرية طبقة من الحجر الجيري من عصر الأيوسين (Eocene) مختلطة بصخور من الحجر الرملي من عصر الأوليجوسين (Oligocene)، وصخور إردوازية، ويوجد الطَّفل الجبسي في الأحواض، وتتكوَّن الطبقات الحديثة من الطمى والرمل، وفي الوديان تتكون الرواسب الغرينية في فتات الصخور الرملية الأيوسينية والطباشيرية. وفي بعض الجهات تتكوَّن من فتات الصخور النارية والمتحولة، وبقرب رؤوس أغلب الوديان، تصبح هذه الرواسب ناعمة، وتتكوَّن أراضي مَيْفَع الزراعية من طَفل رملي عبارة عن خليط من الرواسب النهرية والرمل الذي تسفيه الرياح، وعلى بعد مسافة قصيرة من البحر يصبح قاع الوديان، وكذلك مجاري المياه ملآنة بالصخور، وعلى طول الساحل تسفي الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الرمل على التلال، وعلى الأخص عند رأس رحيمة ورأس شهابة، حيث لا تظهر إلا قممها النارية على ارتفاع ٤٠٠- ٥٠٠ متر، وفي الوديان تتراكم الرمال، وتشغل الكثبان الرملية مساحة قدرها ٢٠٠ فدان، ولقد أثرت في أغلب سهول مَيْفَع، فقلَّت الأراضي الصالحة للزراعة.

عصر البليوسين (Pliocene):

في وديان ومنخفضات الإقليم الساحلي توجد قطع مستديرة من الحجر الجيري المتبلور، وفتات الصخور النارية، وهي توجد في طبقات من العصر الجوراسي

والطباشيري، والأيوسين، والأولجوسين بدون توافق، وفي واد صغير جنوب كَنِيْنَة توجد حفريات من عصر الميوسين، وهي تتكوَّن من:

طبقة من الحجر الجيري الأصفر	ارتفاعها ٣ أمتار
طبقة من الإردواز الأخضر	ارتفاعها ٥ أمتار
طبقة من حجر جيري أصفر بها هذه الحفريات	ارتفاعها ٣ أمتار

وهذا الحجر الجيري الأصفر أحدث تكوينًا في طبقة الجبس التي يبلغ ارتفاعها ٦٠ مترًا، وتكوِّن التَّلّ القائم شمال كَنِيْنَة. وفي وادي حويرة توجد تحت سطح الأرض طبقة من معدن اللجنيت (Lignite) كثافتها ٣٠ مليمترًا، وبها بعض القار في حجم راحة اليد، وبها حفريات من فصيلة ملانيا توبر كبولا تامولروزونيكوس. وفي وادي الحرشيات توجد طبقات من الحجر الجيري، وحبيبات دقيقة من الكوارتز والفلسبار. وفي وادي واسط عند سفح جبل شَرْج باسليم توجد طبقات جيرية. وفي غرب فُوَّة توجد مدرجات مكوّنة من صخور نارية، كما توجد أيضًا عند ملتقى وادي واسط بوادي كلبوت. وفوق الحجر الجيري الذي يرجع إلى عصر الأيوسين الوسيط، سلاسل من الطبقات تبلغ كثافتها نحو ٢٠٠ متر، وهي ملوَّنة تلوينًا خفيفًا، وتتكون هذه الطبقات عند قاعدتها من حجر جيري أبيض أو أصفر، وحجر رملي باهت الصفرة، وفي نهايتها تتكون طبقات جبسية وطفيلية تبلغ كثافتها ٥٠٠ متر، وقد وجدت بعض حفريات ونظام الطبقات من مصبّ النهر عند نَيْفَع إلى جول باحاوة ومنها إلى كَنِيْنَة ثم جبل كساي إلى المُكَلَّا كما يأتي:

في مَيْفَع توجد طبقات من الصخر الرملي المسامي، وفي نَيْفَع تتكون الطبقات من الحجر الجيري، وطبقات من الإردواز الأحمر، أو الأصفر، والحجر الرملي الأسود، ثم طبقات من عصر الميوسين مكوّنة من طبقات جبسية بيضاء.

وفي جزول طبقات مكوّنة من الجبس، ونظام الطبقات هي كما ذكره الأستاذ العلامة لتل (O.H. Little)[(١)]:

طبقة من عصر البليوسين الجيرية	كثافتها من ٥ إلى ٣٠ مترًا مربعًا.
طبقة من الجبس من عصر الميوسين	كثافتها من ١٠ إلى ١٥ مترًا مربعًا.
مارل أبيض من عصر الميوسين	٣٠ مترًا مربعًا.
جبس أخضر أو أصفر من عصر الميوسين	٢٠ مترًا مربعًا.
حجر رملي داكن من عصر الأوجوسين	١٠ أمتار مربعة.
جبس	٣٠ مترًا مربعًا.
حجر جيري أبيض مختلط بالمارل	٣٠ مترًا مربعًا.
جبس عديد الألوان	٥٠ مترًا مربعًا.
حجر جيري أبيض من	٢٠ إلى ٨٠ مترًا مربعًا، ثم حجر

جيري من عصر الأيوسين.

كَنِيْنَة: يوجد في شمال كَنِيْنَة جبس كثير يمتدّ مسافة عظيمة، كوَّن تلالًا ارتفاعها ٥٠٠ متر، وعلى بعد كيلو متر يوجد بقعة من الحجر الجيري الأصفر محتوية على حفريات ترجع إلى عصر الميوسين، ويوجد هناك عقبة على قمتها مخروط من الجبس كثافته ٦٠ مترًا على طبقة من الصخر الأصفر الإردوازي كثافتها ٥٠ مترًا. وفي وادي مريرة (في حجْر) يوجد حفريات ترجع إلى عصر الأولجوسين، وعلى مقربة من مريرة يوجد وادٍ يتصل بوادٍ آخر به نماذج كثيرة من الحفريات التي ترجع إلى عصر الأولجوسين.

(١) في سنة ١٩١٩م طلبت الحكومة القُعَيْطية اليافعية إلى الحكومة المصرية أن ترسل إليها مندوبًا ليعمل مساحة تفصيلية عن المنطقة الواقعة بين المُكَلَّا وحجر، ويبحث عن المعادن فيها، فأوفدت العالم الجيولوجي الأستاذ O.H.Little فنشر تقريرًا وافيًا بالإنجليزية، طبع في مصر سنة ١٩٢٥م.

ونظام الطبقات هو كما ذكره الأستاذ لتل:

حجر جيري رمادي اللون	كثافته ٤٠ مترًا
جبس أصفر به حجر جيري داكن	كثافته ١٥ مترًا
حجر جيري رمادي	كثافته ٥ أمتار
حجر جيري أبيض به حفريات	كثافته ١٠ أمتار
حجر جيري داكن به مارل أبيض	كثافته ١٠ أمتار
إردواز أصفر مخطط	كثافته ٥ أمتار
طبقات إردوازية مخططة بها طبقات من الحجر الجيري	كثافته ١٠ أمتار
كتل من المارل الداكن	كثافته متران
حجر جيري أبيض به ثقوب كثيرة	كثافته ٣ أمتار
إردواز أصفر مخطط	كثافته ٥ أمتار
حجر جيري أبيض به مارل وحفريات	كثافته ٥ أمتار
حجر جيري رمادي من عصر الأيوسين	كثافته ٥ أمتار

وفي جنوب وشرق الحراشيات تمتد طبقات ميوسينية بحسب النظام الآتي:

طبقات إردوازية جبسية وطفلية	كثافتها ٥ أمتار
حجر جيري أبيض به مارل	كثافته ٥ أمتار
إردواز أبيض	كثافته متران
إردواز أحمر وأصفر	كثافته ٣ أمتار
إردواز مخطط أصفر وأبيض	كثافته ٥ أمتار
حجر رملي ناعم أحمر وأبيض	كثافته ٥ أمتار

وإلى الشمال عند المستنقعات الواقعة غرب ثلا السفلى توجد منطقة بها طبقات كثافتها ٨٠ مترًا، وفي غيل باوزير توجد طبقات إردوازية صفراء وبيضاء.

عصر الأيوسين (Eocene):

توجد في المُكَلَّا مرتفعات عمودية ترتفع عن سطح الوادي ٥٠٠ متر، وتتكوَّن طبقاتها العليا من صخور من عصر الأيوسين الوسيط، تُغطى بطبقة من الحجر الرملي من العصر الطباشيري، وفي بعض الأماكن التي تظهر فيها قاعدة هذه الطبقات توجد تحتها صخور نارية، وفي أماكن أخرى يوجد عدم توافق إذ توجد بين الصخور الرملية والنارية طبقة من الصخور الإردوازية بها حفريات من العصر الجوراسي، وتتكوَّن الطبقات العليا في جبل شرج باسليم من كتل ضخمة من الحجر الجيري المتبلور المختلط، به رخام أبيض وأحمر، فوق عروق حجر جيري رملي، به عروق من الحجر الجيري المتبلور كثافتها ١٠ مليمترات، ترجع إلى عصر الأيوسين الحديث، ويكوّن الحجر الجيري الأيوسين الوسيط سطح الهضاب في الداخل، وهو شديد الصلابة، يقاوم الالتواء، فيه عيوب كثيرة.

العصر الطباشيري (Cretaceous):

تحت الحجر الجيري طبقات من الحجر الرملي كثافتها ٥٠٠ متر، وهي ذات ألوان متباينة، ولكن يغلب عليها اللون الأحمر، وتوجد بينها عروق من الكوارتز ملتصقة ببعضها، وقد توجد بها طبقات إردوازية محتوية على مركبات فحمية أو لجنيتية، ونظام الطبقات هو كما ذكره الأستاذ لتل:

طبقة من الحجر الجيري من عصر الأيوسين الوسيط، تتراوح كثافتها بين ١٠٠، ٣٠٠ متر.

طبقة من الحجر الرملي تتخللها عروق من الحجر الجيري، تتراوح كثافتها بين ٢، ٢٠ مترًا.

طبقة إردوازية تتخللها طبقات رملية أو لجنيتية من ٥ إلى ٢٥ مترًا.

حجر رملي به إردواز جرفته السيول من ١٠ إلى ٢٠ مترًا.

حجر رملي صلد من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ متر.

وتوجد بعض حفريات مشوهة من الطبقات الإردوازية ترجع إلى العصر الطباشيري، وتوجد حفريات في وادي عروس، وتوجد طبقات من الحجر الرملي على جانبي الوادي تكوّن جزرًا فوق سطح الطبقة الجيرية، بها بعض حفريات ترجع إلى العصر الطباشيري القديم، ووسطها وقمتها من العصر الطباشيري الحديث.

العصر الجوراسي (Jurassie):

على الشاطئ الجنوبي للنهر عند نَيْفَع توجد حفريات في منطقة يبلغ ارتفاعها ٤٠ مترًا، وتتكوَّن المنطقة من صخور جيرية قائمة، وإردواز وصخور زيتية. وشرق حصن باقروان توجد بعض حفريات جيوراسية أيضًا، ترجع إلى العصر اللويزيتاني، وعلى بعد ٤ كيلو مترات في ملتقى وادي عروس حفر الأستاذ العلامة لتل حفرة نصف متر فوجد في قاعها صخور زيتية بها حفريات مشوَّهة، ونظام طبقات هذه المنطقة هو كما ذكره الأستاذ لتل:

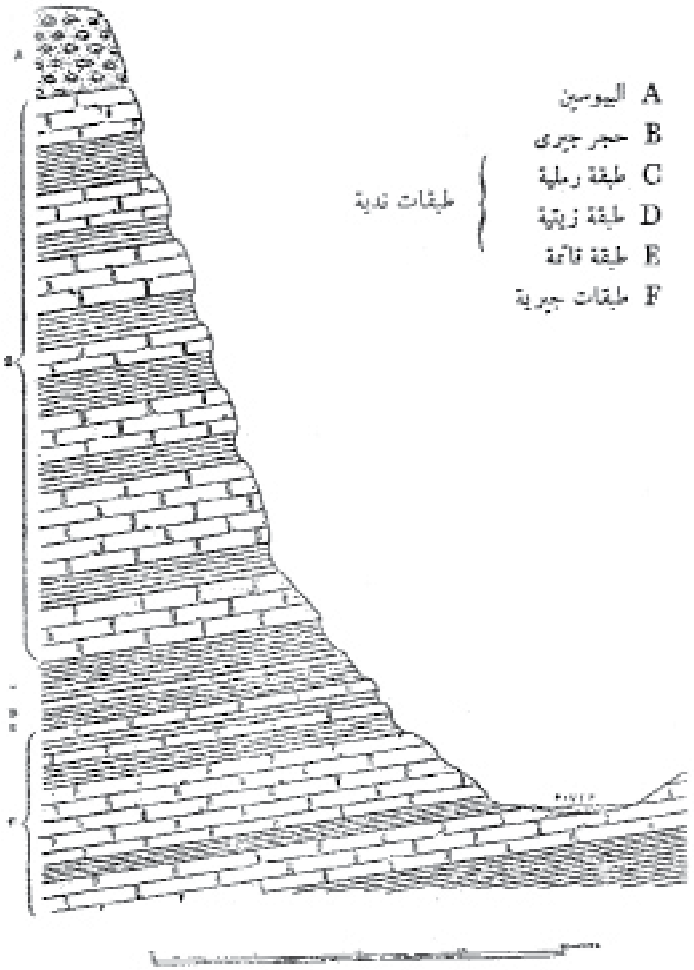
(١) طبقة من الحجر الرملي بني مائل إلى السمرة من العصر الطباشيري، كثافتها ٢٠ مترًا ب (أي مربعًا).

(٢) إردواز أخضر وأزرق طباشيري، كثافتها من ٢ إلى ٥ أمتار ب.

(٣) حجر جيري أصفر مائل للسمرة به حفريات من العصر الطباشيري القديم، كثافتها من ٣ إلى ٥ أمتار ب.

(٤) إردواز أصفر ربما كان من العصر الجوراسي، كثافتها ٢٠ مترًا ب.

(٥) حجر جيري رمادي، ربما كان من العصر الجوراسي، كثافتها ١٠ أمتار ب.



مقطع كهف

في الشاطئ الجنوبي لنهر نَيْفَع

(٦) حجر جيري أبيض، ربما كان من العصر الجوراسي، كثافته ١٠ أمتار ب.

(٧) إردواز أبيض به مارل، ربما كان من العصر الجوراسي، كثافته ٢٠ مترًا ب.

(٨) عروق من الحجر الجيري الأبيض من العصر الجوراسي، كثافتها ٣٠ مترًا ب.

(٩) حجر جيري أصفر وإردواز من العصر الجوراسي، كثافته ٣٠ مترًا ب.

(١٠) إردواز كلس وحجر جيري به فحم، وقمته مكوّنة من صخور زيتية من العصر الجوراسي، كثافته أكثر من ٢٠ مترًا ب.

وتشبه الطبقات ٥، ٦، ٧، ٨ الطبقات الجوراسية التي بالقرب من حصن باقروان، وربما كانت الطبقات ٩، ١٠ تشبهان الصخور الزيتية في نَيْفَع، وطبقة الحجر الجيري التي تكوِّن سطح المنحدر عند سفح جبل الدعلية، وجبل الغبر، ورأس العقبة؛ تشبه الطبقة الجيرية التي ترجع إلى العصر الطباشيري القديم في وادي عروس، وعند رأس العقبة يبلغ ارتفاع الطبقة الجيرية ٨١٥ مترًا، وتفصلها عن الصخور النارية طبقة من الحجر الرملي كثافتها ٢٠ مترًا. وفي جبل الدعلية يبلغ ارتفاعها ٧٠٠ متر، ويفصلها عن الصخور النارية طبقة من الحجر الرملي كثافتها من ٣٥ إلى ٥٠ مترًا، وطبقة من الإردواز والحجر الجيري كثافتها من ١٠ إلى ٢٠ مترًا. وبالقرب من حصن باقروان طبقة يبلغ ارتفاعها ٤٥٠ مترًا، وتفصلها طبقة من الإردواز والحجر الجيري كثافتها ١٣٠ مترًا، ثم طبقة من الحجر الرملي كثافتها ٢٠ مترًا. وعند وادي عروس يبلغ ارتفاعها ٥٠٠ متر. وتفصلها طبقة من الحجر الجيري الإردواز كثافتها ١٥٠ مترًا، ولكن لا يوجد بها حجر رملي.

الصخور المتبلورة:

تمتدُّ الصخور النارية المركبة في كتل من الشاطئ إلى الداخل مسافة ٤٥ كيلو مترًا، وقد نحتت الطبقات الجوراسية أو الطباشيرية القديمة التي تعلوها، وأصبحت تكوِّن مرتفعات منعزلة، وهي تتكوَّن من صخور حمضية نارية متداخلة في صخور قديمة، وفي بعض المنخفضات في حوطة فخيذة على طول الوادي توجد صخور متحوِّلة، وتوجد تلال نارية إلى الجنوب والغرب من بُرُوْم، كما توجد صخور جرانيتية شرق النهر، ويوجد الجرانيت على طول قاعدة حصن باقروان وغرب

فوَّة، وفي جبل جرز، وجبل الحمار، ووادي فحمة، وجبل جريس، وجبل عسلات. وفي قاع الوادي على مقربة من ثلا العليا يوجد بازلت مختلط بالبيريت المحتوي على عروق من الجرانيت الناعم. ويتكون رأس المُكَلَّا من الدريويت والبازلت المحتوي على عروق من الجرانيت الناعم، ويكوِّن البازلت القمم الواقعة شمال شرقي رأس بُرُوْم، وبه بعض عروق من الجرانيت الناعم. ويوجد البازلت أيضًا في يمين وادي الغبر.

الجيولوجيا الاقتصادية (Economic Geology):

يوجد في جبال الشواطئ نحو خمسين نوعًا من المعادن: منها اللجنيت، الأحجار الزيتية، الكحل، القار البيريت (ويظنونه ذهبًا)، النحاس. ولكن بعض هذه المعادن قليل الفائدة، والبعض الآخر لا يوجد منه إلا مقادير قليلة. وأهم هذه المعادن معدن اللجنيت Lignite وهو في جبل كسعى، وجبل دعلية، وبالقرب من أسفل العين. وتتراوح عروقه المعدنية ما بين نصف متر ومترين، ويوجد أيضًا في جبل المُكَلَّا، وهو يشتعل بلهب أزرق لامع، وله رائحة كبريتية، ويبيضّ لهبه بعد ساعة، ويتصاعد منه دخان، ثم يصبح بعد بضع ساعات أزرق باهتًا، تنبعث منه رائحة أول أكسيد الكربون، ويوجد كثير منه في أسفل العين على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر، وقد صعد إلى هذه المنطقة الأستاذ لتل، فوجد اللجنيت مختلطًا مع غيره من المواد الغريبة، وإليك عدد الطبقات التي ذكرها:

طبقة من الحجر الجيري من عصر الأيوسين المتوسط	كثافتها ١٥٠ مترًا
طبقة من الحجر الرملي الأحمر الداكن	كثافتها ٢٠ مترًا
طبقة من الحجر الرملي الصلب	كثافتها ٣ أمتار
طبقة إردوازية صفراء قاتمة	كثافتها ٣ أمتار

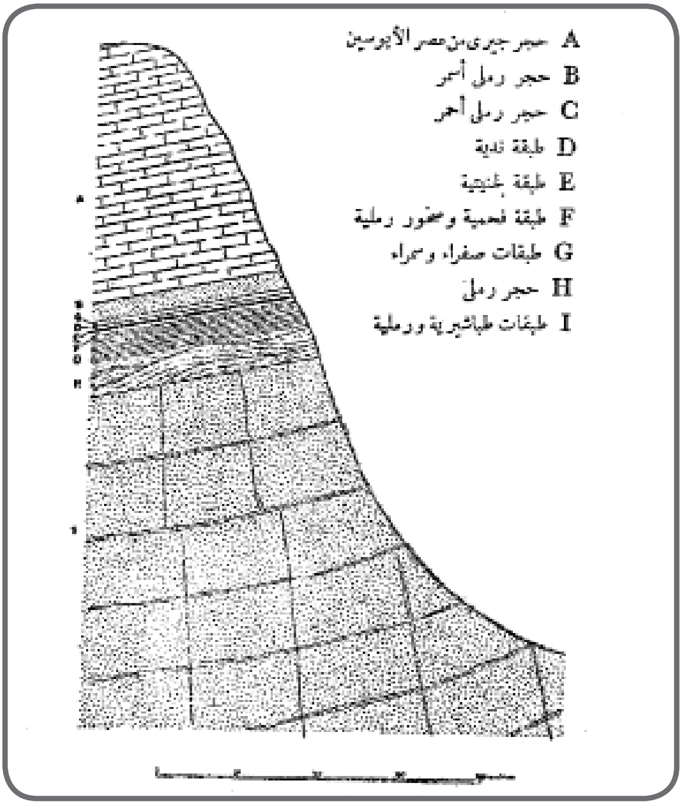
طبقة من الطفل الأزرق الرطب بها عروق الشبّ كثافتها ١١٠ سنتمترات

طبقة من اللجنيت كثافتها من ٣٥- ٥٠ سم

طبقة من الحجر الرملي الرطب من العصر الفحمي كثافتها ١٠ سنتمترات

طبقة من الحجر الرملي الرطب من العصر الفحمي في أعلاها عروق من البيريت الحديد كثافتها متران

قشور صخرية صفراء وزرقاء ورمادية كثافتها ١٥ مترًا



طبقات لجنيتية

في كهف بأسفل العين

صخر رملي كثافته ٢٠ مترًا.

قمة عالية من الحجر الرملي الصلب كثافتها ٢٠٠ متر.

أما في جبل كسعى فيوجد في منطقة ترتفع ١٥٣٠ مترًا عن سطح البحر، وهذه المنطقة مكوّنة من لجنيت أسود كثافته متر ونصف، وبه عروق من الجبس والشبّ الأصفر والأبيض وبعض بقايا نباتية، وهو يقع فوق طبقة كثافتها نصف متر من حجر الصابون غير النقي، وفوقها طبقة كثافتها متر ونصف من الطفل الأزرق.

ولقد بعث السلطان المرحوم غالب بن عوض القُعَيْطي في سنة ١٩١٩م بعض عبيده إلى جبل كسعى وأسفل العين؛ ليبحثوا عن تلك المعادن الثمينة، ولكن لم يكن بينهم خبير بعلم الجيولوجيا، فعادوا إلى المُكَلَّا بنماذج قليلة.

ويوجد اللجنيت أيضًا في جبل الدعلية كثافته تتراوح بين متر ومترين، وهو أسمر قاتم، ولكن سطحه لامع وهو صلب متماسك، ويحصل على عمق ٣٠ مترًا، وتغطِّيه طبقة من القار، وبالقرب من ثلّا العليا توجد طبقة من اللجنيت كثافتها ٢٥ سنتمترًا قليلة الامتداد بين طبقات من الرمل. وفي غرب قرية السبيخات توجد منه مقادير وافرة. وبالقرب من البقرين على بعد ٢٠٠ متر غربي صهريج المُكَلَّا يوجد اللجنيت في طبقات التوائية، وهي مقسمة إلى كتل يفصلها طَفَل أزرق ندي. وعلى بعد كيلو متر غرب كلبوت توجد تحت الطبقات الجيرية سلاسل من القشور المعدنية بها بقايا فحمية، وطبقتان من اللجنيت، وعلى بعد كيلو مترين غربًا تظهر سلاسل إردوازية وعرقان من البقايا الفحمية. وعلى مقربة من قرية عدود توجد طبقة مكوّنة من الإردواز الفحمي، وكثافتها من ٤٠- ٥٠ سنتمترًا، وفوقها طبقة زرقاء بها عروق من الجبس. وفي وادي حويرة بالقرب من غيل باوزير توجد طبقة من اللجنيت مختلطًا بالقار والجبس.

الطبقات المحتوية على الزيت (Oil Shales):

في نَيْفَع وفي وادي عروس توجد بقاع بها صخور محتوية على الزيت، وقد اختبر نموذجًا منها الأستاذ لتل، فوجدها مكوّنة من المواد الآتية:

٢, ١٪ ماء.

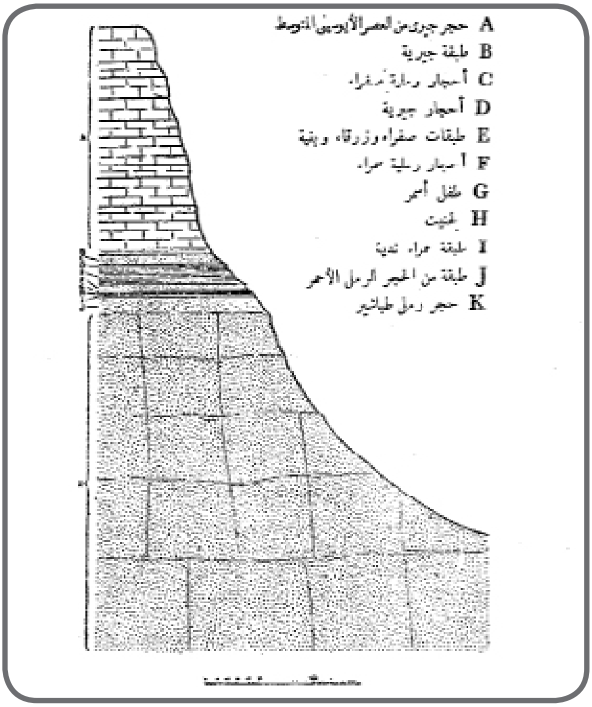
٨, ١٤ ٪ كربونات.

٢, ٤٪ من المواد القابلة للاشتعال.

٨, ٠٪ كربون نقي.

٧٩٪ رماد.

واختبر عينة أخرى من وادي عروس فوجدها تحتوي على المواد الآتية:



طبقة لجنيتية
في جبل كسعى

٦, ٠ ٪ ماء.

١٦٪ كربونات أو ثاني أكسيد الكربون.

١٠ ٪ من المواد القابلة للاشتعال.

٢, ١ ٪ كربون.

١, ٧٢ ٪ رماد.

وفي جبل الدعلية يسيل القار من الشقوق من الطبقة العليا التي تغطي اللجنيت. وعلى بعد ١٢٠ كيلو مترًا من المُكَلَّا توجد صخرة كبيرة يسيل منها القار والأسفلت. وفي الصَّدَارَة يوجد حجر جيري مختلط بطَفَل يدل على وجود الزيت.

معدن الراتينج (Resin):

يوجد هذا المعدن في طبقات اللجنيت في ثلا العليا والسبيخات وبين كلبوت ومذينب، ويختلف لونه بين أصفر باهت وأحمر قاتم، وهو يوجد مع القار أو مع قشور اللجنيت، ولا يذوب في الكلوفورم.

الملح الصخري (Roek Salt):

يوجد منه جبل بأكمله في الصَّدَارَة، بلوري اللون، به بعض القار.

القار والحجر الرملي القاري (Bitumen And Bituminous Sandstone):

يوجد في الصَّدَارَة، وقد حلل عينة منه الأستاذ لتل، فوجدها تحتوي على النسبة المئوية الآتية:

٩٦٪ من القار القابل للذوبان.

٣, ٧٪ من الكربون.

٣٪ من بقايا معدنية مكوّنة من بترول متأكسد.

وحلل الأستاذ لتل عينة أخرى فوجدها كما يأتي:

١,١٩٪ من القار.

٤,١٪ من الكربون.

٥,٧٩٪ من بقايا معدنية، وهذه تحتوي على:

٨,٨٠٪ من السليكا.

٢,١٩٪ من أكاسيد الحديد والأيومينوم والمنجنيز، وهذا يدل على أن هناك بترولًا.

نترات البوتاسيوم (Potassium Nitrate):

في غرير على مقربة من مذينب عند سفح جبل السكيدة توجد نترات البوتاسيوم تحت طبقة من الطَّفَل الأحمر الضارب للسمرة، كثافتها متر، حلل عينة منها الأستاذ لتل (O.H. Little) فوجدها تحتوي على المواد الآتية:

٩٧٪ من نترات البوتاسيوم.

٣٪ من الكبريت والكلور.

والبدو هناك يستعينون به لعمل البارود، وذلك بأن يأخذوا رطلين منه ويذيبوهما في الماء ثم يعرضوهما لحرارة الشمس ليتبخرا، ثم يستعملون المادة المتخلفة لعمل البارود.

الهيماتيت (حجر الدم) (Hoematite):

يوجد هذا المعدن في رأس العقبة وفي جبل سقيفة مختلطًا بالميكا على هيئة عروق في الصخور النارية، وقد حلل عينة منه الأستاذ لتل (O.H .Little) فوجدها تحتوي على أكسيد الحديد والسليكا والكربون والنحاس، ونسبة الحديد فيها ٧٦,٥٣٪. واختبر عينة أخرى من جبل الدعلية فوجدها تحتوي على ٨,٤٤٪

من الحديد، ٧, ٥٪ من النحاس. وعينة ثالثة من جبل سقيفة فوجدها تحتوي على ٨٨, ١٣٪ من الحديد، و ٤٦, ١٪ من النحاس.

المنجنيز (Manganese):

يوجد ثاني أكسيد المنجنيز في وادي اللقم، وفي جبل يكور بالقرب من جزول مختلطًا بالحديد، وهو يحتوي على ٦, ٧٤٪ من ثاني أكسيد المنجنيز.

الشب (Alum):

يوجد بكثرة في طبقات من اللجنيت متحللًا ومتبلورًا ذا ألوان، ويحتوي على كبريتات الحديد والصودا والمغنسيوم.

البوكسيت (Bauxite):

يوجد هذا المعدن في جبل عرنوف الديك، كثافته متر، ولونه أبيض، وهو إما مسحوق وإما كتل هشة، وهو يحتوي على ٤٦٪ من الأليومينا، وبه كميات من الحديد والجير والمغنسيوم والبوتاسيوم والسليكا.

الحجر الجيري والرخام (Limestone And Marble):

يوجد في جبل القارة وشرج باسليم رخام أبيض أو داكن مشوب بحمرة.

الجبس والأنهيدريت (Gypsun And Anhydrite):

يوجد الجبس والأنهيدريت في مناطق كثيرة أهمها كَنِيْنَة.

حجر الصابون (Soapstone):

يوجد بكثرة في جبل القارة، ويوجد في طبقة محصورة بين طبقتين من الحجر الجيري، وكثافته ٣٠ سنتمترًا، وعند استخراجه يكون ناعم الملمس ذا لون أخضر باهت، وكلما مضت عليه مدة من الزمن زادت صلابته وبهت لونه، وإذا وضع في الماء يذوب ويتحلل ويزداد حجمه إلى الضعف، وهو يباع في سوق المُكَلَّا كمطهر،

وقد حلل الأستاذ لتل عينة منه فوجده يحتوي على النسب المئوية الآتية:

٦ , ٥٣٪ من السليكا.

٦ , ٢١٪ من الأليومينا.

٦ , ١٪ من أكسيد الحديد.

٤ , ٢٪ جير.

٨٧ , ١٪ منجنيز.

٩٣ , ١٨٪ مواد عضوية وماء.

ويوجد هذا المعدن أيضًا في جبل كسعى تحت اللجنيت، ويمتاز عن الأول بصفات، فهو لين، وعندما يجفّ يصبح ناعم الملمس، وإذا أمررته على قماشة أو ورق لوّنه، ويتحلل ببطء في الماء دون أن يزيد حجمه.

التاريخ الجيولوجي (GEOLOGICAL HISTORY)

لخص العالم الجيولوجي الأستاذ لتل (O.H.Littrle) تاريخ إقليم الشواطئ الجيولوجي في صفحتين بالإنجليزية، وهذه خلاصة الترجمة:

«ترجع الصخور التي لا تحتوي على حفريات إلى العصر الأركي، وكانت تكوّن السطح، ثم نحتت وتحوّلت إلى سهول في العصر الجوراسي القديم، ثم طغى عليها الماء تدريجيًا، فخلف عليها طبقة من الحجر الرملي والأصداف، قبل أن تتكوّن الصخور الجيرية في العصر الجوراسي الوسيط، وإلى شرق حصن باقروان تحتوي هذه الصخور الجيرية على حفريات حيوانية تعيش في البحار الضحلة، ولهذا يظنّ أن الحد الشرقي للمسافة التي طغى عليها البحر كان عند جبل الدعلية، وإلى شرق هذه المنطقة توجد طبقة صغيرة ربما كانت في العصر الجوراسي، وبعض صخور جيرية في وادي ريزبات، ولا يعرف الحدّ الشمالي للمساحة التي طغى عليها البحر؛

لعدم وجود حفريات جوراسية جنوب العيب الواقع قرب كَنِيْنَة، وفي هذا العيب توجد طبقات من العصر الطباشيري القديم. ولما كانت الصخور النارية معدومة في هذه المنطقة، فمن المستحيل تحديد هذا البحر الجوراسي من الشمال، وإذا كنتُ لم أجد ما يدلّ على أنه كان يمتد شمال جبل مكب أو الكار؛ فإني استنتجت أن عمقه أخذ يزداد نحو الجنوب والجنوب الغربي حتى نيفا ووادي عروس. ويدل تناقص كثافة الطبقات التي تقع بين الحجر الجيري من العصر الطباشيري القديم، وبين الصخور النارية كلما اتجهنا شمالًا على أن البحر أخذ ينحصر في العصر الجوراسي والطباشيري القديم، بينما أخذت الصخور الجيرية والجوراسية الصلدة ترسب على كل السطح، ثم أخذ اللجنيت يتكون في مستنقعات في العصر الطباشيري الحديث أو الأيوسين القديم، ثم تلت ذلك فترة أخذ البحر يتذبذب فيها، ثم غمر المنطقة كلها بماء عميق رسبت فيه الصخور الجيرية الأيوسينية، وأخذ البحر يعلو تدريجًا، ثم أخذ ينحسر، وفي فترة تكوّنت فيها الصخور الجيرية المحتوية على المارل في عصر الأوليجوسين، ثم أخذ يتذبذب، وتحصل عدة التواءات بسيطة في عصر الأوليجوسين وطوال عصر الميوسين. وربما كان تكوين السلسلة الجبلية الرئيسية الموازية للساحل راجعًا إلى هذا العصر، وفيه تكوّنت برك أرسيت فيها الصخور الجبسية، ثم تلت ذلك مدة من الارتفاع والانحسار والتذبذب رجعت فيها هذه البرك، فتكوّنت منها منخفضات جزول وجول باحاوة وكَنِيْنَة، وفي عصر البليوسين ظهرت العيوب. وإلى الجنوب الشرقي من الالتواء تكوّنت عدة أحواض، أحدها تقع فيه نيفع ومَيْفَع، والآخر يمتدّ في فوة مخترقًا المُكَلَّا إلى الحَرْشِيَّات، وثالث صغير حول الريشة. وفي عصر البليوسين -ولو أن الشواهد على ما حدث فيه قليلة- حصلت حركات هامة في القشرة الأرضية، فتكوّنت التواءات أخرى عمودية على الالتواءات القديمة، وظهرت عيوب، ثم

بدأت السيول تنحت هذه المرتفعات وترسب ما حملته منها في بحيرات صغيرة. ومنذ عصر البليتوسين أخذت الأرض ترتفع مكوّنة شاطئ المُكَلَّا المرتفع، ومن رأس الكلب إلى رأس المُكَلَّا يتجه الشاطئ اتجاهًا شماليًا شرقيًا، وأعلى نقطة فيه الآن عبارة عن هضبة منقطعة يظهر أنها تكوّنت من التواء مسطح موازٍ للشاطئ مخترقًا ظلم باطالب وجبل عرنوف الديك والقار وجبل الجوف وجبل محطة، وقد نحتت خطوط تقسيم المياه الحالية نحو الشمال الشرقي والجنوب الغربي بواسطة مجارٍ مائية، ويجري النهر الآن في الأخدود الوحيد.

وهذا يدل على أنه إما أنه كان موجودًا قبل تكوين المرتفع، أو أن هذا كان في الجنوب الشرقي من المرتفع أثر منابع نهر آخر كان على الجانب الآخر للمرتفع، ويرجّح حدود المرتفع الذي يتصل به من وادي مزرب وبين كَنِيْنَة ويون كان يجري في وادٍ قديم ونحت فيه خانقًا يبلغ عمقه الآن من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ متر، واتساعه من ١٠٠ إلى ٢٠٠ متر. وقبل أن يظهر العيب الموجود الآن جنوب كَنِيْنَة كان في مجراه مرتفعًا عنه الآن في الصخور الجيرية، ومن المحتمل أنه كان يسير رأسًا من كَنِيْنَة عبر جبل نعمان وجول باحاوة، ولما كانت الطبقات البليوسينية موجودة في هذا العيب، فإذا كان هذا الفرض صحيحًا؛ فإن الفرع لم يتحوّل إلى وادي مزرب حتى إلى عصر البليوسين الحديث.

وفي عصر الميوسين حصلت عدة التواءات مصحوبة بعيوب، فأخذت الصخور الرملية والجيرية ترتفع مكوّنة هضابًا، ولكن أهمّ الحركات الأرضية حدثت في عصر البليوسين مكوّنة معظم الالتواءات والعيوب الحالية، ومنها ما ينحدر تدريجيًا إلى البحر، ومعظمها يتجه اتجاهًا شرقيًا غربيًا، وأقلها يتجه نحو الجنوب الشرقي. وقد نجمت المرتفعات والكتل المنعزلة عن تعرية الهضبة، ويظهر أن جبل شحَوْرَة قد نتج عن عيوب مدرجة، ولكني لست متحققًا من ذلك، وقد وجدت طبقات لجنيتية

في عيب عند سفح المرتفع في ثلا العليا وفي السبيخات، ولكن هذا العيب لم يمتد إلى الغرب على طول سفح جبل شحَوْرَة؛ لأنه من المحتمل أن عيبًا آخر تقاطع معه كان يسير في النهاية الغربية لجبل شرج باسليم إلى غرب الحوطة، وربما كان رأس قرن الفيل ناجمًا عن هذا العيب الآخر الذي كوّن حوضًا رسبت فيه الصخور الميوسينية حول الديشة. وينحدر السهل المكوّن من الصخور النارية عند رأس العقبة نحو الجنوب الشرقي، وقد ظهرت هذه العيوب في نهاية عصر الأيوسين؛ لأن طبقات عصر الأوليجوسين والميوسين قد رسبت حول المرتفع، وعندما ارتفعت الأرض ثانية في عصر الميوسين الحديث أو البليوسين القديم نحت وادي يون في هذه الطبقات الميوسنية والأوليجوسينية» اهـ.

نظرة عامة في تاريخ حضرموت قبل الإسلام

قديمًا كانت حضرموت تسمى (الأحقاف) {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ}. وإنما سميت حضرموت لسبب ذكره بعض المؤرِّخين؛ ذلك أن عامر بن قحطان أوَّل من نزل الأحقاف، فكان إذا حضر حربًا أكثر من القتل، فصاروا يقولون عند حضوره: حضر موت، ثم صار ذلك عليه لقبًا، وصاروا يقولون للأرض التي بها قبيلته: هذه أرض حضر موت، ثم أطلق على البلاد نفسها. وفي التوراة اسم حضرموت: حاضرميت. ولقد كانت حضرموت موطن عاد وأقيال التبابعة وملوك حمير وكِنْدة.

عاد

هم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام، وكان أبوهم أوَّل من ملك في العرب وطال عمره وكثر ولده، ولما مات ملك بعده أبناؤه الثلاثة: شدَّاد، وهو الذي وطئ الممالك، واستولى على الشام والهند والعراق، وبعده شديد، وبعده إرم، وهو الذي بنى إرم كما ذكره ابن سعد عن البيهقي، وقيل شدَّاد باني إرم. قال بعض المؤرِّخين: إنه لما سمع إرم أو شداد بالجنة، وما فيها من النعيم وقصور الذهب والفضة؛ بنى مدينة إرم في حضرموت، وقيل: في صحاري عدن.

وشيدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد والعقيق، وجعل ترابها المسك والزعفران، وأجرى من تحتها السواقي والأنهار، ونصب على حافة تلك السواقي والأنهار أشجارًا من الذهب ثمرها اليواقيت والجواهر، وسوَّرها بسور

رفيع من الذهب والفضة. قيل: إنه مكث في بنائها مدة طويلة، ثم بعث الله إليه هودًا -عليه السلام- فلم يؤمن به، وأنذره بالعذاب الأليم، فلم يبال بتهديده ولا بوعيده، ولم يرتدع عما كان عليه من الطغيان والكبرياء، فخرج في ثلاثمائة ألف رجل من حرسه ومواليه وغيرهم وسار إلى جنته التي بناها، وخلف على ملكه ابنه مرثد، وكان مرثد فيما يقال مؤمنًا بهود -عليه السلام-، فلما قرب شدَّاد من المدينة جاءت صيحة من السماء، فمات هو ورجاله، وساحت المدينة في الأرض فلم يدخلها أحد. وقيل: دخلها رجل يقال له عبدالله بن قلابة في أيام معاوية بن أبي سفيان، قال: إنه خرج من صنعاء باحثًا عن إبل له ضلت، فأفضى به السير إلى مدينة صفتها كما ذكرنا آنفًا، وأخذ منها شيئًا من المسك والكافور والياقوت، وذهب إلى معاوية بالشام وأخبره بذلك. والحكاية طويلة وليس لها حظ من الصحة، وإنما هي من الأخبار المنمقة المصطنعة. ويقال: إنهم وقفوا على حفيرة بحضرموت، فإذا بيت في الجبل منقور ١٠٠ ذراع في ٤٠، وفي صدره سريران عظيمان من ذهب على أحدهما رجل عظيم الجسم، وعند رأسه لوح مكتوب فيه:

اعتبر يا أيها المغرور بالعمر المديدِ ... أنا شدّاد بن عاد صاحب الحصن المشيدِ
وأخو القوة والبأس وذو الملك الحشيدِ ... دان أهل الأرض طرًّا لي من خوف وعيدي
فأتى هودٌ وكنا في ضلال قبل هودِ ... فدعانا لو أجبناه إلى الأمر الرشيدِ
فعصيناه وناديناً ألا هل من محيدِ ... فأتتنا صيحةٌ تهوي من الأفق البعيدِ

وهذه القصة أيضًا غير صحيحة، ويقول ياقوت: إنها من أخبار القُصَّاص المنمقة وأوضاعهم المزوَّقة. ويقول الزمخشري: إن إرم بلد منه الإسكندرية.

وقال آخرون: معنى إرم الهالك، فقد روي عن ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ﴾ يعني بالإرم الهالك. وعن عبيد قال: سمعت الضحَّاك يقول

في قوله: ﴿بِعَادٍ إِرَمَ﴾ يعني الهالك، ألا ترى أنك تقول: إرم بنو فلان: أي هلكوا. وقال الطبري بعد إيراد الخلافات: «وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي، أنها اسم قبيلة من عاد، ولذلك جاء في القرآن بترك إضافة عاد إليها، وترك إجرائها، كما يقال: ألم تر ما فعل ربك بتميم نهشل، وهي قبيلة، فترك إجراؤها لذلك، وهي في موضع خفض بالرد على تميم، ولو كانت إرم اسم بلدة أو اسم جد لعاد، لجاءت القراءة بإضافة عاد إليها وترك إجراؤها، كما يقال: هذا عمرو زُبيد وحاتم طيء وأعشى همدان، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى كما قال قتادة، والله أعلم».

وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ اختلف فيه، فقال بعضهم: معناه ذات الطول، والعرب تقول للطويل: هذا رجل معمد، وقيل: معنى ذات العماد أنهم كانوا أهل عَمْد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلأ حيث كان. وقال الطبري: «وأشبه الأقوال في ذلك ما دلَّ عليه ظاهر التنزيل قول من قال: عنى بذلك أنهم كانوا أهل عمود سيارة؛ لأن المعروف في كلام العرب من العماد ما عمد به الخيام من الخشب والسواري التي يحمل عليها البناء، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح. وقال: وأما قوله ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي في البطش والقوة. نقول هذا هو الصحيح، فإن عادًا كانت على جانب عظيم من العظمة والكبرياء والجبروت، لم يخلق في العالم في عصرهم شعب مثلهم في القوة والكبرياء والسلطان، ولما دعاهم هود -عليه السلام- لعبادة الله لم يتبعوه، وأنذرهم بالعذاب وحذَّرهم وخوَّفهم زوالَ ملكهم، فلم يرتدعوا عما كانوا عليه لغرورهم وكبريائهم، فأُرسلت الصيحة من السماء (غضب الله) فأهلكتهم وأبادت قوتهم وعظمتهم». ويقول ابن خلدون الحضرمي في تاريخه: والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم، وإنما هذا من خرافات القُصَّاص، وإنما ينقله ضعفاء المفسرين، وإرم المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ القبيلة لا البلد.

الأَقْيال

كانت حضرموت منذ العصور الواغلة في القدم تنقسم إلى إمارات صغرى، أو أَقَيال (جمع قَيْل)، والقَيْل: هو الأمير يسكن حصنًا أو قلعة، ومن حوله بيوت الأنصار والأعوان والحاشية والخدم، وكذلك الشأن في اليمن، فإنها كانت تنقسم إلى محافد، والمحفِد مجموعة من البيوت أو القرى المتجاورة يتولى شؤونها أمير أو قَيْل، وكان هؤلاء الأقيال أشبه بالأشراف في عهد الإقطاع في القرون الوسطى بأوروبا. وفي حضرموت أقيال كثيرون، ولكن أشهرهم كان في دَمُّوْن، وشِبَام، وهَيْنَن، والعَروض، وعَنْدَل، والشِّحْر. ويعرف أصحاب المحافد بالأَذْواء جمع ذو، أي: صاحب، وقد جمع الحِميري أسماءهم في قصيدته الآتية:

أين المثامنة الملوك ومُلْكُهُمْ ... ذلُّوا لصِرفِ الدهر بعد جماحِ
ذو ثَعلبانَ وذو خليلٍ ثم ذو ... سَحَرٍ وذو جَدَنٍ وذو صُرْواحِ
أو ذو مَقارٍ قبلُ أو ذو حَزْفَرٍ ... ولقد محا ذا عُثكلانٍ ماحِ[1]
أو ذو مَراثِدَ جدُّنا القيلُ ابنُ ذي ... سَحَرٍ أبو الأذواءِ رَحْبَ السّاحِ
وبنوهُ ذو قَيْنٍ وذو شَقَرٍ وذو ... عِمْرانَ أهلَ مكارمٍ وسَماحِ
والقيل ذو دُنْيانَ من أبنائِهِ ... راح الحِمَام إليهِ في الرُّوّاحِ
أو أين ذو الرُّمحينِ أو ذو تُرْخُمٍ ... سُقيا بكاسٍ للمنون ذَباحِ
أم أين ذو يَهَرٍ وذو يَزَنٍ وذو ... بَوْسٍ وذو بَيْحٍ وذو الأنواحِ
أم أين ذو قَيْفانَ أو ذو أَصبحٍ ... لم ينجُ بالإمساءِ والإصباحِ
أم أين ذو الشَّعبينِ أصبح صَدعُهُ ... لم يلتئمْ كمشعَّب الأقداحِ

(١) يقول بعد هذا البيت: تلك المثامنةُ الذُّرى من حميرٍ ... كانوا ذوي الإفسادِ والإصلاحِ
وهو متمم لمعنى البيتين السابقين له. (الناشر).

أو ذو حِــوالٍ حِـيـلَ دونَ مَـرامِـهِ … أو ذو مـنـاخٍ لـم يُـنِـخْ بـمُـراحِ
أم أيـن ذو غُـمْـدانَ أو ذو فـائِـشٍ … أو ذو رُعَـيْـنٍ لـم يَـفُـزْ بـفَـلَاحِ
أو ذو الكُبَاس وذو الكُلاعِ ويَحْصُبٌ … أضحـوا وهـم للنـائبـاتِ أضـاحـي
أم أيـن ذو أقْـيـانَ أو ذو أفـرع … أو ذو الجَـنـاح هِـزَبْـرُ كـل جَـنَـاحِ
أو ذو الـعَـبِـيـر وذو ذَرانِـحَ خـانَـهُ … دهـرٌ يـعـيـد الـنَّـسـر كـالـذُّرّاحِ
أم أيـن ذو بـيـنـونَ أم ذو مَـرْ علي … وبـنـو شَـراحـيـلٍ وآلُ شَـراحِ
أم أيـن ذو شَـهْـرانَ أو ذو مـاورٍ … أضـحـت زِنـادُهـمـا بـلا قَـدَّاحِ
أم أيـن فـهـدٌ أو هُـمَـالٌ وابـنُـهُ … زيـدٌ عـفـاهـم دهـرُهـم بـمـسـاحِ
أم أيـن ذو ثـاتٍ وذو هَـكَـرٍ وذو … نَـمِـرٍ وذو صَـبِـرٍ وذو الـمِـشْـراحِ
أم أيـن ذو غَـيْـمـانَ أو ذو شَـوْذَبِ … الـلاهـي ببيضٍ في الـنـسـاءِ مِـلاحِ
أم أيـن ذو نَـبْـعٍ وذو سُـخْـطٍ مـعًـا … أو ذو الـمـلاحـي لات حـيـنَ مُـلَاحِ
أم أيـن ذو أَوْسـانَ أو ذو مَـأْذَنٍ … أم أيـن ذو الـتـيـجـان والإبـراحِ
وعَـبـاهِـلٌ مـن حـضـرمـوت مِـن بني … أحـمـادَ والأشـبـا وآل صَـبـاحِ
والـغُـرّ مـن جَـدَنٍ وأبـنـا مُـرَّةٍ … وبـنـي شَـبـيـبٍ والأُلَـى مِـن شـاحِ
وبـنـو الـهَـزيـلِ وآلُ فـهـدٍ منهـمُ … مِـن كـلِّ هَـشٍّ لـلـنـدى مُـرتـاحِ[1]

(١) هذه الأبيات منتقاة من قصيدة العلامة نشوان بن سعيد الحميري (ت ٥٧٣هـ) المسماة (ملوك حمير وأقيال اليمن)، وقد شرحها ناظمها في كتاب أسماه (خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة)، وطبعت مع شرحها بتحقيق الأستاذين علي بن إسماعيل المؤيد، وإسماعيل بن أحمد الجرافي في المطبعة السلفية بالقاهرة، ثم طبعت طبعة أخرى في دار العودة ببيروت سنة ١٩٧٨م. وقد أورد الأستاذ صلاح البكري رحمه الله هذه الأبيات في طبعتي كتابه هذا محرفة تحريفًا شديدًا، ولعله نقلها من نسخة غير مضبوطة، وقد صححنا الأبيات وأوردناها كما جاءت في الأصل المحقق المطبوع. (الناشر).

وكانوا يتغازون ويتنازعون، يهجم القويّ على من دونه فيتغلب عليه ويستولي على أملاكه، فإذا امتدت سلطته واتسع نفوذه وطار صيته؛ كوّن مملكة وسمى نفسه ملكًا. على هذه الكيفية تكوّنت الممالك، ونشأت الدول في جزيرة العرب.

الدولة الحِمْيَريَّة

HOMERITAE

من سنة ١١٥ ق. م- ٥٢٥ ب. م

كان الحميريون يقيمون في رَيْدان (ظَفَار) ولما ضعفت دولة السبائيين Sabaei تغلب عليها الحميريون واستولوا عليها، وحكموا رَيْدان وسبأ معًا. ثم طمع الحميريون في حضرموت، فاستولوا عليها في عهد شمر يرعش.

وتنقسم الدولة الحميرية إلى دورين: فأصحاب الدور الأول كانوا يحكمون رَيْدان وسبأ، وهؤلاء لا يهمنا ذكرهم. والثاني: وعددهم ١٣ ملكًا حكموا سبأ وحضرموت وظَفَار التي صارت وقتئذٍ تابعة لحضرموت ومن أعمالها.

وهذه أسماؤهم ومدة حكمهم من سنة ٢٧٥- ٥٢٥م:

اسم الملك	مدة الحكم
شمر يرعش	٢٥
ذو القرنين أو أفريقس	٢٠
عمرو زوج بلقيس	١
بلقيس وتسمى الفارعة	١٥
الهدهاد أخوها	٢٩
ملكيكرب بو ينعم	١١
أبو كرب أسعد بن ملكيكرب	٣٥

حسان بن أسعد	٥
شرحبيل يعفر بن أسعد	٣٠
شرحبيل ينوف	١٥
معدي كرب ينعم وابنه لحيعة	٢٥
مرثد اللات ينوف	٢٠
ذو نواس	١٠

هذا ما ذكره اليونانيون. وتأيَّد بعضه بما وجد منقوشًا على بعض الآثار(١)، ولكن تعدادهم هذا لم يكن مقطوعًا به، فلا ينهض حجة في الموضوع، إذ ربما كان هناك أسماء ملوك آخرين لم يقفوا عليها في الآثار التي لا تزال مدفونة في الرمال، وفي بطون الأودية والجبال. أما العرب فقد خالفوا ما ذكره هؤلاء من بعض الوجوه، فقالوا: إن عدد ملوك حِمير الذين حكموا حضرموت ٢٦، ومدة حكمهم ١٧٠٠ سنة، وهذه أسماؤهم ومدة حكمهم:

اسم الملك	مدة الحكم
الحارث الرائش	١٢٥
أفريقس بن أبرهة	١٦٤
العبد ذو الأذعار	٢٥
هداد بن شراحيل	٧٥
بلقيس بنت هداد	٢٠
ناشر ينعم	٨٥
شمر يرعش	٣٧

(١) بلغ عدد الآثار التي اكتشفت من جنوب بلاد العرب نحو ١٥٦٠ نقشًا، وأشهر أولئك المكتشفين ادورد غلازر، ويوسف هاليفي، ويوليوس أويتن، وتوماس ارنو.

أبو مالك	٥٥
تبع بن الأقرن	٥٣
ذو جيشان	٧٠
الأقرن بن أبي مالك	١٦٣
كليكرب	٣٥
أسعد أبو كرب	١٢٠
أبرهة ذو المنار	١٨٣
حسان بن تبع	٧٠
عمرو بن تبع	٦٣
عبيد كلال	٧٤
تبع بن حسان	٧٨
مرثد بن عبيد	٤١
وليعة بن مرثد	٤٧
أبرهة بن الصباح	..
أصبهان بن محرث	١٥
حسان بن عمرو بن تبع	٥٧
ذو شناتر	٧٢
ذو نواس	٢٠
ذو جدن	٨

ومما دوَّنته التواريخ، وحفظته بطون الأوراق، أن دولة حمير دولة قوَّة وفتح وحضارة ومدنية، فشمر أبو كرب أوَّل ملك حميري حضرمي، اخترق بجيشه شمال الجزيرة العربية، وغزا العراق وفارس، واحتلَّ مدينة الصُّغْد وراء جَيْحُون،

وهناك بنى مدينة شمركنت التي عرِّبت فقيل سمرقند.

ومن مشاهيرهم إفريقس، فقد اخترق شمال أفريقية، وفتح المغرب، ونقل قبائل عربية إليها. ومنهم أسعد أبو كرب، وطئ أرض أذربيجان واحتلها، وحارب الترك، وبعث ابنه حسانًا إلى الصُّغْد، وابنه جعفرًا إلى القسطنطينية والروم، فقدّم له أهل القسطنطينية الجزية، وسار إلى دومة وحصرها، فأصيبت بعض عسكره بالطاعون، فاستضعفهم الروم وحاربوهم، فقتلوهم جميعًا. وأرسل ابن أخيه شمر ذا الجناح إلى الفُرس فهزمهم، وغزا الصين، فوجد حسانًا قد سبقه إليها، فغلبا الصين، وانصرفا بما معهما من الغنائم العظيمة. وقيل: إن قومًا من الحميريين أعجبتهم بلاد الصين فاستوطنوها، واندمجوا في أهلها، وتخلقوا بأخلاقهم. وفي سنة ٣٤٥م غزا الأحباشُ الحميريين، واستولوا على اليمن وحكموها سنة ٣٧٤م، ولكن حضرموت لم تدخل في حكمهم، ولم تخضع لسلطتهم، سواء في أيام العلي إسكندي، أو في عهد ولديه عيزاناس وسازاناس، فهي حافظت على استقلالها. وفي أواخر سنة ٣٧٤م استردّ اليمن ملكيكرب، وفي القرن السادس غزا نجرانَ ذو نواس، ويسميه اليونانيون دميانوس، وكانت النصرانية قد انتشرت فيها، وكان هو متعصبًا لليهودية، فاستولى عليها وعرض على أهلها اليهودية فامتنعوا، فوضعهم في أخاديد وأحرقهم، وهدم بِيَعَهم، ولما بلغ ذلك النجاشيَّ ملكَ الحبشة أرسل سبعين ألفًا تحت قيادة أرياط إلى اليمن، وأثخنوا في القتل، وفرّ ذو نواس خوفًا من الأسر، وأقحم فرسه البحر فمضى به فرسه وغرق، واحتلَّ أرياط اليمن، وهدم الحصون، وبعث بالسبي إلى ملك الحبشة رجالًا ونساء وأطفالًا، وكانت مدة حكمهم ٧٤ سنة، منها ٢٠ سنة لأرياط و٢٣ لأبرهة و١٩ ليكسوم و١٢ لمسروق. وفي كل عهود

هؤلاء الملوك حافظت حضرموت على استقلالها ولم تخضع لهم في أيّ شأن من شؤونها الداخلية أو الخارجية، كما حافظت على استقلالها في عهد استيلاء الفرس على اليمن(١).

نظام الدولة الحميرية السياسي والاجتماعي

كان نظام حكم الحميريين في حضرموت يخالف في بعض نواحيه نظام حكمهم في اليمن، فالحكومة في اليمن وراثية، تنتقل إلى الأبناء أو الإخوة، أما في حضرموت فإن الملك ينتقل إلى أوّل مولود من الأشراف والنبلاء (العائلة الملكية) ولد في أثناء حكمه، فعند الاحتفال بتوليه الملك يرفع إليه خاصته قائمة بأسماء النبيلات الحوامل، فيعيِّن الملك لكل منهنّ امرأة تقوم بمراقبتها وخدمتها حتى تضع، فأوّل نبيلة تلد غلامًا يأمر الملك بمن يعتني بتربيته ويقوم بتهذيبه وإعداده للملك.

والملك عندهم مطلق التصرُّف، ولكن في حدود العدل والرحمة، والشعب طوع أمره ورهن إشارته، وليس للسجون والعقوبات قوانين مكتوبة، ولم يكن للمسجونين مدة معلومة، فالملك هو المتصرِّف، يسجن ويسرح ويقتل ويعذّب متى شاء، وقد يفدي المسجون نفسه بالمال.

ومن عادات الملك أنه يحلق لحيته وشاربه، ويضفر شعوره جدائل يرسلها خلفه وعلى كتفيه، وحين ينزل من قصره يركب فرسًا أو مركبة تجرُّها الخيول، وفي

(١) كان مسروق الحبشي جبارًا ظالمًا، فاشتكى أهل اليمن إلى سيف بن ذي يزن الحميري ما يجدونه من تحكم الأحباش فيهم، فحاربهم واستخلص البلاد من أيديهم بمساعدة كسرى أنوشروان، وأثخن في القتل حتَّى لم يبق منهم في اليمن سوى مائة نفس اتخذهم عبيدًا له، وفي ذات يوم خرج سيف بن ذي يزن إلى الصحراء متصيدًا، فقتلوه بحرابهم وهربوا، فأرسل كسرى وهرز بن كامجار حاكمًا على اليمن من قبله، فبقيت خاضعة لفارس إلى أن افتتحها المسلمون سنة ١٣هـ.

صنعاء تجرُّ المركبات الأفيال التي أتى بها الأحباش أثناء احتلالهم اليمن، ولباسه الرسمي مئزر محوك بالذهب، وأساور ثمينة يضعها على ذراعيه، ويحمل بيده رمحين، تحفُّ به حاشيته، مدججين بالسلاح، يتغنون بتعظيمه وذكر فضائله.

وكان الملوك ينقشون على النقود صورهم وأسماءهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند (الحروف الحميرية)، وأحيانًا ينقشون صورة الثور أو الصقر أو البومة. وفي المتحف الأدبي بفِيَنّا توجد مجموعة قيِّمة من تلك النقود.

وينقسم الشعب إلى ثلاث طوائف:

١- حَمَلَة السلاح، وهؤلاء يحمون البلاد، ويحفظون الأمن، ويحرسون القوافل، ومنهم تتكون حاشية الملك وأعوانه وحرسه.

٢- الزرّاع، وهؤلاء عليهم فلاحة الأرض وزراعتها، وحفر الترع، وإقامة السدود لحفظ السيول وتوزيعها على المزارع والحقول والحدائق والبساتين.

٣- التجار وأهل الحِرف ومن يلحق بهم كالعمال.

ازدهار التجارة في عهدهم
الشِّحْر

بالرغم من اشتغال الدولة الحميرية بالحروب والفتح، واهتمامهم بالدفاع عن بلادهم، والذود عن حوضهم من اعتداء المعتدين وتطاول الطامحين، فقد وجهوا أقصى عنايتهم ومنتهى جهدهم لترقية التجارة، وبذلوا كلَّ مقدور لتنشيط العلائق التجارية، وتوثيق الروابط الاقتصادية بينهم وبين الهند وسواحل أفريقية الشرقية، وبينهم وبين نجد والحجاز والشام ومصر.

وكانت مدينة الشِّحْر أعظم ميناء وأكبر مركز تجاري في جنوب الجزيرة العربية، تأتيها السفن من الهند والخليج الفارسي، ومن سواحل أفريقيا الشرقية، ومن مصر،

مشحونة بأصناف السلع وأنواع المتاجر، وكان أغلب هذه السفن للحضرميين، وهم بأنفسهم كانوا يتولون قيادتها وتسييرها في عباب المحيط الهندي والخليج الفارسي والبحر الأحمر، كانوا يأتون من الهند بالدرّ، والياقوت، والزبرجد، والعاج، والأطياب، وخشب الأبنوس، والتوابل، والقَطْن، والقصدير. ومن سواحل أفريقيا بالذهب، والعاج، والعطور، وخشب الأبنوس، وريش النعام. ومن البحرين باللؤلؤ. وكانت مدينة شباه (شِبَام)[١] ويسميها اليونانيون Sabotta تبعث إلى الشِّحْر حاصلات حضرموت الداخلية كالبخور، واللبان، والمرّ، واللادن، وما إلى ذلك.

قال بطليموس: إن هذه الأصناف وغيرها من واردات الهند وسواحل أفريقيا الشرقية تحملها القوافل من حضرموت مخترقة رمال الدهناء إلى دوان، ثم تسير غربًا إلى نجد ثم إلى الحجاز، ومن هناك يستلمها المديانيون والأنباط ويذهبون بها إلى مدائن صالح، فإلى بترا[٢]، ومن بترا تسير إما إلى مصر أو إلى فلسطين وإلى صُوْر وغزة وغيرها من شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وكان القريون[٣] وغيرهم من التجار الحضرميين يفضلون حمل متاجرهم على القوافل بالبرّ لما في البحر الأحمر من الأنواء وأخطار القرصان، ولكن لما تولى عرش مصر سيتي الأول من العائلة التاسعة عشرة، وقيل ابنه سيزوستَرِيس Sesostris وهو رعمسيس الثاني ميامون فرعون مصر، احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر، وأرسل

(١) كان يسكنها بنو فهد. قال الهمداني: فلما احتربت حمير ومذحج خرج أهل شبوة (مدينة لحمير بين بيحان وحضرموت) من شبوة فسكنوا حضرموت وبهم سميت شِبَام، وكان الأصل في ذلك شباه، فأبدلت الميم من الهاء.

(٢) هي عاصمة مملكة أيدوم القديمة وإحدى عجائب الآثار، منقورة في الصخور، واقعة على الحد الشمالي الغربي لصحراء العرب بين خليج أيلة (العقبة) والبحر الميت.

(٣) انظر صفحة (٥٠) من هذا الجزء، وسيأتي الكلام عليهم في الجزء الثاني.

سفنه التجارية إلى الشِّحْر وغيرها من موانئ جنوب جزيرة العرب، فاتجهت أنظار الحضرميين إلى إرسال متاجرهم بطريق البحر الأحمر، فارتقت الملاحة، وانتعشت الأسواق الحضرمية، وزادت التجارة نشاطًا وحركة، فتضاعفت المكاسب، وعظمت الأرباح، واتسعت ثرواتهم اتساعًا ما كانوا يحلمون بمثله من قبل؛ فقد كانت تكاليف حمل المتاجر بالبرّ أضعاف تكاليفها بالبحر لبُعد المسافة، ولأن الخفراء كانوا يأخذون نصف الأرباح. ولما مات سيتي أو سيزوستَرِيس أهملت القناة فتعطلت، ولم يهتم المصريون بالأسفار، فبطلت الملاحة المصرية وانكمشت الملاحة الحضرمية، وتقلصت مواصلاتهم في البحر الأحمر، لكن لم تطل المدة على تلك الحال حتى نهض ملك أورشليم سليمان، وأنشأ السفن في عصيون جابر Asion Gaber على مقربة من أيلة (العقبة) من بلاد أدوم (ايدوميا)، وقد ورد ذلك في التوراة (كتاب الملوك الأول سفر ٤، إصحاح ٣٣، عدد ٣٥، ٣٦)، وقيل: إنه اتحد على بناء السفن مع حِيرام[١]، حيث أمده هذا بالنجارين والعمال، ووافاه بالمقادير الوافرة من أجود الخشب وأغلاه لبناء السفن، ثم أرسلا السفن تجري في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي، وترسو في ميناءي الشِّحْر وزفر (ظَفَار) وغيرهما من موانئ جنوب جزيرة العرب وسواحل أفريقيا والهند الغربية والخليج الفارسي، فاتجهت أنظار الحضرميين إلى إرسال متاجرهم بالبحر فعادت ملاحتهم إلى نشاطها الأول، وانتعشت أسواقهم من جديد.

(١) هو ملك صور في عهد الملك سليمان، ويسمى أيضًا حيروم أو حورام، ورد ذكره في التوراة (إصحاح ٨ عدد ١٧ من الأخبار) قال: «حينئذ ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى أيلة على شاطئ البحر في أرض أدوم، وأرسل له بيد عبيده سفنًا وعبيدًا يعرفون البحر، فأتوا مع عبيد سليمان إلى أوفير زفر (ظَفَار) وأخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب وأتوا بها إلى الملك سليمان».

ولما توفي سليمان ملك بني إسرائيل لم يهتمّ حيرام ملك صور بالأسفار، فتعطلت الملاحة وعاد الحضرميون إلى القوافل.

ولقد كوّن الحضرميون جالية كبيرة في الهند في جدروزيا الواقعة بين جبل كربيلا ومصبّ نهر السند، وبنوا هناك مدنًا، وأنشأوا أسطولًا يغدو ويروح بين الهند وجنوب جزيرة العرب بأصناف المتاجر وأنواع البضائع، وكوّنوا هناك سلطة دونها كل سلطة، ونفوذًا دونه كل نفوذ، وقبضوا على زمام التجارة، واحتكروا غلات البلاد.

قال العلامة المسيو جليان Mr.Guillain في كتابه:

“Documents Sur L Histoire. la Geographie et le Commerce de lAfrique Orientale”

(وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية في أفريقيا الشرقية): «قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة في الشرق، فكانت سفنهم هي الوحيدة التي تجري في المحيط الهندي، وبخاصة فيما بين بلادهم والهند، التي كانت لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر السند هي التي أسماها الهنود (عربتو Arabitoe) أي العرب. ولما أرسل إسكندر المقدوني قائد أسطوله نيارك Nearque لاستكشاف بحر الهند، وجد بسواحل جدورزيا آثارًا دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية، وكان الربان الذي أرشده في ذلك البحر عربيًا».

حضارة حضرموت

بلغ الحضرميون في المدنية والحضارة مبلغًا ليس له في عهدهم مثيل، فقد بنوا القصور الشاهقة، وعمروا المدن الواسعة، ووضعوا الهياكل والتماثيل،

واحتفروا الترع والسواقي، وأنشأوا السدود الضخمة، يحجزون بها المياه، ويسقون المرتفعات من الأرض والمنخفضات منها، وعبَّدوا الشوارع، واغترسوا الحدائق والبساتين. كانوا في ترف ونعيم؛ لباسهم من أفخر الأنسجة، ورياشهم من الحرير، وآنيتهم محلاة بالذهب، وأثاثهم مزين بالذهب والفضة والجواهر.

قال العلامة لنورمان نقلًا عن أغاثر سيدس في الجزء الثالث من كتابه:

"Manuel de l'Histoire Ancienne de Porient" (خلاصة تاريخ الشرق القديم): «إن قصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب، وإنهم يعلقون على أبواب منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر، تحيط منازلهم بساتين غناء، ولديهم الموائد والأسرّة من الفضة، والرياش من أفخر الأنسجة، إلى آخر ما هناك مما يفوق التصديق، ومما لا شكَّ فيه أن سبب غناهم هذا اتجارهم بحاصلات الهند من العقاقير وما إليها، وبغلال سواحل أفريقية الشرقية وإلى الخليج الفارسي وإلى مصر».

قال العلامة المسيو جليان Mr.Guillain في كتابه:

"Documents Sur L'Histoire, la Geographie et le Commerce de PAfrique Orientale"

(وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية في أفريقيا الشرقية):

«إن العرب كانت بلادهم مركز التجارة بين الشرق والغرب، وهم الذين اكتشفوا لأول مرة تلك البلاد الكائنة جنوبي بوغاز باب المندب والسفال، ثم إن غيرهم من الأمم لم تصل إلى هذه الأراضي إلا بعدهم وبواسطتهم، فالأمم الأخرى مثل الإسرائيليين، وأهل صُوْر، والمصريين، واليونان الرومان، وأخيرًا البرتقاليين؛

لم يكن وصولهم إلى تلك الأراضي إلا أمرًا مؤقتًا، أما العرب فهم الذين تواصل وجودهم بها، كما كانوا هم السابقين لغيرهم إليها».

المعارف في عهد الحميريين

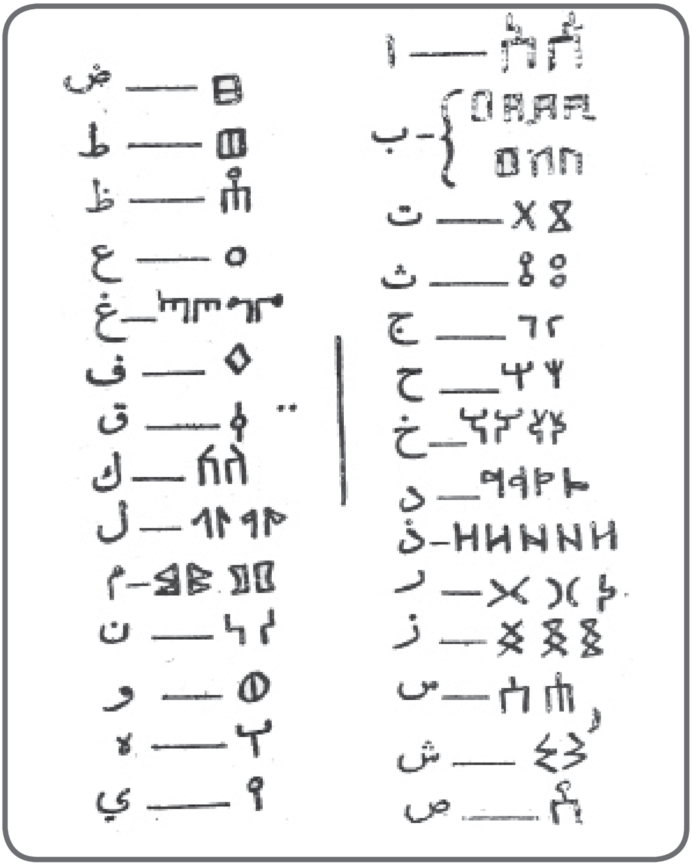
كان للحضارم معرفة تامة بمواقع النجوم، وأوقات مطالعها ومغاربها، وكانوا يعلمون بأنواع الكواكب وأمطارها، ولكن هذا العلم لم يأتِ عن طريق تعلم الحقائق، بل أدركوه بفرط الذكاء، وكثرة العناية، وطول التجربة، وكانوا يتفاخرون رجالًا ونساءً بالفصاحة، والبلاغة، ونظم الأشعار، وتأليف الخطب. وكانت الشِّحْر وهَيْنَن ودَمُّوْن أشبه بأسواق عُكَاظ والمِرْبَد والمِجَنّة، حيث كانوا يجتمعون هناك في مواسم معلومة، فيلقي كل شاعر شعره، وكل خطيب خطبته، ويصف كل شاعر وكل خطيب ما عمله هو أو غيره من خير وإصلاح، وما تكبده من الأخطار والأهوال، وقد يقوم فيهم حكيم فيعظ الناس، ويرشدهم إلى الخير، ويهديهم الصراط الأقوم. ولقد حازت كِنْدة الدرجة الأولى في الفصاحة والبلاغة على جميع قبائل حضرموت، حتى إن كثيرًا من أهل البلاد النائية كدَوْعَن وغيرها يشدون الرحال إلى دَمُّوْن ليشاهدوا مباراة أصحاب الكلام من الكِنْدِيين، فيتعلم أولئك النزلاء شيئًا كثيرًا من ذلاقة لسانهم، وحلاوة لهجتهم، في مجتمعات دَمُّوْن، ووضوح معاني أشعارهم، وخطبهم. قال امرؤ القيس:

كأنيَ لم أسمُرْ بدَمُّوْن مرةً ... ولم أشهدِ الغاراتِ يومًا بعَنْدَل

وكانوا يكتبون بالحرف المسند (الحروف الحميرية)، ولقلة الورق كانوا يكتبون في الجلود وفي ألواح الخشب، وإذا كان ما يراد كتابته أمرًا هامًا، فإنهم يكتبون على الصخور الصلدة، لذلك نجد كتابات كثيرة على جبال حضرموت.

أما الحروف العربية، وكذا أسماء الأيام والشهور فلم تكن معروفة في حضرموت إلا بعد ظهور الإسلام.

الحرف المسند أو الأبجدية الحميرية
وما طرأ عليها من التغيير



(أسماء الأيام)

جاءت أسماء الأيام منظومة في البيتين الآتيين:

أؤمــــل أن أعـــيـــش وإن يــومـي   بـــأول أو بـــأهـــونَ أو جُـــبَـــارِ
أو الــتــالـي دُبَـــارُ فـــإنْ يَـفُـتْـنـي   فـمُـؤنِـسُ أو عَـــروبــةُ أو شِـيـارُ

شِيار: السبت، أول: الأحد، أهون: الإثنين، جُبار: الثلاثاء، دُبار: الأربعاء، مؤنس: الخميس، عَروبة: الجمعة.

(أسماء الأشهر)

المؤتمِر: محرم	الأصم: رجب
ناجِر: صفر	عادل: شعبان
خوّان: ربيع الأول	نافق: رمضان
بصان: ربيع الثاني	وغل: شوّال
حنتم: جمادى الأولى	هواع: ذو القعدة
رباء: جمادى الثانية	برك: ذو الحجة

أما الملاحة فقد كان للحضرميين الحظ الأوفر منها كما شرحنا ذلك. وأما الصناعة فكانت لهم مهارة عظيمة في النسج، وكانت الشِّحْر أعظم مركز لمعامل النسج، ولهم مهارة في صناعة الحليّ الدقيقة، وزخرفة الآنية وصناعة الأثاث، وتركيب الروائح الطيبة، وتحضير البخور، وجني القرفة، وعيدان الدارصيني، واللادن، والمر.

قال هيرودتس: «وبلاد العرب فيها وحدها البخور، والمرّ، والقرفة، والدارصيني، واللادن. والعرب يجنون كلَّ هذه الأشياء بتعب جزيل إلا المر. ولاجتناء البخور يحرقون تحت الأشجار التي تولد صمغًا يسمى ميعة، يأتي به الفينيقيون إلى الأغارقة فيحرقون هذا الصمغ تنفيرًا لنوع من الحيات الطيارة التي تأوي إلى تلك الأشجار، ولا تذهب منها إلا بدخان الميعة. أما القرفة فلما يذهبون لجنيها يغطون أبدانهم ووجوههم إلا الحدق بجلود الثيران، والقرفة تنبت في بحيرة قليلة المياه، تسرح

حولها حيوانات كالخفافيش تصيح صياحًا هائلًا، وهي شديدة الأذى، فيتقي العرب أذاها بهذه الجلود ريثما يجنون القرفة. وأما الدارصيني فيُجنى بطريقة أعجب من الأولى، والعرب أنفسهم لا يعرفون من أين يأتي؟! ويزعم البعض أنه ينبت في البلاد التي تُربى بها باخوس، وأن طيورًا تحمل عيدان الدارصيني لتبني بها أعشاشها مع الطين في جبال وعرة بعيدة عن المدن، لا يستطيع الإنسان الوصول إليها، والعرب يقال إنهم يحتالون في الحصول على هذه العيدان بقطع من لحوم البقر أو الحمير يضعونها في أقرب مكان من العشّ، فيأتي الطير ويحملها إلى فراخه، وحالما يضعها في العش تثقله، فيسقط، فيتناول العرب عيدانه ويتجرون بها. أما اللادن فطريقة جنيه أعجب من هذه؛ لأنهم يجدونه في لحى التيوس والماعز كالعفن الذي يتولد على الخشب فيدخلونه في تركيب طيوب كثيرة. والعرب يتطيبون باللادن خصوصًا. وبلاد العرب ذكية الرائحة حيثما سرت، وفيها نوعان من الغنم: أحدهما ذيله يزيد طوله على ثلاثة أذرع، إذا أرسلوه انسحب وراء الغنم وتقرّح. والنوع الآخر عرض ذيله ذراع».

الزراعة

لا توجد في حضرموت أنهار سوى نهر واحد في حَجْر، ولكن هناك عيون غزيرة في الجبال، وأهمّ هذه العيون وأغزرها ماء؛ عيون تارِبة، وهذه كانت تسقي جميع ما حولها من الأراضي (الشُّرُوْج، وغيل بدر بن عبدالله). وعيون وادي جَذَع التي لا تزال آثارها من سواقي وأحواض باقية إلى اليوم، كانت هذه العيون تسقي جميع أراضي الحوير بين مَرْيَمَة والقَرْن من ضواحي سَيْئون، وفي هذه الأراضي كان يزرع أجود الأعناب وأغلاها. وعيون جبل القِزَة، وهناك كانت تزرع الحنطة بكثرة.

أما العيون التي بقرب الشواطئ، فهي عيون غيل باوزير، وعيون جبال المُكَلَّا، وعيون مَيْفَع.

وكانوا يبنون السدود الفخمة لحجز مياه الأمطار، ولها فتحات يخرج منها الماء فينساب في ترع منظمة، ويغمر المرتفعات من الأرض والمنخفضات منها، فكانت حضرموت كلها بساتين غنّاء ومروجًا خضراء وغياضًا فيحاء، فيها الأغراس من الأشجار، والرياحين، والحنطة، والفواكه، كالأعناب، والخوخ، والكمثرى، والبرقوق، والإجّاص، والتفاح، واللوز، والجوز، والسفرجل، والرمان، وغير ذلك.

القريون[1]

لم يذكر المؤرّخون من العرب كثيرًا عن القريين، ولكن الفرنجة ذكروهم وكتبوا عنهم فصولًا طويلة، ووصفوا ما كان عليه القريون من الترف والبذخ. قال أغاثرسيدس: إنهم أغنى أهل الأرض، وسبب غناهم اتجارهم بغلات بلاد العرب والهند. وقال استرابون: إنهم يتمتعون بكل أسباب السعادة والهناء، فرشهم ثمينة وآنيتهم من الذهب والفضة، يزينون جدران منازلهم بالذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة.

وقد اختلف هؤلاء في موضع مَدْيَنتهم جرا Garra. قال بعض المؤرّخين: إنهم من أمم البحرين، وإن جرا فرضة على الأحساء. وقال العلامة اليوناني استرابون Strabon: إنها واقعة في بقعة كثيرة الملح، تبعد عن البحر بنحو ٢٠٠ ستادة (الستادة ثلث ميل إنجليزي). وقال العلامة جليان Guillain: إن مَدْيَنتهم على الشاطئ الغربي للبحر الأخضر (الخليج الفارسي) وحضرموت على المحيط الهندي، والذي أراه وأستنتجه من هذه الأقوال وبالأخصّ قول جيان أن مدينة جرا، تقع على مقربة من مدينة ظَفَار جنوب جبال القِرا، وأنقاض المدينة لا تزال قائمة، وكثير من البيوت مطمور تحت الرمال.

(١) سيأتي الكلام عليهم في الجزء الثاني.

المعادن

لعل أكثر القرّاء يندهشون من بذخ الحميريين وترفهم، ولعلهم لا يؤمنون بما كان يستعمله أولئك الأسلاف من الذهب والفضة والجواهر في أثاثهم وآنيتهم وحيطان بيوتهم وأبوابها، لأن بلاد العرب -كما يزعمون- ليست كلفورنيا أو أرجنتينا في معادنها، وإنما هي صحاري جدباء، ورمال غبراء، وجبال جرداء، ولو كانت هناك مناجم لكان لها اليوم أثر. والحقيقة أن ما قيل في حضارة الحميريين حقّ باتفاق



(أنقاض مدينة (بلد) جنوب جبال القرا)

المؤرخين، وأن بلاد العرب كانت تشبه كلفورنيا وأرجنتينا في معادنها، وأكثر هذه المعادن في بلاد مَدْيَن، وقد ألف العلامة برتون Burton كتابًا أسماه: (The Gold Mines of Median) (معادن الذهب في مَدْيَن) وصف فيه مناجم بلاد مَدْيَن وما كان يستخرج منها من الذهب والفضة والفصوص والبلور.

ثم إن هناك مدينة ظَفَار، كان بها أعظم منجم للذهب في عهد بلقيس إلى ما بعد ظهور الإسلام. قال المسيو جليان Guillain: إن العرب كانوا يستخرجون منها الذهب، وإن لهم فيها مقابر لا تزال مشهودة، وقد رآها الكابتن بانجر الفرنسي، وعلى قبرياتها أسماء أصحابها منقوشة بالعربية، وهم الذين أسموها ظَفَار. وجاء في

التوراة (إصحاح ٨، عدد ١٧ من الأخبار) قال: «حينئذ ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى أيلة على شاطئ البحر في أرض أدوم، وأرسل له حورام بيد عبيده سفنًا وعبيدًا يعرفون البحر، فأتوا مع عبيد سليمان إلى أوفير (ظَفَار)، وأخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب، وأتوا بها إلى ظَفَار الملك سليمان».

أما موقع مدينة أوفير فقد اختلف المؤرخون فيه وأتوا بأقوال متضاربة. قال العلامة جيان: إنها في الساحل الشرقي في قارة أفريقيا، وقال آخر: إنها في الهند، وقال المرحوم أحمد زكي باشا: إنها مدينة وبار، وقال المستشرق الفرنسي كاترمير Quatremere: إنها على ساحل بلاد العرب، وقال العالم الجغرافي الفرنسي جوزيف جوسلن Gosselin في الجزء الثاني من كتابه الموسوم (أبحاث في الجغرافيا الأصولية عند الأقدمين): إن أوفير هي ظَفَار. هكذا اختلفت آراء العلماء وتضاربت أقوالهم. فإذا فرضنا أن أوفير في الهند أو في سواحل أفريقيا الشرقية؛ فإن هذا يجعلنا نشكّ فيما قاله المؤرخون إن الحميريين كانوا يصنعون آنيتهم وأثاثهم من الذهب، ويزينون حيطان غرفهم بالحجارة الكريمة، ويعلقون أمام منازلهم صحائف الذهب المرصع بالجواهر، إذ ليس من المعقول أن يأتوا بتلك المعادن الثمينة من الهند أو من سواحل أفريقيا الشرقية، والمسافة بينهم وبين تلك البلاد النائية بضعة شهور، الأمر الذي يكلفهم مصاريف باهظة ومتاعب شاقة، ليس من المحتمل أن يجلبوا تلك المعادن الغالية من البلاد القاصية، ثم يصنعوا منها آنيتهم ويزينوا بها أثاثهم وبيوتهم. إذن فالقول ما قاله العلامة جوسلن Gosselin بأن أوفير هي ظَفَار، وليس بين الكلمتين فرق مثل ما بين ظَفَار ووبار.

أما عدم وجود أثر للمناجم اليوم، فهذا لا ينهض حجة في عدم وجود معادن البتة. ومن المحتمل أن تكون هناك مناجم كثيرة لمعادن ثمينة لا تزال بكرًا، ولكن الجهل الضارب أطنابه في جنوب الجزيرة العربية هو الذي أعمى الأبصار عن موقع تلك المناجم وحرمنا استغلال تلك الكنوز القيمة.

الآثار

لعاد وأقيال التبابعة وملوك حمير آثار قيمة وكنوز ثمينة لا يزال أغلبها مطمورًا تحت الرمال ومقبورًا في بطون الأودية والجبال، فهناك أحجار وصخور عليها كتابات ورموز ونقوش لا يوجد من يحلّ معمّاها ويطلع على أسرارها، وهناك أيضًا مغاير في الجبال قيل إن فيها كنوزًا وآثارًا، ولكن أغلب الأهالي يزعمون أنها مساكن الجنّ، وقد حاول أفرادٌ دخول تلك المغاير فانطفأت المصابيح التي حملوها معهم؛ لكثرة ثاني أكسيد الكربون، وعادوا خوفًا من أن يضلوا الطرق فيهلكوا.

وفي جبل القِزة توجد فتحة كبيرة على شكل باب مستطيل، رصفت أمامه صخور كسلالم للصعود، وبداخل هذا الباب ممرّ متسع يوصل إلى دهاليز لا تعرف نهايتها، ولا يعلم أحد ما بداخلها لشدة الظلام، وعلى مقربة من هذا الكهف نقوش كثيرة وصور أقدام منقورة في الصخور. وفي جبل حُرَيْضَة توجد حفرة أسطوانية الشكل يقال لها بئر غمدان، وفي نهاية هذه البئر فتحة مستطيلة الشكل حالكة الظلام، تنبعث منها روائح كريهة لكثرة ما فيها من الرطوبة، وتحلل الصخور، وبول الخفافيش، ويعتقد الأهلون أن فيها كنوزًا ثمينة، ولكنهم لا يجرؤون على الدخول فيها؛ لزعمهم أن فيها عفاريت.

المَشْهَد:

توجد في المَشْهَد أحجار كثيرة عليها كتابات ونقوش، ويستعملها بعض الأهالي لبناء البيوت والآبار والسقايات، وفي جنوبه على مسافة عشر دقائق منه تقوم أطلال غيبون، وينسبها الناس إلى قوم عاد، ويحتمل أن تكون بقايا مدينة حميرية؛ لوجود

كتابات بالحرف المسند، وتوجد هناك تلال تعلو إلى ٣٠ قدمًا، على سطوحها أنقاض حيطان مبنية من الأحجار المتماسكة ببعضها بنوع من الملاط، وعلى المنحدرات بقايا أحجار عليها نقوش، وعلى أحد هذه التلال بئر يبلغ اتساعها ٣٠ قدمًا وعمقها ٦٠، وعلى بعد ربع ساعة من غيبون تقوم أطلال أخرى تسمى مقابر الملوك، وهي عبارة عن حيطان في الصخور قائمة على تلال متوسطة الارتفاع، وعلى بعضها نقوش وكتابات.

واد عَمْد:

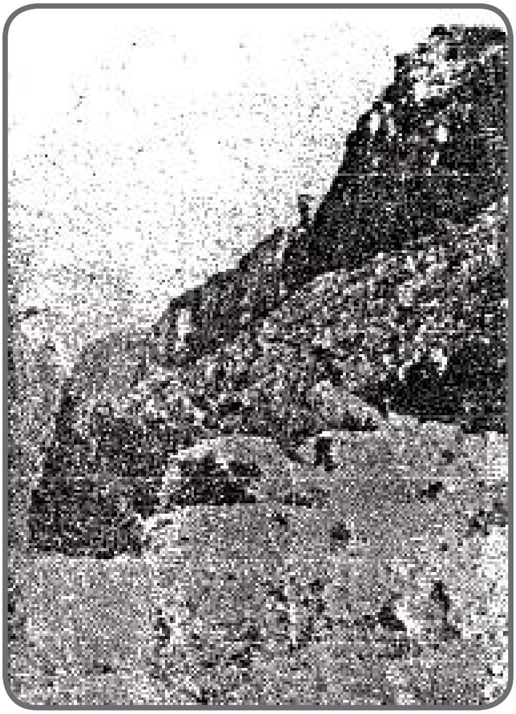
«منطقة فقيرة وجافة ولكنها غنية بآثارها» هكذا قال عنها السيدان ميلن D.Va Ser Meulen وويزمان H.Von Wissmann حينما اخترقا هذا الوادي المنبسط في مايو سنة ١٩٣١م، فقد شاهدا هناك أغنى بقعة أثرية في حضرموت، وهي تمتد إلى مسافة ميلين ونصف ميل، ولكن السيول قد أثرت عليها فجرفت بعضها ومحت معالمها، وتدل تلك المخلفات الكثيرة على أنها كانت قديمًا تموج بالسكان.

ديار عاد:

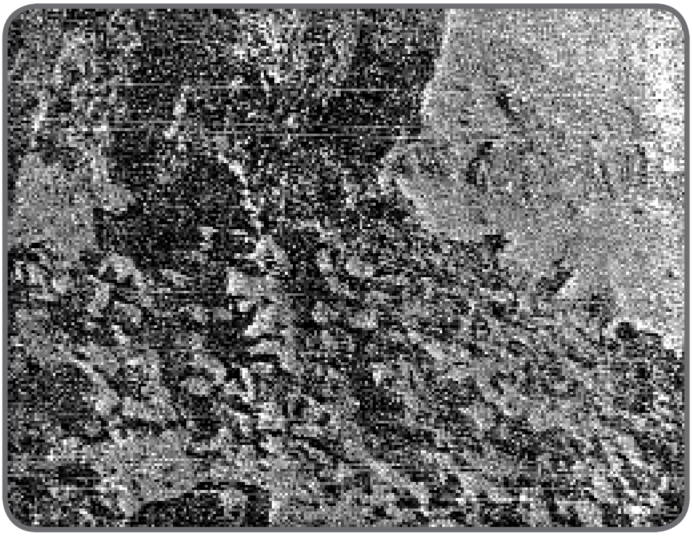
وفي وادي ثقب على مقربة من قرية بريرة توجد بقايا أبنية يقال لها ديار عاد، وتوجد هناك مجارٍ للسيول يبقى في بعضها الماء طول العام. وتوجد بركة كبيرة بها ماء آسن، وفيها أفاعي سامة، وعلى مقربة منها وهدة عميقة بها بقايا منازل وأنقاض مساكن، يبلغ طول الواحد منها عشرة أقدام، وعرضه ستة أقدام، وبعضها مسدد بالصخور مما يحتمل أن يكون فيها كنوز، وعلى بعض الحيطان نقوش باللون الأحمر، وهذه المساكن مبنية من الصخر الطبيعي ومتماسكة ببعضها بالطين.

سون:

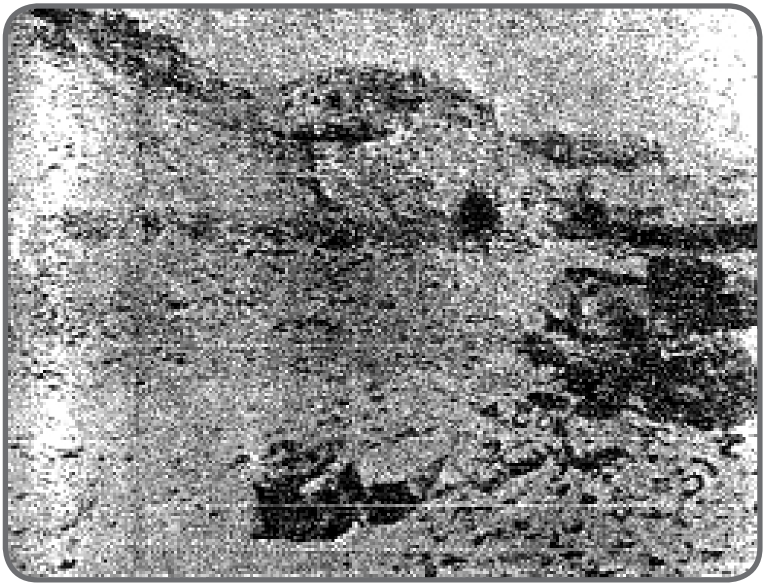
في سون بالقرب من قرية رضيح توجد أطلال متهدمة لا تزال أسسها ترى على قمم الأكوام، وهي من الحجر غير المنحوت، وعلى إحدى القمم توجد أحجار هي بقايا نوع من الملاط، وتوجد هناك جرار كثيرة عليها نقوش وأنقاض حائط ضخم من الصوان الطبيعي كان متصلًا بالجبل، وهو من بقايا سد كان يخترق الوادي فيما يرجع إلى ما قبل الإسلام، وبين قَسَم وقبر هود -عليه السلام- توجد قرية خربة وقلاع كبيرة لا يزال بعضها قائمًا بصورة تبعث في القلوب الهيبة والوقار. وفي فُغْمَا على مقربة من سوم توجد منطقة حافلة بالأطلال الضخمة، وعلى مقربة منها تقوم أطلال حصن العر؛ وهي عبارة عن بقايا من الحيطان الضخمة يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام، قائمة على تلّ منعزل، ممتدّ إلى مسافة بعيدة، شديد الانحدار، وهذا الحصن المتهدّم كان فيما مضى قلعة تشرف على ذلك الإقليم. وفي سفح التلّ توجد بئر مطمورة، ولا تزال آثار الطريق الذي يؤدي إلى القمة متميزة، وما زالت بقايا الأبنية مبعثرة حول قمة التلّ على ارتفاع ٥٠ قدمًا، وهناك ممرّ صغير في الصخر، منحدر من الجهة الجنوبية الشرقية، حيث توجد بضع درجات كانت المدخل الرئيسي للقلعة، وعلى الأعَمْدة المتهدمة نقوش دقيقة تدلّ على مهارة صانعها، فقد رسم صورًا للصيد بها فرسان يحاربون الأسود وجهًا لوجه، وصور أخرى جميلة للوعل الذي يلعب دورًا مهمًا في خرافات حضرموت، ورسم أيضًا عناقيد العنب كزخارف جميلة للأعَمْدة.



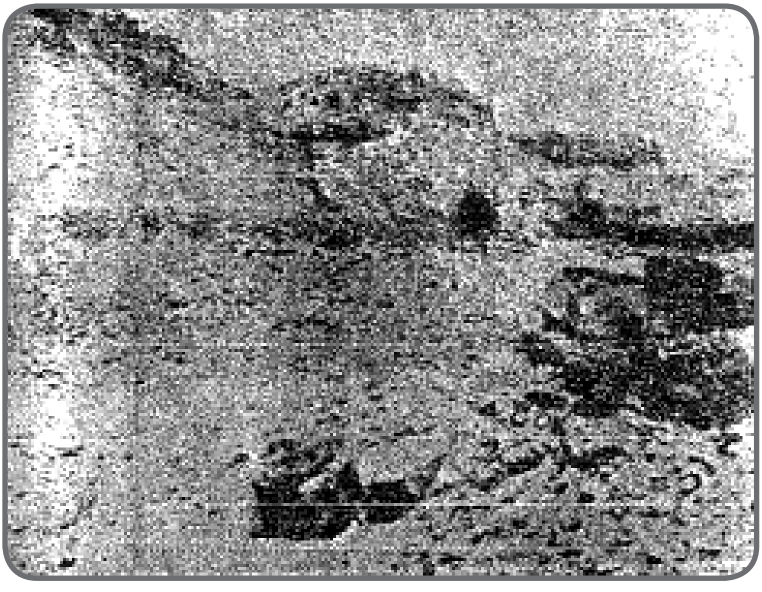
وادي ثقب



ديار عاد



أطلال أثرية قرب سون

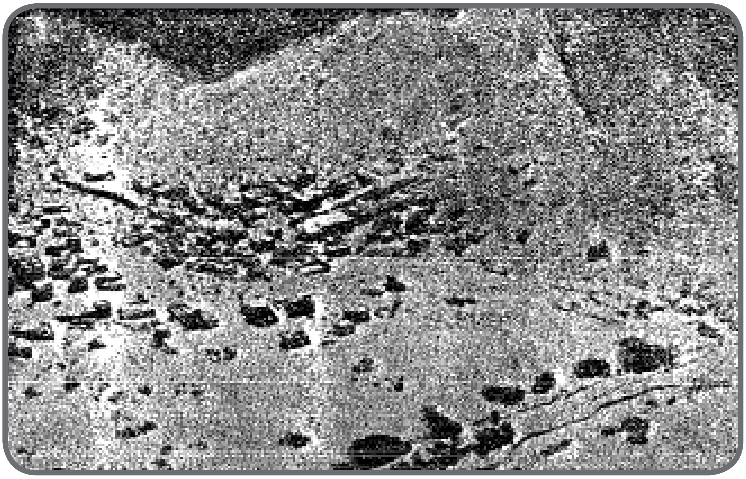


أطلال حصن العر

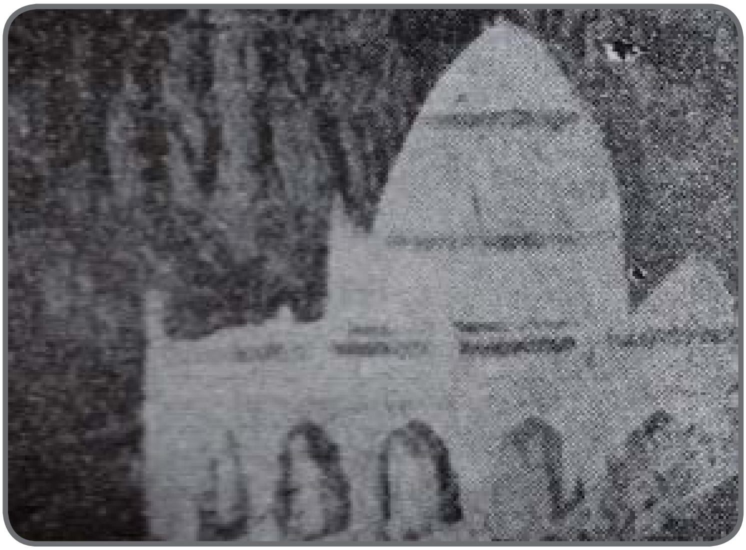
قبر هود:

جاء في كتاب (معجم ما استعجم) للبكري «أن الكلبي روى عن رجاله عن الأصبغ بن نباتة، قال: كنا عند علي بن أبي طالب في خلافة عمر، فسأل رجلًا من حضرموت فقال: أعالم أنت بحضرموت؟ قال: إذا جهلتها فما أعلم غيرها. قال: أتعرف موضع الأحقاف؟ قال: كأنك تسأل عن قبر هود؟ قال: نعم. قال: خرجت وأنا غلام في أغيلمة الحيّ نريد أن نأتي قبره لبعد صيته، فسرنا في وادي الأحقاف أيامًا، وفينا من قد عرف الموضع حتى انتهينا إلى كثيب أحمر فيه كهوف، فانتهى بنا ذلك الرجل إلى كهف منها، فدخلناه فأمعنّا فيه، فانتهينا إلى حجرين قد أطبق أحدهما فوق الآخر، وفيه خلل يدخل منه النحيف متجانفًا، فرأيت رجلًا على سرير شديد الأدمة كثّ اللحية، قد يبس على سرير، وإذا لمست شيئًا من جسده وجدته صلبًا، وعند رأسه كتابة بالعربية: أنا هود الذي آمنت بالله، وأسفت على عاد لكفرها، وما كان لأمر الله من مردّ. فقال علي: كذلك سمعته من أبي القاسم ﷺ. وهذه الرواية مشكوك في صحتها، ويحتمل أن تكون من أخبار القصّاص المنمقة، ويقال: إن هودًا -عليه السلام- مات بحضرموت، وقبره على تلّ مرتفع من الأرض، عليه قبة مربعة الشكل، مطلية من الداخل والخارج بالجير الأبيض، ويبلغ الضريح مائة وعشرين قدمًا. وهذا لا يدل على طوله -عليه السلام-، وإنما هو رمز لعظمته، وفي وسط القبة يقوم بناء مستدير كقاعدة عمود سميكة فوق صخرة، ويظن أن هذا المكان هو الذي انشقت فيه الصخرة، وقد صقلت هذه الصخرة بآلاف الأيدي التي مرَّت عليها، وآلاف الشفاه التي قبَّلتها، وكتبت على الحيطان الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت في هود، والأحاديث الموضوعة التي تحضّ على زيارة هذا القبر، وعلى مقربة من القبة يقوم (مسجد الناقة) تشرف عليه قطعة من الصخر، يزعم الأهالي أنها الناقة المتحجرة، وتوجد هناك عدة بيوت ذات طابقين، وبناء

هذه البيوت وهذه القبة بسيط في ذاته، لا تظهر فيه براعة الفنّ الحضرمي، ولكن يشعر القادم إلى هذا الوادي الهادئ الصامت بشيء كثير من الهيبة والإجلال لذلك القبر المقدس.



قبر هود عليه السلام



قبة ضريح النبي هود

وقد بولغ في تقديس هذا الضريح، فتراهم يشدّون الرحال لزيارته، وعندهم شيء من بقايا الشعور الوثني الذي كان يشعر به العرب للات والعزَّى، يستعينون به ويتجهون إليه، ويولون وجوههم شطره لقضاء الحاجات واستنزال البركات ودفع الكربات. يأتي الشخص من العوام القبر ومعه قطعة من الخشب بها خيط ملوَّن من الصوف في نهايته قطعة صغيرة من الحجر، أما القطعة الخشبية فتوضع في الحائط الخارجي للقبة، ولا يسمح بقذف الخشب في داخل القبة، أما الخيط الصوفي فيجمع ويرطب باللعاب، ويقذف في الحائط أو السقف، ولهذا تظهر الحيطان والسقف كأنها مغطاة بطبقة من الورق المزخرف أو زينت بنقوش مختلفة الألوان.

والحضارم يزورون هذا الضريح المقدَّس مرة في كل عام، يقيمون هناك ثلاثة أيام ثم يعودون، وتبقى تلك القرية الهادئة خالية عن السكان إلا الحرس الذين يحرسونها.

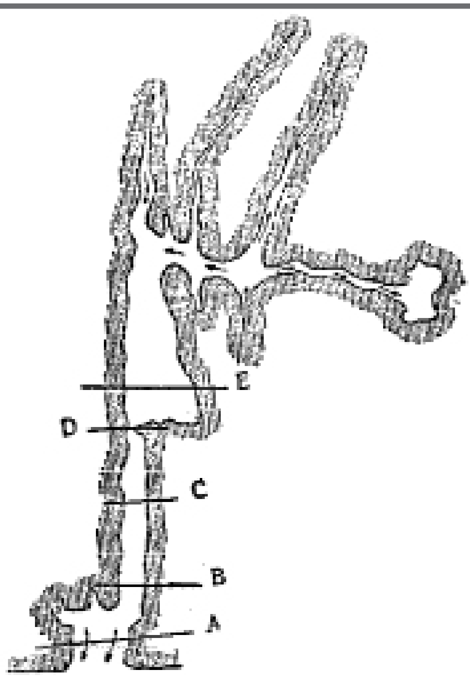
قبر صالح عليه السلام:

وفي وادي سَرْ يوجد قبر طويل عليه قبة كبيرة يزعم الناس أنه قبر صالح -عليه السلام-، ولذلك يشدُّون الرحال إليه مرَّة في كل عام، ولهم اعتقادات خرافية حول هذا الضريح، والتاريخ لا يثبت وجود قبر صالح -عليه السلام- في حضرموت؛ لأنه مات في الحجاز.

بئر بَرْهُوت:

تقع بئر برهوت على مقربة من قبر هود -عليه السلام-، في الوادي الرئيسي للسبعة الأودية، وهذا الوادي يتسع في مبدئه ويأخذ في الضيق حتى يكون في أعلاه زاوية، وليس هناك أثر لكائن حيّ، ويغطَّى بطبقة من الطَّفَل، وما زالت بعض بقايا المزارع وقليل من حراج النخيل باقية هناك، لا تتخلل هذا الصقع صخور شاهقة، وليس هناك أي أثر يدل على وجود براكين كما يزعم بعض الناس، فهناك طبقات

من الصخر الجيري تعلوها أخرى من الحجر الرملي، وتكثر في جانبي الوادي الكهوف والمغاير، وعلى مقربة من نهاية الوادي على بعد ثلاث ساعات من مبدئه تظهر فوهة البئر السوداء على ارتفاع ٣٠٠ قدم من سفح الجبل، وقد نقر في الصخر طريق معبَّد معرَّج، تهدَّم جزء كبير منه بفعل المياه، وكانت الجمال تسير فيه لجلب السماد الناتج عن فضلات الخفافيش التي توجد بكثرة في البئر، ويبلغ البئر ١٢٠ قدمًا في الطول، ٤٥ في العرض، ٦٠ في العمق، ويزعم الناس أنها مأوى أرواح الكفار والأشرار، وقد ساعدت على تثبيت هذه الخرافة في أذهانهم عزلة هذا الصقع ولونه القاتم ومنظره الرهيب.



بئر برهوت

ورد ذكر هذه البئر في الكتب العربية الجغرافية القديمة، فقد ذكرها الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب). وذكرها القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) فقال:

«تقع بئر برهوت على مقربة من حضرموت، وقد قال النبي ﷺ: «**إن أرواح الكفار والمنافقين تسكن فيه**»، وهو من أيام عاد. وقيل: إن عليًا -كرم الله وجهه- قال: «إن أكره بقعة في الأرض عند الله هو وادي برهوت، وبها بئر كريهة الرائحة، وماء آسن حيث تسكن أرواح الكفار». وقال المسعودي في (مروج الذهب): «تقع بئر برهوت في بلاد أسفار وحضرموت وهي جزء من بلاد الشِّحْر بين اليمن وعُمان، ويسمع لها صوت كالرعد على بعد أميال، وتقذف أكوامًا من الحمم يسمع لها أزيز مرعب». وقال الأصمعي: «حدثني رجل حضرميّ، فقال: كلما شممنا رائحة خبيثة في إقليم برهوت علمنا بعد ذلك أن شخصية كبيرة من الكفار قد ماتت».

وكل هذه الروايات ليس لها حظٌّ من الصحة، ومن المحتمل أن بئر برهوت كانت في العصور الواغلة في القدم ملجأ لرئيس قوم كانوا يسكنون في تلك المغاير التي حولها، وأصحّ ما قيل عنها ما جاء في كتاب Hadramaut للسائحين السيدين ميلن D.Van Der Meulen وويزمان H.Van Wissmann فقد رحلا إلى حضرموت في سنة ١٩٣١م وبلغا بئر برهوت وشاهدا ما بداخلها، وها نحن نذكر وصفهما لتلك المغارة الحالكة الظلام.

«... دخلنا، وكان لويزمان خبرة بكشف الكهوف، ومعنا الآلات العلمية اللازمة، وفانوس لنختبر به هواء البئر عما إذا كانت به كمية وافرة من الأكسجين، وسرنا بحذر لأن حافة الكهف كانت منحدرة، والتراب ناعم بحيث لا نسمع وقع الأقدام عليه، والظلام حالك جدًا، والسكون مخيِّم لا نسمع إلا صوت الخفافيش التي نجمت عنها رائحة خبيثة، ثم وجدنا الممر متصلًا بجزء متسع، فسألنا رفاقنا البدو الذين أخذوا بروعة المنظر: هل هذا هو مقر أرواح الكفار؟ فأجابوا: الله أكبر، الله أعلم، ثم أخذ الممرّ يضيق ثانية، وانتهى إلى دهليز ضيق لا يمكن السير عليه، ولا يوجد طريق آخر سوى ممر ضيق على اليمين، كلما تعمقنا فيه كلما اشتدت الحرارة،

ووجدنا أنفسنا مضطرين للعودة بسبب الحرارة والظلام والروائح الخانقة، وكلما تقدمنا تقاطع الممرّ مع ممرّات أخرى على الجانبين، ووجدنا آثارًا تدل على وجود إنسان وأثر كوّة نقرت في الحائط، وقطع من الفحم الخشبي، ولما تقدمنا قليلًا وجدنا مثل ذلك، وقد أخذ الممر يضيق وتزداد حرارته، ولما خرجنا وجدنا أنفسنا نتصبب عرقًا وقد تغطت أجسامنا بطبقة من الثرى فأصبحنا كالوقادين، وكانت بعض الدهاليز الجانبية شديدة الانحدار، وقد دخل فون ويزمان وعلى أحدها وعلى جانبيه أكدام من الأحجار، وبعد أن سارا مسافة طويلة سمعنا صوت انهيار كدم من الأحجار ولم نر ضوء المشعل الذي معهما، ثم خيم صمت رهيب وبعد ٢٠ دقيقة ونحن في قلق متزايد خرجا منهوكي القوى، فساعدناهما على الصعود، وكانت الحيطان مغطاة بطبقة بيضاء اللون حسبناها ملحًا، ولما تذوقناها لم نجد لها طعم الملح، وتتخللها أصداف لا عداد لها، فنزعنا بعضها وأخذناه معنا، ولما بحثنا كل الممرات عدنا أدراجنا، وفي طريق العودة كان الجو يزداد برودة، ولسوء الحظ لم نحضر معنا ترمومترًا حتى نسجل الحرارة، ولما خرجنا وجدنا رفاقنا يغطُّون في سبات عميق، فلما أيقظناهم نظروا إلينا في شيء كثير من الدهشة إذ كانوا يتوقعون هلاكنا، وانتهينا بعد بحثنا إلى النتيجة الآتية: وهي أن بئر برهوت كهف جيري ليس به أثر بركاني، وأما الروائح الخبيثة فهي ليست ناجمة عن الكبريت، بل عن تحلل الصخور وبول الخفافيش. والسبب في الشعور بالحرارة ليس نتيجة عوامل بركانية، ولكن من تأثير الحرارة الخارجية» انتهى بتصرف قليل.

مدينة مَكْنون الخاوية:

وعلى مقربة من سوم تقع أطلال مدينة مكنون. وما زالت بقايا الأبنية القديمة قائمة، ويتصل بهذه الخرائب مكان متسع كان مقبرة ذلك الحي، والقبور طويلة مما يدل على أن أصحابها كانوا عماليق، وقد رصفت الأحجار على القبور بشكل

دوائر، وبقرب وادي سخور تقوم أنقاض قلعة كبيرة، وعند فتحة وادي سخور فوق الصخور على ارتفاع ٣٠٠ قدم تقوم قلعة ثوبى، وما زالت حيطانها حافظة شكلها بالرغم عن سقوطها وتراكمها بعضها على بعض. وتوجد حصون كثيرة واستحكامات متهدمة في ثوبى والعُر، وهذا يدل على أن هذا الإقليم كان منطقة حربية لحماية حدود المملكة.



نقوش وكتابات على صخور في ديار عاد ومشهد ووادي ثقب

وفي سنة ١٣٣٥هـ جاء سيل عظيم، فكشف عن آثار هامة؛ حليّ، ونقود، وأصنام من ذهب ومن فضة، بيع جلها بثمن بخس في عدن وجيبوتي وزنجبار. ومن يقارن الآثار الحضرمية القديمة بالآثار المصرية القديمة يجدها متشابهة تمام التشابه. وهذا يؤكد ما قاله بعض المستشرقين من أن المصريين القدماء فوج من قبائل آسيوية مرت بحضرموت في طريقها إلى الحبشة، ثم إلى وادي النيل.

دخول الإسلام في حضرموت

لم يُثبِت لنا التاريخ أن الحضارم عبدوا الأصنام قبيل الإسلام كما كان يعبدها كثيرون من العرب في قلب الجزيرة وفي اليمن، ولم يذكر لنا التاريخ أنهم عبدوا الحيوان أو النار، وإنما كان أغلبهم على الفطرة، على أن اتصالهم باليمن والحجاز كان متينًا، وسفرهم للحجّ كان في كل عام، ولقد رأوا العرب هناك تقدِّس الأصنام وتعبدها لتقرِّبهم إلى الله زلفى، ورأوا ازدحام الكعبة بالأصنام فلم يتأثروا بذلك، ولم تدفعهم النعرة الدينية لصناعة الأصنام وعبادتها في حضرموت. والأصنام التي اكتشفها السيل سنة ١٣٣٥هـ يرجع عهدها إلى عصر عاد، حين طغوا وبغوا وانتحلوا دين الصابئة. يقول الفيلسوف ابن خلدون الحضرمي: «ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوّهم، انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب، ويقال إن ذلك لانتحالهم دين الصابئة، فبعث الله إليهم أخاهم هودًا».

ولما ظهر الإسلام تاقت قلوبهم لاعتناقه والإيمان بما جاء به محمد ﷺ، فأرسلوا وفدًا برئاسة وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن معمر الحضرمي الكندي، وذلك في السنة السابعة للهجرة. وقيل: إن رسول الله ﷺ بشَّر أصحابه قبل قدومه وقال: «يأتيكم بقية أبناء الملوك»، ولما جاء رحب به وأدنى مجلسه، وبسط له رداءه وقال: «اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده»، واستعمله على الأقيال من حضرموت.

وروى صاحب (البداية والنهاية) أن النبي ﷺ أقطعه أرضًا وأرسل معه معاوية ابن أبي سفيان، فخرج معه راجلًا، فشكا إليه حرَّ الرمضاء فقال له: انتعل ظل الناقة، فقال: وما يغني عني ذلك؟ لو جعلتني ردفًا، فقال له وائل: اسكت، فلست من

أرداف الملوك، ثم عاش حتى وفد على معاوية وهو أمير المؤمنين، فعرفه معاوية ورحب به وأذكره الحديث، وعرض عليه جائزة سنية فأبى أن يأخذها وقال: أعطها من هو أحوج إليها مني.

ويذكر بعض المؤرخين أن الأشعث بن قيس الكندي قدم على رسول الله ﷺ في بضعة عشر راكبًا مسلمًا، فلما دخل رحب به وأدناه من نفسه، ولما أراد الانصراف سأل رسول الله ﷺ أن يولي عليهم رجلًا فولى عليهم زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، فأقام في تَرِيْم، وكان المثل الأعلى في الخلق الحسن، ولا غرو فقد اصطفاه الرسول ﷺ، وجعل في بعض البلاد نوابًا عنه يجمعون الصدقات ويعلِّمون الناس أحكام الدين، ولقد آمن الحضرميون جميعًا بالإسلام بسرعة ليس لها في الجزيرة العربية مثيل، وانقادوا لأوامره دون أن يظهروا أي مقاومة. وانقياد الحضرميين للدين بهذه السرعة ولو أنه يدل على السذاجة وسلامة النية، يعدُّ مفخرة من المفاخر العظيمة التي يحفظها لهم التاريخ إلى الأبد.

أما الصدقات العظيمة التي كان يجمعها زياد بن لبيد، فكان أغلبها من النقود، والحبوب، والجِمال، والثمار. وكان زياد يرسل هذه الصدقات إلى مكة لبيت المال بعد أن يأخذ من النقود والحبوب والثمار جزءًا كبيرًا يتصدق به على الفقراء والمعسرين في حضرموت.

كِنْدة

هم بنو كَهْلان بن ثور بن عُفَيْر بن عَدِي بن الحارث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن كهلان. وعفير أول من لقب كِنْدة؛ لأنه كَنَدَ أباه نعمته، أي: جحدها وكفر بها. أجلوا من البحرين والمشقر بعد قتل ابن الجون، وكان الذي نقل منهم إلى حضرموت نيفًا

وثلاثين ألفًا، أقاموا في الشِّحْر، ودَوْعَن، والكَسْر[1]، وعَنْدَل، والهَجْرَين، ورَخْيَة، ودُهُر، وسدية (سَدْبِة)[2]، وبدّا (حَوْرَة)، ومنوب، ودَمُّوْن.

كانوا على جانب عظيم من الذكاء وسرعة البداهة وقوة الفراسة، فصحاء بلغاء، وكان ملوك حِمْيَر يصاهرونهم، ويولّون ذوي الشخصيات البارزة منهم وأصحاب العقول الراجحة منهم على قبائل البادية. وأول ملوكهم حِجْر بن عمرو الكِنْدي الملقب بـ(آكل الـمُرّار)، وكانت كِنْدة قبل أن تملّك حِجْرًا عليهم في تطاحن وتنازع وتخاصم؛ يأكل القوي منهم الضعيف حتى ملك حِجْر، فأصلح أمورهم، وجمع شملهم، ووحد صفوفهم، وساسهم بعقله الراجح أحسن سياسة، وحينما اشتد التنازع والتناحر بين قبائل معدّ بن عدنان بالحجاز، اجتمع عقلاؤهم، وأرادوا أن يولوا عليهم ملكًا منهم يطفئ الفتن، ويصلح الأمور، فرأوا أن قبائل معدّ لا تخضع لملك منهم، فسار وفد منهم إلى حسان بن تبّع الحميري وطلبوا إليه أن يولي عليهم ملكًا، وكان حِجْر بن عمرو الكِنْدي المذكور ذا رأي وحزم وحلم ووجاهة، فولّاه عليهم، فسدد حِجْر أمورهم، وجمع قلوبهم، ووحد صفوفهم، وساسهم أحسن سياسة. ولما مات ملك بعده ابنه عمرو، ثم قام بالأمر بعده ابنه الحارث، وكان قوي الملك، قيل: إنه وافق كسرى فيروز على الزندقة والدخول في مذهب المجوسية، وملك بعده ابنه حِجْر على بني أسد، كما ملك باقي بنيه على كثير من قبائل العرب، وكان حِجْر قاسيًا في حكمه، سيء السيرة، قبيح المعاملة، فتنكر عليه بنو أسد، فقاتلهم حتى قهرهم، ثم هجموا عليه وقتلوه غيلة في دَمُّوْن.

---

(١) يشمل الكَسْر: هَيْنَن، وقُعُوضَة، والقِزة، والخَشْعَة، وكان يعرف بـ(كَسْر قشاقش).

(٢) كان اسم سَدْبَة: سَدْية بالياء، واسم حَوْرَة: بدا، نسبة إلى قبيلة بدا الكِنْدية التي سكنتها وعمرتها.

ولما ضعفت الدولة الحميرية، ودبَّ إليها الانحلال، ازدادت قوة كِنْدة واتسع نطاق سلطانهم، وامتد نفوذهم. ومن أشهر ملوكهم مِخوس، ومِشرح، وحَمَد، وأبضعة، والعمردة بنت الأعشى، وكانت العمردة أشد تأثيرًا من إخوانها في الناس، وأكثر نفوذًا منهم لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها في تدبير شؤون الحكم، وكان نفوذ هؤلاء الخمسة مطلقًا لا حدّ له، وكانت أحكامهم قاسية، ولكنهم أهل قناعة وكرم، فقد كانت ثرواتهم واسعة، وأراضيهم خصبة ذات غلات وافرة، وكانوا يراسلون ملوك الروم واليمن، ويغمرونهم بالهدايا النفيسة التي كان أحسنها الخيل الذي كان يوجد بكثرة في حضرموت الشرقية حيث الحشائش والأعشاب، وكانوا ولعين بشرب عصارة الأعناب، وكانت لهم معامل للخمر في دَمُّوْن عاصمة ملكهم بحضرموت الوسطى.

كِنْدة في دورها الأول الإسلامي:

جاء الإسلام وكِنْدة صاحبة الحول والطول والتاج والصولجان، وكانت أربع طوائف: طائفة تحكم الشواطئ من حدود ظَفَار إلى المُكَلَّا التي كانت إذ ذاك أكواخًا للصيادين، وعاصمة هذه الولاية الشِّحْر، وطائفة تحكم جميع دَوْعَن. وطائفة تحكم الكَسْر كله، والعَجْلانيَّة، وحَوْرَة، وسَدْبِة، والهَجْرَين، وعَنْدَل، ولَحْرُوْم، وحُرَيْضَة، ومركز هذه الولاية حَوْرَة، وطائفة تحكم كل البلاد الواقعة بين منوب وقبر هود -عليه السلام-، وعاصمة هذه الولاية دَمُّوْن، وهؤلاء كانوا المراجع للطوائف الأخرى، أو بعبارة أوضح كانوا المهيمنين عليهم، إلا ولاية الشِّحْر فإنها كانت مستقلة عنها كل الاستقلال، وكانوا أهل ترف وبذخ لخصوبة أراضيهم وكثرة غلاتها، وكانوا مندفعين كل الاندفاع وراء الملذَّات الجسدية. أما ولايتا حَوْرَة ودَوْعَن فكانوا يمثلون الرجولة بكل معانيها، وجميع الولاة في النواحي

الأربع كانوا أهل قناعة وكرم، أحكامهم عادلة ومعاملتهم مع الرعايا حسنة، وكانوا من أوائل الداخلين في الإسلام.

امتناع كِنْدة عن دفع الزكاة:

لما توفي رسول الله ﷺ كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى زياد بن لبيد الأنصاري يخبره بوفاة النبي ﷺ، ويأمره بأخذ البيعة من أهل حضرموت، فخرج زياد بن لبيد يدعو الناس لبيعة أبي بكر رضي الله عنه، فبايعه خلق كثير، وامتنع عن البيعة حارثة بن سُراقة بن مَعْدي كَرِب بن الحارث من عظماء كِنْدة وخطبائها، وامتنع عن دفع الزكاة الأشعث بن قيس من سادات كِنْدة وأغنيائها في كثير من أتباعه، وارتدت بنو وليعة بن شرحبيل بن معاوية، فتركهم زياد وشأنهم، وكان في استطاعته أن يرجعهم إلى الإسلام؛ لأنهم شرذمة قليلة الرجال والمال. أما حارثة بن سراقة والأشعث بن قيس فليس في استطاعته أن يخضعهما بالقوة لبيعة أبي بكر رضي الله عنه ولدفع الزكاة؛ لأنهما إذا غضبا غضب لهما آلاف مؤلفة من رجالات كِنْدة، ولكن كان ينبغي أن يراودهما ويدعوهما ومن معهما إلى البيعة ودفع الصدقة، فلم يفعل بل التزم السكون والصمت، واكتفى ببيعة سكان شِبَام، والغُرْفَة، وسَيئون، وتَرِيْم، ومَرْيَمَة، ودَمُّوْن.

خرج زياد بن لبيد يومًا لأخذ الصدقة، فأخذ فيما أخذ بكرة من أحد فتيان كِنْدة، فهاج الفتى وماج وصيح وضج وهرع إلى حارثة بن سراقة بن معدي كرب الكندي واستغاث به، فجاء حارثة بن سراقة إلى زياد بن لبيد، وأمره أن يطلق للغلام بكرته، فامتنع وقال: عقلتها ووسمتها بميسم السلطان، فهدده حارثة وأنذره وقال له: أطلقها أيها الرجل طائعًا قبل أن تطلقها وأنت كاره، فأبى زياد ولم يبالِ بوعيده ولا بتهديده، فوثب حارثة بن سراقة وحلَّ عقال البكرة وضربها، فانطلقت تعدو

وحارثة يقول:

يمنعها شيخ بخديه الشيب ملمع كما يلمع النوب

ماضٍ على الريب إذا كان الريب

استغاث زياد بن لبيد بأصحابه فأتوه سراعًا، وانحاز بنو وليعة المرتدون إلى حارثة بن سراقة، وخرج بجيشه لمحاربة زياد بن لبيد وأتباعه، فلقيهم زياد وقاتلهم، وكاد ينهزم لولا أن الحرب وضعت أوزارها ريثما ينجل الليل، فأتاه عبد له -وكان قد انحاز إلى حارثة- وأخبره أن ملوكهم الأربعة مخوس ومشرح وحمد وأبضعة في محجرهم قد ثملوا من الشرب، فذهب إليهم زياد خلسة وذبحهم وجعل يقول:

نحن قتلنا الأملاك الأربعة حمدًا ومخوسًا ومشرحًا وأبضعه

ولما علم بذلك الأشعث بن قيس خرج في جماعة من كِنْدة وعرض لزياد وأصحابه فانهزموا، فاستغاث الأشعث بعظماء كِنْدة، ولما رأى زياد ذلك كتب إلى أبي بكر رضي الله عنه يستمده، فكتب أبو بكر رضي الله عنه إلى المهاجر بن أمية والي صنعاء يأمره بإنجاد زياد بن لبيد، فخرج المهاجر بن أمية في جيش كبير، ولما بلغ ذلك أصحاب زياد ثبتوا في صف زياد وعاد إليه أغلب الذين انحازوا إلى حارثة، فخرج زياد والمهاجر بن أبي أمية بجيشهما فلقوا الأشعث وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ولما جنَّ الليل لجأ الأشعث وبعض رجاله إلى حصن النُّجَيْر، فحصروهم ومنعوا عنهم القوت وكادوا يموتون جوعًا، فطلب الأشعث الأمان له ولعدة أشخاص من أعيان أصحابه، فقام إليه معدان بن الأسود بن معدي كرب وقال: اجعلني من العدة، فأدخله فيهم وأخرج نفسه ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر، فقبضا عليه وبعثا به إلى أبي بكر رضي الله عنه أسيرًا في سنة ١٢ للهجرة، ولما حضر بين يدي أبي بكر رضي الله عنه قال له: فعلت وفعلت، فقال الأشعث: استبقني لحربك، فوالله ما كفرت بعد

إسلامي، ولكني شححت على مالي، فأطلقني وزوِّجني أختك أم فروة، فإني قد تبت مما صنعت، فأطلقه أبو بكر وزوَّجه أخته أمَّ فروة -وقد كان تزوجها حين قدم على رسول الله ﷺ وأخرها إلى أن يرجع- وذهب الأشعث لشدة فرحه إلى سوق الإبل وجعل يعرقب بسيفه كل إبل بالسوق، فبهت الناس وصاحوا: ارتدَّ الأشعث، فقال الأشعث: لا والله، ولكن خليفة رسول الله ﷺ زوجني بأخته، وهذه وليمتي فانحروا وكلوا، ولو كنّا ببلادنا لكانت أضعاف هذه، ثم دفع للناس أثمان إبلهم، وأقام في المدينة، وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون في الدولة الأموية، وسار إلى العراق غازيًا، وتوفي في الكوفة، وصلى عليه الحسن بعد صلح معاوية، وفيه يقول عمرو بن معد كرب:

والأشعثُ الكِنْدِي حين سما لنا ... من حضرموت مجنب الذكرانِ

قاد الجياد على وجاها نزبا ... قبّ البطون نواحل الأبدانِ

أما المهاجر بن أبي أمية فقد عاد بجيشه إلى اليمن بعد أن هدأت الحال واستتبَّ الأمن، وخضعت لزياد جميع قبائل حضرموت الوسطى، وعادت إلى الإسلام بنو وليعة، ولم يبق أحد من المرتدين، وقد كان من المنتظر أن تجتمع ملوك كِنْدة الذين في حضرموت الغربية وفي دَوْعَن وفي الشِّحْر للانتقام من زياد، وليعيدوا لإخوانهم ملوك الشرق سلطتهم وسطوتهم، على أن الأشعث أرسل رسله إليهم قبيل الحرب، ولكنهم لم يمدُّوه بشيء، ولم يظهروا أي عداء لزياد وأصحابه، ولم يعترضوا المهاجر بن أبي أمية حينما مر بينهم في الكَسْر في قدومه من اليمن وفي عوده إليها، ولو قاتلوه لقضوا عليه وعلى جيشه، ولعل الروابط بين ملوك كِنْدة في الغرب والشرق ليست على ما يرام، أو لعلهم رأوا أنه ليس من الشجاعة ولا من العدل أن تجتمع ملوك كِنْدة على جماعة قليلة العَدد والعُدد من سكان شِبَام، والغُرْفَة، وسَيئون، وتَرِيْم، ومَرْيَمَة، ودَمُّوْن، يقودهم شيخ ورع صالح تقي قام لا لشهوة في نفسه، ولكن لتنفيذ ركن من أركان الدين.

حضرموت تطالب بالخلافة

في سنة ١٢٩ للهجرة نهض عبدالله بن يحيى الكندي مطالبًا بالخلافة لنفسه. كان حاد الذكاء بعيد النظر فصيحًا بليغًا شجاعًا كريمًا، على جانب عظيم من الورع والتقوى والصلاح. ذهب إلى اليمن فرأى المظالم ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، والفساد ينخر عظام الأمة ويهدد كيانها، فنقم على الخليفة مروان بن محمد، ورماه بالضعف في السياسة والإهمال في تأدية واجبات الخلافة، ونقم على ولاة اليمن ومكة والمدينة أشد النقم.

وفي سنة ١٢٨هـ ذهب إلى مكة للحجِّ، فوافى أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي البصري الخارجي، ورآه يدعو إلى خلاف مروان وآل مروان، فقال له عبدالله بن يحيى الكندي: يا رجل إني أسمع كلامًا حسنًا، وأراك تدعو إلى حق فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي، فخرج به حتى ورد حضرموت، ولما رأى أبو حمزة المختار إجلال الناس لعبدالله بن يحيى الكندي وإكبارهم له بايعه على الخلافة وعاد إلى البصرة.

جمع عبدالله بن يحيى عظماء كِنْدة وحرَّضهم على الخروج لإزالة المظالم والمنكرات، ونشر العدالة والصلاح، وقال: ما يحل لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه. وكتب إلى أبي حمزة المختار وأبي عبيدة ومسلمة بن أبي كريمة مولى بني تميم وبلج بن عقبة بالبصرة يشاورهم في الخروج، فكتبوا إليه: إن استطعت أن لا تقيم يومًا واحدًا فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح فضل، ولست تدري متى يأتي عليك أجلك، ولله خيرة في عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه، ويخص بالشهادة منهم من يشاء. وشخص إليه أبو حمزة المختار وبلج بن عقبة في رجال من الإباضية وحرَّضوه وقومه على الخروج، وقالوا لهم: إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا، واقتدوا بسلفكم الصالحين، وسيروا سيرتهم، فقد علمتم أن الذي أخرجهم

على السلطان العبث لأعمالهم. فاجتمعت كِنْدة وبايعت زعيمها عبدالله بن يحيى الكندي على الخلافة، إلا ملكهم إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي في دَمُّوْن فإنه امتنع عن البيعة، ولكن عبدالله بن يحيى سار إليه في جماعة من عشيرته وأخذوه وحبسوه يومًا ثم أطلقوه، فرحل إبراهيم إلى صنعاء، وقام بالأمر عبدالله بن يحيى، فنشر العدل والأمن، وبنى المساجد وأطعم الفقراء والمعسرين، فأحبه الناس وكثر جمعه واحتشد حوله الأنصار والأعوان وهابته القبائل، وأكبروا فيه همته وورعه وصلاحه وتقواه، وسمّوه (طالب الحق).

ولما أحس في نفسه القوة للقيام ضدّ الخليفة مروان بن محمد انتخب من أبطال قومه ألفين وتوجه بهم إلى صنعاء بعد أن استخلف على حضرموت عبدالله بن سعيد الحضرمي، فبلغ ذلك القاسم بن عمر عامل مروان على صنعاء، فاستخلف على صنعاء الضحاك بن زمل، وخرج في بضعة آلاف من جيشه لملاقاة عبدالله بن يحيى الكندي، فلقيه الكندي في بلج وكان الليل قد أظلم، وقاتلهم فقتل منهم كثيرًا، وانهزم القاسم وعسكر قريبًا من صنعاء، فلحقهم الكندي وهزمهم شر هزيمة، واستولى على صنعاء، وأخذ الضحاك بن زمل وإبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي ملك دَمُّوْن المخلوع وحبسهما، وجمع الخزائن والأموال، وخرج إلى الجامع وخطب الناس، فقال بعد أن حمد الله عز وجل وصلى على نبيه ﷺ: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا، ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا. رضينا بالحلال حلالًا لا نبغي به بديلًا، ولا نشتري به ثمنًا قليلًا، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإلى الله المشتكى وعليه المعوَّل. من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب خمرًا فهو كافر، ومن شكَّ في أنه كافر فهو كافر. ندعوكم إلى فرائض بينات وآيات محكمات وآثار مقتدى بها. ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما

حكم، ندعو إلى توحيد الرب، واليقين بالوعيد والوعد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله. أيها الناس: إن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إذا اهتدى، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى، يُقتلون على الحق في سالف الدهور شهداء، فما نسيهم ربهم، وما كان ربك نسيًا، أوصيكم بتقوى الله، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به، فابلوا الله بلاء حسنًا في أمره وذكره. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

أقام عبدالله بن يحيى الكندي في صنعاء أشهرًا، أزال في خلالها المظالم والمفاسد، ونشر العدل والأمن وأحسن السيرة، ولان للناس جانبه، فأحبوه وأثنوا عليه، ومدحه الشعراء، وأتته السراة من كل أرجاء اليمن.

وفي أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٢٩ للهجرة جهز سبعمائة رجل من جيشه وأرسلهم إلى مكة تحت قيادة أبي حمزة المختار وبلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح، فراسلهم عبدالواحد بن سليمان وهو يومئذ على مكة والمدينة، ودعاهم إلى الهدنة حتى ينفر الناس النفر الأخير من الحج، فأجابه أبو حمزة إلى ذلك، ثم نزل عبدالواحد بن سليمان بمنى، وبعث إلى أبي حمزة المختار عبدالله بن حسن بن الحسن، ومحمد بن عبدالله بن عمر بن عثمان، وعبدالرحمن بن القاسم بن محمد، وعبدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن ربيعة بن أبي عبدالرحمن، فكشر في وجه العلوي والعثماني، وانبسط إلى البكري والعمري، وقال لهما: ما خرجنا إلا بسيرة أبويكما. فقال له عبدالله بن حسن: ما جئنا للتفضيل بين آبائنا، وإنما جئنا برسالة من الأمير.

ولما كان النفر الأول مضى عبدالواحد بن سليمان إلى المدينة، وخلَّى مكة لأبي حمزة المختار، فدخلها بدون قتال، وحين أقبل أبو حمزة على مكة، فزع الناس

حين رأوهم وحاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم، فقال لهم أبو حمزة: خلوا لنا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإنا لا نريد قتالكم. وأخبرهم بخلافهِ مروان والتبرِّي منه.

أما عبدالواحد بن سليمان فإنه لما وصل إلى المدينة كتب إلى مروان يعتذر لخروجه من مكة، فكتب مروان إلى عامله على المدينة عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز يأمره بإرسال الجيش إلى مكة لاستردادها من أيدي جيش أبي حمزة. فجهز عبدالعزيز ثمانية آلاف رجل أغلبهم من التجار لا علم لهم بالحرب. ولما بلغ ذلك أبا حمزة المختار استخلف على مكة إبراهيم بن الصباح. ولما كان على مقربة منهم أرسل إليهم بلج بن عقبة في ثلاثين فارسًا من أبطال كِنْدة وتميم. ولما جاءهم سألهم أن يطيعوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يكفوا عنهم ويعودوا من حيث أتوا، فشتمهم أهل المدينة وقالوا لهم: يا أعداء الله نحن نخلّيكم وندعكم تفسدون في الأرض؟ فقال بلج: يا أعداء الله نحن نفسد في الأرض؟ إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ونقاتل من قاتلنا ونستأثر بالفيء، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله، وادخلوا في السلم وعاونوا أهل الحق، ثم رجع بلج وأصحابه إلى أبي حمزة المختار وأخبره، فقال: كفوا عنهم، ولا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم بالقتال. فرمى رجل من أهل المدينة أبا حمزة بسهم فأخطأه وأصاب رجلًا آخر، فقال أبو حمزة: شأنكم الآن فقد حلَّ قتالهم. فحملوا عليهم حملة شديدة وهزموهم وقتلوا منهم ٣٢٣٠، ومن قريش ٤٥٠ رجلًا، ومن الأنصار ٨٠، ومن القبائل والموالي ١٧٠٠، فقال علي بن الحصين الكندي لأبي حمزة: اتبع القوم أو دعني أتبعهم، فأقتل المدبر وأذفِّف على الجريح، فإن هؤلاء شر علينا من أهل الشام، فلو جاؤوك غدًا رأيت من هؤلاء ما تكره، فقال له: لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا. ثم استولى أبو حمزة على المدينة وذلك سنة ١٣٠ للهجرة.

ولما هدأت الأحوال وخمدت الاضطرابات، خرج أبو حمزة إلى الجامع وخطب الناس فقال بعد الحمدلة والثناء على الله: «أتعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرًا ولا بطرًا، ولا عبثًا ولا لهوًا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا ثأر قديم نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وعُنِّف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط؛ ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعيًا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن؛ فأجبنا داعي الله، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض، فأقبلنا من قبائل شتّى، النفر منا على بعير واحد، عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافًا واحدًا، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، وأصبحنا والله بنعمته إخوانًا، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان، فشتان لعمر الله ما بين الغيّ والرشد، ثم أقبلوا يهرعون ويزفون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه، وغلت بدمائهم مراجله، وصدق عليهم ظنه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب بكل مهنّد ذي رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين، يا أهل المدينة إن أولكم خير أول وآخركم شر آخر. يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم، إلا مشركًا عابد وثن أو كافرًا من أهل الكتاب أو إمامًا جائرًا. يا أهل المدينة من زعم أن الله كلَّف نفسًا فوق طاقتها أو سألها عما لم يؤتها فهو لله عدو ولنا حرب. يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي على حبه للضعيف، فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد، فأخذ جميعها لنفسه مكابرًا محاربًا لربه، ما تقولون فيه وفي من عاونه على فعله؟ يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة، ويحكم يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول

الله ﷺ إلا شبابًا أحداثًا، شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا أنفسهم تموت غدًا بأنفس لا تموت أبدًا، قد خلطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفًا من النار، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقًا إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتصبت، وإلى الرماح قد أشرعت، وإلى السهام قد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا وعيد الكتيبة عند وعيد الله، ولم يستخفوا وعيد الله عند وعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله، وكم من يد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعًا وساجدًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

وقال هارون إن جده أبا حمزة قد أحسن السيرة في أهل المدينة حتى استمال الناس وسمع بعضهم كلامه في قوله على منبر النبي ﷺ: من زنى فهو كافر، وقال: إنه سمع أبا حمزة يخطب بالمدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أهل المدينة ما لي رأيت رسم الدين فيكم باقيًا وآثاره دارسة، لا تقبلون عليه عظة، ولا تفقهون من أهله حجة، وقد بليت فيكم جدته، وانطمست عنكم سنته، ترون معروفه منكرًا والمنكر من غيره معروفًا، إذا انكشفت لكم العبر وأوضحت لكم النذر، عميت عنها أبصاركم، وصمت عنها أسماعكم، ساهين في غمرة، لاهين في غفلة، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر، وتنقبض عن الحق إذا ذكر، مستوحشة من العلم، مستأنسة بالجهل، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورًا، تحملون منها في صدوركم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة، أو لم تلن لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله. يا أهل المدينة ما تغني عنكم صحة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم، إن الله قد جعل لكل شيء غالبًا ينقاد له ويطيع أمره،

وجعل القلوب غالبة على الأبدان، فإذا مالت القلوب ميلًا كانت الأبدان لها تبعًا، وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة، ولو استشعرت تقوى الله قلوبُكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم. يا أهل المدينة داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله ﷺ لما نَبَتْ داره وضاق به قراره وآذاه الأعداء وتجهَّمت له؛ فنقله إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم، متوازرين مع الحق على الباطل، ومختارين للآجل على العاجل، يصبرون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله وآووا رسول الله ﷺ ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، وآثروا الله على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، قال الله تعالى لأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ}، وأنتم أبناؤهم ومن بقي من خلفهم تتركون أن تقتدوا بهم أو تأخذوا بسنتهم، عمي القلوب، صم الآذان، اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى وأسهاكم، فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توقظكم فتستيقظوا، لبئس الخلَف أنتم من قوم مضوا قبلكم، ما سرتم بسيرتهم، ولا حفظتم وصيتهم، ولا احتذيتم مثالهم، لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم».

لما بلغ مروان بن محمد انتصار الإباضية واستيلاؤهم على المدينة خاف أن يزحفوا على الشام ويستولوا عليها ويتولوا الخلافة؛ لذلك جمع ٤٠٠٠ رجل من أبطال جيشه، وأعطى كل منهم مائة دينار وفرسًا ووعدهم، وجعل عليهم عبدالملك بن عطيَّة، ولما بلغ أبا حمزة الخبر بعث بلج بن عقبة في ستمائة من عسكره فالتقى الجيشان في وادي القرى في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠ للهجرة، فدعاهم بلج إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، فشتمهم أهل الشام وقالوا: نحن على حق وأنتم على باطل، فثارت الحرب بين الطرفين ودامت ثلاثة أيام، فقتل بلج بن عقبة وسبعون رجلًا من جيشه، ونصب عبدالملك بن عطية رأسه على رمح. أما أبا حمزة

فقد استخلف على المدينة أحد أعيانها يقال له الفضل، وسار إلى مكة ليحصنها، ولما علم عبدالملك بن عطية بخروج أبي حمزة من المدينة جمع رجاله وهجم على المدينة، فدعا الناس عمر بن عبدالرحمن بن أسيد الخطاب لقتالهم، فاجتمع إليه تجار المدينة والبربر والعبيد وخرجوا لمقاتلة ابن عطية، فانهزموا شر هزيمة، وقتل الفضل وكثير من رجاله واستولى ابن عطية على المدينة، ثم سار إلى مكة، فلقيه أبو حمزة بالقرب من مكة وأراد جيشه الهجوم على ابن عطية وقومه فمنعهم وقال: لا تقاتلوهم حتى تختبروهم، فصاح بهم ما تقولون في القرآن، والعمل به؟ فقال ابن عطية: نضعه جوف الجوالق، قال: ما تقولون في مال اليتيم؟ قال: نأكل ماله ونفجر بأمه، فأمر أبو حمزة جيشه بالقتال، فقتل أبو حمزة وقتلت امرأته مريم، كانت ذات شجاعة وإقدام، وأسر ابن عطية ٤٠٠ رجل من جيشه ثم قتلهم جميعًا، ولما بلغ ذلك عبدالله بن يحيى الكندي خرج من صنعاء في جماعة من أصحابه ومن اليمانيين لقتال ابن عطية، فالتقى به بأسفل مكة، فهزمهم أهل الشام وأكثروا فيهم القتل، فترجل عبدالله بن يحيى الكندي في ألف فارس وأظهروا من الشجاعة والإقدام ما حير عقول أهل الشام، وكاد النصر يكون حليفهم لولا كثرة جيش ابن عطية التي أحاطت بهم من كل جانب، وطال القتال حتى قتلوا رجال الكندي جميعًا، وجز ابن عطية رأس الكندي وبعثه مع ابنه يزيد بن عبدالملك بن عطية إلى مروان.

وسار ابن عطية إلى صنعاء واستولى عليها وأرسل جيشه يتتبع أصحاب عبدالله بن يحيى الكندي ويقتلهم.

ثم ظهر يحيى بن كرب الحميري وأعلن العصيان والتمرد على ابن عطية، وخرج عليه وانضمت إليه قبيلة شداد الإباضية، فخاف ابن عطية أن يستفحل أمرهم ويتسع نفوذهم، وتتقوى سطوتهم، فأرسل لقتالهم جيشًا تحت قيادة أبي أمية الكندي في الوضاحية، فالتقوا بهم بالساحل على مقربة من الحُديدة وقتلوا من الإباضية

مائة رجل، وهرب بعضهم إلى حضرموت والتجؤوا بعبدالله بن معبد الحضرمي وحرضوه على ابن عطية، فصاح عبدالله بن معبد في قبائل حضرموت، فأتاه خلق كثير من كِنْدة، ونَهْد، وتميم، وهمدان، واحتشدت الجموع في شِبَام، وامتلأت مخازنها بما تبرع به الأغنياء وأهل اليسار من البلح والطعام وغير ذلك للجيش. ولما بلغ ابن عطية الخبر استخلف ابن أخيه عبدالرحمن بن يزيد بن عطية على صنعاء، وتوجه بجيشه إلى حضرموت، فلقيه الحضارم بالكَسْر، والتحمت بينهم الحرب، وكان جيش الشام عالمًا بفنون الحرب، ولما جاء الليل وكان حالك الظلام كثير الرياح أرسل ابن عطية من ناحية الجبل الجنوبي جزءًا من جيشه إلى شِبَام لاحتلالها ونهب ما فيها من الذخائر والمؤن، فوصل هذا الجيش إلى شِبَام عند مطلع الفجر وتسوروا السور واحتلوا الحصون وقتلوا من فيها من الحرس، فاستيقظ الناس من مراقدهم وذعروا مما رأوا، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم وأموالهم فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، وأنى لهم أن يدافعوا والحصون في يد العدو يمنع كل من أراد الدخول إلى شِبَام أو الخروج منها. حدث ذلك كله دون أن يعلم عبدالله بن معبد الحضرمي. ولما طلع النهار قاتل عبدالله بن معبد ابن عطية حتى انتصف النهار، ثم تحاجزوا، ولما جاء الليل ووضعت الحرب أوزارها انسل ابن عطية وبقية جيشه إلى شِبَام.

ولما بزغ النهار لم يرَ الحضارم أثرًا للعدو، فأدركوا المكيدة وهرعوا إلى شِبَام فوجدوها محتلة بالعدو، وحاولوا إخراجه فلم يقدروا، ثم اضطروا للاستسلام ولكن ابن عطية جعل يقتل من يقدر عليه وينهب الأموال قهرًا، ثم أراد أن يرسل جيشه إلى سَيئون وتَرِيْم ودَمُّوْن ولكن مروان بن محمد بعث إليه كتابًا يأمره بالتعجل إلى مكة ليحج بالناس، فجمع ابن عطية أعيان شِبَام، وصالحهم على أن يرد إليهم ما عرفوا من أموالهم، ويولي عليهم من يختارون فأجابوه إلى ذلك، ثم سار متعجلًا في جماعة من قومه، ولما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الإباضية وقتلوه ومن

معه. ويقول المدائني: إنه لما شخص ابن عطية إلى مكة خرج إليه جمانة وسعيد ابنا الأخنس في جماعة من قومهما ورجل من نَهْد يقال له رمانة، وثلاثة من مراد، وخمسة من كِنْدة، فقصدوا حيث توجه ابن عطية فأدركوا أصحابه وكانوا أربعين رجلًا فقتلوهم جميعًا، وأدرك سعيد وجمانة ابنَ عطية فضرباه وطعناه وصرعاه من فرسه، وقعد سعيد على صدره فقال له ابن عطية: هل لك يا سعيد في أن تكون أكرم العرب أسيرًا، فقال: يا عدو الله أترى الله كان يمهلك أو تطمع في الحياة وقد قتلت طالب الحق (عبدالله بن يحيى الكندي) وأبا حمزة وبلجًا وأبرهة، ثم قتله وبعثوا برأسه إلى شِبَام. وبلغ الخبر ابن أخيه عبدالرحمن بن يزيد بن عطية وهو بصنعاء، فأرسل شعيبًا البارقي في جيش كثير أغلبه أجلاف قساة همج من سكان جبال اليمن، وجاءوا حضرموت من طريق الكَسْر، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان، ونهبوا الأموال وأخربوا دور هَيْنَن، وقُعُوضَة، والمِخَيْنِيق، وحَوْرَة، وكثيرًا من دور شِبَام، ولم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا من الإباضية إلا وقتلوه، ثم عادوا إلى اليمن حاملين معهم الأموال الطائلة والحلي الثمينة، وقد احمرت أراضي حضرموت من الكَسْر غربًا إلى شِبَام شرقًا بالدم.

انكماش دولة كِنْدة

كان خروج شعيب البارقي بجيشه الهمج إلى حضرموت أشبه بالضربة القاضية على الدولة الكندية والصدمة الرجعية في الأهلين، ولا غرابة فإن قَتْل الصبيان وبَقْر بطون النساء من الأهوال العظام والخطوب الجسام، أهوال لم يعهدها الحضارمة من قبل ولم يحدث في تاريخهم الواغل في القدم. انكمش ملوك كِنْدة، وقبع كل منهم في مقاطعته يحكم في هدوء وسكون وفي خمول وكسوف، وكره الشعب التخاصم والتنازع وكل ما يجرهم إلى التناحر والتصادم، وكأن تلك الفجائع التي أتتهم من اليمن علمتهم كيف يتعاونون ويتناصرون ويتكاتفون ويتساندون، كأنها وجهت

أنظارهم إلى إصلاح أمورهم وتنظيم شؤونهم، فقد اتحدت قبائل دَوْعَن ووجهوا عنايتهم نحو عمارة أرضهم وعمران بلادهم وتنظيم معايشهم، وكذلك الشأن في حضرموت الوسطى، فقد هبَّ جميع السكان يصلحون ويعمرون وخضعوا لولاة أمورهم كل الخضوع، وأطاعوهم كل الطاعة رغبة في السكون وحبًّا في السلام، فأصبحت الأراضي جنات غنَّاء ومزارع فيحاء، بفضل التعاون والتساند في تعميرها وزراعتها، وانتشر الرخاء ورخصت الأسعار، وتنشطت أسواق العروض وهَيْنَن وشِبَام وتَرِيْم ودَمُّوْن وزادت حركتها، وعادت إليها حياتها الأولى، وأصبحت القوافل تأتي الواحدة تلو الأخرى من ظَفَار واليمن وحِبَّان وبَيْحان وشَبْوة بأنواع المتاجر وأصناف السلع، فعظمت أرباح التجار وتضاعفت مكاسبهم، واتسع نطاق ثرواتهم اتساعًا ما كانوا يحلمون بمثله من قبل.

دخول حضرموت في طاعة العباسيين

في سنة ٢١٣ للهجرة انتشرت دعوة العلويين باليمن واتسع نطاقها وخاف اليمنيون عاقبة تلك الدعوة، وما ستجلبه لهم من البلايا والرزايا، فأرسلوا وفدًا من صفوة عقلائهم إلى الخليفة المأمون، وكان في مقدمة هذا الوفد محمد بن زياد بن عبدالله بن زياد بن أبي سفيان، فاستعطف الخليفة وضمن له صيانة اليمن من العلويين، فوصله وولاه على اليمن، وقضى على دعوة العلويين وفتح تهامة، وبسط حكمه على جميع بلاد اليمن، وأرسل رسله إلى حضرموت يأمر الولاة بالدخول في طاعة العباسيين فأجابوه إلى ذلك، ولما مات ولي بعده ابنه إبراهيم، ثم ابنه زياد بن إبراهيم، ثم أخاه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم، وفي كل أيام هؤلاء الولاة ظلت حضرموت في طاعة العباسيين، ولكن هذه الطاعة كانت اسمًا إذ لم يولوا على الحضرميين أحدًا منهم يحكم البلاد بالنيابة، فكان الحضرميون يحكمون أنفسهم بأنفسهم، ولما قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ، وخُلِع المستعين سنة ٢٥٢هـ، واستبد الموالي على الخلفاء؛ خلعت حضرموت طاعة العباسيين، واستقلت كل الاستقلال في جميع شؤونها الداخلية والخارجية، واستمر الحضرميون ينظمون أمورهم في هدوء، ويعمرون بلادهم في سكون، بينما اليمن تموج بالفتن الداخلية، وتنوء من الاضطرابات والقلاقل، فقد ظهر هناك يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا بدعوة الزيدية، واستفحل أمره، وهجم على صنعاء واستولى عليها قهرًا بالسيف.

الحضارمة والهجرة

الحضارم من أقوى أمم الأرض على الأسفار، وأكثرها صبرًا على تحمل المشقات، ولعوا بالأسفار من قديم -وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل-، وقد استمرت هجرتهم إلى ما بعد ظهور الإسلام، ثم انكمشت وانقطعت لاشتغالهم بالحروب في عهد عبدالله بن يحيى الكندي وابن عطية وشعيب البارقي، وانصرافهم بعد ذلك إلى إصلاح شؤونهم الداخلية وتنظيم معايشهم وتعمير بلادهم.

ولما هدأت الأحوال وانتظمت الشؤون وانتشر الأمن في طول البلاد وعرضها، وكثر الخصب، وزكا الزرع، وأثمر وأينع، ونشطت الأسواق، وعظمت الأرباح للتجار، وازدادت الثروة واتسع نطاقها؛ اتجهت أنظار الحضرميين إلى الهجرة من جديد، وطمحوا في توسيع تجارتهم، وتوطيد ثروتهم، فهبوا يهاجرون أفرادًا وجماعات، وكان هؤلاء المهاجرون طائفتين: طائفة اتجهت نحو الشمال (مصر والبصرة وبغداد والأندلس)، وأخرى ولَّت وجهها شطر جنوب الهند وسواحل أفريقيا الشرقية؛ أما الأولى فلطلب العلم، ولذكائهم واجتهادهم برزوا في علوم اللغة العربية والدين، ولعبقريتهم وعصاميتهم نالوا القضاء في دمشق ومصر والأندلس، وأما الثانية فلغرض تجاري محض، ولكن بالرغم من اشتغالهم بالتجارة فقد نشروا الإسلام بين أهالي تلك الأصقاع النائية، وبنوا المساجد وأنشأوا المكاتب لتعليم النشء القرآن الكريم، ولأمانتهم ومعاملتهم الحسنة مع الأهلين احترمهم الناس

وعظموهم واتخذوهم أنصارًا لهم وأعوانًا في شؤونهم الخاصة والعامة، فتوطَّد بذلك مركز الحضارمة، وعظم شأنهم، وعلا مقامهم، وذاع صيتهم، وكانت كلمتهم مسموعة، وأمرهم نافذًا، ولو كانوا أرادوا الملك لجاءهم يمشي على قدميه، ولكنهم كانوا لا يريدون إلا التجارة، ولقد اندمج بعضهم في الأهالي، وتزوجوا منهم، وتخلقوا بأخلاقهم، وألفوا عاداتهم؛ فضاعت منهم عروبيتهم وحضرميتهم ولغتهم العربية، وأصبحوا كأفراد الأهالي في عاداتهم، وأخلاقهم، وملامحهم، ولغتهم، حتى اعتبرتهم ولايات تلك البلاد من الأهلين، تعاملهم كما تعامل الوطنيين، وتمنحهم من الحقوق والواجبات ما تمنح هؤلاء.

وفي الجزء الثاني بيان عن هجرة الحضارمة إلى مصر والشام وإلى جزائر جاوة وسائر بلاد الشرق الأقصى، كما أننا سنتكلم فيه على هجرة بني هلال من حضرموت إلى طرابلس الغرب وشمال إفريقية.

نهضة حضرموت العلمية

والحضرمي حاد الذكاء، قوي الذاكرة، سريع البداهة، كثير النباهة، مستعد كل الاستعداد للرقي ومجاراة روح كل زمان ومكان في العلم والأدب والحضارة والاجتماع، نشيط مجدّ وقور صبور على مكافحة المتاعب وتحمل المصائب مهما تفاقم خطبها وعظم شرها، يقطع الفيافي والقفار ويمخر عباب البحار لطلب علم واكتساب مال، تاركًا وراءه الأهل والعشيرة والصحب والديار. ولقد كان أغلب الذين هاجروا إلى الشمال لم يكن لديهم من الزاد إلا ما يوصلهم إلى حيث يقصدون، وليس لهم غاية سوى العلم، ولكن كانت عبقريتهم بارزة وعصاميتهم عالية، فقد كوّنوا أنفسهم بأنفسهم، وخلقوا لهم مركزًا من العدم، وأوجدوا لهم اسمًا بعد الخمول، وتبوؤوا من العلم والسؤدد مقعدًا عليًّا، وهم مع كل ذلك مثال الخلق الكريم، وحسن العشرة، والوفاء بالعهود، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، لذلك أشير إليهم بالبنان، وحفظت أسماءَهم الكتبُ وبطون الأوراق.

كان لنهضة بغداد العلمية وللبحوث في المسائل الدينية والفلسفية أيام المأمون صدى عظيم في حضرموت، وأثر حسن من الحضرميين، ولكن لم تظهر هناك أفكار شاذة وآراء غريبة، كالقول بخلق القرآن وتناسخ الأرواح، وإنما كان همهم مقصورًا على تعلم اللغة العربية والدين، وقد بدأت الحركة العلمية في تَرِيْم، ومنها تسربت إلى شِبَام فإلى الهَجْرَين، ثم إلى الشِّحْر. وكانت تلك الحركة في بدايتها تخطو خطوات بطيئة قصيرة، وكان العلماء ينشرون علومهم في صورة محاضرات ومواعظهم يلقونها في المساجد والجوامع.

وفي أواخر القرن الثالث ازدادت الحركة العلمية واتسع نطاقها، وأقبل الأهلون على مختلف طبقاتهم يطلبون العلم بشغف وولع؛ الأمر الذي جعل أولئك العلماء ينشؤون مكاتب خاصة للتعليم في تَرِيْم، وسَيْئون، والغُرْفَة، وشِبَام، وهَيْنَن، والهَجْرَين، ودَوْعَن، والشِّحْر، وكان أغلب هؤلاء العلماء يعلِّمون الناس العلم دون أن يأخذوا على أتعابهم أجرًا، على أن منهم من يجوب البلاد ويقطع المسافات الطويلة لنشر العلم، وكان الناس يتعلمون المعرفة لذات المعرفة، إذ لم تكن هناك وظائف توزَّع على المتعلمين ولا جوائز تمنح للشعراء والأدباء والراسخين. ولقد اشتهرت تَرِيْم بتقدم العلم فيها، وكثرة العلماء والأدباء، وولع سكانها بالبحوث والمناقشات الدينية والمناظرات الأدبية، ولقد تصدَّى كثير من العلماء للفتوى، فكانت المسائل والمشاكل الدينية ترد إليهم من كل أرجاء البلاد ومن عدن ومن اليمن، وكان طلبة العلم كبارًا وصغارًا يؤمّون مدينة تَرِيْم من كل أنحاء حضرموت ومن عدن وصنعاء وزبيد، فأصبحت تَرِيْم تموج بالطلبة والعلماء والأدباء والفضلاء، وبالرغم من كثرة هؤلاء، فقد كانوا على وفاق ووئام ولم يحدث بينهم ما يحدث عادة بين كثير من العلماء من التنافس على الفتوى، والتخاصم على الشهرة، والسعي لإسقاط بعضهم بعضًا بالوشاية والنميمة والطعن. وحينما تقدم لأحدهم مسائل هامة، فإن كانت فوق مستواه وليس في مقدوره الفصل يدعو بعضًا من زملائه العلماء للنظر فيها والمشاركة في البحث، ومبادلة الآراء والتشاور، هكذا كان التواضع بينهم سائدًا، والتساند شائعًا، لا يتكبر زيد على عمرو، ولا يفتخر بكر على خالد، ولم ينبئنا التاريخ أن خلافًا كبيرًا حصل بينهم، كما أنه لم يثبت لنا أنهم خالفوا في فتاويهم الكتاب والسنة، أو انحازوا في أحكامهم إلى زيد دون عمرو لجاهه أو ماله أو قوّته، بل الناس عندهم سواسية لا فرق بين غني وفقير، ولا

بين قوي وضعيف، ولا بين متسلِّح وأعزل، وليس للنسب والحسب عندهم قيمة، وإنما كانوا يفضلون الشخص لعلمه وتقواه أية كانت حرفته، ولم يتظاهر أحد منهم بالسلطة الروحية أو سعى إليها ودعا الناس إلى التبرّك به والتوسل إليه ببيع العزائم والتمائم كما يعمل الدّجالون ومشايخ الطُرق، بل كانوا على جانب عظيم من العفّة وعزّة النفس، وكان لأغلبهم متاجر يرتزقون ويعتمدون عليها في ضرورياتهم الحيوية. ومما يؤخذ على هؤلاء العلماء أنهم لم يهتموا بالتدوين كثيرًا، ولم يؤلِّفوا الكتب مع سعة علومهم ومقدرتهم على الكتابة، ولو فعلوا لكان فضلهم عظيمًا، ومعروفهم جسيمًا، ولكان الخلَف انتفع بعلومهم أكثر مما انتفع به معاصروهم، وليس بين أيدينا عذر نعذرهم به على ما فرَّطوا في التدوين.

خروج آل باعلوي إلى حضرموت

في سنة ٣١٧ للهجرة جاء من البصرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوي، وأقام بالحُسَيِّسة، ثم انتقل منها هو ومن معه إلى قارة جُشَيْب، ثم انتقلوا إلى بيت جبير في سُمَل، وهناك احتفروا بئرًا عرفت بـ(بئر أحمد)، ثم انتقلوا إلى تَرِيْم وفيها بنوا مسجدهم المعروف بـ(مسجد أحمد). وتوفي الشيخ أحمد بن عيسى باعلوي بالحُسَيِّسة، وقد اشتهر بالصلاح والورع والإخلاص في النصح للناس، وقد رأى العلويون من بعده أن يكوِّنوا لهم مركزًا يكون أساسه السلطة الروحية، ولقد ساقهم إلى ذلك ما شاهدوه في كثير من الحضارم من السذاجة، وحسن النية، وسلامة الطويَّة، قالوا إنهم من سلالة الرسول(١)، وحين شك الحضارم في أمرهم اضطر آل باعلوي أن يبعثوا واحدًا منهم إلى البصرة ليأتي بشهادة قاضيها فيما قالوا، فرحل الشيخ علي بن أحمد بن جديد إلى البصرة وطلب إلى القاضي إثبات نسبهم، فأجابهم إلى ذلك وشهد معه جمع ممن يريد السفر إلى الحج، فسافر هو وأولئك الحجاج إلى مكة، ورقب هناك حجاج حضرموت على أولئك الشهود، ثم سافر إلى حضرموت، وقدَّم شهادة قاضي البصرة وبعض الحجاج البصريين إلى العلماء، فرفضها كثير من الناس لعدم استنادها إلى براهين تاريخية، واعترف بها وصحح عليها بعض العلماء كالقاضي عبدالرحمن بن علي بن أبي حسان، والعلامة الشيخ

(١) ارجع صفحة ٤١٣ في المجلد الثاني من الجزء الأول من كتاب «قلائد النحر في وفيات أعيان الدهر» العلامة ابن مخرمة الحضرمي الموجود بدار الكتب المصرية.

فضل بن عبدالله بن فضل، والعلامة الشيخ محمد بن أحمد بن أبي الحب، والعلامة الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي، والعلامة الشيخ محمد بن أبي بكر عباد، والعلامة الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن سالم المرواني التَرِيْمي.

لقد بذل آل باعلوي كل مستطاع في توطيد مركزهم الروحي، وتظاهروا بالصلاح والتقوى وعملوا بكل ما عرفوا به من الدهاء لجلب الناس إلى تقديسهم والتبرك والتوسل بهم، ولقد نجحوا في ذلك وفازوا بالسلطة الروحية دون غيرهم، وتضاءلت سلطة العلماء الدينية أمام سلطتهم الروحية، ولقد توطدت هذه السلطة وتوغلت عروقها في أحشاء الشعب الحضرمي حينما شرع بعض آل باعلوي يبنون القباب[1] على بعض موتاهم -رحمهم الله-، ويدعون الناس إلى تقديس تلك المقابر والتوسل بها، وتقديم النذور والقرابين لها، هكذا أصبح الحضارم يقدسون آل باعلوي الأحياء منهم والأموات، ويتبركون بهم ويتوسلون إليهم في قضاء الحاجات، ويقدَمُّوْن القرابين والنذور لموتاهم -رحمهم الله- لجلب الرزق، وإطالة العمر، وإزالة المرض، وغفران الذنوب، ودفع الخطوب، وتفريج

(١) لم يكن آل باعلوي وحدهم الذين بنوا القباب، وإنما شاركهم في ذلك آل عباد وآل باوزير وآل عمودي. ومما يسرنا أن أغلب آل عمودي وآل باوزير قد تهذبت عقولهم وتنورت أفكارهم وأصبحوا يدعون الناس إلى ترك الخرافات والترهات، ونبذ التوسل بالقبور والأحجار والأشجار والعزائم والتمائم والتّولة، أصبحوا يدعونهم إلى صدق اليقين والثقة بالله وحده، ونشر المساواة بين طبقات الشعب بفضل انضمامهم إلى (جمعية الإصلاح والإرشاد)، كما أن بعضًا من آل باعلوي وهم جماعة من آل حبشي نحوا ذلك السبيل وضموا أصواتهم إلى أصوات دعاة الإصلاح والمساواة الشرعية. ولآل إسحاق وآل باجابر سلطة روحية أيضًا، ولكنها في الدرجة الثانية، ولقد عرف آل إسحاق بحب الإصلاح بين القبائل المتسلحة، كما شاهدنا ذلك في نواحي حضرموت الوسطى حيث يقيمون.

الكربات، وغير ذلك من الأمور، مما يمقته الدين والعقل ويصرح ببطلانه الكتاب والسنة، وتأباه النفوس العلية، وتنفر منه الطباع السليمة.

ثم إنهم لم يكتفوا بذلك، فقد ألف بعضهم كتبًا لتضليل عقول الناس وتسميم أفكارهم بما يقصونه عليهم من الحكايات الخرافية والدعاوى الكهنوتية وعلى رأس تلك الكتب (المَشْرَع الرَّوِي)، ولم يقفوا عند ذلك الحد، لم يقنعوا بتضليل عقائد الشعب الحضرمي وتسميم أفكاره، لم يقنعوا بما نالوه من السلطة الروحية، بل طمحت نفوسهم واشرأبت أعناقهم إلى أكثر من ذلك، طمحوا إلى الملك فلعبوا في السياسة أدوارًا هامة سنذكرها في غير هذا المكان.

انحلال دولة كِنْدة

كان انصراف الحضرميين إلى تنظيم شؤونهم، وإصلاح أحوالهم، وتعمير بلادهم، واشتغالهم بالعلم، وولعهم بالأسفار؛ من أعظم الأسباب التي كرَّهت الحروب إليهم وجعلتهم يمقتون الفتن والمحن والقلاقل والزلازل، ويميلون كل الميل إلى الهدوء والسكون، وقد قبع ملوك كِنْدة في قصورهم، ولم يجدوا من الظروف والمناسبات ما يساعدهم على الظهور، كما كانوا من قبل يبعثون الجيوش ويخرجون بها في ساحات الحروب، وأمسوا لا يفكرون في توسيع سلطتهم وتقوية مركزهم، وكأنهم رغبوا عن الملك، أو كأنهم كانوا آمنين على بقاء ملكهم، فتساهلوا في حفظ سلطتهم كل التساهل، وتغافلوا عن حماية نفوذهم كل التغافل، وناموا نومًا عميقًا، ولم يعلموا أن الملك كالشجرة إذا لم يتعهدها صاحبها بالسقي تذبل وتموت.

ظهر في كل مدينة وفي كل قبيلة أفراد أولو شخصيات بارزة وآراء صائبة وعقول نابهة، فكان الناس يلجؤون إليهم في حل المشاكل وإزالة المخاصمات، ويهتدون بآرائهم في أمورهم الخاصة منها والعامة، تاركين الملوك وراءهم ظهريًا. مرّت عشرات السنين على تلك الحال، وخلف بعد أولئك الملوك خلف كانوا أعمق منهم نومًا وأكثر خمولًا وركودًا، انفصلت عنهم جميع قبائل نَهْد واستقلت كل الاستقلال، وأصبحوا يتحاكمون في مشاكلهم إلى رجل أو رجال منهم. وكذلك الشأن في شرق حضرموت فقد خلعت الطاعة تَميم وهَمْدان ومن يلحق بهم كالعوامر وآل باجِرِي، واستقلوا في جميع شؤونهم الاستقلال التام، وكذلك الحال

عند العَوابثة والجَعْدة وجميع قبائل دَوْعَن ووادي عَمْد. هكذا تلاشت دولة كِنْدة وتداعت أسسها، وانحلت أركانها، وهوى نجمها، وطمس نورها، وأمسى مركز ملوكها في دَمُّوْن وشِبَام وهَيْنَن والهَجْرَين وعَنْدَل والشِّحْر كمركز رؤساء القبائل، وربما كانوا دون هؤلاء في السلطة والقوة والنفوذ، ومما زاد الطين بلة والخرق اتساعًا، هجرة بعض رجالات كِنْدة إلى الشام وبغداد ومصر والأندلس والمغرب، وترك بعضهم السلاح كآل باكثير، واشتغلوا بالعلم والأدب[1].

(١) كثير من القبائل الحضرمية كآل مرتع وآل باكثير وآل إسحاق وآل باجابر هم من كِنْدة، وكذلك أغلب سكان حَوْرَة وهينن من آل تجيب وبني الحارثة الكنديين، وإنما ترك بعضهم السلاح لاشتغالهم بالعلم والتجارة، وكذلك الشأن في أواخر الدولة الحميرية، فإن بعض قبائل حمير كآل كلالي وآل شراحيل وبعض بيوتات في شِبَام التي تنحدر من بني فهد تركوا السلاح لاشتغالهم بالتجارة والأسفار.

إمارة آل راشد

بنو راشد بطن من حمير، هاجروا من اليمن في القرن الثالث الميلادي بعيد سيل العَرِم إلى الشِّحْر، ثم إلى عَنْدَل وهَيْنَن، ثم إلى شِبَام وتَريْم، وكانوا أهل زهد وورع، ولشدة حبهم للخير وحرصهم على الحق اتخذهم الناس ملجأ يلجئون إليهم للفصل فيما هم فيه مختلفون، فكان آل راشد مع قلة عددهم ومع أنهم ليسوا من أرباب المال يتصدون للحكم بين المتخاصمين والمتنازعين، ولقد ذاع صيتهم وانتشرت شهرتهم في أرجاء البلاد، وصاروا يضرب بهم المثل في العدل، ولذلك كان يهرع إليهم المتخاصمون من مسافات بعيدة. تولوا الإمارة[1] وكان سلطانهم الأعظم العالم الجليل عبدالله بن راشد بن أبي قحطان الحميري، ولد بتَريْم سنة ٥٥٣ هجرية فرباه أبوه تربية دينية، تعلَّم القرآن الكريم وحفظه، وتفقَّه في الدين على بعض أئمة تَريْم كالإمام يحيى بن سالم بن فضل (بافضل)، والإمام أبي بكر بن أحمد بن أبي ماجد، والإمام فضل بن إبراهيم بن أبي جوَّاس، ثم سار إلى الهَجْرَين، وقرأ صحيح البخاري على الإمام محمد بن أحمد بن أبي النعمان الهجراني، ولما عاد إلى تَريْم تولى السلطنة وسنُّه لا تتجاوز الثلاثين، فحكم بين الناس بالعدل، ونفذ فيهم أحكام الشريعة دون تمييز بين الفقير والغني، ولا بين القوي والضعيف، فكان الناس لديه سواسية. أنشأ دورًا كثيرة لطلب العلم، وبذل لتعليم الناشئين أموالًا كثيرة، وأكرم العلماء وأجزل لهم العطايا، وأكثر من الصدقات للفقراء

(١) كانت حدود سلطنتهم من الفُرْط غربًا إلى قبر هود -عليه السلام- شرقًا.

والمعسرين، وفتح لهم أبواب الرزق بما قام به من المساعدات لفلاحة الأرض وزراعتها، ومنح جميع التجار والفلاحين كل التسهيلات، فكان عصره من أحسن العصور وأغزرها رخاء، وأوفرها أمنًا، وأحرصها محافظة على العدالة والمساواة. سأله أحد المعجبين به: بماذا تفتخر على غيرك من السلاطين؟ فقال: أفتخر عليهم بثلاث خصال: لا يوجد في بلادي حرام، ولا سارق، ولا محتاج. وكتب إليه العلامة محمد بن أحمد ابن أبي الحب رسالة ومما قاله:

أيا علم الأفضال والجود والكرمْ　　وعلَّامة الآداب والعلم والحكمْ
ويا عصمة الله الذي الناس ترتجي　　له دولة يرعى بها الذئب والغنمْ

ولقد بلغت تَرِيْم في عهده من العلوم الدينية مبلغًا ليس له مثيل في حضرموت ولا في اليمن، فقد صارت كعبة يؤمَّها طلاب العلم من سائر أنحاء البلاد، وكان يرحل إليها بعض اليمنيين من زبيد، حتى إذا نالوا حظهم من علوم اللغة والدين عادوا إلى زبيد ونشروا هناك ما تلقوه من علماء تَرِيْم. قال العلامة علي بن محمد بن أبي حاتم أبياتًا في مدح تَرِيْم وعلمائها حينما غادرهم إلى اليمن:

رعى الله إخواني الذين عهدتهم　　ببطن تَرِيْمٍ كالنجوم العوالمِ
عليًا حليف النجدة ابنَ محمدٍ　　وأبنا أخيه الغرِّ أبناءَ حاتمِ
ومن في تَرِيْمٍ من فقيهٍ مهذَّبٍ　　وسيدِ أهلِ العلمِ يحيى بنِ سالمِ

والمراد بيحيى هنا هو الإمام يحيى بن سالم بن فضل.

استيلاء الزنجبيلي على حضرموت

في سنة ٥٧٦ للهجرة هجم عز الدين عثمان بن علي الزنجبيلي والي عدن ولحج من قبل دولة بني أيوب، فاستولى على الشِّحْر، ثم سار بجيشه إلى شِبَام وتَريْم ومَرْيَمَة واحتلها دون أن يلقى أمامه مقاومة شديدة من الحضرميين، ثم عاد إلى عدن بعد أن جعل آل راشد نوابًا عنه، يبعثون إليه الخراج في كل سنة.

قال الكبسي في (اللطائف السنية): «وفي سنة ٥٧٦هـ توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب في الإسكندرية ودفن بها، وكان عمّاله على اليمن يبعثون بالخراج إليه، فلما مات أظهر عمّاله الخلاف ومنعوا الخراج، وضرب كل منهم السكة باسمه، إلا مظفر الدين فإنه ضعف عن العمل، فنهض إليه عثمان الزنجبيلي من عدن، وأخذ البلاد التي بيده، وتوجه عثمان المذكور إلى حضرموت فاستولى عليها، وقتل من أهلها كثيرًا، واستفحل أمره وقويت شوكته، وجعل عمر بن مهدي واليًا على حضرموت من قِبله، ورجع إلى عدن».

وفي سنة ٥٧٧هـ أظهر آل راشد الاستقلال وخلعوا الطاعة، ولما بلغ ذلك الزنجبيلي أرسل عليهم جيشًا وأدخلهم في الطاعة، وقتل كثيرًا من علماء تَريْم الذين حرَّضوا آل راشد على خلع الطاعة وإعلان الاستقلال، وقبض على السلطان راشد وابنه شجنعة، وأتى بهما إلى عدن وسجنهما. وفي سنة ٥٧٩هـ بلغ الزنجبيلي وصول الملك طغتكين بن أيوب إلى تعز وزبيد، وقبضه على العمّال المستبدين، فخاف على نفسه وهرب من عدن، فانتهز هذه الفرصة السلطان راشد وابنه وهربا ليلًا إلى حضرموت، ثم استقل آل راشد بالأمر، واستمروا يحكمون البلاد نحو

ثلاثين سنة، وكانوا مثالًا للعدل، وكان الناس في سعادة وهناء، ولكن بعض هؤلاء بطروا واستكبروا وعتوا عن أمر الله، وسخروا من السلطة واحتقروا رجالها؛ لأنهم نالوا السعادة بعد الشقاء عفوًا بلا تعب، وأتاهم المال من غير حساب، فدعاهم السلطان إلى الصلاح والرشاد وبذل كل مجهود لهدايتهم إلى الطريق الأقوم، وأرسل إليهم الوعاظ والعلماء ليردعوهم عن غيِّهم، ويرشدوهم سواء السبيل، ولكن لم ينفعهم وعظ الواعظين، ولا نصح الناصحين، فبقوا في طغيانهم يعمهون؛ فغضب السلطان لذلك ولكن دون أن يعاقبهم وينفذ فيهم أحكام الشريعة، كما كان في أول أمره؛ إذ أصبح عاجزًا عن تنفيذ إرادته، حتى اعتزل السلطنة وتفرغ للعبادة، وتبتل للمكرمات واكتساب الخيرات، فقيل له في اعتزال السلطنة، فقال: ما وجدنا آل حضرموت يوالوننا على الحق. ثم سافر ليصلح بين قبيلتين فقتل في الطريق غدرًا، وذلك في سنة ٦١٢ للهجرة ودفن في مَرْيَمَة. وبقتله ضعفت سلطنة آل راشد، وتداعت أركانها للسقوط. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سليم النية، صافي السريرة، طاهر الذيل، غيورًا على الحق، عدوًا للباطل، صالحًا تقيًّا ورعًا، شغوفًا بنشر العلم وحب الخير.

خلف من بعد السلطان عبدالله بن راشد خلْف تساهلوا في الحكم، وتغافلوا عن توحيد مركزهم وتمجيد مقامهم وتعزيز سلطتهم، لم يؤدوا الأمانة كما يجب، لم يهتموا بشكوى المشتكين، ولا لظلامة المظلومين؛ فضعفت سلطة الولاة، وتلاشت هيبتهم، وعجزوا كل العجز عن تنفيذ الأحكام وإصدار الأوامر، فانتشرت الفوضى في طول البلاد وعرضها، فسيطر القوي على الضعيف، وهضم حقوقه، وطغى الغني على الفقير، واستعبده في شؤونه الخاصة.

يئس الشعب من ولاة الأمور، وقطعوا كل أمل فيهم، فاجتمع كثير من أولي الرأي وأرباب العلم، وفكروا في حالة الأمة وما تقاسيه من الفوضى والدمار، وأرادوا عزل جميع ولاة آل راشد، وجعل السلطة في يد أفراد من عقلاء الأمة وعلمائها،

ولكنهم وجدوا أن هذا يكلفهم أموالًا كثيرة واضطهادًا شديدًا من الأغنياء والأقوياء الجبّارين، فكيف الأمر وليس بيدهم مال يتوصلون به إلى غرضهم الشريف؟ كيف يخرجون من هذا المأزق الحرج، ويتخلصون من آلام الفوضى وويلات الخراب؟ وأخيرًا استقر رأيهم على أن يستنجدوا بنَهْد، فأرسلوا إليهم الوفود وطلبوا إليهم احتلال البلاد لإصلاحها، وإعادة الأمن وبث العدالة.

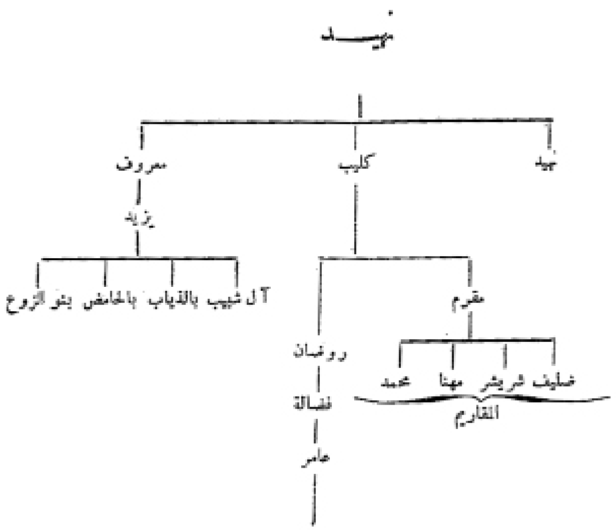
نَهْد

هم بنو نَهْد بن زيد بن ربيعة بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، هاجروا من اليمن إلى حضرموت، ولم يعرف بالضبط تاريخ هجرتهم، ومن المحتمل أنهم جاءوا حضرموت في عهد ازدهار الدولة الحميرية فيها، سكنوا في كَسْر قشاقش، وكانوا وحدة لا تتجزأ وعروة لا تنفصم، كانوا متحدين مترابطين متحابين لدرجة التعصب، وكانوا أهل قوة ومنعة، وكانت الهضبة الواقعة في جنوب الفوّهة والتي على مقربة من مدينة العَروض معقلًا يرابضون فيه لصد غارات القبائل التي تأتي من أنحاء اليمن، وقد دحروا عدة قبائل كانت أرادت الهجوم على حضرموت وكسروها هناك، كما كانت المِخَيْنِيق الواقعة بين حَوْرَة والعَجْلانيَّة معقلًا آخر من الناحية الشرقية. وكانت بلادهم من العَجْلانيَّة إلى العروض، ومن لَخْمَاس إلى أعالي حدود سَدْبِة حدائق غنَّاء، ومزارع خضراء، لا يرى السائر فيها من جبل شِرَاح إلى جبل حَوْرَة لكثرة النخل والكرْم وأشجار السدر. وكانت حاصلات أرضهم وافرة تزيد عن حاجتهم، ولذلك كانوا يرسلون كثيرًا من البلح والزبيب والدوم وأنواع الحبوب إلى هَيْنَن والهَجْرَين وشِبَام للبيع، ولم يكن هناك حاكم عام يخضعون لأوامره ويلجؤون إليه في حل مشاكلهم ومشاغباتهم، بل كان لكل قبيلة واحد يتحاكمون إليه فيما شجر بينهم، وما احتدم من نزاع أو خصام.

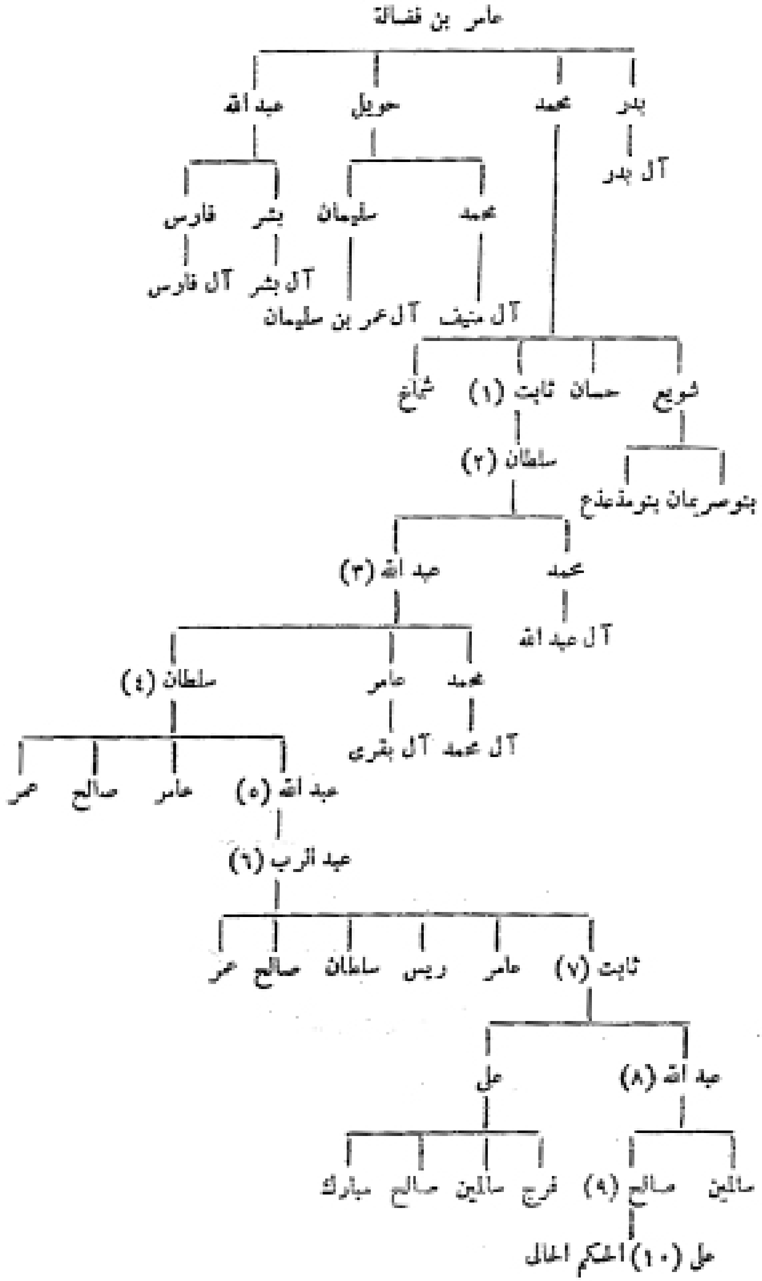
وفي سنة ٩٤٥هـ هجم عليهم السلطان بدر بوطويرق الكثيري وأخرجهم من الكَسْر إلى الشاقة، فسار حسان بن محمد بن عامر النَهْدي إلى حاكم اليمن واستنجد

به على السلطان بدر الكثيري، فأنجده بجيش، ولكن في أثناء قدومه إلى حضرموت، توفي حسان بن محمد، فعاد الجيش إلى اليمن، ثم سار أخوه ثابت بن محمد النَهْدي إلى والي اليمن، وطلب إليه أن يتوسط بينه وبين السلطان الكثيري لإعادة نَهْد إلى العَدَان، فأجابه إلى ذلك، وسمح السلطان بدر الكثيري لنَهْد بالسكن في العَدَان والمِخَيْنِيق وسَدْبِة وشِرَاح. ثم اجتمعت كلمة نَهْد والجَعْدة على إيجاد حاكم منهم يدير شؤونهم العامة ويصلح أمورهم، ويقيم بينهم العدل وينشر السلام، فجعلوا ثابت بن محمد النَّهْدي حاكمًا عليهم، وهو أول حاكم نَهْدي خضعت له جميع قبائل نَهْد والجَعْدة. ولما مات قام بالأمر بعده ابنه سلطان، ثم أخذ الحكم ينتقل من الأب إلى ابنه سنين عديدة حتى استقر في يد الوالي علي بن صالح النَهْدي.

وإلى القارئ شجرة تبيِّن سلالة نَهْد، ومن تفرع عنهم من البطون، من جدهم الأعلى (نهيد) إلى رئيسهم المعاصر لنا الآن وهو الحكم (علي بن صالح النَّهْدي).



انظر سلالة عامر هذا في الصفحة الآتية:


عامر بن فضالة
عبد الله
حويل
محمد
بدر
آل بدر
فارس
بشر
سليمان
محمد
آل فارس
آل بشر
آل عمر بن سليمان
آل منيف
شماخ
ثابت (١)
حسان
شويع
سلطان (٢)
بنوصرعان بنومذعذع
عبد الله (٣)
محمد
آل عبد الله
سلطان (٤)
عامر
محمد
آل بقري
آل محمد
عمر
صالح
عامر
عبد الله (٥)
عبد الرب (٦)
عمر
صالح
سلطان
ريس
عامر
ثابت (٧)
علي
عبد الله (٨)
مبارك
صالح
سالمين
فرج
صالح (٩)
سالمين
علي (١٠) الحكم الحالي

ولما جاءتهم وفود رعايا آل راشد، رفضوا طلبهم في بادئ الأمر؛ لأن بلادهم غنية فلم يطمعوا في فتح بلاد أخرى، ولم يطرأ على بالهم بسط نفوذهم إلى تَرِيْم، ولكن الوفود ألحوا عليهم، فلم تر نَهْد بدًا من إجابة طلبهم، فساروا إلى شِبَام وحاصروها حتى استولوا عليها بدون قتال، ثم ساروا في طريقهم إلى تَرِيْم يستولون على القرية بعد الأخرى، حتى وصلوا إلى تَرِيْم وحاصروها أيامًا، ثم قتلوا عمر بن مهدي واستولوا على المدينة، واستمر حكمهم ثلاث سنوات. وفي سنة ٦٢٣هـ هطلت أمطار كأفواه القرب، فبلغ السيل الزبى، وغمر الماء القيعان والربا، واجتمعت سيول دَوْعَن وعَمْد ووادي العَيْن وهَيْنَن أشبه بالطوفان، اكتسحت أمامها ديارًا كثيرة وأشجارًا لا تحصى، وغرق كثير من الناس وانتشرت الأمراض، فاضطر كثير من نَهْد لمغادرة تَرِيْم وشِبَام والعودة إلى بلادهم التي دمر السيل كثيرًا من ديارها ونخلها وأشجارها، وتركوا الأمر لعلي بن عمر بن مسعود، فانتهز بنو سعد اشتغال نَهْد بإصلاح بلادهم فحاصروا شِبَام، فرأى علي بن عمر بن مسعود أنه ليس في استطاعته مقاومة بني سعد الأشداء الأقوياء، لذلك سلَّم إليهم شِبَام سنة ٦٢٥هـ وأخذ عسكره وسار بهم إلى الهَجْرَين وحاصرها، ولم يكن فيها من الرجال المدافعين غير عدد قليل، فأذعن له الأهالي وسلموا له البلد، ثم سار إلى هَيْنَن فقاومه الأهالي مقاومة شديدة وكادوا يدحرونه لولا أنه رماهم بالمنجنيق، فانتصر عليهم واستولى على البلد سنة ٦٢٦هـ. وفي هذه السنة نفسها سار إلى الشِّحْر وكان أميرها عبدالرحمن بن راشد بن إقبال وحاصرهم أيامًا فعرضوا له مبلغًا كبيرًا من المال على أن يفك الحصار ويعود إلى حيث أتى، فقبل منهم المال ووصل إلى هَيْنَن. وفي سنة ٦٢٨هـ اشترى شِبَام من عيسى بن فاضل وجعلها مقرًا لحكمه، ثم سار بجيشه إلى وادي عَمْد وقاتل قبائلها، ثم صالحهم وعاد إلى تَرِيْم واحتلها، واستمر يحكم البلاد نحو ثمانِ سنوات، كان في خلالها ينهب أموال الرعايا

ويكنزها دون أن يبذل شيئًا منها لإصلاح العباد وعمران البلاد. وفي سنة ٦٣٦هـ جاء عامر بن فضالة بن شماخ وطرد آل إقبال من شِبَام وتَرِيْم وسَيْئون واحتل البلاد. وفي سنة ٦٣٧هـ أراد مسعود أن ينتقم من آل شماخ، فجمع رجالًا من آل إقبال وآل أبي قحطان وهجم على تَرِيْم ونهب سوقها وعاث فيها فسادًا، فهرب أكثر السكان، ولم تصلَّ جمعة في رجب وشعبان ورمضان. ولما علمت نَهْد بذلك ساروا إلى تَرِيْم وأخرجوا مسعودًا منها، وتسلموا البلاد من ابن شماخ واستمروا يحكمونها في هدوء وسكون، ومع أنهم لم يعمروا البلاد بشيء فقد كانوا محبوبين من الأهالي؛ لأنهم كانوا أهل قناعة، فلم يرهقوا الناس بالضرائب ولم يأخذوا من أموال الرعايا شيئًا غير ما ينالونه من حاصل التمر، وبعد ثلاث سنوات اضطروا لأن يولوا البلاد نفرًا من أعيانها وسافروا إلى بلادهم، وهكذا تركت نَهْد إمارة حضرموت الوسطى مرتين، وفضلوا قُعُوضَة على تَرِيْم الغنَّاء الفيحاء مدينة العلم والحضارة، ولو أنهم ثبتوا في الإمارة ووطدوا مركزهم بتولية رجال منهم لاتسع نفوذهم وقويت شوكتهم، ولدانت لهم حضرموت جميعًا؛ لأن حضرموت الوسطى من الفُرْط غربًا إلى قبر هود -عليه السلام- غنية بغلاتها، قابلة للرقي والتمَدْين، وعلى أهلها مسحة من الحضارة، ولديهم حظ من العلم، ولكنهم لم يحلموا بذلك. ولعل أنظارهم لم تبلغ إلى حد أبعد من حصر نفوذهم في حدود بلادهم، أو لعلهم أرادوا أن يحصروا قواهم ويوجهوها إلى إصلاح ما دمره السيل في بلادهم. وعلى كل حال فتاريخهم السياسي يؤاخذهم على ذلك التقصير، ويحاسبهم على ما ارتكبوه من خطأ لتركهم إمارة واسعة النطاق كثيرة الخيرات.

أصبحت البلاد بعد تخلِّي نَهْد عنها في اضطراب مستمر، وفي زلزال متواصل، وقد يهدأ الاضطراب ويسكن الزلزال، ولكنه هدوء متقطع وسكون تتخلله هزات، فحينما يشعر زيد بقوة ساعده وشدة بأسه، وحينما يجول بخاطره ويطرأ على باله

التسلط على العباد والبلاد؛ يأخذ عدته ويصيح في قومه، فيهجم ويستولي على بلد أو أكثر من بلد، ويعلن للناس حكمه الجديد، وبعد مضي شهور عليه أو سنة أو أكثر من سنة، يأتي عمرو برجاله فيطرد زيدًا وأنصاره ويحكم البلاد حكمًا يخالف مَن قبله. ولقد كان لتلك الاضطرابات والمشاغبات أثر سيء ليس في الحالة السياسية فقط، بل وفي الحالة الأدبية والاجتماعية والاقتصادية أيضًا، فإن الحركة العلمية في تَرِيْم وشِبَام خمدت وتضاءل نورها، وكاد ينطفئ، وانحطت الأخلاق انحطاطًا سيئًا؛ فأُناسٌ أعمى قلوبهم الطمع والجشع، فتنازعوا وتحاربوا من أجل السلطة والحكم، وأناس خنعوا وخضعوا لتصرفات الحوادث، وحبسوا إرادتهم وكتموا عواطفهم، فلم يسدوا نصحًا، ولم ينهوا عن منكر، وآخرون انتهزوا تلك الفرصة السانحة وانتهزوا خمود الحركة العلمية وتنازع الأقوياء على السلطة، فسعوا بكل مستطاع وبكل ما لديهم من مكر ودهاء؛ لتوطيد مركزهم وتقوية سلطتهم الروحية لاستعباد الناس باسم الدين.

أما الحالة الاقتصادية فسيئة جدًا، فقد انحطت الزراعة، وانقطعت القوافل، وساد الكساد جميع الأسواق، ومما زاد الطين بلة والخرق اتساعًا قيام آل جميل ضد بني ضنّة سنة ٧٦٨هـ، وتنازع عبدالله بن محمد بن أحمد بن يماني وابن أخيه راصع بن دويس على الولاية سنة ٧٧٤هـ، وظهور حرب السوق الأولى في الهَجْرَين التي أثارها آل محفوظ سنة ٧٧٤هـ، والحرب الثانية سنة ٧٧٥هـ.

فهذه الحوادث وهذه النكبات المتواترة خذلت العباد وأنهكت البلاد. ولقد كان من خذلان الأسواق وانقطاع القوافل عن الورود إليها لقلة الأمن؛ أن ازداد القحط سنة ٧٧٦هـ، فارتفعت فيه الأسعار ارتفاعًا عجز الناس معه عن شراء الضروريات، حيث بِيْع التمر رطل بدرهم والطعام شطر بدرهم، وفي دَوْعَن بيع الطعام (مصرا) بدينار، وبيع الفقوز ستين بدرهم.

الدولة الكثيرية
في دورها الأول

آل كثير أعظم قبائل همدان، وأشدها قوة، وأشرفها مقامًا، وأعزها رجالًا، لهم نفوس كبار، وآمال عظام، ومطامح جسام. وهم قبائل كآل عامر ومنهم آل عبدات، وآل كدّة، وآل عبدالعزيز، وآل عمر، ومن هؤلاء آل فاس، وآل عاس، وآل مهري، وآل جعفر بن طالب، وآل مرعي بن طالب، وآل عمر بن سعيد بن طالب. وهناك أفخاذ كآل سند، وآل جعفر بن بدر، وآل منيباري، وآل صقير، وآل زيمة، وآل سعيد بن مرعي، جميع هذه البطون والأفخاذ، وكذلك آل باجري، وآل جابر، والعوامر، وآل سيف، هم من آل كثير. وفي ظَفَار توجد قبيلة كبرى منهم يقال لهم بنو كثير، سنتكلم عنهم في الجزء الثاني.

طمح آل كثير إلى الملك وسعوا إليه من قديم، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، إذ كانت كِنْدة باسطة ذراعيها على الأحقاف، وكانت صاحبة الحول والطول، ولما بدأت كِنْدة تنكمش وتتقلص حينما اعتراها الوهن ودب إليها الانحلال، هبَّ آل كثير وسعوا وراء الملك سعيًا حثيثًا حتى نالوه، ولكن كان ملكهم ينبسط مرة ويتقلص أخرى؛ لتخاصمهم وتنازعهم فيما بينهم وفيما بين غيرهم من المنافسين، حتى إذا كانت سنة ٧٨٦هـ بدأ ينتعش من جديد وتسري فيه روح الحياة، حيث جمع آل كثير كلمتهم ووحدوا صفوفهم وتعاونوا وتناصروا واستولوا على الشِّحْر.

اشتهر منهم فيها السلطان بدر بن محمد الكثيري، إذ حكم بالعدل فهابته الناس، ونشر الأمن بعد أن كان مفقودًا؛ لكثرة غارات قطاع الطرق من سكان الجبال، ولقد

أصبحت الشِّحْر في عهد هذا الشهم المقدام المدينة الوحيدة في القطر الحضرمي التي تتمتع بالعدل والسلام، والتي يجد فيها النزلاء من التجار وغيرهم راحة وهناء. ولشدة حرص السلطان بدر بن محمد إلى الوئام والوفاق، كان يسعى بين المتخاصمين بالموعظة الحسنة، ويدعوهم إلى التسامح فيما بينهم، فإذا أبى أحد الخصمين الصلح أصدر حكمه على الظالم في شدة وفي غير محاباة. ولقد حاول إعادة مجد الشِّحْر القديم وشهرتها الواسعة التي بلغت في الجاهلية إلى أقصى حدود الجزيرة العربية، ورن صداها في آذان الفينيقيين والكلدانيين والمصريين، حيث أرسل رسله إلى الحبشة واليمن والبحرين لنشر الدعاية للشِّحْر ودعوة التجار إليها لمبادلة المتاجر والسلع، ولكن من سوء حظ الشِّحْر ومن سوء حظ الحضارم جميعًا أن قبائل آل كثير في حضرموت الوسطى عادت إلى ما كانت عليه من التنازع والتخاصم والتناحر بالرغم من المساعي العظيمة والجهود الجبارة التي بذلها المصلح الكبير السلطان بدر بن محمد الكثيري لإصلاح ذات بينهم وجمع شملهم، وقد زاد الخرق اتساعًا، والفتنة اشتعالًا، قطع صلاتهم بالشِّحْر، وظل السلطان بدر مع عدد قليل من رجاله يحكم الشِّحْر في هدوء، ولكن مع خوف متقطع، وكأنه علم أن كِنْدة متأهبة لاسترداد الشِّحْر. فأرسل رسله إلى قومه يطلب إليهم رجالًا لتحصين الشِّحْر وللدفاع عنها ضد المعتدين، ولكنهم لم يعيروه التفاتًا، ولم يمدوه بشيء لتخاذلهم وتفرقهم، ولقد صح ما كان يتوقعه، فقد انتهزت كِنْدة هذه الفرصة السانحة، وقام سيدهم سعيد بن مبارك بن فارس بادُجَانة الكِنْدي يستفز قومه ويدعوهم لاسترداد الشِّحْر، فلبوا نداءه وأتوه مهطعين وحاصروا الشِّحْر أيامًا دافع في خلالها السلطان بدر دفاع المستميت، ولكنه لم يستطع مواجهة قوة كِنْدة ورجالها البواسل، وهو في ذلك معذور كل العذر، إذ ليس لديه من الجيش ما يوازي جيش الكِنْدي، ثم استولوا عليها بعد ذلك سنة ٨٣٨هـ.

كان لسقوط الشِّحْر في يد كِنْدة أعظم رجفة وأبعد صدى في نفوس آل كثير وقد تألموا أشد الألم ولكن لم ينفعهم هذا التحسر والتألم، ألم ينذرهم سلطانهم بعاقبة التخاذل والتخاصم؟ ألم يطلب إليهم مددًا للدفاع عن الشِّحْر والذود عن حوضها؟ أما كان الواجب عليهم الذهاب إلى الشِّحْر لمناصرة إخوانهم المحاصرين؟ أليست الجريمة جريمتهم والخطأ صادرًا منهم؟ إن مسؤولية سقوط الشِّحْر لا تلقى على عاتق السلطان بدر بن محمد الكثيري، فقد دافع هو وأنصاره القليلون دفاع المستميت، حتى إذا أحاطت به الأخطار من كل جانب ورأى الهلاك سيبيده ومن معه، انسحب من الميدان وسلم لأعدائه البلد، إنما المسؤولية تلقى على تلك القبائل الكثيرية التي لم تنصر سيدها وتنجده برجالها. لقد ظن الناس أن آل كثير بعد انكسارهم في الشِّحْر سيتحدون ويجتمعون ويوحدون صفوفهم ويؤلفون بين قلوبهم لاسترداد الشِّحْر، ولكن لم يكن شيء من ذلك، بالرغم من المساعي الجبارة التي بذلها بعض عقلائهم لتوحيد كلمتهم، وبالرغم من تقديم آل باجري والعوامر أنفسهم لمساعدتهم للحرب ضد كِنْدة؛ ذلك لأن الخلاف والشقاق والمشاغبات القائمة بينهم ازدادت انتشارًا واتسع نطاقها، وتفاقم خطبها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن لديهم من المال ما يكفيهم لمؤونة الحملة على الشِّحْر، ولذلك اضطر كثير منهم لمغادرة أهله والنزوح إلى الخارج للارتزاق.

كِنْدة في دورها الثاني

بعد أن احتلت كِنْدة الشِّحْر تولى الحكم فيها المقدام سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندي، وكان هذا الأمير حليمًا حازمًا يقظًا مهابًا من جميع الناس، وكان يحب قومه لدرجة التعصب، يلم شعثهم، ويرأب صدعهم، ويكرم عظيمهم، ويطعم فقيرهم، ويواسي مريضهم، وقد أبقى شؤون الشِّحْر كما كانت في عهد السلطان بدر بن محمد الكثيري، إلا الدعاية للشِّحْر في الخارج فإنه لم يهتم بها ولم يلتفت إليها، ولكنه بعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها للقدوم بقوافلها إلى الشِّحْر، لينافس بذلك أسواق هَيْنَن وشِبَام وتَرِيْم وسَيْئون، فلم يفلح لشهرة هذه الأسواق وسهولة المواصلات إليها وسرعة بيع الواردات فيها.

ولقد حاول آل محفوظ وآل مساعد الهجوم على حضرموت الوسطى لاحتلالها، ولإخضاع القبائل الكثيرية كي لا تقوم لهم صولة، وكي لا يهبوا لاسترداد الشِّحْر، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا؛ لأن سيدهم أمير الشِّحْر لم يوافقهم على ذلك، ولم يرض أن يجازفوا بأرواحهم بين أفخاذ آل كثير، لعلمه أن هؤلاء وإن كانوا متخاصمين، فلا بد أن يكونوا يدًا واحدة وقلبًا واحدًا ضد عدوهم المهاجم، ومتى انتصروا فلا شك أن نشوة الانتصار تسوقهم لاسترداد الشِّحْر.

استمر الأمير سعيد بن مبارك الكندي يحكم الشِّحْر ويسوس الناس بسياسته الحازمة ويدير شؤونهم بما عرف به من العدل وحب الخير. ولما مات قام بالأمر بعده ابنه الأمير محمد بن سعيد، فاقتفى أثر أبيه وتتبع خطواته، ولقد ساعدته الثروة التي تركها له أبوه، والتي كانت من نتائج إصلاحات السلطان بدر بن محمد الكثيري،

ولقد بذل كل مجهود في تحصين الشِّحْر برجال من قومه ومن الحُمُوْم، واشترى كثيرًا من المراكب الشراعية لتقوية المواصلات، وتنشيط العلائق، وتوثيق الروابط بين الشِّحْر وعَدَن، وبينها وبين ظَفَار وبَرْبَرَة، واستمال إليه كثيرًا من قبائل البادية بمبالغ من المال كان يبعثها إليهم كهدايا، وبالأخص الحُمُوْم، فقد وطَّد علائقه بهم، وأمر بعض رجاله أن يتزوجوا منهم كي تقوى الروابط، وحتى لا يستطيعوا أن ينحازوا إلى آل كثير ضده. ذاع صيته وعظم قدره واحترمه الأصدقاء والأعداء، واعترف له بالفضل الخصوم، ولا غرو فقد ولد من أب كان سيد كِنْدة، ومن أم عرفت بالذكاء وسرعة البداهة وقوة الذاكرة، كما اشتهرت بالسياسة والبلاغة وقوة التأثير والجاذبية، وقد كانت تتولى الحكم في غيبة ابنها، لأنه لا يوجد في الشِّحْر من الرجال والنساء من يفوقها في العقل والحزم وبُعد النظر.

محاولة كِنْدة احتلال عدن

في سنة ٨٥٨ للهجرة اشتد النزاع والخصام بين يافع آل أحمد وآل كلد في عدن، وكانوا إذ ذاك أصحاب الكلمة النافذة والأمر المطاع في حكومة عدن، وكانت الحصون بيد آل أحمد، فثارت الحرب بين هؤلاء وبين إخوانهم آل كلد، هرب الحاكم المسعود خوفًا من الاغتيال، فاضطربت شؤون عدن، واختل الأمن فيها، وكثر النهب والسلب؛ فجاء المؤيد بجيشه من زبيد واحتل عدن، فخاف آل أحمد اتساع نفوذ آل كلد وذهبوا إلى بني طاهر وشجعوهم على احتلال عدن، فجاء هؤلاء بجيش تحت قيادة نقباء يافع من آل أحمد، فخاف آل كلد على أنفسهم وفر كثير منهم إلى الشِّحْر، ولما وصلوا هناك حثوا الأمير محمد بن سعيد الكندي على احتلال عدن، وتعهدوا له بأن يضحوا بكل مرتخص وغالٍ في سبيل الاحتلال، فأعدَّ الكندي جيشًا خليطًا من قومه ومن يافع ومن الحُمُوْم ومن المهرة، وسافر بهم في تسعة مراكب، وما كان لهذا الشاب الكندي أن يجازف بجيش أغلبه يجهل مخاطر البحر، ويرحل بهم إلى بلاد نائية عن عشيرته؛ وفيها بنو طاهر. وعلى مقربة منها أمراء المسعود بجيوشهم، ولكن نفس هذا البطل أكبر من جسمه، وآماله تنوء من حملها الجبال، ولقد حاولت أمه بنت معاشر منعه عن السفر فلم يرضخ لنصحها، ولم يُقم لكلامها وزنًا، فأبحر بجيشه بعد أن ولَّى أمه الحكم بالنيابة، وهي أول حضرمية تولت الحكم في الشِّحْر، ولما علم أهل عدن بقدوم الأمير الكِنْدي، ولم يكن إذ ذاك في عدن أحد من سلاطين بني طاهر غير نائبهم الشريف علي بن سفين، حصنوا البلد بما فيها من يافع والجيوش والبربر، وأرسل الأمير علي بن سفين إلى

بني طاهر يطلب منهم المدد. وفي يوم الإثنين ١٢ من شهر ربيع الثاني جاء السلطان الظافر عامر بن طاهر إلى عدن بعسكره من ضليعة، ولما بلغ ذلك الكندي أشار له كبار جيشه في أن يتراجعوا بمراكبهم إلى البحر ويتظاهروا بالاندحار، حتى إذا اطمأن الأعداء على أنفسهم أعادوا الكرة على غرة، ولكن الكندي أبى إلا الهجوم في مساء ذلك اليوم غير مبالٍ بكثرة جيش أعدائه. ومن سوء حظه أن هبت عاصفة شديدة حالت بينه وبين عدن، وأغرقت بعض مراكبه بما فيها من مؤن وذخائر، فاضطر لأن يرجع إلى البحر، فركب هو وبعض رجاله مركبًا فانقلب بهم المركب لشدة العاصفة، وكاد الأمير الكندي يغرق لولا أنه آوى إلى الساحل هو ومن معه. ولما علم بهم جيش بني طاهر خرجوا من حصونهم وأسروا الأمير الكندي ومن معه وسجنوهم. ولما بلغ ذلك إلى الشِّحْر جمعت أمه الحاكمة بالنيابة الأعيان واستشارتهم في أمر ابنها، فانكمشوا وقبعوا خوفًا من أن يغتالهم آل طاهر في عدن، فسافرت هي بمفردها إلى عدن؛ واجتمعت بالسلطان الظافر عامر بن طاهر وفاوضته ليطلق سراح ابنها من السجن، فامتنع السلطان في بادئ بدء، ولكنه في النهاية خضع لقوة تأثيرها وبلاغتها وصراحتها، فأجابها إلى ذلك. وعادت به أمه إلى الشِّحْر.

وتوفي عقب وصوله مسمومًا من بني طاهر، فخسرت البلاد رجلًا مقدامًا وحاكمًا حازمًا ووطنيًا مخلصًا، وحزنت عليه الأمة حزنًا شديدًا، ولقد أبدت أمه من الرزانة ورباطة الجأش ما أدهش العقول وحير الألباب، فقد نادت في الناس بوفاة ابنها والدموع تنحدر من عينيها بهدوء، وهدأت روعهم وواستهم في فقيد البلاد.

الحالة السياسة بعد وفاة محمد

بعد أن توفي الأمير محمد بن سعيد الكندي لم تجر الأمور كما كانت في عهده، وبالرغم من الجهود التي بذلتها أمه لإعادة الطمأنينة والسلام في أرجاء البلاد، وذلك لأن الذي تولى الحكم أخوه، وكان هذا ضعيف الرأي، قصير النظر، سريع الغضب، كثير الطيش. ولقد حاولت أمه أن تهديه بآرائها الصائبة وأفكارها الحكيمة، ولكنه كان متعصبًا لرأيه لدرجة الجمود، وقد قطع ما كان يمنحه أخوه لرؤساء قبائل البادية من الهدايا الكريمة، فانقطعت بذلك الصلات بينه وبين قبائل البادية، كما قطع صلاته بآل محفوظ وآل مساعد وآل مرتع، حيث لم يسع لإزالة ما حصل بينهم من خلاف وشقاق، ولعله عاجز عن ذلك كل العجز، أو لعله كان لا يريد أن يوزع أعماله وقوته خارج حدود الشِّحْر، ولكن هذا ضعف في السياسة وقصور في النظر، ولو أن أهل الشِّحْر عارضوا في توليته، لو أنهم ولوا عليهم أمه الحازمة لظلت الأحوال كما كانت من قبل، وربما كانت تتحسن أكثر، ولكنهم كانوا ضعاف الإرادة، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى كانوا يرون من العيب عليهم الخضوع لأحكام امرأة، والانقياد لأوامرها، على أن تلك السيدة الكندية أكبر منهم عقلًا، وأوفرهم حزمًا، وأبعدهم نظرًا، وأعمقهم فهمًا لبواطن الأمور وظواهرها وعواقبها.

انقطعت الصلات بين الشِّحْر وقبائل البادية، وقام جماعة من الحُمُوْم يقطعون السابلة ويلقون في قلوب الناس الرعب، ففقد الأمن وانكمشت المواصلات التجارية، فكسدت السوق وأخذ التجار يرحلون إلى ظَفَار وعدن، وإلى شِبَام وتَرِيْم، فساءت الحالة وازدادت ضنكًا وتعاسة، وأمست الشِّحْر تكافح مصائب لم

تر مثلها من قبل، وكأن الشِّحْريين يئسوا من الحياة، وقطعوا كل أمل في النهوض، فخمدوا وركدوا، وما أشبه هؤلاء بأولئك الذين يرون النار تلتهم بيوتهم وهم واقفون أمامها يتفرجون ويلهون.

الدولة الكثيرية
في دورها الثاني

قلنا إن بعضًا من آل كثير اضطروا للهجرة إلى الخارج للارتزاق، وكان في مقدمة هؤلاء المهاجرين السيد جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري، فقد اتخذ ظَفَارًا مركزًا لتجارته، وساعدته الظروف حيث أصبح بعد بضع سنين من أرباب المال. كان هذا المقدام ذا غيرة مشتعلة وحمية متقدة نحو عشيرته، ولأخلاقه الكريمة وخصاله الحميدة وآرائه السديدة؛ أحبه الناس وركنوا إليه، واتخذوه نصيرًا ومعينًا لهم في أمورهم الخاصة والعامة، وكان ينوب عن التجار النازلين هناك في الدفاع عنهم والمطالبة بحقوقهم عند حاكم ظَفَار. لم ينس هذا السيد صدمة الشِّحْر التي نكب بها قومه، ولم يرض أن تبقى الشِّحْر في يد كِنْدة وتحت سلطتها، لذلك باع جميع أملاكه في ظَفَار، وسافر هو وابنه عبدالله إلى حضرموت، فسعى أولًا لإصلاح قومه وإزالة ما حدث بينهم من خلاف وشقاق، حتى استطاع بعقله الراجح، وفكره الناضج، وشخصيته البارزة؛ أن يجمع كلمتهم ويؤلف قلوبهم ويوحد صفوفهم. ثم كوَّن منهم جيشًا وسار به إلى الشِّحْر وهجم عليها بدون سابق إنذار، فاستولى عليها دون أن يلقى أمامه مقاومة شديدة وذلك سنة ٩٠١هـ، وظل يحكم الشِّحْر مدة من الزمن. ثم ولى ابنه عبدالله الأمر، وسار هو إلى شِبَام، وحرص كل الحرص على بقاء الاتحاد والوئام بين عشائره؛ فأصبح آل كثير بفضله متحدين مترابطين. ثم سار إلى بَوْر، وهناك أدركته الوفاة في ذي الحجة سنة ٩٠٥هـ، ففقدت البلاد رجلًا عاملًا ووطنيًا مخلصًا وسياسيًا محنكًا، وكان محبوبًا لدى جميع الناس، ذا سيرة

حسنة. وأما الأمير عبدالله بن جعفر الكثيري فقد ظل يحكم الشِّحْر في هدوء حتى عاجلته المنية سنة ٩١٠هـ. ثم قام بالأمر بعده ابنه الأمير محمد بن عبدالله الكثيري، وكان هذا سليم النية، صافي السريرة، ضعيف الإرادة، قصير النظر، حصر أعماله الضئيلة في الشِّحْر، وقطع كل علاقة بقومه في حضرموت الوسطى، وبنى بينه وبينهم ردمًا من حديد، فساءت حالهم ودبَّ إليهم الخلاف والشقاق والخصام، فتلاشت هيبتهم وذهبت ريحهم، واستبد بالحكم في تَرِيْم محمد بن أحمد بن جردان. وفي شِبَام كان السلطان بدر بن محمد الكثيري حاكمًا، ولكن كان ضعيف الإرادة سليم النية لا ينفذ له أمر، ولا يقام له وزن، ولا يرفع له ذكر، قبع في قصره وترك الأمر لمن دونه من الرؤساء، يحكمون حسب أهوائهم، ويتصرفون في حقوق الشعب كما يريدون، ويذيقونه ألوانًا من الظلم والعذاب. ولما توفي سنة ٨١٥هـ ازدادت الفوضى، وانتشرت المظالم، وساد الخراب، وكثر السلب والنهب بين شِبَام وتَرِيْم وسَيْئون، وتعدى الأقوياء على حقوق الضعفاء، ففقد الأمن في أرجاء البلاد واختل النظام.

هكذا اضطربت الأحوال واختلت النظم، وأصبحت الفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، ولقد همَّ آل محفوظ وآل مساعد بالهجوم على شِبَام وطرد آل كثير منها، وأرادت ذلك نَهْد أيضًا، ولكن الظروف لم تساعدهم على ذلك، إذ التنازع والتخاصم فيما بينهم ثائر والفتنة مشتعلة. هكذا أمست الدولة الكثيرية لقمة سائغة يتحفز لالتقامها نَهْد وكِنْدة، ويستبد في شؤونها ابن جردان، ويتعدى على حقوق الضعفاء الأقوياءُ الجبارون.

في مدينة شِبَام وفي قصر من قصورها الشاهقة شاب لم يتجاوز العشرين من عمره، حاد الذكاء، قوي الذاكرة، بعيد النظر، كريم السجايا، حميد المزايا، ذو ثروة واسعة تركها له أبوه وجده، ولكنه ليس من أولئك الشبان الكُسالى الذين يأكلون ويشربون

وينامون، بل هو طموح للمجد، عزيز النفس، حر الضمير، ذو غيرة متقدة، وحمية مشتعلة على عشيرته الأقربين، ذلك هو بدر بن عبدالله بن جعفر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري الملقب بـ(أبي طويرق)، والمولود سنة ٩٠٢هـ.

لم يرض هذا النبيل أن يرى ملك آبائه ممزق الشمائل مقطع الأوصال، لم يسمح له ضميره الشريف بالجمود والهمود على ما حل بقومه من الخذلان والخسران؛ فهب يعمل بكل جهده لإنقاذ ملكه وإحياء قومه، وجاس خلال الديار باحثًا عن رجال ليضم أصواتهم إليه ويكوِّن منهم قوة تكتسح ما سيعترضه من العقبات والعراقيل، ولكن لم يجد من يلبي نداءه ويشد أزره ويكون له عونًا ونصيرًا، كأن القوم رضوا بتعاسة الحال وسوء المنقلب، كأنهم قطعوا كل أمل في إحياء ملكهم واسترداد ما اشتراه آباؤهم بالدم. حاول بدر بن عبدالله أن يسوس الشعب ويرشدهم إلى الصلاح والفلاح، ولكنه لقي أمامه كثيرًا من أقربائه يعاكسونه ويقاومونه وينصبون له العداء ويحفرون في سبيله الحفائر، لذلك اضطر أن يغادر البلاد ليأتي بقوم يسترد بهم الملك الضائع والحكم المفقود، فسافر حتى إذا وصل اليمن في شهر ذي الحجة سنة ٩٢٥هـ طلب إلى الإمام أن يمده بجيش، فأمره بالبقاء لديه ليشاهد وفود القبائل التي تأتيه لتهنِّئه بالعيد ليختار القبيلة التي تروقه وتعجبه، فوقع اختياره على يافع، وانتخب منهم خمسة آلاف، فسافر بهم إلى حضرموت، ولما وصلوا إلى الشِّحْر تخلف عنه جماعة من يافع وسكنوا هناك، وسار بالبقية إلى دَوْعَن وهناك أبقى جماعة من بني بكر وآل يزيد وآل بطاطي، ثم سار قاصدًا شِبَام، فعلمت بقدومهم قبائل نَهْد واحتشدت في نجران لصدهم، فالتقى الفريقان وسارت بينهم الحرب، وكان النصر لبدر وقومه وتخلف في نجران وسَدْبة جماعة من بني بكر. ثم سار إلى شِبَام واحتلها في شهر رجب سنة ٩٢٦هـ وحصنها برجال من يافع (المَوْسَطة). ثم سار إلى تَرِيْم واحتلها في محرم سنة ٩٢٧هـ، وطرد منها محمد بن

أحمد بن جردان، واتخذها مركزًا لدولته وحصنها برجال من يافع (آل لبعوس). كما حصن سَيْئون بجيش من يافع (الضُّبَي)، ثم سار إلى هَيْنَن واستولى عليها، وجعل عبدالله بن علي بن عمر المرهون حاكمًا عليها من قِبله، ثم أرسل جماعة من يافع إلى السلطان محمد بن عبدالله بن جعفر الكثيري ليضمهم إلى الجيش؛ لتعزيز الشِّحْر ولتأمينها من غارات الأعداء وقطاع السبيل.

هكذا أحيا السلطان بدر بوطويرق الكثيري ملكه المندثر وسلطانه المضمحل، وبعث فيه القوة وروح النشاط، بعد الخمود والجمود، وأعاد لقومه مجدهم الضائع وشرفهم المحتضر، رفع اسمهم وأحيا ذكرهم وبوأهم مقعدًا عليًّا. كان شديدًا في حكمه قاسيًا في أمره، ولكن كانت هذه الشدة وهذه القسوة في صالح الأمة ولمنفعتها، كان متواضعًا يجالس الكبير، ويحادث الصغير، ويعطف على الفقير، قرَّب إليه العقلاء والفضلاء واتخذهم بطانة له، وكان بين هؤلاء أفرادًا ليسوا من آل كثير، اختارهم لعقولهم الراجحة وأفكارهم الناضجة، غاضًا النظر عن جنسياتهم وأرومتهم؛ الأمر الذي أغضب جماعة من عشيرته وجعلهم ينقمون عليه ويرمونه بالبلَه وحُسن النية. كان يجزل العطايا للعلماء، ويغدق على الشعراء والأدباء الهبات، فمدحه هؤلاء وأثنوا عليه وشكروا له فضله الوافر ومعروفه الغزير.

ظهور حزب سياسي منافس له:

في سنة ٩٣٣هـ ظهر حزب سياسي ضد السلطان بدر تحت قيادة الأميرين محمد بن عبدالله بن عمر الكثيري ومحمد بن بدر بن محمد الكثيري، وكان الدافع الأكبر لقيام هذين الأميرين هو انفراد السلطان بدر بتلك الشهرة الواسعة النطاق التي أحرزها من إحيائه الدولة الكثيرية وتوليه قيادتها. ثم إنه لم يشرك الأمير محمد بن بدر في ولاية شِبَام، مع أن أباه كان واليًا فيها، وليس امتناع السلطان بدر عن ذلك لشيء سوى ضعف شخصية الأمير محمد وعدم مقدرته للقيام بأمر شِبَام،

ولكن الأمير محمد عدَّ حرمانه من السلطة إسقاطًا لقدره. ولقد قوى هذا الحزب السياسي واتسع نفوذه حيث تدخل في الأحكام وعاكس أوامر كان يصدرها السلطان بدر، ولكن السلطان بدر أدرك أغراض ذلك الحزب وما يحوكه ضده من الأعمال، وخشي على مركزه من السقوط، لذلك ألقى القبض على الأميرين محمد بن عبدالله ومحمد بن بدر وزجهما في السجن، وأرسل إنذاراته الجبارة لبقية أعضاء الحزب، وهددهم بالويل متى عادوا للمعارضة والمعاكسة والتحريض ضد السلطة الحكومية، وظل الأميران محبوسين في حصن مَرْيَمَة حبسًا احتياطيًا شريفًا، حتى توفي الأمير محمد بن بدر الكثيري في رمضان سنة ٩٤٩هـ بعد أن قضى ستة عشر سنة، وفي سنة ٩٥١هـ سعى بعض عقلاء آل كثير لدى السلطان بدر لإطلاق سراح الأمير محمد بن عبدالله من السجن، فأجابهم إلى ذلك، وسافر الأمير محمد إلى الحجاز.

إرسال جيش لفك حصار الترك:

في سنة ٩٤٥هـ أرسل السلطان سليمان العثماني جيشًا إلى اليمن تحت قيادة وزيره سنان باشا الأرناؤوطي، ولما وصل هذا إلى عدن طلب إلى أميرها عامر بن دواد أن يسمح لجيشه بالنزول في عدن لشراء حاجياتهم، وكان القائد قد أوعز لهم بأن يغدروا بأهل عدن، ولما كانوا هناك ألقوا القبض على الوالي عامر بن داود وعلى من حوله من الأعوان وأتوا بهم إلى القائد سليمان باشا فشنقهم هذا وصلبهم ثلاثة أيام، واحتل عدن. وبقتل عامر بن داود انقرضت الدولة الطاهرية التي هي من الدول الشافعية التي حكمت اليمن، وقامت بمحاربة البرتغال والترك[1] وأخمدت

(١) قال الكبتن بليفر في كتابه (A History of Arabia): إن عدد البرتغاليين الذين هجموا على عدن سنة ٩٢٠هـ هو ٢٥٠٠ منهم ثمانمائة جندي من الهنود، وفازوا في البداية ثم هزموا بعد أربعة أيام.

فتن أئمة الزيود. ثم أرسل سنان باشا جيشه للهجوم على الشِّحْر واحتلالها، ولكن السلطان بدر بوطويرق الكثيري استعد للطوارئ حيث حصَّن الشِّحْر برجال من قومه، وأرسل سفنه الحربية تطوف بين الشِّحْر والمُكَلَّا ، فعاد الجيش التركي خائبًا مخذولًا، ثم توجه الجيش التركي إلى اليمن لاحتلالها، ولكن اليمانيين ثاروا جميعًا ضد الترك وحاصروهم في زبيد، وثار أهل عدن ضد الحكم التركي، وولوا عليهم علي بن سليمان البدوي صاحب خنفر، وذلك سنة ٩٥٣هـ، ولشدة كراهية العدنيين للترك لقتلهم الوالي عامر بن داود فقد تعاهدوا مع البرتغاليين على أن يكونوا يدًا واحدة ضد الترك.

ولما بلغ ذلك إلى السلطان بدر الكثيري خاف أن يقوى نفوذ البرتغاليين في عدن ويستولوا على حضرموت وقد منع الترك عنها، كذلك أرسل جيشه إلى زبيد لفك حصار الترك، وألزم أهل اليمن بطاعتهم ليتمكنوا من سحق البرتغاليين وفعلًا ساروا بالجيش التركي والحضرمي إلى عدن واحتلوها سنة ٩٥٤هـ بعد أن جاءهم المدد من داود باشا من مصر، وقتلوا علي بن سليمان البدوي والي عدن وبعضًا من رجاله، وقضوا على سلطة البرتغاليين وبددوا جمعهم، وهكذا عادت عدن للحكم التركي، كما أصبحت اليمن خاضعة لهم بفضل السلطان بدر بوطويرق الكثيري.

اعترافه بالطاعة للترك وعزله من الحكم:

في سنة ٩٧٠هـ اعترف السلطان بدر بوطويرق الكثيري للترك بالطاعة والولاء والسبب مجهول، ولعله لما رأى اليمن وعدن وظَفَار خضعت للترك خاف أن يحدث من جيرانه ما لا تحمد عقباه من هجوم وعدوان وليس لديه من العَدَد والعُدد مثل ما عند الترك، ثم إنه أراد أن يوطد العلائق ويشد صلات الولاء بينه وبينهم، لذلك اعترف لهم بالطاعة، وأرسل إلى القسطنطينية هدايا فاخرة منها

بعض أسرى من الإفرنج في واقعة الشِّحْر مع البرتغال(١).

وقد أشار إلى ذلك شاعر حضرموت في القرن الحادي عشر الشيخ عبدالصمد باكثير من قصيدة يمدح بها السلطان عمر بن بدر:

قمتم بحقِّ ابنِ عثمانٍ وطاعتهِ ... محبةً هي منكم عن أبٍ فأبِ
كمثلِ ما أَسَرَ الإفرنجَ مِن قِدَمٍ ... أبوك بدرُ بنُ عبدِاللهِ ذو الحَسَبِ
ساروا بهم في وِثاقِ الأَسْرِ قد صُفِدوا ... بعضًا وبعضُهُمُ قد غُلَّ باللَّبَبِ
هناك كان إلى اصْطَنْبولَ مَقْدَمُهُمْ ... إلى سليمانَ يااللهِ مِن عَجَبِ
وبعدها في زَبيدِ حيثُ طال على ... عساكرِ الرُّومِ(٢) ضِيقُ الحَصْرِ والتعبِ
أرسلتُمُ المالَ والأمدادَ نحوَهُمُ ... وكلَّ غالٍ من المشحومِ والذَّهبِ

ولكن بعضًا من كبراء عشيرته لم يوافقوه على ذلك، كما عارضوه في إرسال النجدة لفك حصار الترك في زبيد، ونقموا عليه ورموه بالجبن، وفي مقدمة هؤلاء الناقمين ابنه الأمير عبدالله بن بدر الكثيري، ومما زاد الطين بلة سكوته إزاء معارضة أهل هَيْنَن للحكم الكثيري، وقطع علائقهم بسَيْئون وإعلانهم الاستقلال التام، لذلك جمع الأمير عبدالله بن بدر بعضًا من أعيان آل كثير، وكوَّن منهم حزبًا يعاكس سياسة أبيه ويعارضه في أكثر أوامره، وفي شهر صفر سنة ٩٧٦هـ دخل على أبيه وهو في قصره بسَيْئون وخلعه، وتولى الحكم هو وأخوه جعفر بن بدر، ولقد أحدث ذلك العزل دهشة عظيمة في البلاد، فمن الناس من عاب الأمير عبدالله على خلعه أباه من الحكم، وهو منقذ الدولة الكثيرية من الضياع ومحييها بعد موتها، ومنهم من أعجب بجرأته وأكبر فيه همته وغيرته، والحق أن عزل الأمير عبدالله أباه من

(١) هم جماعة من القرصان البرتغال كانوا يطوفون في البحر العربي، فهجموا على الشِّحْر واحتلوها، ولكن السلطان بدر سرعان ما قضى عليهم وأسر منهم كثيرًا.
(٢) يعني بالروم هنا الترك؛ لأن تسمية الترك بهذه الكلمة كانت شائعة في ذلك الزمن.

الحكم يعد جرأة ليس لها مثيل في التاريخ الحضرمي، وهو معذور في ذلك بعض العذر، إذ أن أباه لم يهتم بتوسيع نطاق الملك كما كان في أول أمره، بل ولم يعمل لاسترداد هَيْنَن التي خرجت عن حكمه، أما الاعتراف بالطاعة للترك فهو وإن كان يظهر للبعض أن فيه عيبًا، فلم يأت بشرٍّ للبلاد ولم ينقص شيئًا من استقلال الدولة الكثيرية، إذ لم يكن هناك من الترك من قام بأمر من أمورها أو ناب عنها في شأن من شؤونها الخاصة أو العامة، فجميع ولاة الأمور كانوا حضرميين ومن صميم آل كثير، فالاعتراف بالطاعة إنما كان اعترافًا اسميًا لا غير.

لم يعارض السلطان بدر بوطويرق في عزله، ولم يعمل لإعادة مركزه واعتلاء عرش الملك، ولو نهض لذلك لوجد أنصارًا كثيرين من قومه ومن القبائل الموالية لحكومته ومن الدولة العثمانية ومن أمراء اليمن، لما له من النفوذ العظيم والشهرة الواسعة النطاق، ولكنه رضي بالعزل وأخلد إلى السكون والصمت، ولعله رأى أنه إذا قام بالمطالبة يجلب الشقاق والخصام والخراب للبلاد والعباد، إذ الحرب لا بد أن تثور بين الطرفين، ولا بد أن تسيل الدماء وتذهب أرواح كثير من رجال الدولة وغيرهم، فهو أخلد إلى السكون حبًّا في جمع الكلمة، وتأليف القلوب، وتوحيد الصفوف، وتوطيد السلام.

وفي سنة ٩٧٧هـ توفي عظمته في سَيْئون وعمره ٧٥ سنة، ولقد تولى الحكم نحو خمسين عامًا بنى له في خلالها مجدًا لا يمحى، وذكرًا حسنًا لا يزول، ولقد ساد لوفاته الحزن والأسى أرجاء البلاد، وبكاه الشعراء والعلماء والفضلاء، ونعته الدولة العثمانية وولاة اليمن.

أما السلطان عبدالله بن بدر الكثيري فقد اتخذ مدينة سَيْئون مركزًا لحكومته، وأرسل جيشه إلى هَيْنَن وأخضعها لحكمه، ثم استولى على الهَجْرَين وحَوْرَة ووادي عَمْد ودَوْعَن. وتوفي سنة ٩٨٤هـ، وقد ساس البلاد بحزم وكياسة. وقام

بالأمر بعده ابنه السلطان جعفر بن عبدالله الكثيري، ولم يكن كأبيه في السياسة والحزم والعزم، حاول احتلال بلاد نَهْد فحاصرهم من نواحي هَيْنَن والعَجْلانيَّة والهَجْرَين وحَوْرَة وعَنْدَل، ومنع وارداتهم من الدخول في أسواق هَيْنَن والهَجْرَين، فحقدت عليه نَهْد حتى قتله الظلفان سنة ٩٩٠هـ. وقام بالأمر بعده السلطان عمر بن بدر العادل، ففك حصار نَهْد وسمح لهم بالسير في أي بلد يريدونه، وبذل مجهوده لنشر الأمن في أنحاء البلاد، وشجع الناس على نشر العلم، وأجزل العطايا للعلماء والفضلاء، فارتاحت الناس في عهده، واطمأنت النفوس، وكثر الخصب، وزكا الزرع، وزاد الرخاء، ورخصت الأسعار. وفي سنة ١٠٢١هـ توفي في الشِّحْر، فحزنت عليه الأمة أشد الحزن. كان حسن الشمائل، محمود الأوصاف، وافر العقل، كثير العدل. وكان نصيره وأمينه ومعينه الحميم في الآراء والأفكار كاتبه الشاعر الكبير السيد عبدالصمد بن عبدالله باكثير، فقد اختصه بغرر مدائحه وعيون قصائده، وكان منه بمنزلة البحتري من المتوكل، والمتنبي من سيف الدولة، فمن شعره فيه قوله من قصيدة يمدحه:

حبيبي أَقِلْني في هواكَ من الجَفا ... فَقَدْ شَفَّني منكَ التباعدُ والهَجْرُ
وطال سُهادي واشتياقي ولوعتي ... ومِن مدمعي فوقَ الخدودِ جرى نَهْرُ
عشقتُكَ حتى رَقَّ فيكَ تَغَزُّلي ... ولولاكَ لم يملأْ دفاتريَ الشِّعْرُ
صِفاتُكَ لا يحويْ نظامي أقلُّها ... كجُودِ ابنِ بدرٍ لا يُرامُ له حَصْرُ
إذا نابني خَطْبُ الزمانِ فإنني ... إلى عُمَرَ الخيراتِ بي ينتهيْ السَّفْرُ
مواهبُهُ موصولةٌ بمواهبٍ ... إذا ضَنَّتْ الأنواءُ واحتبسَ القَطْرُ
إلى جودِهِ تُحْدَى الركائبُ في الفَلَا ... يُقْلِقُها الإرقالُ في البِيْدِ والزَّجْرُ
إليهِ انبرتْ حتى طَوَتْ كلَّ فَدْفَدٍ ... تَسَاوى لديها حَنْدَسُ الليلِ والفَجْرُ

إلـى مـاجِـدٍ لا يـمـنـعُ الـوفـدَ رِفْـدُهُ ... ولا كـفُّـهُ جَـعْـدٌ ولا سَـيْـبُـهُ نَـزْرُ
وأَنْـفَـسُ ذُخْـرٍ عـنـدَهُ بـذلُ مالِـهِ ... إذا غـيـرُهُ كَـنْـزُ الـكـنـوزِ لـهُ ذُخْـرُ

ولما مات رثاه بعدة قصائد منها قوله:

الـيـومَ أطلقتُ الـدموعَ وأُضـرِمـتْ ... بـيـن الـضـلـوعِ لـواعـجُ الـبـرَحـاءِ
مـوتُ ابـنِ بـدرٍ هَـدَّ أركـانَ القوى ... مـنِّـي وزعـزعَ جـانـبَ الـحـوبـاءِ
عـمـرُ بـنُ بـدرٍ خيـرُ مَـن يُـدعـى إذا ... خَـطْـبٌ أتـى بـمُـلَـمَّـةٍ دَهْـيـاءِ
الـيـومَ نـدعـوهُ فـلا يُـصـغـيْ إلـى ... داعٍ دعـا، يـا ضـيـعـةَ الـشَّـكـواءِ
أضـحـى (الـمـصـبِّـح) بـعـدَه متنكرًا ... والـبـرجُ أمـسـى مـوحـشَ الأرجـاءِ
قـمـرٌ هَـوى مِـن أُفْـقِـهِ فـأوى إلـى ... بطـنِ الـثَّـرى فـهـو الـقـريـبُ النـائي
نـبـكـى عـلـيـهِ وفي الـضـمـائـرِ لـوعـةٌ ... لا يَـنـطـفـي وهَّـاجُـهـا بـالـمـاءِ
مـا أَنْـصَـفَـتْـهُ مـدامـعٌ نـبـكـي بها ... مـا لـم تـكـنْ مـمـزوجـة بـدمـاءِ

ورثاه بقصيدة أخرى مطلعها:

هَوَى مِن سماءِ المجد كوكبُها القُطْبُ ... فـأظـلـمَ في أقـطـارِنـا الـشـرقُ والـغـربُ

قام بالأمر بعده ابنه السلطان عبدالله بن عمر الكثيري، واقتفى أثر أبيه، وقد نافسه في الحكم أخوه الأمير بدر بن عمر، ونازعه في السلطة، وكادت الحرب تثور بينهما لولا وجود أفراد من عقلاء آل كثير، بذلوا جهودهم العظيمة في التوفيق بينهما وإصلاح ما شجر من خلاف. ثم سافر السلطان عبدالله بن عمر إلى مكة لأداء الفريضة، وتوفي هناك سنة ١٠٤٥هـ. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حسن الخَلق والخُلق، مهاب النظر، ولي الملك فأحسن القيام به. ثم قام بالأمر بعده ابنه السلطان بدر بن عبدالله الكثيري، وكان على جانب عظيم من المكر وبُعد النظر، ولكنه كان ظالمًا جائرًا قاسيًا مستبدًا متعصبًا لآرائه، إذا أراد شيئًا أو أصدر أمرًا نفذه في الحال،

حتى ولو كان يخالف الشرع وينافي العقل والعرف، كان جشعًا هلعًا في المال يجمعه لنفسه بوسائل غير شرعية ولا قانونية، والويل لمن يمتنع عن دفع ما يريده.

علم أن عمه الأمير بدر بن عمر الكثيري نازع أباه في الحكم وحسده وحقد عليه، فلا بد أن يعيد ذلك الدور معه، لذلك احتاط لنفسه فقد استمال قلوب بعض الناس إليه بالعطايا الجزيلة والهبات الوافرة، فالتفّ حوله المنافقون من رجال الدولة، وصاروا طوع أمره ورهن إشارته؛ ولما رأى الأمير بدر بن عمر ميل الناس إلى السلطان بدر بن عبدالله سعى بكل جهده في تنفيرهم منه وعدم الخضوع لحكمه، وبذل كل مستطاع لتكوين حزب يناوئه ويعاكسه، ولكنه لم يفلح في مساعيه؛ حيث لم ينضم إلى حزبه سوى أفراد من أقربائه الأحرار المخلصين. ولما رأى خيبة أمله أرسل إلى إمام اليمن يطلب إليه إرسال جيش لاحتلال حضرموت. ولما علم السلطان بدر بذلك غضب على عمه غضبًا شديدًا وألقى القبض عليه وسجنه، وحين بلغ الإمام المتوكل على الله إسماعيل ذلك أرسل إلى السلطان بدر بن عبدالله يأمره بإطلاق سراح عمه من السجن، ويهدده بالويل والثبور إذا لم يطلقه، ولكن السلطان بدر لم يهتم بتهديد الإمام ولم يقم لكلامه وزنًا.

وفي شهر صفر سنة ١٠٦٥هـ جهز الإمام المتوكل عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة أحمد بن الحسن ابن الإمام إلى بلاد بني أرض ليمهد طريقه إلى حضرموت، فثار آل رصاص لمحاربته، ولكنهم هزموا وقتل قائدهم حسين الرصاص، وقطع رأسه وأُرسل إلى الإمام، ثم زحف الجيش إلى يافع والتحمت الحرب بين الطرفين، فانتصر عليهم الزيود بعد أن جاءهم المدد من صنعاء، ولما بلغ السلطان بدر بن عبدالله الكثيري انتصار جيش الإمام على يافع أطلق سراح عمه وأخرجه من السجن، وأعلن الطاعة للإمام كيلا يأتي الزيود حضرموت، فأرسل الإمام صالح بن

حسين الجوفي إلى حضرموت فوجد الأمر على حقيقة، ثم جعل الإمام الأمير بدر بن عمر الكثيري واليًا على ظَفَار.

لم يكتف السلطان بدر بن عبدالله بولاية حضرموت، وأراد الانتقام من عمه بدر بن عمر الكثيري والي ظَفَار من قبل الإمام، ففي سنة ١٠٦٨هـ جهز جيشًا وسار به إلى ظَفَار واحتلها، وهرب الأمير بدر بن عمر إلى الإمام واستنجد به، فأمره الإمام بالبقاء في ضُوران ريثما تهدأ الأحوال، ثم أراد الإمام أن يزيل ما بين الأميرين من البغضاء والشحناء ويصلحهما بالوسائل السلمية، ولكن بعضًا من الشعراء ذكروا له قبيح فعل السلطان بدر بن عبدالله وحرضوه على القيام ضده والأخذ بالثأر للأمير بدر بن عمر، ولعل هؤلاء الشعراء إنما حرضوا الإمام على محاربة سلطان حضرموت بإيعاز من الأمير بدر بن عمر الكثيري لينتقم من ابن أخيه، ثم إن الأمير بدر بن عمر وجد تشجيعًا من الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن العمودي، وكان واليًا على مقاطعة من مقاطعات وادي دَوْعَن، فقد تعهد له هذا بأن يضم إلى صفه قبائل دَوْعَن ضد السلطان بدر بن عبدالله الكثيري، لذلك ألحَّ الأمير على الإمام في التجهيز على حضرموت وتكفل له بالطاعة والخضوع لحكمه، فلم ير الإمام بدًا من التجهيز.

خروج الزيود إلى حضرموت
(سيل الليل)

في يوم ١٥ من شوال سنة ١٠٦٩هـ جهز الإمام المتوكل على الله إسماعيل جيشًا تحت قيادة أحمد بن الحسن الصفي للاستيلاء على حضرموت والانتقام من السلطان بدر بن عبدالله الكثيري، فسار الجيش في طريق خولان ومأرب وبيحان وبلاد العوالق، ولما وصلوا وادي حَجْر لاقوا كثيرًا من المصاعب والمتاعب لوعورة الطريق وانقطاع المدد، وكادوا يضلون الطريق ويموتون جوعًا، لولا أنهم أكلوا لحوم الحمر. ولما وصلوا عقبة بامسدوس وجدوا جماعة من جيش السلطان بدر بن عبدالله مرابطين هناك، فزحف الصفي بجيشه وهزمه، ثم انحدر إلى الهَجْرَين بعد أن ضم إليه بعض قبائل نُوَّح من أهالي حَجْر، وثارت الحرب بينهم وبين آل محفوظ، وجاء نَهْد لينضموا في صف آل محفوظ، ولكنهم وجدو الصفي قد احتل البلد وأباحها لعسكره يقتلون ويعذبون وينهبون ويسلبون، ثم سار إلى هَيْنَن فخرج السلطان بدر بن عبدالله بقومه لملاقاته وهم ينشدون قول الشاعر:

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذيولِ

فثارت الحرب بين الفريقين ودامت أيامًا كاد الحضارم ينتصرون فيها على العدو، لولا أنه كان لديه من السلاح ما ليس لديهم، ولولا أنه كان يعرف من فنون الحرب ما لا يعرفه الحضرميون، لذلك انتصر عليهم بعد أن سالت الدماء وذهبت أرواح المئات من الطرفين. ثم سار إلى شِبَام واستولى عليها قهرًا بالسيف، وكان الزيود في طريقهم من الهَجْرَين إلى هَيْنَن ومن هَيْنَن إلى شِبَام يقتلون كل من يلاقونه

أمامهم من الرجال والنساء والولدان، لذلك سماهم الحضرميون (سيل الليل).
ولما رأى السلطان بدر بن عبدالله وحشية عدوه وجلافته وفتكه وتنكيله بالأهالي، ورأى انتصاراته تترى، أعلن الطاعة للإمام؛ حقنًا للدماء، وحفظًا لأرواح الضعفاء من الشيوخ والعجزة والنساء والولدان. ولكن الصفي ألقى القبض عليه وأرسله إلى الإمام المتوكل، فسجنه هذا أيامًا ثم سمح له بالعودة إلى حضرموت[1]. أما أحمد بن الحسن الصفي فقد عاد من حضرموت إلى اليمن ولديه من الغنائم والمكاسب ما ليس له حصر. قال الكبسي: «وعاد مولانا أحمد من حضرموت في أبهة عظيمة ومملكة جسيمة، وقد فاز بخير الدنيا والآخرة (كذا)». أراد الإمام أن يولي ابن أخيه الحسين بن الحسن على حضرموت فامتنع، فأرسل أحد أقاربه إليها، ولما جاءها لم يقابله الحضارم باحترام ولم يخضعوا له ولم يقيموا له وزنًا ولا ثمنًا، فعاد إلى اليمن غير مأسوف عليه ولا محمود، فاضطر الإمام بعد ذلك أن يجعل السلطان بدر بن عمر الكثيري واليًا من قِبله على حضرموت، فكان ذلك.

وفي سنة ١٠٧١هـ شعر جماعة من عقلاء آل كثير بسوء عاقبة التنافر والتشاحن والتنازع القائم بين السلطان بدر بن عمر وابن أخيه السلطان بدر بن عبدالله، ووجدوا أن تنازعهما على السلطة مصدر الرزايا ورسول الخراب، رأوا أن الخلاف القائم بينهما هو السبب الوحيد لاستيلاء الإمام على حضرموت، ولقتل كثير من الأبرياء،

(١) قال الكبسي في كتابه (اللطائف السنية): «ثم تقدم إلى بلاد الهَجْرَين ولم يبق إلى محل السلطان عمر (كذا) غير مسافة يومين (كذا) فتلقاه الحضارم ركبانًا ورجالة، وقاتلوا في صف سلطانهم لا محالة، فأطلقت عليهم الرصاص المذابة، ووجه إليهم الردى أسبابه، فقتلوا في الأودية والشعوب، وجروا على الأذقان والجنوب، وانهزم السلطان من هَيْنَن إلى شِبَام، وقد طرأ عليه بساط الأحكام، ودخل الصفي على منازل ذلك البدر، ولما سقط في يد السلطان، عاد إلى الطاعة بعد العصيان، وصلحت الأحوال، ورجع الصفي في أنعم بال وأطيب حال، وأرسل الصفي بالسلطان بدر إلى حضرة الإمام فاستبقاه الإمام أيامًا ثم سمح له إلى دياره وتوفي بجهته بعد عوده إليها».

ولذهاب أموال لا تحصى، لذلك سعوا بكل مقدورهم لإزالة الشحناء والبغضاء بين الأميرين، ولإيجاد الوفاق والوئام بينهما، ولقد نجحوا في مساعيهم الشريفة حيث تسامح الأميران وتناسيا ما حدث فيما مضى من شقاق وقتال، وارتبط كل منهما بالآخر ارتباطًا متينًا وساد عليهما الحب والولاء والوئام، ففرح الشعب لذلك فرحًا عظيمًا، وجاءت رؤساء القبائل تهنئ الأميرين بالصلح وتشكرهما لجنوحهما للسلم والإخاء والوئام.

ظل السلطان بدر بن عمر الكثيري يحكم حضرموت من قِبل الإمام، وكانت العلائق بينه وبين اليمن متينة والصلات قوية. ولما توفي قام بالأمر بعده ابنه السلطان عمر بن بدر، ثم عيسى بن بدر.

وفي سنة ١٠٧٩هـ قام أهل ظَفَار مع جماعة من الحضارم بالتحريض ضد الإمام لجور عامله ابن الشيخ زيد خليل، وحاصروا هذا الوالي في قصره ومنعوا عنه القوت، واعتدوا على سبعة وعشرين من رجاله بالضرب، وكادوا يقضون عليهم، ولما بلغ ذلك إلى الإمام أرسل مولاه عثمان بن زيد، ولكنه رجع من ظَفَار خائبًا، فقد كاد يقتله الثائرون. استمرت هذه الاضطرابات والقلاقل شهورًا، وأخيرًا طرد الثائرون الوالي ابن الشيخ زيد خليل، وقطعوا كل علاقة باليمن، وأظهروا الطاعة للسلطان عيسى بن بدر الكثيري، وهكذا خلعت ظَفَار طاعة اليمن قبل أن تخلعها حضرموت، وفضلت حكم الكثيري على حكم الإمام. ولقد كان من المنتظر أن يرسل الإمام جيشًا لاسترداد ظَفَار وإخضاع أهلها لحكمه، ولكنه لم يفعل لاشتغاله بإخماد الفتن الداخلية التي اشتعل لهيبها في أرجاء اليمن. ولما توفي السلطان عيسى بن بدر الكثيري قام بالأمر بعده السلطان حسن بن عبدالله بن عمر الكثيري.

الدولة الكثيرية
في دورها الثالث

في سنة ١٠٩٠هـ استفحل تنازع أمراء اليمن على السلطة، واستبد كل منهم في مقاطعته؛ فكان محمد بن مهدي مستقلًا بشؤون الحجرية وأعمالها، والحسن بن الحسين برداع، وعلي بن أحمد بمدينة صعدة وأعمالها، والحسين بن محمد بن أحمد أبو طالب مستقلًا ببلاد حاشد وبكيل، وحسين بن المتوكل في صنعاء. قطع كل من هؤلاء بالآخر، واشتد النزاع والخصام، وكثرت الفتن وثارت القلاقل، وتعدد مدَّعو الإمامة والزعامة، وظهر بينهم أفراد لهم معتقدات شاذَّة، فتفاقم الخطب وعم الفساد والظلم.

قال الكبسي في كتابه (اللطائف السنية): «وكان الإمام يتوجع من سيرة بعضهم في الرعية على غير ما يبيحه الشرع الشريف».

وفي سنة ١٠٩٣هـ ثار على الإمام المهدي سلاطين يافع وآل رصاص والعوالق، وحصلت معارك دموية بينهم وبين جنود الإمام في خَرَفة وقَعْطَبة والبيضاء ولَحْج وجُبَن وأَبْيَن والزاهِر والخَرْبة والمِعْسال وغيرها من بلاد اليمن، وكان النصر حليف يافع وحلفائهم. قال الأمير أحمد بن فضل العبدلي في كتابه (هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن) عند ذكر استيلاء الإمام على حضرموت: «... وهذه أول مرة امتدت فيها يد أئمة صنعاء إلى هذه الجهات، ثم ضعف أمر أئمة اليمن، وكثرت الفتن فيهم وتعدد مدَّعو الإمامة. وكان أمراء البلدان المذكورة وسلاطينها وقبائلها لم يزالوا يتمسكون بالاستقلال ويناجزون الأجناد الأمامية، ووقفت

سلطنة يافع وقفتها المشهورة في وجه الدولة القاسمية التي أنهكتها الحروب المستمرة حتى كتب النصر ليافع». هكذا تزايد اختلال دولة اليمن وعمت في أرجائها الاضطرابات والقلاقل.

وفي أواخر سنة ١٠٩٣هـ انتهز السلطان حسن بن عبدالله بن عمر الكثيري ضعف الدولة الإمامية واختلال أمورها واضطراب شؤونها؛ فأظهر الاستقلال التام، وخلع طاعة الإمام، وقطع جميع علائقه باليمن وقام بالأمر بنفسه. وكان سياسيًا حازمًا حسن التدبير محبوبًا لدى الناس، حسن السيرة عادلًا، جمع شمل قومه ووحد كلمتهم وقربهم إليه، حالف نَهْدًا، وآل محفوظ، وآل مساعد، والعوامر، وآل تميم، وقوى بينه وبينهم روابط الود وصلات الولاء، وتعاهد معهم على أن يكونوا جميعًا يدًا واحدة ضد كل من يريد احتلال حضرموت، فتكوَّنت بذلك قوة عظيمة لو وجهت إلى اليمن لاستولى الحضارم عليها، وكانت انضمت إلى الحكم الكثيري.

توفي السلطان حسن بن عبدالله الكثيري وقد ساس الناس بما عرف من الحزم وحسن التدبير، والمحافظة على العدالة والأمن. وقام بالأمر بعده السلطان علي بن بدر الكثيري، ولم يكن كسابقه في السياسة وحسن السيرة، لم يعمل لتنشيط العلائق والروابط بينه وبين القبائل المجاورة له، ولم يهتم بالمحافظة على العدالة ومراقبة الأمن، وتوفي سنة ١١٠٧هـ. ثم بعده السلطان عيسى بن بدر، وكان هذا ضعيف الإرادة، سليم النية، قصير النظر، ترك شؤون الدولة لمن دونه من الرؤساء والولاة، وقبع هو في قصره واعتزل الناس وما يعملون، وكان يافع أصحاب النفوذ المطلق والكلمة النافذة، ففي شِبَام المَوْسَطة، وفي سَيْئون الضُّبَي، وفي تَرِيْم آل لَبْعُوْس، وفي الشِّحْر آل بُرَيْك، كل هؤلاء كانوا يصدرون الأوامر وينفذون باسم السلطان عيسى بن بدر الكثيري، ولقد اتجهت أنظار الرعايا إلى الولاة ورؤساء الدولة، وأمسى السلطان عيسى نسيًا منسيًا لا يعرفه غير أهله، ولا يجتمع به سوى أقربائه، وهو

بذلك مسرور كل السرور بما رزق به من الشهية للطعام واللذة في النوم. أصبح يافع (الرُّتَب) في شِبَام وسَيْئون وتَريْم والشِّحْر يصدرون الأوامر وينفذون الأحكام بأسمائهم وتحت مسؤوليتهم، ولقد هبَّ جماعة من آل كثير واستحثوا قومهم على القيام ضد يافع لاسترداد سلطتهم المفقودة، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا؛ لأن مقاليد الأمور بيد يافع، والحصون وما فيها من الذخائر تحت أيديهم، لذلك هدأ آل كثير والتزموا السكوت والصمت، غير أن أحد أبطالهم وهو عمر بن جعفر الكثيري لم يهنأ له عيش، ولم يطمئن له بال، ولم يهدأ له هاجس، استنكف الخضوع والخنوع، لم يود أن يكون محكومًا بعد أن كان حاكمًا، ومرؤوسًا بعد أن كان رئيسًا، أزمع وأجمع على إعادة ملكه واسترداد بلاده مهما كلفه ذلك من التكاليف الهائلة، ومهما اعترضته العراقيل، وقامت في سبيله العقبات. جس نبض قومه وجاس خلال ديارهم لتكوين قوة وتوحيد كتلة للوصول إلى غرضه الشريف، فرأى الجو غير صالح لذلك، والظروف لا تساعده فيما أراد، ورأى أنه ليس من الحكمة ولا من الشجاعة أن يدفع قومه لحرب يافع الذين بيدهم الحصون والمعاقل والمؤن والذخائر، فسافر إلى الشِّحْر سنة ١١١٧هـ للاستطلاع على الحالة السياسية هناك، فرأى أنه من السهل أن يفاجئ الشِّحْر بقوم من الخارج، فصار يكاتب إمام اليمن ويستنجده وتكفل بأشياء. ولما آنس فيه الرضا سار إليه، وحثه على إرسال النجدة، فأمر الإمامُ الحريبيَّ عامل تهامة بجمع المحابيس لديه من حاشِد وبَكِيْل وأن يجهزهم في البحر للرحيل إلى الشِّحْر، فتباطأ الحريبي في تجهيز الجيش؛ لأنه يعتقد أن الهجوم على يافع على جانب عظيم من الخطورة، فأنبأه الأمير عمر بن جعفر الكثيري أن احتلال الشِّحْر ليس بعسير؛ لأن عدد يافع فيها قليل، ولأنهم إذا فوجئوا بالهجوم فليس في استطاعة قومهم بحضرموت الوسطى أن يرسلوا إليهم المدد لبعد المسافة وطول الشقة، فأرسل الحريبي جيشًا تحت قيادة الأمير عمر

بن جعفر الكثيري، ولما وصل إلى الشِّحْر وقد انتصف الليل وساد المدينة الهدوء والسكون، هجم بجيشه فهبَّ الناس من مراقدهم، وذعروا لوجود الأعداء بينهم، وحق لهم أن يذعروا، إذ لم يطرأ على بالهم ذلك الهجوم، ولم يدر بخلدهم ذلك الاحتلال، وما كانوا يعتقدون أن الأمير عمر بن جعفر الكثيري، وقد كان بالأمس يجالسهم ويسامرهم كضيف كريم يأتي بجيش من اليمن ويحتل البلد، ولكنها السياسة فوق كل شيء، وهو معذور في ذلك بعض العذر؛ لأنه إنما كافح وجالد لاسترداد ملكه الذي اشتراه آباؤه من كِنْدة بالدم، واستولى عليه يافع عفوًا بلا تعب.

ومما يجدر بالذكر أن الأمير عمر بن جعفر لم يسمح لجيشه الزيود بقتل أي شخص من يافع وغيرهم، كما أنه منعهم عن السلب والنهب، وأذى الناس، الأمر الذي جعل بعض الجنود ينقمون عليه، ويرمونه بالجبن، ذلك لأنهم يعتقدون أنهم لم يأتوا لإنقاذ ملك الكثيري فحسب، بل وللنهب والسلب أيضًا، كما فعل سلفهم في أيام أحمد بن الحسن الصفي (سيل الليل).

لما تم له احتلال الشِّحْر، استدعى جماعة من قومه وولَّاهم بعض الأمور، ثم عزم على مهاجمة يافع في حضرموت الداخلية لاسترداد ما بقي من ملكه في أيديهم، فوجد أن ذلك مجازفة، وأنه من الخطورة على جانب عظيم، فإن الحصون والمعاقل في أيديهم وفي صفهم نَهْد وآل تَميْم، ففضل البقاء في الشِّحْر، ثم أعاد الجيش إلى اليمن بعد أن زودهم بالهدايا والمال للإمام، ولما رجع الجيش إلى اليمن ثار يافع ضد السلطان عمر بن جعفر، وخلعوا طاعته، وأظهروا الاستقلال التام، فانسحب الأمير عمر بن جعفر من الشِّحْر إلى اليمن محسورًا مقهورًا. كان ذلك كله بدون أن يحدث قتال بين الطرفين، وإنما لغلطة الأمير عمر بن جعفر نفسه، فقد أعاد الجنود اليمنية، ولم يحصِّن نفسه ولا بلده بقوم من عشيرته. ولما وصل

إلى صنعاء مكث هناك حتى إذا قام بأمر اليمن المتوكل القاسم بن الحسين قام يحرضه على إرسال جيش إلى حضرموت.

وفي سنة ١١٢٩ انتخب الإمام ٤٠٠ من أبطال دهمة، وجعل عليهم الأمير عمر بن جعفر، فسار بهم إلى حضرموت، وهجم على الشِّحْر وأخذها بعد قتال دام أيامًا ثم أرسل الـ٤٠٠ جندي لاسترداد حضرموت الداخلية، وقد أشعرهم بأن ينتظروا في عقبة وادي العين لقبائل آل كثير ليهجموا على يافع، ولكن من سوء حظ اليمنيين أنهم لما وصلوا إلى عقبة وادي العين لم ينتظروا آل كثير، فانحدروا على نَهْد مغرورين بقوتهم، مدفوعين بنشوة الانتصار على الشِّحْر، ولم يعلموا أن أمامهم قومًا لا يخشون الموت، ولما علم نَهْد بقدومهم اتحدت كلمتهم واجتمعت قلوبهم غاضين النظر عما بينهم من التشاحن والتناحر، وأحاطوا بالعدو من كل جانب وقتلوهم عن بكرة أبيهم، ولم يسلم أحد من الـ٤٠٠ جندي، فتألم الأمير عمر بن جعفر الكثيري لذلك أشد الألم، وأرسل للإمام يعتذر له فيما حدث في اليمنيين، وكان المنتظر من الإمام أن يرسل جيشًا إلى حضرموت يضرب به يافع وآل كثير الذين هم السبب في هلاك رجاله، ولكنه لم يفعل لاشتغاله بالفتن الداخلية في اليمن.

الدولة اليافعية
في دورها الأول

يافع أعظم قبائل حمير وأشدها قوة وأصعبها مراسًا وأكثرها عددًا، ولبسالتهم وكرامتهم وتفانيهم في النجدة لغيرهم، كان يستعين بهم آل رصاص والعوالق والعبادلة[1] حين يهجم عليهم فاتح أو يسطو عليهم جائر، ويستنجدون بهم عند حلول الكوارث وحدوث النوازل، فكان يافع يأتون إليهم سراعًا، ويقاتلون في صفوفهم ضد العدو دون أن يأخذوا على ذلك أجرًا، وقد استولى يافع على عدن ولحج وأبين في عهد العثمانيين باليمن وحكموها من سنة ١٠٤٢هـ إلى ١٠٥٤هـ، وحاربوا أئمة صنعاء الذين كانوا يرسلون جيوشهم للاستيلاء على البلاد اليافعية،

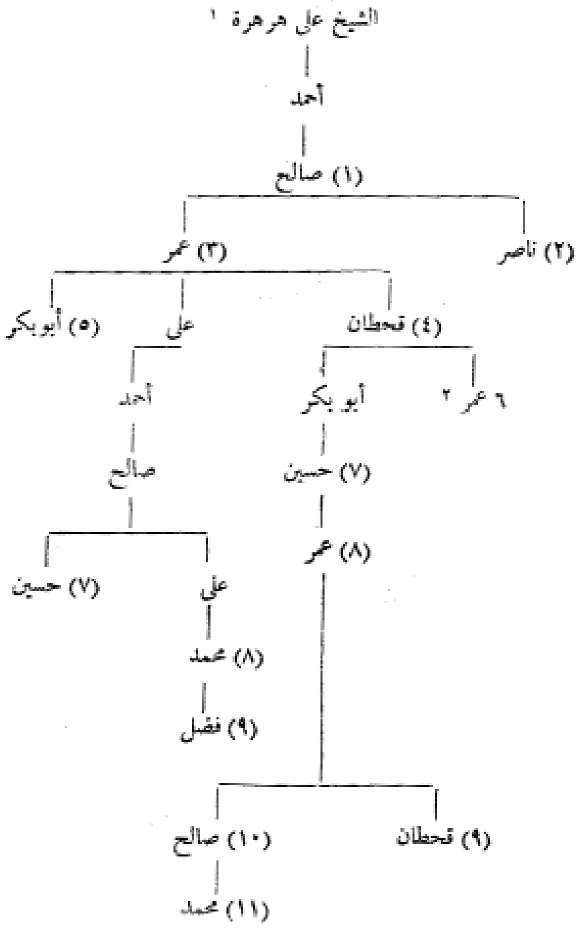
(١) العبادلة ومنهم آل محسن سلاطين لحج، فخذ من آل سلام من ذرية السلطان محسن بن فضل بن محسن بن الشيخ فضل بن علي بن سلّام بن علي السلّامي، وآل سلّام فخذ من يافع من بيت كلد، قريتهم في بلاد يافع تسمى بَرْكَان، وقد كتبت وثيقة بختم السلطان سيف بن قحطان بن عفيف اليافعي هذا نصها: «خطنا الكريم، ورسمنا العلي الفخيم، شاهد بيد الشيخ سلام بن علي العبدلي لأنه منا وإلينا، وأنه حليف ولا عليه عرضة من أحد، بل هو من جملة كلد، وهذا خطنا شاهد بيده، وحسبي الله ونعم الوكيل. بتاريخ شهر رجب سنة ١١٢٥هـ». قال الأمير أحمد بن فضل بن محسن العبدلي في كتابه (هدية الزمن): «وأما آل سلام فمن يافع القارة». وقال: «ومن المحقق أن الشيخ فضل كرّ بجموع يافع على الجنود الإمامية التي في لحج، وأن السلطان سيف بن قحطان جاء بنفسه إلى لحج وحاصر أصحاب الإمام جملة أشهر حتى أرجع الشيخ فضل بن علي إلى حكم لحج وعدن، وأخرجوا منها الرتبة الإمامية. وعلاقة الشيخ فضل بن علي وصهارته بأمراء يافع وتردده إلى يافع كل ذلك معلوم». وقال: «ولما قُتل أحمد بن صلاح السلامي من السعديين انتقلت زوجته وهي من أميرات يافع بأولادها إلى يافع، وسكنوا مع أقاربهم من أمراء يافع في خنفر...».

واستمرت الحروب بينهم وبين ولاة اليمن عشرات السنين من عهد السلطان صالح بن أحمد هرهرة، إلى عهد السلطان قحطان بن عمر هرهرة، وفي النهاية كان النصر حليف يافع، حيث طردوا الجنود اليمنية من حدود بلادهم العليا والسفلى وملحقاتها كلَحْج وأَبْيَن والشَّعِيْب وجُبَن ونَعْوَة والرَّبِيْعتين والظاهِر وجبل حَرير وحالميَن. ثم استمرت الحروب بعد ذلك بين الفريقين حتى نهاية سنة ١٣٣٧هـ حيث تدخل الإنجليز بينهم وعقد صلحًا متينًا.

ويبلغ عدد يافع في بلادهم العليا والسفلى نحو ١٤٠ ألفًا، ويقال لهم يافع أو اليوافع أو بنو مالك، وهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وينقسمون إلى قبائل كالمَوْسَطة، والضُّبَي، وبني قاصد، وتنقسم القبائل إلى أفخاذ وبطون كأفخاذ المَوْسَطة: القُعَيْطي، والخُلَاقي، وآل نَقيب، وآل علي جابر، وآل علي الحاج، والجَهْوَري، والرُّشَيْدي، والسُّعَيْدي، والضُّرَيْبي. وتتفرع من القُعَيْطي بطون: كآل دُهْري، وآل حدّاد، وآل مَدْشَل، وآل مُخَارِش، ولَحْمَدي، والنقيب، وغيرهم. وأفخاذ الضُّبَي: هم آل هَرْهَرة، وآل عفيف، والبَكْري والمَرْفَدي، والمُصَلِّي، والحَضْرَمي، والفَضْلي، وغيرهم.

وأفخاذ بني قاصد هم: آل يَزيدي، والبَطَاطي، والذَّيباني، والزَّغْلَدي، والعَمْري، وآل طاهر بالرابح، وغيرهم.

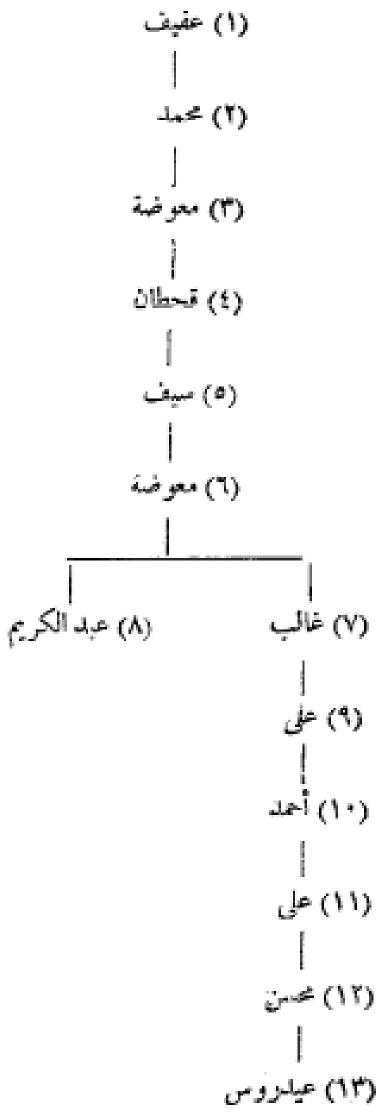
سلاطين يافع فى البلاد السفلى



(١) اشتهر الشيخ علي هرهرة بالعلم والورع والتقوى والصلاح، وكان قاضيًا في يافع ولذلك لقب بـ(الشيخ).

(٢) بعد وفاة السلطان عمر انقسم يافع، فولت المَوْسَطة الأمير حسين بن صالح، وولت الضبي الأمير حسين بن أبي بكر.

سلاطين يافع بني قاصد



أمراء خرفة والضالع من يافع

- (١) شعفل
  - (٢) قاسم
    - (٣) أحمد
      - (٤) حسين
    - (٥) شعفل
      - (٦) صالح
        - (٧) أحمد
          - (٨) أبوبكر
            - (٩) عبد الهادى
              - (١٠) أحمد
                - (١١) حسين
                  - (١٢) أبوبكر
                    - (١٣) حسن
                      - (١٤) عبد الهادى
                        - (١٥) شعفل
                        - سيف
                          - (١٧) شايف
                            - (١٨) نصر
                        - عقيل
                          - (١٦) علي

استقل يافع (الرتب) بالأمر في تَرِيْم وسَيْئون وشِبَام وملحقاتها، وفي الشِّحْر والمُكَلَّا، وصاروا يصدرون الأحكام بأسمائهم وتحت مسؤوليتهم، ولقد ساعدتهم الظروف على توطيد مركزهم، وتوسيع سلطتهم حيث لم يقم آل كثير بمناوأتهم، وإثارة الاضطرابات والمشاغبات ضدهم عشرات السنين، كما أن القبائل الأخرى لم تعكر صفاء الجو السياسي، ولم تعبث بالأمن، فكان السلام يسود الحواضر، والرخاء باسطًا ذراعيه على البلاد، وقد هاجر كثير من بيوتات يافع من بلادهم باليمن إلى حضرموت، وطاب لهم المقام هناك وهناء العيش.

آل غرامة:

وكان أمير تَرِيْم الشرقية عبدالله عوض غرامة اليافعي حازمًا يقظًا عالي الهمة عزيز النفس، علم بحركة بعض آل كثير وتحفّزهم لاسترداد ملكهم، فأرسل رسله إلى يافع في شِبَام وسَيْئون ليكونوا على حذر، ويستعدوا للطوارئ، وعقد مع آل تميم معاهدة صداقة وولاء يستعين بهم عند مسيس الحاجة، ثم شرع يعمل للقضاء على دعوة آل كثير، ولكن من سوء حظ قومه أنه مات، وقام بالأمر بعده ابنه عبدالقوي بن عبدالله غرامة، وكان هذا قصير النظر، ضيق الفكر، طائشًا، مستبدًّا، ظالمًا، كان مبغوضًا لدى الناس حتى لدى بعض عبيده، وكان متأثرًا بسلطة آل باعلوي الروحية إلى أقصى درجة.

يافع (الرتب) في الثغرين:

أما هؤلاء فكانوا بمعزل عن إخوانهم بحضرموت الوسطى، وكأن العلائق بينهم كادت تنقطع لإعراض كل من الفريقين عن الآخر، وكان اعتمادهم عظيمًا على حاصل الجمارك ورسوم القوافل التي ترد إلى أسواق الشِّحْر والمُكَلَّا، ولم يكن للجمارك ولا لرسوم القوافل حد معين ونظام معلوم ينفذ على الجميع، وإنما كان

السماسرة هم الذين يفرضون رسوم الجمارك بحسب عرفهم، وكذلك كانت الحال في رسوم القوافل التي ترد إلى شِبَام، فإن الأمر كان بيد السماسرة.

آل بريك:

كان ناجي بن علي بن بريك اليافعي أمير الشِّحْر. ولما مات قام بالأمر بعده ابنه علي بن ناجي بن بريك. وكان من أكبر الشخصيات البارزة، كبير العقل، عظيم الحلم، عالي الهمة، شجاعًا، جوادًا، ولقد أخضع بحكمته وشدته قبائل الحُمُوْم التي كانت تقطع الطريق، وتنهب السابلة، وتعبث بالسلام.

آل كسادي:

كان أمير المُكَلَّا المقدام محمد بن عبدالحبيب الكسادي اليافعي، وفي أوائل أيامه كانت المُكَلَّا عبارة عن أكواخ قائمة على أرضها من غير نظام، وكان ميناؤها خامل الذكر قليل الأهمية، وكانت الفوضى ضاربة أطنابها هناك، ولكن في أواخر أيامه تحسن الميناء وانتظم أمره وأزيلت منه الفوضى وتقدم تقدمًا محسوسًا بفضل الأمير النبيل صلاح بن محمد الكسادي، فقد بذل كل ما استطاع لإصلاحه وتنظيمه، وعمل كل مقدوره في جذب المسافرين إليه، حتى أصبح ينافس ميناء الشِّحْر ويزاحمه، ويقضي على شهرته. ولم يكن اهتمام آل كسادي مقصورًا على إصلاح الميناء وتنظيم شؤونه، بل وجهوا أفكارهم نحو إصلاح مدينة المُكَلَّا، حيث أقطعوا الناس أراضي من غير ثمن ليبنوا فيها دورهم، ومنحوا أهل المتاجر التسهيلات حتى انتقل بعض التجار من الشِّحْر والغيل إلى المُكَلَّا واستوطنوها، فانتعشت السوق وازدادت حركة البيع والشراء، وأخذت ثروة الأهالي تنمو نموًا سريعًا.

ابتداء ظهور مساعي آل باعلوي السياسية[1]:

في سنة ١٢٢١هـ حاول إسحاق بن عمر بن يحيى باعلوي الاستيلاء على المُكَلَّا. كان فصيح اللسان، قوي الحجة، كبير النفس، كثير المطامع، وكان متظاهرًا بالصلاح والورع والتقوى، كثير البكاء أمام الناس حينما يسدي لهم نصائحه ويلقي عليهم مواعظه، وقد ملك قلوب الناس بتلك المظاهر والمزايا، واستعبد العوام لأغراضه ونواياه، ولقد جمع مالًا كثيرًا من النذور والقرابين التي تقدم باسم البركة وجلب الرزق.

سافر إسحاق إلى بعض موانئ البحر الأحمر وجمع من المقاهي والبارات قومًا، ورحل بهم في أربعة مراكب شراعية كبيرة، ونزل في بُرُوْم ليعد الهجوم على المُكَلَّا، ولما بلغ ذلك إلى الأمير صلاح بن محمد الكسادي اليافعي جمع رؤساء يافع وشاورهم في الأمر، وبعد تبادل الآراء أشار عليهم مُجْحِم بن علي بأن لا فائدة من الانتظار، وأن الطريقة الناجعة هي الهجوم عليهم ليلًا وهم في غُراباتهم، فجهز الكسادي عشرين سُنْبُوْكًا من يافع وعبيد وأبحر بهم، فوصلوا بُرُوْم عند مطلع الفجر، فهجموا على إسحاق وقومه طعنًا بالسلاح الأبيض حتى قتلوا أكثرهم، وفرَّ إسحاق وبعض رجاله في مركب، وأرسى بشَرْمَة، وهناك أنزل فلول رجاله ومدافعه وسار بهم إلى الدِّيْس بعد أن انضم إلى صفه جماعة من الحُمُوْم، فقابلهم حامية الديس من آل غرامة وعبيدهم فانهزم الأعداء شر هزيمة وهرب إسحاق إلى جِدَّة ملومًا محسورًا.

وفي أيام أمير تَرِيْم عبدالقوي بن عبدالله غرامة اليافعي تحرك نشاط آل كثير وانتشرت دعوتهم واتسع نطاقها، وكان النبيل عبود بن سالم الكثيري وهو من أعظم

(١) آل باعلوي، ويقال لهم أحيانًا العلويون سبق ذكرهم في صفحة ...

رجالات آل كثير وأكثرهم شجاعة وإقدامًا يقوم بأعظم قسط من الدعاية لقومه بواسطة محسن بن علوي الصافي باعلوي، وعبدالله بن عمر بن يحيى باعلوي، وجعفر بن شيخ السقاف باعلوي، وكان هؤلاء ومن يلحق بهم من آل فقيه وآل سبايا يتظاهرون أمام يافع بالصداقة والولاء وحسن المعشر، وكانوا رحّالين بين تَريْم وسَيْئون وشِبَام وملحقاتها، وحينما يأتون تَريْم ينزلون ضيوفًا في قصر الأمير عبدالقوي غرامة اليافعي، فيستلمهم الأمير ويحتفي بهم احتفاء عظيمًا ويكرمهم إكرامًا حاتميًا، ويتظاهر هؤلاء أمامه بالولاء له ولقوم يافع، ويحطون من قدر آل كثير ويرمونهم بالضعف والتخاذل ليثبطوا همته، ويوهنوا عزمه ويميتوا فيه روح الحركة والنشاط. وكان الأمير يأخذ كلامهم عن حسن نية وصفاء سريرة، ولا يعلم أن أولئك الضيوف أعداء في شكل أصدقاء، وذئاب في صورة حملان، وكذلك يعمل هؤلاء الجواسيس في سَيْئون وشِبَام، ويستطلعون أسرار يافع ومكنوناتهم، فإذا انتهوا من مهمتهم عادوا إلى آل كثير وقدموا إليهم برامج أعمالهم ودسائسهم، ولقد مضت على تلك الحال سنوات انتشرت في خلالها دعاية آل كثير، وسار الزعيم عبود بن سالم الكثيري إلى غرب حضرموت، وتعاهد مع العوالق والكرب على الصداقة ليستعين بهم عند الضرورة، ولقد أصبحت تَريْم في موقف حرج جدًا، ولكن غرامة لم يأخذ حذره بالرغم عن كثرة تنبيهات بعض آل تميم له النصائح التي يسدونها نحوه، ليكون على استعداد لما عساه أن يحدث من الطوارئ.

الفتن بين يافع (الرُّتَب):

كانت أحكام ولاة يافع عادلة، ومعاملاتهم مع الرعايا حسنة، ثم ساءت حالهم وتغيرت طباعهم وظهروا بمظهر الكبرياء والقسوة والشدة في غير الحق. كما أنهم لم يعملوا جديدًا لإصلاح العباد، ولم يبذلوا من أموالهم شيئًا لتنشيط العلم وتوسيع نطاقه، وتشجيع العلماء والفضلاء، ولم يفكروا كثيرًا ولا قليلًا في

توسيع نطاق حكمهم وبسط نفوذهم، ولم يعملوا لتوثيق العلائق وتقوية الصلات بينهم وبين القبائل الخارجة عن حدودهم كنَهْد والعوابثة والجَعْدة وقبائل دَوْعَن وغيرهم، فقد رضوا بالحكم في دائرة ضيقة في تَرِيْم وسَيْئون وشِبَام وملحقاتها وفي الشِّحْر والمُكَلَّا، وفاتهم أنهم وبالأخص الذين في تَرِيْم وسَيْئون محاطون بآل كثير ومن يلحق بهم كالعوامر وآل جابر وآل باجِرِي، الأمر الذين يلجئهم لأن يأخذوا حذرهم ويستعدوا للطوارئ وحوادث الأيام. ثم إن المنافسة فيما بينهم على السلطة اتسع نطاقها وتفاقم خطبها وتطاير شررها، وثارت الفتن والوشايات، واحتدم النزاع بين رؤساء يافع في سَيْئون، وبين آل عبدالقادر القائمين بإمارة نصف تَرِيْم، وآل غرامة القائمين بإمارة النصف الآخر منها. وكان النزاع بين آل عبدالقادر وآل غرامة قديمًا من عهد الأمير عبدالله عوض غرامة، ولكن كان هذا الأمير يداريهم ويراعيهم ويتنازل لهم عن بعض مطالبهم؛ حفظًا للأرواح من أن يذهب ضحية الطمع والجشع، وحبًا لجمع الكلمة، وتأليف القلوب، وتوحيد الصفوف. ولكن جاء بعده ابنه الأمير عبدالقوي، وكان هذا طائشًا قاسيًا، فازدادت الفتنة بينه وبين آل عبدالقادر واشتعل لهيبها، وثارت الحرب بينهم في تَرِيْم حتى انقطعت حركة التجارة ووقف عمل الفلاحين، وساد المدينة الخوف والرعب.

ولما رأى آل عبدالقادر أن لا طاقة لهم بمناوشة آل غرامة، ساروا إلى زعيم آل كثير الأكبر غالب بن محسن بن عبدالله الكثيري[1] فأمده بـ٢٠٠ رجل، وكان عدد آل عبدالقادر سبعين رجلًا مع عبيدهم، وعدد آل غرامه في تَرِيْم ١٢٠ مع عبيدهم، ثم

(١) كان المقدام غالب بن محسن الكثيري جاء من حيدر أباد بثروة عظيمة، وكان أحد رؤساء جيش ملك حيدر أباد، وعلت رتبته لدى الملك لشجاعته وإخلاصه، وكان ثالث المقربين لديه بعد الجمعدار عوض بن عمر القُعَيْطي والجمعدار عبدالله بن علي العولقي، وقد وشى به هذان الرجلان لدى الملك حتى اضطر الجمعدار غالب بن محسن الكثيري للرحيل إلى حضرموت.

جاء إلى تَرِيْم آل عبدالقادر بجيشهم تحت قيادة عبود بن سالم الكثيري على حين غفلة، فبهت آل غرامة ورأى الأمير عبدالقوي غرامة أن الجريمة جريمته، حيث لم يسس آل عبدالقادر بكياسة ولين، كما كان شأن والده معهم. أمسى الأمير في موقف حرج، وأظلمت أمامه الدنيا وضاق ذرعًا، فأشارت عليه أمه -وكانت أكثر منه صبرًا وجلدًا على مكافحة المخاطر ومكابدة النكبات- بأن يتظاهر لآل كثير بالرغبة في بيع نصف تَرِيْم لهم، حتى إذا جاء وفدهم للمفاوضة واجتمعوا في القصر يشعل من تحتهم البارود ليهلكوا عن بكرة أبيهم، ولكن الأمير عبدالقوي امتنع في بادئ بدء، ثم عدل عن رأيه وأراد تنفيذ مكيدة والدته ضد آل كثير. ولما اجتمع آل كثير في قصر الأمير عبدالقوي وكانوا ٣٠ رجلًا وفيهم من آل باجري والعوامر، وفي مقدمتهم عبود بن سالم الكثيري وعبدالله بن صالح الكثيري، انسحب الأمير من الجلسة، وأراد أخوه أن ينسحب أيضًا ليشعلا قنابل البارود في آل كثير، ولكن عبود بن سالم الكثيري أدرك أن مع آل غرامة مكيدة، فلم يسمح لغرامة بالانسحاب، وكان الأمير عبدالقوي في انتظار أخيه، ولكن والدته أمرته بإشعال البارود عليهم جميعًا، فامتنع الأمير شفقة على أخيه وخوفًا من العاقبة، وقد عاتبته والدته بعد ذلك عتابًا مرًا، فاعتذر لها بوجود أخيه بينهم، فقالت له كلمتها المشهورة: «ليحترق أخوك معهم وهب أنني أخرجته سقطًا».

ثم سار إليهم للمفاوضة، وبعد الغداء خرجوا جميعًا إلى الجامع للصلاة ثم عادوا، وكان قد تقدمهم في العودة من المسجد عبود بن سالم الكثيري وعبدالله بن صالح بن مطلق الكثيري وثلاثة من جماعتهم، وجلسوا في شرفة القصر من الدور الأول، فرأتهم والدة الأمير عبدالقوي غرامة، وصعدت إلى أعلى القصر، وأخذت تدفع بكل قوتها جزءًا من حائط السطح القائم فوق عبود بن سالم الكثيري وجماعته لتقتلهم، فشعر هؤلاء بالحركة وانحازوا إلى ناحية أخرى، ونجوا من

مكيدة تلك المرأة الجسور كما نجاهم الله من مكيدتها الأولى، وأخيرًا حصل الاتفاق بين الفريقين على أن يحتل آل كثير معاقل تَريْم وحصونها، وهكذا خرج الأمير عبدالقوي من الأمر مغلوبًا ملومًا، وما أصابه من مصيبة فبما كسبت يداه.

والي تَرِيس:

كان الضُّرَيْبي اليافعي واليًا على مدينة تَرِيس، وليس عنده من الجند غير أفراد من العبيد، وفي شهر الحجة سنة ١٢٣٢هـ مرض وشعر بدنو أجله، ولم يكن له وارث يرثه في الولاية، فأرسل إلى المَوْسَطة ولاة شِبَام من يقوم بأمر تَرِيس، فتولى أمرها أحد آل نقيب، وأخذ يسوس شؤون أهل تَرِيس، ولكن لم يكن عنده من عشيرته من يشد أزره، ويعينه في أموره غير عدد قليل، لذلك صار آل كثير يناوشونه حتى إنهم حفروا خندقًا على مقربة من قصره إلى البئر التي يشرب منها ومنعوا عنه الماء. ولما اشتد عليه وعلى آله العطش ولم يستطع أن يجلب الماء والزاد من الخارج؛ تخلى عن تَرِيس وانسحب بمن معه إلى شِبَام واحتل آل كثير البلد.

خروج آل بكر من مَرْيَمَة:

استأنف آل كثير سعيهم لإزالة يافع من بينهم فأرسلوا فرقة منهم إلى مَرْيَمَة في صورة ضيوف، فأكرمهم بنو بكر وأنزلوهم في بيوتهم على الرحب والسعة، ولما طاب لهم المقام ثاروا على بني بكر، وكان هؤلاء قليلين وأخرجوهم عنوة واستولوا على مَرْيَمَة، وسار بنو بكر إلى شِبَام.

فتنة شِبَام:

كان أمر مدينة شِبَام بيد المَوْسَطة من يافع، وكانوا على وفاق تام هم ومن في المدينة من يافع وغيرهم، ومع أنهم لم يأتوا بخير ولا بشرّ للبلد فقد كانوا محبوبين من الأهالي، وفي أواخر عهدهم تنافسوا على السلطة هم وغيرهم من أفخاذ يافع القاطنين في شِبَام وملحقاتها، وبعد صلاة عيد الفطر سنة ١٢٣٤هـ اجتمع يافع أمام

الجامع لتهنئة الوالي بالعيد، وكان من عاداتهم أن يتقدم الجمع من هو أحق وأجدر بالتقدم من الشيوخ والأعيان. وفي ذلك اليوم اختلفوا فيمن يتقدمهم، واحتدم الخلاف بينهم، وفي أثناء ذلك تقدم أحد آل علي جابر فقتله أحد الحاضرين من يافع، فأخذ آل علي جابر يسألون أفخاذ يافع الحاضرين عن القاتل ليقتلوه، ولكنهم أنكروا جميعًا، ثم صار آل علي جابر يطالبون المَوْسَطة في فقيدهم، وتفاقم التشاحن والتنازع بين الفريقين، وثارت الحرب، وأخيرًا اعترف أحد آل رُشَيْدي بالجريمة وقتله آل علي جابر. وهدأت الفتن بعد ذلك بين المَوْسَطة وآل علي جابر، ولكن ظل أثرها في النفوس كامنًا، فتنافر الفريقان وتقاطعا وكادت الحرب تعود جذعة، ثم رأى أفراد من أفخاذ يافع في شِبَام أن الفتنة لا تزول ما دام ولاة شِبَام من يافع، وأن هؤلاء لا يدينون إلا لمن يتولاهم من غير قبيلتهم، لذلك طلبوا إلى عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر الكثيري أن يتولى إمارة شِبَام وله نصف حاصل المدينة، فقام بالأمر عمر بن جعفر الكثيري يساعده في ذلك ابنه منصور بن عمر وعبيده، فأخذ الأمير عمر بن جعفر يوطد مركزه ويقوي عضده، فابتاع عبيدًا وضمهم إلى عبيده القدماء، وحاول أن يأتي برجال من عشيرته فمنعه يافع. وفي سنة ١٢٣٧هـ توفي، وقام بالأمر بعده ابنه منصور، وكان هذا قاسيًا مستبدًا عديم السياسة والحزم، متعصبًا لعشيرته كل التعصب، أخذ يضغط على حرية يافع ويرهقهم بمطالبه، ويضيق عليهم من كل جانب، ويسومهم سوء العذاب.

وفي شوال سنة ١٢٥٥هـ سار أغلب من في شِبَام من يافع إلى قرى القَطْن لزيارة أقاربهم، فاغتنم الأمير منصور بن عمر الكثيري هذه الفرصة، وأخرج من بقي في شِبَام رجالًا ونساء وولدانًا، واحتل المدينة كلها، وأعلن استقلاله وقطع علائقه بيافع، وحصّن معاقل شِبَام برجال من عشيرته. ولقد أحدث ذلك أثرًا سيئًا في نفوس يافع وآلمهم أشد الألم، وهم الجانون على أنفسهم والخاربون بيوتهم بأيديهم،

فليس من السياسة في شيء أن يولوا الأمير عمر بن جعفر الذي كان جده بالأمس ملكًا في شِبَام، ولكن التنافس على السلطة هو الذي أعمى أبصارهم.

الدولة الكَثيرية
في دورها الرابع

في سنة ١٢٦٠هـ ابتاع آل عبدالله قرية الغُرَف من القَرامصة آل تميم بمبلغ ١٢٠٠ ريال، وأقاموا فيها وجعلوها نواة لدولتهم الفتية. وقد أحدثت هذه البيعة ضجة في آل تميم، فنقموها على أصحابهم وألجأوهم لإبطالها، فحاول القرامصة إبطال البيعة بإرجاع المبلغ فلم يستطيعوا.

وفي سنة ١٢٦٢هـ توسط سرًا محسن بن علوي الصافي وزملاؤه من آل باعلوي في عقد اتفاقية بين آل عبدالله وبين هُمَام صاحب حصن الرَّناد، على أن يتخلى عن حصونه لآل عبدالله، ويستلم في مقابل ذلك مرتبًا شهريًا مدى حياته، فكان ذلك.

ثم استأنف محسن بن علوي وجماعته العمل، فساروا إلى الأمير عبدالقوي بن عبدالله غرامة. وبذلوا كل جهودهم لديه ليفوض جميع شؤون تَريْم لآل عبدالله في مقابل مبلغ كبير من المال، ولما آنسوا فيه عدم الرضى، استدرجوه حتى أتوا به إلى بيت عبدالله بن عمر بن يحيى باعلوي، وهناك أحاطوه بمكرهم وخدعوه حيث وافقهم على أن يفوض جميع شؤون تَريْم لآل عبدالله، ويبقى هو كرئيس شرف على عشيرته يافع، ويتسلم من آل عبدالله ٢٤٠ ريال في الشهر، وكتبت على ذلك وثيقة بحضور بعض رؤساء آل باجِرِي وآل جابر والعوامر وآل باعلوي. وبعد تلك الاتفاقية دخل آل كثير تَريْم بطبولهم فرحين مبتهجين، واستولوا على شؤون المدينة. ولقد اندهش الناس لذلك الحادث الغريب الذي لم يكونوا

يتوقعون حدوثه، وتألم الأمير عبدالقوي غرامة من تلك المظاهر، وكاد يصعق من التحسر والتألم. أما يافع الذين في القَطْن وسَيْئون فقد غضبوا لذلك أشد الغضب، وآلمهم سقوط مدينة تَريْم من بين أيديهم. وبعثوا إلى آل غرامة يحثونهم على القيام لاسترداد تَريْم، فثارت حميته وفارت غيرته وأخذ يعد العدة ويتحين الفرص من حين إلى حين. وفي محرم سنة ١٢٦٣هـ جمع الأمير عبدالقوي غرامة عبيده ورجالًا من يافع وآل تميم واحتل بهم المجحف وبعض أطراف تَريْم وأعلن الحرب، وجاء خمسون رجلًا من يافع من سَيْئون وثمانون من آل تميم وانضموا في صفه، فحمي وطيس الحرب في الطرفين، واستولى الأمير عبدالقوي على حصن الشاطري وهو أمنع الحصون وعلى المُحَيضِرَة أيضًا، فازداد موقف آل كثير حرجًا واشتد الضيق عليهم وأحاطت بهم الأخطار من كل جانب، وطال الحصار فاختل الأمن واضطربت الأحوال. واستولى الأمير غرامة على جزء كبير من تَريْم وكاد يحتلها كلها ويحوز النصر، لولا أن الأمير عبود بن سالم الكثيري أتى بجيش من غرب حضرموت من الكرب والعوالق، وانحدر على الأمير غرامة من ناحية المُحَيضِرَة وحصن الشاطري وحصروا تَريْم وقطعوا عنه كل المواصلات، وكاد هو ورجاله يموتون جوعًا. وفي ربيع الثاني سنة ١٢٦٣هـ اضطر الأمير غرامة لأن ينسحب ويحوّل عبيده لدولة آل عبدالله على أن تدفع له ٢٠٠ ريال شهريًا، وبقي الأمير غرامة في تَريْم أيامًا، ثم شعر بالخذلان والخسران، وأبى أن يمكث في المدينة كفرد من أفراد الشعب بعد أن كان الحاكم المطلق فيها، وغادرها إلى سَيْئون ثم إلى المُكَلَّا تاركًا معاشه لدولة آل عبدالله الكثيرية.

أما محسن بن علوي الصافي وزملاؤه فقد استأنفوا مساعيهم السياسية ضد يافع، كانوا يذهبون إلى يافع للتجسس لآل كثير، ولقد بذلوا كل مستطاع لتعكير الصفاء وقطع الصداقة بين يافع وآل تميم، كيلا يجد يافع أنصارًا ولا أعوانًا، ولكنهم لم

يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا. وكثير من يافع في سَيْئون لا يزالون يحسنون الظن في محسن بن علوي وزملائه، ويعتقدون فيهم الخير والبركة، إلا أن أفرادًا منهم أحسوا أن هؤلاء يتجسسون عليهم لآل كثير، وفي مقدمة هؤلاء الأحرار النبيلان عبدالله هرهرة اليافعي وأخوه عبدالرب؛ فقد سعيا بكل مقدورهما في تفهيم يافع دسائس هؤلاء ومساعيهم ضدهم. وصادف أن مرَّ النبيل عبدالله هرهرة مع ثلاثة من يافع أمام بيت عبدالله بن زين باسلامة، فسمعوا محسن بن علوي وجماعته يتهامسون فيما بينهم، فدخلوا عليهم فوجدوهم يكتبون الرسائل الطويلة للدولة الكثيرية بالشؤون السياسية في سَيْئون، وقد بهت الجواسيس حينما رأوا اليافعيين أمامهم، ولكن محسن بن علوي الصافي تجلد وثبت في مكانه كأنه لم يحدث شيء، ولعله أراد أن يتظاهر بالشجاعة والإقدام، وصار يهدد اليافعيين بالويل، فثارت ثائرة عبدالله هرهرة وجعل يضربه ضربًا مبرحًا بعصًا كانت في يده، ومحسن بن علوي يصيح بأعلى صوته، ثم اعتقلوه هو وجعفر بن شيخ السقاف وعبدون السبايا وعمر بن عبدالرحمن فقيه، وساقوهم في الشارع على مرأى من الناس، ثم حبسوهم في دار الصَبّان. وأرسل محسن بن علوي إلى رؤساء يافع؛ أن أطلقوا سراحنا وإلا اقتلونا، فهذا شرف لنا وأحب إلينا من السجن. فأجابه النبيل عبدالله هرهرة: أما القتل فنحن ننزِّه سيوفنا عن أن ندنسها بدمائكم، وأما إطلاق سراحكم فذلك أمر ليس لكم فيه كلام. وبعد مرور عشرين يومًا أطلق يافع سراحهم، ونفوهم من سَيْئون.

وقعة وادي جثمة:

أرسل يافع في الشِّحْر ذخائر وأقواتًا ليافع في سَيْئون، فعلم آل كثير بذلك وتعرضوا للقافلة، وبلغ يافعَ ذلك فخرجوا لحمايتها، والتقى الفريقان في وادي جثمة، فثارت الحرب بينهم وقتل من الفريقين كثيرون، وكان النصر حليف آل كثير. أما القافلة فقد انسل بها جمّالوها في أثناء الحرب إلى أسفل الوادي، وانحدروا إلى الناحية

الشرقية في طريقهم إلى سَيْئون، ولكن جماعة من العوامر استولوا عليها وأتوا بها إلى تَرِيْم.

سقوط سَيْئون:

لقد كان انكسار يافع في وادي جثمة أكبر مشجع لآل كثير على احتلال سَيْئون، وكأنه انكشف لهم ضعف يافع في سَيْئون وعدم القدرة على المقاومة والدفاع، فقد جهز الأمير عبود بن سالم الكثيري ألفين من عشيرته ومن العوامر وآل باجري وآل جابر والحُمُوْم وسار بهم إلى سَيْئون، وحاصرها ثلاثة أيام، ثم أمر رجاله بالهجوم من الناحية الشرقية، وهجم هو بجماعة منهم من الناحية الغربية، فهلع الناس مما رأوا وتوقعوا شرًا مستطيرًا، ولكن القائد عبود بن سالم أصدر أوامره لرجاله بعدم إيذاء أي شخص لا يريد الحرب. أما يافع فقد حاولوا الدفاع عن أنفسهم فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا، فغلبوا على أمرهم واحتل سَيْئون آل كثير.

هكذا أصبحت دولة آل عبدالله الكثيرية تخطو خطوات واسعة نحو الأمام، وتزداد قوتها ويتمدد نفوذها، وتحتل مدينتين هما من أعظم مدن حضرموت وأوفرها عمرانًا وحضارة، والفضل كل الفضل في ذلك يعود إلى البطلين العظيمين السلطان غالب بن محسن الكثيري، والقائد الأمير عبود بن سالم الكثيري، فقد عرفا بحزمهما وحكمتهما وسياستهما كيف يوحدان صفوف قومهما، ويؤلفان بينهم وبين القبائل المجاورة لهم، ويجعلان هذه القوة في قبضة يدهما يصرفانها كيف شاءا ويرسلانها أنى أرادا، وبذل السلطان غالب بن محسن أموالًا كثيرة للوقوف على أحوال يافع السياسية وما هم عليه من ضعف أو قوة، من خصام أو وئام، بواسطة أولئك الجواسيس والعيون التي كان يرسلها من وراء الستار. وهنا لا ننسى فضل أولئك الجواسيس على آل كثير فقد أدوا واجبهم على أحسن ما يرام، وفازوا بأغراضهم المنشودة بفضل سلطتهم الروحية التي نفذت في أحشاء الشعب

فملكته، وأضاعت منه رشده وأعمت قلبه وأصبح ينقاد لهم ولمن على شاكلتهم من أصحاب السلطة الروحية؛ كما تنقاد الأنعام للرعاة.

ولأصحاب السلطة الروحية من رؤساء الأديان في المشرق والمغرب حظ وافر في تعبئة الجيوش وإثارة الحروب، ولكن أكثر رؤساء الدين المسيحي في الغرب إنما أوقدوا الحروب للمصلحة العامة، وضد مخالفيهم في الملة والعقيدة، كرجال الدين في روما الذين بذلوا كل مستطاع في توحيد أمم أوروبا ضد المسلمين أيام الحروب الصليبية، ولكن أصحاب السلطة الروحية من المسلمين إنما يبذلون مجهودهم لإثارة الفتنة وزرع الخصام بين المتصلين بهم في الجنسية والملة، ويبعثون جيش أحمد ليسحقوا به جيش محمود، هكذا يأكل بعضهم بعضًا، وهم لا يستطيعون أن يعملوا غير ذلك، وقد يستطيعون أن يعملوا للنفع العام، ولكن في ذلك كسادًا لجيوبهم، وفواتًا لحطام الدنيا، فهم يعبدون المادة ويجرون وراءها، ولا يضرهم من أي وعاء خرجت، ولا لأي غرض مُنحت، ولا يبالون بنتائجها وعواقبها مهما اشتد خطرها وتفاقم خطبها.

تأثير سقوط سَيْئون في يافع:

كان لسقوط سَيْئون في نفوس يافع أعظم أثر، فقد اجتمعت كلمتهم وأزمعوا على استردادها بأي حال، ففي ليلة ٢٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٥هـ سرى منهم ومن عبيدهم نحو ١٣٠٠ رجل ووصلوا سَيْئون عند مطلع الفجر، فهجموا عليها وكان في معاقل سَيْئون نحو ٣٥٠ رجلًا مسلحًا من آل كثير ومن الحُمُوْم والعوامر، فالتحمت الحرب بين الفريقين، وفي الفجر احتل يافع سَيْئون، وكان عدد القتلى من يافع أربعة منهم عبدالرب بن سالم هرهرة والجرحى ثلاثة، وقتل من الفريق الآخر عشرة وجرح كثيرون. حدث ذلك كله دون أن يعلم آل كثير في تَرِيْم وغيرها؛ لأن يافع أحاطوا بسَيْئون وحاصروها من جميع نواحيها. ولما بلغ ذلك إلى آل كثير في تَرِيْم

أزمعوا وأجمعوا على أن يستردوا سَيْئون ويجازفوا بأرواحهم في سبيل تخليصها من أيدي يافع، وقد انضم في صفهم آل جابر والعوامر وآل باجري، فتكونت من هذه القبائل ثلاثة آلاف مقاتل وزحفوا على سَيْئون ليلًا والسكان غارقون في نومهم من جراء القلاقل والاضطرابات التي حلت بهم من حرب يافع ضد آل كثير، ولم يطرأ ببال يافع أن آل كثير يجتمعون بتلك السرعة العظيمة ويهجمون بتلك القوة على سَيْئون بعد انكسارهم الذي لم يمضِ عليه سوى أيام معدودات، ولكنها سياسة القائد البطل عبود بن سالم، وهي سياسة حازمة، زحفوا على سَيْئون فهب الناس من مراقدهم، وأخذ يافع حذرهم وجعلوا يدافعون دفاع المستميت، ولكن سيل آل كثير كان جارفًا، فقد احتل آل كثير سَيْئون وقتل من الفريقين خلق كثير.

محاولة يافع احتلال سَيْئون:

في سنة ١٢٦٧هـ اجتمع ٤٠٠ رجل من (كلد) وعليهم صائل، و٣٥٠ من (يافع التلد) وعليهم سالم بن علي بن الشيخ علي هرهرة، وساروا إلى سَيْئون لاحتلالها، وكان أميرها يومئذ السلطان غالب بن محسن الكثيري يحيط به من الأنصار والأعوان ٥٠٠ و٣٠٠ من العوامر وآل باجِرِي. زحف يافع على سَيْئون فثارت الحرب بين الفريقين وبدأ آل كثير ينسحبون من المدينة أفرادًا وجماعات، وكاد يافع يحتلونها لولا أن صائل خان قومه حيث استلم عشرة آلاف ريال من آل كثير، وتظاهر بالانخذال والانكسار وسحب أغلب رجاله، حتى ظن أنصارهم الذين ثبتوا وبلوا بلاءً حسنًا أن النصر في جانب آل كثير، فانسحبوا ولم يبقَ منهم سوى سالم بن علي هرهرة و١١ شخصًا من رجاله اختفوا في دار، وأسر آل كثير ١٢ رجلًا من عبيد يافع وربطوهم بالحبال، ثم وضعوهم في حفرة ودفنوهم أحياء.
أما ابن هرهرة وأعوانه فقد علم آل كثير بوجودهم، فساروا إليهم وأحاطوا بهم من كل جانب، ومنعوا عنهم القوت والماء، فاضطر ابن هرهرة وجماعته للاستسلام،

فأخذوهم وسجنوهم مقيدين بالحديد، وجعلوا عليهم عبدين يحرسانهم، وفي ذات ليلة حدث في سَيْئون زواج عند أحد الأعيان، فذهب أحد الحارسين للرقص[١]، فانتهز ذلك يافع وأتوا إلى العبد الحارس وأخذوا يمازحونه، حتى إذا أنسوا فيه الغفلة وثبوا عليه وربطوه بحبل في عنقه وشدوه حتى فارق الحياة، ثم قطعوا قيودهم بمبرد كان أهداه لهم في وسط الخبز أحد الموالين لهم من أهل المدينة، ثم انسلوا من الدار أفرادًا، وقد انكسرت رِجل أحدهم وهو من بني أرض حين نزل من الدور الأول إلى الأرض، فصاح في جماعته أن احملوني معكم وإلا صحت بأعلى صوتي، فتركوه ولم يهتموا به، فصاح بكل صوته، فجاءه بعض آل كثير وقتلوه وأسروا ثلاثة من يافع، والتجأ سالم بن علي هرهرة وستة من رجاله إلى ديار آل منيباري، فرحّب بهم هؤلاء وأكرموهم، ثم علم السلطان غالب بن محسن الكثيري بذلك، فأرسل إلى آل منيباري يطلب منهم اليافعيين، فامتنعوا في بادئ بدء ثم سلموهم له، وصادف أن ذهب بعض آل منيباري إلى شِبَام فعيرهم السماسرة ولاموهم على تسليمهم اليافعيين للسلطان غالب بن محسن، فوقع ذلك اللوم في نفوس آل منيباري وأزمعوا على أن يعيدوا اليافعيين من عند السلطان غالب ويذهبوا بهم إلى يافع في الحوطة، فسار ١٦ رجلًا منهم إلى سلطانهم غالب بن محسن فوجدوه في قصره وحوله ٨ من عبيده، وطلبوا إليه تسليم يافع إليهم، فامتنع السلطان، فقام آل منيباري وأغلقوا الأبواب وهددوه وعبيده بالقتل إذا لم يسلم إليهم اليافعيين، فأجابهم إلى ذلك، وسار آل منيباري باليافعيين إلى شِبَام في طريقهم إلى الحوطة، فأثنى السماسرة على مروءتهم وشهامتهم، وأمرهم الأمير منصور بن عمر الكثيري أن يطالبوا يافعًا بفك أسرى آل كثير الذين عندهم، فقالوا إننا سنسلم اليافعيين ليافع وهم إن شعروا من

(١) الرقص في حضرموت، ويسميه الحضارم (الشرح) يخالف الرقص العصري المعروف في أكثر مظاهره وحركاته، وسيأتي الكلام عنه في الجزء الثاني.

تلقاء أنفسهم بالواجب فيا حبذا، ثم ساروا إلى الحوطة عند الأمير محمد بن عمر القُعَيْطي اليافعي والماس عمر وسلموهم إلى يافع، فأكرم يافع آل منيباري واحتفوا بهم احتفاء عظيمًا، وحينما أرادوا العودة إلى ديارهم سلموا إليهم أسرى آل كثير وعددهم ثمانية، منهم ثلاثة من آل عيسى بن بدر، وخمسة من عبيدهم كانوا أسروا في واقعة العَقَّاد، وهكذا قوبلت الحسنة بأحسن منها.

وقعة مُرَير المشهورة:

بعد أن احتل آل كثير سَيْئون، طمع السلطان غالب بن محسن الكثيري في احتلال الشِّحْر؛ لتكون ميناء لملكه، وليكون في غنىً عن المرور في ثغر المُكَلَّا، وليوطد مركز دولته في الداخل بما سيجلبه من السلاح وغيره، ولقد حرَّضه على ذلك محسن بن علوي السقاف، وعبدالله بن حسين بن شهاب، وإسحاق بن عقيل، وحسين بن عبدالرحمن بن سهل، وغيرهم من آل باعلوي، وألحوا عليه بإرسال الأمير عبود بن سالم الكثيري إلى الحجاز ليأتي بقوم للحرب، ويهجم بهم على الشِّحْر من ناحية البحر، ويهجم هو بجيشه من ناحية البر، فسافر الأمير عبود إلى الحجاز وجمع قومًا من الحجازيين والشوام والأتراك، أغلبهم لا علم لهم بالحرب ولا طاقة لهم بويلاتها، وسار بهم إلى الشِّحْر بعد أن استولى على خمسة مراكب كانت راسية في ميناء الحديدة لبعض تجار آل بريك.

ووصل إلى بُرُوْم يوم ١٠ من رمضان سنة ١٢٦٦هـ، ولما علم النقيب محمد بن عبدالحبيب الكسادي اليافعي أرسل جيشًا إلى بُرُوْم تحت قيادة ابنه الأمير صلاح بن محمد، وهناك ثارت الحرب بين الفريقين في البر والبحر، فانتصر الكسادي، وقُتل كثيرون من الفريقين. أما الأمير عبود بن سالم الكثيري فقد سار بجيشه إلى شَرْمة، وكاد يغرق ورجاله لشدة الأنواء، ولما بلغ ذلك إلى آل بريك أنشأوا مراصد في الجبل وكمنوا فيها، ولما نزل الأمير عبود برجاله هجموا عليهم وأثخنوهم في

التنكيل بهم، واستولوا على ثلاثة مراكب من مراكب قوم الأمير عبود، وسار الأمير عبود إلى قُصَيْعَر. ولما علم السلطان غالب بن محسن الكثيري باندحار الأمير عبود وخذلان جيشه، جهز جيشًا من عشيرته ومن العوامر والحُمُوْم وانضم في صفه عبدالله القحوم العمودي مع من تبعه من قبيلة الدَّيْن وأربعين شخصًا من آل باعلوي، منهم محسن بن علوي السقاف، وعبدالله بن حسين بن شهاب، وإسحاق بن عقيل، وسار هذا الجيش الخليط شطر الشِّحْر، ولما وصلوا إلى دُفَيقة تركوا بعض ذخائرهم هناك وجعلوا عليها آل باعلوي وبعض حملة السلاح، وانقسم الباقون فرقتين: إحداهما اتجهت إلى الشِّحْر من ناحية البحر، والأخرى من ناحية البر، ثم أثاروا الحرب على الشِّحْر من البر والبحر ودامت الحرب بضعة أيام، وكاد آل كثير يحتلون الشِّحْر لولا أن أمير المُكَلَّا الكسادي اليافعي أمدَّ أهل الشِّحْر بـ٥٠٠ جندي تحت قيادة ابنه الأمير صلاح بن محمد، جاء هذا المدد فهجم على حصن مَرِيْر الذي احتله جنود الأمير عبود بن سالم، وكأن الموت يدفع جنود الكسادي دفعًا، وكأنهم اختاروا الموت على الحياة، فقد كانت الطلقات النارية تتساقط عليهم مدرارًا من الحصن ومن المراصد الأخرى، ولكنهم استمروا في الحملة بينما القتلى منهم يتساقطون على الأرض أفرادًا وجماعات، وأخيرًا استولوا على الحصن وما حوله من المراصد، وانسحب جنود آل كثير القهقرى بعد أن قتل منهم خلق كثير، وهرب أهل دُفَيقة تاركين وراءهم الذخائر، وقد استولى عليها جنود الكسادي اليافعي، وهذه الوقعة تسمى (وقعة مَرِيْر)، وهي من أكبر الوقائع بين يافع وآل كثير، فإن عدد القتلى تجاوز ألف نفس، أما الجرحى فكثيرون.

نهوض يافع لاسترداد سلطتهم من جديد:

قبع يافع في خَشَامِر وخَمُور وفي غيرهما من قرى القَطْن، وكأنهم كرهوا التنازع والتناحر على السلطة والملك، وتركوا الأمر كله لآل كثير يحكمون البلاد ويسوسون

العباد كما يشاؤون، دون أن ينافسهم في الأمر منافس، أو يعترض سبيلهم معترض، أو ينازعهم أحد في الحكم والسلطان.

كره يافع الحكم وقطعوا الأمل في استرداد سلطتهم وإعادة ملكهم، ورضوا وقنعوا بالقبوع في ديار القَطْن، ولكن أمير شِبَام منصور بن عمر الكثيري أخذ يشن الغارات عليهم من حين إلى آخر، ويقلق راحتهم ويعكر جوهم ويزعجهم بالاضطرابات والمشاغبات. ولما اشتدت عليهم مظالم آل كثير وتشعبت مطامعهم فيهم وبالأخص في آل خلاقي، اجتمع أعيان يافع وتشاوروا فيما يكبح مطامع الأمير منصور وقومه، ويردع عنهم مظالمهم التي أخذت تزداد شيئًا فشيئًا، فسافر وفد منهم إلى الجمعدار عمر بن عوض القُعَيْطي اليافعي(١) واستنجدوا به وطلبوا إليه أن ينصرهم، فأجابهم إلى ذلك وسافر وإياهم إلى خَمُور وأرسل إلى يافع الذين في بلادهم باليمن، فجاءه نحو ٥٠٠ رجل، ثم جهز بنحو ١٥٠٠ من يافع وعبيد، وحصروا سِعَيْدِيَّة وشِبَام شهرًا، فاحتلوا سِعَيْدِيَّة عنوة سنة ١٢٧٤هـ، وكان عدد القتلى منهم خمسة ومن آل كثير ثلاثة، وظلوا محاصرين شِبَام أيامًا قطعوا خلالها جميع المواصلات. ولما شعر الأمير منصور بن عمر الكثيري بخطورة الموقف وخاف سقوط شِبَام من بين يديه، بعث إلى يافع من يسعى بالصلح على أن يحتلوا نصف شِبَام كما كانوا سابقًا ويبقى النصف الآخر له، فتراضى الفريقان بذلك، وكان ذلك سنة ١٢٧٤هـ.

(١) كان الجمعدار عمر بن عوض القُعَيْطي اليافعي ممن هاجر إلى الهند سنة ١٢٠٧هـ، ولذكائه ونشاطه وشجاعته ودهائه نال لدى ملك حيدر أباد الدكن حظوة كبرى وأولاه أعظم منصب في الجيش، واتخذه نصيرًا له ومعينًا في شئونه العامة، ولقد جمع ثروة عظيمة بذل كثيرًا منها لنصرة قومه يافع بحضرموت، وأوجد لهم ملكًا وبوأهم مقعدًا عليًا، فهو يعتبر المؤسس الأول للدولة القُعَيْطية اليافعية الفتية. وكان له من الأولاد الذكور خمسة وهم: محمد، وعبدالله، وعوض، وهو بطل التاريخ وبيده القيادة وإدارة السياسة، وصالح، وعلي، وكلهم بعثهم إلى حضرموت، إلا صالح بن عمر فقد أبقاه في حيدر أباد يدير أملاكه.

قدوم الشريف حسين:

كان الأمير عمر بن عوض القُعَيْطي اليافعي طلب إلى الشريف حسين أحد أمراء اليمن أن يمده برجال من نخبة قومه ليستعين بهم ضد آل كثير، فجاءه الشريف حسين على رأس ٢٠٠ فارس، ولكن بعد أن تم الصلح بين يافع وآل كثير، وأراد الأمير عمر بن عوض أن يدفع لهم مصاريفهم ويرجعهم إلى بلادهم، ولكنهم أبوا إلا الحرب ضد آل كثير، فلم يجبهم الأمير إلى ذلك فثارت ثائرة الشريف حسين وهاج، واتسع نطاق الخلاف بينه وبين يافع حتى تلاحى هو والأمير محمد بن عمر القُعَيْطي وهدد كل منهما الآخر. وفي صبيحة اليوم الثاني ثارت الحرب بين الفريقين في المَسْحَرَة، فانهزم الشريف وقومه وقتل ابنه وبعض رجاله، وقتل من يافع اثنان وانسحب بفلول جيشه إلى بلاده مكسوفًا محسورًا.

قتل الأمير منصور بن عمر الكثيري:

أولم الأمير عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي وليمة غداء في شِبَام بواسطة مولاه الحاج الماس الحبشي، ودعا إليها رؤساء يافع والأمير منصور بن عمر الكثيري، فأراد الأمير منصور الذهاب للوليمة، فاعترضته زوجته وكانت يافعية وحاولت منعه عن الذهاب، وكأنها شعرت أن هناك مكيدة دبرت ضده، وقالت له: إني أخشى أن تذهب ضحية السياسة، وإني لأرى الدم يلوح على وجهك. ولكن الأمير لم يصغ إليها ولم يقم لكلامها وزنًا، فسار وبصحبته خمسة من عبيده، ولما دخل قاعة الجلسة في القصر السلطاني أمسك يده سالم بن علي بن هرهرة، وأتى نفر من العبيد وطعنوه عدة طعنات حتى فارق الحياة، ثم أعلن يافع الاستقلال التام بجميع شؤون شِبَام وذلك سنة ١٢٧٤هـ.

خروج آل عمر بن جعفر الكثيري من هَيْنَن:

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيري قد احتل مدينة هَيْنَن وبنى هناك حصنًا على تل مرتفع يسمى (حصن فرحة)، وجعل عليها نائبًا من عشيرته يحكم البلاد، ويبعث

إليه بالحاصل من العشور، وقد استقر فيها في نهاية آل جعفر بن عمر الذين كان آخر من حكم منهم الأمير طالب بن بدر الكثيري، ومن سوء حظ هذا الأمير أن اشتد القحط في عهده في هَيْنَن حيث انقطع المطر سنين، فأجدبت الأراضي وأقفرت، ومات كثير من النخل، وقد ضاق ذرعًا وأظلمت الدنيا أمام عينيه بعد أن احتل يافع شِبَام، لذلك اضطر الأمير أن يرحل بأهله إلى جاوة، ويترك البلد للشعب، وكان ذلك سنة ١٢٧٥هـ، فأصبحت هَيْنَن بعد مغادرة آل عمر بن جعفر لها في اضطراب مستديم، فقد فُقِد الأمن وانتشر الرعب في قلوب الضعفاء، وانقطع ورود القوافل فكسدت السوق، ثم جاءها سالم بن علي بن هرهرة اليافعي واحتلها ونادى بنفسه حاكمًا عليها، فعاد الأمن وهدأت الخواطر واطمأنت النفوس، ولكن الأمير سالم لم يمكث طويلًا في هَيْنَن يحكم الناس ويسوس شؤونهم، فقد عاد إلى شِبَام سنة ١٢٨١هـ، ولعل ذلك كان لفقر البلد وقلة موارد الخير فيه.

حرب السِّحِيل:

كان لمقتل الأمير منصور بن عمر الكثيري أعمق أثر في نفوس آل كثير وأكبر وقع فيهم، فقد اجتمعت كلمتهم واتحدت قلوبهم ضد يافع بالرغم عن وجود النزاع والخلاف بين بعض أفخاذهم، والمصائب من أكبر الأسباب التي تزيل ما بين القبيلة الواحدة من التنازع والتناحر، وتوجد بينهم روح التعاون والتناصر ضد العدو المهاجم. رابط آل كثير في سِحِيل آل مَهْري، وأخذوا يؤذون المارين بالنهب والسلب، ويقطعون السابلة، ويلقون الرعب والجزع في أطراف مدينة شِبَام، ولما أنسوا من يافع السكون والخمود، أخذوا يشنون الغارة على شِبَام آناء الليل وأطراف النهار؛ لاحتلالها وإعادة سلطتهم واسترداد إمارتهم عليها، ولكن كانت غاراتهم تذهب هباء، فقد حصن الأمير عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي قلاع شِبَام برجال من عشيرته ومن العبيد، ثم عقد صلح بين الفريقين، وقبل انتهاء الصلح بيوم جهز

أحمد عامر الحضرمي اليافعي -أحد كبار قوّاد الجيش- أتباعه وكانوا ٣٠٠ رجل، وأراد الهجوم على آل كثير في سِحِيل آل مَهْري، فلم يوافقه الأمير عوض ورؤساء يافع وحاولوا منعه ريثما ينتهي الصلح ولكنه أبى الانتظار، فسار بقومه إلى سِحِيل آل مَهْري، وثارت الحرب بين الفريقين واحتل أحمد عامر أكثر الحصون، ولكن جاء من سَيْئون وتَرِيْم ٢٠٠٠ رجل من آل كثير، وأحاطوا بأحمد عامر وقومه، وكادوا يقضون عليهم، وعلم يافع الذين في شِبَام وقرى القَطْن بخطورة موقف أحمد عامر ورجاله، فلم يغيثوه بحجة أن الصلح لم ينتهِ بعد، وأن أحمد عامر سار من غير رضاهم، ولما انتهت مدة الصلح أدركوه بـ١٠٠٠ رجل من يافع، فحمي وطيس الحرب، وقتل من الفريقين كثيرون، وانتصر يافع، واحتلوا السِّحِيل، وانسحب آل كثير جميعًا إلى سَيْئون وتَرِيْم.

محاولة آل كثير احتلال الشِّحْر:

لم تضعف عزائم آل كثير وتخبو هممهم من صدمة الشِّحْر، ولم يقطعوا الأمل في احتلالها، ولم ييأسوا من امتداد سلطتهم إلى البحر، بل أخذ زعماؤهم يوقظون في القوم الحماسة، ويبعثون فيهم النشاط للعمل.

وفي شهر رجب سنة ١٢٨٢هـ جهز السلطان غالب بن محسن الكثيري نحو ٣٠٠٠ من آل كثير والعوامر وغيرهم، وفي مقدمة هذا الجيش القائد عبود بن سالم الكثيري، وعبدالله بن صالح بن مطلق الكثيري، وعايض بن سالمين بن طالب الكثيري، وهادي بن سيف، وكان هذا تكفل بربع مصروفات التجهيز، والثلاثة الأرباع الأخرى على السلطان غالب بن محسن. زحفوا على الشِّحْر فجأة، ولم يكن آل بريك وغيرهم من سكان المدينة على استعداد للحرب؛ ولذلك فقد احتل آل كثير الشِّحْر دون أن يلاقوا أمامهم مقاومة شديدة.

صدى سقوط الشِّحْر في يافع:

احتل آل كثير الشِّحْر وكان يافع في شِبَام وقرى القَطْن هامدين خامدين، والكسادي وقومه في المُكَلَّا، والسلطان عوض بن عمر القُعَيْطي في حيدر آباد بالهند، فجمع يافعًا هناك واستشارهم في استرداد الشِّحْر فعاهدوه على ذلك.

ومن أهم الأسباب التي ألجأت السلطان عوض بن عمر للحرب هو ما بلغه أن آل عولقي يوالون آل كثير ويناصرونهم ضد يافع، فقد سعوا في إيجاد تحالف بينهم وبين آل كثير وآل عمر باعمر أهل الغيل، وأزمعوا على احتلال الشواطئ وطرد يافع منها، وكان زعيم آل عولقي -وهو عبدالله بن علي العولقي الموجود في حيدر أباد يومئذ، ومن أكبر أصدقاء السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي- يمد تلك الحركة بالمال، ويقوم بأعظم قسط في تنشيط الهمم، وإيجاد جبهة قوية على الساحل لإجلاء يافع، وإنشاء دولة جديدة له على أنقاض الدولة اليافعية، وقد غضب عليه السلطان عوض بن عمر وقابله وجهًا لوجه، وأوعده أنه ذاهب إلى حضرموت لدكِّ حصن الصداع[1] واحتلال الشِّحْر وغيل باوزير، ثم غادر السلطان عوض بن عمر الهند إلى المُكَلَّا وبصحبته جماعة من عشيرته يافع و٤٠٠ من الهنود، وهناك فاوض أمير المُكَلَّا صلاح بن محمد الكسادي اليافعي في الأمر، فتعاهد على استرداد الشِّحْر من أيدي آل كثير، على أن تكون ثلاثة أرباع مصروفات الحرب عليهما، والربع الآخر على حسين صالح المصلي وسعيد بن حسين بن علي الحاج، وسعيد بن علي النقيب، جهزوا ٤٠٠٠ رجل من يافع وآل تميم وهنود وعبيد، وانقسموا فرقتين: إحداهما حاصرت الشِّحْر بحرًا وعليهم صالح حبيب بن علي جابر، وسالم بن علي بن الشيخ علي اليافعي، ومحسن بوبك الحداد اليافعي،

(١) هو حصن منيع جدًا قائم على مقربة من غيل باوزير، بناه الجمعدار عبدالله بن علي العولقي، وأسكن فيه أهله، وأحاطه بقلاع صغيرة يقيم فيها الحرس من العبيد وغيرهم.

وسعيد أحمد الحضرمي اليافعي، وعمر عوض القُعَيْطي اليافعي، وحسين صالح الجهوري اليافعي. والأخرى حاصرتها من شمالها وغربها، وفي مقدمة هذا الجيش السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي، ومحسن بن نقيب اليافعي، وعبدالله عوض القُعَيْطي اليافعي.

حاصروا الشِّحْر يومين، وفي اليوم الثالث أثاروا الحرب، وفي اليوم الرابع زحف يافع على المدينة وأخذوا يستولون على ديار كثيرة. ولما رأى آل كثير تقدم يافع وحملاتهم المتوالية انسحبوا من الشِّحْر وبقي السلطان غالب بن محسن الكثيري في الحصن مع حاشيته، واختبأ جماعة من آل كثير والعوامر في دار باجَمَّال في دُفَيقة، ومن هؤلاء عبود بن سالم، وعايض بن سالمين بن طالب، وهادي بن سيف، وعبدالله بن صالح بن مطلق، ونفر من أعيان العوامر. احتل يافع الشِّحْر، فاضطر السلطان غالب بن محسن الكثيري للتسليم وطلب إليهم أن يسمحوا للنساء والأطفال بالرحيل من المدينة، فأجابوه إلى ذلك، وخرج النساء وأولادهن، وقد لبس السلطان غالب بن محسن لباس امرأة وخرج دون أن يشعر يافع به.

ثم استولى يافع على كل من الشِّحْر، وكان عدد القتلى منهم نحو ٩٠ ومن آل كثير نحو ١٣٥، وعدد الجرحى من الفريقين كثيرون. أما الذين في دار باجمَّال فقد أراد السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي أن يصوِّب عليهم المدفع ويبيدهم عن بكرة أبيهم؛ لأنه رأى أن هؤلاء -وهم الأعيان البواسل- إذا أطلق سراحهم يعودون إلى قومهم فيثيرون الحرب من جديد، ولكن رؤساء يافع لم يوافقوه على ذلك فأطلقوا سراحهم بإحسان.



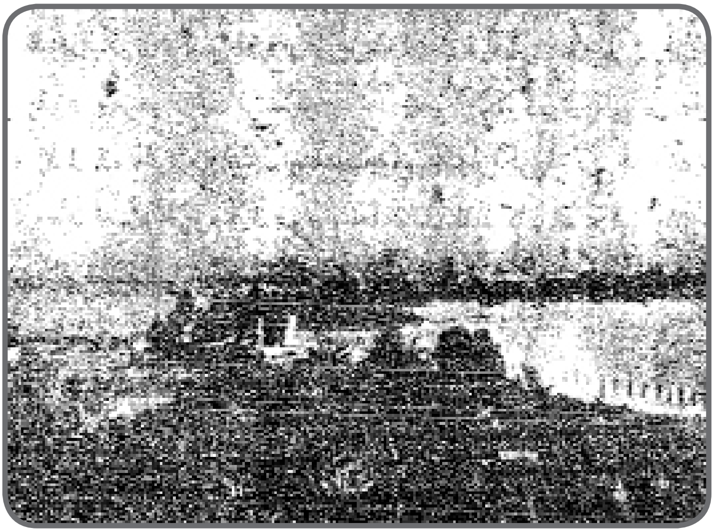
غيل باوزير كما هي الآن

احتلال غيل باوزير:

ثم أراد يافع أن يزحفوا على الغيل ولكنهم خافوا أن يمد آل كثير أهل الغيل بجيش ويتحد هؤلاء مع آل عمر باعمر والعوالق ضدهم، لذلك أرسلوا ٢٠٠ رجل من يافع وآل تميم إلى النُّوَيْدَرَة لمحاصرة تَرِيْم تحت قيادة عبدالخالق الماس عمر، واستصحب هؤلاء جماعة من الحُمُوْم، وحينما وصلوا حدود الحُمُوْم وفي بقعة عديمة الماء، أثار جماعة الحُمُوْم الحرب على رفقائهم من يافع وآل تميم، وقتلوا منهم غدرًا ٣٥ رجلًا، وسار الباقون من يافع وآل تميم إلى تَرِيْم وحاصروها. وفي أثناء حصارهم الذي امتد إلى أربعة شهور، جهز السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي ١٦٠٠ تحت قيادة سعيد أحمد الحضرمي اليافعي، وسعيد بن علي النقيب اليافعي، وسعيد حيدر البكري اليافعي، وكان هذا رئيسًا على الهنود حيث كان يعرف لسانهم، ثم زحفوا إلى الغيل، وكان فيها من آل عمر باعمر ٢٥٠، ومن البدو ٢٠٠، ومن آل كثير ١٥٠ وفي مقدمتهم عبود بن سالم الكثيري، وعايض بن سالمين طالب

الكثيري. وكان العوالق ومن يلحق بهم في حصن الصداع على أتم استعداد لمناصرة آل عمر باعمر ضد يافع. حاصر يافع الغيل يومين ثم أتاهم السلطان عوض بن عمر وأمرهم بالهجوم.

وفي فجر اليوم الثالث من الحصار زحفوا إلى الغيل، وكان السلطان عوض بن عمر في مقدمتهم يستحث هممهم ويثير فيهم الحماسة، ودامت الحرب إلى آخر النهار حتى إذا جاء الليل لم يبق في البلد من المدافعين سوى جماعة من آل عمر باعمر، سلموا أنفسهم ليافع، واحتل يافع الغيل، وكان عدد القتلى من آل عمر باعمر وأنصارهم ٧٨ رجلًا، ومن يافع وأنصارهم ٤٥ رجلًا، والجرحى في الفريقين كثيرون.



منظر من غيل باوزير

أما الأسرى من آل عمر باعمر وعددهم ٦٠ رجلًا، فقد أرسلوا إلى الشِّحْر وسجنوا هناك. ثم زحف يافع إلى حصن الصداع، وحاصروه وحاولوا الهجوم عليه، فلم يستطيعوا؛ إذ كان محاطًا بالمرابطين من كل أنحائه، وحفروا خندقًا

تحت الأرض إلى الحصن، فخاب سعيهم وقتل منهم خمسة، ودام الحصار بضعة شهور، وكاد العوالق وأنصارهم يموتون جوعًا، فاضطروا للتسليم، واحتل يافع الحصن وملحقاته، وسمحوا لهم بالرحيل إلى آل عمر باعمر فقد أرسلوا إلى الشِّحْر وسجنوا[1].

أما الجيش الذي أُرسل لمحاصرة تَرِيْم فقد اتفق الفريقان على الصلح، على أن يدفع آل كثير مصروفات الحصار، ثم عاد يافع وآل تميم إلى المُكَلَّا .

استقلال نَهْد:

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيري قد احتل أكثر بلاد نَهْد وأدخلها تحت حكمه، وكان آل عمر ابن جعفر الكثيري هم الولاة بالنيابة، وكان بنو بكر في سَدْبِة يتولون شؤون الناس، ويذودون عن حوضهم من اعتداء آل محفوظ وغيرهم، وكانت إمارة لَحْرُوم وعَنْدَل في حوزة أحمد محسن الحثامي البكري اليافعي، ولما توفي أمير سَدْبِة أحمد عبيد البكري وليس له وارث يرث الإمارة أمسى الأهالي في فوضى، ليس لهم رئيس يقوم بأمرهم. وسافر الأمير أحمد محسن البكري اليافعي إلى حيدر أباد للارتزاق، إذ لم تقم لَحْرُوم وعَنْدَل بسد حاجياته، ولم يكن له من عشيرته من يقوم بالأمر بعده، فأصبحت لَحْرُوم في فوضى، أما عَنْدَل فقد كان القائم فيها بشؤونها عامر جعيم المرفدي اليافعي بالنيابة عن أحمد محسن البكري، ولم يكن لهذا الوالي أنصار من عشيرته ولا من غيرهم من حملة السلاح، فهو بمفرده بين آل باجابر وغيرهم من سكان عَنْدَل، وكان ضعيف الإرادة، عديم السياسة، انحلت سلطته وتلاشت هيبته، فأمسى نسيًا منسيًا. وفي ذات يوم خرج من حصنه

(١) قيل إن السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي حينما غضب من الجمعدار عبدالله بن علي العولقي أوعده بأن يحتل حصن الصداع ويهدمه ويبعث بتراب منه إلى حيدر أباد ويذره تحت جامع شار مناره، وفعلاً كان ذلك، وتوفي الجمعدار عبدالله علي العولقي حزينًا آسفًا.

إلى جبل عَنْدَل فشاهده جماعة من آل منيف أهل لَخْمَاس، فساروا إليه وقتلوه، ثم ساروا إلى حصنه ونهبوا ما فيه من المال والطعام وهدموه وردموا بئره.

وكان لانحدار آل كثير من الشِّحْر وشِبَام واستيلاء يافع أكبر مشجِّع لنَهْد في الاستقلال وخلع طاعة آل كثير، وأخذوا يهيئون أنفسهم ويعدون العدة للاستقلال، ففي سنة ١٢٨٤هـ ثار آل منيف على الفقم(١) واحتلوه، ثم ساروا إلى صاحب الدهيل الأمير صالح بن عمر بن جعفر الكثيري وقتلوه واستولوا على الدهيل وعلى لَخْمَاس، وهكذا نالت نَهْد استقلالها التام، ولم يكن بينهم من ينافسهم على الحكم والسلطان.

محاولة آل كثير احتلال الشِّحْر لآخر مرة:

في سنة ١٢٨٦هـ جهز السلطان غالب بن محسن الكثيري جيشًا من قومه ومن العوامر وآل باجري وآل جابر، وزحف بهم إلى الشِّحْر، فثارت الحرب، ولقد صدَّق آل كثير الحملة وأخذوا يندفعون إلى الأمام ويحتلون أطراف الشِّحْر، ولما رأى يافع أن النصر في جانب آل كثير هموا بالانسحاب، وكان السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي في حصنه، وعنده من عشيرته ٣٠ رجلًا وفي مقدمتهم وزيره عبدالله عوض بن علي القُعَيْطي الذي قتل في ذلك اليوم.

أراد السلطان عوض أن يتخلص من الحياة هو ومن حوله من رجاله، فوضع البارود تحت الحصن وأمر أحد عبيده أن يفتح باب الحصن ويسمح لآل كثير بالدخول، حتى إذا دخلوه أشعل البارود فيموت جميع من في الحصن، ولكن محمد حسين الشاحث عيَّرهم ولامهم على يأسهم من النصر، وأخذ يثير فيهم الحماسة بذلاقة لسانه وسرعة بداهته حتى عادوا للحرب واندفعوا في شوارع

(١) هو حصن شاهق واقع على مقربة من شراح، بناه السلطان بدر بوطويرق الكثيري.

المدينة كالسيل الجارف يقاتلون. ولقد ظن آل كثير أن مددًا عظيمًا جيء به ليافع، فانسحبوا إلا عبود بن سالم، وهادي بن سيف، وعبدالله بن صالح وغيرهم من رؤساء آل كثير، فقد ثبتوا في أحد الحصون وأحاط بهم يافع، فطلب عبود بن سالم الكثيري وجماعته الأمان منهم، وطلب أن يستصحبه حسين بن صالح المصلي اليافعي إلى خارج الشِّحْر، فأجابوهم إلى ذلك، وأنزلوهم من الحصن بما يليقون به من الاحترام، وكان عدد القتلى من يافع ٤٥ ومن آل كثير ٩٥، وعدد الجرحى من الفريقين كثيرون.

وقعة المحليل (المحْتِرْقَة):

كأن احتلال يافع الشِّحْر بعث فيهم الحركة وحب النضال، وكان انتصار القُعَيْطي والكسادي وفوزهما في القيادة جعلهما يطمحان في توسيع نطاق الملك وامتداد السلطان، فأرادا الهجوم على آل كثير في ديارهم بسَيْئون وتَرِيْم، فجهز ١٤٠٠ رجل من بينهم نحو ٤٠٠ من الهنود و٢٠٠ من يافع المقيمين في شِبَام وقرى القَطْن، واقترض الأمير صلاح بن محمد الكسادي اليافعي من السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي مائة ألف ريال ليقوم بنصف مصاريف الحرب وتبقى في ذمته، وسار بالجيش إلى شِبَام ثم زحفا شطر آل كثير، وكان آل كثير قد بلغهم قدوم يافع لحربهم، فتعرضوا لهم في المحْتِرْقَة وهناك ثارت الحرب بين الفريقين، وأخذ يافع يندفعون في حدود آل كثير، واستمرت الحرب إلى الليل، ووضع آل كثير البارود في بعض حصونهم وتخلوا عنها، حتى إذا دخلها يافع أشعلوا فيهم البارود، فصعد أحدها جماعة من يافع فانفجر البارود وقتل ثلاثة منهم، ثم اندحر يافع وانسحبوا، وثبت الهنود وعليهم سعيد حيدر البكري في مراكزهم، ولكنهم لما رأوا يافع ينسحبون انسحبوا وعاد جميعهم إلى شِبَام. وكان عدد القتلى من يافع والهنود ٤٠ رجلًا، وسميت هذه الوقعة وقعة المحايل أو المحْتِرْقَة وكانت في أواخر سنة ١٢٨٦هـ.

وفي اليوم الثاني من تلك الوقعة زحف يافع على قارة آل عبدالعزيز واحتلوا أغلب بيوتها، ثم انسحبوا بعد أن جاء لآل عبدالعزيز المدد من سَيْئون. وقد قُتل في هذه الوقعة القائد الباسل أحمد عامر الحضرمي اليافعي، كان هجم على أحد الحصون وأخذ يفجر حائطه، فرآه من في الحصن فألقوه حجرة كبيرة على رأسه.

وقعة الغييضات:

ثم أراد السلطان عوض والأمير صلاح أن يثيرا حربًا على آل كثير من ناحية الشرق، ويأتيا بجيشهما من ناحية الغرب؛ لتتوزع قوة آل كثير ويقل عددهم وتضعف صفوفهم، فأرسلا جيشًا تحت قيادة عبدالقوي غرامة اليافعي. ولما بلغ ذلك آل كثير جهز السلطان غالب بن محسن جيشًا من عشيرته، ومن العوامر وآل جابر وآل باجري، وجعل عليهم عبدالله بن علي بن جعفر بن محمد الكثيري، وعبدالله بن أحمد عم السلطان غالب، وكمنوا ليافع في وادي الغييضات، ولما انحدر يافع من أعلى الوادي أحاط بهم آل كثير وأثخنوا في التنكيل بهم، فانسحب يافع وعادوا إلى الشِّحْر، وكان عدد القتلى منهم سبعين، منهم قائده عبدالقوي غرامة، وحسين بن صالح الجهوري، وابنه عبدالقوي، وقتل من آل كثير ثلاثون وجرح من الفريقين كثير.

ولما بلغ السلطان عوض انكسار يافع من الغييضات عاد بالجيش إلى الشِّحْر، ثم عاد الأمير صلاح بن محمد الكسادي إلى المُكَلَّا [1].

مساعي آل باعلوي السياسية للملك:

في ذلك الحين ظهر جماعة من آل باعلوي أرادوا الملك، فسعوا له سعيًا حثيثًا،

(١) قيل إن نزاعًا حدث في شِبَام بين السلطان عوض والأمير صلاح، وأن الأمير محمد بن عمر القُعَيْطي انضم إلى الأمير صلاح، ولكننا لا نعرف شيئًا عن أسباب ذلك الخلاف، وليس بين أيدينا دليل يثبت صحة ذلك.

وكان في مقدمة هؤلاء عقيل بن عبدالله بن يحيى باعلوي، كان هذا الرجل سياسيًا ماهرًا في فنون الإغراء والتحريش، حاد الذكاء، سريع البداهة، قوي الحجة، عالي الهمة، كبير النفس، بيد أنه كان سيء الحظ، تأتيه الأمور بعكس ما يريد، سعى لآل كثير ضد يافع توصلًا إلى أغراضه فلم يفلح بغير الخسران، وسعى ليافع ضد آل كثير فكان عاقبته الوبال. لكن ذلك لم يضعف همته، ويوهن سعيه، ويخمد حركته وراء مآربه، فقد ذهب إلى الحُمُوْم ليجمع جيشًا منهم ضد آل كثير، فرأى أن الأمر يفتقر إلى المال، ثم ذهب إلى آل تميم لذلك الغرض، فرأى أن الحجة تدعو إلى الإنفاق أيضًا، لذلك كتب إلى أخيه عوض بن عبدالله بن يحيى باعلوي بسنقفورة وطلب إليه أن يجمع مالًا يتوصل به إلى أغراضه ومطامحه، وكان عوض رجلًا متظاهرًا بالورع والصلاح حتى وثقت به الناس الثقة التامة، فهب يعمل لجمع المال، وما هي إلا بضعة شهور حتى جمع مالًا كثيرًا من العطايا والهبات، وصار له عملاء في بعض البلدان، ومن أكبر عملائه سلطان كوتيه وسلطان فاري، فقد كانا يرسلان له التبر أرطالًا رغبة في البركة وطول العمر، وكان بعض التجار يثقون به ويودعونه أموالهم، ومنهم بعض الأجانب مثل هافر تقلري ومرتين ديس وري منر، وبعد أن جمع أموالًا جمّة هرب خفية إلى عدن ومنها مشى برًا إلى حضرموت، ثم ذهب إلى آل تميم وحرضهم على احتلال تَرِيْم وأمطر عليهم العطايا، فأصبح آل تميم يشاكسون ويناوشون آل كثير في تَرِيْم ولكن من غير جدوى، وعاد عوض بخفي حنين. ثم إنه رأى أن يستند إلى يافع ويستعين بقوتهم ضد آل كثير؛ فسافر إلى المُكَلَّا ونزل ضيفًا في قصر الأمير صلاح بن محمد الكسادي اليافعي، وبذل غاية جهده في تحريكه للهجوم على سَيْئون وتَرِيْم، ولكن الأمير لم يرضَ بذلك، وأجابه بأن الظروف تقتضي المحافظة على مركزه والدفاع عنه. ولما رأى أن الأيام تذهب عليه سدى والليالي تمر بدون جدوى عاد إلى بلده، ثم ذهب إلى السلطان

غالب بن محسن الكثيري يحرضه على احتلال الشِّحْر متعهدًا له أنه سيضم إلى صفه الحُمُوْم فلم يفلح أيضًا، ثم رأى أن يرحل إلى المُكَلَّا ويكبِّر آل كثير في عيون يافع ويعظِّم قوتهم أمام الأمير صلاح، وفعلًا سار إليه وأنبأه أن آل كثير ومن يلحق بهم على أتم استعداد لاحتلال المُكَلَّا فلم يفلح أيضًا، وعاد إلى سَيْئون، وهناك وجد جماعة من آل باعلوي وعلى رأسهم محسن بن علوي السقاف يتباحثون في الوسائل التي تعيد الحرب جذعة بين يافع وآل كثير معتقدين أنهم لن ينالوا آمالهم إلا إذا اصطدمت الدولتان اصطدامًا يقضي على حياتهم أو حياة إحداهما، ساروا إلى السلطان غالب بن محسن الكثيري وإلى أخيه الأمير عبدالله وإلى الأمير عبود بن سالم لتحريضهم على احتلال الشِّحْر، ولكن من حسن حظ الدولتين ومن سوء حظ هؤلاء لم ينجحوا كثيرًا ولا قليلًا فيما أرادوه.

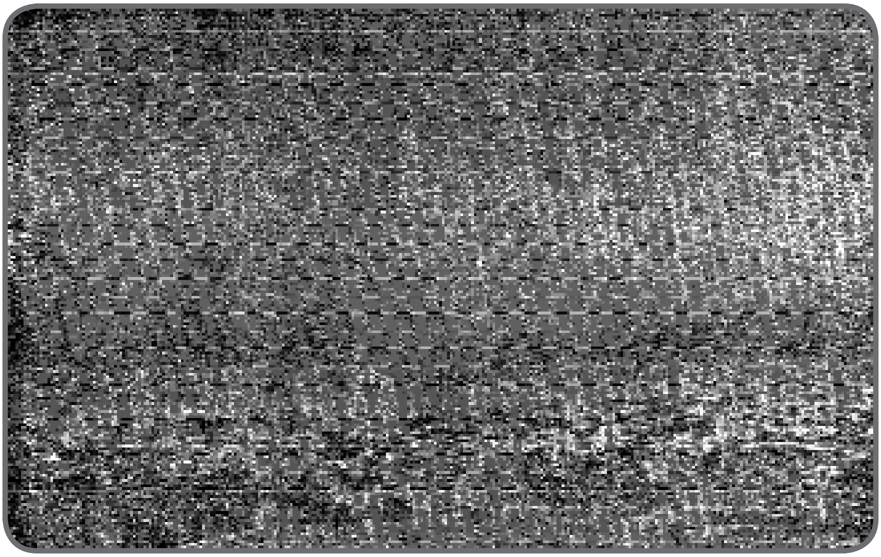
وفاة السلطان غالب بن محسن الكثيري:

في شهر رجب سنة ١٢٨٧هـ توفي السلطان غالب بن محسن الكثيري في سَيْئون عن ٦٤ سنة قضى أغلبها في الحرب والإمارة، وكان قائدًا مقدامًا وسلطانًا حازمًا عادلًا في حكمه رحيمًا. كان أعظم رجل في آل كثير بعد السلطان بدر بوطويرق وأعظم شخصية بارزة، أنفق ثروته لخدمة قومه وإعلاء شأنهم ورفع مقامهم، أحيا العظام وهي رميم، أحيا ملك آبائه بعد اندثاره، فهو يعتبر المؤسس الأول للدولة الكثيرية الفتية.

امتداد سلطة يافع على الشواطئ:

في أواخر سنة ١٢٨٧هـ أرسل السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي ٣٠٠ رجل من يافع إلى قرية الحامي واحتلوها من غير حرب، ثم سار الجيش إلى رأس باغشوة واحتلوها بدون حرب، ثم احتلوا القَرْن والدِّيس دون أن يلقوا أمامهم مقاومة شديدة.

وفي أواخر سنة ١٢٨٨هـ أرسل إلى قُصَيْعَر ٥٠٠ رجل من يافع، وكان فيها جماعة من الحُمُوْم، فثارت الحرب بين الفريقين، وقتل من الحُمُوْم سبعة ومن يافع ثلاثة واحتلوها.



سَيْئون كما هي الآن

محاولة آل كثير احتلال شِبَام:

في شهر ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ سار كثير من يافع من أهل شِبَام إلى قرى القَطْن لقضاء أيام العيد بين أقربائهم، ولم يبق في المدينة منهم سوى الأمير عبدالله بن عمر القُعَيْطي و٢٩ رجلًا من يافع و١٥٠ من العبيد، فانتهز هذه الفرصة آل كثير وهجموا يوم الزينة على شِبَام ودخلوها، وأخذ بعضهم يكسرون أبواب الدكاكين، وينهبون المتاجر والنقود، وكان يافع أرسلوا إلى قومهم في قرى القَطْن يطلبون منهم المدد، فجاءهم أولًا سبعون رجلًا من آل علي جابر، ثم جاء ٥٠٠ رجل من أفخاذ يافع، فزادت الحرب اشتعالًا في شِبَام، وأقفرت شوارع المدينة من الناس سوى يافع

وآل كثير، وكان الأمير عبدالله بن عمر القُعَيْطي يطوف على المراصد اليافعية راكبًا فرسه يحثهم على الإقدام والاستمرار في الحرب إلى النهاية. وكان يمر أحيانًا بين آل كثير فيحسبونه أحدًا من آل باعلوي، إذ كانت ملابسه بيضاء، وكانت عمامته كبيرة، فانكسر آل كثير، وانسلوا من شِبَام أفرادًا وجماعات، وكان عدد القتلى من يافع ٧، ومن آل كثير ٢٥، دفن منهم عشرون في بقعة أمام باب شِبَام يقال لها الآن نخل عشرين.



المُكَلَّا

اهتمام الكسادي بالمُكَلَّا:

اهتم الأمير صلاح بن محمد الكسادي بالمُكَلَّا، فقد بذل أقصى مجهوده في تدبير شؤون الرعايا، والإشراف على مصالحهم العامة، وتنظيم الجيش، وكانت حالة المُكَلَّا يومئذ أحسن من الشِّحْر، وأكثر رخاء، وأوفر راحة وهناء، حتى هبطها خلق كثير من حضرموت الداخلية، ومن عدن، وما انفكت نفسه تطمح في توسيع

ملكه، ومد نفوذه، فأرسل إلى دَوْعَن جيشًا تحت قيادة النقيب مجحم، فاحتل قرى كثيرة.

وفي أثناء الحرب توفي الأمير صلاح بن محمد الكسادي اليافعي، فزلزل الناس لوفاته زلزالًا شديدًا، وكادوا يصعقون لشدة الحزن عليه، فقد كان رجلًا شهمًا كريمًا شريفًا، لقد كان لهم أبًا شفوقًا يؤلمه ما يؤلمهم، ويفرحه ما يفرحهم.

وقام بالأمر بعده ابنه الأمير عمر بن صلاح الكسادي اليافعي، وكان لا يقل عن أبيه في الحكم والحزم والإخلاص لشعبه، والتفاني في خدمته، كان عزيزًا إلى أقصى درجات العز شريفًا إلى أقصى درجات الشرف. وقد كان يقوم مقام أبيه في الحكم وتدبير شؤون الأهلين، ويتولى قيادة الجيش في ساحات القتال.

انتهى الجزء الأول، ويليه: الجزء الثاني

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	**الصفحة**

الموضوع	الصفحة

تاريخ حضرموت السياسي

مُزيَّن بالخرائط والصور والرسوم الفنية

(الجزء الثاني)

تأليف

صلاح البكري



مدينة المُكَلَّا كما هي الآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخلاف بين القُعَيْطي والكسادي

كان أمير المُكَلَّا صلاح بن محمد الكسادي اليافعي يقوم في بادئ بدء بمساعدة السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي في حروبه ضد آل كثير بما يقدمه له من رجاله على حسابه الخاص، ولكنه كان جوادًا يدفع مرتبات جنوده في المُكَلَّا وبُرُوْم بسخاء، ويبذل من ماله لإصلاح شؤون الأهلين ما يتجاوز المقدور حتى أمسى الخارج أكثر من الداخل، ومما زاد الطين بلة، والخرق اتساعًا، تناقص حاصل الجمرك في المُكَلَّا حتى ارتبكت أحوال الأمير، واضطربت شؤونه المالية، ولما جهز السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي للحرب ضد آل كثير في سَيْئون أراد أن يجهز رجاله ويضمهم في صف جنود القُعَيْطي ولكنه عاجز عن القيام بتكاليف التجهيز، لذلك اقترض من السلطان عوض مائة ألف ريال على أن تبقى في ذمته يدفعها إليه متى استطاع إلى ذلك سبيلًا.

زحف القُعَيْطي والكسادي بجنودهما شطر سَيْئون، فالتقى بهم آل كثير والعوامر وآل باجِرِي في الغييضات، فانكسر يافع وعادوا إلى شِبَام، ثم حدث بين السلطان القُعَيْطي والأمير الكسادي خلاف، فأخذ السلطان جنوده وعاد بهم إلى الشِّحْر، ثم عاد الأمير بجيشه إلى المُكَلَّا، وأراد الأمير الكسادي أن يمد نفوذه في شمال حضرموت ويوسع نطاق حكمه، فأرسل جيشًا تحت قيادة النقيب مجحم إلى دَوْعَن، واحتل قرى كثيرة، ولما توفي الأمير صلاح بن محمد الكسادي، وتولى

إمارة المُكَلَّا ابنه عمر بن صلاح نهض السلطان عوض يطالبه بمائة الألف، ولما ظهر له عجز الأمير عن الدفع أخذ يعد معداته للهجوم على المُكَلَّا والاستيلاء عليها، وعلم الأمير عمر بذلك، فاستقدم جنوده الذين في دَوْعَن ليحصن بهم المُكَلَّا ويدافع عن إمارته، ولكن دهاء السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي كان عظيمًا، فقد بعث ١٥٠ رجلًا وعلى رأسهم الأمير عمر عوض القُعَيْطي إلى المُكَلَّا بصورة ضيوف، ولما اقترب هؤلاء من المُكَلَّا أرسلوا إلى الأمير الكسادي يطلبون إليه السماح لهم بدخول المُكَلَّا للتفاهم معه في المشاكل المختلف عليها، ولكنهم لم ينتظروا الرسول فقد داهموا المُكَلَّا، فبهت الأمير الكسادي لجرأتهم ولكنه تجلد وكتم غيظه، وتظاهر لهم بالبشاشة والاستعداد للتفاهم معهم بالتي هي أحسن، ولكن الأمير عوض ورجاله أخذوا يطالبونه بالمبلغ ويرسلون إليه إنذاراتهم؛ الأمر الذي جعل الأمير الكسادي يجمع كبار رجاله ويستشيرهم في الأمر، فبعثوا إلى آل كثير يطلبون منهم المدد؛ لإخراج القُعَيْطي ورجاله من المُكَلَّا، وكادت الحرب تثور بين القُعَيْطي والكسادي، ولكن بعضًا من أعيان المُكَلَّا سعوا في إصلاح ذات البين وأقاموا صلحًا بين الفريقين على أن يحتل عمر عوض القُعَيْطي نصف المُكَلَّا، ويأخذ نصف حاصل الجمرك، حتى إذا انتهى الدَّين يتخلى عن المُكَلَّا ويعود إلى الشِّحْر، ولقد سعى عمر عوض مع شيء من الشدة والجلافة في بسط نفوذه في المُكَلَّا، وكان يأخذ من حاصل الجمرك حسب ما يريد، فشكاه الأمير عمر صلاح إلى السلطان عوض، فأرسل السلطان سعيد بن علي النقيب ليقوم مقام عمر عوض، ولقد نشأت بين سعيد والكسادي صداقة وولاء، وكان الأول سليم النية صافي السريرة لذلك استطاع أن يملكه الكسادي ويتسيطر عليه. أخذ الأمير الكسادي يوطد مركزه ويقوي عضده؛ ينشئ المراصد ويبني الحصون بين المُكَلَّا والحرشيات، وابتاع بضعة مراكب شراعية كبيرة، واستقدم بعض رجاله الذين في

دَوْعَن، وحصن بهم الحرشيات، وكان أكثر يافع الذين في المُكَلَّا في صفه، ولم يكن سعيد بن علي النقيب يعلم بحركة الكسادي ونشاطه في تحصين البلد واستعداده للحرب ضد القُعَيْطي وحزبه، أو لعله علم بذلك ولكنه لم يكن يفقه شيئًا من تلك الحركات، ولم يتوجس منها خيفة على مركزه لشدة حسن ظنه بصديقه الكسادي، ولكن السلطان عوض علم بحركة الأمير الكسادي ونشاطه حول تقوية مركزه، وتوطيد حكمه، فخاف العاقبة لا سيما حينما بلغه استنجاده بآل كثير، خاف أن يثور الأمير على نائبه سعيد بن علي وجماعته ويخرجهم من المُكَلَّا، بل خاف أن يهجم بقومه على الشِّحْر ويحتلها، لذلك بعث السلطان عوض جيشًا تحت قيادة عبدالخالق الماس إلى تَريْم لمحاصرتها، وليشغل بال آل كثير، ويقلق راحتهم، ويلقي في قلوبهم الرعب كيلا يستطيعوا إرسال النجدة لأمير المُكَلَّا، وبلغ ذلك الكسادي فخمدت همته وتضاءل نشاطه؛ لأن اعتماده على آل كثير كان عظيمًا، فعادت الطمأنينة إلى المُكَلَّا، وساد السكون الأهلين، وهدأت خواطر الخصمين.

حينما حاصر يافع تَريْم لم يبدِ آل كثير مقاومة تذكر؛ لأنهم كانوا يخافون سقوط سَيْئون وتَريْم من أيديهم، ولما طال أمد الحصار عرضت الحكومة الكثيرية خمسة عشر ألفًا من الريالات لعبدالخالق الماس ليفك الحصار ويعود بالجيش إلى الشِّحْر فامتنع، ثم صادف أن جاءه أمر من السلطان عوض بفك الحصار وعودة الجيش إلى الشِّحْر.

استفحال الفتنة من جديد

كانت بين الأمير عمر بن صلاح الكسادي وبين محسن بن عبدالله العولقي صداقة متينة، وكان للأخير نفوذ قوي لدى حكومة حيدر أباد وولاة الأمور من الإنجليز في بومبي، وكان يضمر للقُعَيْطي من العداء شيئًا كبيرًا، فقد حارب القُعَيْطي أباه في الغيل، وانتصر عليه، وهدَّ حصنه المسمَّى (الصداع)، فهو بالطبع يكون على

أتم استعداد لمناصرة كل من يقوم ضد يافع وبالأخص ضد رئيسهم القُعَيْطي، وحينما بلغه ما حصل بين يافع في المُكَلَّا من التخاصم والتنازع سُرَّ السرور العظيم، وأبلغ الأمير الكسادي اليافعي بأنه على استعداد لمؤازرته ومناصرته ضد السلطان القُعَيْطي اليافعي، لذلك أرسل إليه الكسادي ليسعى لدى الإنجليز في بومبي لاستقدام السلطان عوض إلى المُكَلَّا؛ كي يتسنى له إحاطته بقوته، والتضييق عليه من كل جانب، وإرغامه على التنازل عن كل مطالبه، وفعلًا أرسلت حكومة بومبي باخرة إلى الشِّحْر وأتوا بالسلطان عوض إلى المُكَلَّا، وكان الأمير الكسادي في انتظاره، ولكن السلطان القُعَيْطي أدرك الحيلة، فنزل من الباخرة خفية في سنبوك، وقصد بيت نائبه في المُكَلَّا سعيد بن علي النقيب ثم أبحرت الباخرة، فاندهش الكسادي وكان رجاله في الميناء في انتظاره، وظنوا أن خصمهم لم يأتهم، ولكن سرعان ما فوجئوا بخبر وجوده في قصر نائبه، وكان السلطان عوض قد أعدَّ رجاله للقيام ضد أمير المُكَلَّا وحزبه، فثارت الحرب بين الفريقين في المُكَلَّا ولكنها كانت أشبه بمناوشات، وفي النهاية رأى السلطان عوض أن لا فائدة له في التظاهر بالعداء والخصام ضد الأمير الكسادي، وخاف أن تزداد الفتنة وتدور عليه الدوائر لأن رجاله كانوا قليلين، وفي الوقت نفسه خاف أن يوعز لآل كثير بالهجوم على الشِّحْر؛ لذلك طلب إلى الكسادي إيقاف الحرب لينسحب من المُكَلَّا، ويعود هو ورجاله إلى الشِّحْر، فأجابه إلى ذلك.

وقعة التخم المشهورة

علم آل كثير بتفاقم الفتنة بين القُعَيْطي والكسادي واتساع نطاقها، وقد استنجد بهم الكسادي، وألحَّ عليهم في القدوم، فلم يسعهم يومئذٍ غير انتهاز الفرصة السانحة، فسار منهم ١٤٠٠ إلى المُكَلَّا، فعلم بهم يافع في الشِّحْر، وأراد عمر عوض أن يعارضهم قبل أن يدخلوا حدود المُكَلَّا فمنعه السلطان عوض وأمره

بالبقاء في الشِّحْر للدفاع، فلم يجبه إلى طلبه، فسار وبصحبته جماعة من يافع والعبيد إلى الغيل، وطلب إلى واليها سعيد أحمد عامر الحضرمي اليافعي أن يجهز جيشه لحرب آل كثير، ومنعهم من الدخول من حدود البنادر، فامتنع أيضًا وأراد المحافظة على الغيل بمن فيه من الجيش. أما الأمير عمر عوض القُعَيْطي فقد أظهر من الثبات والإصرار على حرب آل كثير ما استحق الإعجاب والتقدير من قومه، سار الأمير بجيش لا يزيد على ٣٠٠ رجل لملاقاة جيش لا يقل عدده عن ١٤٠٠ رجل، وهذه مجازفة بلا شك، ولكن نفس الأمير أكبر من جسمه، وبسالته تجاوزت حد المعقول، ولما رأى سعيد أحمد الحضرمي إصرار الأمير عمر عوض على الحرب لحقه بمائتي رجل، ووجده قد أنشأ المراصد في التخم وحصنها برجاله، ولما انحدر آل كثير من أعلى الجبل إلى التخم في طريقهم إلى المُكَلَّا ثارت الحرب بين الفريقين، وكانت المراصد التي أنشأها عمر عوض وسعيد أحمد غير منظمة تنظيمًا فنيًا حربيًا لوجود خلاف بين القائدين، وقد أحاط آل كثير بتلك المراصد وأمطروها وابلًا من طلقات بنادقهم، وهجموا على مرصد الأمير عمر عوض وقتلوه وجزوا رأسه، ثم هجموا على مرصد سعيد أحمد وقتلوه وجزوا رأسه وزفوا برأسيهما، ولما رأى يافع انتصار آل كثير انسحبوا، وكان عدد القتلى منهم ٤٥ شخصًا، ومن آل كثير ١٢ شخصًا، والجرحى من الفريقين كثيرون، وكان ذلك سنة ١٢٩٧هـ، واستمر آل كثير في زحفهم إلى المُكَلَّا، ولما وصلوا إلى الحرشيات وأرادوا الذهاب إلى المُكَلَّا أمرهم الأمير الكسادي بالبقاء في الحرشيات خوفًا منهم أن يحتلوا المُكَلَّا ويتولوا إمارتها، ثم أراد آل كثير احتلال شُحَيْر التي تبعد عن الشِّحْر بنحو ١٢ ميلًا، ولكنهم لم يستطيعوا، وقد مرت عليهم بضعة شهور دون أن ينالوا غرضهم فعادوا إلى سَيْئون.

تدخل الإنجليز بين القُعَيْطي والكسادي

سافر السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي إلى عدن، وأخذ يشكو أمير المُكَلَّا ودسائسه لدى الإنجليز، وقد استطاع بدهائه أن يملك قلوب ولاة الأمور هناك ويجعلهم في صفه، فتوسطت محكمة عدن في الصلح بعد أن رضي الخصمان بحكمها على أي حال، وكتبت على وثيقة وقَّع عليها الثلاثة، فصدر الحكم على غير ما يرومه الأمير الكسادي، فقد خيرته المحكمة إحدى ثلاث: إما أن يتسلم من السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي مائتي ألف على ما في ذمته ويتخلى عن الإمارة كلها، وإما أن يدفع المائة الألف في الحال، وإما أن يتسلم مائة ألف أخرى ويتنازل عن إمارة المُكَلَّا، وينتقل هو إلى بُرُوْم التي تبعد عن المُكَلَّا بنحو ١٤ ميلًا، ولكن الأمير الكسادي رفض ذلك، ورمى محكمة عدن بالميل والتحيز للقعيطي، وعدم مراعاة العدل في الحكم، ثم رحل إلى المُكَلَّا غضبان أسفًا، وبعد أسبوع جاءته بارجة حربية إنجليزية نزل منها ضباط إنجليز وساروا إلى الأمير عمر صلاح الكسادي وأنذروه أنه إذا لم يقبل الحكم فإنهم يضطرون لضرب المُكَلَّا بالمدافع، وأمهلوه ثمانية أيام ريثما يعد معداته للرحيل. أما الأمير الكسادي فقد رفض حكم المحكمة بعزة وكبرياء، وحاول أن يقاوم الإنجليز بكل مستطاع ولكنه وجد أمامه بارجة إنجليزية ضخمة، ورأى مدينة المُكَلَّا معرضة لصواعق تلك المدافع الكبيرة، ثم إن السلطان القُعَيْطي بعث بألف وخمسمائة رجل إلى البقرين لمحاصرته فهو أمسى بين نارين: أمامه البارجة الإنجليزية، ومن ورائه جيش القُعَيْطي، فرأى أنه لا طاقة له بالمقاومة، ولا قِبَل له بالمعارضة، ففضل الرحيل رحمة بمن في المُكَلَّا من النساء والرجال والولدان. أخذ يعد معداته ويجمع ما أمكنه حمله من ماله وأمتعته، وفي اليوم الثامن شحن ١٣ مركبًا شراعيًا، وأبحر هو وعائلته إلى عدن تشيِّعه البارجة الإنجليزية وفيها ٥٠٠ من رجال القُعَيْطي، وحينما مروا أمام بُرُوْم طلب الإنجليز

إلى الكسادي أن يأمر نائبه في بُرُوْم بالتخلي عنها فامتنع وقال لهم: نائبي ورجاله أمامكم أخرجوهم إن شئتم، فأرسلوا إلى حاكم بُرُوْم فامتنع عن التنازل، وأخذ يطلق مدافعه على البارجة فأطلق الإنجليز مدافعهم وخربوا حصنه، ثم نزل يافع أصحاب القُعَيْطي من البارجة وزحفوا على بُرُوْم واحتلوها، ثم استأنفت البارجة سيرها إلى عدن، وأخذ الأمير الكسادي يحتج على المحكمة، ويتظلم لديها من السلطان القُعَيْطي، ورجاها أن تحكم بدفع المبلغ بالتقسيط، فلم تعره المحكمة التفاتًا، ولم تقم لكلامه وزنًا، ثم أبحر إلى زنجبار دون أن يأخذ المائتي ألف من القُعَيْطي التي حكمت المحكمة بها تعويضًا لتخليه عن إمارة المُكَلَّا وملحقاتها، وكان ذلك سنة ١٢٩٩هـ.

تألم أهل المُكَلَّا لفراق أميرهم

غادر الأمير عمر صلاح الكسادي اليافعي المُكَلَّا، وقلوب الأهالي تكاد تنفطر أسفًا على فراقه. لقد كان لهم أبًا شفوقًا، وحاكمًا رؤوفًا، أنفق ماله وبسط يده كل البسط في إصلاح شؤونهم وعمران بلادهم وحماية ذمارهم، لم يستأثر بشيء لنفسه، ولم يدَّخر له ولا لأقربائه مالًا كثيرًا ولا قليلًا، ولو كان أراد المال وطمع في حطام الدنيا لاستطاع أن يكوِّن له ثروة عظيمة، ولكنه كان يرى أن الأمة شريكة له في السراء والضراء، وفي العسر واليسر، وأن الوارد إلى الخزينة إنما يحفظ لينفق لإصلاح شؤون الشعب. لم يكن الأمير الكسادي بضعيف العقل ولا بقصير النظر وليس هو جبانًا أو ذا شخصية ضئيلة، فقد كان قوي العقل بعيد النظر شجاعًا مهابًا، ولكن جيبه كان فارغًا من المال، وما كان السلطان القُعَيْطي يستطيع التغلب عليه لولا خصوبة يده وغزارة ماله، وما كان هذا المال وحده يستطيع إخراج الأمير الكسادي من المُكَلَّا لولا تدخل الإنجليز في الأمر، على أن الكسادي أقدم من القُعَيْطي في صداقة الإنجليز، وأكثر منه ولاء لوالي عدن، ولكن السياسة كثيرًا ما تغض النظر وتلوي

الكشح عن الصداقة أو القرابة متى كانت الغاية محمودة، والغاية عند الأوروبيين تبرر الواسطة، والإنجليز من أكثر الأمم تناسيًا للصداقة متى ما نضبت منافع هؤلاء أو جاءهم من هو أوفر منهم مالًا وأخصب يدًا من أصدقائهم الأقدمين.

الحالة السياسية في عهد السلطان عوض

عاد السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي إلى الشِّحْر وهو مملوء بالآمال العظام، نظَّم شؤون الأهالي وجعل عليهم أخاه الأمير عبدالله بن عمر القُعَيْطي اليافعي، وجعل على الغيل الأمير منصر، وسار هو إلى المُكَلَّا وجعلها مركزًا لحكومته، وجعل على بلاد القَطْن الأمير صلاح بن محمد القُعَيْطي اليافعي حاكمًا من قبله، وأول عمل اهتم به هو تنظيم الجيش حيث أدخل كثيرًا من يافع في الجندية، وابتاع عبيدًا وضمهم إلى الجيش، وجلب من الخارج سلاحًا كثيرًا، وعقد صلحًا مع الحُمُوْم الذين كانوا ينهبون السابلة ويقطعون، وأرضاهم بالعطايا، فانتشر الأمن بين الشِّحْر والمُكَلَّا، وساد السلام أرجاء البنادر.

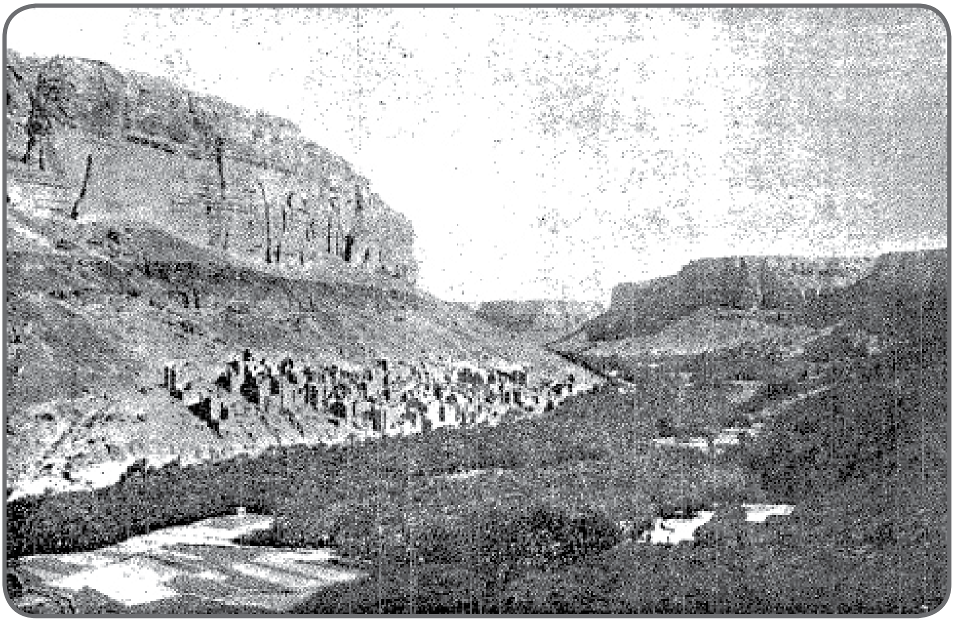
احتلال دَوْعَن

يجمل بنا قبل أن نتناول بالشرح احتلال دَوْعَن أن نلقي نظرة عجلى عليها في عصر ما قبل القُعَيْطي اليافعي حتى نلم إلمامة سريعة بحالتها السياسية والاجتماعية.

تشمل بلاد دَوْعَن جزءًا كبيرًا في شمال حضرموت الجبلي، وتتفرع إلى فرعين كبيرين، يقال لأحدهما الأيمن، وللآخر الأيسر، كل منهما يشبه المثلث الحاد الزاوية تحيط به الجبال الشاهقة الداكنة الجرداء، وفي المناطق المنخفضة يوجد عالم من الفتنة والجمال؛ تسطع الشمس بأشعتها اللامعة على الوادي الساكن العديم الحركة، وبين حقول الذرة الخضراء التي تسقى بالسيل تنتشر أحراج النخيل تطاول السماء، يخترقها شريط ناصع أبيض كالثلج هو قاع السيل، والقرى متناثرة بين كل ذلك، وهي لا تتصل ببعضها في سهولة؛ لوعورة الأرض والتواء أديمها،

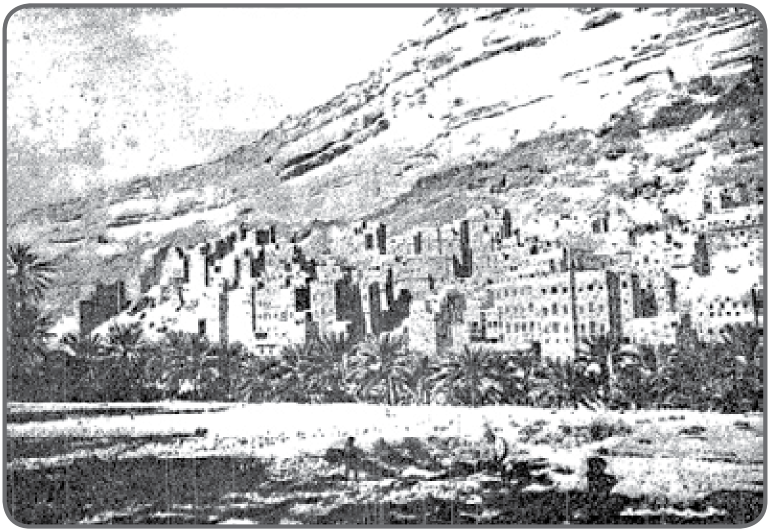
والقادم من الشمال لا يرى شيئًا من دَوْعَن إذ تحجزه الهضاب الشامخة، وتنحدر تلك الحيطان الجبلية انحدارًا هائلًا يبلغ ٩٠٠ قدم.

والدَّوْعَنيون لم يكونوا أمة واحدة تشرف عليها حكومة واحدة، بل كانت كل مدينة مستقلة تحكم نفسها بنفسها، وتخضع لزعيمها خضوع العبد لسيده، وهم يشبهون إلى حد كبير الإقطاعيين في القرون الوسطى (Feudalism)، وكان معظم تلك المدائن بالغًا من الصغر حدًا بعيدًا حتى لم يتجاوز عدد سكان بعضها عددًا ضئيلًا من الناس، ولقد أدى تفرق القوم في مدائن أو بعبارة أوضح في مقاطعات إلى تنافرهم وتناكرهم فتولد بينهم شعور المنافسة، وتمكنت في نفوسهم العصبية للمقاطعة.



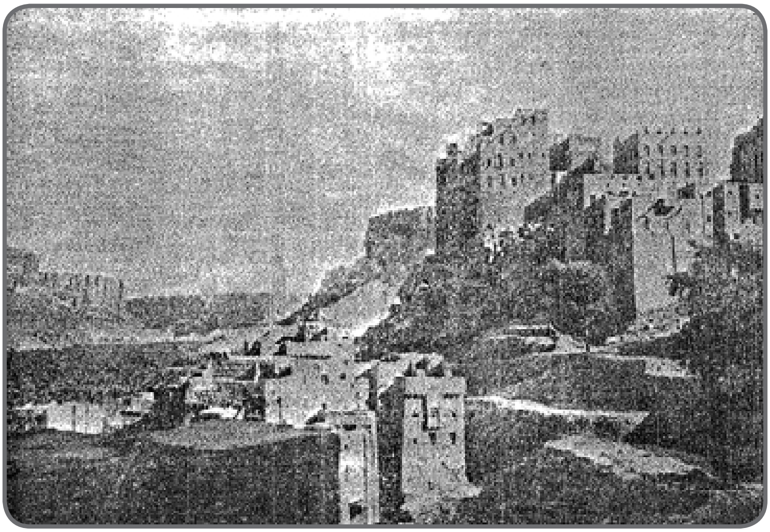
وادي دَوْعَن

وفي الهضاب العالية تسكن قبائل بادية كالقثم والدَّيِّن، وكل المتسلحين مشاغبون محبون للحرب لم يخضعوا لحكومة أجنبية إلا بعد معاناة الأمرّين، ولقد استطاع الحاكم

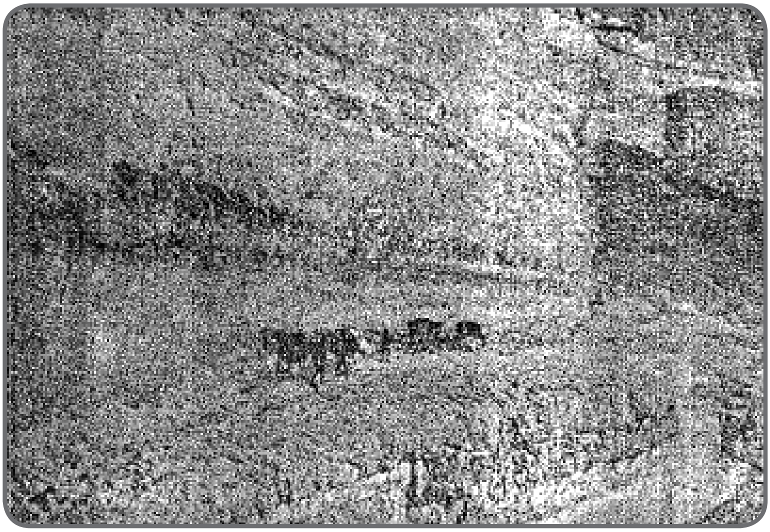


مدينة في دَوْعَن

الكثيري أن يهدئ أعصابهم الثائرة، ويوجد بينهم كثيرًا من الأمن والصلاح، ولما انكمشت الحكومة الكثيرية، وتقلص ظلها تمرد قبائل دَوْعَن، وكانت النتيجة أن تلاشى الحكم الكثيري في دَوْعَن وزال رسمه، فعاد الدَّوْعَنيون إلى ما كانوا عليه من



مصنعة (قلعة) باصرّة في دَوْعَن



عقبة دَوْعَن

قبل من التفرق والتنازع والتشاحن، وحينما احتل الكسادي اليافعي جانبًا من دَوْعَن عادت الطمأنينة وساد البلاد السكون، ولكن حينما سحب الكسادي جيشه سنة ١٢٨٧هـ تعكر الجو، وطالت أيدي الأقوياء على حقوق الضعفاء؛ ففقد الأمن، وانتشرت الفوضى، وتفاقمت الخطوب.

واستطاع الزعماء في ذلك الجو المظلم المشبع بالقلاقل والزلازل والمحن والفتن أن يكوِّنوا لهم إقطاعات، ويخلقوا لهم نفوذًا وسلطانًا، وما أشبههم بالأشراف في عهد الإقطاع، ولم يكن لأولئك الرؤساء رابطة تربطهم ولا مرجع أعلى يرجعون إليه، فكل منهم هو الرئيس الأعلى، وهو الكل في الكل، لا يرد له أمر، ولا يسأل عما يفعل، ينهبون أموال الأهالي ويكنزونها لأنفسهم، والويل كل الويل لذلك الذي يمتنع عما يطلبه منه الحاكم، وكان المقدم عمر بحمد باصرّة يسكن قرية الرشيد، وهو الحاكم المطلق فيها، ولكنه كان بالنسبة لغيره من الولاة محبوبًا بعض الحب للطفه وظرفه وحسن معاملته، وكان يخضع لحكمه من قبائل

الخامعة وهم فرع من سيبان يقال لهم الزي. وكان لآل عمودي في دَوْعَن العليا نفوذ دونه كل نفوذ، وسلطة دونها كل سلطة، ولم ينالوا هذا النفوذ المطلق بقوة الحديد والنار، وإنما جاءتهم بواسطة السلطة الروحية التي انحدرت إليهم من المرحوم الشيخ سعيد العمودي؛ فقد كان هذا الرجل عالمًا صالحًا ورعًا مشهورًا بالتفاني في إصلاح الناس وهدايتهم إلى الصراط الأقوم؛ حتى احترمه الشعب وانقاد له وكاد يعبده.

ويسكن الولاة من آل عمودي في الخُرَيْبة وهي عاصمة دَوْعَن وبَضَّة وملحقاتها، وأتباعهم من القبائل هم سكان الهضاب الغربية كقبيلة القُثْم من سَيْبان وقبائل الدَّيِّن، وهؤلاء يدافعون عن العمودي بكل ما لديهم من قوة دون أن يأخذوا أجرًا؛ لأن لهم معهم مصالح سياسية وعلائق اقتصادية، ثم إن لقبائل الدَّيِّن اعتقادات خرافية في المرحوم الشيخ سعيد العمودي يقدسون ضريحه ويستغيثون به من دون الله، فهم إنما يدافعون عن آل عمودي بدافع سلطة هؤلاء الروحية، وبالرغم من أن الحكام في بضة والخريبة والرباط وغيرها هم من آل عمودي؛ فإن كلًا منهم حبله على غاربه لا يرتبط بالآخر في شيء ما، يحكم مقاطعته بما تلهمه نفسه وما تدفعه إليه إرادته دون أن يتقيد بشيء، ودون أن يصغي لنصيحة الناصحين وإرشاد العالِمين، وعلاوة على ذلك فإن التنافس والتخاصم والتشاحن قائم بين ابن مطهر صاحب بضة، وابن علي باكريم، وآل عمر باحسين، وآل محمد بن سعيد وغيرهم من بيوتات العمودي، وهذا التخاصم كان من أعظم الأسباب التي ساعدت يافعَ على احتلال دَوْعَن كما سيأتي ذلك.

التجاء الدَّوْعَنيين إلى حكومة القُعَيْطي

قلنا إن ولاة دَوْعَن لم يعملوا للنفع العام، ولم يؤدوا بعض ما عليهم من الإصلاح نحو الشعب، وكانت أغراضهم كلها محصورة فيما يعود عليهم بالنفع المادي فقد

أرهقوا الناس، وبالأخص الموسرين بطلباتهم، واستبدوا في أموالهم، وأرغموهم على تنفيذ ما يشتهون، ولقد ضاق الأهلون ذرعًا، وبلغت قلوبهم الحناجر، كرهوا أولئك الولاة ومقتوهم كل المقت، وبالرغم من ضغط الحكام عليهم وخنق حريتهم وإرادتهم، فقد نهض الدَّوْعَنيون في دَوْعَن وفي عدن، وبعثوا إلى السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي يستنجدونه ويستغيثون به ويرجونه احتلال بلادهم؛ لإقامة العدالة وحفظ النظام وبث السلام، ولما بلغ ذلك إلى العمودي حاكم الخريبة خاف على مركزه من الانحلال، وهو يعلم كل العلم أن القُعَيْطي إذا جاء بجيشه لا شك يحتل البلاد؛ لأن الأهالي يكرهون حكامهم كل الكراهة، ولأن الحكام أنفسهم ليسوا على وفاق ووئام، كل منهم يود أن يأكل لحم أخيه ميتًا.

أراد السيد العمودي أن يحافظ على مركزه ويوطد دعائم سلطته، أراد أن يمد في نفوذه، ويوسع نطاق أمره، فلجأ إلى السلطان القُعَيْطي وطلب إليه إرسال جيش على حسابه الخاص؛ ليخلص البلاد من ظلم ولاتها، ويقيم فيها العدل، وينشر الأمن، حتى إذا كان النصر في جانبه سلم مقاليد الأمور إليه وتنحى هو في مدينة الخريبة، وأراد القُعَيْطي أن يجيبه إلى ذلك، ولكن من سوء حظ العمودي أن جاء السيد حسين حامد المحضار وباصرّة إلى السلطان، وهدما ما بناه العمودي من الآمال العظام، فقد استطاع باصرّة بسياسته ولباقته وبمؤازرة المحضار له أن يستميل إليه السلطان ويضمه إليه، وعاهده أنه إنما سيقدم نفسه وقومه كجنود للجهاد في سبيل احتلاله دَوْعَن.

زحف يافع على دَوْعَن

جمع السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي كبار يافع واستشارهم في الأمر، فقرَّ رأيهم على احتلال بلاد دَوْعَن وتخليصها من أولئك الولاة الجبارين، فأرسل السلطان ٢٠٠ جندي من يافع وعليهم عبدالخالق الماس، وكتب إلى السلطان صلاح بن

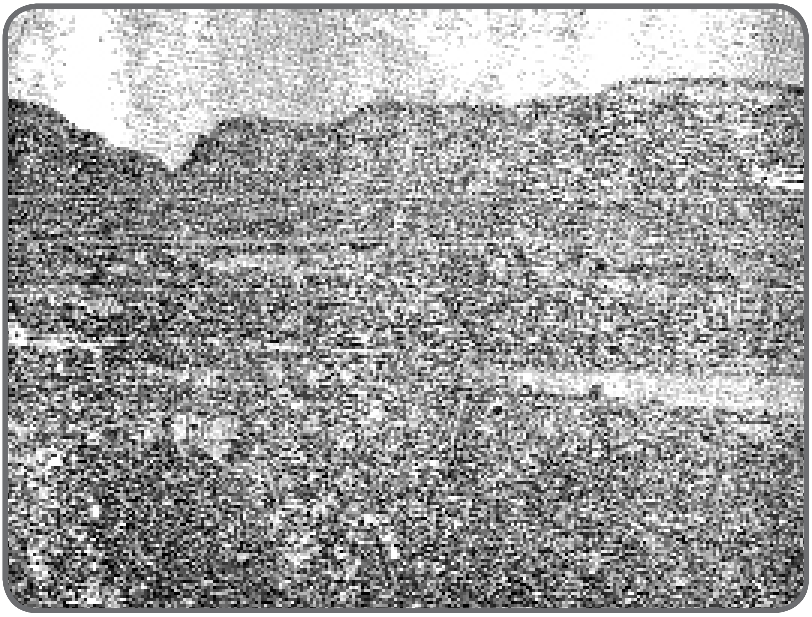
محمد القُعَيْطي ليرسل جيشًا من شِبَام إلى دَوْعَن، فأرسل الأمير ٢٠٠ جندي من يافع وعليهم سالم بن علي الدُّهْري اليافعي، والتقى جيش المُكَلَّا بجيش شِبَام في أعلى وادي دَوْعَن، وعلم بهم آل عمودي فأرسلوا إلى قبائلهم، فجاء من الدَّيِّن ألف رجل، ومن القثم ٥٠٠، ولم يكن قدوم هؤلاء البدو لمناصرة العمودي فقط، بل كان الدافع لهم أيضًا حب النهب والسلب كما هي عادتهم حينما تثور حرب بين ولاة دَوْعَن، حيث ينتشرون في القرى ويهجمون على المتاجر والدور، وهم يعدون ذلك حلالًا لهم في مثل هذه الظروف.

انحدر يافع على الخريبة، فثارت الحرب بين الفريقين، واحتل يافع بعض الحصون فأحاط بهم قوم آل عمودي وحصروهم ٢٩ يومًا وقطعوا عنهم الماء والقوت، وكاد يافع يموتون عطشًا لولا أنهم وجدوا في الحصون قليلًا من الماء كانوا يوزعونه فيما بينهم بالفنجان، وكاد الدَّوْعَنيون ينتصرون عليهم ويبيدونهم عن بكرة أبيهم لولا أن الأمير صلاح بن محمد القُعَيْطي أدركهم بمائتين من يافع وآل محفوظ، ودخل بهم الخريبة وبنادق الدَّيِّن تقذف أعيرتها النارية عليهم مدرارًا، فأعاد ليافع نشاطهم، وبعث فيهم الثبات والإقدام. وأما العمودي فقد أرسلوا إلى قبائل عَمْد ورَخْيَة يستنجدون بهم فأتوه مهطعين، وبلغ ذلك يافع فخاف قائد جيش المُكَلَّا عبدالخالق الماس الانكسار لتألب قبائل البادية ضدهم، ولكن بعث السلطان عوض ٥٠٠ رجل من البنادر، فالتقى بهم ١٢٠٠ من قوم العمودي في أعلى الخريبة، وثارت الحرب، وحمل يافع حملة صادقة واندفعوا كالسيل الجارف، فانسحب قبائل العمودي وهربوا أفرادًا وجماعات، وعلم العمودي وجماعة من رجاله في المصنعة بانكسار قومهم، فأرادوا الدفاع ولكنهم لم يستطيعوا، إذ أطلق باصرّة عليهم المدافع فخرجوا ليلًا إلى الجبال، وكان عدد القتلى من قوم العمودي

٧٤، ومن يافع ٢٢ منهم سالم بن عمر بن علي الحاج أحد قواد الجيش، أما الجرحى من الفريقين فكثيرون، وكان ذلك سنة ١٣١٦هـ.

ولما هدأت الأحوال وسكنت الخواطر، وعادت الطمأنينة إلى القلوب أرسل صاحب دوفة عبدالله بن أحمد بحمد العمودي، وجميع آل محمد بن سعيد العمودي، وعبدالله بن صالح بن مطهر العمودي -والي بضة وزعيم آل عمودي الأكبر، وخليفة الشيخ سعيد العمودي- إلى السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي يطلبون وده، وكان بين هؤلاء وبين العمودي صاحب الخريبة تشاحن وتخاصم، ولذلك لم ينجدوه في حربه وبقوا على الحياد، ومنعوا قبائلهم من الانضمام في صفه ضد يافع، وأرسل أيضًا بلحمر صاحب حوفة، ومبارك بن سعيد الخمبشي، وسعيد بن عبدالله الخمبشي وغيرهم من كبار آل خمبشي إلى القُعَيْطي يطلبون وده. هكذا أصبحت دَوْعَن موالية للقعيطي، وقد تولى الحكم فيها سالم بن علي الدُّهْري اليافعي ووزيره عمر باصرّة، وبعد مضي عامين استقال من مركزه، وقام بالأمر بعده عبدالخالق الماس مولى القُعَيْطي، ولكن لم تطل مدة هذا الوالي أكثر من سنة فقد انتحر برصاصة أفرغها في رأسه من بندقيته، وقد اشتبه في موته، فقيل إنه قتل نفسه، وقيل اغتيل. وقد انفرد بالحكم بعده عمر باصرّة الذي أخذ يدير دفة الحكم بيد من حديد مع شيء من السياسة التي عرف بها هذا الجسور، وأبقى عنده من يافع ٢٠٠ رجل، و٣٠٠ رجل من قبيلته لحفظ الأمن وللدفاع عن كيان البلاد. ثم أخذ يرسم الرسوم ويفرض الضرائب على أصحاب الأطيان والنخل وعلى التجار، من غير إرهاق ولا قسوة، ولكنه لم يعدل في إعفائه آل باعلوي وآل عمودي عن تلك الضرائب والرسوم.

احتلال حَجْر



حَجْر ويرى نهرها يشقها

تقع بلاد حَجْر شمال مَيْفَع، وهي أخصب بقعة في القطر الحضرمي إذ يشقها نهر كبير يسمى باسمها، ويتصل بها من موانئ حضرموت مَيْفَع وبئر علي، والمواصلات بينها وبين السدارة وحبان متينة، فمركزها الاقتصادي مهم، وأغلب سكانها من قبائل نُوَّح الحاملي السلاح، وكان يتولى الحكم فيها أحد الأعيان من ذوي الشخصيات البارزة، ولكن حكمه كان عبارة عن الفصل في القضايا المدنية والجنائية الصغيرة التي تحدث بين أفراد سكان مدينة حجر، فسلطته ضيقة لا تتعدى ديار كَنِيْنَة، ولذلك كان الأمن خارج المدينة مفقودًا، يعتدي الأقوياء على الضعفاء فيسلبونهم حقوقهم دون أن يعترضهم معترض، أو يقوم في سبيلهم مانع. وفي سنة ١٣١٧هـ جهز السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي ٦٠٠ رجل من يافع وآل تميم، وفي مقدمتهم

محمد عبدالقوي غرامة اليافعي، ومحسن مخارش القُعَيْطي، وأحمد حبيب الحداد القُعَيْطي، وصالح بوبك الحضرمي، وعوض عبدالله اليزيدي، ومنصر بن علي جابر، وجابر بن علي بن علي جابر، وبعثهم إلى حَجْر لاحتلالها وإدخالها تحت نفوذه، وقد علم بهم أهل حجر فتعرضوا لهم خارج المدينة وكمنوا في عَقَبة حَجْر، ولما جاء يافع أحاطت بهم قبائل حَجْر، وثارت الحرب، فاندحر يافع، وعادوا إلى مَيْفَع ثم إلى المُكَلَّا، وكان عدد القتلى منهم ٦٣ رجلًا.



منحدر في جبل حَجْر، حدثت فيه الحرب بين يافع والحجريين

ثم في سنة ١٣١٨هـ بعث السلطان عوض ٢٠٠ رجل من يافع وبمعيتهم السيد حسين حامد المحضار ابن الشيخ أبي بكر باعلوي[١]، زوَّده السلطان بالمال ليبتاع

(١) كان حسين حامد عظيم المكر، كثير الدهاء، حاد الذكاء، جاء من حَبّان يضرب أزدريه، واستطاع بدهائه أن ينال لدى السلطان عوض مكانة عليا حتى استوزره ووثق به.

أراضي في حَجْر توصلًا لاحتلالها، وفعلًا كان ذلك، فقد خضع الحجريون لحكم القُعَيْطي حينما تعهد لهم السلطان بحمايتهم، وبنشر العدالة بينهم، وعقد السيد حسين حامد حلفًا بين حكومة القُعَيْطي وبين القبائل الضاربة بين مَيْفَع وحَجْر، وابتاع كثيرًا من أراضي بئر علي وبالحاف، وكانتا تحت نفوذ آل عبدالواحد الذين عقد الإنجليز معاهدة بينهم وبين القُعَيْطي، وكانت تلك المعاهدة السبب لاحتلال يافع تلك البلاد.

الخلاف بين أعضاء البيت المالك

في سنة ١٣١٩هـ احتدم الخلاف والنزاع بين آل عبدالله بن عمر وبين عمهم السلطان عوض بن عمر، كان الأمير منصر بن عبدالله القُعَيْطي اليافعي واليًا على غيل باوزير، وأخوه الأمير حسين بن عبدالله بيده الحل والعقد في نصف مدينة الشِّحْر، والنصف الآخر تحت نفوذ الأمير غالب بن عوض القُعَيْطي اليافعي بالنيابة عن أبيه السلطان عوض، وبالطبع أن وجود حاكمين في مدينة من أعظم الأسباب لإثارة التنافس والتشاحن على استئثار السلطة وحب الظهور، وعلاوة على ذلك فإن الأميرين حسينًا ومنصرًا يدَّعيان أن لوالدهما نصف أملاك الحكومة القُعَيْطية اليافعية، فهما يجدَّان لنيل ذلك الحق، وهما في الوقت نفسه لا يريدان أن يزاحمهما أحد في إدارة الشِّحْر، وفي حاصل جمركها؛ لأن السلطان عوض كان واليًا على المُكَلَّا وإليه يُقدَّم حاصل جمرك مينائها كاملًا غير منقوص، ولقد ازداد الخلاف، وانضم جانب كبير من يافع المَوْسَطة إلى آل عبدالله، كما انحاز فريق كبير من يافع الضُّبَي إلى السلطان عوض بن عمر، وكادت الحرب تثور بين الفريقين لولا أن هناك أفرادًا من كبار يافع بذلوا كل مستطاع في إصلاح ذات البين، واستدعوا في عَيْنات المنصب أحمد بن سالم بن سقاف ابن الشيخ أبي بكر باعلوي ليتوسط معهم في إيجاد صلح بين الخصمين، وفعلًا كان ذلك، ولكن الصلح كان أنشئ

على أساس واهٍ إذ سرعان ما انهار، وعاد الخلاف والنزاع بشكل أردأ مما كان، وحدثت مناوشات بين الفريقين، وكاد الخطب يتفاقم لولا التجاء السلطان عوض وبعض رجالات يافع إلى والي عدن ليتوسط في الصلح، فقد جاءت المُكَلَّا بارجة إنجليزية وعليها ضباط إنجليز وأخذوا السلطان عوض، ثم ساروا إلى الشِّحْر، وطلبوا إليهم الأمير حسين بن عبدالله، فامتنع في بادئ بدء، ثم أجابهم إلى ذلك، وأخذ معه بعض بطانته من يافع، ولكن الإنجليز منعوهم عن الصعود إلى البارجة وظن الأمير حسين أن الصلح سيفاوض فيه في البارجة نفسها، ولكنه لم يكد يصعد إليها إلا وأبحرت إلى عدن، ولقد اجتمع السلطان عوض بالأمير حسين وجهًا لوجه، وأخذ يعاتبه على إثارة المشاغبات ويذكره بفضائله عليه وعلى أبيه الأمير عبدالله، ولما جاءوا عدن أقام الوالي صلحًا بين الخصمين، وعاد السلطان عوض إلى المُكَلَّا، وسار إلى الشِّحْر، وأخرج من فيها من أنصار الأمير، وجهز جيشًا وسار به إلى الغيل وحاصره أيامًا، وحاول الأمير منصر الدفاع ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا، فاضطر في النهاية إلى الانسحاب والتخلي عن الغيل، ورحل بعائلته إلى الهند، وهناك رفع هو وأخوه الأمير حسين قضية لدى حكومة الهند ضد السلطان عوض بن عمر، وتوفي الأميران في حيدر أباد، ولكن القضية لا تزال قائمة.

الحالة السياسية في عهد السلطان عوض

انتصر السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي على آل عبدالله بن عمر بواسطة الإنجليز، وانفرد بالحكم، فامتدت سلطته، واتسع نفوذه، وعلت كلمته، فأصبحت هي العليا، وكان الولاة سواء الذين في البنادر أو في داخلية حضرموت طوع أمره ورهن إشارته، ولم يستطع آل عبدالله بن عمر بعد ذلك أن يعارضوه في سلطته؛ لأن حزبهم تلاشى، ولأن الإنجليز في جانب عمهم السلطان عوض، ولقد بذل السلطان عوض أقصى مجهوداته لإصلاح البلاد، ونشر الأمن، وبث العدالة بين جميع طبقات الشعب

على السواء، لا فرق في نظره بين القوي والضعيف، ولا بين المتسلح والأعزل، ولا بين الغني والفقير.

ازدهار التجارة في عهده

كان انتشار الأمن في أرجاء البلاد من أعظم الأسباب لإحياء الأسواق، وتنشيط حركة التجارة في الداخل وفي الخارج، فقد بلغ عدد السفن التجارية التي يملكها بعض التجار في الشِّحْر والمُكَلَّا نحو ٤٥ سفينة تمخر عباب البحر بين حجر والشِّحْر والمُكَلَّا، وتبحر إلى سواحل إفريقيا الشرقية، وإلى عدن، والخليج الفارسي، وإلى سواحل الهند الغربية، وتعود مشحونة بأنواع البضائع، وأصناف المتاجر.

طرق القوافل

وكانت مدينة شِبَام أعظم محطة في حضرموت لجميع القوافل التي تأتي من أقاصي البلاد ومن الخارج.

من صنعاء إلى حضرموت

تقوم القوافل من صنعاء إلى رأس الغيل وتخترق وادي حَريب في طريقها إلى بني رضيح، ثم تسير محاذية لوادي المجزة إلى سرحان بلاد قبائل دُهْمة، ومن سرحان إلى بيحان بلاد بني حارثة، ثم تسير في وادي الحارثة إلى هضبة شقاق وخبوت، ثم إلى المشايعة، وتسير في رمال إلى بئر عساكر، ثم إلى البدوع، ثم إلى قُعُوضَة فإلى شِبَام، وتقطع المسافة في ١٣ يومًا.

من عدن إلى حضرموت

تقوم القوافل من عدن إلى شقرا، ثم إلى دثينة، ومنها تسير إلى طلح، ثم إلى حبان، ومن حبان تسير في هضاب إلى نصاب بلاد العوالق، ثم إلى الفوهة، ثم إلى قُعُوضَة فإلى شِبَام، وتقطع هذه المسافة في ١١ يومًا.

من بئر علي إلى حضرموت

ترحل القوافل من بئر علي على الساحل إلى الجواري بلاد بني عبدالمانع، ثم إلى حوطة الفقيه فإلى الروضة، ومنها إلى عماقين بلاد آل فهيد، ومنها إلى جردان، ثم طلح عقبة، ومنها إلى شروج الهميم، ثم إلى عقبة شوحم، وتنحدر إلى وادي عَمْد مخترقة قبائل آل ماضي إلى لفحون بلاد آل هلالي الجعدة، ثم إلى حُرَيْضَة، ومنها إلى شِبَام، وتستغرق هذه المسافة ١٠ أيام.

من ظَفَار إلى الشِّحْر ثم إلى شِبَام

تقوم القوافل من ظَفَار إلى رخيوت فإلى دنقوت، ثم إلى غيضة ابن بدر، ومنها إلى حصوين، ثم إلى قشن فإلى سَيْحُوت، ثم إلى ريدة ابن عبدالودود، ثم إلى قُصَيْعَر ثم إلى الحاص، فإلى الشِّحْر، ومنها تسير إلى تبالة، ثم إلى عقبة العرشة مخترقة وادي الصفاء، ثم إلى الغلاغيل مخترقة وادي الفيران، ثم إلى الغييضات، ثم إلى عقبة الرميظة، فإلى الغبيرة، ثم إلى وادي النحر، ثم إلى الغرّ، فإلى شِبَام، ومدة هذه المسافة ١٥ يومًا.

بين حضرموت ومكة

وكان بعض الناس يفضِّل السفر إلى الحج بطريق البر، وهذا يدل على انتشار الأمن في ذلك العهد في أجدب البوادي وأقفر البقاع. يقوم المسافر من حضرموت الوسطى إلى رهطان، ثم إلى سور اليمنة، فإلى بئر يوسف، ثم يسير إلى الشاغبة بعد أن يخترق وادي المنقلقة، ثم إلى العير، فإلى غرّ اليماني، ثم إلى الرماريم، فإلى غرّ الزنافر، ثم إلى المشينقة فإلى المخا، ثم إلى خب، ثم إلى النخلة، ومنها إلى الخمرة عقبة عرقوب، ثم يسير في أودية يقال لها عتبة عمق المراشي، ويقطع وادي مذاب إلى المجاد بلاد آل عمار، ثم إلى شرمات في طريقهم إلى صعدا بلاد آل سالم، ومنها إلى رفافة، ثم إلى عقبة مخارش في طريقه إلى جياد، ومنها إلى الحوض

فإلى الحرجة، ثم إلى نجران، ومنها إلى درب العقدة في سهل منبسط، ومنها إلى المجزعة، ثم إلى ثايب بعد أن يقطع عقبة تيه، ومنها إلى وادي حفر في طريقه إلى مخايل فإلى المصبح، ثم إلى بارق والجهفة، فإلى وادي يبه حيث عيون الماء تنبع بكثرة، ثم إلى حدبة مشرق، فإلى القوز، ومنه إلى القنفذة، ثم إلى دوفة، فإلى خبت صبوة، ثم إلى الليث، ومنه إلى وادي مرخ، فإلى السعيدية، فإلى البيضاء، ومنها إلى مكة. وتبلغ المسافة بين شِبَام ومكة ٢٢ يومًا على الجمال.

وفاة السلطان عوض

في سنة ١٣٢٧هـ توفي السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي في حيدر أباد، فذهل الناس لوفاته كل الذهول، وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وحزنوا على فراقه أشد الحزن، وبكوه بكاء مرًا، وكادوا يصعقون.

شخصيته

كانت شخصيته أعظم شخصية في الحضارم. كان قويًا شديد القوة لا يعرف الضعف ولا الفتور، ولا يحب التردد، ذكيًا نافذ الذكاء، ولكنه كان هادئًا في الوقت نفسه، حليمًا شديد الحلم، لا يعرف الطيش، ولا التعجل، ولا الاندفاع. كان عميق الفكر، كثير الصمت، لا يبتسم إلا في النادر القليل، ولا يتكلم إلا عند الضرورة، وإن تكلم كان المثل الأعلى في اللطف وحسن الحديث، ليس كلامه بالهزل، ولا ينطق عبثًا، وإن سكت ففي سكوته مهابة ووقار، بعيد النظر، كثير الظن، لا تخدعه الظواهر مهما ضاء بريقها، وتشكلت بمختلف الألوان، كان شجاعًا مقدامًا، قاد الجيوش في الهند، وخاض غمار الحروب، وخرج منها ظافرًا، فجازاه ملك حيدر أباد بأعلى الرتب وأسمى الدرجات، ورحل إلى حضرموت، فخلق له ملكًا من العدم، وتبوأ من المجد مقعدًا عليًّا، ولقد ساس الناس بحزم وعزم وسياسة وكياسة، لم يتعلم في معهد، ولم تكفله جامعة، ولكن الأيام ربته، والسنين هذبته،

والتجارب ثقفته، فكان نعم الخريج، ونعم السياسي، ونعم الحازم، كان صالحًا ورعًا، يؤدي الفروض في أوقاتها، ولم تغره الدنيا، لم يعبد المادة كما عبدها كثير من ملوك الشرق، ولم يندفع وراء اللذائذ الجسدية كما اندفع هؤلاء وراءها، بل كان كثير الانشغال بشؤون الدولة وأحوال الشعب. كان ليافع أبًا شفوقًا ينظر إليهم كما ينظر إلى أبنائه، فلا غرو إذا عبده هؤلاء ووضعوا أرواحهم بين يديه يتصرف فيها كيف شاء.

السلطان غالب القُعَيْطي اليافعي

تولى السلطان غالب بعد وفاة أبيه فأبقى شؤون الحكومة كما كانت في أيام والده، وزاد في مرتبات الجيش، واستقدم كثيرًا من يافع من بلادهم وأدخلهم في الجندية، وقلد عددًا منهم وظائف الحكم في البلاد، وساس الشعب بكل هدوء وحنان.

وزيره

استوزر عظمته السيد حسين حامد المحضار باعلوي، ومال إليه كل الميل، ووثق به كل الثقة، واتخذه نصيرًا له في شؤونه الخاصة والعامة.

وكان السيد حسين حامد جاء من حَبّان في عهد السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي يضرب أزدريه، ولدهائه ولباقته استطاع أن ينال مكانة سامية لديه، وبالرغم من إخلاصه له وتفانيه في خدمته، فإن السلطان عوض لم يكن يميل إليه كل الميل ولم يفوِّض شؤون الدولة كلها إليه، بل كان يعتبره فردًا من أفراد يافع الذين اتخذهم السلطان بطانة له، وفي عهد السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي سما مقامه، وعلا مركزه، واتسع نطاق نفوذه اتساعًا ما كان يحلم به من قبل، كان الكل في الكل، يتصرف في شؤون الدولة كما يشاء، وهو في ذلك مندفع كل الاندفاع، مهاب كل الهيبة، لم يجرأ لمعاكسته أحد، كل الناس له رُكَّع سُجَّد، يبتغون فضلًا منه ورِضوانًا.

مدينة ساه

في أعلى هضاب عِدِم تقوم مدينة سَاهْ يحيط بها أحراج النخيل، فالبلح أهم غلات هذه المنطقة، وأكثر القبائل الساكنة فيها من آل جابر، وهم دائمًا في نزاع،

والفوضى ضاربة أطنابها في كل البلاد، والأمن مفقود، وقد أخذ الأقوياء يرهقون الضعفاء بمطالبهم، ويتعدون على حقوقهم، ويذيقونهم سوء العذاب، وأخذ بعض الأشرار يحرقون النخل سفاهة وحمقًا، ويعطلون الحرث، وينهبون ويقتلون، وكان العزّل من السلاح يستنجدون ولكن لا منجد، ويستغيثون ولا مغيث ينشلهم مما هم فيه من الشقاء وسوء الحال، ويقطع عنهم دابر الظالمين. وفي سنة ١٣٣٢هـ بعث الأعيان من حملة السلاح وغيرهم وفدًا إلى المُكَلَّا، ورفعوا للسلطان غالب شكواهم، وطلبوا إليه أن يبسط حمايته على سَاهْ، ويقيم فيها واليًا من قِبله ليزيل ما فيها من المظالم، ويصلح شؤون الأهلين، فأرسل السلطان غالبٌ سالمَ أحمد البكري اليافعي وبصحبته ٢٥ رجلًا من يافع على أن يقوم آل جابر بجميع مصروفاتهم مدة قيامهم بالأمر في سَاهْ، فأخذ الوالي سالم أحمد البكري يدير شؤون الناس، ويصلح ذات البين، حتى استطاع بما عرف به من لين وحزم أن يعيد إلى الضعفاء حقوقهم من أيدي الأقوياء، ويزيل المظالم، ويخمد الفتن، ويبث الأمن. ولما توفي قام بالأمر بعده سالم فرج، ثم تلاه أحمد سعيد الحداد القُعَيْطي.

مقتل الحُمُوْم

الحُمُوْم من أكبر قبائل البادية وأكثرها عبثًا بالسلام، ويبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠ نسمة، ويسكنون الهضاب العالية الواقعة شمال المُكَلَّا.

والحُمُوْم فخائذ لكل منها رئيس يتحاكمون إليه فيما يشجر بينهم من النزاع وما يحدث من الخصام، وأراضيهم قاحلة جدباء، لا تنبت رزقًا إلا إذا نزل المطر، وقد تمر السنون ولا يسقط عليهم مطر، فتقفر أوديتهم، ويشتد الجفاف، وتزداد حالتهم تعاسة وضنكًا، فيهيم بعضهم باحثًا عن قوته وقوت عياله، فإذا التقى بعابر سبيل نهبه وسلبه وربما قتله. أما الذين يعيشون منهم على التجارة بواسطة جمالهم التي تحمل الأثقال من بلد إلى آخر؛ فهم في شيء من الراحة والهناء، ولقد اشتهر الحُمُوْم بمناوأة

حكومة القُعَيْطي من قديم، وإقلاق راحتها وراحة الأهلين، قطعوا الطريق، ونهبوا وقتلوا، وعبثوا بالسلام في الشواطئ بين المدن والقرى، وفي الهضاب والجبال، ولقد تكبدت الحكومة من جراء مشاكلهم خسائر فادحة، وبذلت لكبح جماحهم وردع شهواتهم أموالًا طائلة، وعقدت معهم صلحًا مرات عديدة، وجعلت لهم نحو ٤٠٠٠ ريال سنويًا، ولكنها لم توفق في أمرها، وحين انتهى الصلح سنة ١٣٣٦هـ أراد الحُمُوْم أن يعقدوا صلحًا من جديد على أن تدفع الحكومة مرتبًا أكثر مما كانت تدفعه لهم، فأرسل السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي إلى أمير الشِّحْر ناصر أحمد بوبك الحداد القُعَيْطي أن يشعره بدخول الحُمُوْم الشِّحْر، وجاء نحو ٤٠٠ رجل، منهم ٢٩ من كبار رؤسائهم وأعيانهم، وجاء السلطان غالب إلى الشِّحْر في سيارته الخاصة، واتفق هو والأمير ناصر أحمد على أن يقتل رؤساء الحُمُوْم الموجودين في الشِّحْر ويسجن أتباعهم، ثم عاد السلطان إلى المُكَلَّا في نفس الليلة التي أتى فيها، وفي اليوم الثاني أمر الأمير ناصر برؤساء الحُمُوْم، وقتلوا في حصن يقال له (دار ناصر)، وعددهم نحو ٢٩ رئيسًا، ثم أمر بأتباعهم وكانوا منبثين في شوارع المدينة، فألقى القبض عليهم جميعًا وسجنوا، ومات كثير منهم في السجن، ولقد كان لهذا الحادث الجلل وقع في نفوس فخائذ الحُمُوْم، وهاجوا وماجوا، وظن الناس أنهم سيثورون ثورتهم ضد الحكومة، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، فقد ألقي في قلوبهم الرعب والفزع فانكمشوا وهمدوا، وخمدت ريحهم.

احتلال وادي الأيسر

ظل باصرَّة والي دَوْعَن من قِبل حكومة القُعَيْطي يحكم في شيء كثير من الشدة، فهابه الناس، وأطاعوه من غير كره ولا مقت، وأخذ يبسط يديه كل البسط لأصحاب النفوذ الروحي، حتى توطدت دعائم حكمه، وتوثقت بينه وبين الأهلين

روابط الصداقة والولاء فأحبوه، ولكن لرهبة في قلوبهم، وانتشر الأمن في طول البلاد وعرضها، واستمرت الحال على ذلك سبع سنوات متتالية، ثم عطف نظره إلى وادي الأيسر، فألفى نفوذ آل عمودي الروحية متغلغلة في أرجاء ذلك الوادي، تحميه قوة قبائل الحالكة الذين يدعي ابن محمد سعيد العمودي أنهم أتباعه وأنصاره، وأنهم يخضعون له وينفذون إرادته كما كان يخضع الدَّيِّن والقثم لابن مطهر العمودي صاحب بضة.

مقتل يافع

وحدث أنه كان في دار الشيخ العمودي اثنان من يافع هما الحريبي وابن شيهون، وسبعة من آل بلحمر يتحادثون بحضرة الشيخ في شيء كثير من الود والصفاء، ولما خرجوا من عند الشيخ ووصلوا أمام دار الحريبي عرض اليافعيان على آل بلحمر أن يضيفاهم فاعتذروا وشكروهما على لطفهما، ولما أدبر اليافعيان أطلق عليهما آل بلحمر بنادقهم فأردوهما قتيلين ثم هربوا، ومروا أمام دار الحضرمي اليافعي، فأطلق عليهم بندقيته وقتل رئيسهم ثم قتل آخر، وجاء جماعة من آل بلحمر وأحاطوا بالدار، ولكن الحضرمي انسل وأطلقوا عليه النار فلم يصيبوا منه مقتلًا، والتجأ في دار الشيخ العمودي، وعلم باصرّة بالحادث، فبعث ٧٥ رجلًا من يافع ومن رجاله البدو، وكادت الحرب تشتعل من جديد لولا تدخل الشيخ العمودي في الصلح بين الفريقين، ولكن قلوب آل بلحمر ما انفكت تتأجج غيظًا بالرغم من تعادل الكفتين، ففي ليلة من ليالي سنة ١٣١٧هـ سرى ابن حَطَبَيْن أحد رؤساء يافع وبصحبته خمسة من عشيرته، فدلّت عليهم امرأة، فخرج عليهم جماعة من آل بلحمر، وكمنوا لهم بين النخيل وقتلوهم جميعًا، فلم ير باصرّة بدًا من إعلان الحرب على وادي الأيسر.

الخلاف بين آل باهبري وبين الخنابشة

ثم اتفق أنه في أواخر سنة ١٣١٧هـ حدث نزاع كبير بني آل باهبري سلاطين سيبان[١] وبين الخنابشة[٢]، فانتهز هذه الفرصة باصرَّة وانضم إلى الخنابشة سرًا في بادئ بدء، ومنشأ هذا الخلاف امرأة من آل باهبري تدعى قمر في قرية يقال لها جريف، وكان بهذه القرية فخيذة من الخنابشة تسمى آل باشجيرة، وقد استفحل النزاع وتفاقم خطره، بين أقارب المرأة آل باهبري، وبين آل باشجيرة، حيث أشهر السلاح بين الفريقين، واستنجد آل باهبري بالحالكة القاطنين بوادي الأيسر، كما استنجد آل باشجيرة بعشيرتهم الخنابشة الساكنين في الجحي، ولما بلغ ذلك باصرّة أنجد الخنابشة بالمال والسلاح والرجال من يافع ومن رجاله البدو، وأرسل للسلطان غالب يطلب إليه السماح بالتجهيز لحرب وادي الأيسر واحتلاله؛ لنشر الأمن في ربوعه، وإقامة العدالة في الأهلين، فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه ذخائر، فهبت قبائل الحالكة تحارب يافع بكل ما لديها من قوة، وتدافع عن بلادها بما عرفت به من الشدة، وكان على رأسهم بلحمر ذو الأمر المطاع والكلمة النافذة. أما آل عمودي في وادي الأيسر فقد التزموا الحياد في هذه الحرب، ولم تظهر منهم أية حركة ضد يافع؛ لأنهم رأوا العبرة في جماعتهم في دَوْعَن العليا، وهم في الوقت نفسه يعتقدون أنه إذا انتصرت الحالكة في حربها ضد يافع فسينفردون بالحكم في وادي الأيسر كله.

---

(١) يدعي آل باهبري أنهم سلالة سلاطين سيبان، وبالرغم عن قلة عددهم في وادي الأيسر وحمم فإن لهم مقامًا محترمًا عند قبائل سيبان، لا سيما الحالكة، وحينما ينادى أحدهم يقال له: يا سلطان.

(٢) قبيلة صغيرة لا يزيد عددها عن ٦٠ رجلاً، وليس لهم صلات متينة بالقبائل المجاورة لهم، وهم دائمًا مشاغبون متعطشون للمشاكل والمحن.

استمرت الحرب نحو سنة وكانت محاربة الحالكة ليافع أشبه بمناوشة العصابات، أما باصرّة فعلى شيء من النظام والاستعداد، وقد أتاه مدفع من المُكَلَّا وصوبه على العَرْسَمَة مقر المقدم بلحمر، وهدم بيوتًا منه، وانتهت الحرب باندحار قبائل الحالكة. أما بلحمر فقد غادر العَرْسَمَة، وهام في الأودية والجبال لا يلوي على شيء حتى إذا جاء ريدة الجوهيين أقام فيها بين عشيرته سيبان، وكان عدد القتلى من يافع ١٤ شخصًا، ومن الحالكة وآل بلحمر ٢٦ نفسًا.

بعد أن قوض باصرّة السلطات في وادي الأيسر، أنشأ استحكامات في بعض البلدان، ووضع فيها حامية من يافع ومن عشيرته، وأخذ من كل فخيذة من فخائذ الحالكة خمسة رجال كرهائن عنده، وأبقاهم في دار العرض التي هي بمثابة السجن، وفرض على الحالكة غرامة الحرب التي بلغت نحو العشرين ألفًا من الريالات، فمنهم من دفع قسطه، ومنهم من امتنع وهاجر إلى ريدة الجوهيين، ومنهم من أقطع لباصرّة أراضي في مقابل قسطهم من الغرامة، وهذه الأرض صارت منطقة احتكاك بين البدو قبيلة باصرّة وبين الحالكة، الأمر الذي جعل الفتنة تثور بين الفريقين حينًا بعد حين، ثم كوَّن باصرَّة لجنة لفرض الضرائب والرسوم على سكان وادي الأيسر، وكان على رأسها محمد بن الشيبة العمودي الذي تجسس لباصرَّة ضد جماعته آل عمودي في الحرب الأولى.

أخذت هذه اللجنة تطوف أرجاء الوادي وتفرض الضرائب على الرعايا التي بلغت نحو ٣٠٠٠٠ ريالًا، ولقد فرضت بعض هذه الضرائب على أناس لا يملكون قوت يومهم؛ حتى اضطروا لبيع ما يملكون من نخل وأرض، ذلك لأنهم خرجوا في حرب أنهكت قواهم، فإن المقدم بلحمر كان قد أخذ في أثناء الحرب من الحالكة ومن أتباع آل محمد بن سعيد العمودي أموالًا وطعامًا لتجهيز عساكره في الحرب ضد يافع، لذلك كانت الضرائب التي فرضها عليهم باصرّة حملًا ثقيلًا. فرض

باصرّة رسومًا، فجعل على المشتري ٨٪، وعلى البائع ٦٪، وجعل في كل بلد وكيلًا يجمع تلك الرسوم ويبعثها إليه.

آل محمد بن سعيد العمودي وامتيازاتهم

كان هذا البيت الكريم من آل عمودي ذا سلطة واسعة وكلمة نافذة في وادي الأيسر، ولم يكن لهم منافس في السلطة سوى المقدم بلحمر[1]، ولكن بالرغم من قوة أتباع هذا التي توازي أضعاف قوة العمودي، فإنه كان يشعر بشيء من الهيبة والاحترام لآل محمد بن سعيد العمودي؛ لشدة تأثير سلطة هؤلاء الروحية فيه، ولذلك فإنه لم يستطع أن يرغمهم ولا أتباعهم على الانضمام إليه ضد يافع، فقد ظلوا على الحياد في حرب وادي الأيسر. ولما احتل القُعَيْطي وادي الأيسر أبقاهم في مراكزهم ومنحهم الفصل في القضايا الصغيرة الجنائية والمدنية على أن يكون للمتخاصمين الحق في استئناف الحكم إلى باصرّة والي دَوْعَن العام، أو إلى المركز الأعلى للحكومة في المُكَلَّا .

وجعل القُعَيْطي لبعض أفرادهم مرتبًا سنويًا نحو ٣٠٠ ريال، ولقد أعفى جميع آل محمد بن سعيد العمودي من الضرائب والرسوم. وأما بيوتات آل عمودي الأخرى وهم كثيرون في صبيخ وفيل وحوفة وقيدون، فقد فرضت عليهم الضرائب كبقية الأهالي.

أمير تَرِيْم

في عام ١٢٩٥هـ تولى إمارة تَرِيْم الأمير محسن بن غالب الكثيري، وقد كانت سيرته في بادئ بدء حسنة، ولكن في أواخر أيامه أرهق سكان تَرِيْم بالضرائب، وفي مقدمتهم السيد شيخ بن عبدالرحمن الكاف، ولقد عارضه بعضهم وامتنعوا عن دفع الضرائب، ولكن الأمير أرغمهم على دفعها. أما السيد شيخ الكاف فقد غادر

(١) آل بلحمر من أكبر بيوتات سيبان وأعزها رجالاً وأشرفها مقامًا.

تَرِيْم هربًا من الضرائب الفادحة وسار إلى دَمُّوْن، ثم أراد أن ينتقم من الأمير، فأخذ يحرك آل تميم ضده، ويحرضهم على احتلال تَرِيْم، وأمدهم بالمال والسلاح، فثارت الحرب بين الفريقين عام ١٣١٥هـ، وحاصر آل تميم تَرِيْم أيامًا، وكادوا يستولون عليها لولا قيام بعض الأعيان بالصلح، ثم عاد الكاف إلى تَرِيْم، وكان الأمير محسن بن غالب قد ضاق ذرعًا من تَرِيْم بعد أن أخذ الموت يخطف أولاده الواحد بعد الآخر، وراجت لديه فكرة خرافية، وهي أنه لن يعيش له ولد ما دام هو في تَرِيْم، فانتقل هو وعائلته إلى سَيْئون سنة ١٣١٧هـ، وهناك رزق بأربعة أبناء، وتوفي عام ١٢٤٣هـ.

توسط السلطان غالب بالصلح بين يافع وإمام اليمن

في سنة ١٣٣٧هـ هجم الزيود وعددهم ٣٠٠٠ رجل على الشَّعيب لاستردادها من أيدي يافع، ولم يكن فيها أحد من يافع سوى سكانها الأصليين، فاجتمع يافع في البلاد السفلى لإخراج الزيود، ولكنهم تنازعوا ففشلوا، ولم يذهب منهم إلى الشَّعيب غير ٨٠٠ رجل فقط، فثارت الحرب واندحر يافع، والتجأوا في القُزْعة وتحصنوا فيها، ولكن الزيود أحاطوا بهم، وقطعوا عنهم الماء والقوت ستة أيام، وأطلقوا عليهم المدفع، فهدُّوا الحصون، وأسروا ١٣ شخصًا من يافع ثم قتلوهم في السجن، وكان عدد القتلى من يافع ٢٥٠، ومن الزيود ٤٠٠، ولقد استفحل الخلاف بين الفريقين، وأخذ يافع يتجمعون لاسترداد الشَّعيب، وبدأت المناوشات من الطرفين، ثم أرسل السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي وزيره السيد حسين حامد المحضار، وجماعة من كبار يافع بالبنادر للإصلاح بين يافع والإمام يحيى، وأعطاه عشرين ألف ريال، وكان السيد حسين حامد مندوبًا في الصلح عن حكومة القُعَيْطي وعن والي عدن الذي أعطاه عشرين ألف ريال في مقابل مصاريف ذهابه إلى يافع وإلى اليمن، واستطاع السيد حسين حامد المحضار بدهائه وسياسته أن يرضي

الطرفين بالتي هي أحسن، ويقيم بينهم صلحًا لمدة ١٢ سنة.

معاهدة عدن

أراد السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي أن يجعل للبلاد شيئًا من النظم الحديثة، ويرفع من شأن حكومته ويعلي قدرها؛ ليكون لها القيمة التي تستحقها، والإجلال الذي يجدر لكل حضرمي أن يحمله نحوها، وألفى الظروف تساعده فيما أراد، فإن الثغور في يده، والقبائل تطلب وده، فسافر إلى حيدر أباد، واجتمع بأخيه السلطان عمر بن عوض، وبابنه الأمير صالح بن غالب وشاورهم في الأمر، فاتفق رأيهم على إنشاء إدارة للباسبورتات في المُكَلَّا، وسافر السلطان غالب إلى عدن في طريقه إلى المُكَلَّا عاصمة ملكه، وفاوض الإنجليز في الأمر بواسطة والي عدن، ولكن هذا صرَّح له أنه لا بد لتنفيذ الأمر من اعتراف حكومة آل عبدالله الكثيري بالسيادة لحكومة القُعَيْطي، فبعث السلطان وزيره السيد حسين حامد المحضار إلى آل كثير، وسعى الوزير بما عرف به من الدهاء والكياسة لإرشادهم للاعتراف بسيادة حكومة القُعَيْطي على حضرموت، ولقد نجح الوزير في رسالته، وكان الاعتراف من جانب أعضاء البيت المالك، وهم آل عبدالله، ولكن فخائذ آل كثير عارضوا وأعلنوا جهارًا عدم اعترافهم بالسيادة للقعيطي، فراودهم الوزير ولكن من غير جدوى، ولقد ازداد الخلاف، وتطورت الحال إلى التجمع والاستعداد للحرب ضد القُعَيْطي، فأرسل السلطان غالب جيشًا من يافع ومن العبيد إلى شِبَام، وبنى قلاعًا في الدَّحْقة على مقربة من آل سَنَد، فثارت الحرب بين الفريقين، وحاصر السلطان غالب آل كثير من ناحية الثغور، فلم يستطيعوا السفر إلى الخارج، أو يأتي المهاجرون منهم إلى حضرموت إلا من طريق القبلة مع أشد أنواع الأخطار، ومنع أيضًا صادراتهم ووارداتهم، كما طلب من والي عدن حجز واردات آل كثير من حوالات مالية وغيرها، فأصبح موقف آل كثير حرجًا جدًا، وأخيرًا أي بعد سنة وبضع شهور طلب والي عدن من

حكومتي حضرموت إيقاف الحرب ليتوصل إلى إصلاحهما، وأرسل إلى بعض كبار آل كثير في جاوة وسنقفورة، فجاءه السادة سالم بن جعفر، وسالم محمد بن طالب، وصالح عبيد بن عبدات، وأرسل إلى السلطان علي بن منصور الكثيري، فسافر السلطان علي إلى المُكَلَّا من طريقه إلى عدن، فقوبل من لدن حكومة القُعَيْطي بكل إجلال وتعظيم، وأطلقت المدافع ترحيبًا به وإكرامًا لقدومه، ثم سافر عظمته وعظمة السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي وبصحبتهم السيد حسين حامد المحضار وبعض كبار يافع إلى عدن في باخرة إنجليزية أرسلها الوالي خصيصًا لنقلهم. اجتمع القوم في عدن تحت إشراف الوالي، وكتبت المعاهدة التي وافق الجميع على كل ما جاء فيها من شروط وتعهدات، وهذه هي المعاهدة بحذافيرها:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾، وها نحن ولله الحمد مؤمنون، ومتبعون لهدي نبينا محمد ﷺ، ومعتقدون بأن في إجماع الكلمة ما يعود نفعه للمسلمين، وصلاح العباد والبلاد، وراغبين فيما يوجب الأمن والراحة للأهالي ورفاهيتهم في داخل البلاد وخارجها، فلهذا الدول الكرام القُعَيْطية وآل عبدالله عقدوا بينهما معاهدة مؤبدة إلى أن يشيب الغراب ويفنى التراب، وهما السلطان السير غالب بن عوض بن عمر، وعمر بن عوض بن عمر القُعَيْطي عن أنفسهما وورثائهما وخلفائهما ومن يكفلهما من جهة، والسلاطين منصور بن غالب، ومحسن بن غالب آل عبدالله عن أنفسهما وورثائهما وخلفائهما ومن يكفلهما من جهة، وجعلوا الشروط الآتية:

الشرط الأول: يرتضي السلطان القُعَيْطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا وسلاطين آل عبدالله أهل كثير أن يكون إقليم حضرموت إقليمًا واحدًا، وأن الإقليم المذكور هو من تعلقات الدولة البريطانية تابعًا لسلطان الشِّحْر والمُكَلَّا.

الشرط الثاني: يقر السلطان القُعَيْطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا أن سلاطين آل عبدالله هم سلاطين الشَّنافر، ولكن آل عبدالله يحكمون في داخل حضرموت على مدن وقرى سَيْئون وتَريْم وتَرِيس والغُرَف ومَرْيَمَة والغَيْل، وصار الاعتراف أن فخذ الشنافر الآتي ذكرهم تابعون لسلاطين آل عبدالله، وهم آل عمر، وآل عامر، والفخائذ آل كثير والعوامر، وآل باجري، وآل جابر وما شملته حدودهم، وهي معروفة مشهورة.

الشرط الثالث: يتعهد السلطان القُعَيْطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا عن نفسه وورثائه وخلفائه من الجهة الأولى بأنه يقر ويعترف بالحقوق والسيطرة لسلاطين آل عبدالله وورثائهم وخلفائهم في المدن والقرى المذكورة، وعلى فخائذ الشنافر المذكورة في الشرط الثاني المذكور أعلاه، وأنه لن يعترض لهما في أي أمر كان مطلقًا، وأنهم سلاطين مستقلون في بلادهم المعينة في الشرط الثاني.

الشرط الرابع: يقبل سلاطين آل عبدالله عن أنفسهم وورثائهم وخلفائهم من الجهة الأخرى بأنهم لن يعترضوا بأي طريقة كانت للحكم على حضرموت ما عدا المدن والقرى المذكورة في الشرط الثاني، وكذلك الفُخُذ المذكورة في الشرط المذكور، ويقروا ويعترفوا ويقبلوا بأن ليس لهم حق في التعرض في محلات أخرى.

الشرط الخامس: يرتضي سلاطين آل عبدالله أن يقبلوا أن المعاهدة المنعقدة بين الدولة البريطانية ودولة القُعَيْطي في سنة ١٨٨٨م رابطة لهم وكأنهم جعلوها، ويرتضون بأن يمتثلوا شروطها بأمانة، ويرتضون أيضًا أن تكون جميع معاملاتهم ومراسلاتهم مع الدولة البريطانية بواسطة السلطان القُعَيْطي مولى الشِّحْر والمُكَلَّا.

الشرط السادس: كلا الفريقين يقبلان أن يوقفا الفتن في الحال والاستقبال حالًا، ويقبلان أن ينسيا ويعفيا عن كل ما سلف، وأن لا يصير من أحدهما انتقام أو مطالبة في عوض، ويرتضيان أن يحافظا في المستقبل على الأمان في السبل الكائنة في حدودهما المعروفة، وإجراء العدالة طبقًا للشريعة، واحترام السادة العلوية، وإسعاف المظلوم، وإقامة العدالة العامة في حدودهما المعروفة.

الشرط السابع: يقبل المذكورون أن يساعد بعضهم بعضًا إذا حصل خلاف من أحد الحزبين على رعاياهم وأصحابهم ومن تعلق بهم، أو على شريف، أو عابر سبيل، أو قاصر يد، ويقبلوا أن يحافظوا على أرواح وأموال بعضهم بعضًا وأتباعهم ورعاياهم ومن يلوذ بهم ما داموا في حدودهم المعروفة، وأن يعاملوهم بالعدل والإنصاف كمعاملتهم لغيرهم من أصحابهم.

الشرط الثامن: يرتضي المذكورون بأن تكون الحرية المطلقة للتجارة، وأن تؤخذ العشورات بالمقدار المرتب على جميع الناس سواء كانوا رعايا أيٍّ كان من السلطانين المذكورين.

الشرط التاسع: إذا رغب أحد السلطانين المذكورين أعلاه أن يزور الآخر ينبغي أن يخبر بمراده حتى يكون الاستعداد لمقابلته بالاحترام الواجب، ويحتاج أن لا يزيد في أي حالة كانت مقدار العسكر عن خمسين نفرًا اتقاء لحدوث الفتنة بين العسكر.

الشرط العاشر: سلاطين القُعَيْطي وسلاطين آل كثير يقبلون بالسوية أن يعاون بعضهم بعضًا بحسب مقدرتهم واستطاعتهم في أي تدبير فيه صلاح حال حضرموت ورقيها.

الشرط الحادي عشر: فمقابلة لقبول الشروط المذكورة أعلاه من لدن سلطان الشِّحْر والمُكَلَّا، وسلاطين آل عبدالله آل كثير سوف تجتهد الدولة البريطانية أن

تصلح جميع المخاصمات الناشئة في المستقبل بين المذكورين بعد تاريخ هذه المعاهدة بالتحكيم بواسطة والي عدن.

حرّر في ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٦هـ

صحيح

غالب بن عوض القُعَيْطي

شهد بذلك

حسين بن حامد المحضار

شهد على إقرار المذكور

سالم بن جعفر بن طالب

شهد على إقرار المذكور

ناصر بن عمر بن يماني بن مرعي بن طالب

وهذه إمضاءات نسخة أخرى من هذه المعاهدة

صحيح

المنصور بن غالب بن عبدالله الكثيري

شهد بذلك

حسين بن حامد المحضار

صحيح

محسن بن غالب بن محمد أحمد بن عبدالله

شهد بذلك

سالم بن جعفر بن طالب

صحيح

غالب بن عوض بن عمر

شهد بذلك

ناصر بن عمر بن طالب

رفض آل كثير المعاهدة

لا شك أن الذي يلقي نظرة في شروط المعاهدة يجدها ترمي إلى غرض مهم هو تقوية الروابط بين الحكومتين اليافعية والكثيرية، وتوثيق الصلات بينهما، وإلى التساند والتآزر على إصلاح العباد، وتعمير البلاد، وليس من شك أن ذلك ضروري لأمة تريد الحياة، ولكن فخائذ آل كثير شعروا بشيء من الغبن في جانبهم، ورأوا أن المعاهدة لم يراع فيها مصلحة الطرفين، فهم وجدوا:

أولًا: أن الحكومة الكثيرية أصبحت بموجب الشرط الأول تابعة لحكومة القُعَيْطي اليافعي.

ثانيًا: أصبح حكم آل عبدالله محصورًا فقط في سَيْئون وتَريْم وتَرِيس والغُرَف ومَرْيَمَة والغيل، وبناء على هذا لا يجوز بأي حال أن تمد الدولة الكثيرية نفوذها، وتبسط سلطتها، أو تتعرض للحكم في غير البلدان المذكورة أعلاه، بينما للدولة القُعَيْطية اليافعية كل الحق أن تبسط نفوذها، وتحكم غير سَيْئون وتَريْم وغيرها من أملاك آل عبدالله.

ثالثًا: جاء في الشرط الخامس أنه لا يجوز للدولة الكثيرية إنشاء أية علاقة سياسية أو مفاوضة أي هيئة سياسية في الخارج إلا بواسطة الدولة القُعَيْطية، وهذا يؤكد ما يرمي إليه الشرط الأول من بسط نفوذ الثانية على الأولى وسيادتها عليها.

هكذا أدرك آل كثير وعلى هذا التأويل فسروا المعاهدة؛ لذلك رفضوها في صراحة حينما عاد إليهم وفدهم، وأعلنوا عدم الانقياد لكل ما جاء فيها من شروط، ولما بلغ ذلك إلى الحكومة القُعَيْطية أرسلت وزيرها السيد حسين حامد المحضار وبصحبته خمسون رجلًا من يافع، واجتمعوا في حوطة أحمد بن زين، ولما طال الكلام واحتدم الخلاف، رابط بضع مئات من آل كثير خارج حوطة أحمد بن زين، وأرادوا الفتك بالوزير حسين حامد ومن معه من يافع، ولكن الوزير أدرك التآمر والمكيدة فتظاهر بالرغبة في المبيت في تلك الليلة، وأرسل إلى شِبَام يطلب

أرزًا وغنمًا وطباخين، ولما علم بذلك المتآمرون من آل كثير انسحبوا، وعادوا إلى بيوتهم على أن يعودوا في اليوم التالي، ولكن الوزير حسين حامد رحل ومن معه في تلك الليلة إلى شِبَام تاركًا الطعام واللحوم والطباخين لأهل حوطة أحمد بن زين، وهكذا استطاع الداهية أن ينجي نفسه ورجاله من بين براثن الموت، ثم أرسل إلى السلطان غالب بن عوض، فبعث السلطان إلى والي عدن، فأرسل هذا أحد رجاله من الإنجليز إلى آل كثير بعد أن مرَّ على شِبَام، وأخذ معه الوزير حسين حامد وأربعمائة رجل من يافع، واجتمع بأعيان آل كثير، فوافقوا على كل ما جاء في المعاهدة من الشروط، وذلك سنة ١٣٣٤هـ.

وفاة السلطان غالب القُعَيْطي اليافعي



السلطان غالب القُعَيْطي اليافعي

في سنة ١٣٣٧هـ توفي السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي في حيدر أباد، فحزنت الأمة عليه أشد الحزن، وآلمهم فراقه أشد الألم. كان صافي السريرة، حميد السجايا، كريم الخصال، صالحًا ورعًا، محبًا للخير، كان حليمًا رحيمًا متواضعًا كل التواضع، لم يكن عظمته يميل إلى متاع الدنيا وزخرفها، ولم يركن إلى الخمول والهمود والراحة، بل كان نشيطًا يقظًا، وكان همه تقوية مركز حكومته، وتوسيع نطاق نفوذها، وتوثيق الصلات بينه وبين القبائل المتاخمة لحدود مملكته، لم يحدث في حياته أنه أساء إلى شخص أو عاقبه من غير ذنب جناه أو جريمة ارتكبها، بل كان حريصًا كل الحرص على تنفيذ الأحكام في حدود العدالة، ولقد نفذ حكم الإعدام على ثلاثة أشخاص: أحدهم كثيري، والثاني أحد مواليه، وآخر سمسار؛ ذلك لأنهم قتلوا الكوربي غدرًا، وكان نائمًا في أحد مساجد شِبَام ونهبوا نقوده، فأرسل إلى الثلاثة وأعدمهم في المُكَلَّا على مرأى من الناس(١).

ومن أعماله: احتلال سَاهْ، وقمع شوكة الحُمُوْم، وامتداد السلطة على وادي الأيسر، ومعاهدة عدن.

قام بالأمر بعده أخوه السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي، فظلت شؤون الحكومة كما كانت في عهد الراحل الكريم، وظل السيد حسين حامد المحضار وزيرًا لها والحاكم بالنيابة حينما يذهب السلطان عمر إلى حيدر أباد.

---

(١) كان البريكي أحد عبيد القُعَيْطي الأبطال، وهو من أحبهم لدى السلطان لبسالته وشجاعته، ولكن السلطان لم يتردد في إعدامه تنفيذًا لحكم الشرع، ومما يؤثر عن هذا المولى أنه كان أحد آل كثير يقال له العمسا، يقطع السابلة في ضواحي شِبَام، ويلقي الرعب في قلوب الناس، فسار إليه البريكي وبصحبته ٢٥ شخصًا من يافع، وفي مقدمتهم عمر صلاح لحمدي اليافعي، ودخلوا داره، فوجدوه نائمًا في السطح فأيقظوه، فهب من نومه مذعورًا، واندفع إليهم ليطعنهم بخنجره، ولكنهم مسكوه وقتلوه في الحال، ولما خرجوا من باب الدار ألقت عليهم زوجة القتيل (مرها) فأصابت عمر صلاح إصابة خفيفة.

هَيْنَن

بعد أن تخلى الحاكم السيد سالم بن علي بن هرهرة اليافعي عن مدينة هَيْنَن سنة ١٢٨١هـ اضطربت شؤونها، وتعدى الأقوياء على حقوق الضعفاء ففقد الأمن، وانتشر الرعب في الناس. وفي سنة ١٣٤١هـ سار وفد من أعيان هَيْنَن إلى الأمير علي بن صلاح القُعَيْطي اليافعي حاكم شِبَام وملحقاتها، وطلبوا إليه بسط حمايته على هَيْنَن، وإرسال نائب من لدنه يدير شؤون الأهلين، ويصلح أحوالهم، فبعث الأمير علي جماعة من يافع وعبيد، وجعل السيد محمد صالح لحمدي اليافعي حاكمًا من قبله على هَيْنَن.

حرب العصابات في دَوْعَن

بقيادة محمد بن عمر باعقيل باعلوي

يسكن هضاب دَوْعَن ومرتفعاتها قبيلة الدَّيِّن وهي من أكبر قبائل البادية وأصعبها مراسًا، وهم دائمًا في ضنك من العيش، لجدب أراضيهم، وقفر أوديتهم، ولا يهنأ لهم مقام، إلا إذا نزل المطر، حيث يزرعون فيأكلون. ولما جاء محمد بن عمر باعقيل، وكان ذا مال أراد أن يكوّن له مركزًا عظيمًا، أو بعبارة أوضح حاول أن يخلق له إمارة في قَيْدون، فاستمال إليه خمسين رجلًا من قبائل الدَّيِّن بما بذله لهم من المال، وأخذ يعبث بالأمن، ويثير المشاغبات والمناوآت، فأرسل إليه نائب حكومة القُعَيْطي خمسة عشر جنديًا وألقوا القبض عليه وأتوا به إليه، فاعترف محمد باعقيل بعصيانه، وطلب إليه العفو، فأجابه النائب إلى ذلك، ولكنه عاد إلى بلده، وجهز ١٥٠ رجلًا من الدَّيِّن لمناوأة النائب، فبعث إليه النائب ٢٠٠ جندي، فهرب محمد باعقيل وعصابته بعد أن نهبوا مواشي بعض الرعايا، واستطاع النائب أن يلقي القبض عليه وهو ذاهب إلى بَضّة، وأرغمه بدفع ٥٠٠ ريال ثمن المواشي المنهوبة، وأطلق سراحه، ولم يكد يصل باعقيل بلده حتى جهز ٧٠٠ رجل من الدَّيِّن، وكمن بعضهم في وادي دَوْعَن وقتلوا ليلًا ثلاثة من جند الحكومة، وفي الليلة الثانية قتلوا اثنين، ثم أحرقوا نخلًا كثيرًا، ونهبوا عبدًا وثلاثة حمير، ومسكوا ابن البار ظنًا منهم أنه ابن حسين حامد المحضار، وفي الصباح اتضح لهم أنه ابن البار، فأطلقوا سراحه. أما النائب فقد أرسل إلى الحكومة بالمُكَلَّا يطلب المدد، فأرسلت الحكومة إليه وزيرها حسين حامد المحضار، وبضع مئات من يافع،

والتحمت الحرب بين الفريقين، فانهزمت قبائل الدَّيِّن شر هزيمة، وقتل من يافع أربعة وجرح اثنان، ولما رأى البدو تقدم الجيش الحكومي واستيلاءه على بعض أماكنهم خافوا العاقبة، فأرسلوا عددًا من أعيان البار وآل عطاس إلى قائد الجيش ليطلبوا إليه إيقاف الحرب، فأجابهم إلى ذلك بعد أن سلموا إليه زعيم العصابات محمد باعقيل، و٢٤ رجلًا من الدَّيِّن، وسجن هؤلاء في دار المصنعة عند النائب، أما محمد باعقيل فقد سجن في المُكَلَّا، وكان ذلك سنة ١٣٤٢هـ، وظل محمد في السجن أربع سنوات، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع للحكومة ٥٠٠٠٠ ريال كغرامة للحرب التي أشعلها بيده.

حادثة الدِّيْس

حينما زادت مشاغبات قبائل الدَّيِّن في دَوْعَن وتعدوا على الحرث والنسل أخذ الوزير حسين حامد المحضار بضع مئات من يافع في المُكَلَّا والشِّحْر والغيل والحامي والديس، وذهب بهم إلى دَوْعَن لقمع مشاغبات الدَّيِّن، والقضاء على اضطراباتهم، وكانت الحال في بلدان السواحل وبالأخص الحامي والديس في أشد الحاجة إلى حامية قوية؛ نظرًا لمناوشات الحُمُوْم وتحفزهم للنهب والسلب، ولكن الوزير لم يهتم لذلك، وكان السلطان عمر بن عوض في حيدر أباد، فانتهز الحُمُوْم تلك الفرصة، وزحف نحو ٢٠٠٠ رجل منهم على الديس، فخرج لهم محمد ضيف البكري اليافعي، وبصحبته عشرة من يافع، ولكنه قُتل وخمسة من رجاله، وقُتل من الحُمُوْم أربعة، وحاصر الحُمُوْم الديس وأحاطوا بها أيامًا، ولما بلغ ذلك إلى الشِّحْر أرسل واليها بالنيابة عمر صالح بن هرهرة اليافعي كتابًا لأهل الديس يأمرهم بالصبر والثبات حتى يأتيهم المدد، ولكن الحُمُوْم مسكوا الرسول واطلعوا على الكتاب، ثم هجموا في الحال على الديس، وظلوا فيها أيامًا ينهبون المتاجر وغيرها، ولما بلغ ذلك إلى الشِّحْر بعث الوالي عمر صالح إلى الأمير سالم

أحمد القُعَيْطي حاكم المُكَلَّا بالنيابة، فأرسل الأمير إليه نحو ٣٠٠ من يافع والعبيد وجهز الوالي عمر صالح ٣٠٠ رجل من جند الشِّحْر، ولما جاء جيش المُكَلَّا حدث بينهم وبين الوالي خلاف بشأن تكاليف الحملة، وكان الرؤساء السادة سعيد بن حسين الفضلي اليافعي، وصلاح بن سالم البطاطي اليافعي، ومحمد حسين بن حطبين اليافعي، وعوض عبدالله اليزيدي اليافعي، ثم ساروا إلى الدِّيْس، ولما علم بهم الحُمُوْم هربوا بعد أن حملوا معهم من المتاجر ما استطاعوا حمله، وأسروا بعضًا من يافع وفروا بهم، وتركوا المدينة بعد أن مكثوا فيها أيامًا ينهبون ويسلبون، وكان ذلك سنة ١٣٤٣هـ.

حرب الغُرْفَة

تقع مدينة الغُرْفَة بين شِبَام وسَيْئون، يحيط بها غابة من النخيل الباسق، وتحدها من ناحية الشمال مُصْنعة آل عَبْدات، وفي الجنوب بامتين، ومن الغرب بابكر ديار آل عَبْدات أيضًا، ثم مساكن آل الفاس، وآل العاس، وآل مهري، وآل عون، وآل عمر البدر، وآل برقي، وآل حويل. وكان الشيخ عبدالله باعَبّاد أول من عمّرها، وسميت غُرْفة باعَبَّاد.

ولآل باعَبَّاد في الغُرْفَة مآثر وصدقات جارية وأوقاف وامتيازات ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وكانت لهم سلطة روحية استطاعوا بها أن يحكموا الغُرْفَة ويفصلوا في المشاكل التي تحدث بين الغرفيين، وحينما ظهر الضعف فيهم، وبدأت سلطتهم الروحية في التقلص والانكماش لافتراق كلمتهم وانشقاق جمعهم، بسط آل أحمد بن زين الحبشي نفوذهم الروحي، وتسيطروا على الغرفيين واستعبدوهم، ولقد ساعدهم في ذلك أمران: ضعف آل باعباد لافتراق كلمتهم، ومساعدة بعض أرباب الشوكة من حملة السلاح لهم، ولقد كانت النتيجة من جراء ذلك أن ازداد الخصام والعداء بين آل باعباد وآل أحمد بن زين وغيرهم من آل باعلوي، وظل ذلك الخصام ثائرًا حتى نهاية سنة ١٣٠٠هـ.



مدينة الغُرْفَة

ثم استطاع آل أحمد بن زين بدهائهم أن يزيلوا ذلك الخلاف والعداء في الظاهر، وأصبح الفريقان يتبادلان الزيارة، ولكن قلوب الفريقين لم تصفُ، فالعداوة ظلت كامنة فيهم كمون الجمر تحت الرماد، وبالرغم عن قوة سلطة آل أحمد بن زين الروحية وتأثيرها في الغرفيين، فإنهم لم يستطيعوا أن يحفظوا الأمن في الغُرْفَة ويديروا شؤون أهلها، فالفوضى ضاربة أطنابها، والأموال منهوبة، والحقوق مسلوبة، والدماء مسفوكة، والأمن مفقود، وحملة السلاح يتصرفون في أهل الغُرْفَة كما يشاءون، ويأخذون بأيديهم ما يطيب لهم من مال وطعام وما إلى ذلك، وكان أهل الغُرْفَة وبالأخص التجار يستغيثون مما يلاقونه من المظالم، ولكن لا مغيث، ويستنجدون ولا منجد، ويستجيرون ولا مجير، وحينما تثور حرب بين القبائل يحتل بعضهم الغُرْفَة، ويتخذون الدور مساكن لهم ومخافر ومراصد، وهم يأكلون في أثناء الحرب على حساب الغرفيين حتى تضع الحرب أوزارها، واضطر بعض

الغرفيين إلى أن يستنجدوا بأولي السلطة الروحية من آل باعلوي كآل أحمد بن زين، فينجدهم هؤلاء من بعض المظالم، ولكن على شروط هي أشد وطأة من مظالم حملة السلاح، ذلك أن أولئك المستنجدين يجب أن يقروا عن أنفسهم وأولادهم أنهم خدم لهم ولأعقابهم، وهكذا ينجو أولئك المساكين من ظلم حملة السلاح المؤقت، ويخضعون لمظالم آل باعلوي المؤبدة.

وكان السيد صالح عبيد بن عبدات الكثيري طموحًا، شغوفًا بالرئاسة والزعامة، ولقد ساعده دهاؤه وحزمه وثروته الواسعة على نيل ما تطمح إليه نفسه الكبيرة، فأعد عدته لاحتلال الغُرْفَة وإدارة شؤونها، وكان ذلك سرًا من الأسرار لم يعلم به الناس حتى ولا أقرباؤه، حتى إذا كان على أتم استعداد ظهرت مطامحه وأغراضه.

سار إلى الغُرْفَة واستولى عليها سنة ١٣٤٤هـ، ونادى بنفسه أميرًا عليها، وأخذ يصلح شؤون الأهالي، وينفذ أحكامه العادلة فيهم، وضرب نقودًا باسمه ونشرها للتبادل بين الناس، فاتسع نفوذه، وقويت شوكته، وهابه الغرفيون، غير أن ذلك لم يرق لآل جعفر وغيرهم من فخائذ آل عمر، فحقدوا عليه وأزمعوا وأجمعوا على إخراجه من الغُرْفَة عنوة، وبلغ ذلك إلى أمير الغُرْفَة، فحصن مدينته بقوم من عشيرته آل خالد بن عمر وغيرهم من حملة السلاح، وحفر الخنادق، وبنى المراصد، وأعد عدته للحرب والنضال، ولقد تطورت المشكلة، فانضم من جانب آل جعفر آل عبدالله أعضاء البيت المالك، وجميع فخائذ آل عمر، وبدأت المناوشات بين الفريقين، ولحسن حظ آل عمر أن السيد حسين حامد وزير حكومة القُعَيْطي اليافعي جاء شِبَام، وبصحبته بضع مئات من الجند، ومدافع من الطراز الحديث، وانضم إلى آل عمر ضد آل خالد بن عمر بعد مفاوضات دارت بينه وبين زعيم آل عمر السيد سالم بن جعفر الكثيري.

ومن أهم أغراض الوزير السيد حسين حامد أن يوفق لعقد صلح متين بين الحكومة القُعَيْطية، وبين قبائل الحُمُوْم بواسطة آل عمر، أو على الأقل أن تلتزم حكومة آل عبدالله الكثيرية بمنع دخول الحُمُوْم في أراضيها، ولكن الوزير لم ينجح في عمله.

اتحد آل عمر وابن عبدالله وضموا إليهم الوزير حسين حامد، ومن معه من يافع البالغ عددهم نحو ٢٠٠ رجلًا، فتكوَّن بذلك جيش انقسم إلى فرقتين: إحداهما حاصرت الغُرْفَة من الناحية الغربية، والأخرى من الناحية الشرقية الجنوبية، واشتعلت الحرب بين الطرفين يوم ٦ محرم سنة ١٣٤٤هـ، وامتدت إلى يوم ٦ صفر سنة ١٣٤٤هـ، ولقد أبدى أمير الغُرْفَة ثباتًا وجلدًا؛ مما جعل اليأس يتطرَّق إلى قلوب أعدائه، وبنى حصنًا غربي سقاية بلخير على مقربة منهم، وأخذ رجاله يمطرون عليهم بالرصاص، ثم عقدوا اجتماعًا في دار السيد سالم بن محمد بن يماني حضره سمو الأمير علي بن صلاح القُعَيْطي، والوزير السيد حسين حامد المحضار، والسيد سالم بن عبود، والزعيم السيد سالم بن جعفر، والسيد عبيد صالح، وقرروا نقل المعسكر من مكان ابن عمر بن بدر إلى مكان آخر، وإرسال ٦٠ مقاتلًا إلى يَرْقَق ديار آل فاس، واستمرت المناوشات من الجانبين، ولما رأى يافع أنه لا فائدة من الحصار، وأن المناوشات تذهب جفاء أرادوا الهجوم على الغُرْفَة، ولكن الوزير حسين حامد منعهم عن ذلك، فألحوا عليه وأنذروه بالانسحاب إذا لم يسمح لهم بالهجوم، فلم يجبهم إلى ذلك فانسحبوا، وعادوا إلى ديارهم في القَطْن، ولم يبقَ في جبل شِبَام غير العبيد وجماعة آل عمر، واضطر الوزير حسين حامد لطلب المدد من المُكَلَّا فلم يأته أحد، فأمر العبيد بالانسحاب من الميدان، وتلاهم آل عبدالله، وانفرد آل عمر بمحاربة آل خالد بن عمر، وعرج الوزير حسين حامد إلى المُكَلَّا خائبًا محسورًا، وقد أرهق الحكومة القُعَيْطية بصرف الأموال

والذخائر لحرب الغُرْفَة دون أن يظفر بشيء ما، ودون أن يوفق إلى توطيد مركز حكومته وتقوية أركانها، بل كانت العاقبة وخيمة لا على الحكومة اليافعية، بل وعلى الحكومة الكثيرية أيضًا، فإن انسحابهما من الميدان بعد إعلانهما للحرب، أظهر للناس عجزهما عن إخراج آل خالد بن عمر من الغُرْفَة.

مشاغبات الحُمُوْم

أما الحُمُوْم الذين سار الوزير حسين حامد لعقد صلح بينهم وبين حكومة القُعَيْطي بواسطة حكومة آل عبدالله ولم يفلح، فقد ازدادت مشاغباتهم ومناوأتهم لحكومة القُعَيْطي ورعاياها، وكانت مواصلات الحُمُوْم بسَيْئون وتَرِيْم متينة، وكانوا يبيعون بعض المنهوبات من سوق سَيْئون، وقد أشيع لذلك أن الحكومة الكثيرية تمد الحُمُوْم بالمال والذخائر للقيام ضد الحكومة اليافعية، فسار الوزير السيد حسين حامد إلى شِبَام في أواخر سنة ١٣٤٤هـ، واستدعى إليه رؤساء آل كثير وآل تميم، وطلب إليهم مقاطعة الحُمُوْم، ومنعهم من الدخول في بلدانهم ليضيق عليهم الخناق فيخضعوا للحكومة القُعَيْطية، فعاهدوه على ذلك، والتزموا على أنفسهم بمقاطعة الحُمُوْم من جميع بلادهم، ولكن الوزير حسين حامد لم يكتف بذلك، فهو طلب إلى كل قبيلة من آل كثير رجلين يبقيان في حوزة الحكومة القُعَيْطية كرهائن لئلا يجدوا سبيلًا لنكث العهد، فامتنعت القبائل الكثيرية عن تسليم رجالها، ولقد ظن الناس أن حربًا ستثور بين الحكومتين اليافعية والكثيرية، ولكن لم يكن شيء، ثم عاد الوزير السيد حسين حامد إلى المُكَلَّا.

جمعية الحق

أقام أعيان مدينة تَرِيْم، وفي مقدمتهم السادة آل الكاف جمعية تدعى (جمعية الحق)، وكان غرضها في بادئ بدء إصلاح أهل تَرِيْم أدبيًا واجتماعيًا، ولكنها لم تلبث أن أخذت تسعى سعيًا حثيثًا في التدخل في شؤون البلاد السياسية، ولقد

استطاعت بقوة نفوذها المادي أن تؤثر في الأمير محسن بن غالب الكثيري، وتقضي على مركزه، فقد أصبحت شؤون المدينة في يد الجمعية، فهي التي ترسم الضرائب أو العوائد والرسوم على الأهلين، وتعهدت للأمير بدفع مبلغ من المال سنويًا في مقابل تخليه عن شؤون المدينة، وصار العبيد يستلمون مرتباتهم من الجمعية، أو بعبارة أخرى من آل الكاف، وهكذا استطاعت (جمعية الحق) أن تتولى زمام إدارة تَريْم، وتنفرد بالسلطة المطلقة والنفوذ الأعظم، ولما توفي الأمير محسن بن غالب الكثيري في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣هـ قام بأمر تَريْم بعده الأمير سالم بن عبود بن مطلق الكثيري، ولكنها ولاية اسمًا، فـ(جمعية الحق) هي التي تقوم بإدارة البلد، وهي صاحبة الحول والطول.

وأهم الأسباب التي دفعت الجمعية إلى التدخل في السياسة والقيام بشؤون تَريْم هو ما رأته من الفوضى في كل النواحي، فمن جهة كانت الضرائب تفرض على السكان دون أن يراعى فيها العدل والإنصاف، فقد يرهق أحدهم بالضرائب، ويدفع الآخر أقل مما يجب، ويعفى من الضرائب كبار بعض أصحاب السلطة الروحية، ليس لكونه فقيرًا، فقد يكون ذا مال كثير، ولكن لأنه ذو منصب، أو لأنه من كبار الروحانيين، ومن جهة أخرى كانت مرتبات العبيد تدفع من غير نظام، وأحيانًا تقطع عنهم، وهو الأمر الذي كان يدفع هؤلاء العبيد للثورة ضد السلطان، فـ(جمعية الحق) أرادت أن تزيل هذه الفوضى وتصلح أمور المدينة، وليس من شك أن تدخُّل الجمعية في شؤون تَريْم ليس من صالح منصب آل عيدروس وأتباعه، لذلك تولّد فيهم الحقد ضدها، ومما زاد الطين بلة محاولة الجمعية مد نفوذها على بعض فخائذ آل تميم، وأخذ المنصب يحرك آل تميم ضد خصومهم، واستدعت الجمعية كبار آل قصير وآل محمد، وحرضتهم على القيام ضد آل سلمة، وزودتهم لذلك بالمال والذخيرة، فسار هؤلاء إلى بلد السُّوَيْرِي وحاصروها ثم أثاروا حربًا

عليها، واتسع نطاق الفتنة، وحوصرت تَرِيْم من آل تميم الموالين لآل عيدروس، وهبَّ عبيد السلطان وغيرهم من حملة السلاح يدافعون عن المدينة، وآل الكاف يمدونهم بالذخائر، وأخيرًا رفعت إلى الحكومة القُعَيْطية شكاوى مما حل بالناس من البوار والدمار، وطلب أصحابها إليها أن تتدخل في الأمر وتصلح ذات البين، فأوفدت لذلك وزيرها السيد حسين حامد المحضار وستين رجلًا من يافع، واستطاع الوزير أن يحسم النزاع والخصام، ويصلح بين الفريقين، وهدم مخفر تَرِيْم، وجعل في تَرِيْم من يافع ٢٤ رجلًا عن يافع، وعليهم السيد محمد بن صالح الحداد القُعَيْطي اليافعي، وكان ذلك سنة ١٣٤٥هـ وأصبحت السيارات تسير بين سَيْئون وتَرِيْم بخفارة يافع؛ لأن آل الكاف كانوا يخافون من آل تميم أصحاب آل عيدروس بالرغم عن وجود حاميتين ليافع في سَيْئون وتَرِيْم، وفي ذات يوم خرجت سيارة من تَرِيْم، ولم يكن يخفرها أحد من يافع، فتعرض لها جماعة من آل تميم وأطلقوا عليها النار، ومنعوها عن الذهاب إلى سَيْئون، ولما بلغ ذلك إلى يافع الذين في تَرِيْم ساروا في الحال والتقوا بآل تميم، وثارت بينهم حرب، وقتل من آل تميم اثنان، ومن يافع واحد، وبلغ ذلك إلى السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي اليافعي، فأرسل إلى يافع بالانسحاب من سَيْئون وتَرِيْم، والعودة إلى المُكَلَّا.

مؤتمر سنقافورة

في سنة ١٣٤٦هـ كان سمو الأمير المحبوب صالح بن غالب القُعَيْطي اليافعي ولي عهد الحكومة القُعَيْطية نائبًا عن عمه السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي اليافعي في إدارة شؤون الحكومة في المُكَلَّا، وسمو الأمير من أعظم رجالات الحضارم ثقافة وأدبًا، وأحبهم لإصلاح الوطن، وأكثرهم غيرة على الحضرميين، وهو في الوقت نفسه خبير بمواقع الداء في أمته، عليم بطرق علاجها وهدايتها إلى الصراط الأقوم. رأى سموه الفوضى ناشبة أظفَارها في طول البلاد وعرضها، والغباوة

تنخر الأمة نخرًا وتدفعها دفعًا إلى مستقبل هو أشد سوادًا من ظلام الليل، فأراد سموه إزالة الفوضى بإيجاد نظم عصرية نافعة في البلاد، وأراد تبديد الجهالة بنشر العلوم، وأراد إصلاح العباد وترقية البلاد، فاستدعى سلاطين آل عبدالله، وبعضًا من أعيان الحضارم للتشاور والتآزر والتعاون في الأمر، فلبى نداءه السلطان علي بن منصور الكثيري، وجماعة من الأعيان، وتكونت في الشِّحْر لجنة تحت رئاسة كل من السلطانين صالح بن غالب، وعلي بن منصور، وأذاعت الدولتان القُعَيْطية والكثيرية بلاغًا رسميًا إلى كافة أهالي حضرموت، وهذا نصه:

بلاغ رسمي عام

من الدولة القُعَيْطية ودولة آل عبدالله الكثيرية إلى كافة أهالي حضرموت

بسم الله وبحمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وجنده.

أما بعد: فهذا بلاغ رسمي عام من الدولتين الدولة القُعَيْطية، ودولة آل عبدالله الكثيرية، ليعلم الخاص والعام من أهالي حضرموت كافة أنه تم بعون الله وحسن توفيقه تجديد الاتحاد، وتوثيق عرى الصداقة والارتباط بين الدولتين؛ أن يتعاونا جهدهما على الإصلاح، وإقامة الأمن والعدل والإنصاف، كما تقتضيه الشريعة الإسلامية الغراء، وأن يدهما واحدة على كل مخالف، وعدوهما واحد، وصديقهما واحد، ومما تم الاتفاق عليه بين الدولتين؛ أن من تثبت مخالفته للإصلاح وتسببه في القلاقل والاضطرابات، ولا يستسلم، ولا يحتكم للحق على يد الدولتين؛ يجرى التضييق عليه، وتقطع مصالحه ومواصلته في أراضي الدولتين، ويلقى القبض في البنادر عليه وعلى أمواله ومن يصلها من أصحابه وجماعته وأموالهم، ولأجل تحقيق ما ذُكِر تم الاتفاق بين الدولتين ينبغي أن يكون للدولة القُعَيْطية نائب عنها في سَيْئون، ونائب عنها في تَرِيْم، وأن يكون لدولة آل عبدالله نائب عنها في الشِّحْر، ونائب عنها في المُكَلَّا .

والله يتولى الجميع بتوفيقه ورعايته، ويأخذ بيد المملكة الحضرمية المتحدة إلى أوج التقدم والفلاح.

حرر في بندر الشِّحْر في ٢٦ ربيع الثاني عام ١٣٤٦هـ

وتقرر في اجتماعهم المنعقد في الشِّحْر في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٤٦هـ إيفاد الشيخ الطيب الساسي إلى جاوة مندوبًا عن الحكومتين اليافعية والكثيرية لدعوة الحضارم المهاجرين في ذلك الصقع النائي للاشتراك في إصلاح الوطن وترقية أبنائه، وأذاعت كل من الحكومتين بلاغين رسميين إلى كافة الحضارم في جاوة، وهذا نصهما:

خطاب السلطان صالح بن غالب القُعَيْطي

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

أما بعد: فهذا خطاب عام إلى كافة أفراد الشعب الحضرمي النبيل القاطن في جاوة: أيها الوطنيون النجباء: لقد دعاني الواجب الوطني أن أبذل قصارى جهدي في إصلاح وطني الحضرمي المبارك، وأجتهد بقدر طاقتي ونفوذي في إزالة ما فيه من أسباب القلاقل والفتن، ووضع أساس متين للعدل والأمان، وحسم الفوضى والاستبداد، وقد هدتني هذه الفكرة إلى السعي في وضع خطة أساسية أتمكن بها من إيجاد اتحاد تام بين أفراد الأمة، وإيجاد وئام وثقة بين الأمة والقوة الحاكمة، وإزالة سوء التفاهم من بينهم ليتيسر لنا الوصول إلى ما نحن بصدده، فوجهت الدعوة إلى من شممت فيهم رائحة الصلاح من أعيان حضرموت، وطلبت منهم أن يرسلوا إليَّ وفدًا من ساداتها وأعيانها ورؤسائها، ورجوت منهم تلبية دعوتي إلى الإصلاح، فلبوا دعوتي بارتياح، وقالوا حي على الصلاح وحي على الفلاح، وبعد مفاوضتي مع هيئة الوفد الحضرمي المؤلف من سادات حضرموت وأعيانها وعلمائها، استقر رأينا على إبرام اتفاق بيننا يكون هو أساس الوحدة القومية لنتمكن به من إيجاد

وئام تام بين أفراد الأمة وبينها وبين الهيئة الحاكمة، وقد تم الاتفاق بيننا، وتقرر بيننا أن نرسل وفدين: وفدًا إلى حضرموت يطوف على جميع القبائل وسكانها لتفهيمهم مقاصدنا، ودعوتهم إلى الإصلاح بالطرق السلمية، ووفدًا يتوجه إلى جاوة لاستنهاض همم أهل الوجاهة واليسار من الوطنيين الأحرار للأخذ بيد الهيئة الاجتماعية، والاشتراك في إقامة جمعية من الوطنيين تتساعد مع الهيئة الحاكمة في الأقطار الحضرمية، وهيئة الوفد الحضرمي في إجراء الإصلاحات الوطنية اللازمة، كنشر المعارف، وإقامة شركات وطنية لإنماء الزراعة وإحياء الصناعة.

وإنني أرى من أوجب الواجبات على الأمة الحضرمية سيما أهل اليسار منهم، والذين تنورت أفكارهم باحتكاكهم بالأجانب؛ أن يبذلوا ما في وسعهم لإبادة الجهل السائد على أبناء وطنهم فإنه علة العلل، ومورث الخمول والكسل، وما دام الجهل سائدًا على أفراد الأمة فلا تترقى ولا تتبع الخطة العادلة التي يجب أن تسير عليها؛ لأنها لا يمكن أن تعرف مصالحها من مضارها إلا بالتعليم الصحيح، ولو فرضنا أننا وفقنا إلى إجراء بعض إصلاحات بسعي أفراد من الأمة أو الحكومة، فإن تلك الإصلاحات تزول بزوال شخصية رجال الإصلاح. أما النهضة الإصلاحية التي تنتج من مجموع أفكار الأمة وقوة مركزها العلمي، فهي التي تبقى مستمرة ويكون لها شأن عظيم، ولذلك أرى من أوجب الواجبات على رجال حضرموت وهيئتها الحاكمة أن يوجهوا عنايتهم لنشر العلوم والفنون والصنائع في وطنهم العزيز، وأريد بالعلوم عامة المعارف التي تؤهل الأمة لخدمة وطنها، وتثقيف عقول أبنائها، وتفيدهم في إصلاح أنفسهم وإصلاح بلادهم وذات بينهم، فلا يجب أن يكون التعليم قاصرًا على العلوم الدينية واللسانية، بل لا بد أن يشمل نظام التعليم جميع العلوم التي تحتاج إليها الأمة لخدمة وطنها، كالعلوم الرياضية والطبيعية والاقتصاد السياسي والطب، فإن درس هذه العلوم لخدمة الأمة فرض كفاية كما

صرح به الغزالي، ولا بد من تعلمها لحفظ نظام الهيئة الاجتماعية، ونمو حياتها، إذ لا بد أن تكون في الأمة طائفة من المهندسين، وطائفة من الأطباء، وطائفة من أهل الأقلام، وهلمَّ جرًّا، حتى يحصل للوطن الرقي الصحيح بتعاون أبنائه على القيام بأعباء الأعمال المختلفة اللازمة لحفظ كيانه.

فهلمُّوا يا معشر الحضارمة إلى التعاون على الإصلاح، فبالاتحاد في العمل يسهل كل صعب، وإن حكومتنا ستمد يد المساعدة، وستبذل ما في وسعها لتنشيطكم فهلموا إلى العمل فإنه مفتاح الفرج.

لقد اشتهرت حضرموت على الألسنة بالجدب والقحولة، وعدم وجود المياه فيها، ولكن تبين لي بعد درسي جغرافية البلاد الطبيعية درسًا بسيطًا أن موارد المياه توجد بكثرة في حضرموت وسواحلها، وأن الأطيان الصالحة للزراعة توجد فيها بوفرة، ولولا جهل سكانها بالوسائل الفنية اللازمة لتخزين المياه ونظام الري لأصبحت حضرموت من أخصب الأراضي الموجودة في اليمن، فيجب عليّ -وحالة بلادكم كما قد شرحت لكم- أن أستلفت أنظار أهل حضرموت، لا سيما أهل اليسار منهم إلى إحياء بلادهم بإقامة شركات زراعية، وتأليف جمعيات وطنية للنظر في المشاريع العمرانية. وقد يعترض بعضهم بأن هذه الأعمال تتوقف على إقامة الأمن في حضرموت، وحسم الفوضى المخيمة على ربوعها وغير ذلك، ولكنني أقول إن من درس أحوال حضرموت عرف أن أكثر أبنائها ميالون إلى الإصلاح، وأن أهل البغي والفساد منهم يعدون على الأصابع، فإصلاحهم لا يتعسر على القوة الحاكمة متى ما رأت إقبال أهل الثروة على إحياء بلادهم بتنشيط الزراعة، وإحياء الصناعة، وتقوية التجارة وغير ذلك.

فالهمة الهمة في إبراز نتائج أعمالكم إلى عالم الوجود بعزم ونشاط يثبتان للأمم الحية ما أنتم عليه من محبة الوطن والإنسانية، فقد اشتهر آباؤكم بكل مزية، وكانوا

قادة للتمدُّن، والولد يكون سرًا لأبيه، فكونوا مثلهم في النشاط والعزيمة، وإذا عزمتم على أمر تذكروا قول الصفدي واعملوا عليه:

لقد سعينا فلم تضعف عزائمنا عما تروم ولا خابت مساعينا

لا يظهر العجز منا دون نيل منىً ولو رأينا المنايا في أمانينا

وقد سررت كثيرًا حينما بلغني خبر إقبالكم على الأخذ بساعد الهيئة الوطنية، ومساعدتها على مساعيها المبذولة لانتشال الوطن من الحضيض إلى أوج الكمال، فأرجو أن تقرنوا أقوالكم بالعمل، وأن تقدروا الوقت حق قدره، فإن الوقت ثمين، وليكن منكم إقدام على الأعمال الخيرية بسرعة فائقة، وهمة عصامية.

وقد أوفدت إليكم أحد رجالنا الأخصاء، وهو الأستاذ الفاضل الشيخ الطيب الساسي مندوبًا مفوَّضًا من قبلي للمفاوضة معكم في كل ما به إصلاح الوطن الحضرمي وأبنائه، وأرجو أن تتوفقوا معه لما يحقق آمال إخوانكم بالوطن فيكم، والله يوفقنا وإياكم إلى ما فيه خير البلاد والعباد، وأن يكلل أعمالنا جميعًا بالنجاح. والسلام.

حررته بخطي بتاريخ ١٥ جمادى الأول سنة ١٣٤٦هـ

صالح بن غالب القُعَيْطي

خطاب السلطانين علي بن منصور وعبدالله بن محسن آل عبدالله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه المهتدين بهديه.

أما بعد: فهذا خطاب عام إلى كافة الوطنيين الحضرميين المهاجرين في بلاد جاوة عليهم السلام، وفقنا الله وإياهم للاعتصام بحبل الإسلام، والاهتداء بهدي سيد الأنام، عليه وآله أفضل الصلاة وأزكى السلام.

أيها الوطنيون الأعزاء: لقد أفادنا تكرر التجارب أن الاستمرار في التقاتل والشجار نتيجته للأمة الهلاك والبوار، وللوطن الخراب والدمار، ثم إننا بحثنا عن الدواء الذي استعمله غيرنا من الأمم الغابرة والحاضرة التي ابتليت بمثل ما ابتلينا به من الأمراض، فوجدناه الاتحاد الذي هو رأس كل خير وسداد، ومبيد كل شر وفساد، فرأينا لأنفسنا الصلاح أن نسلك الطريق الذي سلكه غيرنا للصلاح.

وعلى ذلك حينما دعانا الأخ الصالح المصلح المكرم السلطان صالح بن غالب بن عوض القُعَيْطي المعظم نحن ونخبة من سادات حضرموت وأعيانها أن نصل إليه للمفاوضة في وضع قاعدة للاتحاد والتعاون على الإصلاح والرشاد، وقطع جذور الفوضى والفساد، لبينا دعوته مسرعين، فوصلنا البنادر فرحين مستبشرين، ولخير الوطن وأبنائه عاملين مجدين، وتشاورنا وتفاوضنا في وضع الأساس الذي تتعاون به الدولتان: الدولة القُعَيْطية، ودولتنا دولة آل عبدالله الكثيرية مع الأمة الحضرمية على إصلاح الوطن الحضرمي وأبنائه، فكانت النتيجة على ما يرام، وأسفرت المفاوضات عن إبرام معاهدة جديدة عرفت بمعاهدة الشِّحْر، ونحن لا ندعي أن ما وضعناه من الأسس بلغ حد الكمال إلا أننا نقول: ذلك مبلغ الاجتهاد، ولا يلام المرء بعد الاجتهاد.

وقد فتحت المعاهدة الجديدة باب الأعمال الإصلاحية، في كافة الأقطار الحضرمية الداخلية والساحلية على مصراعيه، وبذلك لم تترك مجالًا لنقد الناقدين.

وعلى ذلك نرجو من كل من لديه فكرة إصلاحية من الوطنيين أن لا يكتفي بأن ينتقد، بل عليه أن يبادر للعمل ويجتهد، ونحن له خادمون مؤيدون، ولأعماله

الصالحة شاكرون حامدون، فإن المقصود الأعظم النهوض بالوطن وأبنائه، لا جمود كل عند أفكاره وآرائه، والوطن يتطلب اليوم رجال أعمال واجتهاد، لا رجال أقوال وانتقاد.

ولأجل تحقيق الوحدة الوطنية، والتعاون بين الدولتين، وسائر أفراد الأمة الحضرمية، كما تضمنته معاهدة الشِّحْر الجديدة، اخترنا أحد أركان الوفد الحضرمي وهو الأستاذ الفاضل الشيخ الطيب الساسي أن يكون مندوبًا مفوضًا عنا لديكم في بيان الحقائق لكم، والمفاوضة معكم في كل ما به إصلاح الوطن الحضرمي وأبنائه، فاعتمدوه، وكونوا عند ظن إخوانكم في الوطن بكم، فإن الآمال فيكم قوية، ولا يخفاكم أن المال رأس جميع الأعمال، ولذلك قدمه الله تعالى في قوله: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، فعليكم بالاتحاد على الخطة العادلة التي تنتظم بها الأعمال، والاكتتاب لجمع رؤوس الأموال التي تصلح بها الأحوال، واعلموا أن من يصرف اليوم واحدًا لصالح وطنه وأمته سيربح غدًا أضعافه مع توفير كرامته، وفقنا الله وإياكم لمرضاته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حرر في بندر الشِّحْر ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٦هـ

عبدالله بن محسن بن غالب   **علي بن منصور بن غالب**

غادر المُكَلَّا الشيخ الساسي إلى جاوة لتبليغ رسالة سلاطين حضرموت إلى الحضارمة في المهجر، ولما جاء سنقافورة نزل ضيفًا في بيت السادة آل الكاف، والحضارمة في جاوة وغيرها من الهند الشرقية منقسمون إلى حزبين: إرشاديين وعلويين، وكل من الحزبين نافر من الآخر وناقم عليه، والشيخ الساسي يجهل تمام الجهل أسباب الشقاق والنزاع القائم بين الحزبين كما أنه يجهل أحوالهم الاجتماعية حتى في بلادهم حضرموت، ولا غرابة في ذلك لأنه دخيل جديد في الحضارم، وكان يجب عليه أن يبقى على الحياد، فلا ينحاز إلى أحد الفريقين دون

الآخر، وينتخب البارزين من الحزبين بنسبة متساوية؛ ليكون المؤتمر بعيدًا عن الحزبيات، ولئلا يكون للعصبية عليه أثر، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، فهو نزل في سنقافورة، وهناك طاب له المقام وخصب العيش، ومال كل الميل إلى حزب آل باعلوي، واتخذهم أنصارًا له كما اتخذوه نصيرًا لهم، ووثق بهم كل الثقة، حتى صار في أيديهم آلة صماء، وهو بذلك راضٍ كل الرضا، مسرور كل السرور، ونسي أو تناسى أن الحكومتين بعثتاه إلى جاوة لا إلى سنقافورة كما هو مذكور في المنشور الذي كتبه السلطان صالح بن غالب القُعَيْطي للحضارم بجاوة، وفاته أيضًا أن مجموع الحضارم في سنقافورة لا يوازي عشر معشار القاطنين منهم في جاوة، وأنه لا أثر لنهضتهم في سنقافورة بالنسبة لآثار نهضتهم هناك، فإن لهم في جاوة جمعيات ومدارس ونوادي كثيرة، ولكن حضرته كما قلنا يجهل حالة من أرسل إليهم، وهو في الوقت نفسه مرغم على النزول في سنقافورة ليكون المؤتمر في مأمن من تدخل الإرشاديين، ولئلا يكون عليه أثر للجمعية اليافعية الموجودة في مدينة التقل بجاوة، والتي يبلغ أعضاؤها نحو ٣٠٠ رجل من يافع، وكلهم من حزب الإرشاد إلا خمسة.

أرسل الساسي هو وجماعة من آل باعلوي خطابات إلى أعيان عشيرتهم في جاوة، حتى إذا اجتمعوا في سنقافورة، ورسموا الخطط التي سيعقدون المؤتمر عليها بعثوا دعوتهم إلى جمعية الإرشاد، وامتنعت جمعية الإرشاد عن إرسال مندوبين عنها لحضور المؤتمر، لأنها رأت أن المؤتمر اصطبغ بصبغة حزبية، وتكوَّن في جو مشبع بالعصبيات، وقد بعثت لهم خطابًا تعتذر فيه عن الحضور، ولكن أعضاء المؤتمر رموا الخطاب وراءهم ظهريًا، ولم يقيموا له وزنًا بدعوى أنه مرسل إلى المؤتمر الأول لا الثاني[1]، وعدوا عدم إيفاد الإرشاديين مندوبين عنهم عقوقًا بالواجبات

(١) يزعم آل باعلوي أن الاجتماع الذي عقد في الشِّحْر في شهر جمادى الأول سنة ١٣٤٦هـ مؤتمر أول، وفي الحقيقة ليس هو سوى اجتماع تمهيدي لإقامة لجنة تدعو الحضارم لعقد مؤتمر عام.

الوطنية ونفورًا عن إصلاح الحضارم، أما الجمعية اليافعية فلم يبعثوا إليها بدعوة لأنهم يخافون أن ترسل مندوبها، أو تنيب عنها أحد كبار أعضائها بسنقافورة ممن يعرفون ما وراء الأكمة، فتفسد خططهم، وتنهار أسسهم التي بنوها للوصول إلى أغراضهم المنشودة.

انعقد المؤتمر الحضرمي بسنقافورة يوم الثلاثاء ٢٥ شوال سنة ١٣٤٦هـ، الموافق ١٧ إبريل سنة ١٩٢٨م تحت رئاسة السيد إبراهيم السقاف باعلوي والأعضاء من آل باعلوي إلا بضع أشخاص من غيرهم، ولكنهم ممن استعبدتهم سلطة آل باعلوي الروحية، واستمر المؤتمر يوالي جلساته إلى يوم ١٠ ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ، وأسفر المؤتمر عن قرارات ننشرها فيما يلي، ولقد أشيع أن المؤتمر يريد أن يهيمن على شؤون الحكومة القُعَيْطية ويتسيطر عليها، فهاجت الجمعية اليافعية بجاوة، وبعثت رسائلها وتلغرافاتها إلى الحكومة القُعَيْطية اليافعية، وإلى أعيان يافع في البنادر وفي الهند؛ تحذرهم من الوقوع في شراك مؤتمر سنقافورة.

أما الشيخ الساسي فقد قفل إلى المُكَلَّا حاملًا تلك القرارات وخطابات أخرى معتقدًا أنه سيلقى أمامه قبولًا حسنًا، ولكنه لم يكد يضع قدمه على أرض المُكَلَّا إلا وألقي عليه القبض، وصودر ما معه من القرارات والخطابات السرية، ثم نفته الحكومة القُعَيْطية اليافعية من بلادها كما نفت أيضًا الجاسوس الأكبر ضد الحكومة محمد بن عقيل بن يحيى باعلوي[1]، وبعث السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي على أثر ذلك إلى جريدة (الأهرام) بمصر بلاغًا عامًا للحضارم بشأن نفي الساسي،

(١) هذا الرجل من دهاة آل باعلوي، خبير عليم ببواطن الشؤون الحضرمية وظواهرها، وقد سكن المُكَلَّا لدس الدسائس، وبث سمومه الفكرية التي منها «الرفض»، وبذل غاية مجهوده في التجسس لقومه، وتطلع للرئاسة، وتذرع بكل الوسائل، ولكنه كان سيء الحظ تأتيه الأمور بعكس ما يتوقع.

ورفض قرارات مؤتمر سنقافورة، وهذا هو نص البلاغ:

من سلطان الشِّحْر والمُكَلَّا إلى جميع الحضارم

ظهر لنا بوادر حركة إصلاح مباركة في القطر الحضرمي أملنا منها الإصلاح ونشر العلوم، وتقوية الروابط بين أهالي القطر الحضرمي تجنبًا للضغائن التي أخرت البلاد عن الإصلاح أولًا، ثم السير بها تدريجيًا في معارج الفلاح حسبما تقتضيه الحال حتى لا تصطدم الحركة بفشل من المحافظين.

فكر السلطان صالح بن غالب القُعَيْطي النائب عنا وقت غيابنا في الهند، وهو مملوء الفؤاد بحب النهوض للأمة الحضرمية، ورأى مع ذلك يقظة أفكار رجالها في حضرموت واتجاه أنظارهم للإصلاح، فعقد مؤتمرًا بالمُكَلَّا جمع فيه ذوي اليسار وبعضًا من أعيان الجهة الحضرميين، وقرروا أن يوفدوا إلى سنقافورة رجلًا يدعو رؤساء الجمعيات، وذوي الشخصيات البارزة من الحضارم في جاوة ليعقدوا مؤتمرًا في سنقافورة؛ لأجل الشروع في معدات الإصلاح، وتقديم الأهم على المهم حتى يتسنى للأمة الحضرمية النهوض من كبوتها في جو صاف من الضوضاء.

ولكن عين لهذا العمل المهم رجل غريب يدعى الطيب الساسي الذي ليس له أدنى معرفة بحضرموت وعوائدها وقبائلها غير ما سمعه مدة إقامته القصيرة في بلد تَرِيْم.

ولما وصل الساسي إلى سنقافورة أرسل دعوة لحضرات رؤساء الجمعيات، وذوي الحيثيات، وكثير غيرهم من الأدباء الحضارمة القاطنين بجاوة، وذلك بواسطة بعض رجال في سنغافورة، فأنكر ذوو العقول الراجحة دعوة رجل غريب لا ناقة ولا جمل له بحضرموت، فلم يلب دعوته إلا أناس قليلون لا يتجاوزون عدد الأصابع، ومع ذلك عقدوا مؤتمرًا -كما يزعمون- باسم الإصلاح الحضرمي وقرروا قرارات -كما يدعون- تنطوي على أغراض شخصية تعود على القطر

الحضرمي بأضرار جسيمة، وإن كانت في ظاهرها لمن ليس له معرفة بحالات الجهد الحضرمي يظن أنها تنطوي على شيء من الإصلاح، ومن هذا تجنبوا دعوة ذوي المكانة وذوي العقل لحضور جلسات مؤتمر سنقافورة لما يعرف هؤلاء من حقيقة الحالة وما تضمره تلك القرارات من التفرقة بين أهل حضرموت، وحيث إننا بكل قوانا وغاية جهدنا مصممون على تقدم بلادنا وتحضيرها وترقيتها عارفون منابت الإصلاح ورجاله، فإنا من الآن شارعون في رقيها على يد الرجال الذين نعتمد عليهم في الإصلاح الحقيقي المرغوب، فبعد اطلاعنا على ما قرره مؤتمر سنقافورة المزعوم بدعوة الساسي، فنحن قد رفضناه لمعرفتنا بضرره على أمتنا.

عمر بن عوض القُعَيْطي

أما آل باعلوي ومن يلحق بهم من أعضاء المؤتمر وهم قليلون جدًا، فقد زلزلوا زلزالًا شديدًا، وكادوا يصعقون من تأثير الصدمة الرجعية التي أحدثها رفض قرارات مؤتمرهم، وتأججت حرارة الغضب في قلوبهم، فانقلب بعضهم شعلة من نار تلتهب حقدًا وعداوة على الحكومة القُعَيْطية اليافعية، وأخذوا يرمونها في جريدتهم (حضرموت) التي كانت تصدر في سُرابايا بالظلم والقساوة والغباوة، وأخذ الشيخ محمد بن عقيل بن يحيى العلوي يبعث لبعض الصحف المصرية مقالات كلها شتائم وسباب ونواقر على الحكومة القُعَيْطية وعلى سلطانها المعظم، ثم أرادوا أن يثيروا فتنة بين حكومتي القُعَيْطي وابن عبدالله ويعيدوها جذعة، فأخذوا يغرون سلاطين آل عبدالله ويلحون عليهم ليحتجوا على حكومة القُعَيْطي لرفضها قرارات المؤتمر، ونفيها مندوبها الساسي من حضرموت، ولكن آل عبدالله لم ينخدعوا بهم ولم يتأثروا بما تظاهر به هؤلاء القوم من الود والولاء، فذهبت أعمالهم أدراج الرياح، ولم يكفهم هذا الفشل والخذلان، فحاولوا توجيه أنظار

الناس إلى سَيْحُوت وإصلاح مينائها والمرور منه ليقضوا على موانئ الحكومة القُعَيْطية اليافعية التي رموها بالفوضى والظلم وما إلى ذلك[1]، ولكن ذهبت مساعيهم جفاء، وعادوا بخُفَّيْ حنين.

قرارات مؤتمر سنقافورة

الأول

قرر المؤتمر إرسال وفد إلى البنادر وحضرموت مؤلف من حضرات الذوات الآتية أسماؤهم وهم:

١ - السيد عبدالرحمن بن شيخ الكاف.

٢ - السيد أبو بكر بن عبدالله بن أحمد العطاس.

٣ - الشيخ سعيد بن عبدالله باجري.

٤ - الشيخ أبو بكر بن محمد التوي.

يحمل قرارات هذا المؤتمر المحتوية على الخطة العملية التي انعقد المؤتمر لوضعها بناء على دعوة حضرة المندوب الشيخ الطيب الساسي ليعرضها ويبلغها الحكومتين القُعَيْطية والكثيرية والوفد الحضرمي، ويشاركهم في تأليف الجمعية الوطنية ووضع قوانينها، ويرفع إلى اللجنة التنفيذية التي ألفها المؤتمر ما يتفق عليه مع الحكومتين والوفد الحضرمي.

الثاني

يفتقر الإصلاح الوطني العام إلى نفقات كبيرة لا مناص عنها بالنسبة لحالة فقر

(١) كتبت في هذا الموضوع مقالات كثيرة في جريدة (حضرموت) للشيخ علوي بن طاهر الحداد وزميله عيدروس مشهور.

البلاد الحالي، مع أن الحضرميين في المهاجر لا يتحقق تمام التحقق اشتراكهم في هذا الإصلاح المطلوب؛ إلا بالإسعاف والمساعدة المالية، وقد قرر المؤتمر تكليف الوفود الممثلة فيه عن الجمعيات تبليغها عقب انفضاضه طلبه بأن تفتح فورًا باب اكتتاب يرصد باسم الإصلاح الوطني، وأن تنشر دعاية قوية إليه وتنظم له الوسائل اللازمة، ثم توافي لجنة المؤتمر التنفيذية بما تم من شأن هذا الاكتتاب، أما المبالغ المكتتب بها، فتبقى في أيدي المكتتبين إلى أن تبلغهم تباشير الإصلاح بواسطة اللجنة المشار إليها، وتتعين الوجوه والطرق التي ينظم بها صرف المال المكتتب به وضبطه، وهناك يدفع المكتتبون اكتتاباتهم إلى اللجنة التنفيذية.

الثالث

رغبة في وجود جو من الثقة والاحترام بحكومتي حضرموت وتعزيزًا لحسن سمعتهما، ثم إيجاد ما يقنع الرأي العام بوجوب المساعدة المالية للإصلاح الوطني العام؛ يرغب المؤتمر إلى كل من الحكومتين القُعَيْطية والكثيرية أن تقدم سنويًّا ميزانيتها العامة للجمعية الوطنية، أو ما يقوم مقامها الآن لتبدي فيها رأيها، وتعدل ما تراه مفتقرًا إلى التعديل في أبواب الإيرادات والمنصرفات، وأن تكون قراراتها بشأن الميزانيتين مقبولة ومرعية لدى كل من الحكومتين، وأن ينشر بالميزانيتين بعد ذلك بيان رسمي للعموم.

الرابع

بما أن تنظيم الجمارك من صالح الحكومتين والأمة؛ فإن المؤتمر يطلب منهما تنظيم الجمارك، ووضع قانون وقواعد لها تنحسم بها الشكوى، بحيث تكون مواد القانون والقواعد واضحة جلية لا تحتمل سوى وجه واحد صريح، أما مسألة تثمين المعشرات في الجمارك فيوضع لها حد، وهو أنه إذا رأى من يجب عليه دفع العشور أن عليه غبنًا في التثمين، وأراد أن يدفع العشور من نفس الصنف المعشر فله ذلك،

وعلى إدارة الجمرك أن تقبل الصنف بدلًا من النقد، بشرط أن يضاف إليه خمسة في المائة مقابل المصاريف، حفظ الإدارة لذلك الصنف الذي دفع بدلًا من العشور وتصريفه؛ إذ الغرض من الجمارك إنما هو النقد لا البضائع.

الخامس

يرى المؤتمر أن البضائع لا تجمرك إلا إذا اجتازت الحواجز الجمركية المعروفة، فالبضائع التي تمر بالمُكَلَّا مثلًا، ولا تتعدى حواجزها الجمركية إلى الداخل، ثم تنقل إلى ميناء آخر فلا تعشر بالطبع إلا فيه عندما تتعدى الحاجز الجمركي، وهذا هو «الترنسيت» المعروف أو شبهه. أما البضائع التي تكون قد تعشرت في أحد موانئ حضرموت وخرجت منه إلى أحد موانئها الأخرى فلا تعشر مرة ثانية.

السادس

حيث إن الوطن خال من الأعمال التعاونية التي من أهمها الأمور التجارية؛ فقد قرر المؤتمر السعي في تأسيس شركة تجارية وطنية مركزها المُكَلَّا تكون أسهمها بيد الحضرميين. وقد رأى المؤتمر أن السبيل الموصل إلى تأسيس هذه الشركة في الوقت الحاضر هو أن يقوم بتأسيسها ذو شخصية مالية معتبرة، فطلب من السيد الهمام عبدالرحمن بن شيخ الكاف مباشرة السعي في تأسيسها والدعوة إليها، فتفضل حضرته بقبول هذا الطلب.

السابع

رغبة في تقدم هذه الشركة وانتفاع أبناء البلاد بها يطلب المؤتمر من الحكومتين القُعَيْطية والكثيرية أن تعاملا هذه الشركة معاملة تفضيلية، وأن تمنحها التسهيلات اللازمة لتقدمها ونجاحها، وقد خول المؤتمر للسيد عبدالرحمن بن شيخ الكاف حق الاتفاق مع الحكومتين فيما يتعلق بالمعاملة التفضيلية والتسهيلات وكيفياتها ووضعها وشكلها.

الثامن

تخصص خمسة في المائة من صافي ربح الشركة للشؤون الخيرية في الوطن كالمعارف والملاجئ والمستشفيات. ويتولى صرف ذلك مجلس إدارة الشركة.

التاسع

يطلب المؤتمر أن تشتري الحكومتان خمسة في المائة من مجموع أسهم الشركة، كل حكومة بنسبة حالتها المالية.

العاشر

يطلب المؤتمر من الحكومتين تشكيل إدارة عامة للمعارف في الوطن لتتولى النظر في أمور التعليم بالإشراف العالي على جميع المدارس هناك؛ لتحسين نظامها، وتوحيد برامجها، وتوسيع دائرة التعليم في البلاد بقدر الإمكان.

الحادي عشر

استقلال القضاء [أ] يرى المؤتمر وجوب استقلال القضاء بالبلاد الحضرمية، وإبعاد كل تأثير أو تدخل خارجي عنه.

مرتبات القضاة [ب] دفع الحكومتين مرتبات شهرية للقضاة كافية لسد حاجتهم حفظًا لكرامتهم، وتنزيههم عن أن يكونوا موضعًا لشبهة.

الشهود [ج] فحص حالة الشهود الذين يؤدون شهاداتهم في الدوائر القضائية، والتثبت من صدق الشاهد بكل ما تساعد عليه الأقوال في مذهب الإمام الشافعي من اختلاء القاضي بالشهود، والتفريق بينهم، والتدقيق في استفهاماتهم وغير ذلك، حتى يقضي على شهادة الزور التي فشا أمرها بين صغار النفوس وأدنيائها.

المحاماة [د] تنظيم قانون للمحاماة بحيث لا يباح لشخص يحترف بها إلا بشهادة في يده من لجنة تتألف من العلماء والقضاة، ولا يجوز الاعتراف بوظيفة المحاماة لمن كان موظفًا في دوائر الحكومة.

دوائر القضاء [هـ] تأسيس دوائر رسمية منظمة للقضاء، وإيجاد سجلات لجميع الأحكام وتدوينها.

مجلة الأحكام [و] يرى المؤتمر لزوم تفكير الحكومتين من الآن في إيجاد مجلة تجمع وتنظم فيها الأحكام المعتمدة من مذهب الإمام الشافعي حتى يحفظ القضاء من مسائل التأويل وتناقض الأحكام، وتكون هذه المجلة على مثال مجلة الأحكام الشرعية التي وضعت في الأستانة.

الثاني عشر

بما أن الجمعية الوطنية لا بد لها من قواعد عامة تأسس بموجبها، فقد قرر المؤتمر تخويل وفده حق المناقشة والمفاوضة فيها مع الوفد الحضرمي، والاشتراك معه في وضعها؛ لأنه بتبادل الأفكار مع من بالوطن في المحيط الذي ستتكون فيه الجمعية يظهر لهم ما قد لا يلاحظه البعيد.

الثالث عشر

حيث إن المؤتمر يرى أن يبقى الباب مفتوحًا للحضرميين في المهجر للاشتراك في الجمعية الوطنية ومساعدتها؛ فإنه يطلب أن يكون للجمعيات الحضرمية في المهجر حق التمثيل في الجمعية الوطنية.

الرابع عشر

قد عهد المؤتمر إلى وفده بالاشتراك مع الوفد الحضرمي في الوطن في تقرير شروط تمثيل جمعيات المهجر الحضرمية ووضع الحدود اللازمة لذلك.

الخامس عشر

لما أن الإصلاح الوطني التام لا تتم الفائدة المطلوبة منه ما دام الحضرميون متنازعين ومنشقين ومختلفين في المهجر، فضلًا عن أن اتحادهم وزوال الشحناء

من قلوبهم هو أول درجات الإصلاح، فالمؤتمر يطلب من الحكومتين القُعَيْطية والكثيرية أن تعين لجنة يرأسها سمو السلطان صالح بن غالب بعضوية فرد من أفراد السادة العلويين، وفرد من غيرهم تنظر في هذا الخلاف الواقع بين الحضرميين في المهجر، وتسعى للتوفيق بينهم، فإن لم تتمكن من ذلك تدعُ المختلفين إلى المحاكمة لديها وتطلب منهم إرسال وفودهم إليها، أو توكيل من يدافع عنهم، وبعد أن تسمع أقوال الفريقين وحججهم ومستنداتهم، وتنظر في أمرهم بدقة وإمعان، تصدر حكمًا أدبيًا على من يظهر لها خطؤه وتعنته وتعديه من الفريقين، وتشفع هذا الحكم بحيثياته وأسبابه، ثم تنشره في الجرائد مع إصدار منشور مستقل به، معزز بالطلب من الرأي العام أن يحتقر الفريق الذي صدر عليه الحكم، وينبذه حتى يكون لهذا الحكم تأثير يضع حدًا لمن تحدثه نفسه بالتعنت، ويفض الناس من حوله فيبقى وجوده كعدمه، وبذلك يقضى على الخلاف. أما إذا حصل صلح حقيقي ووفاق تام قبل وصول وفد المؤتمر إلى حضرموت فلا يبقى لهذا القرار موضع ولا معنى.

السادس عشر

سعيًا في تمهيد السبيل بالقطر الحضرمي للإصلاح العام المطلوب، فإن المؤتمر يطلب من الحكومتين القُعَيْطية والكثيرية أن تسعيا وتقيما صلحًا بين قبائل حضرموت في الدم والثرث والطوارف لمدة أقلها خمس سنوات.

السابع عشر

إذا أخطأ فرد أو أفراد قليلون من إحدى القبائل الحضرمية، وعجزت قبيلتهم عن ردعهم وإحضارهم وتبرأت منهم، فلا يحق للحكومتين أذى أحد من أفراد هذه القبيلة سوى المتمرد أو المتمردين، لكن يجب على قبيلة المتمرد مساعدة الحكومتين على إخضاعه وتقديم ما يلزم للحكومتين من الضمانات الجارية المعروفة.

الثامن عشر

رغبة في إيجاد أداة صلة بين الحكومتين ورعاياها الذين في المهجر تكون أثرًا لوجودها بينهم، فإن المؤتمر يطلب من الحكومتين القُعَيْطية والكثيرية أن تعملا لتحقيق هذه الرغبة، كأن تعين موظفًا تلحقه بالقنصليات الإنكليزية في البلاد الأخرى، أو موظفًا متصلًا بقلم الجوازات في البلاد الإنكليزية ليكون مساعدًا لتسهيل أعمال الحضرميين من تصديق على جوازات سفر أو وكائل ونحوها، ويترك المؤتمر للحكومتين الشكل في تنفيذ هذ الطلب.

التاسع عشر

لا يحق لوفد المؤتمر أن يقبل أي تعديل كان في القرار الثالث المختص بميزانية الحكومتين؛ لأن سمعة الحكومتين واطمئنان الشعب وثقته بحكومتيه متعلقة بتقديم الميزانية السنوية وإعلانها للرأي العام.

العشرون

قد جعل المؤتمر لوفده الحق في قبول تعديل القرار العاشر المختص بالمعارف، فيمكن تعديله بالاكتفاء بإيجاد ناظر عام للمعارف أو موظف كبير يكون أداة لربط المدارس واتصال بعضها ببعض، وتوحيد أو تقريب بروجراماتها إذا اقتضى الحال في الوطن هذا التعديل.

الحادي والعشرون

خول المؤتمر لوفده الحق في قبول زيادة عدد أعضاء اللجنة التي تدعو المختلفين في المهجر إلى المحاكمة إليها تبعًا للقرار الخامس عشر إذا طلبت الحكومتان هذه الزيادة.

الثاني والعشرون

لتعقب قرارات هذا المؤتمر والاتصال بوفده الذي سيسافر إلى البنادر فحضرموت، وللاتصال بالجمعيات الحضرمية في المهجر - شكل المؤتمر لجنة أسماها (اللجنة التنفيذية لمؤتمر الإصلاح الحضرمي الثاني بسنقافورة) من حضرات الذوات الآتية أسماؤهم، وجعل مقرها سنقافورة:

رئيس: السيد إبراهيم بن عمر بن محمد السقاف

نائب رئيس وأمين صندوق: السيد عبدالرحمن بن شيخ الكاف

سكرتير: السيد أبو بكر بن طه بن عبدالقادر السقاف

معاون سكرتير: الشيخ أبو بكر بن محمد بن علي التوي

اختصاصات هذه اللجنة وأعمالها تنحصر فيما يأتي:

١- تعقب قرارات هذا المؤتمر.

٢- الاتصال بوفد المؤتمر الذي قرر إرساله إلى البنادر فحضرموت.

٣- الاتصال بوفود الجمعيات التي مثلت في هذا المؤتمر.

٤- مكاتبة الجمعيات والهيئات والأشخاص الشهيرين الذين لم يحضروا المؤتمر.

٥- دعوتهم للاكتتاب باسم الإصلاح الوطني العام والسعي فيه.

٦- طلبها موافاتهم لها مما ينتج بهذا الشأن.

٧- جمع قيمة الاكتتابات للإصلاح الوطني العام حينما يأتي دور جمعها.

٨- نشر النشرات التي تراها ضرورية ومساعدة على أعمال الإصلاح الوطني المطلوب.

٩- إعلان الجمعيات الحضرمية بالمهجر حينما يتم تأسيس الشركة التجارية الوطنية وطلبها منها حض أفرادها، وحثهم على الاشتراك في الشركة للفائدة والتعاون الوطني.

١٠- عقد مؤتمر إذا دعت الحاجة والمصلحة إليه.

الثالث والعشرون

بما يلزم مبدئيًا فتح اعتماد مالي قدر بخمسة آلاف ريال ٥٠٠٠ للمصاريف الإدارية للجنة التنفيذية ولسفر الوفد الذي تقرر سفره إلى الوطن من أعمال شهر سبتمبر عام ١٩٢٨م.

فقد قرر المؤتمر بعد موافقة جميع أعضائه فتح باب اكتتاب بينهم ليكتتبوا بما تيسر لذلك، فاكتتبوا بما بلغ مجموعه ٣١٤٠ ريال، وكلف المؤتمر سكرتيره بالكتابة للأعضاء الذين لم يحضروا ليشتركوا في هذا الاكتتاب.

صودق على هذه القرارات جميعها من جميع الأعضاء الممضين أدناه في جلسة المؤتمر الختامية المنعقدة في ليلة السبت الموافق ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ، و١٢ في ماي سنة ١٩٢٨م في منزل رئيس المؤتمر السيد إبراهيم بن عمر السقاف بطريق جنسري لين بسنقافورة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

رئيس المؤتمر	سكرتير المؤتمر
إبراهيم بن عمر السقاف	أبو بكر بن طه السقاف

الأعضاء

السيد عبدالرحمن بن شيخ الكاف. السيد أبو بكر العطاس. علوي بن طاهر الحداد. عيدروس المشهور. عبدالرحمن بن عمر جواس. أبو بكر العطاس. سقاف بن محمد السقاف. أبو بكر بن محمد التوي. سعيد بن عبدالله باجري. سعيد بن طالب بن جعفر بن طالب.

وفاة السيد حسين حامد المحضار

توفي السيد حسين حامد المحضار وزير الحكومة القُعَيْطية اليافعية يوم ١٣ من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٦هـ، ولقد كان المثل الأعلى في النشاط والحركة واليقظة والجد والحزم، شديد الذكاء، سريع البداهة، حاضر الذهن، كان سياسيًا محنكًا، وكانت شخصيته عظيمة جدًا، له في قلوب الناس هيبة وإجلال، ومصدر هذه الهيبة وهذا الإجلال سلطته الروحية وشخصيته البارزة، وكانت الحكومة واثقة به كل الثقة مفوضة أمورها الداخلية والخارجية إليه، وكان ينوب عن السلطان حينما يذهب إلى الهند، فيحكم دون أن يسأل عما يعمل، وبالرغم عن ضعف جسمه، فإنه يندفع وراء الأعمال المتراكمة اندفاعًا، ويتلقى الشكاوى والدعاوى بصدر رحب، ويتصدى للأحكام في النهار وفي الليل دون أن يظهر عليه خمول أو فتور، وهو في كل ذلك مخلص للحكومة كل الإخلاص.

قام بالوزارة بعده ابنه السيد أبو بكر بن حسين المحضار باعلوي، ولم يرث هذا عن أبيه شيئًا كثيرًا ولا قليلًا من الدهاء والحزم والجلد والنشاط وحب العمل، فالفرق بين الاثنين كبير جدًا، كان هذا الوزير خمولًا كل الخمول، جنوحًا إلى السلامة.

كان وزيرًا وفي الوقت نفسه كان تاجرًا، لم يجهد فكره يومًا في شؤون الحكومة، ولم يؤد شيئًا من واجباته نحوها ونحو الشعب، ولكنه كان يفكر طويلًا ويبحث كثيرًا عن مصادر المال لنفسه، وليس هناك أحد يحاسبه في أعماله؛ لأنه (الكل في الكل) هو الوزير وهو السلطان أحيانًا، يعز من يشاء ويذل من يريد. وأهل الوظائف وفي مقدمتهم يافع والعبيد يخافون كل الخوف من ضياع مراكزهم الضئيلة، وأهل المتاجر وأصحاب الحرف والمهن يخشون أن يصب الوزير عليهم عذابه الشديد. أما السلطان فلم يكن يعرف شيئًا من أعمال وزيره، لأنه لم يرفع إليه أحد شيئًا من أعمال الوزير، ولأنه لا يمكث في المُكَلَّا إلا أيامًا أو شهورًا معدودات، ثم يقفل

راجعًا إلى حيدر أباد تاركًا أمور حكومته بيد وزيره يتصرف فيها كيف يشاء ويديرها كما يريد، وهكذا يصفو الجو للوزير، وينفذ رغباته، ويصدر أوامره دون أن يلقى أمامه معارضًا، ودون أن يجد حوله رقيبًا.

مشاغبات الحُمُوْم

ظل الحُمُوْم يناوئون الحكومة القُعَيْطية، ويثيرون القلاقل، ويقطعون الطريق من عقبة العرشة إلى الديس، وفي شهر محرم سنة ١٣٤٧هـ أغاروا على نخل في الديس، فخرجت لهم جماعة من يافع، ووقعت معركة بين الفريقين، فقتل من الحُمُوْم ستة أشخاص وجرح سبعة، وبعد هذه الحادثة أرسل السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي اليافعي ٤٠٠ رجل من يافع وآل تميم وعبيد إلى المشقاص، فحدثت هناك معركة انتهت بأربعة قتلى وستة عشر جريحًا من الحُمُوْم، وأخذت من إبلهم ٤٥ جملًا. وفي شهر رجب سنة ١٣٤٧هـ استولى الحُمُوْم على معيان الديس وقطعوا الماء عن سكان القرية، فخرج إليهم جماعة من يافع، وهرب الحُمُوْم في الجبال، ثم أغاروا على رعاة في أراضي الديس ونهبوا ما معهم من الغنم، ولكن آل قرزات وهم من فخائذ الحُمُوْم الموالية للحكومة أعادوا المنهوبات إلى أهل الديس، ثم رأت الحكومة أن تقضي على مشاغبات الحُمُوْم ببناء مخفر في الرَّيْدة، ولما بلغ ذلك إلى الحُمُوْم اجتمع منهم ألف رجل وحاولوا هدم المخفر، ولكن يافع قد استعدوا للطوارئ، فاندحر الحُمُوْم وتفرقوا في الجبال.

وفاة السلطان منصور الكثيري

في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ توفي السلطان منصور بن غالب الكثيري، ففقدت الحكومة الكثيرية رجلًا أمينًا مخلصًا، ولقد اشتهر بين قومه بالصلاح والورع وحب الخير، وكان سليم النية، صافي السريرة، دمث الأخلاق، محافظًا على العبادة، بعيدًا عن القاذورات وسفاسف الأمور، وقام بالأمر بعده ابنه

السلطان علي بن منصور الكثيري الموجود اليوم في سَيْئون عاصمة ملكه، وهو من أشد سلاطين آل كثير غيرة على بلاده، درس في صغره جزءًا من علوم الدين على يد علماء أفاضل، ودرس شيئًا من التاريخ والأدب.

عزل المحضار من الوزارة

كان السيد أبو بكر المحضار باعلوي وزير الحكومة القُعَيْطية تاجرًا، وفي الوقت نفسه كان وزيرًا، وإن شئت فقل سلطانًا، حرية مطلقة، وسيطرة واسعة، لا معارضة ولا معاكسة تعترضه في سبيله، وتحول دون مبتغاه، هو كل شيء، وما دونه لا شيء. كان يجب عليه لو كان لديه شيء من السياسة والكياسة أن يحافظ على هذه النعمة الكبرى، نعمة السلطة المطلقة، والسلطان القاهر، يحافظ عليها بشيء من الإخلاص للحكومة، وبشيء من الحمية والغيرة على كيانها كما كان شأن والده الراحل الكريم، كان يجب عليه أن يبدي اهتمامًا ولو قليلًا في العمل لصالح الحكومة ولصالح الأمة، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، وكانت النتيجة أن عزله السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي سنة ١٣٥٣هـ واستوزر النبيل سالم أحمد القُعَيْطي، فاستبشر الناس بهذا الوزير الجديد استبشارًا عظيمًا، وعلقوا عليه الآمال العظام؛ لأنهم يعلمون أنه الرجل الحازم، الشديد في مواطن الشدة، الرحيم في مواطن الرحمة.

وفاة السلطان عمر القُعَيْطي اليافعي

توفي السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي في حيدر أباد في ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ على أثر اشتداد مرض السرطان والناصور وتورم الرئتين عليه، وقد احتفل بدفنه في مقبرة آل القُعَيْطي بحيدر أباد دكن بجوار والده وجده احتفالًا كبيرًا، مشى فيه كبراء وأمراء ووجهاء حيدر أباد، وقد توفي عن ٦٧ عامًا، تاركًا خمسة أولاد ذكورًا. وقد

انتظم في سلك الجيش غير النظامي في حيدر أباد، وعين حكمدارًا على فرق العرب الحضارم التي تتولى حراسة خزائن الدولة، وقصور سمو النظام وحرمه الخاص، وقصور الكثير من الأمراء والنواب والحكام، وتصرف له حكومة حيدر أباد نظير ذلك معاشًا شهريًا قدره ١٣٣٠ روبية.

ولما تولى السلطنة في حضرموت بعد وفاة أخيه السلطان غالب بقي في مركزه كما هو، ولا يذهب إلى حضرموت لإدارة شؤون مملكته إلا أيامًا معدودات، ثم يقفل راجعًا إلى حيدر أباد تاركًا إدارة بلاده إلى وزيره وكبرائه من عشيرته.

السلطان صالح القُعَيْطي اليافعي



السلطان صالح القُعَيْطي اليافعي

حيث إن العادة في وراثة الحكم عند آل القُعَيْطي أن ينتقل الحكم من يد الحاكم المتوفى إلى أخيه إذا كان حيًا وإلى ابن أخيه إن كان الأخ متوفيًا لا إلى ولده، فقد تولى الحكم السلطان صالح بن غالب القُعَيْطي اليافعي، ولقد استبشر الحضرميون به في الوطن والمهجر استبشارًا عظيمًا، ولا غرو فإنه السلطان المهذب المثقف

العادل القادر الرحيم الحليم، هو السلطان الذي يحفظ له الناس في جلجلان قلوبهم وقرارة نفوسهم الود والولاء، ويعلقون عليه الآمال الطوال. وقد نادى في الناس أن ابسطوا شكاياتكم، وأعرضوا ظلاماتكم، ليكبح جماح الظالمين، ويبتر أيدي المعتدين، ويعطى كل ذي حق حقه.

ذاع هذا النبأ في الناس كالبرق في حضرموت، ودوَّى في مسامع أكثر من مائة ألف من الحضارم في المهجر، فحمدوا الله على أن بعث إليهم صالحًا ليصلحهم، ويهديهم الطريق الأقوم، وهذه هي خطبة العرش التي ألقاها عظمته في صفر سنة ١٣٥٥هـ على ملأ من أعيان شعبه:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم.

أيها السادات الكرام - رؤساء القبائل - أصحاب المناصب الجليلة والرعية:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فيسرني أن أقدم إليكم أحسن تشكري وأخلص تحياتي على ما أظهرتم من الحماسة والشوق في ترحيبي عند وصولي إلى الوطن، وما أثبتُّم من الإخلاص والولاء، لأني أود أن أظهر لكم بعض ما يختلج في صدري، ويخطر بقلبي من الخواطر لرقيكم وترقية أحوالكم، وبث الأمن، وإصلاح الوطن.

ولا يخفى عليكم أن فلاح الأمة لا يتأتى إلا إذا كانت عرى الوفاق بين السلطان والرعايا وثيقة، وكان الأمن والسلام ضاربين في جميع نواحي المملكة وأطرافها؛ لأن السلطان والرعية كالأب الشفيق وأولاده، فلكليهما حقوق على بعضهم لبعض، فعلى السلطان أن يبذل جهده في ترقية الملك وترقية أحوال الرعية، ولا ينجح في هذا المرام إن لم تكن الرعية مستعدة كل الاستعداد لمعاضدته في مهامه، وتوثيق

عرى الوفاق معه، وعليه أن يدفع الظلم والعدوان عن رعيته، ويحفظها تحت عنايته وعدله، ويعمل لتحسين كافة شؤونها الاجتماعية.

وإنه ليحزنني أن أراكم في الحالة المنحطة التي وقعتم فيها، فإني وإن كنت بعيدًا عنكم ونازحًا عن دياركم، فقد كنت دائمًا مطلعًا ومتطلعًا على أحوالكم وواقفًا على جلية أموركم، ولا إثم إن كاشفتكم أنكم قد تأخرتم في كل شُعب الحياة، وملتم إلى الجمود والخمول، وإني لأتذكر أن كثيرًا من العائلات العاليات اللاتي كن في أحسن الأحوال أيام جدي المغفور عوض بن عمر القُعَيْطي قد أعوزت وصارت إلى الهلاك والاضمحلال. وكان عمي المرحوم السلطان عمر يسعى لإصلاح أمور القوم ولكن التقدم يقتضي طول الزمن ودوام العمل. وأرجو من الله تعالى أن تكون الرعية في أيامي في غاية الرخاء والسعادة، وأن ترتقي إلى أعلى مدارج الترقي والفلاح.

أيها السادات: إنكم لتذكرون كيف خلص الملك لجدي المرحوم بمساعدة عشيرته خصوصًا وبمساعدة الكل عمومًا. وكذلك أرجو من جميع رؤساء القبائل وسلاطين حضرموت أصحاب الكلمة والمناصب أن يقوموا بمساعدتي وشد أزري لكي ننهض كرجل واحد لاتحاد كلمتنا وإعلاء شأن مُلكنا لكي نكون في مستوى واحد مع الأمم الراقية ونجاريهم في مضمار الحياة، فلنعمل لرقينا من الآن؛ لأن الوقت سيف قاطع، والفرص تمر مر السحاب، والوقت ثمين، يجب علينا أن نغتنمه ولا نضيعه سدى.

وأريد أن أطلعكم على خطتي السياسة التي سأسلكها، فأقول:

إن روابطنا مع الدولة الإنجليزية ستبقى ودية كما كانت على الدوام، ونكون مستعدين لمعاونتها بكل وسيلة ممكنة وفي كل حين، ونستمد منها المعاضدة لرقي بلادنا، ولقد لقيت من سعادة والي عدن وكيل الحكومة البريطانية الكولونيل السر

(ريلي) كما يليق بي من الترحيب والتكريم عند نزولي عدن ومبارحتي إياها. ولم يألُ جهدًا في أخذ خاطري، ووعدنا بأنه لا يحرمنا من ثمين مشورته ومساعدته فيما يخصنا من الأمور المتعلقة بشؤوننا. وأنا أغتنم هذه الفرصة لتقديم جزيل تشكري إليه مؤكدًا له محافظتي على الولاء للتاج البريطاني، وعلى علائق المعاهدة فيما بيني وبين جلالة ملك بريطانيا.

وأنتم عارفون أن رحى الحرب بين إيطاليا والحبشة دائرة، فيجب علينا أن لا نساعد المتحاربين في حال من الأحوال. ولا يوجد في بلادنا تجارة الرقيق - فهي أيضًا محظورة عندنا، وسنعاقب من يرتكب هذه الجريمة. وليعلم الجميع أن القبائل كلها سواسية ولا أريد أن أفضل إحداهما على أخرى؛ لأني لا أحب التنازع والتنافس.

وأريد أن ألفت أنظاركم إلى أمر مهم: ألا وهو مسألة التعليم، فلا تنسوا أن رقي بلادنا يتوقف على نشر المعارف في جميع نواحي الحياة، لأن التقدم المادي والخلقي مستحيلان ما دام أولادكم محرومين من العلم والتهذيب، فسامحوني أن أجاهركم والأسف ملء فؤادي أنه لا يكاد يوجد بين ظهرانيكم أحد فيه مقدرة وأهلية لإدارة الأمور بأحسن وجه، وسأتصدى لسد هذه الثلمة بعون الله تعالى.

ولا بد أن توجهوا همتكم إلى إصلاح الزراعة فلا تتركوا قطعة من الأرض إلا أن تكون مخصبة ومغطاة بالزرع، فيكون المُلك مثمرًا موسرًا وتكونون أنتم متمتعين بالهناء والسراء، وكل هذا ميسر لمن له عزم صادق!

وأريد أن أنشئ معهدًا زراعيًا لتدريبكم أصول الفلاحة من استعمال آلات الحرث على الطرز الجديد لكي تقدروا على استغلال أراضيكم الخصبة، وأنا أضمن لكم المساعدة الثمينة لاقتناء هذه الوسائل الحديثة، وكذلك التجارة تحتاج إلى توسيع دائرتها، ولهذا أريد أن أساعد أهل التجارة من بلادنا حسب الاستطاعة،

وأهيئ لهم الأسباب وأنظم الواردات والصادرات بحيث يعود نفعها عليكم وعلى البلاد، وكلما قدمتم إليَّ طلبًا أو اقتراحًا في شأن البلاد، فإني أنظر فيه وأقضي بما يصلح الرعية، وينبغي لهذا أن تكون الطرق إلى حضرموت ونواحيها مضمونة الأمن لكي يتردد التجار والمسافرون من مكان إلى آخر بدون تعرض ومعاكسة، وأنا أرجو من سلاطين حضرموت وسائر القبائل أن يعاونوني في هذه الجهة حتى يستتب الأمر، ويسود الأمن والسلام في البلاد. وأريد أن أنشئ محاكم ومجالس عدل لتصفية القضايا على وفق القوانين الشرعية والمدنية فلا يتعدى أحد على آخر.

وليحذر العمال (الحكام) من أن يتطاولوا على الرعية، فإذا فعل أحدهم ذلك فللرعية أن يرفعوا القضية إليّ رأسًا لأخذ الحق من الظالم.

وأريد أن أشكل مجلسًا مشتملًا على خيرة رجالكم من ذوي الخبرة لأشاورهم ويشاركوني في الأمور الإدارية؛ لنقوم بإجراء الواجب نحو الرعية والبلاد على أحسن الوجوه.

وفي الختام أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا فيما أردنا ويهدينا إلى الرشاد ويلهمنا بما فيه الخير للوطن. وله الحمد في الأول والآخر، والظاهر والباطن.

نظام الحكم

تحكم الدولة القُعَيْطية اليافعية المُكَلَّا، وهي العاصمة وميناء حضرموت الأكبر، والشِّحْر وهي ميناء أيضًا، وغيل باوزير، وجميع بلدان الشواطئ من سَيْحُوت شرقًا إلى عين بامَعْبَد غربًا، وتحكم دَوْعَن، وحَوْرَة، وهَيْنَن، وقرى القَطْن، وشِبَام، وعِيْنات، وسَاهْ، ولكل بلد والٍ يتولى الحكم ويدير شؤون الأهلين بالنيابة عن الحكومة، وهذه أسماؤهم:

المُكَلَّا: عظمة السلطان صالح بن غالب القُعَيْطي اليافعي.

الشِّحْر: الوالي عمر صالح بن هَرْهَرة اليافعي.

غَيْل باوزير: الوالي عمر سالم القُعَيْطي اليافعي.

الدِّيْس: الوالي عمر عوض مُخارش اليافعي.

الحامي: الوالي عمر محفوظ الكَسَادي اليافعي.

شُحَيْر: الوالي الماس عبدالخالق.

حَجْر: الوالي الماس سعيد مرزوق.

قُصَيْعَر: الوالي عَبِد عوض مخارش اليافعي.

مَيْفَع: الوالي مُنَصَّر بن علي جابر اليافعي.

بُرُوْم وفُوَّة: أحد موالي الحكومة.

بالحاف[١]: أحد أعيان يافع.

حَبّان وعَيْن بامَعْبَد: حاكم من أعيان الأهالي ويُعِيْنُهُ في الإدارة أفراد من يافع.

دَوْعَن: الوالي باصُرّة.

سَاهْ: أحد كبار يافع ويُعِيْنُهُ في الإدارة بضعة من أعيان الأهالي.

عِيْنات: الوالي محمد ناصر الدُّهْري اليافعي.

حَوْرَة وهَيْنَن: الوالي علي أحمد القُعَيْطي اليافعي.

شِبَام وملحقاتها: الأمير علي بن صلاح القُعَيْطي اليافعي.

وسمو الأمير علي من أكبر رجالات حضرموت، دهاء وحزمًا، حاد الذكاء[٢]،

(١) تملك الحكومة نصف بالحاف والنصف الآخر لابن عبدالودود، وفيها نهيرٌ بُنِيَ على مقربة من مصبه حصن به جماعة من يافع.

(٢) كنت زميله في مدرسة الحوطة، وكان مدرسنا الأستاذ الشيخ عبد ربه بافضل، ولسرعة فهم سمو الأمير علي عجز أكثر زملائه عن مجاراته في تلقي الدروس وفهم معانيها.

قوي الذاكرة، سريع البداهة، بعيد النظر، صريح الفكر، حر الضمير، نافذ العزم، قوي الإرادة، له إلمام واسع بالتاريخ القديم والحديث، شغوف بمطالعة الكتب وقراءة الصحف العربية المصرية، عليم خبير بحوادث العالم وأحوال الأمم.

وتتكون الحكومة من السلطان، والوزير، والقاضي الشرعي، والسلطان هو الذي يعين الوزير، ومن دونه من الرؤساء والولاة، وليس للشعب أي دخل في الترشيح، وليس للوزير وغيره من الرؤساء والموظفين حد معين، فقد يبقون في مراكزهم عشرات السنين، وتصدر الأحكام ما عدا الأنكحة والمواريث على حسب العرف، إذ ليس هناك قوانين جنائية أو مدنية مدونة في كتاب، ولا سجلات تجمع فيها الأحكام وتدون، وقد تتضارب الأحكام في مختلف البلدان، وتتباين من ناحية الشدة واللين، والدقة والبساطة، فقد يصدر أحد الولاة أحكامًا في غاية الشدة والقسوة، ويصدر الآخر أحكامًا في منتهى اللين والبساطة، وكل واحد حبله على غاربه، لا يتقيد بزميله في أمر ما، ولا يرتبط بالسلطان إلا فيما له علاقة بالجيش وبالحرب، فإن السلطان هو الذي يزيد عدد الجيش أو ينقصه، وهو الذي يعلن الحرب أو يوقفها، وليس هناك قانون للمحاماة، ولا دوائر خاصة للقضاء، وليس للسجون نظام خاص، فقد يسجن السلطان أو الوالي المحكوم عليه ساعات من النهار، أو يومًا، أو أيامًا، أو شهورًا، أو أعوامًا، ويطلق الحاكم سراحه متى شاء، ويمد في أجله إذا شاء، والرشوات منتشرة في دَوْعَن وغيرها عند بعض الولاة والقضاة.

والحقوق المدنية غير نافذة في بعض بلدان الحكومة، فالضرائب في دَوْعَن تجبى من فئة دون أخرى، فإن كثيرًا من العلويين وآل عمودي وآل باوزير معفون من الضرائب، وليس هناك عذر سوى أن هؤلاء من الروحانيين أصحاب السلطة الروحية التي لا تزال تعمل عملها في الدَّوْعَنيين، والناس هناك ليسوا سواسية أمام القاضي، فمن كان ذا مال فهو الفائز في القضايا، فالتلاعب بالأحكام في دَوْعَن بالغ

حدًا كبيرًا، ذلك لأن الحكومة المركزية بالمُكَلَّا لا تضع أي رقابة على ولاة دَوْعَن، والسلطان غير عالم بما يحدث هناك من التلاعب بالحق.

أما سيادة الحكومة الداخلية Souverainete inlerieure فلها كل السلطة في إصدار الأحكام، وحمل الناس على طاعتها والعمل بها، وتنفيذ إرادتها في الأفراد، وتصريف الشؤون العامة، وحفظ الأمن والنظام دون أن تتقيد في ذلك بشيء ما، اللهم إلا حقوق الأفراد التي يجب عليها -من الوجهة الأدبية على الأقل- احترامها ومراعاتها.

وأما سيادتها الخارجية Souverailete exterieure فالحكومة لا تخضع لأية سلطة عليا، ولا لسلطان أجنبي، فهي مستقلة استقلالًا شخصيًا، قد عقدت معاهدة سنة ١٨٨١م بينها وبين الحكومة الإنجليزية، دخلت حضرموت بموجبها تحت حماية بريطانيا، ولكن هذه الحماية اسمية، فبريطانيا لا تتدخل في شؤون حكومة حضرموت، وليس هناك إنجليزي يشارك السلطان في الحكم، وغاية الإنجليز من تلك المعاهدة ألا تفاوض حكومة حضرموت دولة أجنبية غير بريطانيا في شأن الشؤون السياسية.

وتنحصر قوة الحكومة في الجيش، وهو مكون من يافع، وهم الأغلبية الساحقة، ومن آل تميم، ومن العبيد، ولهذا الجيش رؤساء يقال لهم (المقادمة)، ومرتب الجندي من خمسة إلى عشرة ريالات في الشهر. وفخائذ يافع الساكنة في قرى القَطْن، وكذلك آل تميم الساكنون في بلدهم، لا يأخذون من الحكومة مرتبات، ولكنهم طوع أمرها ورهن إشارتها، يدافعون عنها ويضحون في سبيلها كل مرتخص وثمين.

ويوجد لدى الحكومة من السلاح علاوة على البنادق والسيوف مدافع أكثرها من النوع القديم الذي يطلق رصاصه بوضع النار في البارود المركوم على ثقب في أعلى فوهة المدفع من مؤخره.

الإيرادات

وتتكون في الغالب من الجمارك، وليس لهذه الجمارك نظام خاص وقواعد ترتبط بها، فتثمين المعشَّرات راجع إلى رجال الجمرك وعُرفهم، وتأتي إيرادات أيضًا من مزارع غيل باوزير.

أما المنصرفات فتنحصر في مرتبات الوزير والقضاة والجيش والموظفين وهم قليلون جدًا، والناس لا يعرفون بالضبط مبلغ إيرادات الحكومة ولا منصرفاتها، لأنه ليس لها ميزانية خاصة ولا عامة.

الحكومة الكثيرية ونظام حكمها

يحكم آل عبدالله مَدْيَنتي سَيْئون وتَريْم، وهما من أعظم مدن القطر الحضرمي، ومن أكثرها عمرانًا وحضارة، وتَرِيس والغُرَف ومَرْيَمَة والغَيْل. وتتكون الحكومة من السلطان والوزير أو المُعِيْن، ومن القضاة. ونظام الحكم فيها هو نفس نظام الحكومة القُعَيْطية اليافعية، فجميع الأحكام تصدر بحسب العرف إلا ما له علاقة بالأنكحة والمواريث، فإنه يحال إلى الشرع الإسلامي. وليس لهذه الحكومة ميناء، فمركزها السياسي ضعيف. وتتكون قوتها من الجيش، وهم خليط من آل كثير، ومن العبيد، ويوجد عندها من السلاح البنادق والمدافع من الطرز القديم، والعبيد هم الذين يتسلمون مرتبات ضئيلة من السلطان، أما فخائذ آل كثير فيدافعون عن حكومتهم بكل مستطاع ومن غير مقابل، وإيرادات هذه الحكومة ضئيلة جدًا، ولكن لدى السلطان أطيان واسعة، ومنصرفاتها قليلة جدًا، وتتكون الإيرادات غالبًا من الضرائب التي تفرض بحسب العرف على القادرين من الرعايا، والرشوات منتشرة عند بعد القضاة والولاة.

الرئاسات المستقلة

بالرغم عن صغر مساحة القطر الحضرمي، وعن وجود حكومتين فيه، فإن هناك رئاسات قبلية في الحواضر والبوادي كل منها مستقلة عن الأخرى في أمور معاشها وحكمها، وفي قسم محدود من الأرض، وليس للحكومتين اليافعية والكثيرية سلطة قوية عليها.

فالرئاسات في الحواضر هي: نَهْد، وسَيْحُوت، ووادي عَمْد، ووادي العَيْن، وقَسَم، ورَخْيَة، وآل تميم، والعوامر، وآل جابر، وآل باجِري. والرئاسات في البوادي هي: سَيْبان، ونُوَّح، والمناهيل، والحُمُوْم، والدَّيِّن، والصَّيْعَر، والمَعارة.

في الحواضر

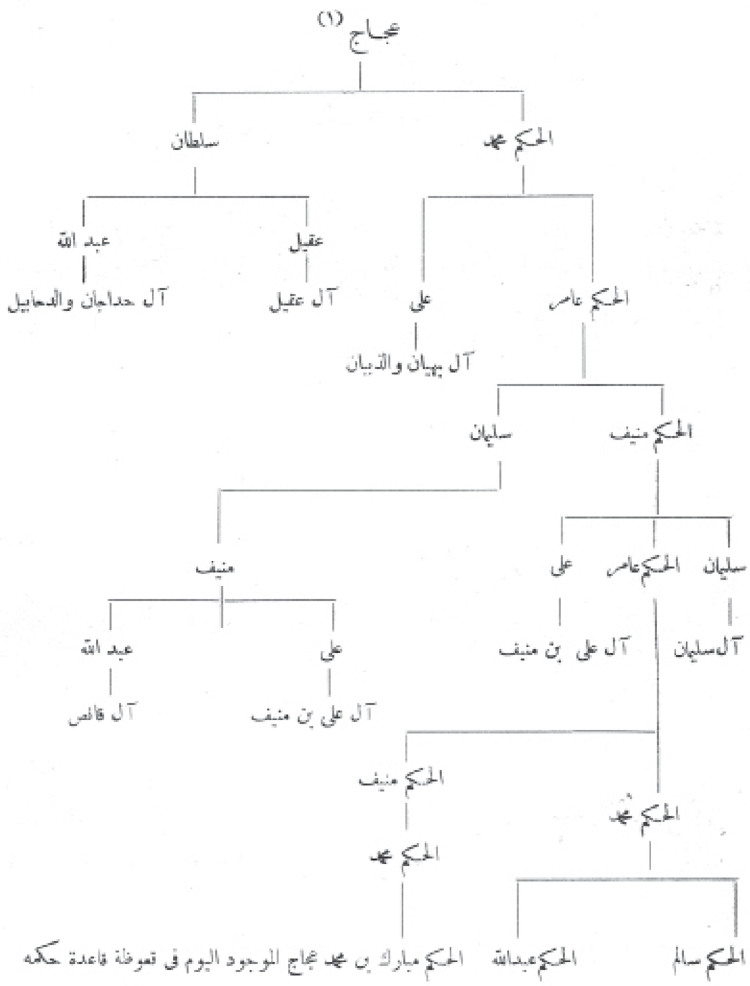
نَهْد[1]

ذكرنا في الجزء الأول سلالة نَهْد وقبائلهم وفخائذهم، ومن بيدهم الأمر من آل ثابت، وفاتنا أن نذكر عَجَّاجًا وذريته الذين يحكمون جانبًا كبيرًا من نَهْد في قُعُوضَة[2] وملحقاتها:

(١) راجع ص (١٠٣) من الجزء الأول.

(٢) جاء في الجزء الأول أن الحكم علي بن صالح بن ثابت في قُعُوضَة، والصحيح أن قاعدة حكمه القارة.

عجَّاج[1]



[مشجرة]

(١) هو أخو بدر ومحمد وعبدالله وحويل الملقب بالطويل أبناء عامر بن فضالة بن روضان، وسبق ذكر ذرية إخوانه في الجزء الأول.

ويحكم نَهْد البلاد الواقعة من لَخْمَاس شمالًا إلى أقصى العَروض جنوبًا، والأحكام عرفية إلا ما له علاقة بالأنكحة والمواريث. وبلادهم فقيرة لا تقوم بحاجة السكان؛ لأنها لا تنبت رزقًا إلا إذا جاء السيل من أودية دَوْعَن وعَمْد، وهم دائمًا في مشاغبات، ففي سنة ١٣١٤هـ حدث نزاع وخصام بين آل ثابت وآل بقري، وتعدى الفريق الأول على بيت من بيوت الفريق الثاني وحرقه بالبارود بمن فيه من النساء والرجال، فانفصل آل بقري من آل ثابت وبنوا حصونًا في شرق شِرَاح وسكنوها.

وأخذوا يحاربون أعداءهم، وانضم إليهم آل مقيزح، كما انضم إلى جانب آل ثابت آل منيف وآل عَجَّاج، وطال النزاع والخلاف. وفي سنة ١٣٣٦هـ قتل محمد بن عمر البقري وأخوه سعيد في المَشْهَد، وكان الشهر الذي قتلا فيه والذي يزار فيه المَشْهَد شهر سلم على حسب اصطلاح القبائل، فاتهم آل بقري آل ثابت بقتلهما وأنكر آل ثابت ذلك، فاحتد النزاع وتفاقم الخصام وعادت الحرب جذعة، وأخذ كل فريق يحرق نخل الآخر بالغاز، وهدموا السد الذي يوزع مياه الأودية العليا على أراضيهم، فمات النخل والنبق وأجدبت الأراضي، ولم يزل النزاع قائمًا بينهم إلى اليوم بالرغم عن وجود الحكام من آل ثابت وآل عجاج.

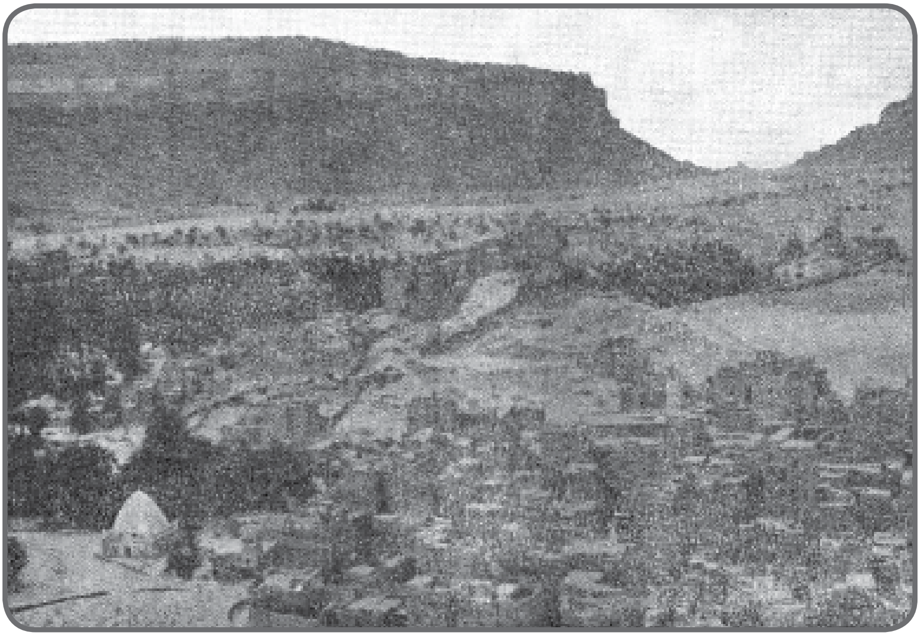
سَيْحُوت

تقع سَيْحُوت على الساحل عند مصب وادي حضرموت، وأكثر بناياتها من الخشب، وسكانها لا يزيدون عن الخمسة آلاف أغلبهم من عِيْنات وقَسَم، وحاصلاتها الأسماك، ومعظم أنواعه من كلب البحر الذي يجفف ويملح، ويستعمل كغذاء أساسي مع الأرز والخبز، وزيت الصيفة المستخرج من السمك. وليس بين سَيْحُوت وغيرها من البلدان الحضرمية مواصلات اللهم الغيظة وقِشِن، فإن القوافل تذهب من سَيْحُوت إليهما في الشهر مرة أو مرتين.

وميناء سَيْحُوت رديء ضحل تؤمه المراكب الصغيرة، والواردات إلى سَيْحُوت من الخارج قليلة جدًا، وأغلب الواردات: الأرز، والبلح، والبن، والسكر، وتأتي من بندر عباس، ومن البصرة، ومسقط، وعدن، والجمرك ٥٪. وإذا نزل المسافر في سَيْحُوت وأراد الذهاب إلى الأراضي الداخلية لا يجد الجمال لحمل بضائعه إلا في النادر القليل، ولذلك فقد يمكث أيامًا ريثما يذهب الرسول إلى الغيظة ويعود بالجمال. والمسافة بين سَيْحُوت وعِيْنات ثمانية أيام في طريق ليس فيها عقاب ولا تلال، بيد أن الأخطار فيها كثيرة، يرحل المسافر من سَيْحُوت إلى عِيْنات فيضطر لأخذ خفير من المهرة يحميه من تعدي البدو عليه، وبعد أن يمر على قرية العِيْص يصل إلى المسيلة التي أغلب سكانها عبيد المهرة، وبعد ست ساعات يدخل في مفازة عظيمة يقال لها الجزع، وليس فيها ماء، ولهذا يلزم للمسافر أن يأخذ معه كمية من الماء لمدة ثلاثة أيام، وبعد أن يخرج من الجزع يصل مياه النُّقْرَة التي تكونت من جرف مياه الأودية العليا لتلك البقعة، ومن ثم يدخل في رمال مدة أربع ساعات حتى يبلغ قبر هود -عليه السلام- ثم يصل إلى عِيْنات بعد ١٢ ساعة.

وأغلب سكان سَيْحُوت من قبائل المهرة، والحاكم ابن عَفْرير من عشيرة بني زياد المهرية صاحبة الحول والطول والنفوذ المطلق في ذلك الصقع النائي، ومقره بلدة سقطرى، وينوب عنه في سَيْحُوت ابنه وصهره. والأحكام عرفية، والفوضى ضاربة أطنابها في البلاد، والأمن مفقود، ولذلك فكل نزيل يفتقر لنفر من بيت زياد، أو من غيره من المهرة يحرسه من تعديات البدو الذين يأتون من الصحراء للبحث عن القوت. وبين بيت زياد وغيرهم من القبائل تنازع وتخاصم وقتال، ولآل حامد من آل الشيخ أبي بكر بعض نفوذ روحي عليهم، وأصلهم من عِيْنات، وقد أثرت البيئة فهم إلى البداوة أقرب منهم إلى الحضارة.

وادي عَمْد



مدينة عَمْد

يبتدئ هذا الوادي في الاتساع من حُرَيْضَة، وتوجد هناك أغنى بقعة أثرية في حضرموت، تمتد إلى مسافة ميلين ونصف ميل، ولكن السيول قد أثرت عليها فجرفت بعضها ومحت معالمها، ويتراءى الوادي العريض الماحل كأنه منطقة حربية، وتدل تلك المخلفات الكثيرة على أنه كان غاصًا بالسكان في الماضي، ولعل ذلك كان في عهد الدولة الحميرية لوجود صخور كثيرة عليها نقوش وكتابات حميرية. وعند انعطاف الوادي نحو الجنوب تظهر أحراج النخيل وتكثر مزارع الذرة التي تسقى بماء السيل؛ لأن ماء الآبار لا يحصل عليه إلا على عمق ٣٥٠-٤٠٠ قدم، ويستعمل للشرب، ويلاقي الناس هناك مشقة كبيرة في الري؛ لأن السيول تطغى أحيانًا فتهدم الخزانات التي يقيمونها من الأحجار والطين، وتقوم البلدان على حافتي الوادي، وأكبرها مدينة عَمْد.

قبائل عَمْد

تسكن وادي عَمْد قبائل أكبرها: الجَعَدة، وآل ماضي، وآل باقيس، وآل باصَليب. والجَعَدة من بني مُرّة، ومساكنهم في الوادي إلى الرويضان على مقربة من مدينة حُرَيْضَة، ويتفرعون إلى أفخاذ وبطون، وهم:

- آل محمد بن حمد، وهؤلاء هم آل شملان، وآل نمارة، وآل فيران، وآل نوبان، وآل لجذم، وآل الشيبة، وآل عامر بن علي، وآل بلخشر.
- والمراضيح، وهؤلاء هم آل علي، وآل مبارك، وآل جبل، وآل حبيش، والهندي، والجابري.
- وآل سلمة بن سليمان، وهؤلاء هم آل عفيف، وآل بو قاسم، وآل بوجديل، وآل هلابي، وآل حميد.
- وآل عبدالله بن أحمد وهم آل كريتان، وآل حمد.

وآل ماضي من سلالة بني هلال، وليسوا من سكان الوادي الأصليين، وإنما هم جاءوا من غرب حضرموت من بلد يقال له البُوَيْرقات، نزح جدهم ماضي إلى وادي عَمْد بصحبة الحامد جد آل حامد، وسكن في بلدة طَمْحَان بين قبيلتين إحداهما تسمى آل باكلكا، والأخرى بآل طهفا، فانقرض آل باكلكا، ولم يبق منهم أحد سوى شخص واحد هاجر إلى وادي يُوَن على مقربة من وادي حجر وهناك كثر نسله، كما كثر نسل ماضي، وتفرعت منه ثلاثة فروع:

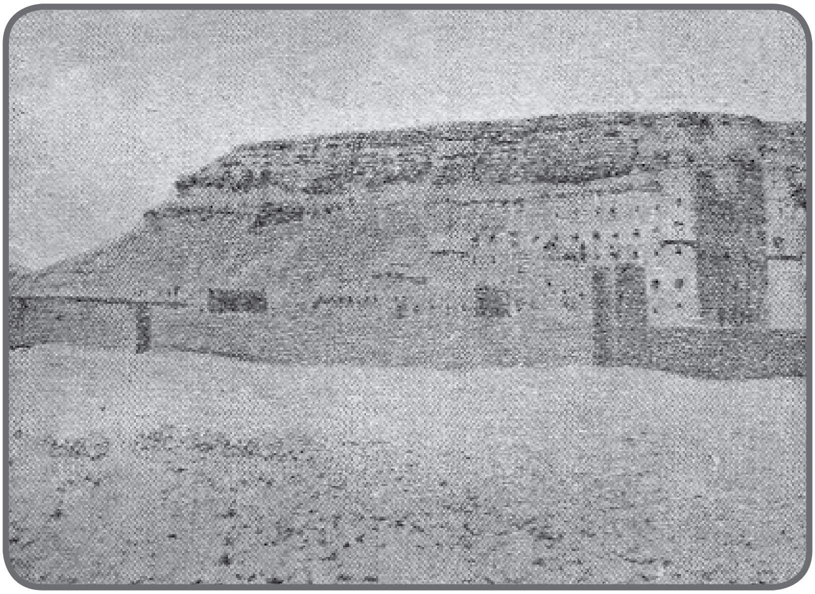
- يقال للأول آل طيف في حيرة.
- والثاني آل سويدان: وهم بن سويدان، وبن دق، وبن عقيل في طَمْحَان.
- والثالث البانيف: ومنهم آل مرعي في الوَجْر، وآل مسلم في بامهشم، وآل سلم في السمح والدباه والمبارك.

وتوجد شرذمة من آل سويدان في بلدة ترنبل بأعلى وادي عَمْد. وجاء جماعة آل باكلكا واندمجوا في آل ماضي، واحتموا بهم لوجود روابط ومكاتبات بينهم وبين نزيلهم ماضي.

وهناك قبائل أخرى، وهي آل باقيس، وآل باصليب، وقبائل من يافع يقال لهم الذَّيْباني، وآل طاهر بن راجح، وقبيلة من كِنْدة يقال لهم آل يماني، وقبيلة من آل كثير وهم آل عمر بن جعفر، وكانت إمارة الوادي في أيديهم لا سيما في عهد السلطان بدر بوطويرق الكثيري، ولما ضعفت الحكومة الكثيرية تلاشت هيبتهم، وانحلت سلطتهم، وظهرت قبائل ذات قوة وسيطرة أكبرها آل شملان من الجعدة، وتصدى هذا البيت للفصل في القضايا وإصلاح ذات البين، ولقد حدث نزاع أدى إلى القتال بين آل شملان وآل عمر بن جعفر، وسبب ذلك النزاع امرأة كانت متزوجة من رجل غائب في بلد غير معروف، فسعى أحد آل عمر بن جعفر في تطليقها حتى طلقت ثم تزوجها، ولما بلغ ذلك إلى آل شملان غضبوا أيما غضب وذهب جماعة منهم إليهم في حصونهم القائمة على تل مرتفع من الصخر يقال لها الدكوة، وأحاطوا بهم وقطعوا عنهم الماء، وأرغموا الرجل على تطليق زوجته، فطلقها اضطرارًا، ثم أعد آل عمر بن جعفر عدتهم وحفروا بئرًا في الدكوة، ثم أثاروا الحرب ضد آل شملان، وقتلوا منهم ثلاثة، ولا يزال الخلاف قائمًا بينهم إلى اليوم.

أما الأحكام في وادي عَمْد فعرفية، ولا يتقيدون بالشرع إلا فيما له علاقة بالإرث أو النكاح، وليس لوادي عَمْد حاكم عام يدير شؤون السكان، وإنما يكاد يكون في كل بلد واحد من أعيان القبائل، وغالبًا يكون من الجَعْدة يفصل في القضايا الجنائية والمدنية، وإذا رفض الحكم أحد المتخاصمين فإنهما يسافران إلى بلاد نَهْد للتحاكم عند ابن ثابت في القارَة، أو عند ابن عَجَّاج في قُعُوضَة.

مدينة قَسَمْ



قلعة قَسَم

يقع إقليم قَسَمْ بين النُّقْرَة[1] وقبر هود عليه السلام، وهو يشمل قَسَم وسَوْم وفُغْمَة، ويظهر أن هذا الإقليم كان فيما مضى منطقة حربية؛ لكثرة وجود القلاع القديمة المتهدمة التي منها قلعة العُر[2]، وتوجد هنا رسوم ونقوش، ولكنها قليلة بالنسبة لكثرة وجودها في اليمن، ويمكن تفسير ذلك إذا اعتبرنا حضرموت نهاية ممالك السبئيين والمينائيين، وقد درس أحد علماء الألمان في برلين تلك الكتابات، وفك رموز تلك النقوش التي نقلها السيدان: H.Van Wissmaan D.Van Meulen من حضرموت في رحلتهما إليها سنة ١٩٣١م، يرى ذلك العالم أن أقوام حضرموت

(١) بقعة في عِيْنات نحتها سيول الأودية العليا بعد تهدم السدود، ولقد سببت أضرارًا كثيرة بمدينة عِيْنات، فإن منطقة النخيل الفسيحة المحيطة بالمدينة أخذت تتلاشى، ويقل محصولها.

(٢) راجع صفحة (٥٥) من الجزء الأول.

غلبت عليهم الصفات الحربية من عصور متقدمة، وعلى قوله فقد ذكر الإقليم وملوكه في النقوش السبئية القديمة، وفي نصوص متأخرة، وليس لدينا إحصاء يدل على أن الحضرميين خضعوا لجيرانهم السبئيين أو المينائيين، وقد ذكر الطلاب الإسكندريون أن حضرموت كانت مملكة مستقلة قائمة بذاتها، وكان لهم إلههم المسمى سين، كما كان للمينائيين إلههم عثنار، وللسبئيين ألمقاه، وظلوا محافظين أيضًا على لهجتهم حتى القرن السادس الميلادي. وعلى كل فقد كانت هناك قرى وحصون في ثوبى والعر من إقليم قَسَم لها استحكامات حربية.

ومدينة قَسَم محوطة بسور متهدم، ويسكنها بضع مئات من السكان، بينما كانت غاصة بالألوف فيما مضى، وخارج السور تقع المدافن، وتحدها من الجهة الأخرى قلعة على طراز حصون الأشراف في عهد الإقطاع في العصور الوسطى، وقد تهدم جزء منها، ولكنها ما زالت حافظة لروائها. وعلى كل زاوية منها يوجد برج مخروطي الشكل يتضخم في الوسط، ولا بد أن يجيء اليوم الذي تصبح فيه هذه القلعة كومًا من الثرى في منطقة هجرها أهلوها. ويسكن في هذه القلعة حاكم قَسَم، وهو كهل شديد الصمم، يتكلم جنده بلسانه، وكان أبوه حاكمًا شديد البأس، ولكنه كان في نضال يائس مع القوى الطبيعية إذ أجدبت الأراضي بسبب النُّقْرَة واختفت صناعة البلح، وهاجر كثير من الرعية، فأفلس حتى أصبح عاجزًا عن دفع رواتب الجند، وبالرغم عن ذلك فقد ظل جنده وهم مائة عبد على ولائهم وإخلاصهم له، ويرحلون جماعات، كل بدورها إلى سواحل إفريقيا الشرقية وما جاورها من سواحل بلاد العرب ليحصلوا على رزق من التجارة، ثم يعودون إلى سيدهم فيشاطرونه مع زملائهم ما أحرزوه. ولهذا الحاكم المنعزل ولدان ارتحلا إلى جزيرة برنيو للارتزاق، وماتا هناك ضحية الحمى، وتبعهما ابنان آخران، وهما يعملان بجد حتى يرسلا لأبيهما جزءًا مما حصلا عليه.

بين قَسَم وسَوْم

وتوجد بعد قَسَم قرى خربة، وقلاع على شاكلة قلعة قَسَم، وتشرب دواب الحمل مياه النهر التي تظهر أحيانًا وتختفي أخرى، متخذة في باطن الأرض طريقًا لها، ويفضل الأهالي الشرب من الآبار، ويستمر الوادي بعد قَسَم في الاتساع، وتتكون التربة من طبقة سميكة من اللويس (نوع من التربة)، ويتعرج الطريق بين شجيرات الأراك الأخضر، وتوجد منطقة حافلة بالأطلال الأثرية الضخمة. وسَوْم قرية صغيرة فقيرة آخذة في الانحطاط؛ لأنها في حاجة إلى أيد عاملة للري، وتحيط بها حرجة من النخيل.

فُغْمَة

تبعد فُغْمَة عن سَوْم بثلاث ساعات، وهي مكوَّنة من عدة بيوت من الطوب النيء محوطة بالأكواخ، وهي آخر محط قبل قبر هود.

آل تميم

تقع منطقة تميم بين عِيْنات شرقًا، وبين آل كثير غربًا، ويحدها من الشمال نجد العوامر، ومن الجنوب الغُرَف، ويتفرع بنو تميم إلى أفخاذ وبطون، منهم: آل شملان، وآل سلمة، وآل بلقصير، وآل يماني، والهندي، وآل شَيبان، وآل مرساف، وآل زيدان، والدحارية، وآل قرموش، والخبارسة. ولكل فخيذة من الأفخاذ رئيس ذو نفوذ ومقام محترم كريم.

وآل تميم حلفاء يافع من عهد السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي اليافعي، ولقد قاموا بقسط وافر من المساعدة في صف يافع ضد آل كثير، وضد الحُمُوْم، ويوجد منهم اليوم في البنادر أفراد كثيرون في الجندية، تدفع لهم الحكومة القُعَيْطية مرتبات كما تدفع ليافع المتجندين.

رَخْيَة[1]

ويوجد من بني ظنة من آل تميم قبيلتان: هما آل شحبل وآل حيدرة، هاجروا من مَرْيَمَة إلى رَخْيَة سنة ١١٠٤هـ، فسكن آل شحبل في المَخَارم، ويرأسهم اليوم السيدان محمد بن جميل بن علي بن مساعد بن شحبل، ومبارك بن سليم بن سالم بن عبدالله بن عمر بن مظفر بن حيدرة. وسكن آل حيدرة في بقعة يقال لها عطفة ابن حيدرة، ويرأسهم اليوم السيدان عوض بن عبدالله بن عوض بن عبدالله بن محمد بن غانم بن حيدرة، وجمعان بن سالم بن يسلم بن سالم بن أحمد بلقصير بن حيدرة.

العوامر

تسكن قبيلة العوامر في تَارِبة، وتوجد منهم طائفة في أعلى مرتفعات أودية الغَبَر وعَيْدِيد ومَدَر، وتشبه حياة هؤلاء الحياة البدوية في جميع مظاهرها. أما الذين في تَارِبة وما جاورها فهم من الحضر، وينتهي نسب العوامر إلى همدان، فهم من آل كثير، ويتفرعون إلى أفخاذ منهم آل عبدالباقي، وآل خطاب، وآل خميس، وآل كليلة، وآل جعفر.

آل جابر

تقع منطقة آل جابر في أعلى هضاب وادي بن علي، ويفصلها من الجنوب ريدة الجوهيين، ومن الشرق وادي عِدِم، ومن الغرب وادي مَنْوَب، وتشبه هذه المنطقة في أكثر مظاهرها منطقة البادية.

(١) يقع وادي رَخْيَة بين وادي عَمْد ووادي دهر، وهو يحاكي البادية في أكثر مظاهره، وتقوم بلدة المخارم في أسفل الوادي، تمر في حدودها القوافل التي تأتي من شبوة، ومن العوالق إلى قُعُوضَة وإلى شِبَام، وتوجد في رَخْيَة قبيلة أخرى يقال لها آل بلليث، ومقدمهم السيد سالم بن يسلم بن عبدالله بن عامر بن قربان بلليث.

وآل جابر من آل كثير، وهم أفخاذ وبطون، منهم آل ضوبان، وآل صبيح، وآل سلطان، وآل هيال، وآل علي ابن سهل، وآل عكشان، وآل سهيل، وآل جعفر. ويوجد منهم في سَاهْ آل يماني بن عمر، وآل شرخه، وآل علي بن عمر. وفي وادي ابن علي آل عليمي، وآل بدر، وآل سعيد بن عامر، ولكل فخيذة رئيس ذو نفوذ.

آل باجري

يسكن آل باجري في بَوْر وما جاورها، وهم من آل كثير، ومن أفخاذهم بلقصير، وآل أحمد بن علي، وآل إبراهيم في ثِبِي. وآل كرتم، والعوامر، وآل جابر، وآل باجري؛ ساعدوا قومهم آل كثير فيما مضى بكل مقدورهم ضد يافع.

بن سيف

وهؤلاء ينتسبون إلى آل كثير، ويسكنون وادي بن علي.

وتصدر الأحكام في جميع الرئاسات القبلية التي ذكرناها على حسب العرف، إلا فيما له علاقة بالمواريث والأنكحة فإن مرجعه إلى الشرع.

في البوادي

سيبان

هي أعظم قبائل البادية، وأصعبها مراسًا، وأكثرها رجالًا، إذ يبلغ عددهم نحو ١٦٠٠٠ شخصًا، وينقسمون إلى فخائذ وبطون، وهم: الخامعة، ومراشدة، والقثم، وحامديين، والحالكة، وسموح، والمحمديين، والجوهيين، والحسنيين، والحيقيين، والمشاجرة.

وتتفرع الحالكة إلى أربعة فروع:

- الفرع الأول: آل بادقيل، وهم: بلحمر، وبلغيث، وباجعيفر، وبلشرف، وباحميد، وبازفين.

- والثاني: آل بانخر، وهم: آل عبود، وآل باكروموم، وآل بقشان، وآل باطويل، وآل بالكمع، وآل باست، وآل باضراح.
- والثالث: آل باسعد، وهم: آل عمر، وآل خليسي، وآل حاج، وآل بخرم، وآل بودهش.
- والرابع: الأبايضة وهم قليلون.

ويتفرع آل سموح إلى الجهنقيمي، والغويثي، والجوداني، والشكعي، والحنسي، وآل بادسم، وآل بابطين.

ويسكن البعض من الخامعة في دَوْعَن، ومنهم الباصرّة نوّاب الحكومة القُعَيْطية، والبقية منهم في كَوْر سَيْبَان، وكذلك بعض بيوت من المراشدة تسكن في وادي دَوْعَن، وهم الباخشوين، والباصريح، والباصقر. ويسكن القثم في مرتفعات الجبال الواقعة بين وادي دَوْعَن وعَمْد، ومنهم بيت يقال لهم بامرضاح في كَوْر سَيْبَان.

وأما الحامديون فأغلبهم في وادي هوته، والبقية مجاورون للقثم. وأما المحمديون فيسكنون في الساحل الواقع بين المُكَلَّا وبُرُوْم. وأما الجوهيون فمنازلهم في الريدة المشهورة بـ(ريدة الجوهيين) على مقربة من مشقاص الحُمُوْم. ويسكن الحيقيون في جبال الربع على مقربة من رأس التخم ووادي حويرة. أما المشاجرة ففي وادي يِبْعِث المتصل بمرتفعات وادي حجر. ويسكن البعض من الحالكة في وادي الأيسر بدَوْعَن، ويوجد منهم كثيرون في الجبال الواقعة بين وادي العين ووادي الأيسر. ويسكن السومحي في كَوْر سَيْبَان، وتنحدر سلالة سيبان من حمير.

ومنطقة سيبان على وجه العموم قاحلة، وكل شيء فيها أغبر اللهم أشجار النبق (الدوم)، وثمارها غذاء كثير من السكان الذين يقاسون أنواعًا من الآلام بسبب الجفاف. وتبتدئ منطقتهم من الجنوب بوادي لصوب العريض القحل، وبه منازل مبعثرة هنا وهناك، ويكثر في هذا الوادي النبق؛ لأن أشجاره تتحمل العطش سنين

متوالية، وهو طعام أساسي لسكان هذه القرية، وتستخدم جذوع أشجاره لعمل قوائم المباني، وفروعه الشائكة لحماية أشجار البلح من السرقة، وأوراقه لرعي الماشية.

كَوْر سَيْبَان

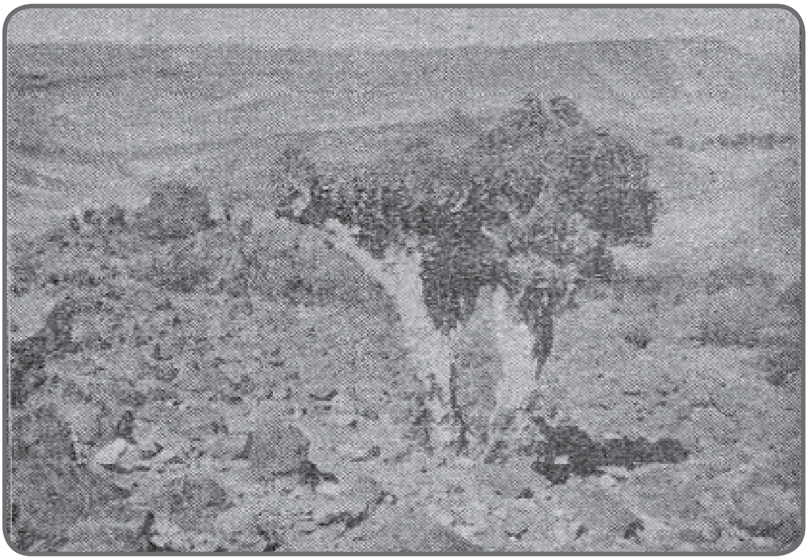
وهو عبارة عن هضبة تخترقها وديان طولية وأخرى عرضية، ولما كان المطر نادرًا في هذه المنطقة لا يمكن أن نعزي تكوين هذه الوديان إلى المطر وحده، بل مما ساعد على تكوينها أن الأرض عادة مكوّنة من طبقة مسطحة من الحجر الجيري كثافتها من ٥٠ إلى ١٠٠ ياردة، تحتها طبقة مماثلة من الحجر الرملي، وبذلك يسهل على الوديان أن تشق لنفسها طريقًا غائرًا، ويبلغ ارتفاع كَوْر سَيْبَان ٧٠٨٨ قدمًا، وهو أعلى قمة في حضرموت، وعلى قمم كَوْر سَيْبَان توجد أشجار غريبة قد تأثرت بالبيئة المحيطة بها، فانتزعت أوراقها وغصونها وقشورها، وإلى الغرب من كَوْر سَيْبَان تمتد هضبة مسطحة لا تشقها وديان كثيرة ملأى بما يسمونه النقابات، وهي عبارة عن نوع صغير من الآبار محفورة في الصخر الجيري ضيقة الفوهة، اتساعها قدم، وعمقها حوالي ٢٠ قدمًا، وتتسع من الداخل، وهي تستعمل لتخزين مياه الأمطار، وقد جعلت فوهاتها ضيقة لتمنع التبخر، وهي تحل محل السقايات في الوديان، ولها فائدة عظمى في هذه البقاع الجافة، ويبقى ماؤها ٣ سنوات، وليس به عيب سوى طعمه الآسن، وينظم المسافرون سيرهم تبعًا لهذه النقابات، وبالقرب منها توجد المربعات، وهي عبارة عن خنادق منسقة لها سقف لحماية المسافرين وحيواناتهم من قيظ الشمس، وهناك مسطحات من الأرض تفصلها عن بعضها وديان عميقة، وليس بها أي نبات اللهم إلا على الحافة حيث تصطدم بها بعض السحب، ولا حيوان سوى السحالي والطيور.

وفي مسطحات الجبال (الجول) تنعدم النباتات، وهناك توجد قرى تتكون من بيوت مبنية من الحجر والطين المجفف، وأهم هذه القرى دهمة، وعدد العميان فيها كثير جدًا، وحولها حقول تعتمد زراعتها على ماء المطر، وبها بضع شجرات من النخيل، وقليل من أشجار النبق، وفي وادي ثقب على مقربة من قرية البريرة توجد وهدة عميقة يقال إنها كانت مساكن قوم عاد، إذ يوجد فيها مساكن يبلغ طول الواحد منها عشرة أقدام وعرضه ستة، وبعضها مسدود بالصخور والبعض مفتوح، ويوجد على بعضها نقوش باللون الأحمر[1]، وهذه المساكن مبنية من الصخر الطبيعي، وملتصقة ببعضها بالطين، وهي على ارتفاع ٤٥٠ قدمًا، وتسمى ديار عاد.

وادي يبْعِث

وهذا الوادي عبارة عن هضبة صخرية تشقها بعض المنخفضات الشبيهة بالأحواض، وتنبت هنا أشجار السنط، وهناك عقبة تؤدي إلى داخل الوادي حيث تنتشر مجموعة من القرى التي يطلق عليها اسم يِبْعِث، وعند منحدر هذا الوادي تنمو المزروعات وأشجار النبق والنخيل، وتوجد هناك أشجار لها شكل غريب قد أدى تنازع البقاء بينها إلى التواء غصونها وقصرها وتجردها من الورق، فأصبح لها شكل الصخور.

(١) نقل هذه النقوش السيدان: D.Van Meulenو H.Van Wissmaan في رحلتهما سنة ١٩٣١م، وعرضاها على السيد (موردتمان) أحد علماء الألمان في برلين، فوجداها أسماء أعلام.



شجرة متحجرة في (جول) وادي يِبْعِث

وبيوت يِبْعِث مبنية من الأحجار السوداء.



قرية يِبْعِث

وقد يشتد الجفاف في هذه المنطقة فينعدم الثمر من النخل، وتزداد حالة السكان ضنكًا وتعاسة، وهي من المناطق الخطيرة، إذ قد يسلب المسافرون ويقتلون بأيدي أولئك البدو، ولا بد للذاهب إليها أو الخارج منها أن يحتمي بقافلة رجالها من حملة السلاح الأشداء، وتتصل هذه القرى بالصَّدَارَة في وادي حَجْر، وتقطع المسافة في يومين في طريق وعر خطير، والمسافة بينها وبين المُكَلَّا ٣ أو ٤ أيام.

وحاكم يِبْعِث أحد الأعيان يقال له الشيخ أبو بكر، ولكن أحكامه كلها عرفية غير نافذة، فقد يفتك الشبان بالمسافر ويقتلونه ويسلبونه دون أن يستطيع منعهم.

وعند نهاية هذا الوادي ينبسط جول قاحل خطير يتصل بمرتفعات وادي حَجْر، وعند النزول من هذا الجول يشعر الإنسان بالرطوبة لقربه من وادي حَجْر المليء بالماء، وتوجد في ذلك المنحدر منطقة لذيذة من الناحية الجيولوجية، فهناك وادٍ تتخلله الصخور، وتصبح الطبقات عكسية بعد أن كانت أفقية، وتتكون من طبقات من الحجر الجيري الأسود، والحجر الرملي، وتأخذ الحياة النباتية تفرز شيئًا فشيئًا، فهناك حقول واسعة من الذرة والسمسم ترويها قنوات تستمد ماءها من ينابيع ذات ماء حار جدًا قد يصل إلى درجة الغليان، وهو ملح، وتوجد هناك برك ومستنقعات عليها طبقة من الملح، وتتوسطها أنواع غريبة من النخيل لا توجد في منطقة حضرموت الداخلية، وهذه المنطقة وهي منطقة الصَّدَارَة صالحة جدًا للزراعة، ولكن الأيدي العاملة معدومة والجهل ضارب أطنابه في الأهالي. وأغلب سكان هذه المنطقة من قبيلة نوَّح، وليس بينهم أحد من قبيلة سيبان إلا أفراد قليلون جدًا. والحكومة القُعَيْطية اليافعية لا تعطي لهذه المنطقة الخصبة أقل اهتمام مع أن جزءها الأكبر تحت حمايتها، والناس هناك متعطشون للإصلاح.

نوَّح

تعد نوَّح من كبريات قبائل البادية، ويتصل نسبها بحمير وهي تتفرع إلى أفخاذ، وهم: بافقاس، وبارجاش، وباقروان، والمساعيد، وبادويس، وبارشيد،

والصبيحي، والجمري، وباصم، وباحميش، وباحكيم، والمعوس، وبافياض، وباشهاب، والعكابرة، وبابطين، وبصفر، وباجندوح، وباسويد، وبافنع. ويسكن كثير منهم في حَجْر، وهؤلاء خاضعون لحكومة القُعَيْطي اليافعي، وفي المرتفعات الواقعة بين أودية حَجْر وحموض، وقليل منهم في الصَّدَارَة.

المناهيل

تقع منطقة المناهيل الماحلة بين وادي المسيلة عند حدود المهرة في الجنوب وبين قبر هود شمالًا، وكانت المنطقة الواقعة بين قبر هود ووادي سنا من أخصب البقاع في القطر الحضرمي ومن أكثرها خيرات وأوفرها غلات، ولكن حينما انهدَّ السد العظيم الذي كان قائمًا في شمال وادي سنا فيما يرجع إلى ما قبل الإسلام، أجدبت تلك المنطقة وأجدب معها كل الوادي إلى المهرة حيث تنحدر سيول الوديان العليا بسرعة عظيمة وتصب في بحر سَيْحُوت في المحيط الهندي، على أن منطقة المناهيل من أصلح الأراضي للزراعة لكثرة وجود الطمي الذي تأتي به سيول الأودية العليا، ولكن حيث إنها عرضة للرياح الشمالية الغربية، وحيث إن الأيدي العاملة معدومة، فقد تكونت هناك أكوام كثيرة من الرمال، فغطت كثيرًا من الأراضي الصالحة للزراعة، فزادت القحولة والمحولة في هذه المنطقة، وأمسى لونها أغبر ولا شيء فيها يدل على الحياة اللهم إلا بعض أشجار النبق القائمة في وديان الجبال الجنوبية والشمالية، وفي هذه الوديان حيث تنمو العشب بوفرة، وترعى العنز والنعاج والجمال، وتوجد قرى المناهيل، وهي مكوّنة من بيوت وأكواخ مبنية من الطين، ويسكن البعض في كهوف الجبال.

والمناهيل قبيلة كبيرة يتصل نسبها بآل تميم من طريق بني ظنة، وهم ينقسمون إلى أفخاذ وبطون، منهم بالمعشني، وبني سبولة، وآل كزيم، وآل سماح، ورئيسهم ابن طناف، وتتصل المناهيل بالمهرة بواسطة القوافل، ولكن الأمن في طول الوادي

مفقود، والمخاطر جمة، والمشاق كثيرة، وهذه المنطقة لم يطرقها بعد أحد من السياح الأجانب فيما أعلم.

الحُمُوْم

تنقسم قبيلة الحُمُوْم إلى أفخاذ وبيوت، منهم آل قرزات، واليمنيين، وآل باحسن، وبيت علي، وبيت غراب، وبيت عبيد. وهناك بطون تدَّعي الانتساب إلى أهل البيت وهم: بيت حمودة، وبيت محمد، وبيت زين، وبيت قطبان، ولكن ليس لها سلطة روحية، ولا امتيازات يتمتعون بها دون سواهم. ويبلغ عدد الحُمُوْم نحو ثلاثة آلاف شخص، وهم من أكثر قبائل البادية عبثًا بالسلام، وإخلالًا بالنظام، وهم يسكنون الجبال والوديان بين المناهيل، ومَقَد آل عبيد شمالًا، وجبال الشواطئ جنوبًا، وبين سيبان والعوابثة غربًا، ووادي المسيلة شرقًا، ومنطقتهم على وجه العموم قاحلة جدباء، لا تنمو فيها نباتات سوى النبق والسنط، وبعض الأعشاب في بطون الوديان، ولذلك نجد جماعات منهم ترحل بخيامها من وادي إلى آخر حيث الزرع وحيث الماء، على أن لبعضهم علاقات ومواصلات بالأمصار، كالشِّحْر وسَيْئون وعِيْنات، وهؤلاء معيشتهم لا بأس بها من الناحية الاقتصادية.

ابن مخاشن

وتوجد على مقربة من حَوْرَة في بلد يقال له عرض المخاشن قبيلة آل مخاشن، وهي فرع من الحُمُوْم، ولكنها محالفة الحكومة القُعَيْطية اليافعية.

الدِّيْن

وهم فخائذ منهم آل هميم، وقيل إن قبيلة آل عبيد منهم، وتمتد منطقتهم من الريدة المشهورة بريدة الدِّيْن إلى جروان.

هضبة الدَّيِّن

وهذه أخطر بقعة في منطقة الجبال وسطحها (الجول) لا يختلف عن جول وادي دَوْعَن في تشابه مناظره وإقفاره من كل مظهر للحياة، ولا توجد فيه نباتات سوى أشجار النبق، وتوجد هناك قرى منها شرج الأبيضين، وهو قرية حقيرة للغاية، مكوَّنة من عدة منازل صغيرة، غذاؤهم ثمار النبق، وفي موسم البلح يقدم سكان وادي عَمْد كميات منه لهؤلاء البدو في نظير حمايتهم من العدو.

ريدة الدّيِّن

يبلغ سكان هذه الريدة نحو ٢٥٠٠ بدوي، ويحكمهم السيد عثمان بن محمد العمودي الساكن في قرية نجيدين، ولهذا الحاكم نفوذ مطلق في ريدة الدَّيِّن وهيبة في قلوب السكان الشديدي الشكيمة، وهم دائمًا في مشاغبات ومشاحنات فيما بينهم، ولكن العمودي استطاع بسياسته وحزمه أن يوحد صفوفهم، ويزيل ما يحدث بينهم من خلاف وخصام.

الصَّيْعَر

تقع منطقة الصَّيْعَر من شمال غربي حضرموت، يحدها من الشمال الربع الخالي، ومن الجنوب هَيْنَن وسُور وحصن الغراب، ومن الغرب اليمن وبلاد العوالق ويافع، ومن الشرق وديان سر، وهذه المنطقة من أقفر مناطق القطر الحضرمي وأجدبها وأنزرها ماء، وتنعدم النباتات في المرتفعات، ولا ترى هناك أثرًا يدل على الحياة، وفي المنخفضات توجد شجيرات النبق والسنط وقليل من الأعشاب القصيرة، وعدم سقوط المطر في المنطقة الشمالية، وقلة سقوطها في جنوبها؛ راجع إلى قربها من الربع الخالي، والسحب التي تأتي من الجنوب تكون غالبًا جافة بعد اصطدامها بجبال هَيْنَن وسُور والجابية، وتقوم مدينة الصيعر المشهورة بريدة الصَّيْعَر في الشمال الغربي لوادي الجابية، وهي مكوّنة من بيوت أو أكواخ مبنية من الطين،

وبعضها مبني بالحجر، وهي تمثل البداوة بكل معانيها، وتتصل الريدة بسُور بطريق جبلية شديدة الانحدار، وكثيرة التعرجات، ولكن جمال الصَّيْعَر متعودة على صعود المرتفعات والنزول منها إلى المنخفضات دون أن تصاب بضرر، وهذه الطريق قليلة الأخطار بالنسبة للمنطقة الواقعة بين ريدة الدَّيِّن ووادي حُمَم.

والصَّيْعَر أفخاذ، وينتهي نسبهم إلى كِنْدة، وبعضهم ساكن في الحضر كالهجريين وهم آل محفوظ، ومن هؤلاء ابن طيران وابن مساعد، وهؤلاء حلفاء يافع، وتوجد جماعة من الصَّيْعَر في مرتفعات وديان سَر العليا، وهؤلاء يمثلون ما قبل التاريخ، فهم يسكنون الكهوف، ويلبسون الوبر، ويعيشون على رعي جمالهم التي يتخذون منها اللبن وهو غذاؤهم الوحيد.

وأذكر أني لما كنت في حضرموت سمعت حكاية من أحد الصَّيْعَر الذين أتوا بقافلة تحمل حبوبًا لبيعها في شِبَام، قال: إن لجماعته القاطنين في أعلى وديان سَر جمالًا كثيرة العدد، ولهم إشارات تكاد تكون لغة ذات أصوات يتفاهمون بها مع جمالهم، وقال: إنه حدث مرة أن هاجمت عصابة أحد الرعاة، وكان غلامًا صغيرًا، وأحاطوا به وبجماله، ولكن الغلام استطاع أن ينجي نفسه وجماله من الخطر المحدق به حيث صاح صيحته التي يفهمها جماله، فانطلقت وراءه كالطائرات، فبهتت رجال العصابة مما رأوا وعادوا آسفين نادمين.

أما الصَّيْعَر الذين يسكنون في الريدة وما جاورها، فمواصلاتهم باليمن متينة بواسطة الجمال، وهم يستوردون من اليمن ومن بلاد يافع أنواع الحبوب والبن والورس، ويأتون بالسمن من بلاد العوالق، ويبيعون ذلك في أسواق العروض وهَيْنَن وشِبَام.

المعَارَّة

تسكن قبيلة المعَارَّة في الوديان، وفي سطوح الجبال الواقعة بين عقبة الغز شمالًا، وعقبة الفقرة جنوبًا، ويفصلهم من الشرق الحُمُوْم، ومن الغرب العوابثة، والمعَارَّة من أكثر قبائل البادية ميلًا للنهب والسلب وقطع الطريق لفقر منطقتهم، وهم ينتسبون إلى مذحج، ويبلغ عددهم نحو ٣٠٠ نفس. وقريتهم المكونة من بيوت صغيرة تقوم شرق مرتفعات وادي العين، وتسمى ريدة المعَارَّة، وهي واقعة في منتصف الطريق بين عقبة الغز وبظى.

الحياة في البوادي

الأمن في كلِّ بوادي القطر الحضرمي مفقود، وكل منطقة لا سيما التي تقع بين قبيلتين بدويتين فإنها محفوفة بالمخاطر والرزايا، ويكاد يكون لكل فخيذة من أفخاذ القبيلة الواحدة رئيس يرجعون إليه للفصل في قضاياهم، وجميع الأحكام عرفية مع شيءٍ كثير من الفوضى، وعدم الخضوع أحيانًا للحاكم الذي لا يستطيع أن يرغم أتباعه على الطاعة، ومن مزايا سكان البادية الجليلة أن كل قبيلة شديدة الغيرة على أفرادها، تبذل كل مرتخص وغال في حمايتهم والدفاع عنهم، ويندر أن يحدث خلاف وقتال بين أفراد القبيلة الواحدة، ولعل السبب في ذلك عدم وجود فوارق في المال، وامتيازات في المقام، فجميعهم يكادون يتساوون في الناحية الاقتصادية، وكلهم طبقة واحدة، فلا سيد ولا مسود، ولا غني ولا فقير، اللهم إلا الحاكم أو الرئيس فيعطونه من الاحترام ما يستحقه.

أما التعليم في البوادي فليس له أثر ولا وجود، فالناس كلهم أميون، والبدو على وجه العموم يمثلون النشاط وحب العمل والجلد والصبر، فجانب منهم يحترفون الرعي والترحال من مكان إلى مكان بخيامهم وأهليهم، وآخرون يحترفون التجارة فيجلبون من البلدان النائية أنواع المتاجر بواسطة جمالهم ويبيعونها في الحواضر،

والثروة عندهم غالبًا محصورة في الجمال، ولأكثر الرجال طابع خاص، فشعر رؤوسهم طويل خشن غالبًا يقطع أحيانًا عند القمة، ولكن أكثر الأحيان يترك هكذا غزيرًا، ولا ينبت لهم شعر في العارضين إلا في طرف الذقن حيث ينبت شعر قليل، ولكثير منهم وجوه جميلة، وملبسهم القميص الطويل الذي ينتهي إلى الركبتين وبعضهم يكتفي برداء ملون بالنيلة يغطي نصف الجسم، وحول الخصر حزام من الجلد المدبوغ يوضع فيه خرطوش البندقية، ورؤوسهم غالبًا عارية إلا من سير من الجلد يحفظ ذؤابات شعورهم الطويلة من التفكك، ويضع بعضهم على رؤوسهم قطعًا من القماش يقال له البرنس، وسواعدهم السمراء وأرجلهم فيما تحت الركبة عارية.

أما المرأة فتلبس رداء واحدًا مصبوغًا بالنيل أشبه بالفستان يصل من رقبتها إلى أخمصي قدميها، وعلى رأسها غطاء أسود شفاف يصل إلى كتفيها، ولا يبدو منها شيء سوى وجهها وكفيها وقدميها، وبعض النساء والفتيات ينقشن وجوههن بكل الأشكال والصور، ويرسمن على العنق والصدر وظاهر اليد والقدم خطوطًا غالبًا ما تكون بلون أزرق أو أسود، ولكنها في بعض الأحايين تكون حمراء أو خضراء، وتحلق الحواجب أحيانًا، ويرسم موضعها خط أجمل منها، وبعضهن يطلين وجوههن في أيام الأعياد والحفلات بطلاء أسمر وأخضر وأحمر، وقد يضعن نقطًا من طلاء قرمزي في منتصف الجبهة، وعلى الشفتين كما هي العادة عند الهندوكيين، والحلي كثيرة، ففي سن باكر ٨- ١٠ تخرق آذان الفتاة في ستة مواضع غالبًا تحلى كل واحدة منها بقرط من فضة أو تحلى جميعًا بسلسلة من الفضة تحملها متعبة صاغرة، وعندما تصل سن البلوغ تثقب طاقة أنفها اليسرى، وتضع فيها خزامًا، وحول عنقها قلادة، أو عدة قلائد، ثم أحيانًا تلوّن أظافر اليدين جميعًا بالحناء،

وتصبغ أطراف أصابع اليدين والرجلين بلون أسود، وراحة اليد بلون أحمر، وفي الأهداب يوضع الكحل، حتى الرجال يفعلون هذا، إذ يقال إنه يقوي البصر.

والزواج عندهم مبكر، وقد يجتمع الشاب بمن يهوى من الفتيات شهورًا، ويختلي بها دون أن يمسها بسوء حتى إذا توطدت بينهما عرى الحب والولاء تزوجا، والبدوية ولود، وهي تضع أولادها في مهود مصنوعة تبدو كأنها فواقع مفتوحة ذات أقدام صغيرة، وحين كان على الأم أن تذهب كانت تأخذ المهد وما فيه معها، ويرقد الرضيع فوق وبر منسوج، أو على جلد مدبوغ، وتجلس الأمهات في خوف عظيم من عين السوء، فعلى المرء أن لا يبدي اهتمامًا خاصًا بأي طفل. والختان عندهم من أهم الأمور، وله شعائر تختلف غالبًا في كل إقليم عنه في الآخر، ففي بعض الأقاليم يختن الذكر عند البلوغ والأنثى في يوم الميلاد، وفي أخرى يختن الذكر في سن السادسة، والأنثى في العاشرة، وفي كل البوادي يقطع الجزء الزائد من الجلد عند الذكر، وفي حالة الأنثى يقطع بعضهم طرف البظر، بينما يقطع بعض سكان الجبال كل البظر، وبعض البدو لا يختنون ألبتة وهم قليلون جدًا، ويشبه ختان الذكور هناك، وفي الحضر أيضًا الختان عند قدماء المصريين، لأن المومياوات التي عثر عليها في طيبة مختونة، والنساء في البادية يجتمعن بالرجال، ويتحادث الجنسان بمطلق الحرية؛ لأن كلًا منهما حافظ شرفه ويستحيل أن يتعدى حدود الرزانة والحشمة، ويرقص الشبان مع الشابات، والشيوخ مع العجائز، وليس عندهم أي أثر للعصبية فأي فتى من أية قبيلة كانت يمكن له أن يتزوج من أية فتاة يحبها، ويفضل الرجل المشهور بالبسالة والبطولة بقطع النظر عن خلقه ولونه، والسذاجة في البدوية بالغة إلى أقصى حد، فهي تمازح أي شخص على مرأى من أقربائها، ولقد حدثت حكاية ظريفة بين السيدين: D. Van meulan و H.Van Wissmann، وبين جماعة من البدويات تدلنا على مبلغ بساطة وسذاجة هذه

النساء، فقد احتك السيدان في رحلتهما عام ١٩٣١م بقبيلة من البدو كانت ضاربة خيامها على سطح هضبة عالية وراء جبال المُكَلَّا، قالا إنه حينما اكتشفت إحدى النساء سِنًا ذهبية في فم أحدهما أخذت تفحص فمه وتشاهد هي ورفيقاتها الأسنان الذهبية الأخرى، وصدرت صيحات دهشة تلاها سرور وبهجة، وبعد أن فحصت فمه بدأت تدعك الجانب الأبيض الباطن من ذراعه بشدة بأناملها الخشنة السمراء فلم يتغير لونه وظل أبيض! ثم جذبت قميصه الكاكي، فوسعته عند العنق فكان أبيض أيضًا، وضحكن رفيقاتها الواقفات، واستمر الامتحان وكشف القميص أكثر فأكثر، وكانت صيحات عجب «آه! آه!» حين تبين أن بطنه كذلك بيضاء جدًا، ولما أرادت تلك الفتاة أن تكمل اكتشاف جسم ذلك الأوروبي أكد لها أن ما تبقى من جسمه لونه أبيض أيضًا، وكانت تعتقد هي ورفيقاتها أن الإفرنج معتادون على أن يحكوا الصابون بأجسامهم، فسألته إحداهن وقالت:

«أيجعل لوننا كذلك بواسطة الصابون؟»

«كلا! فإن الله قد خلقنا هكذا».

«ليس من شك في أنكم تعيشون في منازل، فلا تجعلكم الشمس مثلنا، وليس من شك في أنكم لا تأكلون إلا اللبن».

«كلا! فنحن نأكل ما تأكلون».

«امكث هنا معنا ونحن نرقص لك الليلة على تصفيق الأيدي».

وبدأت تلك الممتحنة ترقص وتصفق، وكان ذلك قد أثار الغيرة في قلوب الأخريات.

«كنا نود أن نقيم بينكم لولا أنه ليس لدينا وقت يجب أن نرحل».

«كلا! بل امكث هنا سنعطيك زوجة».

وهناك استطاع السيد (ويزمان) أن لا يجيل بصره بتفحص فيمن حوله فمن كانوا أي شيء إلا ذوي جمال وقرأن أفكاره، فقالت إحداهن:

«كلا! فإن الفتيات الصغيرات ما زلن مع القطعان، ولكنهن يأتين مع قدوم الليل»(١).

ومهما كانت حياة البدوية على جانب كبير من البساطة والخشونة إلا أنها تفعل أي شيء لتبدو جميلة، وهي تعلم في حداثتها أن من تود أن تكون جميلة فعليها أن تقاسي.

ويعيش أغلب بدو حضرموت في منازل وأكواخ مبنية من الطين أو الحجر، وبعضهم يعيشون في كهوف، أو في العراء بغير مأوى، وكان المأوى عبارة عن مساحة خمسة أقدام مربعة، تحوطها أربعة عصي، ارتفاعها نحو ثلاثة أقدام، وعصي أخرى تربطها ببعضها، ونثرت فوقها كومات من الحشيش الطويل الصلب لا يمنع الشمس كثيرًا، كما أن بعض المنازل أكثر سذاجة ومصنوع من أغصان مقطوعة وخرق قليلة ممدودة عليها لتلقي شيئًا من الظل، والخرافات عندهم تكاد تكون معدومة، ولا يقسمون بالأضرحة المقدسة إلا القليل منهم وهم المجاورون للحواضر.

الحالة الاجتماعية في الحواضر

ليس بحضرموت إحصاء رسمي للسكان، بل لا تجد لهم تعدادًا في العواصم والمدن حيث توجد مراكز الحكومة ودوائرها، وعلى وجه التقريب يبلغ عددهم نصف مليون بما فيهم سكان البادية، وينقسم السكان إلى أربعة طوائف:

١- حملة السلاح ٢- التجار ٣- الزراع ٤- الروحانيون.

(١) الحوار مترجم من الإنجليزية طبق الأصل من كتاب (Hadramaut) للسائحين السيدين: D.Van Der Meulen وH.Van Wissmann مبعوثي الحكومة الهولندية إلى حضرموت سنة ١٩٣١م.

حملة السلاح

وهؤلاء يحمون البلاد، ويحفظون الأمن، لا سيما في الحواضر، ويحرسون القوافل، ومنهم تتكون حاشية السلطان وأعوانه وحرسه، والرئاسات القبلية، ويسمى حملة السلاح في اصطلاح الحضارم (القبائل) وهم يافع وآل كثير، ومن يلحق بهم، كآل جابر، والعوامر، وآل باجري، وآل سيف، وآل تميم، ومن يلحق بهم من بني ظنة كآل شحبل وآل حيدة، ونَهْد وكِنْدة وسيبان ونوّح والدّيِّن والجعدة والعوابثة والحُمُوْم والمناهيل والمهرة وغيرهم[1]. والبنادق التي يحملها القبائل من نوع الميزر والهتفا والهرتي، وكانوا يحملون نوعًا من البنادق يقال له (العربي)، وقد انعدم هذا النوع لرداءته وقدمه، ويكتفي بعضهم بحمل الخنجر (الجنبية) والسيف أو الرمح، ويتقلد ابن المتسلح الخنجر في أوائل العقد الثاني من سِنِّه، ومتى بلغ رشده يتقلد البندقية، وفي هذه الحال يعد من الرجال، ويوجد بين حملة السلاح رجال كثيرون ذوو عقول راجحة، وأنظار بعيدة، ذوو عزم وحزم وسياسة وكياسة وصلاح، ويحبون الخير، غير أنهم على وجه العموم مشاغبون، محبون للحرب، والنظام عندهم من أشق الأمور، فهم يميلون إلى الحرية الشخصية التي لا تعرف قيودًا أكثر مما يحبون الحياة، وقد يحدث نزاع وخلاف، وتثور الحرب بين قبيلتين بل بين القبيلة الواحدة، ولكنهم يتناسون ذلك كله حينما يأتيهم عدو من الخارج، حيث يتحدون ويدافعون جنبًا لجنب، ويهبون جميعًا لمقاتلة عدوهم، ثم بعد انتهائهم من أمره يعودون إلى ما كانوا فيه من قبل، ومن أعظم مزايا المتسلح أنه يقبل كل من يحتمي به، ويدافع عنه بماله وروحه، ومن المساوئ التي يؤاخذ عليها المتسلحون أن أقرباء المقتول لا ينتقمون من القاتل نفسه، بل هم إذا

(١) يوجد بيوت تركت السلاح من قديم لاشتغالها بالعلم أو التجارة، ومن هؤلاء الكلالي من حمير، وآل باكثير وآل بافضل وآل طرشوم من كِنْدة وغيرهم.

لم يجدوه يقتلون أي فرد من أفراد قبيلته، وهذا يوجد عند جميع القبائل حملة السلاح، ومن المساوئ أيضًا حرق النخل بالقاز في أثناء النزاع، وهذا يحدث كثيرًا في نَهْد، (والحشمة) وهو قتل الشخص المحتمي بشخص آخر، فإذا قتل شخص في حماية فرد من أفراد قبيلة أخرى، فإن الحامي ويسمى عندهم (المحشوم) ينطلق بكل سرعته، فإذا التقى بأي شخص من حملة السلاح في غير حدود الحكومتين اليافعية والكثيرية فإنه يقتله، وفي هذه الحال يقال له (بيَّض وجهه)، ومن هذا تنشأ المشاغبات، ويستمر الخصام والقتال بين بعض القبائل، ولعل من دواعي الغرابة أن يعلم القبائل بتلك المساوئ المضرة لهم، والهادمة لمجتمعهم، ولا يعملون لإزالتها من بينهم، وفيهم ذوو الشخصيات البارزة الذين يشار إليهم بالبنان، ولعلك تندهش إذا قلت إن بعض حملة السلاح يعدون تلك المساوئ من دلائل البطولة والشجاعة، وقبائل حضرموت لا تقبل الدية في القتيل، ويعدون ذلك عيبًا وجبنًا.

وإذا تلاقى شخصان بينهما ثأر، وقال أحدهما للآخر: «السلام عليكم»، وأجابه الآخر: «وعليكم السلام»، فمعنى ذلك أن العداء زال بينهما مؤقتًا، وعند بعض قبائل البادية نوع آخر يقال له «ثمن البطن» وهو أن يكون الشخص في حماية شخص آخر، فإذا أكل ملحه فهو تحت كنفه لمدة ٤ ليال و٤ أيام، إذا اعتدى أحد من أفراد قبيلة المضيف على الضيف، أو ما يخصه، وجب عليه رده، وعوتب بمنتهى الصرامة.

التجار[١]

وهم أرباب التجارة والصناعات، ومن يلحق بهم كالبنائين والنجارين وغيرهم، وهؤلاء عليهم حياة الأسواق وموتها. والتجار الحضرميون مشهورون بالأمانة والنشاط والصبر والجلد والثبات لمكافحة الشدائد، ومصادمة المصائب، وهم على جانب عظيم من المهارة في التجارة وطرائق الارتزاق والعيش.

---

(١) يوجد من حملة السلاح كثيرون يحترفون التجارة.

الزرَّاع

وهؤلاء يحرثون الأرض ويزرعونها بالنخل وأنواع الحبوب، ومع أنهم أكثر الطوائف الحضرمية منفعة للناس، لا يلاقون احترامًا في بقية الطوائف الأخرى، لا سيما حملة السلاح والروحانيين المتغطرسين، ليس لأنهم زراع فقط بل لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا طاقة لهم بأخذ الثأر لتجردهم من السلاح، وقد نتج من ذلك ضعف الشخصية في طبقة الزراع ومن يلحق بهم من العمال.

ولقد بلغ امتهان أولئك المتغطرسين بالزراع أن سموهم (الضعفاء)، وهم جديرون أن يسموا (الأقوياء) لأنهم العمود الفقري للبلاد. والفلاح الحضرمي نشيط مجد صبور نبيه ذكي، يعرف الأرض الطيبة من الرديئة، ويعرف النجوم فيزرع على حسابها، وهو أمي لا يعرف الكتابة ولا القراءة، ومن مساوئ الفلاح الحضرمي القناعة، فهو يكتفي بفلاحة جزء من الأرض محدود مع أن في استطاعته أن يزرع بقاعًا واسعة بكثير من الحبوب والبقول والخضروات؛ لأن الماء وافر بين يديه، وقريب من سطح الأرض، وبالأخص من منطقة حدرى، ولذلك لا نجد واحدًا منهم يملك ثروة واسعة، ولعل له بعض العذر في ذلك لما يلقاه من التضييق والضغط من جانب بعض التجار المرابين الذين يقترض منهم حبوبًا للزرع بأرباح كثيرة.

الروحانيون

وهم آل باعلوي (العلويون)، وآل باوزير، وآل عمودي، وآل إسحاق، وآل باجابر، وآل باعباد.

آل باعلوي[1]

وينقسم آل باعلوي إلى أفخاذ وبطون، منهم آل الشيخ أبي بكر، والعطاس، وآل

(١) راجع صفحة ١٢١ من الجزء الأول.

عيدروس، وآل حبشي، وآل شهاب، والجفري، وبلفقيه، والكاف، والسقاف. وفي بعض أفخاذ آل باعلوي: كآل الشيخ أبي بكر والعطاس والعيدروس والحبشي، رؤساء لهم نفوذ روحي قوي جدًّا، ويقال لهم (المناصب). ولآل باعلوي على وجه العموم سلطة روحية نافذة، ولم تأتهم هذه السلطة من طريق القوة، ولا ابتاعوها بالحرب، وإنما نالوها بالتظاهر بالصلاح والتقوى، ودعوى الانتساب لأهل البيت، فسلطتهم تشبه إلى حد كبير سلطة مشايخ الصوفية وأرباب الطرق والمقامات في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، ولقد أكسبتهم هذه السلطة حب الشهرة والظهور بمظاهر الكبرياء والترفع عن غيرهم في طبقات الشعب، وعدم التنازل لهم، وهم يرون أن كل شخص منهم يجب أن يحترم ويفضل عن غيره سواء أكان هذا الشخص كبيرًا أو صغيرًا عالمًا أو جاهلًا عاقلًا أو معتوهًا، ويغضبون إذا نودي أحدهم بكلمة (يا أخ) وإنما يجب أن تناديه (يا حبيب) أو (يا سيد)، والعلوية (يا شريفة)، وهم يرون أن تلك الكلمات التي تدل على التعظيم يجب أن تكون خاصة بهم دون غيرهم من الطبقات الأخرى، ويريدون من غيرهم أيضًا تقبيل أيديهم عند المصافحة، وأن يكون لهم في المجالس المقام الأكرم والمكان الأعلى، ولا يجوز عندهم أن يتزوج غير العلوي من العلوية، ويعدون ذلك حرامًا، بينما هم يتزوجون بنات غيرهم[1]، ولقد غلا بعض إخواننا آل باعلوي في سلطتهم الروحية فوجهوا نفوذهم إلى بعض القبائل الكبيرة ليتصرفوا فيهم كما يبتغون، ويسخروهم في أغراضهم الشخصية، فاتجه آل الشيخ أبي بكر إلى يافع، وآل عيدروس إلى آل

(١) هذه العصبية الممقوتة في الزواج ليست هي عند آل باعلوي فقط، بل هي أيضًا عند القبائل حملة السلاح، فهؤلاء لا يزوجون بناتهم لغير حملة السلاح من غير أصحاب السلطة الروحية.

كثير، والعطاس إلى الجعدة، وتدخلوا في شؤونهم السياسية، على أنه يوجد في آل باعلوي أفراد وهم قليلون اشتهروا بالصلاح والتقوى والورع وحب الخير والدعوة إليه، وإن كانوا متمسكين بعصبيتهم الممقوتة، وامتيازاتهم الموهومة.

ولآل باوزير، وآل عمودي، وآل إسحاق، وآل باجابر، وآل باعباد سلطة روحية، ولكنها في الدرجة الثانية بالنسبة لسلطة العلويين الروحية، وليس عندهم من الكبرياء والترفع والعصبية مثل ما عند هؤلاء.

الخرافات

ولقد ابتنى بعض العلويين قبابًا كثيرة لبعض موتاهم رحمهم الله، ووضعوا على أجداثهم التوابيت، ودعوا الناس لزيارتها، والتبرك بها، والتوسل إليها لقضاء الحاجات واستنزال البركات، وقد يوجد في القبة خزانة (تيحة) في داخلها إناءان: أحدهما للنقود، والآخر للزيت الذي يقدمه المريض لطلب الشفاء، وأقرباء الميت هم الذين يتمتعون بهذه القرابين والنذور، وقد يبالغ بعض المرضى في الضلال فيأكلون قليلًا من تراب ذلك القبر لطلب الشفاء، وإني لأذكر أني حينما كنت في حضرموت وأنا يومئذ لم أبلغ سن الرشد أصبت بحمى، فذهبت إلى قبة المرحوم عمر بن محمد الهدار العلوي الواقعة على مقربة من حوطة أحمد ناصر، وأكلت قليلًا من تراب قبره، وقبَّلت تابوته، وتوسلت إليه ليذهب الآلام، ويعيد إليَّ صحتي كاملة غير منقوصة، ووضعت في الخزانة أوقية وربعًا، وعدت إلى البيت وأنا أرتعد من حمى الورد، ومن حسن حظي أني في اليوم الثاني شفيت من مرضي، ولكني من سوء حظي أن ازداد اعتقادي في الهدار واعتمادي عليه من دون الله، فذهبت في الحال إلى السوق وابتعت رطلًا من زيت السمسم، ثم ذهبت إلى قبة الهدار، ووهبت له الزيت في الخزانة، وهكذا ذكرت صاحب القبة في السراء والضراء خفية

وجهرة، وهو لا ينفعني بشيء، ولم أذكر الله عز وجل، الذي هو أقرب إليَّ من حبل الوريد، وبيده كل شيء.

ويوجد في الروحانيين وبوجه أخص في العلويين من يصنع التمائم والعزائم للمرضى وغيرهم من طلاب الحاجات، ويبالغ بعض الدّجالين من أصحاب السلطة الروحية فيسقون المريض ماء ممزوجًا ببزاقهم للشفاء، ويتجرع هذا المريض (المغفل) ذلك البزاق القذر، وهو مسرور كل السرور متوهمًا أن الشفاء آتٍ لا ريب فيه.

وهناك كتب ألفت، ورسائل دونت كان لها أثرها السيء في عقلية الشعب، وتسميم أفكاره، وإفساد عقيدته، وفي مقدمة هذه الكتب (المشرع الروي) لصاحبه الشيخ محمد بن أبي بكر الشلي المشحون بالكفريات والخزعبلات، ثم كتاب (الجوهر الشفاف) وغيرهما.

ويقسم كثير من الناس بالأضرحة ويخافونها إذا حنثوا في أيمانهم أكثر مما يخافون الله، فقد يطلب المشتكي من خصمه أن يقسم على ضريح مقدس خيرًا من أن يقسم بالله أو بالقرآن، ويعتقدون أن لتلك الأضرحة قوة الانتقام إذا كان المقسم حانثًا، وأهم الأضرحة التي يقسمون بها هي:

الاسم	المكان	الاسم	المكان
أحمد بن زين الحبشي العلوي	حوطة أحمد بن زين	الشيخ أبو بكر بن سالم العلوي	عِيْنات
عبدالله العيدروس العلوي	تَريْم	سعيد بن عيسى العمودي	قيدون
عمر بن محمد الهدار العلوي	حوطة أحمد ناصر	معروف باجمال	بضة
علي بن حسن العطاس العلوي	المَشْهَد	عيدروس بن عمر الحبشي العلوي	الغُرْفَة
حسن بن صالح البحر العلوي	ذي أصبح	عمر المحضار العلوي	تَريْم

وفي زعمهم أنه إذا أراد الشخص أن يأتيه كساء من أبيه أو من أحد أقربائه المهاجر في جاوة أو في غيرها، فما عليه إلا أن يذهب إلى إحدى القباب، ويقطع جزءًا صغيرًا من ثوبه، ويرطبه باللعاب، ويقذف به في الحائط، ولا تمضي سنة إلا وقد نال مطلوبه، ولذلك تظهر الحيطان في بعض القباب كأنها مغطاة بطبقة من الورق المزخرف أو زينت بنقوش مختلفة الألوان.

وبعض المرضى وبالأخص إذا كان صغيرًا يطاف حوله حَمَلٌ مرارًا، ثم يقطع جزءًا من أذنه ويعلقه في ذراع المريض، ويذبح ذلك الحمل، ويوزع لحمه على الجيران بعد أن يأخذ الدّجال الذي أشار لهم بتلك العملية جزءًا كبيرًا منه.

وأول ما يعمله الشخص الذي يريد أن يبني بيتًا أن يدق أربعة أوتاد في البقعة التي سيبني فيها المنزل لطرد عين السوء، وذلك بعد أن أخذ رأي أحد الروحانيين، وعندما يتم بناء البيت يذبح حملًا على عتبته كما يفعل الفرنجة عند الاحتفال بإنزال السفينة لأول مرة في البحر بكسر زجاجة خمر، وفي بعض أجزاء حضرموت بذبح صاحب البيت شاة، ويأخذ من دمها بيده ويخضب الباب، وبعضهم في أثناء عملية البناء، ويأكل البنَّاؤون لحمها، ويريقون دمها على الحيطان، وعندما يدخل صاحب البيت لأول مرة يكسر بيضتين على عتبة الدار، وأخريين على الدرج، وأخريين عند الطابق العلوي.

وعندما يأتي وباء مُعْدٍ -والأوبئة قليلة جدًا في حضرموت- يذر بعض الناس الرماد حوالي بيوتهم لمنع سريان العدوى.

ومنذ عشرين سنة كانت تلك الخرافات والخزعبلات منتشرة في السكان انتشارًا عظيمًا، وكانت سلطة الروحانيين لا سيما سلطة العلويين الروحية نافذة في جميع طبقات الشعب الحضرمي في الوطن والمهجر، ومالكة لمشاعرهم ووجدانهم،

وحاكمة على عواطفهم وإراداتهم، وكان نفوذ أولئك المناصب عظيمًا دونه كل نفوذ، ولكن بعد أن أنشئت في جاوة (جمعية الإصلاح والإرشاد)[1] التي تدعو إلى المساواة الشرعية والإخاء الإسلامي تلاشت تلك السلطة الروحية واندرست لا سيما في إندونيسيا، وأمسى الناس ينظرون إلى مهازل الروحانيين وخرافاتهم بعين الازدراء والاحتقار، ولم يبق من الحضارم من يخضع لها سوى أفراد قليلين، لا تزال في عيونهم غشاوة، وفي آذانهم وقر، حتى إن كثيرًا من أصحاب السلطة الروحية، كآل باوزير، وآل عمودي، وآل إسحاق نبذوا عصبياتهم الممقوتة وراءهم ظهريًا، وأصبحوا يدعون الناس إلى المساواة وإلى نبذ الخرافات والأوهام، ومنهم أفراد صاروا رؤساء لبعض مدارس الإرشاد وقادة للنهضة الفكرية، وبعد أن كان الروحانيون وبوجه أخص العلويون ينظرون إلى غيرهم من أبناء حضرموت بشيء كثير من الاحتقار والامتهان، ويعدونهم كالخدم لهم، أصبحوا الآن ينظرون إليهم بشيء من الهيبة والاحترام.

ومما هو جدير بالذكر أن مفعول تلك الفكرة الحرة فكرة المساواة الشرعية والإخاء الإسلامي قد بدأ يتسرب إلى حضرموت بواسطة ذهاب أفراد من المتنورين إليها، وليس من شك أنه سيأتي وقت تتحطم فيه تلك السلطة الروحية، وتندرس معالمها، وتنعدم آثارها من الوجود، وليس في الدنيا إنسان عنده قليل من العقل لا يحب الحرية، وتيارات النهضة الفكرية تسري في الشعوب لا سيما الطبقات المتعلمة سريان الكهرباء في الأسلاك، وليس في الدنيا قوة طبيعية تستطيع مقاومة تلك التيارات وصدها عن السريان والاندفاع. والشعب الحضرمي من أوفر الشعوب استعدادًا للحرية، وأسرعها إدراكًا للأفكار والآراء الحرة.

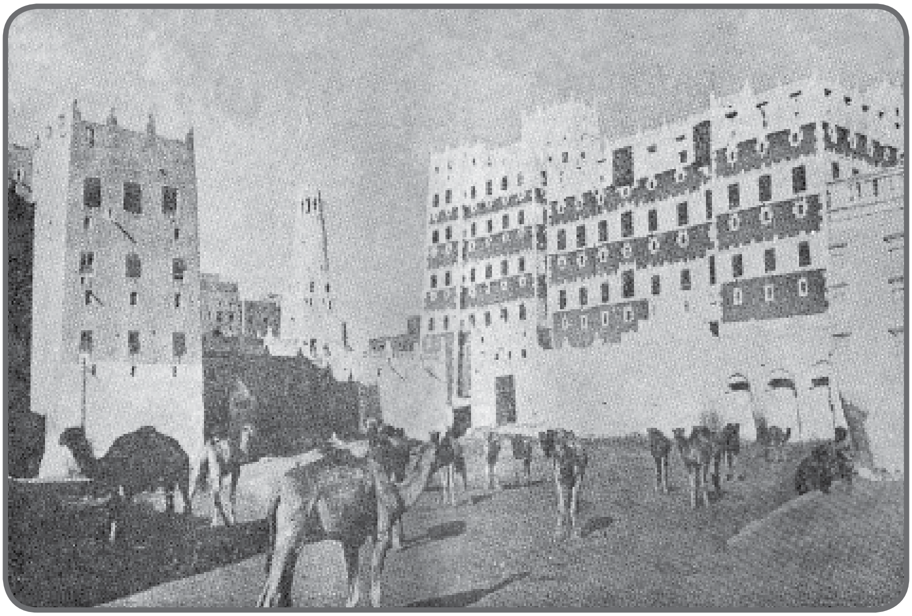
(١) راجع الكلام عن هجرة الحضارم إلى إندونيسيا في هذا الجزء.

هندسة المباني

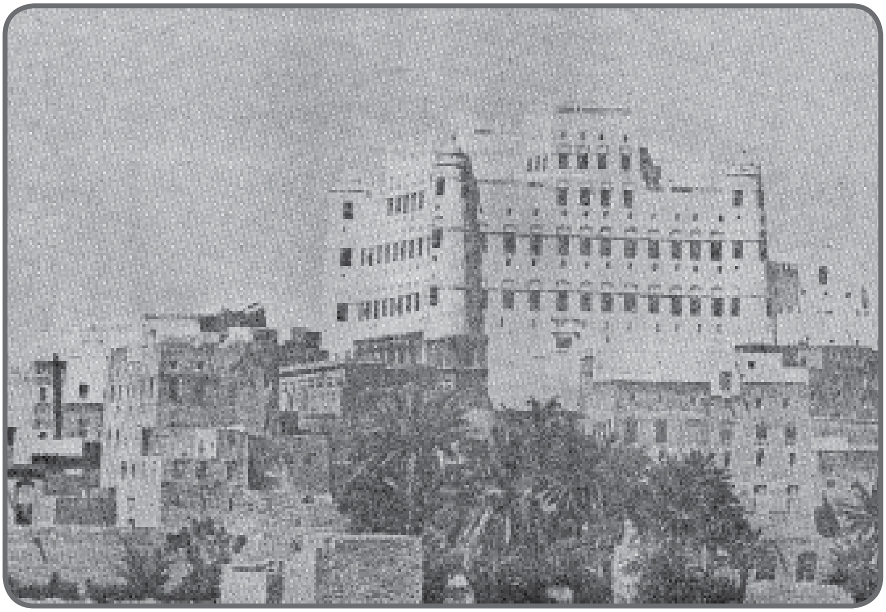
لم يتعلم البنَّاؤون في حضرموت فن المباني، ولا يعرفون أن يجزئوا الأرض بالطريقة الحسابية، ولكنهم يعرفون كيف تقام المباني القوية الضخمة، والبيوت العالية الجميلة الخلابة، وهم أدركوا هذا الفن بفرط الذكاء، وكثرة العناية، وطول التجربة.

وتبنى البيوت بنوع جيد من الطين ممزوج بالتبن الذي يقوم مقام الجير حيث يمتص من الجو ثاني أكسيد الكربون، فيتماسك البناء بعضه ببعض، وتتكون البيوت من طبقتين إلى سبع طبقات.

ويظهر جمال الفن الحضرمي بأجلى مظاهره في المدن كشِبَام، وقرى القَطْن، وسَيْئون وتَرِيْم وملحقاتها، وفي المُكَلَّا.



قصر الأمير علي بن صلاح القُعَيْطي اليافعي في شِبَام



السلطان علي بن منصور الكثير في سَيْئون

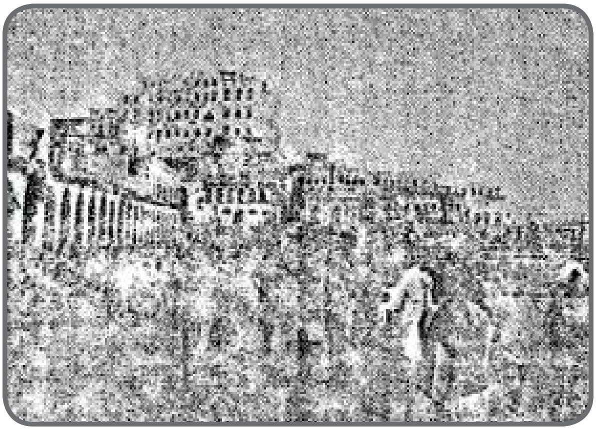


جانب من مدينة شِبَام



مسجد في سَيْئون

وتطلى معظم البيوت العالية في هذه المدن بالجير الأبيض من الداخل ومن الخارج أحيانًا مما جعل لها منظرًا جميلًا يبعث في الناظرين الإعجاب.



السوق في المُكَلَّا

وأثاث البيوت بسيط جدًا، ولكن الأغنياء يؤثثون منازلهم بفرش وثيرة، وسجاجيد عجمية غالية الثمن، وتتجلى النظافة في كل البيوت حتى في الأرياف، والشوارع في المدن ضيقة، وليس لها أسماء ولا مصابيح، كما أنه لا يوجد أرقام للمنازل، وبعض المدن محاطة بسور، ولها باب كبير عريض يقال له (السدة) لمرور الناس والدواب، وليس في حضرموت مطاعم ولا قهاوي سوى في المُكَلَّا، ولا هوتيل، ولكن يوجد في كل بيت غرفة يقال لها (محضرة) مفروشة خاصة للضيوف والنزلاء الذين يهبطون ليلًا أو نهارًا، فيحتفي بهم صاحب البيت ويكرمهم مهما كانت جنسيتهم وديانتهم، ويؤثرهم على نفسه ولو كان به خصاصة، وقد يضطر صاحب البيت للاستدانة في سبيل إكرام ضيفه، وتتجلى الحضارة والترف في المأكل والملبس، وفي المباني في تَرِيْم وسَيْئون وملحقاتها، وفي شِبَام، وقرى القَطْن، وفي المدن الساحلية، وليس مصدر هذه الحضارة البلاد نفسها فقط، ولكنها أيضًا نتيجة الثروات العظيمة التي يملكها الحضارم في جاوة وما جاورها من جزائر الهند الشرقية.

وليس هناك مسارح للسينما والتمثيل، والدكاكين لا تفتح ليلًا إلا في النادر، حيث يغلق التجار متاجرهم عند دخول الليل ويتركونها من غير حراس.

الجو

والجو قاري ولكنه صحي، فالأمراض وبالأخص المعدية منها تكاد تكون معدومة، وأشهر الأمراض هناك: الحمى (الورد)، والجدري، والحصبة، والرمد. وليس هناك أطباء فنيون، ولا مخازن للأدوية، والكي هو العلاج المشهور لا سيما في البوادي، وبعض الناس يستعملون الحجامة على الظهر وفي مؤخر الرأس، وهي تفيدهم كما يقولون.

المرأة

ويتغلب اللون الأبيض على المرأة الحضرمية بالرغم عن أن السمرة الشديدة هي اللون السائد على الرجال، وهي إلى الطول أقرب هيفاء، وغالبًا تكون ممشوقة القد، وهي قنوع صبور مقتصدة، لا تسأل زوجها شيئًا إلا عند الضرورة الملحة، مخلصة له كل الإخلاص، مجدة نشيطة، تقوم بتدبير المنزل وتربية أولادها، ولا عيب فيها سوى الجهل، ولكنها المثل الأعلى في العفة والشرف، والعزوبة تكاد تكون معدومة، وهم يزوجون أولادهم حينما يبلغون سن الرشد، وأصغر صداق يقدمه الرجل ٣٠ ريالًا، ولا حد لأكثره، والمرأة في زواجها الأول لا يستشيرها أبوها البتة، وعندما تطلق يصبح لها الحق في اختيار أي زوج تشاء ما دام أبوها موافقًا، وحق ابن العم في زواج بنت عمه له الاعتبار الأول في القطر الحضرمي ما عدا بلاد المهرة، فإن الأب هو الذي يقرر زواج ابنته بمن يختار، والرجل لا يتزوج أكثر من واحدة إلا في النادر، وإذا أنجب من زوجته أصبح من الصعب عليه طلاقها. ومن مساوئ الرجل للمرأة أنه يهاجر إلى الخارج، ويغيب عنها مدة قد تزيد عن عشر سنين، فيتمتع هو في مهجره بزوج أخرى بينما تلك الزوج الأولى المسكينة تنتظره بفارغ الصبر دون أن تسأله العودة إليها، ولا تطالبه بالطلاق خلال تلك المدة الطويلة؛ لأن ذلك من أكبر العيوب عند العائلات الحضرمية.

الملبس

في البلاد السفلى المسماة (حدرى) من الفُرْط إلى عِيْنات، وكذا المدن الساحلية حيث توجد حضارة تجد النساء محتجبات لا ترى من جسمها شيئًا، ويلبسن الفساتين المزخرفة ذات الألوان الزاهية، المستورد قماشها من أوروبا

واليابان، ولها في مؤخرها زوائد تسحب في الأرض، ولا يلبسن الفساتين السوداء إلا نادرًا، ولا يخرجن من بيوتهن إلا منتعلات غالبًا، والفلاحات يستعملن الفساتين السوداء المصبوغة بالنيلة، ووجوههن وأيديهن وأرجلهن مكشوفة. أما في المناطق العليا المسماة (علوى)، فأغلب النساء يستعملن البراقع، كالبلديات في مصر، وأيديهن وأقدامهن مكشوفة، وفساتينهن ذات اللون الأسود المصبوغ بالنيلة وهو اللون الوحيد عندهن، وتتكلم النساء هناك مع الرجال بمطلق الحرية والبساطة والسذاجة، وقد ترقص المرأة مع الرجل على مرأى من زوجها أو قريبها. أما في حدرى وفي المدن الساحلية فلا يتكلمن النساء بحضرة الرجال الأجانب.

وتتكوّن حلي المرأة من الذهب والفضة والكهربان وهي أساور (كرايا)، وخلاخل (سموط)، وحزام، وقلائد، ونوع آخر يعلق على الصدر على شكل هلال يقال له (الكسرة)، وأقراط، وخواتم.

ويلبس الرجل مئزرًا إلى ما تحت الركبتين، وقميصًا قصيرًا عليه ياكتة (مسدرة) وعلى رأسه طربوش أو طاقية (كوفية)، ويتعمم غالبًا، ولا يوجد هناك من يستعمل اللباس الإفرنجي إلا نادرًا، وأكثر الفلاحين ومن يلحق بهم من العمال نصف عرايا صيفًا وشتاء، وكذلك الشأن في المناطق العليا، فإن السواد الأعظم منهم نصف عرايا وحفاة، ورؤوسهم مربوطة بقطعة من القماش الأسود يقال له البرنس، أو مكشوفة إلا من سير من الجلد يحفظ ذؤابات شعورهم الطويلة من التفكك.

الزراعة



فلاحات في مزرعة

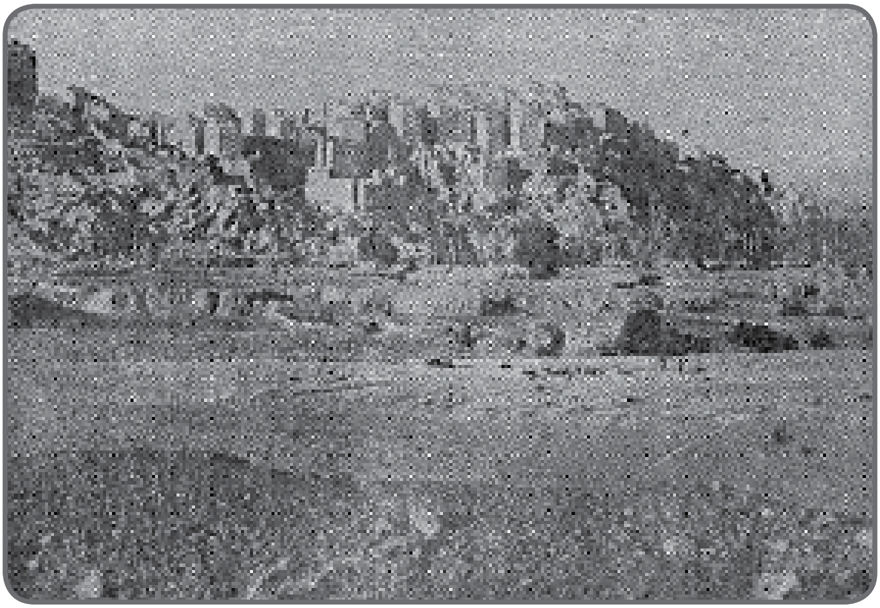
أجود الأراضي الصالحة للزراعة هي الواقعة بين الفُرْط غربًا إلى عِيْنات شرقًا، حيث يوجد الماء على مقربة في سطح الأرض (١- ٨ قامات) لا سيما في منطقة شِبَام، وحيث يتكون الطمي الذي تأتي به سيول الأودية العليا، ويسقى الزرع بالماء، ينزح من الآبار بواسطة الثيران أو الجمال أو الحمير أو بالآلات. وأهم أنواع الحبوب التي تزرع: القمح، والذرة، ثم الدخن، والسمسم، والمسيبلي. ومن التوابل والخضروات: البرسيم، والباذنجان، والبصل، والجزر، والفوم، والكمون، والشبرم، والحبة السوداء. ومن الفواكه: البطيخ، والموز.



فلاح يحصد القمح

ويوجد النخل بكثرة، وهو أنواع مختلفة منها المَدْيَني، والحمراء، والجزاز، والسريّع، والمجراف، والحاشدي، إلى آخر ما هناك من الأسماء التي اصطلح عليها الحضرميون. والبلح من أهم الأغذية، وهو أرخص قيمة من الحبوب التي هي الغذاء الأساسي عند أكثر الناس. أما في المناطق المرتفعة، كنَهْد ودَوْعَن ووادي العين وعَمْد وغيرها في المرتفعات، فلا يزرع فيها غير الذرة والنخل الذي يسقى بماء المطر؛ لبعد ماء الآبار الذي لا يحصل عليه إلا على عمق ٣٥٠- ٤٠٠ قدم وتستعمل للشرب، وقد ينقطع المطر شهورًا أو سنينًا، فيشتد الجفاف، ويحصد الزرع أو يموت، ويذبل النخل فيقل محصوله، وتستحكم الأزمة ويكون لها أثرها السيء، ليس في هذه الهضاب المرتفعة فقط بل وفي سائر حضرموت، على أن هناك عيونًا في دَوْعَن وعَمْد ولكنها ضحلة، ولا تستعمل إلا لسقي البقول وللشرب. وهناك في جبال المُكَلَّا عيون ويظهر أنها غزيرة، ولكن الأيدي العاملة تكاد تكون معدومة.

وفي غيل باوزير في الجبال الواقعة خلف المسطحات الساحلية تنبع عيون غزيرة تسقي مساحات واسعة من أراضي الغيل، ويزرع فيها الطباق الجيد (الحمِّي) وهو أهم الحاصلات، ولا ينمو إلا في الغيل حيث تلائمه التربة والمناخ، ويتقن الناس زراعته، وقد حاول البعض زراعته في لحج واليمن فلم يحصلوا إلا على نوع آخر أقل مرتبة من الحمِّي في نكهته، وفي الغيل يسمد الطباق ثلاث مرات بأسمدة مختلفة كل في وقت وبقدر محدودين، ففي أول مرة يسمد بخرء الطيور، وفي الثانية بالسمك، وفي الثالثة بالمواد البرازية المختلفة من الإنسان والحيوان، ويصدَّر معظم المحصول إلى عدن ومصر، ومنهما إلى سوريا، وشجرة الطباق تجفف بورقها وساقها وفروعها، ثم تقطع إلى شرائح صغيرة ثم تضم إلى بعضها في حزمات تزن الواحدة منها ٣٠٠ رطل وهي حمولة جمل، وثمنها من ١٢٠- ١٣٠.



مدينة كَنِيْنة عاصمة حَجْر

وفي حَجْر ينبع نهر ويصب في بحر العرب بين رأس الكلب ومرسى رقيمة، وتكوّن دلتاه إقليم مَيْفَع الخصيب، وهو يشق طريقه في ثلاث خوانق: الأول بين مَيْفَع ونَيْفَع، والثاني يسمى وادي اللقم، والثالث بين وادي عروس وجول باحوة، وفي كل منها عدة غدران عميقة، وفي المناطق المتسعة يبلغ عرضه من ٥- إلى ١٠ أمتار، وعمقه من ٥- ٢٥ سنتيمترًا، ويبلغ طوله نحو ٢٠٠ كيلو مترًا، وعلى امتداده توجد قرى بها أكثر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية، وإلى جانب الأنهار وإن كان ماؤها صالح نوعًا ما توجد كميات من المياه عند رأس كل واد تقريبًا، ويحفر لها الناس القنوات على جانبي الوادي إلى مسطحات من الأرض يبلغ ارتفاعها مترين واتساعها خمسة حيث تستعمل للري، وبعد ري هذه المسطحات تغوص المياه في باطن الأرض، ثم تظهر بعد مسافة طويلة، إما من تلقاء نفسها، وإما بحفر آبار تتباين أعماقها، وقد يبلغ عمق البئر ٤٠ مترًا كما في وادي يون، على أن هناك

قرى تعتمد على مياه الآبار مثل مذينب ومحمرة وغيرهما، إذ بها مساحة تتراوح بين ٤٠ و١٠٠ فدان يزرع فيها ما يسد حاجة سكانها من القمح والنخيل والتبغ، وفي حَجْر ينمو النخل بكثرة ويزرع القمح والذرة والسمسم، وهي تتصل بالمُكَلَّا بواسطة طريقين: أحدهما مستقيم يخترق الجبال، والآخر ملتو يصل إلى الساحل ثم إلى المُكَلَّا، وطريق الجبل أقصر ولكنه أخطر.

وفي الصَّدَارَة بأقصى الشمال الغربي لحَجْر توجد ينابيع مياه حارة ويروى بها النخل، وهي لا تؤذي جذوره، والناس هناك يستخرجون عصارة أثمار النخل ويشربونها كنوع مخدر، وهو مسكر إذا أخذ بمقدار كبير، وهذا الشراب منتشر في بلاد حَجْر. أما جوز الهند (النارجيل) فلا يوجد منه سوى عدد ضئيل في حَجْر وفي المُكَلَّا. وفي المناطق العليا (علوى) تنبت أشجار السدر بكثرة على ضفاف مجاري السيل، ومحصوله كثير، ويطحن بعض الناس هناك النبق (الدوم) ويأكلونه ممزوجًا بالماء أو بالريب (الروبة)، وقد يتخذونه أحيانًا كغذاء لا سيما عند اشتداد القحط، وهو من أحسن المبردات في الصيف، ويسمى هذا النوع عندهم (حتيًّا) وهي كلمة عربية فصيحة. وينبت في بعض المناطق الجبلية أشجار السنط (السمر)، واللبخ الطويلة ذات الأزهار المستطيلة، وشجيرات البخور وتمتاز هذه برائحتها النافذة، وبأن لا أوراق لها، أو بأن أوراقها صغيرة جدًا، وفي بعض الوديان الصغيرة تنبت أشجار خضراء رطبة ترتفع إلى ستة أقدام ويكسبها لونها الأخضر الغض، وحمرة أزهارها في أطراف أغصانها منظر الطاقات الجميلة في تلك البيئات العارية الجرداء.

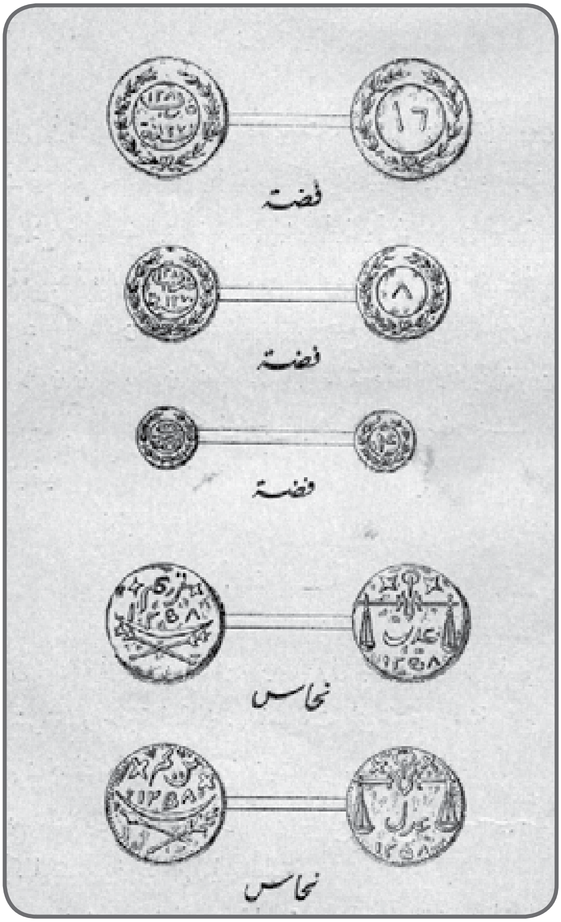
أما الأساليب المتبعة في الزراعة وتربية المواشي فلا تزال فطرية، والبلاد في أشد الحاجة لإدخال الأساليب العصرية، كما أنها في حاجة شديدة للمشروعات الزراعية.

التجارة

أهم السلع الحبوب بأنواعها، والبلح، والعسل، والتبغ، والزيت، والسمسم، والسمن، والتوابل -وهذه من غلات البلاد-. والسكر، والبن، والشاي، والغاز، والمنسوجات بأنواعها، والسلاح (البنادق)، والمواشي: كالجمال، والحمير، والخيل، والبقر، والغنم، وهذه ترد من الخارج، ولا يصدَّر شيء من حاصلات البلاد إلى الخارج سوى التبغ (الحُمِّي) من غيل باوزير، ويصدَّر من دَوْعَن فقط من العسل الجيد حمولة ٤٠٠ أو ٥٠٠ جمل سنويًا.

وأعظم مركز للتجارة مدينة شِبَام، وهي قلب حضرموت، فكل البضاعات التي تأتيها مهما كانت كثيرة وغالية تباع بأسرع وقت، وتجارها مشهورون بالجد والنشاط وحب العمل وبالمهارة في ترويج متاجرهم، ولقد عرف الشِبَاميُّون بذلك حتى إن بعض التجار في المدن الأخرى يبعثون أبناءهم إلى شِبَام ليستخدموا عند التجار من غير مقابل، وليتمرنوا على التجارة، ويعرفوا كيف يكسبون. وتلي شِبَام: سَيْئون، وتَرِيْم، والمُكَلَّا.

والنقد المتداول في حضرموت هو الريال الفضي، وكان متداولًا في الإمبراطورية النمساوية في القرن الثالث عشر، وبنوع خاص في عهد الإمبراطورة مارتريزا، وكان يعرف في مصر بـ(أبي طيرة)، ثم الربية الفضية البنقالية، ثم نقود فضية صغيرة يقال لها أوقية وربع وحرف وأم خمس، ثم نقود أخرى من النحاس صغيرة، وهذه صور بعض تلك النقود المتداولة:



النقود

أما الذهب والورق فلا وجود لها، وليس للحكومة نقود مضروبة باسمها، وفي إمكان الواحد ضرب ما يشاء من النقود، ولكن الفضة غالية الثمن، والنحاس قليل الوجود، ولا يوجد هناك بنك يحفظ أموال الناس، ولا شركات تجارية منظمة.

تجارة الرقيق

لا تزال تجارة الرقيق موجودة في حضرموت، وأصلهم من الحبشة ومن سواحل إفريقيا الشرقية، وللحكومتين اليافعية والكثيرية عبيد كثيرون، ولبعض الأغنياء

من حملة السلاح عبيد أيضًا يبتاعونهم من البدو الذين يأتون بهم من العوالق ومن اليمن، ومبلغ قيمة العبيد أحيانًا خمسمائة ريال، وهذا أقصى ثمن، والأمة التي يتخذها سيدها كخادم في بيته نحو مائتين إلى أربعمائة ريال، وجميع هؤلاء الموالي مخلصون لأسيادهم كل الإخلاص؛ لأنهم يلاقون منهم احترامًا ومعاملة حسنة، وقد يلقون من أسيادهم ثقة تامة لدرجة أنهم يتولون الحكم في بعض البلاد كما هو الشأن عند الحكومة القُعَيْطية اليافعية.

الصناعة

لا تزال الصناعة في حضرموت في دورها الأول البسيط، فمعامل النسيج قليلة جدًا لا تقوم بعشر معشار حاجة السكان، والمنسوجات التي تنتجها رديئة جدًا، ذات طرز واحد قديم، وهناك معامل لاستخراج الزيت من السمسم ولصناعة النيلة.

ويصنع الحدادون من الحديد أنواعًا من السلاح الأبيض وغيره من آلات القطع والحفر، وكذا القدور وغيرها من أواني الطبخ.

ويوجد صائغون ماهرون في صناعة الحُلي من الذهب والفضة، كالقلائد والأساور والخلاخيل والأقراط والخواتم والأحزمة وما إلى ذلك، وأمهر الصُّنَّاع هم آل باحشوان، ولا يفوقهم أحد في هذه المهنة.

وتدبغ الجلود بنوع من النبات يقال له القَرَظ، وتصنع منها القِرَب والأنعل والدلاء، وما إلى ذلك.

وينسج النساجون والعقادون الأقمشة على اختلاف أنواعها، وكلها لا تزال في دورها الأول البسيط، وتصبغ الأقمشة بالنيل الأزرق الداكن، وينبت شجره في حضرموت وهو من النوع الجيد، ولكن الناس هناك لا يعتنون بزراعته.

ويجفف السمك –ومعظمه من كلب البحر– ويملح ويرسل في زكائب إلى

داخل البلاد حيث يستعمل كغذاء أساسي مع الأرز والخبز. والأسماك على اختلاف أنواعها كثيرة جدًا في البحر بين المُكَلَّا والشِّحْر.

وتصنع من الأخشاب: أعَمْدة المباني والأبواب والشبابيك والدواليب وغير ذلك، إلا الكراسي؛ لأن الناس يجلسون على البسط على الأرض، والنجارون لا يستعملون الطريقة الحسابية في تجزئة الأخشاب، ولكنهم يستعملون خيطًا ملونًا باللون الأسود يمد على الجزء المراد قطعه، وهم يرسمون على واجهة الأبواب والشبابيك زخارف دقيقة تدل على ذوق جميل.

المواصلات

المواصلات في حضرموت صعبة، لوعورة المسالك، وكثرة العقبات ذات الانحدار الهائل، فالمسافرون من بلد إلى آخر يركبون الجمال أو الحمير أو يمشون على أرجلهم، والواردات التي تأتي من الخارج تحملها القوافل، ولا توجد هناك سيارات إلا في المدن الكبيرة، كتَرِيْم وسَيْئون وشِبَام والمدن الساحلية، وليس هناك بريد ولا تليفون ولا تلغراف، وترسل الخطابات لأصحابها من غير طابع بريد بواسطة المسافرين أو بواسطة رجل يقال له (المكتب)، فيسرع هذا المكتب في إيصال الرسائل لذويها بأخصر طريق، فهو يقطع المسافة بين المُكَلَّا وشِبَام مثلًا في ثلاثة أيام، بينما يقطعها بالسير المعتدل في ثمانية أيام، ويدفع المستلم للمكتب مبلغًا زهيدًا من النقود، أو قليلًا من الحبوب كأجرة لإيصال الخطاب إليه.

وصف شامل للمدن الساحلية ومواصلاتها

المُكَلَّا

تقع مدينة المُكَلَّا[1]، وهي عاصمة حكومة القُعَيْطي اليافعي في الإقليم الساحلي على بعد ٢٣٠ ميلًا تقريبًا من عدن. وهي أنيقة، بيوتها عالية شامخة، مطلية بالجير

(١) صورة المدينة في أول الكتاب.

من الداخل والخارج، فهي تشبه شريطًا أبيض اللون يحف بالبحر الأزرق، وقصرا السلطان الجديد والقديم يطلان على البحر، وفي أقصى المدينة من الجهة اليمنى يقوم قصر ثالث أنيق للسلطان، وبين هذه القصور الثلاثة يمتد لسان من الأرض هو وسط المدينة القديمة، وبه الجامع والقلعة القديمان، وعلى أحد جانبي هذا اللسان ترسو السفن، وهناك ترى القوارب والسنابيك تغدو وتروح حاملة الركاب والبضائع. ويخترق المدينة من الشرق إلى الغرب شارع كبير، وهو الطريق الرئيسي تزدحم فيه الناس الذين يمثلون كل القبائل الحضرمية، وهم لا يحملون سلاحًا؛ لأنهم يتركونه عند حراس باب المدينة، وهناك يقوم سوق السمك ومعظمه من كلب البحر، وحوانيت الصباغين حيث تصبغ الأقمشة بالنيل الأزرق الداكن، ثم حوانيت النساجين والعقادين حيث تنسج الأقمشة، ومتاجر مختلفة من البلح والحلوى والسكر والبن والحبوب والزيت والسمن والطباق (الحمي)، والبضائع اليابانية والهندية والهولندية، والشاي المستورد من جاوة وسيلان، والسلاح الأبيض.

وتقوم المساجد الناصعة البياض بمنائرها الشامخة وسط تلك المباني العالية. وخلف المدينة أسوار صخرية شاهقة يبلغ ارتفاعها ٦٠٠ قدم، وباب المدينة عظيم الارتفاع محصن مخفور، وأمام هذا الباب يقع وادي سديد حيث أكل البحر جانبًا عظيمًا من الأرض، وهنا على الساحل تحط القوافل رحالها في ذهابها وجيئتها من الداخل، وهذه البقعة واسعة تسع مئات من الجمال التي تجثو على هيئة دائرة تأكل الطعام الموضوع في الوسط، وينام البدو أصحاب القوافل ملفوفين في معاطفهم، أو يجلسون حول نار قليلة يأكلون من صحاف خشبية (قدحان) العيش المفتت مخلوطًا بدهن، ويجمع الأطفال في سلال روث الجمال الذي يستفاد منه فائدة عظيمة كوقود، وعلى مقربة من قصر السلطان القديم توجد المقابر تتوسطها قبة على ضريح الشيخ يعقوب.

وكان الهنود يحتكرون التجارة وأعمال المصارف في المُكَلَّا، أما اليوم فقد بدأ الحضارم يزاحمونهم. ويبلغ عدد سكان المُكَلَّا نحو ١٩٠٠٠ بما فيهم الأجانب (الهنود والعدنيون)، ويقوم من حضرموت إلى جاوة والعكس ١٠٠٠ تقريبًا حضرمي منهم نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ يأتون ويرحلون من طريق الشِّحْر، ومنهم من يذهب في قوارب، ومنهم من يذهب إلى عدن، ومنها إلى سنقافورة.

ولا يعرف شيء عن حركة الصادر والوارد، ولا عن مقدار الرسوم أو الدخل السنوي؛ لأن الحكومة لا تنشر بيانًا بوارداتها ومنصرفاتها، وكل ما هو معروف أن الأرز أهم الواردات وأكثره من بنغال، ويليه الشاي من جاوة، وإن مقدار ما يستورد سنويًا من الكيروسين والجازولين ٤٠٠ صفيحة، وهي آخذة في الازدياد. وعلى بعد أميال قلائل من المُكَلَّا توجد أحراج من النخيل وبها مصايف السلطان والوزير، وهناك ينبع ماء عذب يحمل إلى المُكَلَّا بطريق أنبوبة حديدية قليلة السمك ممدودة على الأرض يشرب منه أهل المدينة، وهناك توجد ضيعتان (البقرين)، وعلى الطريق حصنان محصنان معدان بالجنود، وعلى مقربة من البقرين تقوم صخرة بيضاء، ومقابل الجدارين المرتفعين الصخريين على جانبي الطريق توجد علامتان بيضاوان أقيمتا لتدلا على أي المواضع يعمها الهدوء، وعلى أيتها تستعر فيها الحرب، وليس هناك ثأر يؤخذ أو عداوة قديمة تحسم بالسلاح في المدينة أو فيما حولها، وتتدرج الطريق بين صخور منحدرة انحدارًا عنيفًا، وتلتوي فجأة حتى تصل أخيرًا إلى هضبة يبدو أنها من الحجر الجيري المرجاني، وهناك في واد صخري تقوم ضيعة (هوحس)، وبعد هذه توجد الحَرْشِيَّات وهي قرية حقيرة، وبعد ذلك توجد قرية (بُوَيْش)، ويزرع الموز في هذه الجهة في حافة الحقول، وفي الوادي الذي يدخل في البحر بالقرب من بُوَيْش توجد أشجار نخيل كثيرة وأشجار فواكه أخرى يملكها سراة المُكَلَّا. ولا يزيد عمق الآبار التي تروى منها الحقول هنا عن عشرين

قدمًا، وعلى الساحل بين بُوَيْش والمُكَلَّا تقع رُوْكُب، ويعلو الطريق ثانية، وتأخذ المسطحات الجيرية المرجانية في الامتداد إلى أعلى من مستوى الأرض، حيث تنمو شجيرات البخور وأشجار اللبخ الطويلة ذات الأزهار المستطيلة، ثم يبدو واد عريض هابط ذو تربة من الصلصال حيث ينمو العشب بوفرة، وهنا ترعى الأغنام والحمير والجمال.

وعلى قمة عالية تقع الريدة، وهي مركز الشُّحَير حيث المراعي، ومحط البدو الرحالة القاطنين بتلك الجهة، وينحدر الممر إلى وادي حيث يلتقي ويختلط ماء عذب من غيل باوزير، وماء ملح من البحر. وتقع قرية شُحَير على الشاطئ الآخر، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٥٠٠ نسمة يعيشون جميعًا في أكواخ من الطين، وفي مكان مرتفع تقع دار الرئيس التي تعتبر في الوقت نفسه حصنًا ضد كل مهاجم، وأمام الدار مدفعان من النوع القديم قد علاهما الصدأ.

غيل باوزير

وراء الهضبة المرجانية على طول الشاطئ يوجد هناك حوض واسع ضحل يمده بالماء مجرى ينبع من الجبال الواقعة خلف مسطحات ساحل هذا الحوض، والقطعة من الأرض الصالحة للري هما أهم بقعة في القطر الحضرمي لزراعة الدخان الحمي. وتقوم مدينة الغيل التي تحمي مدخل هذا الوادي الخصيب من حافة الهضبة المرجانية، وحين يقترب المرء آتيًا من الشاطئ يبصر بجلاء حدائق النخيل، وسرعان ما يجد المرء نفسه أمام جدار أبيض عال فيه باب كبير محصن، ويرى قصر السلطان رازحًا ناهضًا إلى ارتفاع كبير بجوار الحائط، ويستعمل اليوم ثكنة للجنود، وبيوت الغيل قصيرة، ولا شيء فيها يدل على ذوق سليم، وليس هناك مناظر خلابة سوى القصر السلطاني الجميل العتيق.

وحول المدينة توجد الأرض الزراعية، وللسلطان مساحات واسعة منها

يزرعها تبغًا فتدر عليه ربحًا وفيرًا، وقد ابتنى لنفسه قصرين محوطين بحديقتين خارج المدينة للمصيف، فيهما كل الفواكه التي تنمو في حضرموت، وقبالة أحد قصريه توجد بركة صناعية للعوم طولها ٣٠٠ قدم في عرضها، وعلى صفحة مائها الرقراق زورق صغير، وتنقل محاصيل الطباق إلى المُكَلَّا على سيارات النقل، كما يستجلب السماد اللازم لزراعته من الشاطئ على ظهور الإبل.

الشِّحْر

تتصل شُحَير بالشِّحْر بطريق ينحدر على الضفة الشرقية للوادي إلى الساحل، وعلى الشاطئ يجمع الصيادون الأسماك والسماد أكوامًا، وهو شاطئ رملي به كثبان رملية يبلغ ارتفاعها من ٢٠ إلى ٣٠ قدمًا، وفي أوقات المد يرتفع الماء حتى يغمر بعض هذه الكثبان، وبالقرب من الشِّحْر ترى صخورًا مرجانية ناتئة من الرمال.

وتقع مدينة الشِّحْر على سطح متسع من الشاطئ الذي ينحدر تدريجيًا إلى البحر، ولهذا ترسو السفن بعيدًا عنه لضحولته، وباب المدينة كبير وجديد، ولكن ليس به ذوق فني، والداخل إلى المدينة يفاجأ عند أول خطوة يخطوها برائحة كريهة ناجمة من السمك المتعفن، وهي تكاد تكون مهجورة، فإن هناك بيوتًا كثيرة غير مسكونة وخرائب عديدة تحاكي الشجر المسلوب أو العظام النخرة.

ولقد كانت الشِّحْر أهم مركز تجاري في القطر الحضرمي، وكانت تعج بالسكان الذين يمثلون كل القبائل الحضرمية، أما اليوم فقد أقفرت وأصبحت يسودها الصمت والعدم. وتقع أبنية الحكومة في أقصى الغرب، وعليها مسحة من الجمال والذوق الفني، ولا شك أن شرفاتها المسقوفة تلائم رطوبة الجو في الشِّحْر، وعلى مرتفع من الشاطئ تقع القلعة القديمة، وقد عملت فيها إصلاحات حديثة، وجعل الدور الأول منها مدرسة بها بضع مئات من التلاميذ، وبالقرب منها مدافع قديمة عاطلة قد اتخذت ذلك المكان المنعزل مقعدًا لها بعد أن أدت واجبها فيما مضى.

وإلى الشرق يمتد سهل متسع به المقابر والقباب.

ويبلغ عدد سكان الشِّحْر ٩٠٠٠ نسمة تقريبًا، ومساجدها ٣٦ مسجدًا، ويسافر سنويًا من ميناء الشِّحْر من الحضارم إلى جزائر الهند الهولندية نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠، وكلهم يسافرون تقريبًا إلى عدن، ومنها إلى حيث يقصدون، ولا يعرف بالضبط مقدار الصادر والوارد ولا الدخل السنوي من الميناء، وكل ما يعرفه الناس أن الأرز والشاي وغاز البترول أهم الواردات.

وطريق السيارات من المُكَلَّا إلى الغيل وإلى الشِّحْر ممهدة معبدة، ولكنها في حاجة إلى زيادة الإصلاح والتعمير.

وصف شامل للمواصلات بين الثغرين والسهول المنخفضة الداخلية

من المُكَلَّا إلى دَوْعَن

أول ما يبدو للراحل من المُكَلَّا بعد خروجه من حدود الحَرْشِيَّات رواسي وادي حُمَم الشامخات، حيث يتدرج في الصعود مخترقًا وادي اللصب، وأرض هذا الوادي عبارة عن مجموعات من الصخور الحمراء، وبه بعض أشجار اللبخ والسنط، وبعد مسيرة ساعة يصل قرية لصب، وهي تقع عند النقطة حيث يبدأ الوادي في الضيق، وتقترب السلسلتان الجبليتان من بعضهما، وقد حفر مجرى لري حقول الذرة والنخيل يتخذ ماءه من نهير صغير، وعلى حافة هذه الحقول تنمو أشجار الموز وأكثره من النوع المسمى في جاوة (Pisng Ambon)، ومنازل هذه القرية أشبه بالقلاع، وشبابيكها عبارة عن كوى صغيرة، وبعد القرية يضيق الوادي ويتقارب الجبلان، ويبدأ ذلك النهير في الظهور، وعلى حافتيه تنمو نباتات سرخسية، وبه أسماك وضفادع سوداء، ويتدرج الوادي في الصعود، وينعدم ذلك النهير، ويصبح الصعود صعب المرتقى، ولكن الذي يدعو للعجب هو تعود تلك الجمال على صعود الجبال، وإذا اختل توازن أحدها نبهه صاحبه قائلًا: «إلى اليمن، إلى اليسار»،

فسرعان ما يستعيد توازنه. وفي نهاية الوادي تقوم هضبة وعليها تنمو أشجار النخيل والذرة، وعند نهاية الهضبة تقوم قرية لبيب، ثم يعرج المسافر إلى وادي حُمَم، وكلما بُعد أوغل الوادي في الضيق، وبعد مسيرة أميال توجد بئر ذات أدراج يشرب منها الإبل، واسم هذه البقعة الخلاف. ووادي حُمَم من المناطق الخطيرة، فيجب على المسافرين أن يحترسوا ويأخذوا حذرهم، وعلى أحد منحدراته تنمو أشجار النخيل والنارجيل والموز والطباق.

وفي تلك المنطقة وما بعدها تكثر السقايات، وهي عبارة عن أحواض صغيرة عليها قباب، ويملؤها بالماء يوميًا أشخاص تدفع رواتبهم من الأوقاف التي وقفت على هذا العمل الإنساني النبيل، وفي كل سقاية إناء صغيرة من الخزف أو الصفيح، أو نصف قشرة من النارجيل لتناول الماء بها، والكل يشربون من إناء واحد، لا تمييز بين العزيز والوضيع، والظمأ الشديد يجعل العزيز لا يأبه لمثل هذه السفاسف.

وبعد زمن قصير تبدو قريتا الغيضة والغياضة في وسط حقول الطباق وأحراج النخيل، ثم يسير في مجرى السيل مخترقًا الهضبة، وعلى ارتفاع خمسين قدمًا عند نهايتها تقع بلدة حُمَم، وبها سُمِّي الوادي، وعند سفح التل توجد أجمة مرتفعة من النارجيل، ومجرى صغير من الماء المستمد من العيون يروي حقولًا خصيبة من الذرة والطباق، ويبلغ عدد سكان قرية حُمَم بين ٢٠٠ و٣٠٠ نسمة، ومصدر قوتهم زراعة الطباق.

وبعد اختراق العقبة يصل إلى حافة الهضبة، ومن أعلاها ترى الشِّحْر، وإلى الشمال كَوْر سَيْبَان، وإلى الشرق والغرب تقوم جبال مختلفة الارتفاع تشقها الوديان، ثم يأخذ الطريق يتعرج في ذلك الوادي المنحدر حتى تصل إلى نهايته. ثم يخترق هضبة صغيرة، ويدخل وادي لصوب العريض القحل، وبه منازل صغيرة مبعثرة هنا وهناك، وفي هذه المنطقة تنمو أشجار النبق بكثرة، ثم يسير على أرض

مسطحة من الصخر الجيري تخترقها وديان طولية وعرضية. وإلى الغرب من كَوْر سَيْبَان تمتد هضبة مسطحة ملأى بما يسمونه النقابات، ثم يسير في الجول، وهو عبارة عن مسطحات من الأرض على قمم الجبال تفصلها عن بعضها وديان عميقة، وليس بها أي نبات اللهم إلا على الحافة حيث تصطدم بها بعض السحب، ولا حيوان اللهم إلا بعض السحالي والطيور، وجوها حار قائظ أثناء النهار، وبارد قارس أثناء الليل، والبدو لا يتأثرون به حيث ينامون في العراء، والنصف الأعلى من جسمهم عار، ولكنهم يوقدون نارًا يجتمعون حولها ردحًا كبيرًا من الليل يغنون أغانيهم التي لا يستطيبها غيرهم.

وبعد مسيرة أميال عديدة يلقى قرية يقال لها دهمه، وتتكون من بيوت طبقاتها الأولى من الحجر، والأخرى من الطين المجفف، ويسكن رئيسها في قلعة منيفة، والعميان في هذه القرية كثيرون. ويستمر في السير فيصل بعد ساعات البريرة وبها قرية صغيرة، ثم يأخذ في الاقتراب من وادي دَوْعَن، ويسير في أراضي مسطحة ذات أحجار داكنة حتى يصل إلى قمة مهبط عظيم يؤدي إلى الوادي، وعند مبدأ ممره تقوم قلعة حصينة من الصخر الصلد، ومثيلها في الحافة الأخرى، وتوجد قلاع أخرى في كل منطقة تشرف على سلامة ذلك الوادي، وعند نهاية ذلك المهبط في المناطق المنخفضة توجد حقول الحبوب الخضراء وتنتشر أحراج النخيل، والقرى متناثرة على مسافات متقاربة.

ويقيم باصرّة حاكم دَوْعَن بالنيابة عن حكومة القُعَيْطي في قصر منيف يقال له المَصْنَعَة، ولهذا القصر شبه كثير بقلعة في القرون الوسطى بحصونه الجانبية وأسواره وأبوابه الثلاثة الخشبية الثقيلة.

ويبلغ عدد القرى في وادي الأيمن من دَوْعَن خمسين قرية بها نحو ٢٠ ألف نسمة، ونحو ٢٠٠ مسجد بعضها جميل للغاية، وثلاث مدارس صغيرة، أحدها

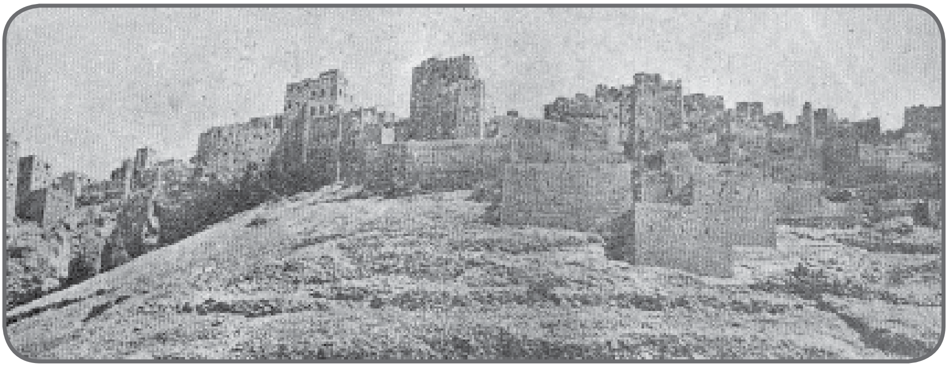
في خُرَيْبَة عاصمة وادي دَوْعَن، وهي بلدة صغيرة بها سوق صغير وأربعة مساجد عظيمة وعشرون مسجدًا صغيرًا، ولما كان اسمها يدل على (الخرائب)، فقد استنتج بعض الجغرافيين أنها تقوم على أطلال مدينة دَوْعَن القديمة التي سمي الوادي باسمها، وقد كانت مقرًا للإباضية، ولما أبيدوا هدمت مدينتهم، وقد ورد ذكرها عند الجغرافيين القدماء أمثال بطليموس الذي ذكرها باسم Toani (تواني). والطريق إلى العقبة الغربية يؤدي إلى عَمْد، وعند ملتقاه بوادي دَوْعَن تقوم قلعتان حصينتان بهما حامية من يافع.

وتُقطع المسافة بين المُكَلَّا ودَوْعَن بالسير المتوسط في أربعة أيام، وأهل دَوْعَن من أنشط الحضارم هجرة إلى الخارج، ففي كل سنة يهاجر من وادي الأيمن حوالي ١٠٠ شخص إلى الحبشة، وسواحل إفريقيا الشرقية، ويذهب منهم حوالي ١٠٠ شخص إلى جاوة وما جاورها من الجزائر، ويهاجر من واي الأيسر سنويًا إلى جاوة وجزائرها حوالي ٥٠٠ شخص.

من دَوْعَن إلى المَشْهَد

تبتدئ الطريق من دَوْعَن إلى صِيف في الانحدار، وتقل المزروعات والقرى تدريجيًا، وتأخذ أشجار النبق تحل محل النخيل، وهو مصدر ثروة الإقليم، ويعتني الأهلون بأشجاره عناية تفوق الوصف، وعلى حافة تلك الأحراج توجد حقول يزرع فيها الذرة صيفًا والبر شتاء، وهي متوقفة على ماء المطر الذي قد يهطل في الخريف، وقبل صِيف تنعدم هذه الحقول، ويصبح الوادي أحجارًا عارية، وعلى طول الطريق توجد السقايات، وبعد بضع ساعات تظهر قرية صِيف وهي قرية فقيرة وغير صحية، إذ يظهر على وجوه سكانها القليلين شحوب وهزال، ثم يأخذ الوادي في الاتساع وتنتشر الحقول، ولكن ليس للنخيل أثر، والتربة هنا عكس تربة أعالي دَوْعَن فهي عبارة عن تراب ناعم يسهل السير عليه، ولكنه يثير غبارًا يجفف الحلق،

ومن حسن الحظ أن السقايات منتشرة على طول الطريق تخفف وطأة العطش، ثم تنعدم النباتات اللهم إلا بعض أشجار النبق تتفيأ ظلالها الراعيات بقطعانهن التي تلتقط الورق المتساقط، وبعد مسيرة بضع ساعات يبدو جبل الهَجْرَين، وعند سفحه تنمو بعض أحراج النخيل ثم تظهر الهَجْرَين، وهي بلدة عليها مسحة من الفقر، إذ ليس بها بيوت مطلية باللون الأبيض، ويبلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠ نسمة.



مدينة الهَجْرَين



مسجد الهَجْرَين الأثري

وبعد الخروج من حدود الهَجْرَين، وهي منطقة نفوذ القُعَيْطي في دَوْعَن تظهر منطقة قاحلة، وليس لليافعي ولا للكثيري ولا للنَهْدي سلطة عليها، فهي في نظر الناس منطقة حياد، ولذلك أصبحت مسرحًا لقطاع الطرق واللصوص، وهي في مسيرة نصف ساعة، وتكتنفها قلاع وحصون قديمة وأطلال دارسة، ويظهر أن هذه المنطقة كانت فيما مضى مدينة قديمة.



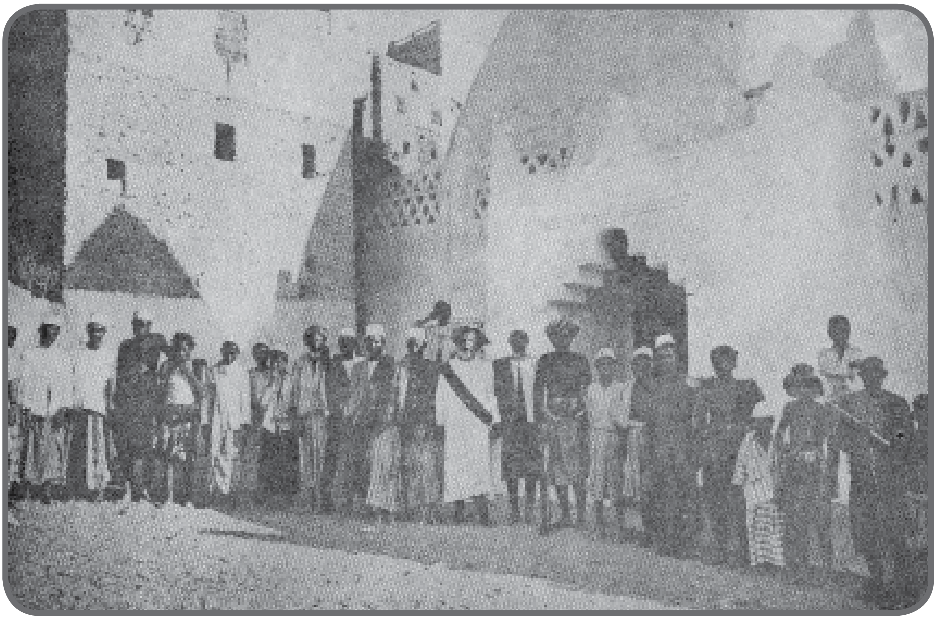
منطقة حياد بين الهَجْرَين والمَشْهَد

ثم تبدو المَشْهَد وهي قرية تقع في وسط الوادي الممحل ولا يسكنها أحد إلا الزائرون الذين يأتون في العام مرة، ويقضون هناك بضعة أيام لزيارة ضريح علي بن حسن العطاس، وينتهز التجار تلك الزيارة، فيعرضون متاجرهم، وهكذا تتحول الزيارة إلى سوق كما هو الشأن عند زيارة ضريح عمر بن محمد الهدار في القَطْن، وعلى مقربة من المَشْهَد توجد أطلال غيبون[1]، وتقطع المسافة بين دَوْعَن والمَشْهَد في يومين بالسير المعتدل.

(١) راجع صفحة ٦٤ من الجزء الأول.



المَشْهَد

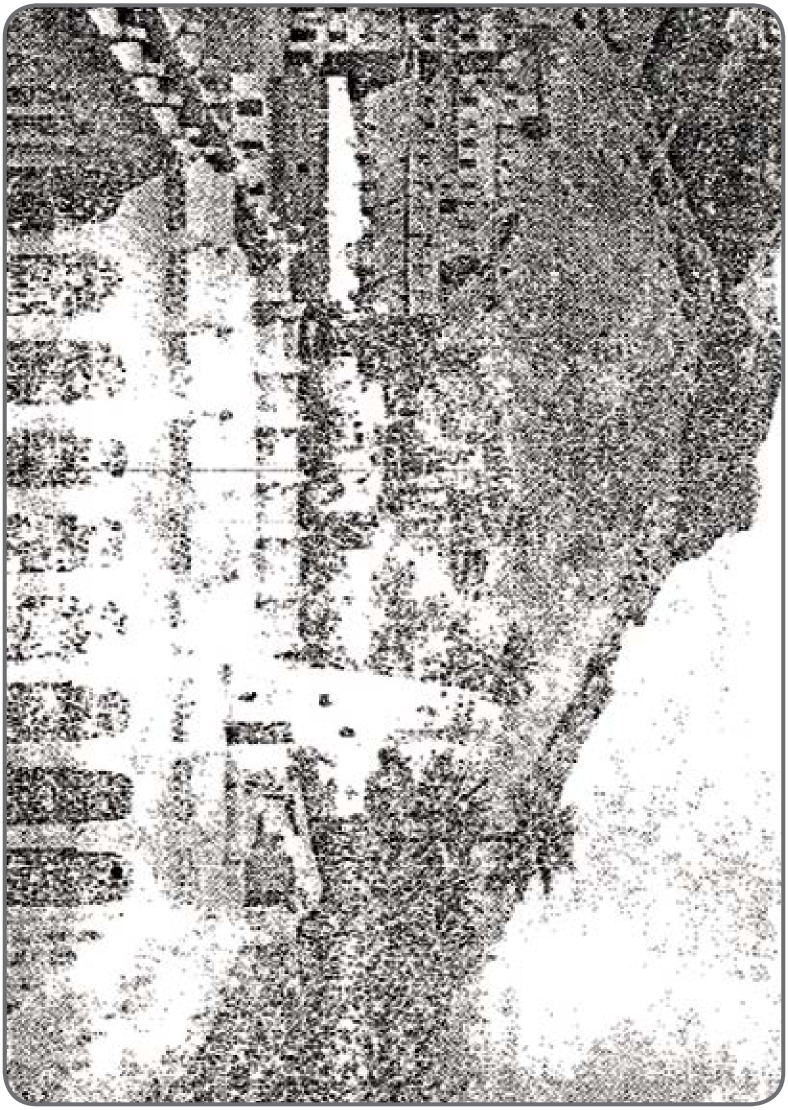


المنصب وهو شيخ المَشْهَد وحوله جماعة من العوام السُّذَّج

من المَشْهَد إلى شِبَام



قرى القَطْن

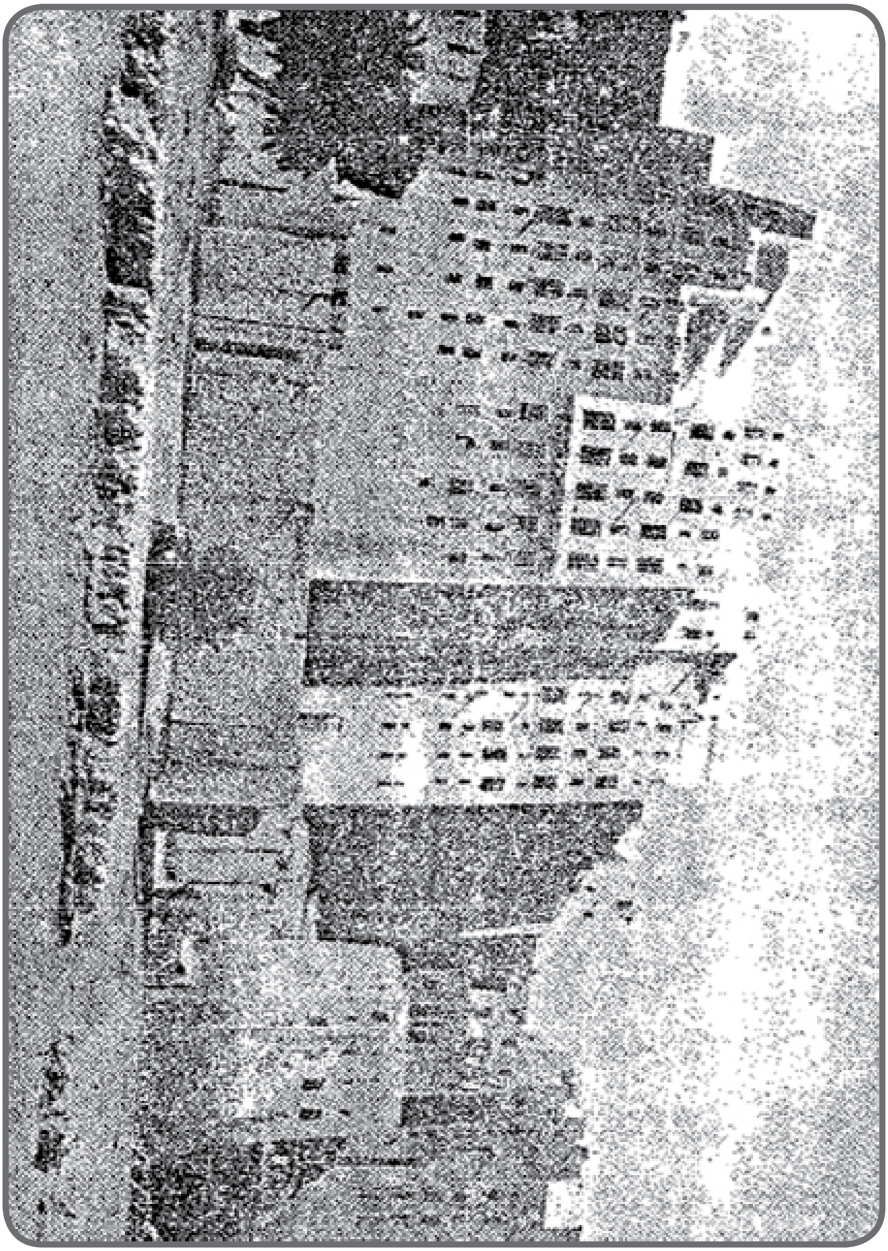


مدينة الحوطة

لا يلقى المسافر في هذا الطريق بل إلى نهاية الوادي (سَيْحُوت) عقبات ولا تلالًا صخرية، فكل الأرض في هذا الوادي الرئيسي العريض مسطحة، وتتقارب فيه

المدن والقرى، وتكاد تتصل هناك أحراج النخيل ببعضها إلى فُغْمَة، والماء متوفر والأمن موجود، فلا قطاع طريق ولا لصوص.

يخرج المسافر من المَشْهَد فيخترق منطقة نَهْد، ويلقى على جانبيه سلسلتين من القرى، فإلى الغرب قرى نَهْد من لَخْمَاس إلى قُعُوضَة، وإلى الشرق سَدْبِة وحَوْرَة والعَجْلانيَّة وديار آل عمر باعمر، وأمام كل من السلسلتين تقوم أحراج النخيل في حواجز من الأرض يشقها نهران تمر فيهما سيول الأودية العليا -دَوْعَن وعَمْد من الغرب ووادي العين من الشرق- ثم يمر في الباطنة، وهي قرية صغيرة مكوّنة من بيت ضخم شاهق لأحد أعيان آل باعلوي وكوخ ومسجد كبير مغلوق لا يصلي فيه أحد، ثم تبدو أمامه الفُرْط، وهي أول قرية من قرى القَطْن، ومن هنا تكثر أنواع النخل مما ليس لها وجود في المناطق العليا، ويصبح الماء غزيرًا وقريبًا من سطح الأرض، وتنتشر المزارع التي تسقى بماء الآبار، ويستمر في طريقه مخترقًا قرى القَطْن بحصونها الشامخة، وأحراج النخيل الشماء والحقول الخضراء، وتكاد تكون هذه المنطقة أكثر أمنًا من جميع مناطق القطر الحضرمي، ثم يصل إلى شِبَام بعد بضع ساعات، وتقطع المسافة بين المَشْهَد وشِبَام في يوم ونصف تقريبًا، وشِبَام من أمهات مدن الحضر، وهي عاصمة الحكومة القُعَيْطية في الداخل، وأكثر بيوتها عالية، ومطلية من الداخل والخارج بالجير مما جعل لها منظرًا يتجلى بياضه الناصع من بعيد، وهي مع كثرة عدد سكانها الذين يبلغون نحو ١٥ ألف نسمة محصورة وسط سور كبير، فالبيوت ملتصقة ببعضها والشوارع ضيقة، وهي أنشط مدن حضرموت تجارة، وأكثرها حركة، وبها مساجد كبيرة منظمة.



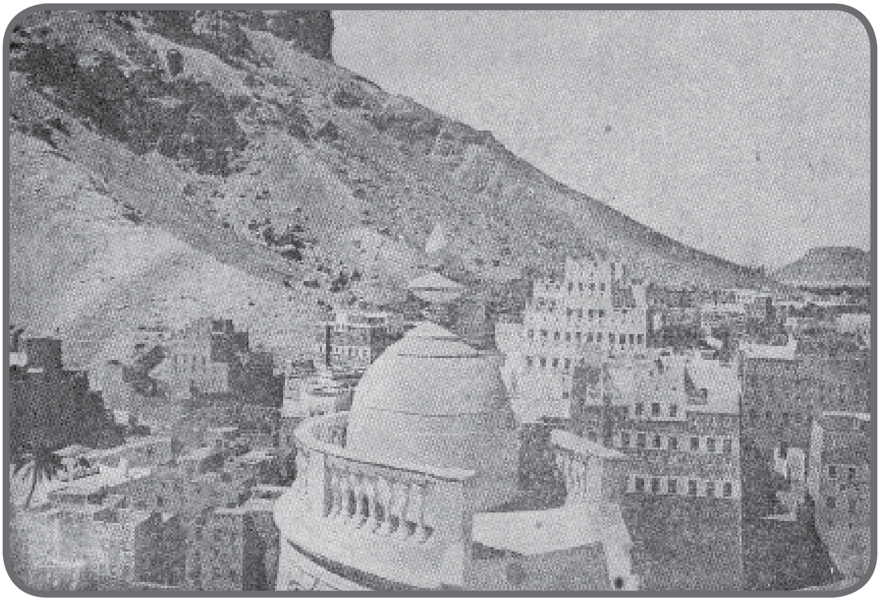
جانب من مدينة شِبَام

ومما تؤاخذ عليه مدينة شِبَام قذارة شوارعها، فمياه المراحيض تسيل في مجار ضيقة مكشوفة وسط الأزقة، ولذلك يلقى السائر في هذه الشوارع الصغيرة روائح كريهة تنبعث من تلك المجاري القذرة. وأمام شِبَام بالقرب من الجبل الشمالي تقوم مبان جميلة وسط الحقول وأحراج النخيل يملكها أفراد من ذوي اليسار، وهذا المكان أشبه بمنتزه، ويقال له سِحِيل آلِ مَهْري، وتعد شِبَام من الناحية الاقتصادية قلب حضرموت وحلقة اتصال بين البلاد في المناطق السفلى (حدرى) وبين بلاد العوالق واليمن، فجميع القوافل ترد إليها، وتباع في يومها على يد سماسرة (دلل) هم أمهر سماسرة حضرموت، وفي استطاعة التجار الشِبَاميين أن يرفعوا أسعار المتاجر ويخفضوها، وهم حجة في ذلك في سائر البلاد الداخلية.

من شِبَام إلى سَيْئون

وتنبسط أحراج النخيل من شِبَام إلى سَيْئون بشكل يبعث الإعجاب، وتنتشر المزارع الخضراء، والقرى منتشرة، يأخذ الوادي في الاتساع، ثم تبدو مدينة سَيْئون بعد مسيرة بضع ساعات، وسَيْئون عاصمة الحكومة الكثيرية، وهي من أكبر مدن حضرموت، وهي محاطة بسور كبير وبيوتها عالية، وتوجد بها شوارع واسعة وسوق كبير، ولكنها أقل حركة ونشاطًا من سوق شِبَام.

ويبلغ عدد سكان سَيْئون ٢٥ ألف نسمة تقريبًا، والمسافة بين شِبَام وسَيْئون نحو خمس ساعات، وبها مدرسة النهضة العلمية وهي أكبر مدرسة في القطر الحضرمي تأسست سنة ١٣٣٩هـ.



جانب من مدينة سَيْئون

من سَيْئون إلى تَرِيْم



مدينة تَرِيْم

تبعد تَريْم عن سَيْئون بنحو ٨ ساعات في طريق سهل مخترقًا مزارع وأحراجًا من النخيل، وهي من كبريات المدن التي يشار إليها بالبنان، وتوجد بها مبان ضخمة وبيوت شامخة يتجلى فيها الفن الحضرمي الجميل، والحضارة في هذه المدينة أظهر مما هي في شِبَام وسَيْئون، والعمارة فيها آخذة في ازدياد، وبها مساجد كبيرة، وشوارعها لا تختلف في شكلها عن شوارع سَيْئون في كثرة منعطفاتها وأزقتها الصغيرة التي تشبه الشرايين.

وتعد تَريْم أنشط مدينة في القطر الحضرمي من الناحية العلمية الأدبية، فهناك كتاتيب ومدارس ابتدائية تبذل غاية مجهودها في علوم اللغة والدين. ويبلغ عدد سكان تَريْم ١٥ ألف نسمة تقريبًا. والطريق من حوطة القُعَيْطي بالقَطْن إلى شِبَام فإلى سَيْئون ثم إلى تَريْم ممهدة تمشي فيها السيارات من غير صعوبة كثيرة لانبساط الأرض في هذه المنطقة.

من تَريْم إلى قبر هود

بعد مسيرة ساعات من تَريْم تظهر عِيْنات، وهي مدينة كثيرة المساجد والقباب، شوارعها ضيقة تحيط بها غابة من النخيل، وموقعها عند ملتقى كل الطرق المؤدية إلى قبر هود. ويبلغ عدد سكانها نحو خمسة آلاف. ويجلب إليها الماء من مسافات بعيدة؛ لأن ماءها لا يصلح للشرب، وكانت مدينة عِيْنات في سابق عهدها من أكبر مدن حضرموت، ولكنها في السنين الأخيرة أخذت تتدهور بسبب وجود النقرة الناجمة عن نحت السيول بعد تهدم السدود، أضف إلى ذلك أن قوة السيل قد تتزايد بمياه الأودية الجانبية ورخاوة التربة، وعندما تتعرى جذور النخيل يقل محصولها، وفي النهاية تسقط، فمنطقة النخيل الفسيحة المحيطة بعِيْنات آخذة في التلاشي بسبب تلك النقرة، وقد تهدمت مشروعات الري، وتغطى كل شيء بطبقة من الرمل الأبيض، ولهذا فإن أشجار النخيل مقضي عليها.

وبعد عِيْنات تقع مدينة قَسَم وهي محوطة بسور متهدم، وقد تأثرت أراضيها بتلك النقرة فاختفت صناعة البلح وهاجر أكثر أهلها، وأمسى عدد سكانها بضع مئات بينما كانت غاصة بالألوف فيما مضى. وبعد الخروج من حدود قَسَم تمر بقرى خربة وقلاع على شاكلة قلعة قَسَم، والماء موزع هنا وهناك بين قيعان السيول، وهو ماء أجاج في الغالب، ولو أنه في بعض البقاع صالح للشرب نسبيًا، ويفضل السكان مياه الآبار، وتشرب دواب الحمل مياه النهر التي تظهر أحيانًا وتختفي أخرى متخذة في باطن الأرض طريقًا لها، وفي ذلك الصقع المنكود تقوم قرية باحفار، وهي قرية بائسة سكانها فقراء يعيشون في أكواخ، وقد تهدمت منازلها الطينية في نزاع قبلي، ويكثر هنا النساء؛ لأن كثيرًا من الرجال قتلوا في الحروب، ومن بقي منهم هاجر إلى بلاد غريبة عنه، وكذلك الشأن في أكثر القرى التي في هذه المنطقة المقفرة بين عِيْنات وقبر هود، ويستمر الوادي في الاتساع، وتتكون التربة من طبقة سميكة من اللويس، ويتعرج الطريق بين شجيرات الأراك الأخضر، وكلما توغل في السير كلما يقحل الوادي العريض، وبعد مسيرة بضع ساعات تدخل في منطقة حافلة بالأطلال الفخمة أكبرها أطلال العُرْ(١) وثوبي، وبعد بضع ساعات من هذه المنطقة الأثرية تقع قرية سَوْم الصغيرة تحيط بها حرجة من النخل، والماء هناك عذب وهو قريب من سطح الأرض، ولكن الناس هناك لا يهتمون بالزراعة كثيرًا، وبعد مسير ثلاث ساعات من سَوْم تقع قرية فُغْمَة، وهي مكوَّنة من عدة بيوت من الطين محوطة بالأكواخ، وهي آخر محط قبل قبر هود، ولا بد من السير بعدها أربع ساعات، وبعد فُغْمَة تخترق أحراجًا صغيرة من النخيل بها أكواخ حقيرة، وهنا تجتمع أفواج من البدو كل عام يحتفلون بزيارة أحد الأولياء، وهي أيام هدنة للزيارة والتجارة عندهم.

(١) راجع صفحة ٥٥ من الجزء الأول.

ثم يبدأ الوادي في الضيق، والطريق في جملته لا بأس به، وهو يمر تارة في تلال رملية قاحلة، وتارة بين شجيرات الأراك والأثل حتى تصل إلى قبر هود[١] بقبته البيضاء، وأمامه بيوت يلجأ إليها الناس أيام زيارة ذلك الضريح المقدس، ومن ورائه تلال شماء سمراء كأنها شهود عدل منذ القدم على هلاك قوم عاد بصمتها البليغ الرهيب.

من قبر هود إلى سَيْحُوت

يبتدئ النبات يقل تدريجيًا من قبر هود، ويأخذ الوادي في الانحدار، وبعد مسير بضع ساعات تخترق منطقة الجزع، فينعدم النبات والماء مسافة ثلاثة أيام، وتكثر أكوام الرمال في الجنوب الشرقي من الوادي حتى تصل إلى المَسِيْلَة، وهي قرية أغلب سكانها عبيد المهرة، ثم بعد مسيرة ساعة تقع قرية العِيْص، وهي مكوَّنة من أكواخ طينية، ثم يستمر الطريق في الانحدار والانحناء نحو الجنوب حتى يصل سَيْحُوت حيث ينتهي الوادي الرئيسي، ويبدو البحر العربي، وتقطع المسافة بين قبر هود وسَيْحُوت في نحو سبعة أيام بسير الجمال المعتدل، وبالرغم من قحولة هذه المنطقة، وقفرها فإن الأخطار التي تعترض المسافر فيها قليلة بالنسبة لمنطقة الدَّيِّن وكَوْر سَيْبَان، على أن المسافر لا بد له من استصحاب خفير من المهرة أو من المناهيل ليكون في مأمن من تعدي اللصوص وقطاع الطريق.

من الشِّحْر إلى تَرِيْم

يفضل كثير من سكان سَيْئون وتَرِيْم وملحقاتها المرور من طريق الشِّحْر حينما يسافرون إلى مهجرهم إندونيسيا، أو عندما يؤوبون إلى وطنهم، وذلك لأن مهبط هذا الطريق وهو عقبة المسندة ينحدر على تَرِيْم، ثم إن المسافة فيه أقل بيوم تقريبًا من المسافة التي يقطعها المار في طريق المُكَلَّا مخترقًا دَوْعَن أو وادي العين،

(١) راجع صفحة ٥٨ من الجزء الأول.

فالمسافة من الشِّحْر إلى تَريْم نحو سبعة أيام، أما من المُكَلَّا إلى تَريْم فلا تقل عن ثمانية أيام، ولقد حاول أحد سراة تَريْم وهو السيد المفضال أبو بكر بن شيخ الكاف العلوي إصلاح طريق الشِّحْر وتعبيده ليتسنى للسيارات المرور فيه، وتقطع المسافة من تَريْم إلى الشِّحْر في ساعات معدودات بدلًا من سبعة أيام، وفعلًا شرع يصلح الطريق ويمهدها ويعبِّدها على حسابه الخاص مبتدئًا من تَريْم، ثم انقطع العمل فجأة عند ريدة المَعَارَّة بعد أن أصلح نحو ١٠٤ أميال، وأصبحت السيارات بفضله تمر من تَريْم إلى ريدة المَعَارَّة من غير صعوبة تذكر، ولم يبق من الطريق سوى ثلثه تقريبًا.

والحق أن إصلاح طرق حضرموت ذات العقبات الوعرة من أكبر المشاريع الوطنية الخيرية، وليس في استطاعة الواحد مهما كان غنيًا أن يقوم بإصلاحها، ولكن المفضال أبا بكر بن شيخ الكاف استطاع بهمته العالية التي دكت عقبة المسندة أن يقوم بتعمير جزء كبير من ذلك الطريق الوعر.

ولقد كان من المنتظر أن يقوم غيره من ذوي الهمم العالية كولاة الأمور وأرباب المال بتعمير ما بقي من الطريق لتنشط المواصلات بحضرموت، ويأخذ هذا الوطن البائس حظًا ولو قليلًا من مدنية القرن العشرين، ولكن لم نحس لهم ركزًا، وبقيت المواصلات كما هي على ظهور الدواب منذ آلاف السنين.

يخترق المسافر من الشِّحْر إلى تَريْم هضبة يبلغ طولها نحو ١٥ ميلًا، وترتفع عن سطح البحر تدريجيًا مخترقة الصرك والقياعين، وتعلو فجأة عند عقبة العَرْشِة التي يبلغ ارتفاعها نحو ٣٥١٠ أقدام، وهي كثيرة المنعطفات والتعرجات، ولكنها سهلة المرتقى، وعند سفح العقبة ينبسط الطريق تقريبًا، ويمتد في خط شبه منكسر إلى ريدة المَعَارَّة مخترقًا الغلاغيل، ثم يستمر في طريقه إلى حرو، وليس بهذه المنطقة من الرَّيْدَة إلى حرو أي نبات اللهم إلا على الحافة حيث تصطدم بها بعض السحب، ولا

حيوان إلا بعض السحالي والطيور، وكل الأرض ملأى بالصخر الرمادي الداكن، وهي على وجه العموم لا تختلف عن جول وادي دَوْعَن في تشابه مناظره وإقفاره من كل مظهر للحياة. ثم تظهر عقبة المسندة، وهي كثيرة التعاريج والمنعطفات تكتنفها هوات عميقة هائلة، ولكن الطريق معبد يسع لمرور سيارة واحدة، وتنحدر تلك الحيطان الجبلية انحدارًا يبلغ نحو ٩٠٠ قدم، ومن هذا المنحدر تظهر مدينة تَرِيْم الغناء ببيوتها ومساجدها ومنائرها البيضاء كأنها ركامة من الثلج وسط تلك الأحراج من النخيل والمروج الخضراء.

من مَيْفَع إلى الصَّدَارَة

تقع مَيْفَع على مقربة من البحر، وهي منفذ وادي حَجْر، وتعد أخصب منطقة في الإقليم الساحلي، إذ يغور في أراضيها الجزء الأكبر من ماء نهر حَجْر، ولعدم وجود مشروعات زراعية تردم تلك المستنقعات تجد حمى الملاريا منتشرة في أهالي مَيْفَع، الأمر الذي بعث في أولئك السكان الهمود والخمول عن القيام باستغلال أراضيهم الخصيبة، واستنزاف بركاتها الواسعة وخيراتها الوافرة، ولذا تلقاهم في فقر مدقع، وأفراد الحامية القُعَيْطية اليافعية قد ذهبوا ضحية الحمى، ولم يبق منهم في قيد الحياة سوى واحد لا غير.

وتتكون بلدة مَيْفَع من بيوت ضئيلة هي أشبه بأكواخ صغيرة، وبعد سير ثمان ساعات تقريبًا يقوم جبل حوته، وبه السور المتهدم الذي احتمى به يافع في حرب حَجْر الأخيرة، وعلى مقربة من هذا السور قبور القتلى منهم، وعليها علامات من الحجر، ثم تنحدر من الجبل إلى بقعة بها عين يسيل ماؤها من غير هدى ولكنه آسن، حتى الإبل لا تقوى على الشرب منه، وتخترق بعد ذلك جبال ذات مناظر في غاية الفخامة والجمال، وينعدم الماء فيها لمدة ساعات طوال، ثم تصل الغبر وتخترق الوادي ماشيًا على ضفة النهر اليمنى أو اليسرى، وبين مسافة وأخرى توجد حقول

الذرة، وبها أكواخ لإقامة حراسها، وفيما عدا ذلك يكون الوادي عديم السكان، ويأخذ الوادي في الضيق، وتقل الأراضي الصالحة للزراعة، وفي بقعة ينحني النهر فجأة في زاوية قائمة، فاحتفر لنفسه مجرى في غاية العمق، ويكثر الرمل الأبيض على شاطئه، وتنتشر الأشجار ومنها النخل، ثم تصعد جبلًا، وهناك يختفي النهر حيث يتخذ طريقه في ناحية أخرى، وتسير في ممر ضيق، ثم يظهر الوادي خانقًا يمر فيه النهر حتى الأرض، وقاعه مغطى بالصخور الهشة، وتظهر بعد ذلك قرية مصينع الحقيرة، وهي مكوَّنة من منازل بدون حيطان أمامية وخلفية، فهي عبارة عن أنفاق تصل ما بين النهر والجبل، وسكانها متوحشون، وهم أشبه بعراة، يحتقرهم سكان الوادي، وتمر في السهل الذي به القرية، وأرضه مغطاة بالأحجار الحمراء القاتمة، وبعد ساعتين تنعدم الأرض المنزرعة ثم تظهر ثانية، ويقترب الجبل من النهر، ويضيق الوادي ثم تخترق منطقة خصيبة جدًا، وهناك توجد سدود قليلة الارتفاع لحجز المياه هي أشبه بالحواجز الأرضية في داخل حضرموت المسماة (جُرُوب)، وتكثر أحراج النخيل التي تمتد على طول النهر، والتلال تجعل الإقليم حصينًا من الوجهة الحربية، وهو من الأقاليم التي كان عليها نزاع بين يافع وقبائل حَجْر، وتظهر بعد ذلك قرية حُوت الصغيرة، ثم أحراج النخيل ويأخذ الوادي في الضيق، ثم بعد ساعة توجد قلعة بها حامية من يافع، ثم قلعة أخرى بها حامية من قبائل حَجْر، وتنتهي الطريق أخيرًا إلى أشجار اللبخ، ثم أعشاب كثيفة، ثم شجيرات، ثم حقول الذرة الواسعة، فحدائق النخيل، فبلد الصَّدَارَة، وبالقرب من الصَّدَارَة توجد ينابيع مياه حارة، ويروى بها النخل، وهي لا تؤذي جذوره.

ويلبس مرشدو القوافل في وادي حَجْر نوعًا غريبًا من الأحذية يغطي كل القدم من أعلى وأسفل، ويحدث صوتًا عاليًا عند المسير، وذلك راجع إلى كثرة الثعابين والعقارب؛ لأنه في البلاد التي لا تكثر فيها الزواحف لا يلبس الناس الأحذية إلا

في وقت الظهيرة؛ لتحمي الأقدام من الرمضاء، والمسافة بين الصَّدَارَة ومَيْفَع نحو ثلاثة أيام.

من الصَّدَارَة إلى وادي عَمْد

تنبسط حقول الذرة والسمسم بكثرة في شمال الصَّدَارَة التي تروى بمياه العيون المتفجرة، ووادي حَجْر هو الوادي الوحيد بحضرموت المليء بالماء، وتأخذ الحبات النباتية في الاختفاء شيئًا فشيئًا، ثم تصعد إلى وادٍ تتخلله الصخور، وطبقاته من الناحية الجيولوجية عكسية ثم أفقية، وتتكون من طباق من الحجر الجيري الأسود والحجر الرملي، ثم تخترق منطقة يِبْعِث، وهنا تتضاءل الحياة النباتية، ويصبح الأمن مفقودًا، وكلما توغل الوادي إلى حوطة يِبْعِث كلما ازداد الخطر، حيث يوجد لصوص لا همَّ لهم سوى سلب المسافرين وقتلهم أحيانًا، وحوطة يِبْعِث قرية بدوية حقيرة يكثر فيها البق، ثم تتوغل في الوادي نفسه، فتخترق بعض مزروعات وأشجار النبق والنخل، وهو عديم الثمر لشدة الجفاف، وتمر في أعلى الوادي على مجموعة من القرى التي يطلق عليها اسم يِبْعِث، ثم تصعد عقبة، وبعد مسافة بضع ساعات تخترق هضبة صخرية تشقها بعض المنخفضات الشبيهة بالأحواض، ثم يظهر الجول العريض الماحل، ويستمر السير ساعات مارًا ببعض النقابات، ثم تنحدر في هضبة وتصعد في وادي عزبة، وهو وادي صغير سهل المرتقى، ثم تخترق منطقة الدَّيِّن في طريق محفوفة بالمخاطر حتى تصل النجيدين، وهي قرية حقيرة، وبعد مسافة ساعات تقع قرية خليفة باسويد، ويشتد الجفاف في هذه المنطقة كثيرًا، وتصبح مناظر الوادي بغيضة مملة، وبعد بضع ساعات تصل شرج الأبيضين، وهي قرية حقيرة للغاية مكوَّنة من عدة منازل صغيرة، وتسكنها أسرة واحدة، وعماد الأهلين ثمار النبق، ثم تخترق هضبة بها بعض النقابات، ولكنها شحيحة الماء بسبب الجفاف، وتقوم هناك قلعة حصينة خالية من السكان،

ثم تبتدئ الهضبة بعد بضع ساعات في الانحدار تدريجيًا، وتمر في منطقة عمودية من الحائط الصخري يؤدي إلى بقعة تسكن بها بعض قبائل الدَّيِّن، وهي من المناطق المحفوفة بالمخاطر، وينعدم الأمن حتى تصل إلى وادي عَمْد، وتقطع المسافة بين الصَّدَارَة وعَمْد في أربعة أيام تقريبًا.

المعارف

الجهالة ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، والأمية منتشرة انتشارًا عظيمًا في كل الطوائف الحضرمية لا سيما سكان البوادي والهضاب العليا، والمدارس الموجودة اليوم أولية وابتدائية، وهي كثيرة في مدن البلاد السفلى (حدرى) وفي البنادر، ويهتم الحضرميون كل الاهتمام بتعليم الدين واللغة العربية وقواعدها كالنحو والصرف، وما إلى ذلك، وليس للعلوم الرياضية والطبيعية والجغرافية والتاريخية أثر يستحق الذكر، وأحسن المدارس هي مدرستا المُكَلَّا والشِّحْر، ففيها مبادئ بسيطة جدًا من الرياضة والتاريخ، وتقوم الحكومة القُعَيْطية ببعض المساعدة لهما.

والرباط بسَيْئون، وهو أشبه بمعهد ديني تدرس فيه الديانة الإسلامية واللغة العربية وقواعدها بتوسع قليل، والتعليم فيه مجانًا، ولقد انتفع بالرباط كثير من الناس، والفضل في ذلك يعود لمؤسِّسه العلامة الشيخ علي بن محمد بن حسين الحبشي وغيره من أهل الخير الذين أوقفوا عليه صدقات جارية، إلا أنه قلَّت العناية به في الزمن الأخير، وقلَّ عدد الطلبة إلى حد كبير.

ورباط تَرِيْم وهو أكبر معهد في القطر الحضرمي، وتدرس فيه العلوم العربية والعلوم الدينية، ومؤسِّسه العلامة الشيخ عمر بن أحمد الشاطري، ويتولى إدارته والتدريس فيه نجله العلامة الشيخ عبدالله بن عمر الشاطري.

ومدرسة النجاح بشِبَام التي أسسها المرحوم أبو بكر التوي، وأنفق عليها أموالًا كثيرة، وهي أيضًا تُعنى بالعلوم الدينية.

وجميع المدارس أهلية يقوم بها أفراد من الشعب، وليس للحكومتين اليافعية والكثيرية مدارس خاصة باسمها (أميرية).

وطريقة التدريس في جميع المدارس قديمة وعقيمة، والروح فيها خامدة هامدة لا تبعث في الناشئين النشاط والحركة وحب العمل، ولا توقظ أفكارهم، ولا تنير عقولهم، ولا تزيل ما علق بعقيدتهم من الخرافات والأوهام، والتعليم مقصور على الذكور، أما الإناث فليس لهن حظ منه، ولعله من دواعي الدهشة إذا قلنا إنه لا يوجد في حضرموت اليوم إلا عدد قليل جدًا من النساء يعرف القراءة والكتابة.

الأدب الحضرمي

لا نريد هنا أن نتكلم طويلًا عن الأدب الحضرمي، ونستقصي الشعراء الحضرميين الأقدمين والمحدثين، فذلك يستلزم كتابًا قائمًا بذاته، وموضوع كتابنا لا يسمح لنا بذلك، فهو كتاب سياسي لا أدبي، ولكنا نحب أن نأتي بنظرة عجلى عن الأدب الحضرمي، ونذكر بعضًا من الشعراء والأدباء لنعطي القارئ فكرة عامة عن الأدب بحضرموت.

للأدب الحضرمي دوران مهمان: الأول يبتدئ من بعد انتشار الإسلام بحضرموت حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري[(١)]، والثاني: يلي الدور الأول إلى العصر الحديث.

ففي الدور الأول كان الشعر قديمًا في أسلوبه وألفاظه وخياله. كان لأولئك الشعراء أفكار خاصة واتجاهات دفعتهم إليها طبيعتهم ومزاجهم وما يحيط بهم من

(١) لحضرموت شعراء جاهليون، ولكن لم نعثر على شيء عن حياتهم الأدبية وما قالوه من الشعر، لذلك أغفلنا ذكرهم.

جبال جرداء، ورمال غبراء، ونياق ضامرة، ونخيل باسقة، فذكر الأطلال والديار، والتفاخر بالأنساب والأحساب كان من ديدنهم، ولم تسعدهم الظروف بالرحيل إلى بغداد أو الأندلس، ومشاهدة حضارة العباسيين والأندلسيين، وما هم فيه من رغد وهناء وترف ولهو ومجون، ولم يتصلوا بمعاصريهم من الشعراء الأفذاذ أمثال أبي تمام والمتنبي وبشار وابن الرومي والشريف الرضي وأبي نواس، ولم يعكفوا على أشعارهم وبنات أفكارهم، ولو عملوا لكانت معانيهم غزيرة، وأفكارهم عميقة، ونظراتهم بعيدة، ولكانوا من الشعراء العباقرة الخالدين؛ لأن ملكة الشعر في الحضرمي قوية، والغناء والرجز والزجل كل ذلك منتشر في كل القبائل بحضرموت، لم يتعلموا لغات غير لغتهم العربية، ولم يأخذوا حظهم من الفلسفة اليونانية أو الإسلامية؛ لذلك نجد شعرهم خاليًا من الكلام حول المعضلات الكونية، كانوا يرون الجو مفتوحًا، والسماء صافية، والنجوم زاهرة، والشمس شارقة، كانوا يرون أمام أعينهم جهلاء يسعدون، وحكماء يشقون، وفتاة هيفاء يخطفها المنون، وعجوزًا شعثاء يمد في عمرها عشرات السنين، فلم يبدوا بشيء من آرائهم إزاء ذلك، ولم يحاولوا أن يسألوا أنفسهم ما هي الحياة؟ ولماذا جاءوا إليها؟ وإلى أين المصير؟ إلى غير ذلك من الأمور التي يحار فيها العقل وترتبك فيها النفس، لقد عكفوا على العلوم الدينية البحتة، وشغفوا بمطالعة كتب التصوف والزهد، وانقطعوا للعبادة، لذلك كانت الروح الدينية هي السائدة على أشعارهم، والماسكة بزمام أفكارهم، وفي مقدمة الشعراء المتصوفين العلامة الشيخ عبدالله الحداد، فقد كانت أشعاره ولا تزال إلى اليوم يتلوها الشباب والشيوخ كتعاويذ دينية يقصد بها استنزال البركات ودفع الكربات.

أما الدور الثاني: فيبتدئ من أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وينتهي إلى العصر الحديث، والشعر في هذا الدور يختلف في بعض نواحيه عن شعر الدور

الأول، فقد تأثر الشعراء الحديثون بأدباء مصر وسوريا والعراق، وأكبوا على قراءة الصحف العربية التي تصدر في هذه الأقطار الشقيقة، وكانت النتيجة أن أخذت معانيهم تغزر نوعًا، وألفاظهم تتهذب، وأخيلتهم تسمو وتصطبغ بالصبغة الفنية الحديثة، وبدأت سحب التصوف والزهد التي كانت تغشى أشعارهم تتلاشى وتزول، على أن أغلبية الشعراء لا يزالون إلى اليوم متمسكين بأسلوبهم القديم الجاف، وتكاد تكون أشعارهم عبارة عن مواعظ ونصائح، ذلك لأن العلوم التي تدرس في المدارس الحضرمية دينية بحتة، ومما زاد الطين بلة اعتزالهم مطالعة الكتب الأدبية الحديثة.

وأول الشعراء المجددين، وأغزرهم علمًا، وأكثرهم نظمًا، وأبعدهم صيتًا، وأوسعهم شهرة في القطر الحضرمي هو الأديب الكبير العلامة الشيخ أبو بكر بن شهاب[1]، فقد كان أسلوبه سهلًا، وموسيقاه عذبة، وأفكاره واضحة، ومعانيه غزيرة

(١) ولد هذا الأديب في (حصن فلوقة) من ضواحي تَرِيْم سنة ١٢٦٢هـ ودرس العلوم الدينية واللغة العربية على عشرات الأساتذة بتَرِيْم وغيرها، وقد كان حاد الذكاء، حاضر الذهن، سريع الفهم، قوي الذاكرة، ومن طرائف ما يُحكى عنه: أنه كان مرة أصابه نعاس في أثناء درس علم الفرائض كان يلقيه عليه وعلى زملائه أستاذه العلامة الشيخ علي بن محمد الحبشي، ولما أتم الأستاذ درسه سأل تلميذه أبا بكر، وقد لاحظ عليه النوم قائلًا: هل فهمت الدرس؟ فأجابه بالإيجاب، فقال: أفي مقدورك أن تعيده عليَّ غدًا؟ فقال: نثرًا أم نظمًا؟ فاندهش أستاذه وقال: نظمًا إذا استطعت. وفي صبح اليوم الثاني جاء إلى أستاذه بمنظومة حاوية لكل أبواب المواريث وقد افتتحها قائلًا:

لله حمدي وارث الأرض المتين ... ومن عليها وهو خير الوارثين

واختتمها بقوله:

فاصفح وأصلح ما بها من الغلط ... فقد أتى: (من ذا الذي ما ساء قط)

وعذر من لم يبلغ العشرين ... يقبل عند الناس أجمعين

وفي سنة ١٣٠٢هـ رحل إلى عدن والحجاز ومصر والقدس والشام والأستانة ثم إلى الهند، واستقر في حيدر أباد، وهناك تولى التدريس بالمدرسة النظامية، فانتفع بعلمه خلق كثير،

سامية، وقد أثَّر شعره في الأدب الحضرمي تأثيرًا حسنًا، وبعث في الأدباء نشاطًا ويقظة، ونفخ فيهم روحًا جديدة، فهبوا من قديمهم البالي يقلدون ابن شهاب في نظمه، ويحاكونه في أسلوبه.

ومن الشعراء المجددين في العصر الحالي الأديبان الفاضلان: علي أحمد باكثير، وصالح بن علي الحامد العلوي.

ولنأت هنا بمقتطفات من بعض شعراء الدورين: الأول والثاني.

= وفي ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٤١هـ توفي بحيدر أباد، وكان لفقده رنة حزن في القطر الحضرمي وخسارة كبرى على الأدب.

من شعراء الدور الأول

ابن عقبة الحضرمي الشِبَامي

من شعراء القرن السادس الهجري

قيل إنه له ديوانًا من الشعر النفيس المتين ولكنه مفقود، ولم يحفظ الناس شعرًا له سوى مائة وخمسين بيتًا تقريبًا. ومن شعره:

أصبرت نفس السوء أم لم تصبري ... بيني ومن تهوين يوم المحشر
إني امرؤ عف الإزار عن الخنا ... لم أغش منذ نشأت باب المنكر
والله ما صافحت كف بغية ... أبدًا ولا نادمت شارب مسكر
إلا على كسب العلوم مخيمًا ... وبكاي في طلب العلى وتحسري
ما همتي إلا اقتناء مكارم ... قصر الزمان وهمتي لم تقصر
وقسمت حالاتي ثلاثًا دونها ... يأبى الهمام المصرخي الشمري
كرمًا تدين له الأنام وحالة ... ظهرًا جواد وحالة للمنبر
فكفى بذا فخرًا على كل امرئ ... يسعى على أثري ليدرك مفخري
حسبي بما أوتيته من همة ... قعسًا تنيف على السماك الأزهر
إني من العرب الذين نجارهم ... من خالص العقيان لب الجوهر
من شم خولان ابن عمرو منبتي ... وهمو قبيلي في الأنام ومعشري
وإذا اعتزوت فآل عقبة عزوتي ... وبنو زناد الغر منبت عنصري

وتـخـذت أصـحـابًـا إذا نادمتهم ... لـم أخـش منهم مـن ينم ويفتري
علمي وحلمي والحصان وصارمي ... نـدا يـمـيـني والـعـفـاف ودفـتـري

عبدالصمد بن عبدالله باكثير
المتوفى سنة ١٠٢٥هـ بمدينة الشِّحْر

كان شاعر السلطان عمر بن بدر الكثيري، اختصه بعيون شعره وغرر قصائده، وتجد ترجمته في خلاصة الأثر للمحبي والسلافة وغيرهما، وله ديوان ضخم لم يطبع، ومن شعره:

يـا مـطـيـل الـصـد مـهـلًا ... فـالـكـرى عـنـي ولـى
واشـتـيـاقـي في مـزيـد ... واصـطـباري عـنـك قـلا
ودمـوعـي كـالـغـوادي ... غـدقـات الـسـكـب هـطـلا
لـيـس لـي عـنـك سـلـو ... لا أرى لـي عـنـك شـغـلا
لـم يـزل فـيـك حـديـثـي ... أبـدًا يُـروى ويـتـلـى
كـلـمـا لاح لـعـيـنـي ... بـارق فـوق الـمـصـلـى
بـت مـن شـوقـي ووجـدي ... وغـرامـي أتـقـلـى

وله:

وبي من العرب ظبي ما رأى بصري ... شبهًا له في الورى بدوًا ولا حضرا
كالبدر وجهًا ونظم الدر مبتسمًا ... والظبي جيدًا وغصن البان إن خطرا
والورد في خده المحمر من خجل ... يدعو إلى حسنه الفتان من نظرا
كم ليلة زارني فيها على وجل ... مستعجلًا خائفًا مستوفزًا حذرا
يمشي الهوينا حذار الكاشحين وقد ... أرخى الستور ظلام الليل واعتكرا

يا ليلة سمحت لي بالذي اقترحت نفسي وقبلت فيها الأشنب العطرا
أمسيت أحسو رضابًا عز مرشفه حتى تزحزح ثوب الليل وانحسرا
لم أنس تلك الليبلات التي سلفت مضت ولم نقض من لذاتها وطرا
فليت شعري والآمال ما برحت مطامعًا طال عمر المرء أو قصرا
هل يسعد الحظ ممن حل في خلدي بموعد أو تلاقٍ أو خيال كرى؟

ومن نماذج شعره الجزل قوله يهنئ السلطان عمر بن بدر بانتصاره على أحد زعماء قبائل الخارجين عليه:

نصر عزيز من الرحمن قارنه فتح وطالعه بالسَّعد يبتدر
من كان معتصمًا بالله كان له عونًا وسار بما يختاره القدر
وكل باغ فإن الله خاذله ولم يفز من بغير الله ينتصر
لما تألبت الأعداء واعتصموا بحبل غدرهم باءوا بما غدروا
هم هادنوك على غدر به جبلت طباعهم، لالعًا للقوم إذ عثروا!
جاءوك زحفًا إلى آجالهم وسعوا لحينهم وإلى تنكيلهم نفروا
ما راقبوا عقد ميثاق ولا صحبوا رشدًا ولا لصنيع منكم شكروا
بل استمروا على طغيانهم وأبوا إلا الفساد فهاروا في الذي احتفروا
لله (بالنقعة) الغراء معترك دسنا الأعادي به والنقع معتكر
فكان أخطاهم من فر منهزمًا يبغي النجا حيث لا منجى ولا وزر
لقد أصروا على نقض العهود وكم بدت لهم عبر فيه وما اعتبروا
راموا أمورًا وليسوا أهلها سفهًا تعلقًا بمحال قاده الأشر
فأمكن الله منهم فانثنوا هربًا كمثل ما نفرت من قسور حمر

وله موشحات بديعة غاية في الرقة وجمال القافية حتى ليخالها القارئ من نظومات هذا العصر الحديث:

يـا معير الـظبي طـرفًـا أدعجا والرحيق اللطف والـبـدر التماما
هـل يـنـال الـعـاشـق الـمفـتون من ورد خـديـك اسـتـلامًـا والـتـثـامـا؟
أنـــــت والله فــتــنــتــي ومــــحــــيــــاك قــبــلــتــي
أنــت نــاري وجـــنـــتـــي!

يـا بـديـع الـحـسـن قـل مـا الـذي أوجب للهجران والإعـراض عني؟
طــال سـقـمـي وتــمــادى كـمـدي رق لي ما فاتني! كم ذا التجني؟
إن قــلــبــي قـــد انــكـــوى وتــــمــــادى بــــي الـــجـــوى
لـــو مـنـى قـلـبـي ارعـــوى!

أحمد بن عمر باذيب الشِّبَامي

من شعراء القرن الثالث عشر الهجري

من شعره:

يا واسع الجود يا من جوده جاري أو سـر إحـسـانـه في خلقه جـاري
يـا رب عـفـوك غـيـر أنـنـي رجـل ظلمت نفسي بـزلاتـي وأوزاري
وقـد دعـوتـك أرجـو منك مرحمةً فـارحـم عُـبَـيْـدَك يـا خـلاق يـا بـاري
وأنت حسبي ومعبودي ومستندي وعـدتـي في إقـامـاتـي وأسـفـاري
وأنت قصدي ومأمولي ومعتمدي عـلـى تـغـايـر أحـوالـي وأطـــواري
فكن كفيلًا بما أرجوه منك وهب لي مطلبي واقض حاجاتي وأوطاري

إني أنـاديـك بـالـتـوحـيـد معتقدًا ومخلصًا لـك إعـلاني وإسـراري
فانظر إلـيّ بعين اللطف يا سندي بالمصطفى خير محبوب ومختار
مـحـمـد سـيـد الـكـونـيـن شافعنا يوم القيامة عند المُشكل الطاري
أعـلا الـبـريـة مـقـدارًا ومـنـزلـة إلـيـك آثــر ذي قــرب وإيـثـار
من جاء بالحق والذكر الحكيم ومن مـحـا الـضـلال وأردى كـل جبار
ومـن أتـى هـاديًـا للخلق يرشدهم إلــى الـفـلاح بـآيـات وأذكـــار

من شعراء الدور الثاني

أبو بكر بن شهاب



الشاعر الكبير أبو بكر بن شهاب

من شعره:

ذهبت من الغريب بكل مذهب ... وملت عن النسيب وكان أنسب
ركبت من الحماسة كل صعب ... ولم تجنح إلى كنس وربرب
كأنك لم تكن تهوى قديمًا ... ولم تعكف على طرب فتطرب
تريد تصبرًا فتضيق ذرعًا ... وما أنساك أن الطبع أغلب؟
فكم قد أوقفتك يد التنائي ... دليلًا حيثما العبرات تسكب
ورب مهفهف أقصاك هجرًا ... ومن بعض العباد دنا وقرّب
أتذكر إذ هصرت بفود سلمى ... وكانت من عقاب الجو أصعب
فمالت مثل بدر في ظلام ... على غصن على رمل مكثب

ومن قصيدة أخرى يتشوق فيها إلى وطنه حضرموت وهو بالهند:

أهكذا ليت شعري كل ذي كرم ... يصبيه تذكاره المأوى ويقلقه
يا أيها الراكب الغادي إلى بلد ... جرعاؤه خصبة المرعى وأبرقه
ناشدتك الله والود القديم إذا ... ما بَانَ مِن بَانِ ذاك السفح مورقه
وشاهدت عينك (الغنَّاء) غادرها ... مخضلة بالحيا الوسمي مغدقه
أن تستهل صريخًا بالتحية عن ... باكٍ من البعد كاد الدمع يغرقه
يثير أشجانه فوج الصبا سحرًا ... وساجع الورق بالذكرى يُؤرقه
له فؤاد نزوع لا يفارقه ... حرّ الغرام وجفن ليس يطبقه
بالهند ناء أخي وجد يحن إلى ... أوطانه وسهام البين ترشقه
إلى العرانين من أقرانه وإلى ... حديثهم عبرات الشوق تخنقه

علي بن محمد الحبشي

ولد بِقَسَم سنة ١٢٥٩هـ، وتوفي بسَيْئون بعد أن ذاع صيته، وعظم أمره، وكثرت تلاميذه ومريدوه، وله ديوان شعر مطبوع في جاوة، ومن شعره قوله:

إليكم رأيت الشوق يجذبني جذبا ... ويوردني من ذكركم منهلًا عذبا
فيا نازلي ربع الصفا لا برحتمُ ... تراعون لي حق المودة في القربى
فهل من سبيل لي إلى القرب منكم ... فإني أرجو الوصل ما عشت والقربا
رعى الله أيامًا مضت لي بحيكم ... يتيه بها قلبي إذا ذكرت عُجبا
متى تجمع الأيام بيني وبينكم ... وأحظى بوصل يغمر الجسم والقلبا

ومن شعره في المذهب الصوفي:

إن في سرِّ عالم الأنفاس ... مشهدًا للقلوب لا للحواس
يا لك الله يا أخا الذوق فيها ... عند تحقيق علمها ما تقاسي
كم رأيناك ذاكرًا للمعاني ... وسفير الحياة في ذاكر ناسي
قابل اللين بالقساوة حتى ... ظهر اللين منه في كل قاسي

محمد بن محمد باكثير

المتوفى حديثًا بسَيئون

يعد من أقطاب الحركة الأدبية والعلمية بحضرموت، تخرج على يده كثير من رجال العلم ونبغاء الأدب، وله ديوان شعر لم يطبع، ومن شعره قوله يستعطف سلطان المُكَلَّا ليأذن له في أخذ رسائله الموقوفة بسبب الحرب القائمة بين السلطنتين إذ ذاك:

أطيل السير في البيد ارتحالا لعلي أن أرى الميمون فالا
وفي الشوق المبرّح لي ظنون تناولني من الأفق الهلالا
ومن قصد الملوك ورام خيرًا تكن في العود خيبته محالا
وقد فارقت أصحابي ودرسي وتقريري وإفتائي الرجالا
وتحقيقي وتدقيقي وجمعي وتحريري جوابي والسؤالا
وجئت تقودني الآمال فيكم وليست تلكم الآمال مالا
وما أملي سوى أني أراكم وأدرك من محياكم نوالا
وإن لبانتي أقصى مرامي لها فارقت ربعي والعيالا
وقوفي بالرسائل واردات علي ولم أنل منها وصالا
ولي قوم نأوا عني فقلبي بهم مضني وهمي قد توالى
وقطع رسائل الأحباب عني كقطع الروح عن جسمي انفصالا
ولي قلب أقلبه اصطبارا فلم يسطع على الصبر احتمالا
وذا أرب يهون على علاكم ولن تجدوا جوانبه ثقالا

وله في تقريظ كتاب:

قالوا شغفت بذا الكتا ب وأمره أمر الكتب
قلت اتباع الحق حق فانظروا نحو السحب
بيض وسود في السما هل كل معترض يصب؟

عيدروس بن سالم السقاف

من أدباء سَيْئون وشعرائها

ومن شعره:

أخفى الأسى دمعي ونمَّ لساني ... لما ورى زند الهوى بجناني
هيهات أن تخفى بوادر شجو من ... نزل الهوى منه بكل مكان
عبث محاولة السلو لعاشق ... أضحى يكابد شجوه ويعاني
يرجو التعلل بالسلو سفاهة ... إن التعلل بالسلو أماني
حال الذي علق الغرام بقلبه ... سهر الدجى وتراكم الأشجان
يرتاح إن مر النسيم تعلة ... إن النسيم تعلة الولهان
أو أن من شوق غريب نازح ... سالت محاجره بأحمر قان
أو ناحت الورقاء تندب إلفها ... سحرًا على فنن من الأفنان
تندى بذكراهم عروق فؤاده ... كالماء يُندي ذابل الأغصان

محمد بن شيخ المساوى

من أدباء سَيْئون وشعرائها

ماذا عليَّ وقد جرى نفس الصَّبا ... أن أسبل الدمع الهتون وأسكبا
إن النسيم يجدد الذكرى لمن ... أضحى بطارقة الغرام معذبا
وافى بريا من أحب لقاءه ... أهلًا بما حمل النسيم ومرحبا
لم أنس تطوافي وجر الذيل ما ... بين المعالم والمنازل والرُّبا
يا عاذلي لمني فإني واجد ... حر الملام من العواذل طيبا
طربًا إلى ذكر الحبيب ومن يكن ... صبًا إذا ذكروا أحبته صبا

أحمد بن عوض بافضل
شاعر رقيق ومترسل كبير

من شعره يرثي بعض العلماء:

لمثل ذا الخطب تجود العيون ... بوابل الدمع الغزير الهتون
مرزئة هدت متين القُوى ... في جنبها كل الرزايا تهون
أوحشت الربع وسكانه ... وأذبلت للمجد غصن الغصون
أشد خطب وقعه مؤلم ... يقدح في القلب زناد الشجون
ذهاب أهل التقى إنهم ... يهدون بالحق، به يعدلون

محمد بن حسن بن شهاب
من صفوة أدباء تَريْم

ومن شعره ما قاله وهو بسنغافورة تحت عنوان:

المدنية والعصر

مدنية لكنها جوفاء ... وحضارة لكنها أفياء
مرجت عقول الناس حيث استحسنت ... من صنعها ما استهجن العقلاء
تدعو التهتك والسفور فضيلة ... ونتاج ذاك الشر والفحشاء
أوحت إلى الجنس اللطيف بأنه ... هو والرجال لدى الحقوق سواء
وبأن جبار السماء ورسله ... هضموا عليه حقوقه وأساؤوا
قادت إلى السوق الفتاة وسوقها ... لم يخفهن عن العيون كساء
والنحر والعضدان والفخذان كل ... أولاء باد ما عليه غطاء
وبكفها المرآة تصلح شأنها ... كيف اشتهت ومتى وحيث تشاء
وسط (الترام) وفي الطريق تهتكًا ... إن التهتك للفتاة شقاء

جزت غدائرها فصارت وفرة ... لا حبذا بالوفرة الحسناء
تلهو وترقص في (المراسح) مثلما ... ترتج فوق غصونها الورقاء
يرتج منها كل رجراج كجد ... ول زئبق لعبت به نكباء
وهناك تعتنق الفتى ويحوطها ... بذراعه فتليهما الأهواء
بالاحتكاك وبالتلامس والتما ... مس والشذى تتكهرب الأعضاء
وإذا غشيت المستحم ترى من ... الجنسين أسرابًا حواها الماء
جنبًا إلى جنب تعوم وقد علا ... ذاك الفضاء الضحك والضوضاء
فكأن ميل الجنس جرد منهما ... أفما تفر من الذئاب الشاء؟!
لا وازع يزع الفتاة كمثلما ... تزع الفتاة صيانة وحياء
وإذا الحياء تهتكت أستاره ... فعلى العفاف من الفتاة عفاء

عبدالله بلخير



الأديب عبدالله بلخير

ولد في بلدة غيل بلخير سنة ١٣٣٣هـ، وسافر إلى الحجاز سنة ١٣٤٥هـ، والتحق بمدرسة الفلاح بمكة حتى نال الشهادة النهائية، ومن شعره ما قاله تحت عنوان:

ثلاثة أعياد

لمن موكب قد سار يتلوه موكب ... بأوله سال (النقا) و(المحصب)؟
(أهارون) في الركب العظيم توافدت ... إليه الورى، أم سار في الجيش (يعرب)؟
أم البطل (المنصور) ماجت بخيله ... البلاد أم الجمعان فيها (المهلب)؟
أم (الفيصل الغازي) تبدت شموسه ... فقامت له كل البلاد تُرحب؟
تبدى فأمست كل عين قريرة ... وكل فؤاد بالسرور مكهرب
قدوم به (أم القرى) قد تزينت ... (ففي كل حي مهرجان وموكب)
ولو لم يعج (السيل) بالشعب يوم أن ... قدمت وكلٌّ للقا يترقب
لوافى إليك (الحجر) يمشي مرحبًا ... وسار يلاقيك (الفناء) المحجب!!
توالت مسرات على الشعب منذ أن ... قدمت، فكل بالمسرة مطرب
(ثلاثة أعياد): قدومك سالما، ... وإقبال (عيد الفطر) باليمن معرب
(وعيد) جلوس العاهل المنقذ الذي ... تميس به (نجدٌ) وتفديه (يثرب)
فأنعم به يومًا لذكراه كلما ... يردده (التاريخ) يزهو ويطرب
هو النعمة الكبرى على العرب كيف لا ... وفيه ابتدا (عصر السعود) المذهب!!
وفيه خطونا خطوة سُجِّلت لنا ... على صفحات الدهر بالفخر تصحب!!
وفيه غضبنا غضبة مضرية ... بأمثالها الأمثال في الناس تضرب
وفيه أرينا الناس كيف اتحادنا ... فأعجب بروح المجد إن كنت تعجب
وفيه التقى (نجد) بقطر (محمد) ... فسارا إلى القصد الذي نحن نطلب!!

إلى (الوحدة الكبرى) يقود جموعهم   موحدهم (عبدالعزيز) المحبب!!
مليك لـه (تـاج) (بنجد) مُـرصَّـع   (وعرش)على أفق (الحجاز) مطنب!
دعائمه فوق (الحطيم) و(وزمـزم)   وقمته العليا إلى الشمس أقرب!!
تـحـف بـه منـا الـقـلـوب ودونـه   يلذ لنا الموت الـزؤام ويعذب!!

ومن شعره الذي حيًّا به الكشَّاف العراقي بمكة ما يأتي:

تحية شباب العراق

(شبـه الـجـزيـرة) موطني وبـلادي   من (حضرموت) إلى حمى (بغداد)!!
أشـدو بـذكـراهـا وأهـتـف باسمها   في كـل جـمـع حـافـل - أو نـادي
منها خلقت، وفي سبيل حياتها   سعيي، وفي إسعادها إسـعـادي!!
كـل لـه في مـن أحـب صبابـة   وصبابتي في (أمتي) و(بـلادي)!!!
يا مرحبًا ببني (العـراق) ومن بهم   يـعـتـز كـل مـوحـد (بـالـضـاد)
ببني الـذي ملك الـبـلاد بأسرها   هـارون رافـع رايـة الإرشـاد
رسل (السلام) إلى (العروبة) كلها   وبـنـاة (وحـدتـهـا) بـكـل بـلاد
بـمـحـرريـن بـلادهـم بسيوفهم   والـقـاطـعـين لـدابـر الإفـسـاد
بـمـطـهـريـن بـلادهـم مـن كـل من   عُـرفـوا بـكـل دعـارة وعـنـاد
بـالسـائـريـن إلـى الأمـام بشعبهم   الـمـهـتـديـن بـسـنـة الأجـداد
يا (وحدة العرب) التي نسعى لها   حـتـى نـشـيِّـدها عـلـى الأعـمـاد
هـذي بـوارق نـهـضـة محـمـودة   عـلـقـت مـبـادئـهـا بـكـل فـؤاد
ومشت (مواكبها) وأقبل (جمعها)   و(الله) قائدها و(أحمد) حادي!!!
سـارت تطالب في الحياة بحقها   بـالـسـيـف سلـتـه مـن الأغـمـاد

من بعد أن فشل اليراع ولم تجد أحدًا يخلصها - من الأوغاد
وكذا (دساتير) الحياة تنص أن لا حق إلا للقوي العادي!!

صالح بن علي الحامد

من الأدباء البارزين



الأديب صالح بن علي الحامد

ومن شعره قوله تحت عنوان:

قيثارة العيد

لا زلت خفاق اللواء سعيدًا تبلى بنا عيدًا، ونلبس عيدا
في كل عام تستقل بنهضة وتجوز شوطًا في العلاء بعيدا
نادي العروبة!! لا برحت مزيدًا وعلى التآزر والوئام مشيدا
أصبحت في العيد الأغر كروضة غناء، ألبسها الربيع برودا

تزهو أزاهرها، ويملأ دوحها ... شادي الطيور أغانيًا ونشيدا
ويسرني إذ كنت روضًا زاهرًا ... أن كنت فيك البلبل الغريدا
فاقبل تهاني شاعر قد صاغها ... لك ضمن أكمام القريض قصيدا
تسري لرقتها نسيمًا سجسجًا ... وتفوح مسكًا في حماك وعودا
وجهت تهنئتي إليك وإنما ... هنأت فيك: الناهضين الصيدا
الخاطبي العلياء ما بخسوا لها ... مهرًا، ولا منوا لها مجهودا
الطالبين العز كسبًا طارفًا ... من بعد ما ورثوه -قبل- تليدا
لم يكفهم مجد الجدود فأقبلوا ... يتأثلون إلى القديم جديدا

***

إيهٍ! بني النادي لقد أعليتمو ... ركن المعالي باذخًا وشديدا
قد أصبح النادي بفضل جهادكم ... تاجًا على فرع العلا معقودا
فعلى أساس العلم فابنوا مجدكم ... وابغوا له الخلق الكريم عمودا
فالعلم، والأخلاق مهما استجمعا ... للشعب أدرك شأوه المنشودا
ما كان أسفه من جهول طامع ... في أن يعز بجهله ويسودا
واستجمعوا الآراء واسعوا للعلا ... صفًا وضموا للجهود جهودا
لا تحقروا داء التفرق إنه ... قد كان داء للشعوب مبيدا
يا أيها العرب الكرام! تفطنوا ... ماذا بدينكم الحنيف أريدا؟
يا إخوة الإسلام إن لدينكم ... ذممًا على أعناقكم وعهودا
هل ترقبون من السماء ملائكًا ... يتنزلون لنصره وجنودا
إنا لأجدر في الأنام بنصره ... وبأن ندافع دونه ونذودا
هذي صدور العرب وهي حصونه ... كانت له عهد الرضاع مهودا

غـذتـه مـن دمـهـا فـتـيًّا بـعـدما ... منـحـتـه أخــلاف الـحـنـان ولـيـدا
سرت الحياة إلى الشعوب ولم نزل ... في حلمنا نـطـوي الـزمـان رقـودا
كـنـا مـلـوكًـا في الـحـواضـر سـادة ... أمـن الـتـرقـي أن نـصـيـر عـبـيـدًا؟

ومن شعره ما قاله في تأبين ملك العراق فيصل الأول في النادي العربي بسنقافورة:

نـم إن بـنـدك خـافـق مـنـشـور! ... مـا زال وهـو الـفـاتـح المنصور
تهفو القلوب له وتصحبه المُنى ... أبـــدًا تـحـوم حـولـه وتـدور
نـم؛ إن مجدك سوف يبقى خالدًا ... وتـديـن أجـيـال لـه ودهـور
واهـدأ يكفنك الـجـلال فكافل ... لـك بـالـبـقـاء جـهـادك الـمـأثـور
لك فـوق أسماء الأماجد سطرت ... بـالـنـور في لـوح الـخـلـود سطور
واسـكـن بـأفـيـاء الـجـنـان منعمًا ... يـهـفـو عـلـيـك ظـلالـهـا والـنـور
لـك تنشد الأمـلاك ألـحـان الهنا ... وتـطـوف حولك في رباهـا الحور
لـك في الـوجـود مـآتـم مـن دونـهـا ... طـرف الـخـيـال يـعـود وهـو حسير
قـد قـام فيها الـديـن ينـدب حظه ... وبـكـاك فـيـهـا ذكـره الـمـسـطـور
في الشرق لولا الدين، دين محمد ... شـقـت صـدور لـلأسـى وسـتـور
مـا كـان قـبـرك في البسيطة واحـدًا ... لـك في الـنـواظـر والـصـدور قبور
ويـح الأثـيـر! ومـا يـردد موجه ... كـم ذا يهيج مـن الأسـى ويثير!
يـابـؤسـه! إذ قـال: أودى فيصل ... بطل الـعـروبـة، فـردهـا المنظور
نبأ دوى كالصور يخترق الفضا ... كـادت جبال الـشـرق منه تمور
صمت لـه منا المسامع واغتدى ... وصـداه فـيـنـا رنـة وزفـيـر
رجـفـت لـه أرض الـعـروبـة رجفة ... منها انـحـنـى رضـوى ومـاد ثبير

لـمَ لا تـذوب لهوله مهج الـورى؟ … ولـو أنـهـا بـيـن الـضـلـوع صخور
خوت القلوب له وصوحت المنى … وتـداعـت الآمــال، وهـي قصور
لـم يــرزأ الـدهـر الـعـراق بفقده … كـل الـشـعـوب لـفـقـده مـوتـور!
الخطب خطب الشرق قد أضحى له … في كــل جـانـحـة يـشـب سعير
في حضرموت أسى، وفي مصر جوى، … وبـمـغـرب دمـع يـفـيـض غـزيـر!
وكـذاك في صـنـعـاء والأردن بل … في سـنـقـفـور أسـى عـلـيه مـريـر!
أما الحجاز فلا تسل عن حالها! … فـالـحـزن أوقـع والـمـصـاب كبير
أم أصــاب الـشـكـل حـبـة قلبها … فـغـدت تجمجم والـفـؤاد كسير
لـو تـسـتـطـيع لـولـوت وزفـيـرهـا … لـهـب وأســراب الـدمـوع بحور
والـشـام يـنـدب فيه شهمًا طالما … عـهـد الـتـعـطـف مـنـه وهــو أمـيـر
مـلـكًـا فـــداه بـنـفـسـه وبـمـالـه … ونضى الشباب عليه وهو نضير
لـم يـحـدُه في ذاك حـب تملك … لـكـن حـدتـه عـقـيـدة وضـمـيـر
صـدقـت عـزائـمـه وجـد مـضـاؤه … لـلـشـأو، لـكـن عـاقـه الـمـقـدور!
لولا انشقاق عصى العروبة لم يكن … ليغير يـومًـا في حـمـاهـا (غـورو)

وله في الغزل:

أنـــا يـا هـنـد في هـــواك قـتـيـل … يـا ابـنـة الـقـوم هـل إلـيـك سبيل؟
اتـقـي الله وارحـــمـي لـمـشـوق … زفـــرات تـعـلـو ودمـعًــا يسيل
أفـتـرضـيـن أن أمـــوت غـرامًـا … ودوائـــي رضـابـك السلسبيل؟
هـنـد لا تـسـفـكـي دمـــاء محب … إن قـتـل الـمـحـب ذنـب ثقيل
كـيـف تـنـسـين عـهـد خـــلٍّ وفيٍّ … ويـك ما هـكـذا يـجـازى الخليل

سـدرات الـوادي عـليـك سلام ... كـم لـنـا في ظـلالـكـن مقيل
حين نلهو مع من نحب صغارًا ... نتبع الـفـيء منك حيث يميل
ولـنـا في ظـلالـكـن أغـان ... حـين للطير في ذراك هديل
هـل لأيـامنا المواضـي رجوع ... أم إلـى من نـهوى لقاء وصول
ما على الغادة البخيلة لو جا ... دت علينا وقد يجود البخيل
وأتـتـنا يـومًا وغاية ما نسأل ... منها الحديث والتقبيل
كم سنين مضت لنا تلو أخرى ... وفـؤادي بهجرها متبول
أسـأل الله كـلما هـلَّ شهر ... أنـهـا باللقاء فيه تنيل
هي في الحسن ما لها من شبيه ... وأنـا في الغرام مالي مثيل
ينمحي حسن كل وجه ويخفى ... إن بدا وجهها المليح الجميل
لست أدري لحاظها حين ترنو ... أهي سحر أم أسهم ونصول
ملك أم حورية أم غزال ... حار فيها التشبيه والتمثيل

الشاعر الأديب علي أحمد باكثير



الشاعر الأديب علي أحمد باكثير

هو من أشهر الشعراء الحضرميين في العصر الحديث، ومن أوسعهم خيالًا، وأغزرهم بيانًا، وأقواهم منطقًا، عالج مسألة الشقاق الحضرمي في المهجر، وله في ذلك قصائد عدة كان لها أثر عند الطرفين؛ لأنه كان لا يتحيز إلى فئة دون أخرى.

من ذلك قوله في قصيدة:

أرى الإنصاف طبكم جميعًا ... متى يا قومنا تتناصفونا
وليس كقلَّة الإنصاف شيء ... يغيظ على أصولهم البنينا
وما نيل السيادة بالأماني ... وما خلقت لقوم عاجزينا
ولكن أمهروها بالمعالي ... تكونوا في الشعوب مسودينا
ولم أر قط أسمج من يمين ... تسيد نفسها قطعت يمينا
ومادح نفسه بالحق يقلى ... فكيف بمادح في الكاذبينا
مضى زمن الجمود فودعوه ... ووافاكم زمان العاملينا
زمان ليس يعلو فيه إلا ... عصامي جرى في السابقينا
وإن لنا مواهب ساميات ... -بني الأحقاف- أدهشت القرونا
ألا فاستعملوها في المعالي ... تنالوا في الورى المجد الأثينا
فقد لعبت بأدوار كبار ... جدودكم الكرام السالفونا
ولو ثقفت يومًا (حضرميًا) ... لجاءك آية في النابغينا

وقال في قصيدة أخرى:

إذ لاح لي شبح انقسام بني أبي ... فيها بحيث تمايل العلماء
فتمثلت لي صورتان: فصورة ... قيد العيون، وصورة نكراء!
بين الشعوب تجد في نهضاتها - ... لعبت بقومي -جهدها- البغضاء
شطوا وغالوا في الشقاق وبينهم ... دين، ووحدة موطن، وإخاء

ظلموا المبادئ إذ أساءوا هضمها ... يا للرجال المحسنين أساءوا!
إن المبادئ لا تفيد ثمارها ... ما لم يجدها الرفق والإغضاء
فتصافحوا بيد الإخاء فإنما ... فوز العشير على العشير بلاء
وضعوا على أقدامكم ما قد مضى! ... ما بينكم ترة ولا أشلاء!
ودعوا السباب فإنه عار بكم ... إن كان يجمل بالكلاب عواء
قد آن أن تشفى الحقود، وتنتهي ... سنة الرقود، وتنبذ الأهواء
فإلى متى تبقون في حال لها ... يبكي الحليم وتضحك السفهاء؟

وهو شديد الإيمان بالوحدة العربية، وتكاد لا تخلو له قصيدة من هذه الروح، ونكتفي بأن نسوق للقارئ مثالًا لذلك في رثائه للملك فيصل بن حسين ملك العراق:

حائط العرب على العرب انهدم ... فعلى العرب سلام في الأمم!
طويت لما انطوى (فيصلها) ... ما بقاء الجيش من بعد العلم؟

ومنها:

ليت شعري سامع أسئلتي ... أنت؟ أم في مسمع الموت صمم؟
فيم ودعت - على أجراحها ... أمة العرب ولما نلتئم؟
فيم غادرت بني قحطان في ... مرجل يغلي، ونار تحتدم؟
ذلكم (فيصل) أبكوه وقد ... غاب عنكم شخصه والروح لم
من إذا ما عزم الأمر مضى ... وإذا ما أبصر الرأي عزم
وإذا ما قدمٌ زلت به ... وقام يمشي -غير وانٍ- بقدم
وإذا ما وقف الدهر مضى ... وإذا ما عبس الدهر ابتسم

ولما كان في الحجاز وضع أقصوصته الشعرية التمثيلية (همام، أو في عاصمة الأحقاف) عالج فيها وجوه الإصلاح في بلاده، وانتقد فيها العادات السيئة، والجمود

المخيم، وتهكم فيها بالدجل والتخريف، وقد طبعت بمصر سنة ١٣٥٣هـ.

ونورد فيما يلي نموذجًا من شعره الفني، ونظن أن هذا يكفي لإعطاء القارئ صورة مصغرة عن هذا الشاعر الشاب الذي لم يتجاوز بعد العقد الثالث من عمره:

بين الهدى والهوى

في طلوع الفجر الوليد على الكو ... ن، وإيـــذان لـيـلـه بـالـهـروب
وهبوب الأنفاس من رُدْني الصبح ... بـــروح يـحـيـى الـنـفـوس وطـيـب
رن في مـسـمـع الـكـون أذان ... قـدسـي الـتـرجـيـع والـتـثـويـب
سال -حتى عم الفضاء- حنانًا ... ذائـبًـا في شـعـاعـه الـمـسـكـوب!
خالـقًا عالـمًا من النـور والفتنة ... والـسـحـر والـجـمـال الـغـريـب
رعشات من الغناء السماوي (م) ... تخطَّى الأسماع نحو القلوب!
إنـمـا الـديـن الـحـق فـنٌّ طـهـور ... قـد سـمـا في مـعـنـاه والأسـلـوب!
وقـف (الـشـاعـر) الـتـقـيّ يصلي ... في خشوع لـذى الـجـلال المهيب
فـرحًـا قـلـبـه يـطـيـر اسـتـنـانًـا ... في مـجـال مـن الأمـانـي رحيب
مطـمـئـنًـا لـو انـه احـتـرق الـكـو ... ن جـمـيـعًـا مـا مـسـه بـلـهـيـب!
عامرًا بالهدى يكاد يرى الله (م) ... بـعـيـنـيـه فـهـو جـد قـريـب
رب! لم لا تـراك عيني؟ ألا تبـ ... ـدو لـعـيـنـي عـبـد إلـيـك منيب
كلف بالجمال يصبو إلى المنـ ... ـبع بـعـد الأنـبـوب فـالأنـبـوب!
فاطو عني الحجاب تشهد جفوني ... لـمـحـة مـن جـمـالـك الـمـحـبـوب
مـر في سـمـعـه حـفـيـف لـسـهـم ... نـاشـب في فـــؤاده الـمـنـكـوب
ما وعى السمع أو درى القلب إلا ... بـعـد حـيـن مـن وقـعـه والـنـشـوب

من رماه؟ وأي نصل وعن أيّـ(م) ... ـة قوس رمى؟ وفي أي حوب؟
ولوى الجيد يسرة فإذا هو ... بمثال من الجمال النجيب
قمر طالع عليه من الشر ... فة يرنو إليه كالمذهوب
لفتته الصلاة نحو المصلى ... فادَّراه بكل سهم مصيب
رب! ماذا أرى؟ ألمحة نور ... منك، أم وهم ناظر مكذوب؟
أم ملاكًا بعثته بقبولي ... ونجاح المؤمل المطلوب
رب! قلبي صبا إليه! كأن لم ... أك في موقف الصلاة الرهيب
إين ولى اطمئنان نفسي! ومن لي ... بخشوعي إليك والترحيب
رب! حل الهوى محل الهدى في الـ ... ـقلب، ويلاه! رب عاف الذي بي!
وانتهى من صلاته وهو يهذي ... بضلالات شعره والنسيب!
«ألهميني وحي الجمال! فعهدي ... بشهود الجمال غير قريب
إن تكن نظرتي لوجهك ذنبًا ... فالتياعي كفارة لذنوبي
وابعثي لي -لتدفئي بردائي- ... وقدة من ذراعك المشبوب!
واصبحيني من خمر عينيك كأسًا ... تنف عني متاعبي ولغوبي
وابسمى لي -والابتسام يسير- ... تبتسم لي الحياة بعد قطوب»
«هي لغز يحلو التأمل فيه ... لحكيم وشاعر وأديب
هي في لبسة التفضل حسنٌ ... من يد الله، ليس بالمجلوب
يا لها حلوة عليها من النو ... م بقايا تثاؤب محبوب!!
وبأهدابها خيوط ضياء ... علقت من أحلام ليل عجيب!
مرسلًا شعرها على غير ترتيـ ... ـب ولكن أحلى من الترتيب!
خط في خدها الوساد -سعيدًا- ... آية من بدائع التذهيب!

وأذاع النسيم عنها بلاغًا أفعم الجو من أريج وطيب
إن طيبًا في الحق ليس كطيب مرسل من غلائل وجيوب
بكرت تنضح الشجيرات بالما ء فينعمن بالبنان الخضيب
وفؤادي أحق بالري منهن (م) فهلا تمده بذنوب!
وقفت وقفة الدلال أمامي تتلهى في كفها بقضيب!
أرسلت كهرباءها فتمشت في عروقي بهزة ولهيب
فكأنا (قطبا عمود) ترى التيـ ـيار فيه من جيئة وذهوب
(بين جهدي وجهدها أبدًا فر قٌ) فما إن تكف عن تعذيبي
أيها (السالب) الجميل حنانيـ ـك ترفق بمهجة المسلوب»
واستهل الصبح الجديد على الكو ن مُلقى بالبشر والترحيب
وأتى (الشاعر) الصلاة بقلب شاعر بالملام والتثريب
مستتيب إلى الإله يُرجى عفوه عن ضلاله والحوب
فدوى في أعماقه رجع صوتٍ كصدى الرعد أو دويّ النوب
كيف يقوى على سنا (الرب) قلب جُن لما رأى سنا (المربوب)؟
والكمالات لا تناهى لدى الله فلا بد من بقاء الغيوب

النثر

النثر في حضرموت سواء القديم منه أو الحديث قديم في أسلوبه وخياله بسيط في أغراضه ومعانيه، ولم ينل حظًا كثيرًا، ولا قليلًا من التطور الذي ناله الشعر، وملكة النثر عند الحضرميين ضعيفة، وروح الكتابة خاملة كل الخمول، إذ ليس هناك صحف ينشرون فيها المقالات، ولا أحزاب سياسية يؤيدون خطتها، أو يحطون من قدرها، ولا نواد يتبارون فيها بإلقاء الخطب أو المحاضرات، ويبدون ما يجول في عقولهم من الآراء والأفكار، فالظروف المحيطة بهم لم تساعدهم على تقوية ملكة النثر، ولم تهيئهم للبروز في هذا الميدان الفني الخطير، ولكن نجد كُتَّابًا منهم في المهجر في إندونيسيا، فقد ساعدتهم الظروف هناك إذ وجدت لهم صحف عربية ينشرون فيها ما يكتبون، ونواد يلقون فيها المحاضرات، وكانت النتيجة من النزاع بين القديم والجديد، أو بين الأفكار العتيقة والآراء الحرة أن وجد حزبا الإرشاديين والعلويين، كل منهم يؤيد حزبه، ويجاهد بالفكر والقلم لتبيان صلاحية مبدئه للمجتمع الحضرمي، فكان ذلك من أعظم الأسباب التي شحذت أفكارهم، وأيقظت أذهانهم، وهذبت إنشاءهم، وأمدت نثرهم بشيء من روح الكتابة الفنية الحديثة.

اللغة العامية

واللغة العامية منشرة انتشارًا عظيمًا في الحواضر والبوادي بين جميع طبقات الشعب المتعلمين منهم والأميين، ولكنها على وجه العموم أقرب إلى اللغة الفصحى منها إلى العامية المبتذلة، هذا بالنسبة للغة العامية بمصر والشام والعراق

والمغرب، فهم يثبتون النون في الأفعال الخمسة سواء المذكر منها أو المؤنث إلا المثنى، فيعبرون عنه بصورة الجمع، وهناك كلمات عربية صحيحة كثيرة جدًا، ولكن طرأ عليها بعض تغيير في النطق، فهم يفتحون الحرف المكسور مثلًا أو يضمونه، فكلمة الحُزن ينطقونها الحَزَن بفتح الحاء والزاي، والجُهل بضم الجيم، وينطقون حضرموت بضم الميم لا بفتحها، والحضارم يعبرون عن كاف المخاطبة بالشين، فيقولون مثلًا هذا ثوبش أي ثوبك، ولعل ذلك من بقايا لغة بني أسد، وهم يبدلون حرف التسويف بالباء، فيقولون مثلًا: في الشهر الآتي باسافر إلى جاوة، أي سأسافر، وإذا أرادوا نفي شيء يقولون (ما هو) هذا ما هو طويل، أي ليس بطويل، ويعبرون عن الشيء الجميل بكلمة (زين) كما هو الشأن في العراق، فيقولون هذا الشيء زين، أو ما هو زين، وكلمة (عيف) أي قبيح أو رديء هي الشائعة عندهم وهم يستعملون (جم) بدلًا من جدًا، فيقولون: طويل جم، و(لي) تقوم عندهم مقام الأسماء الموصولة سواء المذكر منها أو المؤنث، والمفرد أو المثنى والجمع، فيقولون (لي جاء) أو (لي جاءت) أو (لي جاءوا).

وتختلف اللهجة في البوادي، أو ما يشبه البوادي كدَوْعَن وعَمْد ونَهْد وغيرها عنها في الحواضر، كبلدان السواحل وحضرموت الوسطى من الفُرْط غربًا إلى عِيْنات شرقًا، ففي البوادي تجد الخشونة تسود كل الكلمات، وكثيرًا ما يستعينون بحركات الأيدي في التعبير لإيصال المعاني إلى ذهن السامع، ويتكلمون بسرعة وبصوت عال، وإذا مررت بمجلس من مجالسهم خيل إليك أنهم في معركة، وذلك لأنه قد يتكلم اثنان أو أكثر من اثنين في آن واحد، أما في الحواضر ففي كلامهم مسحة من الرقة والسلاسة، ومن عيوب الحضريين أن كثيرًا منهم ينطقون الجيم ياء في التخاطب دون الكتابة، وقد بدأت الكلمات الملايوية تتسرب إليهم لكثرة مواليد جاوة هناك، فكلمة إزار يقولون عنها سارونق وتوًّا تروس.

والشعراء باللغة العامية كثيرون جدًا في الحواضر والبوادي، وأكثرهم يقولون الشعر ارتجالًا، وأشعارهم تمثل الحوادث وتصف الأبطال وما قاموا به من الأعمال العظام وما أشبهها بالشعر القصصي، وقد تشمل أشعارهم الهجو والتعبير لإثارة الحمية وإيقاظ الفتنة أو للأخذ بالثأر، وقد تشمل النصائح والمواعظ، وتشمل أيضًا الغزل، ولبعض شعرائهم أمثال ابن زامل، وعمر باعطوة، وعبدالحق الدَمُّوْني، ويحيى عمر اليافعي وغيرهم صفة الخلود، فأشعارهم وأقوالهم تتلى من أمد بعيد إلى اليوم، ولنأت بنماذج من الشعر باللغة العامية:

قال عمر بن محمد باعطوة يحيِّي السائح الألماني ليوهرش[1]:

يا الله يا رباه يا جزل العطا ... يا منطلع لحوال لي مسروره
اغفر ذنوبي يا مجيب الداعي ... يا منشئ البارق وخصب ثغوره
في ساعة الحسبة تعاون عبدك ... على الشهادة يجيبها تسبوره
ولا يفزعنا نكير ومنكر ... إذا عظامي في الترب مقبوره
يقول باعطوه ضوانا طارش[2] ... من الولاية شاهره مشهوره
هو هرش من سلطان قوم الجرمل[3] ... له البيارق كلها منشوره
يلا[4] أصبحوا بآلاتهم وأقوامهم ... تفقع له الخانات والدندوره

(١) جاء ليوهرش Leo Hirseh حضرموت سنة ١٨٩٣م، ونشر رحلته في كتابه سنة ١٨٩٧م بعنوان: (Sud – A rabien Mahera – Land und Hadramut)، وقد استمر سنة في طريقه إلى داخل البلاد وقد ذهب من عدن إلى الشِّحْر، ثم إلى سَيْحُوت فقِشِن ثم إلى المُكَلَّا، وهنا خانته شجاعته وآب إلى عدن، ولكنه عاد ثانية مزودًا بحماية الحكومة البريطانية إلى المُكَلَّا، وهو أول أوربي وقع نظره على مدن شِبَام وسَيْئون وتَرِيْم.
(٢) أتانا ضيف.
(٣) جرمر.
(٤) إذا.

يـلا مـراكـبـهـم تـخـوض الـغـبـه | يـا طـارف ارفـع يـلا نفخ طنبوره
أهـل الـمـنـاور لـي[1] ثمنها غالي | مـنـتـحـسـه والـقـوا عـلـيـهـا نـوره
ذا فيك يـا مـولى خيـول صوافن | ذي فلك من ضرب الخلص مقدوره
وأنـت عمود الـبـاب وأنـت السده | وأنــت قــوام الـبـاب والـتـيـسـوره
خـرج لـوادي حضـرموت يطوفه | فـيـه الـقُـعَـيْـطي ينكر الـمـنكوره
عـزك ورحـب بـك صـلاح محمد | ودولــة الـجـرمـل تـبـا[2] تستوره
وبـعـد يـا عـاني بـخـط مسطر | للصاحب اللي[3] له بلد محزوره
والـتـرجـمـان أنـشـد عليه وقـل له | لـبـر بـيـع مـعـرفـه ومـنـشـوره
يشير مـن لـه في الـريـاسـة مدخل | هـرش الـذي هـي زائـدات حـزوره
ذا لي حصل واعـذر عمر باعطوه | نـقـاد يـافـع في الـفـتـن مـذعـوره

وتتجلى النغمة الموسيقية في شعر باعطوه، وذلك لأن أكثر أشعاره تقال في الأغاني الشعبية لا سيما تلك الأشعار التي تصف الحروب بين يافع وآل كثير والتي لها علاقة بالغزل. وآل باعطوه وهم ينتسبون إلى بني هلال أشهر قبيلة في حضرموت تعشق الطرب وتحترف به.

وقال أبو بكر بن شهاب يرثي السلطان عوض بن عمر القُعَيْطي:

سبـحـانـك الله يـا قـيـوم يـا كـافي | يالمنفرد بالبقا يا دايـم السلطان
حكمت بالموت ما في وعدك اخلافي | وكل من هو عليها غير وجهك فان
ساويت بين الخلايق ناعل وحافي | ما باقي إلا أنت وحدك يا عظيم الشان

(١) التي.
(٢) تريد.
(٣) الذي.

نطلبك يا ذا الكرم يا عالم الخافي تصفح عن الذنب يا تواب يا منان

إلى أن قال:

نــاول كتابي رفـيـع الـرتـبـة الـوافي سامي المنازل عظيم القدر عالي الشان
راقي سرير الرياسة كفوها الكافي غالب خليفة عوض سلطان بن سلطان
بو صالح الصقر فوق الجيش هفافي نزاع الارواح ذي تعصيه في الأبدان
وصالح السيف ما في وعده أسوافي شبل الليوث الضواري مقصع العَمْدان

إلى أن قال:

بـمـوتـه اهـتـزت الـبـلـد والأطــرافي وبات ساري ينعيه مركب الدخان
والخلق ضجت ولجت بالتلغرافي إلى الملوك الذين في روسها التيجان
سرح عوض بن عمر قفاز الانوافي بيت الحروبه وملجى حجرها الرشان
ضجت عليه الملا وكـل الاصنافي قريبها والبعيد الـنـازح الأوطـان
والـسـادة أهـل المعارف والتعفافي عالم ومنصب وشيب القوم والشبان
والعلم واهله شوافعهم والاحنافي واهــل الـمـنـابـر خيمت الأحــزان
حــزن يـافـع عـلـى هــزاع الاشـنـافي إذا قدم قبلهم ناطح جبل شمسان

إلى أن قال:

شديد بأسه على عاصيه والجافي رحيم قلبه على من جانب العصيان
يكرم ويطعم ويتحنن على العافي ويجبر المنكسر خاطره والقصران
يبلغ مــراده ويـأمـن كـل مختافي إذا التجا به ولو هو في حنك ثعبان
قسمه من العزم والهمة وقع وافي سـوس ممالك قويه ثابتة الاركـان

وقال الشاعر النهدي علي أبو زيد القانص القصيدة الآتية تحية لجلالة مليك العرب عبدالعزيز آل سعود:

أبـدا بمن سخر جميع السحائب   بين السماء والأرض تسمع رعودها
ويـاكـم لـه فيما خلق مـن عجائب   وآيات بصخر من كفر عن جحودها
ورتـــب عـبـيـده كـلـهـم في مـراتـب   ذا في أسفل الدنيا والآخرة عمودها
راجيـه يكفيه جميع المصائب   ويغفر ذنوبي ليلة أمسي لحودها
وصلوا على من نال خير المراكب   جبريل للبيت المقدس يقودها
المصطفى حبيب رب الحبائب   مولى الشريعة ذي وثيقة عهودها
وثم قال من قد بات ذا الليل غائب   عـن هـذه الـدنـيـا وفـاقـد نفوذها
يحكم قـوافـيـه في الـشـعـر راغـب   قوافيه عجيبة ما تخطئ حدودها
وهاجسي لتهيص يجيب الغرائب   لأنـا عـلـى بـوزيـد شـاعـر نهودها
بامدح وباثني على الكرام الأطايب   لي هـزوا الدنيا وحلوا نجودها[1]
إخـوان من طاع العزيز المحاسب   وسيوفهم في الحرب تروى حدودها
هم فرقة التوحيد خير المذاهب   أمة على التوحيد يصعب صدودها
قـانـونـهـا الـقـرآن لـي بـه تخاطب   لا هي من الرفضة ولا من زيودها
يسوسونها فرسان خير المناسب   إذا شـاب فيصلها تولى سعودها

إلى أن قال:

وعبدالعزيز الـرأس له رأي صائب   هـو لـي قـيـدهـا ويـطـلـق قـيـودهـا
رجل الشجاعة والدهاء والتجارب   يعرف يصدر لها ويحكم ورودها
يـغـالـب بـأمـر الله والله غـالـب   وأمـتـه في طاعته بلغت جهودها

(١) يشير إلى النجديين.

الأغاني الشعبية

والأغاني الشعبية منتشرة في الحواضر والبوادي، وأكثر ما تظهر أيام الرخاء حيث تهدأ الهواجس وتطمئن الخواطر، وللحوادث المحلية دخل كبير في إبراز الأغاني وإذاعتها بواسطة الأفراد المتنقلين من مكان إلى آخر، فنزول الأمطار بكثرة، وقدوم السيل، وما ينتج عنه من خير أو تخريب، والإصلاح بين المتحاربين، وانتشار الأمن، والسلام بعد الخوف والجزع، والقيام بالمشروعات النافعة العامة، والكرم، والعدل، والبطولة، والمروءة، كل ذلك يخلق أغاني شعبية يتغنى بها الرجال والنساء والولدان، وكل الأشعار التي تقال للأغاني عامية، ولكنها تمثل عواطف قائليها وأحاسيسهم بوضوح تام، والنغمات حلوة عذبة ومتجددة في حضرموت الوسطى (حدرى)، ولكنها في غير هذه المنطقة تسودها الخشونة والتذبذب، وتكاد تكون الأصوات ذات نغمة واحدة والتجديد فيها غير محسوس.

ونورد هنا بعضًا من الأشعار العامية التي تقال للأغاني السائرة:

«بَلرْبِيْدَانْ تَحْتَ الطّسْ مَحْوِيْ، وين لِي هُمْ يحبون الفضيلة. وادي العين يا حيا مسيره».

وبلربيدان: أحد كبار المرابين كان يسكن دارًا على مقربة من وادي سَرْ، وصادف أن جاء سيل عظيم (سيل لكلين) سنة ١٣٣٥هـ، وأحاط الماء بداره من كل جانب، وأخذت الجدران تتداعى للسقوط، فاحتضن بلربيدان الطس، وهو القدر الكبير، وكان مملوءًا بالنقود التي ادخرها، لئلا يكتسحه السيل، فيصبح فقيرًا، ولكن البيت انهدم عليه، فالقائل يسأل الناس أن ينتشلوا جثة ذلك المسكين من تحت الأنقاض.

وقال آخر:

«وش يَصبِّرَكْ منْ خلك خَمْسَة أَيَّامْ مَحْسُوبَهْ: ليلة السعد معروفه».

فالقائل يصرح بأنه من الصعب أن يغيب الشخص عن حبيبته خمسة أيام.

وقال آخر:

«ريتنا قَعْ شَارِحِ المجراف، بَاتْكِيْ على السَّعَفْ وَبَانْقُرِ الْمِقْرَافْ، وَبَاقُزِّ الْفَرِيْح وَالْقَبَرْ فِي نَحْرُهُ: يا شعب الخضيرة ريتنا حِلُّه».

وهذا نوع آخر من الغزل، فهو يشبه حبيبته بالمجراف، وهو أحسن أنواع النخل، ويتمنى أن يكون على مقربة منها لينال منها وطره، ثم يموت بين يديها شهيد حبه.

وقال آخر:

أَلَا يَا طَيْر يَا لَخْضَرْ، فين ممساك الليلة، أَنَا مَمْسَايْ عند أهلي، وَانْتِهْ مَمْسَاكْ بالسيله.

هو يخاطب حبيبته التي شبهها بالطير الأخضر، وهو أجمل الطيور التي تأتي في الربيع، ويسألها في شيء كثير من التواضع أن تبيت عنده.

هذه هي أربعة أصوات من الأغاني الشعبية، وكلها أصوات (حدرية)، وكنّا نريد أن نكتبها بالنوتة الموسيقية ليفهمها غير الحضارم، ولكن ليس في استطاعتنا ذلك.

الرقص

وآلات الطرب في حضرموت لا تتجاوز العود والمدراف والمزمار والطبل الصغير (المرواس)، والطبل الكبير (الهاجر)، وتتألف الفرقة من واحد إلى خمسة، وهم يغنون بصوت واحد، وعلامة الإعجاب عندهم قول: (الله) مع مد الصوت كما هو الحال في مصر، وقد يضيفون إلى لفظ الجلالة كلمة (وَلَك) مرتين، وعند ختام الغنوة أو الدور يقولون للمطرب (أحسنت)، وهم لا يصفقون للمطربين لإظهار سرورهم منهم سواء عند الابتداء أو الانتهاء. ويختلف الطرب عند النساء عنه عند الرجال، فعند النساء تتألف الفرقة الموسيقية من مطربة واحدة تغني على ضربات الطبل الذي تحمله بين يديها، وجل ما تقوله المطربة من الشعر مدح العريس والعروس، وأشهر المطربين أو المحترفين بالطرب، هم آل باعطوة وآل بطيق، وعليهم تتوقف حفلات الزواج وغيرها، وهم يتناولون في مقابل ذلك أجرًا قد يكون كبيرًا.

والرقص يخالف في أكثر مظاهره الرقص الأوروبي الحديث، وكذا الرقص الشرقي المعروف بهذا الاسم في مصر، فهو في حضرموت نحو ثلاثة أنواع:

الأول: ويقال له (الزفين)، وهو أن يرقص (يزفن) اثنان على نغمات الطبول والعود، ويتجهان في رقصهما إلى المطربين دون أن يتماسكا، ثم يعودان إلى الخلف مسافة خمسة أمتار تقريبًا، ثم يتجهان أيضاً إلى المطربين، وهكذا حتى ينتهي الدور، أما المتفرجون فيجلسون على شكل مستطيل، وبينهم فسحة واسعة

للرقص، وهذا النوع أحسن أنواع الرقص إذ عليه مسحة من الفن الجميل ويحتاج إلى شيء من المهارة.

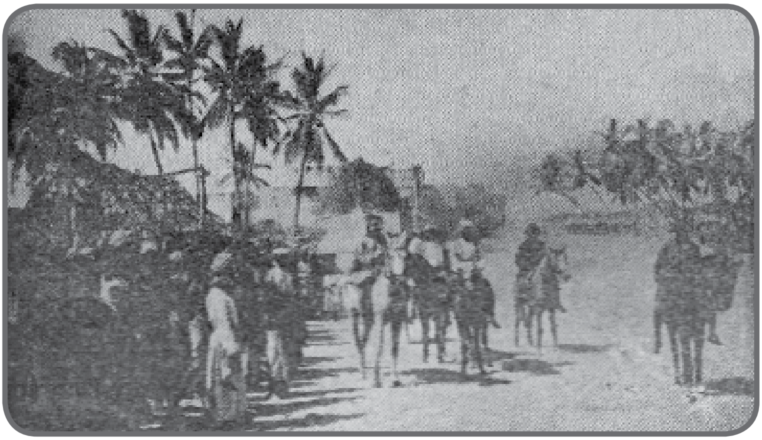
الثاني: يقال له (الشَّرحْ)، ويستعمل له طبل واحد فقط، ويقف المتفرجون على شكل دائرة كبيرة، ويصفقون تبعًا لضربات الطبل، ويغنون أغاني بصوت مرتفع جدًا، وفي وسط الدائرة يرقص اثنان قد يكون أحدهما امرأة، فيمسك كل منهما يد الآخر ويرقصان وجهًا لوجه محاذيين محيط الدائرة، وهذا النوع منتشر في البوادي أكثر منه في الحواضر، وهو محبوب عند العبيد، ويتفرع من هذا نوع آخر يقال له: (الدحيفة)، ويوجد بكثرة في دَوْعَن وعَمْد وواد العين، وهو لا يختلف كثيرًا عن النوع الثاني في مظاهره.

الثالث: هو المسمى (البَرْعَهْ)، وهذا لا تلقى فيه أغاني، وإنما تضرب الطبول المسماة: (الطيالة)، ويقف المتفرجون على شكل دائرة كبيرة، وفي الوسط يرقص اثنان أو أكثر من اثنين مشهرين الخناجر (الجنابي)، ويتجهون في رقصهما اتجاهات حلزونية.

الشبواني

ويوجد نوع آخر من الألعاب يقال له لعب الشبواني، ولا تستعمل فيه شيء من آلات الطرب، ولكن يتبارى فيه الشعراء، ويرتجزون الشعر بحماسة شديدة، ويتناول ما يقال من القصائد المدح والهجو وسياسة الحكم ونقد الولاة، فالشبواني عبارة عن مدرسة يتعلم فيها الناشئون الشعر ارتجالًا، وهو من أكبر العوامل لسرعة البداهة، وشحذ الذاكرة، وتقوية ملكة الشعر.

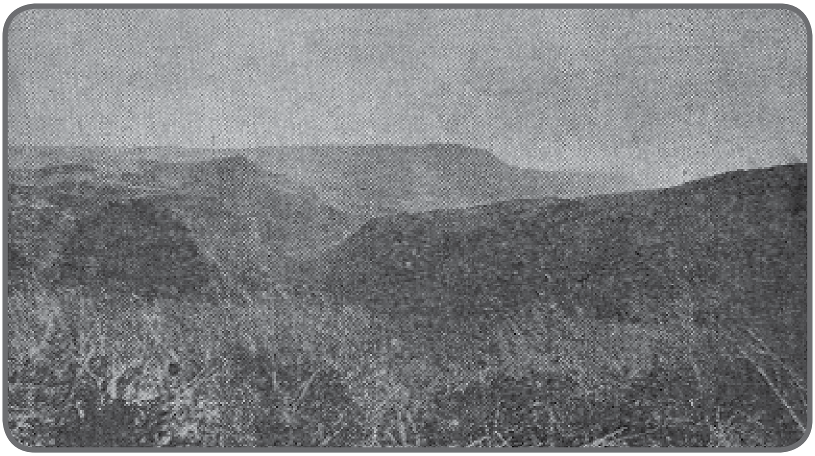
ظَفَار



مدينة ظَفَار

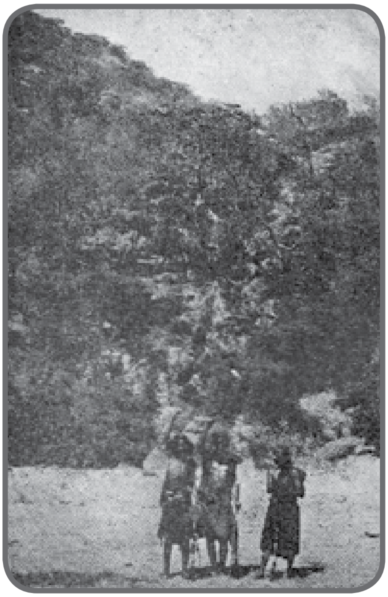
يمتد إقليم ظَفَار من سَيْحُوت غربًا إلى حدود عُمان شرقًا، وهو عبارة عن هضبة يبلغ ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم، تتدرج نحو الشاطئ شرقًا وغربًا، وتتراجع في الوسط فتضم بينهما سهلًا يشبه في شكله الهلال، وتهب على هذا الإقليم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية صيفًا، فتلطف مناخه، ويسقط المطر على الجبال فتفيض خيرًا ورخاء، وفوق هذه الجبال تنمو أشجار الكندر الذي تشتهر به بلاد العرب ويصدرونه إلى بلاد الهند ليستعمل في معابدها، ويحصلون بدله على الأرز والأقمشة والبن والطيب، وهو مصدر ثروة ظَفَار منذ أمد بعيد، وعلى الرغم من أن هذه الجبال تكونت هي وجبال حضرموت في عصر واحد، وهو العصر القديم، فإنها تخالفها من نواحٍ جمة، فهي هنا مقوسة الشكل تنحدر إلى الساحل وإلى

الداخل تدريجيًا، وتضم بينها وبين الساحل سهلًا واسعًا، والصخور الجيرية تكاد تكون مفتتة مختلطة بالرمل، وتشقها وديان طولية وعرضية، وتكسوها الأعشاب، تتخللها أشجار كثيفة.



جبال قرا

وجبال قرا تبدو كأنها مأوى طبيعي للأقوام النازحين قديمًا الذين هاجروا تحت ضغط شعوب أكثر رجولة وشدة منهم نحو الجنوب أو الشرق، أو هوجموا من ناحية البحر، ويا لروعة هذا البقعة من الأرض! جبال طاعنات في السماء ترتفع إلى أكثر من ثلاثة آلاف قدم تشارف محيطًا يقع في المناطق الحارة، ومنحدراتها نحو الشاطئ أرجوانية ملأى بالأجمات، وذراها زكية بالمراعي الصفراء، ومن بعدها تنحدر الجبال نحو الشمال إلى منطقة الإستبس، رمالها حمراء، وتكثر هناك الصخور الحمراء، يزيد ارتفاعها عن ثلاثمائة قدم، ومقدم الصخور قد حفرت فيها الطبيعة فجوات، ويكثر في هذه الجبال الضباع، والذئاب، والأفاعي، وغيرها من الزواحف، وكثير من أنواع الطير، والفراش والحشرات والماء موجود بكثرة أغزر مما هو في إقليم حَجْر، فالعيون التي تكوِّن النهيرات منتشرة في الأودية.



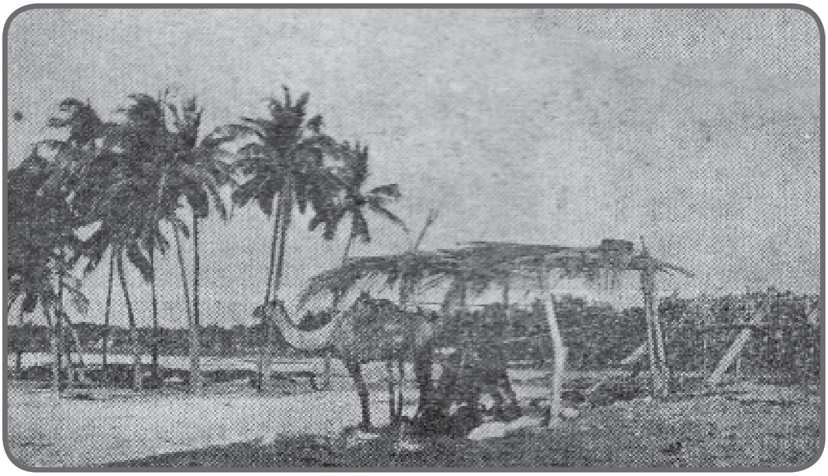
أجمات في قرا



نهير في جبل قرا

وأشهر هذه النهيرات نهير الريزات، وينبع من كهف في بقعة مسطحة من المدرج الجبلي على بعد ميلين من بلدة العود، ويتدفق ماؤه في بركة متسعة تحف بها أشجار البوص في ارتفاع الإنسان، ويلقي الأهالي في هذا النهير بعض الأطعمة، وهي تمثل لديهم أرواح أسلافهم، ويقولون: «نحن أبناؤكم وبناتكم لا تلحقوا بنا أي أذى واطردوا عنا الأرواح الشريرة»، ولهذه العادة خرافة شائعة فحواها أنه في عهد ولاية سليمان بظَفَار تقاتل بيت زيان، وهو فرع من قبيلة الشحاري مع بني قرا على رمي الضحايا والنذور في تلك المنطقة، واحتكموا لسليمان فقضى بأنه سيمدهم بالمواد اللازمة لعمله، ويصبح للحكومة نصيب في غلة الأرض، ولما حارب بني قرا حرضوا عليه أجدادهم (المتمثلين في ماء النهر)، فأصبح النهر يسير إلى أعلى الجبل، فجف السهل ولم ينبت شيئًا، فخسرت الحكومة. وتحدث في هذه البقاع خزعبلات كثيرة ترجع إلى أصل وثني، ففي جُرْبيب مثلًا يطاف قبل الحصاد ببقرة حول الحقول، ثم يذبحونها ويريقون دمها في ماء الجدول، ثم يقطعونها إربًا ويرمونها في وسط الحقول.

والماء العذب متوفر حول المدن على عمق قامة من سطح الأرض، ولولا منافسة القبائل لحفرت الآبار الارتوازية تجعل السهل جميعه نضيرًا، ويستخدم العبيد أو الثيران أو الجمال لرفع الماء من الآبار لري حقول القصب والقمح والذرة والقطن والنيلج، وتستولي الحكومة على جزء من ستة عشر من المحصول كضريبة في السهل، وعلى جزء من خمسة من محصول الجبل، ولكن قرارات الحكومة لا تسري على أهل الجبل تمامًا.



مزارع في ظَفَار

وتقيم في هذا الإقليم قبيلتان: بنو قرا أو القريون في الجبال، وتعيش على الرعي وزراعة الكُندر.



شجرة الكُندر

وبنو كثير في السهل، وتعيش على صيد السمك والزراعة والتجارة، وفي فصل الصيف الممطر عندما تتعذر الملاحة بسبب الأعاصير يصعد أهل السهل إلى

الجبل لحصاد الكندر، والقبائل في نزاع مستمر، والفوضى ضاربة أطنابها في طول البلاد وعرضها، تتخللها فترات قليلة من الحكم القوي، وليس للبلاد تاريخ مدون، والجهل متفش بين الناس بحيث لا تجد شخصًا يقص عليك ولو طرفًا مشوهًا من تاريخ بلاده إلا الكهول. وعامة الناس مشاغبون محبون للحرب، والقبائل متنافرة متنافسة، ولهذا كان النظام والقانون أشق الأمور، فالناس هناك يحبون الحرية الشخصية التي لا تعرف قيودًا أكثر مما يحبون الحياة، ولم يخضعوا لحكومة غريبة عنهم إلا بعد معاناة الأمرَّين، وبعد أن استنفدوا كل مجهوداتهم في مقاومتها. يبدأ تاريخ ظَفَار فيما بعد الإسلام بحكم محمد بن أحمد المنجوي، وما زالت بقايا عاصمته الدارسة قائمة في خوروري، وهو اسم قديم لا يتداول إلا على شفاه هؤلاء الناس، وهم يعزون كل تخريب في البلاد إليه.

وخلفه سالم بن إدريس الحبوضي سنة ٦٩٧هـ و١٢٧٩م، وأصله من حضرموت. وفي القرن السادس عشر حكم البلاد سيف الإسلام الغساني، وهو من صنعاء اليمن، وكانت قلعة بَلِدْ مقر حكمه، وهي اليوم أفخم مخلفات سهل ظَفَار. وبعد قرن من النزاع بين القبائل حكم شخص من بني كثير. تلاه عصر لا يعرف عن تاريخه شيء اللهم إنه استمر طيلة القرن الثامن عشر. ثم حكم شخص آخر من العلويين عشرين سنة في أوائل القرن التاسع عشر، حتى قتله بنو قرا.

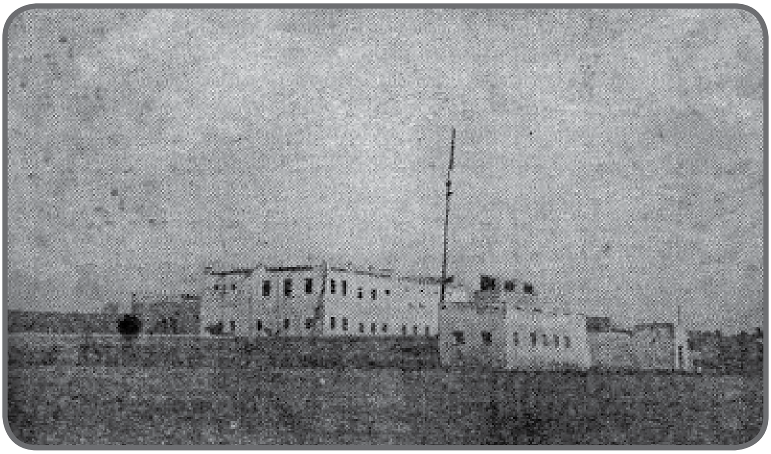
وفي سنة ١٢٩٨هـ قدم شخص يُدعى فضول بن عليوي، وهو حضرمي الأصل، وادعى أنه موفد من قبل الحكومة العثمانية ولكنه طرد، فوجه أهل ظَفَار أبصارهم إلى البيت الحاكم في مسقط ليحكمهم أيضًا، وقد استقر الحكم نوعًا ما بالنسبة للبلاد الأخرى، ولو أن أسسه قد وضعت بالدماء، وهي قصة تستحق الذكر، لا لأنها تكوِّن جزءًا من التاريخ الحديث فحسب، بل لأنها تلقي ضوءًا على نفسية الحكام والمحكومين في ذلك الصقع النائي من بلاد العرب.

كان سعيد تركي بن سعيد جد سلطان مسقط الحالي هو الذي طلب إليه أهل ظَفَار حكمهم، وكان له عبد اسمه سليمان بن سويلم كان قد عينه قائدًا لجيوشه، وهو أمر مألوف في بلاد العرب، وكانت له شهرة واسعة بين قبائل عُمان، إذ اشتهر بالشجاعة والإقدام وشدة المراس، وهو خير كفء لحكم بلاد مضطربة كظَفَار، ولذلك عينه تركي واليًا عليها، وقد أتى سليمان على رأس فئة مكوَّنة من ١٨ جنديًا وضم إليها شرذمة من الأرقاء وغيرهم، واستطاع بذلك أن يستولي على قلعة مدينة سلالا، وهي أكبر مركز تجاري في ظَفَار، ولكن القبائل المتمردة لم ترض عن أحكام سليمان القاسية وجمعه الضرائب، وسرعان ما تذمرت قبيلة قرا، ولو كان شخص غير سليمان لجبن، ولكنه كان لا يعرف التراجع، فظل على صرامته إلى أن قتل بنو قرا أحد جنده غدرًا في حمران، فاضطر لمنازلتهم وانضم إليه بنو كثير وحاربهم، وكانت النتيجة في صالح سليمان، إذ أقسم بنو قرا يمين الولاء وقدموا له ١٠٠ رأس من الماشية هدية، وبالرغم من كل ذلك ظل سليمان يتبع طرقه الإرهابية في الحكم، فمثلًا قتل أحد أفراد القبائل بعد أن عذبه لأنه اعتدى على قافلة حتى يكون عبرة لغيره، فبدأت القبائل تتذمر من جديد، واندلع لهيب الثورة، فاضطر لمحاصرة بني قرا في الجبال بمنع السردين عنهم وهو طعام أساسي للجمال في فصل الشتاء، وبعد ثلاث سنوات حافلة بجلائل الأعمال استدعي سليمان لعُمان، وبذلك نجا من سخط القبائل ونصب بعده ولديه علي وسعد، فانتهز الأهلون فرصة غيابه وعاثوا في البلاد فسادًا، ومن ذلك أن قبيلة كثير دبرت مؤامرة محكمة للاستيلاء على مخازن الحكومة، وهي ملأى بالزبدة والأرز والبلح من الضرائب والعشور، وتنطوي هذه المؤامرة على أن يأتي شخصان من القبيلة يحتكمان إلى الوالي في خصومة بينهما، ويستدعيان شهودًا من القبيلة حتى يغص بهم مقر الحكومة ثم ينفذون المؤامرة، وقد نجحت تمامًا، إذ في صبيحة أحد الأيام جلس علي وسعد عند باب القلعة

وحضر المتخاصمان والشهود، ثم أديرت على الجميع أقداح القهوة، وبإشارة من الزعيم انقض المتخاصمان والشهود على الواليين ومن كان حاضرًا من الجند، لأن أغلبهم كانوا قد انبثوا في أرجاء البلد لقضاء عملهم اليومي، واستولوا على ما في المخازن وهدموا القلعة من أساسها، ولم ينج من الجند إلا عبد اسمه بخيت بن نوبي وأربعون جنديًا هربوا إلى مرباط في كنف صديق لهم من بني قرا، وكان هذا العبد مولى سعيد، وهو أمر عادي أن يشتري العبد عبيدًا له، ولكنه لا يتصرف فيهم بالبيع أو الهبة، وإذا مات أصبحوا ملكًا لسيده، وكان على بخيت أن ينتظر حتى تصل الأخبار إلى مسقط ويأتيه المدد، ولكنه تصرف بذكائه وكياسته فأقنع الثوار بأن خير منجاة لهم انضمامهم إليه، ولم تسمح الظروف لسليمان بالحضور، فبعث السلطان مندوبًا من لدنه على دارعة إنجليزية، فقضى على الثورة، وبنى مقر الحكومة من جديد، وعيَّن بخيت واليًا على ظَفَار، وقد ترك سليمان بعد مقتله تعليمات لبخيت منها: إذا تركت أي رئيس من قبيلة كثير يعيش بعد انتخابه فثق أن رأسك ستقطع. وفعلًا نفذ بخيت تعليمات سيده، فقتل عشرة رؤساء من بني كثير في خلال ولايته لمدة سبع سنوات، مع أن مندوب السلطان كان قد أعلن العفو العام إلا أن الغدر عادة متأصلة في نفوس القوم.

القريون
أصلهم وأوصافهم وعاداتهم

أصل القريين من حضرموت، ولا يعرف بالضبط ابتداء هجرتهم، ويسميهم الناس القريين، ولكنهم يسمون أنفسهم الحقالى، ويسكن هؤلاء في جبال القرا التي تقع في وسط الجنوب من بلاد العرب بين خطي طول ٥١ . ١٠ و٥٦ .٢٠، ويجاورهم من الجنوب الغربي الشمالي الشحاريون ثم المهرة، والشحاريون أعرق القبائل في هذه البقاع وهم اليوم مضعضعون منحلون، لا يحفل بهم أحد، ولا يتزاوج وإياهم أحد، سلالة في قرا يجتثون غاباتهم ويستخرجون مياههم، وأهل قرا كانوا سادة ولا نزاع، والبقايا المبعثرة التي تتخلل بعض أراضيهم كلها أدلة ناطقة على وجود حضارة قديمة، كما تدل الآبار الخربة وأنابيب المياه وبقايا المحاريث على وجود صناعة في تلك الأزمنة الغابرة، كما تدل المحاجر المنبثة هنا وهناك على استعمال الأحجار في البناء إذ ذاك، ويستخدمها الأهلون الآن للزراعة، ويتبع سكان هذه الجبال سياسيًا حاكم ظَفَار



قصر حاكم ظَفَار

ولكن هذا لا يستطيع تنفيذ أوامره فيهم مهما كان من الشدة والصراحة على جانب عظيم.

ولرجال الجبال هؤلاء طابع خاص تمامًا، فشعر رؤوسهم طويل خشن، يقطع أحيانًا عند القمة، ولكن أكثر الأحيان يترك غزيرًا، ولا ينبت لهم شعر في العارضين إلا في طرف الذقن حيث ينبت شعر قليل خشن، وكثيرون منهم لهم وجوه جميلة غير عربية الطراز، وملبسهم هو ذلك الرداء الملون بالنيلة المفصل بحيث يغطي نصف الجسم، ويجمع فوق الكتف، وحول الخصر زنار من الجلد المدبوغ كأنه حزام يوضع فيه خرطوش البندقية، ورؤوسهم عارية إلا من سير من الجلد يحفظ ذؤيبات شعرهم الطويلة من التفكك، وسواعدهم السمراء وأرجلهم فيما تحت الركبة عارية تمامًا، وأغلبهم يلبسون قرطًا واحدًا في الأذن اليمنى، وسوارًا واحدًا فوق الكوع الأيمن، ويماثلون في ذلك المهرة والقبائل المجاورة.

وثروة أهالي جبال القرا تقدر بقدر ما يملكونه من رؤوس الماشية، ويعد من يملك ٢٠ رأسًا متوسط الحال، ولا يحتفظ الناس إلا بالإناث من الأبقار، ويبقون

ثورًا أو اثنين للقطيع كله، وتربى الجمال في الوديان التي بها غابات، ولكن عددها محدود؛ لأنها تحتاج إلى تكاليف باهظة، ومجهودات شاقة، ولا تستعمل النوق الحلوب للركوب غالبًا بل تربى لتنتج الجمال التي تستعمل في نقل البخور من الجبال إلى الشاطئ، ونقل السردين من الموانئ إلى الجبال ليستعمل علفًا للماشية، وقطعان الماشية كثيرة على جبل القُطُوف وفي سهل جُرْبيب وفي إقليم زولول في سفح جبل سَمْحان وهي عادة من الماعز فقط، إذ يكره الجبليون لحم الضأن، ولا توجد كلاب بالمرة، وبها عدد قليل من الحمير، ويربيها الشحاريون وبنو كثير.

والقتل شيء عادي، والعداوات بين آل كثير وبني قرا والمهرة قديمة، فهم لا يعترفون بسلطة رئيس واحد، وتتغير علاقات الأفراد بعضهم ببعض من وقت لآخر، وهم يعتبرون حكومة ظَفَار قبيلة لها شيء من الرئاسة.

ولحكم الحَوْز شأن عظيم عند أهل القبائل، والحوز هو رئيس القبيلة، وهو مختص بفض جميع المشاكل، إذ قلما تلجأ القبائل إلى الحكومة إلا في الأحوال الزوجية، ولا تنفذ الحكومة حكم الشرع إلا في المدن الساحلية، والغدر من شيمة الجبليين.

وفدية القتل تتراوح بين ٤٠٠ - ١٠٠٠ ريال، وفي جبال قرا إذا كان الشخص المقتول فقيرًا جمعوا مبالغ من المال من قبيلة القاتل لمساعدة أهل القتيل، أما الشحاريون والعبيد فلا فدية لهم؛ إذ ليس لهم قبائل تأخذ بثأرهم؛ ولكون هذه القبائل مستقرة غير رحالة، فعندهم نوع من ملكية الأراضي، وهذا ما لا يعرفه البدو، فالأشجار والمراعي، ولو أنها نظريًا ليست لشخص معين، إلا أن كل فرع من القبيلة يختص بملكية جزء منها، والكهوف كذلك يملكها الأشخاص ويتوارثونها ابنًا عن أب.

ويؤدي أهل الجبل فروضهم الخمسة، وهم لا يؤدونها بانتظام سواء في الحركات أو في القراءة بسرعة كبيرة، ويقال إن النساء يؤدين صلاتهن أيضًا، وفي رمضان يصوم الجميع رجالًا ونساء.

والسحر منتشر، وغالبًا ما يقتلون الكهول لاعتقادهم أنهم ما وصلوا إلى هذه السن المتقدمة إلا بمساعدة قوى غير طبيعية، ويعتقدون أن الموت مسبب غالبًا بسحر ساحرة.

وفي هذه الجبال قانون لا يمكن كسره، هو أن يذبح نحو نصف ما يملك الرجل من البقر بعد وفاته كتضحية، وفي حالة الرجل الفقير يكتفى ببقرة أو شاة واحدة، ويضحي الغني بعشرين بقرة (والغني ما زاد ما يملك عن أربعين رأسًا)، وقد يضحي بجمل وبضع خراف، وفي يوم الدفن تذبح بقرة أو بقرتان على القبر، وتتلى هذه الكلمات «دي بي حدكتوس حضيل إرحضيل»، تمر ليلتان وفي الثالثة تذبح بقرة أخرى وهذا يسمى (ختوم)، وتمر فترة أخرى قد تكون أسبوعين وقد تمتد إلى ثلاثة أشهر وبعدها يحل موعد التضحية الكبيرة، وهذه تتألف من عشر أو خمس عشرة أو عشرين بقرة، وهذا يسمى (يوم النحيرة)، ثم يبدأ توزيع الممتلكات بين الأقارب، وفي جبال القرا وفي بيت كثير لا يحصل الدائنون على أكثر من ثلث ممتلكات الميت.

وللميراث في جبال القرا نظام خاص يخالف في كثير من نواحيه نظام الإرث في الإسلام، فهو مرتبط بمراسيم التضحية للميت، والثروة هناك غالبًا محصورة في الأبقار، وفي حالة موت رجل يذبح نصف أبقاره كتضحية، وللدائنين أن يطالبوا بعشر الميراث، وما تبقى يوزع على الزوجات والأبناء والبنات، والزوجات يأخذن العشر. ومن خصائص هذه القبائل البدوية أنه إذا كان لامرأة بنت واحدة أو ثلاث بنات وليس لديها ولد لا يرث أشد الذكور قرابة من أسرة الزوج المتوفى شيئًا، وإذا كان لها بنتان فإنه يرث، ومن هنا يبدو أن هناك معنى خاصًا للرقمين ١، ٣، ويختلف قانون الجبال عن قانون القبائل العربية الجنوبية في نقطة أخرى، ولكنه يتفق مع

نظام الشحاريين، وهذه النقطة هي أن الزوجات ينلن أنصبة متساوية بصرف النظر عن إنجاب الأولاد، والزوجة في هذه القبائل غالبًا لا تترك الحزن على زوجها، والأمهات والبنات والأخوات قد يبكين، وقد يرفعن أصواتهن بالعويل، وعند القريين يرسلن شعورهن ويضربن رؤوسهن ويصببن عليها التراب.

وسكان الجبل يأكلون لحم الضبع أو الثعلب، ويحرمون على أنفسهم أكل البيض والكتاكيت، وحين يمرض أحدهم تذبح بقرة أو نعجة وينثر دمها على كتفي المريض وصدره عندما تكون الشمس مرتفعة في السماء، ولا بد أن يكون الحيوان المذبوح أنثى، وهذه التفرقة في الجنس لا تراعى عند التضحية حالة الموت.

والشحاريون لا يتزاوجون مع غيرهم، ولذا كانت مميزة عن غيرها، ووجوههم أعرض من جيرانهم، ولهم سلام خاص، ونادرًا ما يحملون الغدارة، وهم جبناء يرضون أن ينهبوا أو يتركوا واحدًا منهم يقتل، ولا يحركون ساكنًا للدفاع عن أنفسهم. ويزعم سكان الجبل أن الشحاريين من نسل أولئك القوم الذين قتلوا ناقة صالح عليه السلام، ولذا فهم ينظرون إليهم بعين الاحتقار والإهانة.

والسلاح من مميزات القبائل عن بعضها، فسلاح أهل الجبل يتكون من سيف مقوس ذي حدين وعصا مدببة الطرفين مصنوعة من خشب ثقيل جدًا بحيث يغطس في الماء، ولا ينبت أشجاره إلا في ظَفَار، ويحمل أغنياء القرا غدارة وسيفًا.

والختان عندهم من أهم الأمور، ويختن الذكر عند البلوغ والأنثى في يوم ميلادها، وهذا عكس ما يحدث في بقاع أخرى من بلاد العرب، ففي عُمان يختن الذكر في سن السادسة والأنثى في العاشرة، ويشبه ختان الذكور هناك الختان عند قدماء المصريين؛ لأن الموميات التي عثر عليها في طيبة مختونة، وللختان عند القريين حفلات عظيمة وشعائر لا بد من عملها؛ ففي يوم الختان يجتمع عدد كبير

من الرجال والنساء على شكل حلقة، وفي الوسط يجلس الصبي على صخرة وفي يده سيف، ثم يرمي السيف في الهواء ويتلقاه براحة يده، وأمامه يجلس الرجل الذي يقوم بالعملية وخلفه عذراء. غالبًا ما تكون أخت الصبي أو بنت عمه وفي يدها سيف أيضًا ترفعه وتخفضه وتدق به على راحة يده اليسرى، ثم يقوم الرجل بالعملية والصبي رافع كفه بالسيف، وبعد تمامها مباشرة يقوم والدم يسيل منه ويجري حول هذه الحلقة يرفع السيف ويخفضه، ويحكمون على شجاعته بذلك، وبينما هو يقوم بذلك تدق الطبول وتنشد الأناشيد الحماسية وترفع النساء ملابسهن فيكشفن عن صدورهن، ولكن ختان البنت يحصل سرًّا.

ويترك الصبي خصلة من شعره في وسط رأسه تشبه لباس الرأس عند الهندوكيين، وربما كانت لها علاقة بالخصلة التي كان يتركها قدماء المصريين من أجل حوريس، وتحلق هذه الخصلة في يوم الختان، وبعد ذلك ينمو الشعر نموه العادي ويحلق شعر البنت بطريقة غريبة، وهي حلق منطقة من الشعر وترك منطقة أخرى، وعندما تخطب في سن الثالثة أو الرابعة عشرة يتركون شعرها ينمو نموًا طبيعيًا، وبعد زواجها بشهر لكي تدل على أنها ليست عذراء يستأصل الشعر تمامًا من وسط رأسها بقطع قطعة من الجلد تبلغ ... من البوصة بموسى، فلا ينمو فيها الشعر أبدًا وهي عملية مؤلمة قد تكون عاقبتها وخيمة.

وتطلي النساء وجوههن في أيام الأعياد والحفلات بطلاء ملون أسمر وأخضر وأحمر، فتصبح لوجوههن هيئة مضحكة كما تُطلى حافة الوجه من عند الشعر والذقن والفك والخد بخطوط سمراء دائمة، كما يضعن خطوطًا سمراء من الأنف إلى الأذنين وتحت العينين وعلى الرقبة، وقد يضعن نقطًا من طلاء قرمزي في منتصف الجبهة وعلى الشفتين كما هي العادة عند الهندوكيين، وقد يضعن على ذقونهن هذه العلامة - ا - كما تفعل النساء البلديات في مصر.

والحلي كثيرة، ففي عهد الطفولة تثقب الأذن في ستة مواضع، تحلى كل واحدة منها بقرط أو تحلى جميعها بسلسلة من الفضة، وعندما تصل البنت إلى سن البلوغ تثقب طاقة أنفها اليسرى وتضع فيها خزامًا، وفي كل أصبع خاتم، وحول رقبتها قلائد، ولكنها لا تلبس أساور كما تفعل نساء المدن الساحلية، ومن غرائب العادات أن السعوط (النشوق) عادة متفشية بين النساء لا بين الرجال إذ يكتفي الرجال بالتدخين، ولكن الرجال والنساء جميعًا يمضغون خليطًا من الطباق والليمون الحامض، ويقال إن له تأثيرًا مخدرًا.

وطريقة السلام تختلف، فقد يسلم الشخص على امرأة يضع يده في أطراف أصابعها وتسحبها بسرعة، ولكنه إذا ضغط على يد بنت كما يفعل الأوربيون يعتبر إهانة لها فيستأثر أهلها لها. وسلام الرجال هو المصافحة والتقبيل على الخد الأيسر بينما تبقى اليد اليمنى على كتف الشخص الآخر، وقد يحدث هذا وهم جلوس، وإذا كان أحد المتصافحين شيخًا قبله الآخر في خده الأيسر وفي جبهته، وإذا كان المتصافحان من طبقة راقية قبلا بعضهما، ثم يقفان لحظة واجمين احترامًا وإجلالًا قبل الجلوس.

والسن العادي للزواج للبنت والولد هو ١٥ سنة لمنعهما من التخلق بخلق فاسدة، وقد يتزوجان قبل هذه السن. وطريقة الزواج عند هؤلاء الناس هو أن يتفاوض الزوج مع ولي أمر الزوجة على الصداق ويسمونه الجيلب، وأكبر صداق هو ٢٠ بقرة (٤٠٠ ريال)، وأقله بقرة أو عشرة ريالات، ثم يذهبان إلى قاض فيعقد العقد، وعند عودتهما يصحب الزوجة نساء من قبيلتها يمشي أمامهن ثلة من الرجال، حتى تصل العروس إلى كهف زوجها، ليس لها متاع سوى قطعة من البساط، وقد يذبح الزوج بقرة أو اثنين للوليمة، ويغني الرجال ولكنهم لا يرقصون كما يحدث في حفلة ختان الصبيان.

والطلاق من أيسر الأمور للرجل؛ إذ يكفي أن يضايق الرجل زوجه فترحل إلى بيت أبيها وعند ذهابها يعطيها نصف بقرة، ولكن الطلاق من جانب المرأة صعب، إذ يجب عليها أن تعطي زوجها نصف صداقها، ولا يحتاج الطلاق إلى موافقة القاضي، ولذا كان منتشرًا، وأغلب الرجال لا يتزوج أكثر من اثنتين، وإذا أنجب الرجل من زوجه أصبح راغبًا عن طلاقها، فإذا أراد الزواج من غيرها أعطاها بقرًا مساويًا لصداق زوجه الجديدة، ولهذا كان للنساء ثروة خاصة. والزوج لا تحلب البقر ولا تقوم بطبخ الطعام، بل هذا من أعمال الرجل، بل تقوم برعي الماشية، وجلب الماء، وجمع الوقود، وعمل الفخار، وجمع الدريس، ولكن أهم أعمالها إنجاب الأولاد، وفي إبان حملها تقوم بعملها العادي حتى يوم الوضع، وهي تضع تحت شجرة أو في كهف، إما وحدها أو بمساعدة إحدى قريباتها، أمها أو أختها غالبًا، وتستأنف عملها في اليوم التالي، وإذا زنت المرأة، وهذا نادر جدًا، يطردونها من القبيلة إلى الشاطئ، ويتبعون الزاني حتى يخرجونه بالسيف، فإذا لم يتمكنوا قبضوا على أي قريبة من قريباته، وارتكبوا معها نفس ما ارتكبه قريبها، ولما كانت البنت تخطب قبل أن يتم تكوينها جسمانيًا وعقليًا، فإن هذا يمنع اعوجاج سيرتها، وفي زواجها لا يستشيرها أبوها، وعندما تطلق المرأة يصبح لها الحق في اختيار أي زوج تشاء ما دام أبوها موافقًا، وحق ابن العم في زواج بنت عمه له الاعتبار الأول في كل بلاد العرب ما عدا هذه الجبال إلا عند قبائل المهرة، فإن الأب هو الذي يقرر زواج ابنته بمن يختار.

وللناس هنا خرافات وخزعبلات، ففي القرى الساحلية حيث يقيم السكان بيوتًا لسكناهم، أول ما يعمله الشخص الذي يريد أن يبني بيتًا أن يدق أوتادًا في البقعة التي سيبني فيها المنزل لطرد عين السوء، وعندما يتم البيت يذبح حملًا على عتبته كما يفعل الفرنجة عند الاحتفال بإنزال السفينة لأول مرة في البحر بكسر زجاجة خمر،

وفي ظَفَار تذبح الشاة في أثناء عملية البناء، ويأكل البناؤون لحمها ويريقون دمها على الحيطان، وعندما يدخل صاحب البيت لأول مرة يكسر بيضتين على عتبة الدار وآخرتين على الدرج وآخرتين على الطابق الأول.

ويعزي الناس هنا عدم إدرار البقرة للبن إلى عين السوء أو عين إبليس كما يسمونها، ولطردها يقوم صاحب البقرة بتبخيرها بإحضار وعاء به نار، ويحضر ثلاثة قطع من البخور، ويبصق على كل واحدة منها مرتين ويلقيها في النار، ويساعده اثنان في هذه العملية يمسك أحدهما بفك البقرة الأسفل، ويرفع رجلها الأمامية عن الأرض، ويمسك الآخر ذيلها.



تبخير البقرة

ثم يقرأ صاحب البقرة التعويذة التالية، وبينما يدير النار على رأسها: «انظري إلى قربانك بخور ونار من عين السوء من عين الإنسان قريبًا أو بعيدًا، قريبًا أو غريبًا طُرِدت إن كانت مني أو من أي شخص آخر من عين السوء رجل أو امرأة، انظري إلى قربانك هذا بخور ونار»، ثم يطلق رفاقه سراح البقرة لتلحق بزميلاتها في المرعى.

وللناس خاصية أخرى هي القسم بالأضرحة والمحنة بالنار، وهذا يقوم به الحوز، والقسم باسم الله الذي يعتبره العرب جميعًا لا يعتد به بنو قرا إذ كثيرًا ما يقسمون به حانثين، وقد يطلب المشتكي من خصمه أن يقسم على ضريح مقدس خير من أن يقسم بالله أو بالقرآن كما هي الحال في حضرموت، ويعتقدون أن لهذه الأضرحة قوة الانتقام إذا كان القسم حانثًا، وأهم الأضرحة التي يقسمون بها:

الاسم	المكان
صالح بن هو	بين حَسِك وراس نوس
بير عربية	ريوت
الشيخ عيسى	خور طاقة
النبي عمران	حافا
بير علي	مرباط
الشيخ عفيف	طاقة
زهير	مرباط

أما المحنة بالنار أو التمريط أو البشعة كما يسمونها، فيقومون بهذه العملية عادة بين صلاة الفجر والظهر، وطريقتها أن يحمي طرف الخنجر في النار حتى يحمر، ويبرز المتهم لسانه ويقبض عليه المابشعة (القائم بعملية المحنة)، بينما يتناول الخنجر بالأخرى ويمر على لسانه، ويجعله يبصق في الحال، وبعد ساعتين يخرجون لسانه، فإذا ظهرت عليه علامات الحروق أو احتقان في عنقه عد مجرمًا، وعليه أن ينفذ كل ما يطلبه خصمه، وإذا كان العكس اتضحت براءته.

هجرة الحضارم إلى الخارج

هجرتهم إلى الأندلس

كان بدء هجرة الحضارم إلى إسبانيا في أواخر القرن الأول للهجرة، وكان على رأس هؤلاء المهاجرين أسرة خلدون، ويدعى خالد بن عثمان بن الخطاب بن كريب بن معد يكرب بن الحارث بن وائل بن حجر الكندي، وفي أواسط القرن الثالث كان لهم نفوذ كبير لا سيما لأسرة ابن خلدون، وقد كانت عندئذ تقيم في إشبيلية.

في سنة ٢٨٠هـ خرج على حاكم إشبيلية أحد الحضارم ذوي الشخصيات البارزة اسمه كريب سليل لأسرة ابن خلدون، واستولى على المدينة بعد كفاح وجهاد، واستطاع بدهائه وسياسته أن ينشئ بلاطًا سطع بهاؤه إبان القرن الرابع، وإلى نهاية حكم الأمويين، وشغل أبناؤه مناصب الوزارة بني عباد في القرن الخامس[1].

وممن اشتهر من علماء الحضارم في الأندلس محمد بن إبراهيم الحضرمي من أهل إشبيلية يكنى أبا عبدالله، ويعرف بـ(الشرفي)، كان عالمًا موصوفًا بالفضل والعبادة. وعبدالعزيز بن الحسن بن سعيد بن عسكر الحضرمي، محدث فقيه، يكنى أبا محمد، مولده سنة ٤٤٧هـ، سكن قرطبة وتوفي بها سنة ٥٢٦هـ. ونعمان بن عبدالله بن النعمان الحضرمي قتلته الروم حينما خرج غازيًا.

وولي القضاء في إشبيلية معاوية بن صالح الحضرمي، دخل الأندلس قبل دخول الأمير عبدالرحمن بن معاوية، فنزل إشبيلية، وكان من جلة أهل العلم ورواة

(١) هاجرت أسرة خلدون إلى أفريقيا في القرن السابع، والتحقت ببلاط بني حفص في تونس، وفي رمضان سنة ٧٣٢هـ ولد ابن خلدون الفيلسوف الاجتماعي الشهير.

الحديث، روى عنه جملة من أئمة أهل العلم، منهم سفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث، وذكر أن مالك بن أنس روى عنه حديثًا واحدًا، وكان راوية لحديث أهل الشام، وقال محمد أبو عمر: ومعاوية بن أبي أحمد صالح بن عثمان المعروف بـ(جرير بن سعيد بن سعد بن فهر الحضرمي)، وذكر محمد بن محمد بن وضاح قال لي يحيى بن معين: جمعتم حديث معاوية بن صالح؟ قلت: لا، قال: وما منعكم من ذلك؟ قلت: قدم بلدًا لم يكن أهله يومئذ أهل علم، قال: أضعتم والله علمًا عظيمًا.

لما قدم الأمير عبدالرحمن بن معاوية إلى إشبيلية وتمت له البيعة واتسقت له الأمور أرسل معاوية بن صالح الحضرمي إلى الشام ليأتيه بأخته أم الأصبع، فأبت عن الانتقال، وقالت: كبرت سني وأشرفت على انقضاء أجلي ولا طاقة بي على شق البحار والقفار، وحسبي أن أعلم ما صار إليه من نعمة الله، ولما عاد من الشام ولاه القضاء والصلاة، وغزا الأمير سرقسطة وغزا معه معاوية بن صالح الحضرمي، فكان يحيي الليل بالصلاة حتى إذا أصبح لبس قباءه وسلاحه، ومضى إلى الصف حيث القتال، فلا يزال واقفًا في مركزه متوكئًا على قوسه حتى تتجلى الحرب.

وخرج معاوية بن صالح الحضرمي حاجًا، وخرج معه حينئذ زياد بن عبدالرحمن، فلما قدما المدينة توجه زياد بن عبدالرحمن إلى مالك بن أنس، فدخل عليه وأعلمه بقدوم معاوية بن صالح، فسأله أن يأتيه فأتاه فدخلا عليه، فسأله معاوية بن صالح عن نحو مائتي مسألة، فأجابه مالك عن جميعها، فكشف زياد بن عبدالرحمن مالكًا وقال له: يا أبا عبدالله، كيف رأيت معاوية بن صالح؟ فقال له مالك: ما سألني أحد قط مثل معاوية بن صالح. ثم سأل زياد معاوية عن مالك، فقال له: ما سألت أحدًا مثل مالك.

ومات معاوية بن صالح الحضرمي وهو قاض على إشبيلية، وكان عظيمًا في موته، فقد خرجت لتشييع جنازته جموع غفيرة من الناس، وفي مقدمتهم الأمير هشام بن عبدالرحمن الأموي.

هجرتهم إلى مصر

كان بدء هجرتهم إلى مصر في أيام عثمان بن عفان ﵁، ومن أعلامهم الذين ولوا القضاء في مصر هو:

القاضي يونس بن عطية الحضرمي

أول من تولى القضاء في مصر العلامة يونس بن عطية الحضرمي في أيام عبدالعزيز بن مروان في جمادى الأولى سنة ٨٤هـ، كان من أكابر العلماء. ويحكى أن عبدالله بن مروان كتب إلى عبدالعزيز بن مروان يُعلمه أن أهل الشام اختلفوا عليه في نفقة المبتوتة فاكتب إليَّ بما عند أهل مصر فيه، فجمع عبدالعزيز الأشياخ وسألهم، وكان يونس بن عطية الحضرمي في أخرياتهم، فقال له فتكلم، فأعجب عبدالعزيز، فسألهم عنه، فقالوا له: هذا من سادات حضرموت، فولاه القضاء والشرطة. ويروي الوليد بن سليمان عن أبيه سليمان بن زياد قال: سمعت عبدالعزيز بن مروان يقول ليونس بن عطية الحضرمي: يا أبا كثير كيف أخبرتني عن أمير المؤمنين عثمان ﵁؟ فقال له يونس: نعم أصلح الله الأمير، إن أبي وأعمامي هاجروا زمن عثمان ﵁ في آخر إمرته، وكنت معهم وأنا غلام جَهِر أعقل ما أسمع، فخرجنا من حضرموت في مائة راكب حتى أتينا المدينة فأقمنا بها شهرًا، وكان أبي وأعمامي يجالسون أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فدخلوا يومًا على عثمان ﵁ فاستأذنوه في المصير إلى مصر، فدخلت معهم، فبينما نحن جلوس عنده إذ دخل علي بن أبي طالب ﵁ وكأنه غضبان فجلس، فلم يحفل به عثمان، فجعل علي ﵁ يقول: إن لي فقهًا وإسلامًا وهجرة، وعثمان مُعرض عنه، إذ دخل العباس بن عبدالمطلب ﵁، فضرب عثمان

بمخصرته الأرض وقال: رب مفتخر بهجرته عرق هذا أطيب من عرقه، يعني العباس، فتذمر علي رضي الله عنه وقام غضبانًا.

القاضي أوس بن عبدالله الحضرمي

وفي سنة ٨٦هـ ولي القضاء أوس بن عبدالله بن عطية الحضرمي من قبل عبدالعزيز بن مروان، يروى عن محمد بن يوسف قال: حدثني يحيى بن أبي معاوية عن خلف عن أبيه عن جده قال: مرض يونس بن عطية فصرفه عبدالعزيز عن القضاء والشرطة، وجعل أوس بن عبدالله ابن أخيه على القضاء، وعبدالرحمن بن معاوية بن خديج على الشرط فوليها شهرين؛ المحرم وصفر سنة ٨٦هـ، ثم مات يونس بن عطية في ربيع الأول سنة ٨٦هـ، فصرف أوس عن القضاء فوليها أوس شهرين ونصفًا.

القاضي يحيى بن ميمون الحضرمي

وفي يوم الأحد لتسع بقين من شهر رمضان سنة ١٠٥هـ ولي القضاء يحيى بن ميمون الحضرمي من قبل أمير المؤمنين هشام. وكان يحيى بن ميمون هو القاضي الحضرمي الوحيد الذي لم يهتم برقابة من دونه من الكُتَّاب الذين كانوا لا يكتبون قضية إلا برشوة. روى قيس بن جُمْلة الغافقي عن ياسين بن عبدالأحد قال: حدثني فضالة بن المفضل عن أبيه قال: كان كُتَّاب يحيى بن ميمون لا يكتبون قضية إلا برشوة، فكلم يحيى في ذلك فلم ينكره، ثم كلمه مرة بعد مرة فلم يعزل منهم أحدًا عن كتابته.

وعن أحمد بن داود بن أبي صالح قال: حدثنا محمد بن أبي المغيرة عن أحمد بن قديد عن أبي زيد أن يتيمًا من مراد كان في ولاية يحيى بن ميمون الحضرمي وهو على القضاء، فرد أمره إلى عريف قومه وكان في حجره، فتظلم اليتيم بعد بلوغه من العريف إلى يحيى زمانًا فلم ينصفه منه، وأتى اليتيم ببينة من قومه فشهدوا أنه

مظلوم، فلم يستمع يحيى منهم، فكتب إليه اليتيم بأبيات أبي شمر:

ألا أبلغ أبا حسان عني ... بأن الحكم ليس على هواكا
حكمت بباطل لم تأت حقًا ... ولم نسمع بحكم مثل ذاكا
وتزعم أنها حق وعدل ... وأزعم أنها ليست كذاكا
ألم تعلم بأن الله حق ... وأنك حين تحكم قد يراكا

فبلغ يحيى بن ميمون ذلك فسجن اليتيم، فرفع أمره إلى هشام، فعظم ذلك عليه وكتب بعزله، وكان في كتابه إلى الوليد بن رفاعة: اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذمومًا.

القاضي توبة بن نمر الحضرمي

ثم ولي القضاء توبة بن نمر الحضرمي يكنى أبا مِحْجَن وأبا عبدالله من قِبل الوليد بن رفاعة، وكانت ولايته مستهل صفر سنة ١١٥هـ، يروي ربيعة عن غوث أن الوليد بن رفاعة أرسل إليه حين مات الجبار بن خلد ومعه امرأته عفيرة الأشجعية على سريره وكانت امرأة برزة فولاه القضاء، فقالت له عفيرة: أما والله يا توبة ما حاباك ابن رفاعة بهذه الولاية، ولو أنه وجد في قيس كلها من يسد مسدك، أو استضلع بهذا الأمر لآثره عليك وقدمه وأخرك.

ويروي أبو سلمة عن يحيى بن عثمان عن لهيعة بن عيسى: أن توبة لما ولي القضاء دعا امرأته عفيرة، فقال: يا أم محمد، أي صاحب كنت لك؟ قالت: خير صاحب وأكرمه، قال: فاسمعي، لا تعرضي لي في شيء من القضاء، ولا تذكريني بخصم، ولا تسأليني عن حكومة، فإن فعلت شيئًا من هذا فأنت طالق. وفي رواية: أن توبة لما ولي القضاء دعا امرأته، فقال لها: كيف علمت محبتي لك؟ قالت: جزاك الله من عشير خيرًا، قال: قد علمت ما قد بلينا به من الناس كلهم، فأبت

الطلاق فصاحت، فقال: إن كلمتيني في خصم أو ذكرتيني به، فإن كانت لترى دوابه قد احتاجت إلى الماء، فلا تأمر بها أن تمد خوفًا من أن يدخل عليه في يمينه شيء.

وكان كاتبه مُغيث من حضرموت، ويروي عبدالله بن المسيب: أنه حضر توبة بن نمر قضاء في مكاتب هلك سيده، وقد أقام قبل ذلك حينًا لم يؤد شيئًا، ثم إن ورثة الرجل أرادوا بيعه، فلما رُفع أمره إلى توبة، قال توبة: يؤخرك سنة على أن تؤدي مكاتبتك، فقال: أرأيت إن أديت هذه السنة ثم عجزت؟ قال توبة: إذن أبيعك، قال المكاتب: فبعني كيف شئت الساعة، فرده إلى الرق وأمر ببيعه.

ويحكى أن رجلًا وامرأته اختصما عند توبة الحضرمي قاضي مصر فطلقها، فقال توبة: متعها؟ فقال: لا أفعل، قال: فسكت عنه؛ لأنه لم يره لازمًا له، فأتاه الرجل الذي طلق امرأته بشهادة، فقال له توبة: لستُ قابلًا شهادتك، قال: ولِمَ؟ قال: إنك أبيت أن تكون من المحسنين، وأبيت أن تكون من المتقين، ولم يقبل له شهادة، وكان توبة الحضرمي يقضي بيمين صاحب الحق مع شاهده في الشيء اليسير.

وعن ابن لهيعة أن قضاة مصر يقضون بعهدة الثلث من الحُمَّى والنظر، ويقضون بعهدة السنة من الجنون والجذام والبرص، حتى كان توبة يثبت على عهدة السنة، وطرح على عهدة الثلث إذ كان قاضيًا.

ويروى أن توبة يقول للنخاسين أصحاب الرقيق: من اشترى منكم عيبًا فهو لازمه -ولست أرويه عنه- لأنكم تبصرون ما تشترون، فإن بعتم سكتم على العيب، وإذا كان في أيديكم أردتم رده على صاحبه فلستم كغيركم.

وعن أبي لهيعة أن أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر في زمن هشام، وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلما كان توبة قال: ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين، فأرى أن أضع يدي عليها حفظًا لها من الالتواء والتوارث، فلم يمت توبة حتى صار الأحباس

ديوانًا عظيمًا.

ويروى عن ربيعة بن أخي غوث الحضرمي: أن توبة بن نمر كان لا يملك شيئًا إلا وهبه ووصل به إخوانه وتفضل به عليهم، فلما ولي القضاء كان يرى أن يحجر على السفيه والمبذر، فرفع إليه غلام من حمير لا تحوي يده شيئًا إلا وهبه وبذره، فقال توبة: أرى أن أحجر عليك يا بُني، قال: فمن يحجر عليك أيها القاضي؟ والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك، فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد.

ومات توبة بن نمر الحضرمي، وهو قاض على مصر سنة ١٢٠هـ، فكانت ولايته على قضائها أربع سنين وشهر.

حفص بن الوليد الحضرمي[(١)]

ولي حفص بن الوليد الحضرمي ولاية مصر من قِبل الخليفة هشام بن عبدالملك، وكان قبل ذلك ينوب عن الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم الأموي في ولاية الفسطاس، وكان أيضًا رئيسًا على شُرطة محمد بن عبدالملك أخي هشام، وصرف حفص بن الوليد بعد جمعتين. وفي يوم الإثنين لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٤هـ سافر حنظلة بن صفوان بن توبل، وكان يومئذ واليًا على مصر ليقوم بولاية إفريقية بأمر الخليفة هشام، فاستخلف حنظلة حفص بن الوليد الحضرمي عليها، وأقره هشام على الصلاة إلى ليلة الجمعة لثلاث عشر خلت من شعبان سنة ١٢٤هـ، وجمع له هشام الصلاة والخراج جميعًا، ولما توفي هشام يوم ١٠ من ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ أقر الوليد بن يزيد بن عبدالملك حفصًا على صلاتها وخراجها، وأمره الوليد بإخراج أهل الشام الذين بمصر إلى أجنادهم، فأمرهم حفص بن

(١) هو حفص بن الوليد بن يوسف بن عبدالله بن الحارث بن جبل بن كليب بن عوف بن معاهر بن عمرو بن زيد بن مالك بن زيد بن الحارث بن عمرو بن حجر بن قيس بن كعب بن سهل بن زيد بن حضرموت. اهـ من كتاب الولاة ص٧٢.

الوليد الحضرمي بالخروج فامتنعوا، وحاصروا حفصًا في داره، فقاتلهم يوم الثلاثاء ١٥ من شهر رجب سنة ١٢٥هـ، فظفر بزعيمهم ربيعة من موالي أهل حمص فقتله، وأخرج أتباعه من مصر، ثم وفد حفص بن الوليد على الوليد بن يزيد، واستخلف على مصر عقبة بن نعيم الرعيني، ولما بويع يزيد بن الوليد بعد قتل الوليد بن يزيد لسلخ جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ أمر حفص بن الوليد الحضرمي باللحاق بجنده، وأمره بفرض ثلاثين ألفًا فدخلها، ففرض الفروض وخرج ببيعة أهل مصر إلى يزيد بن الوليد عقبة بن نعيم الرعيني، والربيع بن عون بن خارجة بن حذافة العدوي، وحوّاس بن حميد الحمصي، وهانئ بن المنذر الكلاعي، وعمرو بن الحارث الفقيه مولى الأنصار، وجعل حفص بن الوليد على فروضه قُوادًا، وسماهم أصحاب الندبة، وفرض حفص لفروضه في عشرين وخمسة وعشرين، وهم الذين يقال لهم الحفصية، وجعل حفص على الصعيد رجاء بن الأشيم الحضرمي، وعلى مصر السفلى فهد بن مهدي الحضرمي.

في صفر سنة ١٢٧هـ كتب حفص بن الوليد الحضرمي إلى مروان بن محمد بن مروان يستعفيه من ولايته على مصر فأعفاه مروان، فكانت ولاية حفص للمرة الثانية ثلاث سنين إلا شهرًا.

ولما ولي حسان بن عتاهية من قِبل مروان بن محمد وحسان يومئذ بالشام كتب حسان إلى خير بن نعيم الحضرمي باستخلافه على مصر إلى قدومه، ثم قدم حسان يوم السبت ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ، وأسقط فروض حفص كلها، ولما استقر حسان على ولايته وثب به قواد الفروض وقالوا: لا نرضى إلا بحفص، فوليها حفص بن الوليد الحضرمي للمرة الثالثة كرهًا، أخذوه قواد الفروض بذلك، وأقام عليها رجب وشعبان، وعلى شرطه عقبة بن نعيم الحضرمي، أما حسان بن عتاهية

فقد لحق بمروان، ثم عزل مروان حفصًا مستهل سنة ١٢٨هـ.

ولما قدم مصر حوثرة بن سهل الباهلي، وبصحبته سبعة آلاف شخص واليًا عليها من قِبل مروان خافه أهل مصر، فبعثوا إليه يزيد بن مسروق الحضرمي، فتلقاه بالعريش، فسأله أن يؤمنهم على ما أحدثوا، فأجابوا الحوثرة إلى ذلك، وبعث إليهم حوثرة يستأذنهم في الدخول إلى مصر فأذنوا له، وسار إليها حتى نزل المسناة، وبعث إليهم: إن كنتم في الطاعة فالقوني في الأردية، فقال رجاء بن الأشيم الحضرمي لحفص بن الوليد الحضرمي: أطعني أيها الأمير وامنعهم، قال: أكره الدماء، قال: فدعني أقف في جبل، فإن رأيت ما تحب تطرقنا، وإن كان غير ذلك استنقذناك منهم، قال: قد أعطاني ما ترى من العهد ولن أستظهر بغير الله، فقال رجاء: والله لا رغبت نفسي عن نفسك، فخرج إليه حفص ووجوه الجند حتى دخلوا عليه فسطاطه، فقال لحفص ورجاء: ما أنتما؟ قالا: حفص ورجاء، قال: قيدوهما، وانهزم أهل مصر. وأمر حوثرة بقتل رؤساء الثورة، ومنهم يزيد بن مسروق الحضرمي، ورجاء بن الأشيم الحضرمي، وحفص بن الوليد الحضرمي في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شوال سنة ١٢٨هـ.

وقال مرسل بن حمير يبكي حفص بن الوليد الحضرمي:

يا عين لا تبقي من العبرات	جودي على الأحياء والأموات
بكي الذين مضوا فهم صادقوا	صدقات فأبطلت تارات[1]
يا حفص يا كهف العشيرة كلها	يا خا النوال وساتر العورات
إما قتلت فأنت كنت عميدهم	والكهف للأيتام والجارات
أوذي رجاء لا كمثل رجائنا	رجل وعقبة فارج الكربات

(١) كذا في الأصل.

وشبابنا عمرو وفهد ذو الندى   وابن السليط وعامر الغارات
قتلوا ولم أسمع بمثل مصابهم   سروات أقوام بنو سروات
حُلت دماؤهم فلم يعرج لهم   بين ولم يطلب لهم بجنات

ثم قدم إلى مصر عبدالله بن يحيى الكندي الحضرمي (طالب الحق) فدعاهم، فبايع له ناس من تجيب وغيرهم، فبلغ ذلك حسان بن عتاهية فاستخرجهم.

القاضي خير بن نعيم الحضرمي

ثم ولي القضاء بمصر خير بن نعيم من قِبل الأمير حنظلة بن صفوان الكلبي في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٠هـ، ويروى أنه كان أفقه فقهاء مصر في زمانه، وكتب إليه هشام بن عبدالملك: إن أي امرأة أرادت قبض صداقها المؤخر على زوجها لن تعطاه إلا أن يكون شرطه عند الإملاك ألا يعطى إلا على شرط مسمى.

وجاء القاضي خير بن نعيم رجل تزوج امرأة وشرط لها طلاقها في شيء إن فعله، قال له خير: أراض أنت بهذا الشرط؟ فقال: نعم، فقال له خير: انظر فإن الشرط لازم لك وهو من الطلاق. وقال خير في رجل دفع إلى رجل ثلاثة دنانير، فدفعها إلى رجل يبتاع بها حمارًا، فدفعها إلى رجل فلم يجد بالثلاثة حمارًا إلا بأربعة، فقال الرسول: أنا أدفع إليك الدينار الرابع، فإن رضي الحمار أخذت منه الدينار، وإن كره أخذت الحمار لنفسي، فاشترى الحمار على ذلك، فسرق بالطريق، فقضى خير بن نعيم أن الحمار من الرسول، وأن الثلاثة إلى صاحبها رد.

وحدث أن رجلًا هلك ولم يوصِ، وعنده بضاعة لرجل، وقِبَله شرك لرجل في متاع، وعنده وديعة ليتيم، وعليه صداق لامرأته، فقضى خيرٌ أن ما كان قبله من شرك أو بضاعة فإنها ترد إلى أصحابها، وأن صداق امرأته والوديعة إذا لم توجد أسوة الغرماء.

وسئل خير عن مكاتب هلك، له وُلد أحرار من امرأة حرة، فقال: لا يرثه وُلده

الأحرار حين مات وهو مكاتب، وكان خير يقضي في من اعترف لرجل بحق له عليه، ثم ادعى أنه قد قضاه إياه ولا بينة عنده أنه يلزمه ما اعترف به، وكان يقضي بالمتعة على من طلق امرأته، وكان يقضي بشهادة الصبيان في الجراح التي تكون بينهم، وكان يخير شهادة ذوي الرحم لرحمه إذا كان معروفًا بالعدالة، وكان يسجن المديون ثم يكشف عن أمره إذا ادعى العُدم، فإن شهد له جيرانه بالعدم أطلقه من ساعته.

وكان يطلق على المعدم امرأته إذا خاصمته في النفقة عليها وقال: لا أجد ما أنفق، وكان خير يقبل شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود، ويسأل عن عدالتهم في أهل ذمتهم.

ووشى حسان بن عتاهية عند حوثرة بن سهيل الباهلي ضد القاضي خير بن نعيم، وقال: لم يبق لحضرموت إلا هذا القرن، فإن قطعته قطعتها يعني خير بن نعيم، فعزله عن القضاء، وذلك سنة ١٢٨هـ.

ثم في شهر رمضان سنة ١٣٣هـ ولي القضاء بمصر خير بن نعيم ولايته الثانية عليها من قبل الأمير أبي عون عبدالملك بن يزيد، وكان خير أول القضاة أدخل أموال اليتامى في بيت المال، وقيل: إن خير بن نعيم عرضت له علة الجذام فثقل عليه كثرة الجلوس للخصوم، فكان كاتبه غوث بن سليمان الحضرمي يقضي بين الناس في منزل خير، وأتى خير بن نعيم عبدالملك بن مروان يخاصم ابن عم له، فقعد على مفرشة، فقال: قم مع ابن عمك، كأنك وجدت علينا أن صيرناك كاتبًا بعد القضاء، وقام ولم يخاصم، وكان عبدالملك بن مروان النصيري قد ولى خير بن نعيم ديوان الرسائل بعد أن كان قاضيًا.

ويحكى أن رجلًا من الجند قذف رجلًا فخاصمه إلى خير، وأثبت عليه شاهدًا واحدًا، وأمر بحبس الجندي إلى أن يثبت الرجل شاهدًا آخر، فأرسل الأمير أبو عون فأخرج الجندي من الحبس، فاعتزل خير وجلس في بيته وترك الحكم، فأرسل إليه أبو عون، فقال: لا، حتى ترد الجندي إلى مكانه، وعزل خير من القضاء في شعبان سنة ١٣٥هـ.

القاضي غوث بن سليمان الحضرمي

ثم ولي القضاء بمصر غوث بن سليمان الحضرمي من قبل أبي عون يوم الأحد للنصف من شهر رمضان سنة ١٣٥هـ، ولم يكن غوث بن سليمان الحضرمي بالفقيه لكنه كان أعلم الناس بمعاني القضاء وسياسته، فكان أمره أحسن شيء وكان هونًا، وكان كثيرًا ما يستخلف مكانه يزيد بن عبدالله بن بلال الحضرمي، فكان هذا يقوم بقسط وافر من القضاء، ثم أقره خليفة له في جمادى الآخرة سنة ١٤٠هـ يحكم بين الناس، وكان يكتب القضايا باسم غوث، ولم يثبت اسمه على شيء منها، ولما مات ابن بلال الحضرمي ضم غوث الديوان والودائع التي كانت قبله ورجع الخصوم إليه، فلما كثروا على بابه قال: رحمة الله على أبي خالد، فقد كان يسد عنا مسدًا، ثم عاد غوث إلى القضاء بعد موت ابن بلال.

وكان القاضي غوث أول من سأل عن الشهود في السر، وكانت القضاة قبله إذا شهد رجل عند أحدهم وكان معروفًا بالسلامة قبله القاضي، وإن كان غير معروف بها أوقف، وإن كان الشاهد مجهولًا لا يعرف سئل عنه جيرانه، فما ذكروه به من خير أو شر عمل به، حتى كان غوث فسأل عنهم فمن عدّل عنده قبله، ثم يعدّل الشاهد واحد من الناس لم يكن يوسم بالشهادة، ولا يشار إليه بها، وكان غوث أول من حكم في حبس مسكين، وقسط السكنى على بنيه وأمهات أولاده، واتهم غوث بمكاتبة أبي الخطاب الإباضي والإباضية، فورد كتاب أبي جعفر على يزيد بن حاتم

وهو على مصر يأمره فيه بحبس غوث فحبس ثم أطلق سراحه، وولي القضاء إلى أن صرف عنها في شهر رمضان سنة ١٤٤هـ.

وفي سنة ١٦٧هـ بعث إليه أمير المؤمنين أبو جعفر فحمل غوث إليه فقال له: يا غوث إن صاحبتكم الحميرية خاصمتني إليك في شروطها، فقال غوث الحضرمي: أيرضى أمير المؤمنين أن يحكمني عليه؟ قال: نعم، فقال: إن الأحكام لها شروط فيحتملها أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: يأمرها أمير المؤمنين أن توكل وكيلًا وتشهد على وكالته خادمين حرين يعدلهما أمير المؤمنين على نفسه، ففعل، فوكلت خادمًا وبعث معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها، فقال غوث: قد تمت الوكالة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يساوي الخصم في مجلسه، قال: فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم، ودفع إلى الوكيل كتاب الصداق فقرأه عليه، فقال: يقر أمير المؤمنين بما فيه؟ قال: نعم، قال غوث: أرى في الكتاب شروطًا مؤكدة بها تم النكاح بينكما، أرأيت يا أمير المؤمنين لو خطبت إليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط أكانوا يزوجونك؟ قال: لا، قال: قلت: فبهذا الشرط تم النكاح، وأنت أحق من وفَّى لها بشرطها، قال: علمت إذ أجلستني هذا المجلس أنك تستحكم، قال: قلت له: أعظم جائزتي وأطلق سبيلي، قال: بل جائزتك على من قضيت له، ثم أمر له بخلعة وجائزة، ثم أمر أبو جعفر باحتباس غوث ليحكم بين أهل الكوفة، فقال له غوث: يا أمير المؤمنين ليس البلد بلدي، ولا معرفة لي بأهلها، فأذن له أمير المؤمنين في الرجوع إلى مصر. ثم ولي القضاء فيها وتوفي بها في جمادى الآخرة سنة ١٦٨هـ.

القاضي يزيد بن عبدالملك الحضرمي

في شهر شعبان سنة ١٤٠هـ ولي القضاء يزيد بن عبدالملك الحضرمي بالنيابة عن القاضي غوث بن سليمان الحضرمي، ثم مات فجأة في ذي القعدة سنة ١٤٠هـ وتصدى للقضاء غوث بن سليمان.

القاضي عبدالله بن لهيعة الحضرمي

وفي مستهل سنة ١٥٥هـ ولي القضاء بمصر عبدالله بن لهيعة من قِبل أمير المؤمنين أبي جعفر، وهو أول قاض ولي مصر من قِبل الخليفة، وأجرى عليه ثلاثين دينارًا في كل شهر.

يروى أن وفدًا من أعيان مصر كانوا بالعراق، وهم: عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن خديج، وعياش بن عقبة بن كليب الحضرمي، وغوث بن سليمان، وهشام بن حميد وغيرهم، فدخلوا على أبي جعفر المنصور يومًا، فقال لهم: أعظم الله أجركم في قاضيكم أبي خزيمة، ثم التفت إلى ربيع فقال: ابغنا لأهل مصر قاضيًا، قال عبدالله بن عبدالرحمن بن خديج: ماذا أردت بنا يا أمير المؤمنين؟ أردت تشهرنا في الأمصار؟ فإن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضاء بنا حتى تولي علينا من غيرنا، قال: فسمِّ رجلًا، قال: فذكر له أبا معدان اليحصبي، فقال: إنه يختار ولكن به صمم، قال: فعبدالله بن لهيعة؟ قال: فابن لهيعة.

وكتب ابن لهيعة إلى أمير المؤمنين إنه لا يجوز للحامل صدقة على وارث. وعن علي بن عمر وابن خالد بن خيثمة عن أبيه قال: طلب الناس هلال شهر رمضان وابن لهيعة على القضاء فلم ير، وأتى رجلان فزعما أنهما قد رأياه، فبعث بهما الأمير موسى بن علي بن رياح إلى ابن لهيعة، فسأله عن عدالتهما فلم يعرفا، واختلف الناس وشكوا، فلما كان في العام المقبل خرج عبدالله بن لهيعة في نفر من أهل المسجد فعرفوا بالصلاح فطلبوا الهلال، فكانوا يطلبونه بالجيزة، فهو أول القضاة حضر في طلب الهلال، ثم صرف ابن لهيعة عن القضاء في ربيع الآخر سنة ١٦٤هـ بعدما وليه عشر سنين.

القاضي لهيعة بن عيسى الحضرمي

وفي شعبان سنة ١٩٦هـ ولي القضاء بمصر لهيعة بن عيسى الحضرمي من قبل عباد بن محمد، وعباد يومئذ يدعو للمأمون بمصر. ويروى أن مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان وطائفة من المطوعة، وكانت أحباس السبيل التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة، فإذا كان شهر أبيب من شهور القبط بعث القاضي بما اجتمع من أموال السبيل، ففرقت في مواحيز مصر من العريش إلى لوبية ومراقيه، ففرق على المطوعة، ومن كان فقيرًا من أهل الديوان، فلما هاجت الفتنة أيام خلع محمد بن هارون تشاغل السلطان عن عطاء أهل الديوان، وتعطلت المواحيز، وانقطع عنها المطوعة لما كان في الناس من الفتنة، ثم ولي لهيعة بن عيسى الحضرمي فجمع أموال السبيل التي من الأحباس، ففرض فيها فروضًا من أهل مصر، وجعل فيها المطوعة الذين كانوا يعمرون المواحيز، وأجرى عليهم العطاء من الأحباس، فكان ذلك أول ما فرضت فروض القضاة، فصارت سنة بعد لهيعة، ولم يكن الناس يسمونها إلا فروض لهيعة حتى كان ابن أبي الليث، فسماها فروض القاضي، وفي ذلك يقول فراس المرادي:

لعمري لقد سارت فروض لهيعة ... إلى بلد قد كاد يهلك صاحبه
إلى بلد تقرى به البوم والصدا ... تغاوره الروم العظام تحاربه
رشيد وإخنا والبرُلُّس كلها ... ودمياط والأشنوم تقوى تغالبه
لهيعة قد حزت المكارم والثنا ... ومن عند ربي فضله ومواهبه
فقد عمرت تلك الثغور بسنة ... تعد إذا عدت هناك مناقبه

وظل لهيعة قاضيًا على مصر حتى قدم المطلب بن عبدالله الخزاعي أميرًا عليها، فعزل لهيعة عن القضاء في شهر ربيع الأول سنة ١٩٨هـ.

ثم في سنة ١٩٩هـ ولي القضاء لهيعة بن عيسى الحضرمي من قِبل المطلب وهي ولايته الثانية، واستكتب سعيد بن تليد وأبا الأسود البصري، وجعل على مسائله سعيد بن تليد، وأمره أن يجدد السؤال عن الشهود والموسومين بالشهادة في كل ستة أشهر، فمن حدثت له جرحة أوقفه، واتخذ شهودًا جعلهم بطانته، وكان أحسن ما عمله لهيعة في ولايته أن قضى في أحباس مصر كلها، فلم يبق منهم حبسًا إلا حكم فيه، إما ببينة ثبتت عنده، وإما بإقرار أهل الحبس.

وقال لهيعة بن عيسى الحضرمي إنه تاسع تسعة ولوا قضاء مصر من حضرموت، وهم: يونس بن عطية، وأوس بن عبدالله، ويحيى بن ميمون، وتوبة بن نمر، وخير بن نعيم، وغوث بن سليمان، ويزيد بن عبدالملك[1]، وعبدالله بن لهيعة، ولهيعة بن عيسى.

وعن محمد بن يوسف قال: حدثني يحيى بن أبي معاوية قال: حدثني خلف بن ربيعة عن أبيه قال: ولي قضاء مصر تسع رجال من حضرموت آخرهم لهيعة بن عيسى، وولي برقة جمع من حضرموت على قضائها، قال يحيى: آخرهم خير بن سعيد بن خير، وولي على الأندلس: معاوية بن صالح الحضرمي، وعلى فلسطين: ضمضم بن عقبة، وعبدالسلام بن عبدالله، والنعمان بن المنذر، وعلى حمص: كثير بن مرة، وجبير بن نذير، وعلى دمشق: يحيى بن حمزة. قال الشاعر:

ما من بلاد من البلدان تعلمه ... إلا وفيه من الأشياء والحدث
قضاة عدل لهم فضل ومعرفة ... مبرءون من الآفات والرفث

وقال آخر:

لقد ولي القضاء بكل أرض ... من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم الرجال ... من الصيد الجحاجحة الضخام

(١) ولي القضاء أربعة أشهر بالنيابة عن غوث بن سليمان، ثم مات فجأة في ذي القعدة سنة ١٤٠هـ.

وقال يزيد بن مقسم الصدفي:

يا حضرموت هنيئًا ما خصصت به من الحكومة بين العجم والعرب

في الجاهلية والإسلام يعرفه أهل الرواية والتفتيش والطلب

وعن محمد بن يوسف قال: حدثني محمد بن روح بن شبل قال: حدثنا عبدالرحمن بن عبدالحكم قال: حدثنا أبو الأسود قال: أخبرنا ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد أن معاوية كتب إلى مسلمة بن مخلد وهو على مصر: لا تولي عملك إلا أزديًا أو حضرميًا فإنهم أهل أمانة.

وتوفي لهيعة وهو قاض على مصر مستهل ذي القعدة سنة ٢٠٤هـ، وليها خمس سنين[١].

هجرتهم إلى اليمن

بدأ الحضارمة يهاجرون إلى اليمن في القرن الأول الهجري، وكان عددهم قليلًا جدًا، وكان غرضهم التجارة لا غير. وفي أوائل القرن الرابع نزح أفراد كثيرون إلى اليمن، فكان هذا من الوسائل التي وطدت العلائق الودية بين البلدين، ثم انقطعت هجرتهم فجأة في أواخر القرن السادس لتوالي حملات الزنجبيلي على حضرموت، ولكن في أوائل القرن السابع نشط الحضارمة للهجرة إلى اليمن، فرحل أفراد منهم لطلب العلم في زبيد، وآخرون للتجارة، وكان ممن اشتهر منهم: العلامة الأديب محمد بن حسين بن علي بن المخرم الحضرمي المتوفى في زبيد في ذي الحجة سنة ٦٨١هـ، والإمام إسماعيل الحضرمي وإليه انتهت رئاسة الفقه والفتوى في زبيد، والعلامة عبدالرحمن بن محمد أبا حسان الشبامي، والعلامة أحمد بن أسعد الكلالي، وهو حميري من آل كلالي، قيل له الكلالي نسبة إلى ذي كلال أحد ملوك حمير[٢].

(١) كتاب القضاة للكندي صفحة ١٠٦.

(٢) راجع الجزء الأول صفحة ١٥٠ من كتاب (السلوك في طبقات العلماء والملوك).

أما التجّار منهم فلم يسعدهم الحظ لاضطراب الحالة السياسية في اليمن، ولوعورة المسالك وتقلقل الأمن فيها، فاتجهت أنظار الحضارم إلى جزائر الهند الشرقية، وتضاءلت هجرتهم إلى اليمن، وانقطعت مواصلاتهم بها بعد احتلال الزيود حضرموت سنة ١٠٦٩هـ.

هجرتهم إلى الحجاز

يبلغ عدد الحضارمة في الحجاز نحو ١٠٠٠٠ شخص، منهم نحو ٩٠٪ من مهاجري وادي دَوْعَن، والبقية من وادي عَمْد وحضرموت السفلى، ولمهارتهم في الارتزاق ونشاطهم وذكائهم مسكوا زمام التجارة في الحجاز، ولأمانتهم وحسن معاملتهم وثق بهم الناس كل الثقة، فكان مركزهم الأول في الحجاز، ولقد كان لهم نفوذ عظيم في عهد الترك الذين منحوهم امتيازات يتمتعون بها دون سواهم من طبقات الشعب، وفي عهد الأشراف كانت وزارة المالية في أيديهم، ففي عهد الشريف عبدالمطلب وأولاده كان السيد عبدالله بامصفر الحضرمي وزيرًا للمالية، وفي عهد الشريف عبدالله بن عون وابنه علي باشا كان وزير المالية السيد عبدالله باناعمة الحضرمي، ثم ابنه علي، ثم ابنه عمر، وفي عهد الشريف حسين كان وزير المالية السيد أحمد باناعمة، ثم السيد أحمد باناجة الحضرمي.

ولما انبثق فجر الإصلاح وانتشرت المدارس هب الحجازيون يبعثون أبناءهم إليها إلا الحضارم، فقد وقفوا بمعزل عن تلك المدارس ظنًا منهم أن الظروف التي ساعدتهم فيما مضى هي التي ستساعدهم في القرن العشرين، ولم يدر بخلدهم أن الحياة أصبحت جهادًا وكفاحًا، الفائزون فيها هم العالمون، ولقد كانت النتيجة أن دحرهم الحجازيون عن الوظائف الكبرى، فاضمحل نفوذهم، وتلاشى مركزهم السياسي.

ومن أعظم الأسباب التي قضت على نفوذهم آل باعلوي، فقد كان هؤلاء هم المسيطرون عليهم وعلى كل ما يملكون، حتى إن القضايا التي تحدث بينهم يفصل

فيها شيخ العلويين، وكان إذا أراد المظلوم منهم رفع قضيته لأمير مكة أحاله هذا إلى شيخ العلويين، فيحكم فيها هذا الشيخ بما تمليه عليه نفسه، والويل إذا عاند في الحكم، فاضطر الحضارمة والحالة هذه إلى التذلل والخضوع للعلويين، فاندثرت شخصيتهم واندكت إرادتهم، وزال منهم حب الظهور، وحينما احتل النجديون الحجاز بذل العلويون كل مجهود في تنفير الحضارم عن الحكومة السعودية، وقد نجحوا في ذلك لأن سلطتهم الروحية متغلغلة في قلوب القوم، مالكة لإراداتهم ووجدانهم، ولما استقرت الحكومة السعودية في الحجاز رفع كثير من مواليد الحضارمة وتجارهم لجلالة الملك عبدالعزيز عريضة يلتمسون فيها من جلالته إلغاء تلك الامتيازات، وطلبوا إليه مساواتهم بالأهلين في جميع الأحكام، فأجابتهم الحكومة إلى ذلك.

هجرتهم إلى شمال أفريقيا

كان بنو هلال من أعظم أفخاذ كِنْدة، وأعزها رجالًا، وأفصحها لسانًا، وأشدها ذكاء وفطنة، هاجروا من هَيْنَن ومرخة في وادي جهر إلى شمال أفريقيا بسبب الجفاف والقحط، إذ بيع التمر رطل بدرهم والطعام (مصرا) بدينار، وهذا أعظم قحط عرفته حضرموت في تاريخها الحديث. وأول من هاجر منهم أحد رؤسائهم يدعى أبو زيد الهلالي، وبصحبته أبناء عمه حسن بن سرحان، وهم مرعي ويحيى ويونس وأحد مواليه، وقد مروا على اليمن في طريقهم إلى الحجاز، وبلغهم هناك أن برقة وقابس من أعظم مناطق أفريقيا خصوبة ورخاء، فجد عزمهم على الرحيل إلى تلك البلاد، وتوفي أحدهم وهو يونس بن حسن في أثناء السفر بتأثير لدغة أفعى، ووصلوا برقة ليلًا، وكان القمح قد آن أوان حصاده، فأخذوا منه ما استطاعوا حمله، وانتبذوا به مكانًا قصيًا، ثم دخل أحدهم المدينة لاستطلاع أحوال سكانها، وقد بلغ أهل برقة سرقة القمح، فخرج جماعة منهم يتجسسون، والتقوا بأبي زيد

الهلالي ورجاله، فالتحمت الحرب بين الفريقين، وقتل مرعي بن حسن الهلالي، وأسر أبو زيد ومن بقي من رجاله، وسجنهم أمير برقة، وقد أعجبت ابنة أمير برقة بجمال يحيى بن حسن الهلالي وبشهامته فأحبته، وطلبت إلى أبيها الزواج منه، فأجابها إلى ذلك، أما أبو زيد الهلالي ومولاه، فقد استطاعا الإفلات من الأسر، وعادا إلى حضرموت على أمل أن يرحل أبو زيد بقومه بنى هلال إلى برقة وقابس حيث الرخاء والهناء، ولكن مولاه لم يشاطره في رأيه لبعد المسافة وطول الشقة بين البلدين، فقتله سيده وجاء هَيْنَن وحشر أعيان قومه، وحبب إليهم النزوح إلى شمال أفريقيا للارتزاق، وشجعهم على ذلك بما قص عليهم مما شاهده هناك من المزارع الخضراء والغلات الوافرة، فأخذوا يعدون عدتهم للرحيل، وبعد سنة رحلوا رجالًا ونساء وولدانًا، ولم يبق منهم سوى آل تسيين في مرخة، وآل قار وآل خليفة في الحاضنة، وحطوا رحالهم على مقربة من برقة ونصبوا خيامهم، ثم سار عشرون فارسًا منهم إلى برقة ليبحثوا عن مكان يليق بهم، والتقوا بجماعة من أهل برقة، فبدأهم أبو زيد قائلًا باللغة العامية:

سلام عليكم وعلى الخيل والحمزات — **والقنا وأنتم قويتم يا رجال المغاربه**

فأجابه أحدهم:

لا قول لك حيا ولا قول مرحبًا — **وأنتم قويتم يا رجال المشارقه**

وقال آخر:

والوعد والميعاد إلى حيد قابس — **ومن لا عرض للوعد حلاقة لشاربه**

فقال أبو زيد:

والوعد والميعاد ولحين ساعة — **ويا محسن اللحم لي في جلايبه**

ثم ثارت الحرب بينهم قتل فيها أمير برقة، وانتصر بنو هلال واحتلوا برقة.

هجرتهم إلى زنجبار

لم يعرف بالضبط بدء هجرة الحضارم إلى زنجبار، ويظهر أنهم جاءوها قبل أن يهاجروا إلى جزائر الهند الشرقية، وكان همهم الوحيد التجارة، ولكن فقر البلاد لم يساعدهم على إنماء ثروتهم كما ساعدتهم جزائر إندونيسيا، ولقد زاد الحالة سوءًا عدمُ تآلفهم وتناصرهم الأمر الذي شتت جمعهم، ومزق شملهم، وجعلهم أضحوكة بين العمانيين نزلاء زنجبار، ولقد حاول نقيبهم السيد ناصر بن عبدالعزيز بن عبدات لمّ شعثهم، وجمع كلمتهم، وتوحيد صفوفهم، ونجح في مساعيه، ولكن كانت الجبهة العمانية التي تعاكسهم وتزاحمهم في المرافق الاقتصادية قوية.

وفي سنة ١٣٤٦هـ انفجرت براكين النزاع والخلاف بين الفريقين، ووقعت الواقعة وسالت الدماء في شوارع زنجبار، وعلى مرأى من السلطة البريطانية التي وقفت موقف المتفرج، وهكذا أصبح موقف الحضارمة حرجًا، وأحاطت بهم الأخطار، ولكن نفس السيد ناصر بن عبدات الأبية، وشهامته العالية أبت أن تبقى الغلبة في جانب العمانيين، فاشترى رماحًا كثيرة ووزعها على الحضارم استعدادًا للطوارئ، ولم تمض مدة طويلة حتى عاد الخصام بين الفريقين، واشتبك الطرفان طعنًا بالسلاح الأبيض، وانجلت الواقعة عن خمسين قتيلًا من العمانيين، وبضع أشخاص من الحضارم، وعدد الجرحى كثير، وأخيرًا تدخلت السلطة الإنجليزية بينهم، ونفت من البلاد بعضًا من زعماء الحضارم، ومنهم السيد ناصر بن عبدات، وهدأت الحال، وانصرف كل من الحضرميين والعمانيين في سبيلهم، ولكن في شيء كثير من الحذر واليقظة، وقد بدأت حالة الحضارم تتحسن من الناحية الاقتصادية، وأنشأوا لهم جمعية تحت رئاسة السيد محسن بن غالب للدفاع عن مصالحهم، والذود عن حقوقهم.

هجرتهم إلى الهند(١)

هاجر الحضارم إلى الهند في الوقت الذي هاجروا فيه إلى جزائر الهند الشرقية، أي في أواخر القرن الثامن الميلادي، ولكن كان عددهم قليلًا، ولم يقبضوا زمام تجارة الهند، ويمثلوا النشاط الاقتصادي، ويكوِّنوا مركزًا عظيمًا، بخلاف إخوانهم في جزائر جاوة حيث كوَّنوا هناك تاريخًا مجيدًا، وأوجدوا لهم مكانًا في ميدان الحياة، ولعل الظروف المحلية في الهند لم تكن لتساعدهم على إبراز شخصياتهم الجليلة، ومزاحمة البيئات المحيطة بهم في التجارة، وعلى التغلب عليها في إحراز الثروات الواسعة، على أنه ظهر هناك بضعة أفراد، أمثال القُعَيْطي اليافعي والعولقي وغالب بن محسن الكثيري وغيرهم نالوا الشهرة الواسعة، فقد تولوا مراكز سياسية كبيرة، قادوا الجيوش في حيدر أباد وكانوا من أقرب المقربين لدى ملك حيدر أباد، وأوثق الناس اتصالًا به، وقد ساعدتهم الظروف على امتلاك الأموال والعقارات، ولكن تلك الحال لم تدم طويلًا، فقد انهار ذلك المركز الاقتصادي، وتضاءلت تلك المنزلة السياسية، ولم يبق من تلك الشخصيات البارزة سوى القُعَيْطي اليافعي.

يبلغ عدد العرب الحضارم اليوم في حيدر أباد نحو عشرة آلاف يشتغلون كجنود في الجيش غير النظامي، ويتعاطى العسكري الواحد معاشًا شهريًا قدره أربعة عشر روبية أي نحو جنيه ونصف جنيه، ومنهم من يتولى حراسة خزائن الدولة، وقصور سمو النظام وحرمه الخاص، وقصور الكثير من الأمراء والنواب والحكام، وكان الحكمدار على هؤلاء السلطان عمر بن عوض القُعَيْطي اليافعي، المتوفى في شهر فبراير الفائت، وتصرف له خزينة حكومة حيدر أباد نظير ذلك معاشًا شهريًا قدره ١٣٣٠ روبية.

(١) راجع هجرتهم قبل الإسلام في الجزء الأول صفحة ٨٥.

أما حالتهم الاجتماعية فسيئة، فهم يعيشون في عزلة تامة عن العالم الناهض، ويندر أن تجد فيهم الرجل العالم المثقف الذي يفهم الحياة على حقيقتها سوى أفراد قليلين جدًا، وإقبالهم على تعليم أبنائهم في مدارس الحكومة يكاد يكون معدومًا.

هجرتهم إلى إندونيسيا

(جزائر الهند الشرقية)

ليس من شك أن هجرة العرب الحضارمة إلى جاوة وما حولها من الجزائر أعظم هجرة من نوعها في تاريخهم، فقد اخترقوا الشرق الأقصى في وقت كان ذلك المحيط الخضم محفوفًا بالأخطار والأرزاء، وحطوا رحالهم في تلك الجزائر الخضراء، وكان من جلائل نتائج هذه الهجرة أن تلاشت ديانة بوذا، وقام على أنقاضها الإسلام، ولسنا هنا نريد أن نتكلم طويلًا، ونعطي هذا الموضوع حقه من الشرح والتفصيل، فذلك يستلزم كتابًا ضخمًا قائمًا بذاته، ولكنا نحب أن نتكلم بشيء من الاختصار والإجمال لنعطي القراء فكرة عامة عن أعمال الحضارم في تلك البلاد النائية، على أن هذا لا يمنعنا أن نتكلم بشيء من التفصيل حول نهضة الحضارم (الإرشاديين والعلويين) الفكرية الحديثة، وما حدث بينهم من خلاف ونزاع، فإن ذلك من أعظم الأعمال التي كان لها في عقلية هؤلاء القوم تأثير حسن، وحولت مجرى تفكيرهم من الجمود والخمود والهمود إلى اليقظة والنشاط والانبعاث.

لا يعرف بالضبط بدء هجرة الحضارم إلى جزائر الهند الشرقية، ولكن من المحقق أنهم جاءوها في أواخر القرن الثامن الميلادي، فهم إذن قبل البرتغاليين الذين سبقوا الهولنديين إلى هذه الأصقاع، وكانت ممالك الجزائر أشبه بالإقطاعيات في نظامها وكثرتها وعدد ملوكها، وكانت ديانة بوذا منتشرة في كل طبقات السكان، وكان من المنتظر أن يلاقي الحضارم وهم المسلمون معاكسات ومقاومات من السكان لا سيما من أرباب السلطة وأصحاب النفوذ والسلطان، ولكن قلوب هؤلاء كانت على

جانب عظيم من السذاجة والصفاء، ولم يروا من الحضارم النزلاء ما يبعث فيهم الحذر منهم ويعكر صفو الجو، والحق أن الحضارم لم يهاجروا إلى هذه الجزائر لتأسيس ملك أو نشر دين، ولكن غرضهم المنشود التجارة والارتزاق لا غير.

استطاع الحضارم بما أوتوا من جلد وصبر وذكاء وهمة عالية وأمانة في المعاملة وصدق في القول أن يشقوا طريقًا لهم في تلك البلاد النائية، وينسابوا بين طبقات السكان الذين يخالفونهم جنسًا ولغة ودينًا وأخلاقًا وعادات، استطاعوا أن يستميلوا إليهم القلوب، ويتبوؤوا مقعدًا عليًّا.

اتسع نطاق تجارتهم اتساعًا أكثر مما يتوقعون، ونمت ثرواتهم نموًا ما كانوا يحلمون به من قبل، مسكوا زمام التجارة في البر والبحر، وتسيطروا على المواصلات ما بين القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر، وكانت مراكبهم التي بلغت أكثر من مائة تجوب جزائر جاوة، وتبحر إلى الهند، وإلى سواحل الجزيرة العربية، ثم تعود محملة بأنواع البضائع وأصناف المتاجر، وكانوا يقودون تلك المراكب بأنفسهم، وقد دامت سيادتهم على المواصلات البحرية زمنًا ليس بقصير، وفي سنة ١٨٥٥م بدأت مراكبهم تتناقص وتتضاءل بسبب منافسة المراكب البخارية لها.

وبالرغم عن تناقص مراكبهم، فإن عددهم أخذ يزداد بسهولة المواصلات بين حضرموت وإندونيسيا، وهذه الإحصاءات الرسمية الآتية تدلنا على ازدياد هجرتهم:

سنة	في جاوة ومدورا	في الجزائر الأخرى	المجموع
١٨٥٩م	....	....	....
١٨٧٠م	٧٤٩٥	....	....
١٨٨٥م	١٠٨٨٨	....	....

١٩٠٥م	١٩١٤٨	١٠٤٤٠	٢٩٥٠٠
١٩٢٠م	٢٧٨٠٦	١٧١١٥	٤٤٩٢١

وكانت الحكومة الهولندية تشدد في تطبيق قوانين المهاجرة عليهم، فكانت تحصرهم في جهات خاصة، ولا تسمح لهم بالتجول من بلد إلى بلد إلا بإذن خاص، وبعد صعوبة شديدة، وقد دام هذا الضغط والتشديد سنين عديدة، وفي سنة ١٩١٦م تساهلت معهم الحكومة نوعًا، وفي سنة ١٩١٩م رفعت عنهم ذلك التضييق وأطلقت لهم العنان يسافرون من مدينة إلى مدينة، ومن جزيرة إلى أخرى دون أن يجدوا أمامهم صعوبات وعراقيل.

حالتهم العلمية

لم تكن لهم جمعيات تذكر قبل عام ١٩٠٠م، ولا مدارس سوى كتاتيب صغيرة قليلة لتعليم الكتابة والقراءة وقراءة القرآن الكريم وجزء ضئيل من الفقه، أما اللغة العربية فلا تدرس، ولذلك فكل مواليد العرب في إندونيسيا يجهلون لغتهم كل الجهل اللهم أولئك الأفراد الذين أسعدهم الحظ لزيارة وطنهم حضرموت، وكانت دراسة تلك المواد مقصورة على الذكور دون الإناث؛ لأنهم كانوا يحرمون تعليم البنت حتى سنة ١٩١٥م، وكان الإقبال على تلك الكتاتيب ضئيلًا جدًا، ولذلك فالأمية كانت منتشرة انتشارًا هائلًا، وهناك أفراد نالوا من تجارتهم ثروات عظيمة، وهم أميون لا يعرفون الكتابة ولا القراءة، ولم تكن هناك نوادٍ ولا جمعيات رياضية؛ لأن الآباء لا يتركون لأبنائهم فرصة لتكوين مجتمعات لهم، ولا يسمحون لهم بممارسة الألعاب الرياضية، وإنما كان كل همهم تدريب أبنائهم على التجارة حينما يبلغون سن الرشد، أما الصحف العربية فليس لها أثر البتة، على أن هناك أفرادًا وهم قليلون جدًا كانوا يطالعون بعض الصحف المصرية كـ(الأهرام) ومجلتي (الهلال) و(المنار)، وكان العلماء جامدين كل الجمود، ولم يكن لهم همّ

سوى قراءة الكتب الدينية وإلقاء المحاضرات في المساجد فيما له علاقة بالصلاة والصوم والحج.

وفي سنة ١٩٠٣م أنشأ جماعة من آل باعلوي وغيرهم (جمعية خير) في بتافيا ولعلها أولى الجمعيات العربية. وفي سنة ١٩٠٥م أنشأت هذه الجمعية مدرسة وهي الأولى من نوعها، ولو أن التعليم فيها لا يتجاوز الكتابة والقراءة، ودراسة مبادئ اللغة العربية والدين.

وكانت الخرافات منتشرة انتشارًا هائلًا، وكان العلويون -وهم أصحاب السلطة الروحية- يتمتعون بالمزايا التي يتمتعون بها في حضرموت، فكان الفرد منهم سواء أكان صغيرًا أو كبيراً عالمًا أو جاهلًا صالحًا أو طالحًا يجب أن يحترم ويكرم ويعطى له المقام الأعلى، ويجب أن تقبل يده عند المصافحة، وأن تضاف إلى اسمه لفظة سيد أو حبيب، وتقدم لبعض موتاهم القرابين والنذور لدفع الكربات وجلب الرزق وإطالة العمر، وما إلى ذلك من الخرافات والخزعبلات التي يمقتها العقل والدين، ويتبرأ منها الله والرسول، ويحرم العلويون تزويج بناتهم من غيرهم.

وحدث في سنقافورا سنة ١٩٠٥م أن تزوج هندي بعلوية، فأحدث ذلك ضجة في المجتمع الحضرمي، وهاج العلويون وماجوا وثارت ثائرتهم، وقد استفتى أحد الحضارم بسنقافورا صاحب الفضيلة العلامة الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) عن صحة ذلك الزواج، فأفتى فضيلته بصحته في الجزء السادس من المجلد الثامن من (المنار) الصادر يوم ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٣هـ الموافق يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٥م، وقد أثارت تلك الفتوى غضب العلويين حتى إن الشيخ عمر بن سالم العطاس العلوي أصدر فتوى حرم فيها تزويج العلوية لغير العلوي ولو رضيت ورضي وليها، وحكم على الناس بالعبودية للعلويين.

ونحن هنا ننشر تلك الفتوى التي نشرتها مجلة (المنار) بمصر، ورد عليها العلامة الشيخ محمد رشيد رضا:

فتوى الشيخ عمر العطاس

«تزويج الشريفة بغير شريف وفضل أهل البيت»

«سيدي، هل هذه الفتوى المذكورة أدناه صحيحة؟ ويجوز العمل بما فيها؟ أم الأصح خلافها؟ أفيدونا؛ لا زلتم خير خلف لخير سلف عن جوهر الإسلامية، وأرجو من حضرتكم الكلام عنها في المنار، وهي: ما قولكم في من يستحل تزويج الشرائف بمن ليسوا بأشراف؟ بل لو كان بعضهم يزعم أنه هاشمي أو مطلبي أو من بقية قريش، فهل يصح تزويجهم بالشرائف أو لا؟».

الجواب -والله أعلم بالصواب-:

«اعلم أن مراعاة الكفاءة في النكاح واجبة، وهي في النسب على أربع درجات: [كذا]. الأولى: العرب. لا يكافئهم غيرهم من العجم. الثانية: قريش. لا يكافئهم غيرهم من بقية العرب. الثالثة: بنو هاشم. لا يكافئهم غيرهم من بقية قريش. الرابعة: أولاد فاطمة الزهراء بنو الحسن والحسين رضي الله عنهم لا يكافئهم غيرهم من بني هاشم.

والدليل عليه كما في التحفة والنهاية وغيرهما خبر مسلم أنه ﷺ قال: «إن الله اصطفى من العرب كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم»، والأحاديث الواردة في فضل العرب وفي فضل قريش وفي فضل بني هاشم كثيرة جدًا. وقال ابن حجر في التحفة والرملي في النهاية: أولاد فاطمة لا يكافئهم غيرهم من بقية بني هاشم، لأن من خصائصه ﷺ: أن أولاد بناته ينتسبون إليه في الكفاءة وغيرها، كالوقف والوصية، كما صرحوا به، لأنهم أبناؤه كما ثبت في قصة المباهلة في قوله تعالى: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾، فإنه ورد أنه خرج ومعه

الحسن والحسين وعلي وفاطمة.

وروى الحاكم، قال ﷺ: «**لكل بني أم عصبة إلا أبناء فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم**».

وأخرج الترمذي عن أسامة أنه ﷺ أجلس الحسن والحسين يومًا على فخذيه وقال: «**هذان ابناي وابنا بنتي. اللهم إني أحبهما فأحبهما**».

وأخرج الطبراني وغيره أنه ﷺ قال: «**كل بني أم ينتمون إلى عصبة إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم**».

فقول الشارع نص، ويترتب عليه أحكام النبوة في الأشباح والأرواح كالحسن والحسين وأولادهما، والتشريف بعض خصائصه ﷺ لوجوب الصلاة عليهم ودخولهم في آية التطهير، وتحريم الزكاة عليهم، وافتراض محبتهم على الأمة، وغير ذلك.

ثم اعلم أن الشرف قسمان: ذاتي، وصفاتي. وقد اصطلح العلماء على أن الشرف الذاتي للنبي ﷺ بالنسبة لذريته، فكما كانت ذات النبوة مختارة إليه من الوجود جعلها الله معدنًا لكل نعت محمود، ولم يزل يسري منها في شعبها مظهرها في المعدن، ومع ذلك فقد بالغ الجليل الكبير في كمال التطهير لها كما قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، لا بعمل عملوه ولا بصالح قدموه، بل بسابق عناية من الله لهم، فتأثير البضعة النبوية لا يدركه أكابر الأولياء من غيرهم، ولو جاهدوا أبد الآباد، ولهذا السر قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

إذا عرفت ذلك واتضح لك أن مقام ذات النبوة وقدرها لا يدرك، وعرفت أن الكفاءة عند العرب بل وغيرهم أمر مرعي، وقد جاء الشرع في ذلك على موافقة عادتهم، وعرفت أن تزويج الأدنى بمن ليس كفؤًا لها يلحق عارًا على عصبتها كما صرح به الفقهاء، الواصل ذلك العار عند تزويج الشرائف بغير الأشراف إلى مقامه ﷺ، تحقق لديك أن الجرأة على ذلك إيذاء للنبي ﷺ ولذريته.

وأي إيذاء أعظم من إلحاق العار، فقد قال ﷺ: «**من آذى أهل بيتي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله**».

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تؤذوني في أهل بيتي**» إلخ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**احفظوني في أهل بيتي فإيذاؤهم من أكبر الكبائر، ومن استحله كفر**».

فلا يجوز تزويج غير السيد بالسيدة ولو رضيت وأسقطت الكفاءة أو رضي وليها؛ لأن الحق ليس لهما، لأنه شرف ذاتي ليس من كسبهما حتى يستعطاه، بل له ﷺ ولكافة أبناء الحسنين ولا يتصور رضاهم، وقد ثبت أنهم موالٍ على ما سواهم من كافة الخلق بنص حديث: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وهل يجوز تزويج العبد مولاته؟! لا قائل به، بل قد منع خليفة الزمان السلطان عبدالحميد خان أيده الله تبعًا لسلفه تزويج السيدات بغير السادة، وأمر الخليفة يجب العمل به في المباحات فضلًا عن الموافق للحكم الشرعي.

وأما ما نسب إلى الإمام مالك عالم دار الهجرة رضي الله عنه من أن المسلمين أكفاء، فلا يبعد أنه مقول عليه، لأنه ثبت عنه أنه امتنع من لبس النعال في المدينة، وقال: «أستحي أن أطأ بنعلي أرضًا وطئها رسول الله ﷺ بقدمه»، فمن استعظم واستشرف أرضًا وطئها رسول الله ﷺ بقدمه يبيح ويستحل افتراش ووطء بضعته ﷺ، يجل قدره عما نسب إليه رضي الله عنه.

وفي هذا القدر كفاية لمن منَّ الله عليه بالهداية. ومن قال بخلاف ما ذكر فإما من عدم اطلاع، وإما جهل بقدره ﷺ وقدر أهل بيته، بل من تجرأ وارتكب ذلك بعد اطلاعه على ما ذكر فهو ضعيف إيمان، بل مسلوبه؛ لمراغمته ومعاندته للشرع، يخشى عليه من سوء العاقبة ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾. حفظنا الله من

ارتكاب الموبقات، وعصمنا من الهجوم على الخطيئات، وعرَّفنا قدر نبيه وأهل بيته السادات، إنه ولي التوفيق.

غير أنه معلوم لكل ذي عقل أنه للضرورات تباح المحظورات، وارتكاب أخف الضررين لدفع الأشد متعين، فلا يلزمك العناد، وارتكاب الفساد، والعدول عن سبيل الرشاد. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قاله بفمه، وكتبه بقلمه، أضعف الناس: عمر بن سالم العطاس، عفا الله عنه آمين، وذلك في شهر محرم سنة ١٣٢٣هـ».

[ج] «سبق لنا أن نشرنا في هذه المسألة سؤالًا لأحد القراء في سنغافورة في واقعة حال هناك، ثم جاءنا من سنغافورة رسالة بتوقيع أحد الحضارمة رغب إلينا مرسلها أن نرمز له بحرفي ع. ب، قال فيها بعد الثناء والإطراء: إن ما نشرناه في الواقعة (في ج ٦ م ٨) لم يكن السؤال فيه مطابقًا للواقع، وأن الشريفة التي تزوجت بالسيد الهندي قد زوجها وليها الشرعي برضاه ورضاها مع علمهما بأن الزوج مطعون في نسبه، على أنه قد شهد ١٢ شاهدًا من أهالي بلده وغيره بالسيادة له، وأن ما ذكره السائل أيضًا من طعن ذلك الرجل بكتب الشرع غير صحيح.

وطلب منا هذا الكاتب أن نذكر الحكم في الواقعة على ما قرره هو من تزويج ولي الشريفة لها برضاه ورضاها. على أنه لا حاجة إلى ذلك، فإن الجواب الأول ناطق بصحة العقد في هذه الحالة.

وقد فهمنا من الرسالة ومن مجموع ما كتب إلينا في معناها من تلك الجزيرة أن سبب الاهتمام بهذه المسألة؛ هو أن بعض السادات الحضرميين الذين يوجد منهم طائفة هناك غالون في التفاخر بأنسابهم والإدلال بأحسابهم، ولذلك ذهبوا في الغلو إلى ما تراه في فتوى الشيخ عمر بن سالم العطاس، التي سألنا عنها أحد القراء

في سنغافورة، وقد أرسلت إلينا صورتها مطبوعة، فعلمنا أنهم طبعوها ووزعوها لإثبات اعتقادهم في أنفسهم.

أما الحق في مسألة الكفاءة: فهو ما بيناه في الجزء العاشر من المجلد السابع أيام حادثة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد، وقد نقل المؤيد ما كتبناه يومئذ، فاطلع عليه الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية رحمه الله تعالى، وكان في مصيف رأس البر، فكتب إليَّ: «اطلعت في المؤيد على ما كتبت في الكفاءة والأولياء واستحسنته».

وإنما اطلع عليه في المؤيد لأنه نشر فيه ما كتبت قبل أن أرسل المنار، ولذلك كتب إليَّ الإمام في ذلك الرقيم: «كنت أنتظر أن يصل إليَّ المنار هنا ليكون مما ألقي عليه نظري إذا أرجعته عن أمواج البحر الأبيض ولم أطلقه إلى بساط النيل الأحمر، فإني جالس طول يومي بين البحرين»، والمقصود أن الأستاذ الإمام قد أجاز ما كتبته في الكفاءة، فكأنه أفتى به.

أما المنزع الذي رمى عنه الشيخ عمر بن سالم العطاس فهو غريب، وأوغله في الغربة والغرابة جعل الكفاءة في الشرفاء حقًا للنبي ﷺ ولجميع أبناء الحسنين، بحيث لا يصح تزويج الشريفة بغير شريف ولو رضيت ورضي وليها، إذ لا يتصور أن يرضى النبي ﷺ وسائر الشرفاء في مشارق الأرض ومغاربها، واستدلاله على ذلك بكونه إيذاء للنبي بإيذاء أهل بيته، قال: وإيذاؤهم من أكبر الكبائر يكفر مستحله، ثم استدلاله أيضًا بحديث: «من كنت مولاه فعلي مولاه» على كون ذراري علي موالي على من سواهم من جميع الخلق بالنص، وخروجه من ذلك إلى أن جميع الناس عبيد لهم، وأنه لا قائل بجواز تزويج العبد لمولاته. نعوذ بالله من هذا الغلو والغرور.

يستدل الشيعة بحديث: «من كنت مولاه فعلي مولاه» على أن عليًا أحق بالخلافة ممن سبقه فيها، ولا أعرف عنهم أنهم بعدوا في الاستدلال إلى جعل جميع الناس

عبيدًا له ولذريته، بل لم يقل مسلم بأن الناس عبيد للنبي ﷺ، بل الإسلام يمنع هذا، فمن أين جاء به العطاس -رحمه الله ويصلح باله-؟ وكيف يتفق استنباطه هذا مع ذكره السلطان عبدالحميد بلقب الخلافة؟

وإذا كان غير الشريف العلوي الفاطمي لا يجوز أن يكون زوجًا للشريفة لأنه عبدها، فكيف يكون العبد خليفة على ساداته ومواليه الذين لا يحصى عددهم؟! والخليفة مولى لرعيته، يجب عليهم طاعته في كل معروف، وأما الزوج فليس مولى لامرأته بهذا المعنى، بل يقول جماهير الفقهاء إنه لا تجب عليها طاعته إلا في المكث في البيت، والتمكين من الاستمتاع.

والحق أن لفظ المولى في الحديث معناه الناصر كما قال الجوهري في الصحاح، ويطلق في اللغة على الصاحب، والقريب، والجار، والحليف، والنزيل، والشريك، والعبد، والمعتَق والمعتِق. فكيف يسمح لنا الدين أن نتخطى هذه المعاني، ونقول إن الحديث نص في أن الناس عبيد لذرية علي؟!

هل كان أبو بكر وعمر والعباس وغيرهم من الصحابة وسائر المسلمين عبيدًا لعلي في حياته؟ وهل ملك أولاده من بعده الناس بالإرث؟ أم نص الحديث دال على أنهم يملكونهم بالاستقلال في كل زمان؟ ظاهر قول العطاس الثاني، وكل مسلم يبرأ إلى الله من الأول والثاني.

كان الشرفاء -وما زالوا- يزوجون بناتهم من غيرهم، وجميع العلماء يستحلون هذا مع التراضي، وسائر الناس تبع لهم فيه، فهل يقول العطاس: إن جميع من استحل ذلك كافر، حتى المزوَّجون والمتزوِّجات بالرضى والاختيار، فيكفر الشرفاء مبالغة في تعظيمهم؟؟؟

ليس هذا المنزع الذي رأيت بأغرب من منزعه الآخر في جعل النسبة إلى الحسن والحسين في معنى نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، من حيث إن شرفها ذاتي غير

مدرك، وأنها من اختيار الله تعالى، وأنها منبع لكل نعت محمود، وأن أكابر الأولياء لو جاهدوا أبد الآباد لا يلحقون لشريف أثرًا، لأن الله تعالى بالغ في كمال تطهير آل البيت إذ قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ لا بعمل عملوه، ولا بصالح قدموه، بل بسابق عناية من الله لهم. ثم قال: ولهذا السر قال الله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.

فانظروا أيها المنصفون! كيف يلعب بكتاب الله ويحرف كلمه عن معناه، بدعوى الاهتداء بهديه والعمل بأمره ونهيه؟ وإنما هو اتباع الهوى، شرد بالغالين عن معهدي الهدى، وأحمد الله تعالى أن جعلني شريفًا غير مفتون، وجنبني وقومي مزال الغرور.

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [سورة الأحزاب]، فقد ورد تعقيبًا لآيات في خطاب نساء النبي عليه الصلاة والسلام يأمرهن الله تعالى بها وينهاهن ويعلمهن بأن جزاءهن على الخير والشر مضاعف، لأنهن لسن كسائر النساء، وهذا ظاهر معقول المعنى، فإن بيت المرشد الكامل قدوة في الهدى والرشاد، ولو ظهر العمل السيئ من ذلك البيت الذي جعله الله منبعًا للهدى ومشرقًا للوحي، لكان أعظم منفر عن الاهتداء والإيمان.

فقوله تعالى بعد تلك الأحكام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ إلخ، تعليل وبيان للحكمة في كون نساء النبي لسن كسائر النساء، وكونهن جديرات بمضاعفة العذاب على المعصية، والثواب على الطاعة لمكان القدوة، كقوله تعالى بعد ذكر أحكام الصيام وما فيها من الرخص: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. وإنما قال: ﴿عَنْكُمُ﴾، لأن النبي ﷺ في البيت، وهو المقصود بالتطهير أولًا، وبالذات لأن كمال نسائه ينسب إلى هدايته ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فليس معناه أنه يطلب من الناس مودة قرابته أجرة لتبليغه أحكام ربه. حاش لله! ما كان النبي أن يطلب على التبليغ أجرًا كما نطق القرآن ونهض البرهان، وإنما الاستثناء منفصل، ومعناه: لا أسألكم أجرًا على ما جئتكم به، فتتوهموا أني طالب منفعة لنفسي، وإنما أسألكم ما هو نافع لكم وهو المودة في القرابة، أي أن تودوا ذوي القربى منكم.

فهو إذن بمعنى ما يؤثر عن الإنجيل من الأمر بمحبة القريب، أو أن تؤذوني في قرابتي منكم، لا لأني بعثت لهدايتكم، فعاملوني معاملة سائر الأقربين ولا تؤذوني. وأما الدِّين فلكم دينكم ولي دين، لست عليه بجبار، وإنما عليَّ البلاغ وللناس الخيار.

وعقب هذا بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، والآية من سورة الشورى وهي مكية من أول القرآن نزولًا، وأمثال هذا الخطاب في الدعوة والاستمالة إلى الحق كثيرة، ولا يمكن أن يحمل لفظ القربى فيه على ذرية فاطمة عليها السلام لما تقدم، ولأنها لم تكن تزوجت ولا ولدت في ذلك العهد.

سبق للمنار قول في تفسير هذه الآية، وفيه أن الشيعة هم الذين انتحلوا لها هذا المعنى غافلين عما وراءه من الطعن في الرسالة، واحتجاج الكافرين على المؤمنين بأن الرسول كان يطلب بدعوته الدنيا لذريته كالملوك والأمراء، وأن القرآن بجملته وتفصيله وسيرة النبي ﷺ في نفسه وأهله ومعاملته للناس وتوليتهم الأعمال؛ كل ذلك مما ينسف هذه الشبهة نسفًا.

أي غلو العطاس -يرحمه الله ويصلح باله- ليس بالغريب؟ إنكاره قول الإمام مالك: إن المسلمين أكفاء، واحتجاجه على ذلك بما كان من أدب هذا الإمام مع النبي عليه السلام، إذ كان لا يطأ أرض المدينة بالنعال، واستنباطه منه عدم إباحة

افتراش البضعة النبوية ووطئها، أيظن أن الإمام مالكًا كان يحرم أن يمشي الناس في المدينة بالنعال، أو أن تركب فيها الحمير والبغال؟ أيظن أنه يقيس اتخاذ المرأة زوجًا وقرينة للرجل تشاركه في نعمته، وتتحد معه في معيشته على وطئ الأرض بالنعل أو بغير النعل؟ ما هذا الفقه المقلوب؟

يسهل على من يسلك مسلك هذا المفتي في الاستنباط أن يستخرج من كلامه ما يعده الفقهاء من المكفرات، فيكفره كما كفر من يخالف فتواه، أو كاد يكفر بها جميع المسلمين. والحق أنه لا يحكم بكفر أحد من أهل القبلة إلا بقول أو عمل يدل دلالة قطعية على أنه لا يؤمن بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ مما هو متواتر مجمع عليه، معلوم من الدين بالضرورة.

فمن آذى شريفًا من آل البيت لحظ من حظوظ الدنيا يكون عاصيًا لله كما لو آذى غيره، لأن الإيذاء حرام. وأما من يؤذي الشرفاء لأنهم ينتمون إلى النبي ﷺ فالأقرب أن يكون إيذاؤه إياهم بهذا القصد معلولًا لكفره به لا علة له، إذ لا يعقل أن يقصد المؤمن ذلك، ولا يظهر هذا إلا فيمن يؤذي كل من قدر على إيذائه منهم، فمتى خص فردًا أو أفرادًا علم أنه لا يؤذيهم لأجل النسبة.

وجملة القول أن الشريعة الإسلامية شريعة عدل ومساواة، لا شريعة تقسيم ومحاباة، وأحكامها عامة، مدار العبادات فيها على تزكية النفس، وتحليتها بالفضائل، ومدار المعاملات على درء المفاسد والمضار، وجلب المنافع، وحفظ المصالح، وليس لأحد أن يخص الشرفاء أو غيرهم بأحكام شرعية تؤخذ بالتسليم على أنها من التعبد.

فأبناء الحسنين وغيرهم من الناس سواء في أحكامها. وما ورد في تخصيصها آل النبي ﷺ ببعض الأحكام كتحريم الصدقة عليهم معقول المعنى، ولا يجوز لأحد أن يزيد عليه لأن التخصيص خلاف القياس فلا يقاس عليه. وفي الحديث

الصحيح: إن الآل في باب تحريم الصدقة: هم بنو هاشم، وبنو المطلب، لا ذرية فاطمة خاصة.

وإن الكفاءة في النكاح لا يستدل عليها بالفضائل والخصائص، وإنما يرجع فيها إلى نص الشارع أو القياس الصحيح. أما نص الشارع فلم يصح منه في مسألتنا شيء. قال الحافظ بن حجر في شرح البخاري: لم يثبت في اعتبار الكفاءة بالنسب حديث، وأما ما أخرجه البزار من حديث معاذ رفعه: «العرب بعضهم أكفاء بعض، والموالي بعضهم أكفاء بعض» إسناده ضعيف. اهـ.

وإنما الكفاءة الثابتة في السنة خاصة بالدين، والحرية، والأخلاق، واليسار، وهذا ما كان عليه أكثر أهل الصدر الأول، ومن قال من الفقهاء باعتبارها في النسب، فحجته الصحيحة القياس، ومداره على دفع العار، فإذا لم يكن هنالك عار فلا اعتبار بالنسب في الكفاءة، وعلى هذا أكثر البلاد الإسلامية فيما نظن. وإذا رضيت امرأة شريفة هي وأولياؤها بالتزوج بمن ليس بشريف في بلاد يعد ذلك فيها من العار، فلا حرج عليهم لأنهم أعلم بمصلحتهم، وأحرص على شرف أنفسهم، والأمر ليس بتعبدي.

ولو كان ما ذكره العطاس من فضل أهل البيت يجعل استنباطه صحيحًا وداخلًا في الأحكام التعبدية؛ لكان لنا أن نقول مثله في العلماء، فإن ما ورد في الكتاب والسنة في مدح العلم والعلماء؛ أعظم وأظهر مما ورد في آل البيت، فهل نقول إنه لا يحل للعالم أن يزوج ابنته بمن ليس بعالم؛ لأن ذلك إهانة للعالم الذي عظمه الله تعالى، فالأمر فيه ليس إليه، وإنما هو متعبد بذلك؟

كلا! إن الزواج من المعاملات التي تبنى على أساس المصلحة، وكل قوم أعلم

بمصلحتهم، والشرع لم يحجر عليهم في اختيار الخير، وإنما حرم عليهم الإيذاء، والله أعلم وأحكم.

هذا وإنني لا أظن بالشيخ عمر بن العطاس إلا الخير وحسن النية، وأشكر له حبه للشرفاء، ولو أن فتواه طبعت لما رددت عليها في (المنار)، وأسأل الله تعالى أن يحفظنا وإياه من الغلو، ويلهمنا رشدنا أجمعين». اهـ.

ليس من شك أن هذه الحادثة هي الهزة الأولى لأفكار الحضارم بجزائر الهند الشرقية، وليس من شك أن هناك أفرادًا تسرب إلى أذهانهم شيء من روح المساواة الشرعية ومن حرية الفكر، ولا ريب أن الفضل في ذلك إنما يعود لمجلة (المنار) الحرة الغراء، ولكن تلك الهزة لم تكن عنيفة، إذ سرعان ما تضاءلت وآلت حركتها إلى الخمود، وأولئك الأفراد الذين أصابهم طل من روح المساواة لم يستطيعوا البروز والظهور؛ لأن الظروف لم تكن تسمح لهم بذلك، ثم إنهم لم يجدوا لفكرتهم أنصارًا ولا أعوانًا.

العلامة الشيخ أحمد السوركتي

زعيم النهضة الدينية الحرة



العلامة الشيخ أحمد السوركتي

ولد العلامة الشيخ أحمد محمد السوركتي الأنصاري ببلدة أدفو من أعمال دنقله سنة ١٢٩٢هـ من أبوين ينتسبان إلى قبلية الجوابرة، نسبة إلى جابر بن عبدالله الأنصاري، وكانت هذه القبيلة ساكنة في صعيد مصر، ولما احتل السلطان سليم مصرَ دعا الجوابرة إلى الطاعة فرفضوا، فجهز عليهم، ولما رأوا أنهم لا طاقة لهم بجنود السلطان تقهقروا إلى السودان، وهناك حطوا رحالهم، وصار لهم نفوذ روحي ومادي، ولا تزال لهم في بلاد السودان آثار من حصون وقلاع وقباب وخرافات

وترَّاهات طويلة عريضة، وكلمة السوركتي: لقب لأحد أجداد الشيخ أحمد، وهي من لغة أهالي تلك البلاد، ومعناها: كثير الكتب، والسبب أن جده رحل إلى مصر لطلب العلم، وعاد من سفره بكتب كثيرة فلقب بهذا اللقب؛ لأن سور عندهم الكتاب، (وكتي) للمبالغة في الكثرة. ولما مات أبو الشيخ أحمد استوحش من البلاد لفقدان والديه، وتنقل في بعض المعاهد العلمية الدينية في السودان، وحفظ القرآن الكريم على قراءة نافع، ودرس الفقه والتوحيد، ثم رحل إلى الحجاز سنة ١٣١٤هـ، وأقام بالمدينة أربع سنوات مجدًا في طلب العلوم الشرعية واللغة العربية، ثم اختار مكة، فجد في الطلب حتى نال الشهادة العالمية، وأنشأ هناك مدرسة أهلية، واستمر في التدريس فيها في الحرم المكي، وكان لمدرسته إقبال منقطع النظير.

وفي سنة ١٣٢٩هـ أتاه طلب من (جمعية خير) في بتافيا لإدارة التعليم في مدرستها، وكان الواسطة لذلك العلامة الشيخ محمد بن يوسف الخياط، والعلامة الشيخ حسين بن محمد الحبشي، فسار العلامة الشيخ أحمد السوركتي إلى جاوة، وبصحبته معلمين، ومندوب (جمعية خير) السيد عبدالله بن عبدالمعبود الموصلي، ولما وصلوا بتافيا قابلهم العلويون وغيرهم بكل إجلال واحترام، واحتفوا بهم احتفاء يعجز عن وصفه البيان، ولقد سحر القوم الشيخ أحمد السوركتي بما طبع عليه من الخلق الكريم، والأدب الجم، وما اتصف به من الصلاح والورع والعلم والحلم والتواضع والتسامح، وكان الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن شهاب العلوي[١] -الذي أصبح بعد ظهور جمعية الإرشاد ألدّ أعداء الشيخ أحمد السوركتي- يجل الشيخ كل الإجلال، ويحترمه كل الاحترام، ويدعو الناس لتعظيمه وتكريمه.

(١) كان هذا الرجل من أكبر زعماء آل باعلوي، وأكثرهم عملاً لمصلحة عشيرته، ذكيًا شديد الذكاء، ولكنه هادئ في الوقت نفسه، كان عالمًا وأديبًا، وخطيبًا بليغًا، ولقد كانت وفاته خسارة كبرى على العلويين.

بدء نفور العلويين من الشيخ أحمد السوركتي وتحاملهم عليه

حدث أن سأل السيد عمر سعيد بن سنكر الأستاذ الشيخ أحمد السوركتي وكان في مجلس من مجالس العرب بمدينة صولو عن جواز تزويج العلوية بغير العلوي، فأجاب فضيلته بالجواز، وحيث إن العلويين وغيرهم من الحضارم يعتقدون تحريم زواج العلوية بغير العلوي، فقد أخذ القوم يتهامسون في شيء كثير من الدهشة والحيرة، وذاعت فتوى الشيخ في بتافيا وغيرها من بلدان جاوة، ولم يكد يعود الشيخ أحمد السوركتي من رحلته إلى بتافيا إلا وقد أصبحت وجوه العلويين عابسة ضده، ينظرون إليه نظرات كلها مقت وغل، ولم يجد الشيخ عشر معشار ما كان يلقاه من القوم من الاحترام والإجلال، بل وجد منهم إعراضًا وإدبارًا وتعبيسًا ونفورًا، وليس للشيخ ذنب سوى أنه أفتى بصحة تزويج العلوية من غير العلوي.

واضطر الشيخ لذلك أن يقدم لـ(جمعية خير) استقالته يوم ١٥ شوال سنة ١٣٣٣هـ - ٦ سبتمبر عام ١٩١٤م.

جمعية الإصلاح والإرشاد

لم يرد الله أن تبقى سلطة العلويين الروحية حاكمة على الحضارمة مالكة لمشاعرهم وعواطفهم، لم يشأ أن تبقى تلك الأفكار جامدة، والأذهان هامدة، والأبصار عشواء، والقلوب عمياء، بل أراد أن يحرر تلك النفوس من عبوديتها، وتلك العقول من خبالها، أراد أن يحطم تلك الخرافات والترهات والبدع والأوهام التي لعبت بعقول القوم مئات السنين، لذلك هدى جماعة من أعيان الحضارمة لتأسيس (جمعية الإصلاح والإرشاد) في بتافيا سنة ١٩١٤م. وكان من أكبر القائمين بتكاليفها وبتكاليف مدرستها التي أنشئت أوائل سنة ١٩١٥م نقيب العرب ببتافيا السيد عمر منقوش، والسيد سعيد مشعبي، وكان العلامة الأستاذ أحمد السوركتي هو القائم بإدارة التعليم في مدرسة الإرشاد، ويساعده في التدريس العلامة الأستاذ محمد عبيد عبود الحضرمي وجماعة من السودانيين، منهم العلامة الورع الأستاذ أحمد العاقب، ولجمعية الإرشاد قانون أساسي هذا نصه:

الفصل الأول

هذه الجمعية اسمها: (جمعية الإصلاح والإرشاد العربية)، ومركزها ببتاوى.

الفصل الثاني

غرض هذه الجمعية جمع الأموال وصرفها فيما يأتي:

١- السعي في إصلاح وترقية الأمة الإسلامية عمومًا والعربية خصوصًا أدبيًا واقتصاديًا بنشر الدين الإسلامي، وبث الآداب، والأخلاق الفاضلة، ونشر العلم واللغة العربية.

٢- القيام بالمشاريع الخيرية: كالمدارس، وبيوت الأيتام والأرامل والعجزة، والمستشفيات، وتتوسل الجمعية إلى أغراضها بالتأليف والنشر، وعقد الاجتماعات، وإلقاء المحاضرات، وإرسال البعثات، وإنشاء النوادي والمكاتب العمومية، ومساعدة الجمعيات التي تتفق مع هذه الجمعية في المقصد بشرط أن يكون كل ذلك غير مخالف للدين الإسلامي ولا لقوانين الحكومة المحلية.

الفصل الثالث

هذه الجمعية أقيمت لمدة تسع وعشرين سنة وتسعة أشهر، ويعتبر ذلك من ابتداء صدور فرمان الإذن المصادق عليه من فخامة الوالي العام، ومن ذلك الحين صار لها الحق في ابتداء إدارة الأشغال.

ويجوز للمركز أن يفتح له فرعًا في بلدة يكون أعضاؤها عشرة سواء كانت في هنديا نيدرلند أو في غيرها من الأماكن، وإدارة الفرع تكون من أعضاء ذلك الفرع نفسه.

الفصل الرابع

كل شخص من الأمة الإسلامية عليه أن يقدم طلبًا خطيًا إلى الإدارة المركزية أو وكلائها، أو إلى مدير الفرع الذي في بلدته، موضحًا فيه اسمه وحرفته ومحل إقامته، وللإدارة المركزية أو وكلائها أو مديري الفرع حق القبول والرفض، وللمجالس المذكورة رفع أعضاء شرف من الذين يتبرعون لها بمال كثير، أو يقومون لها بعمل عظيم النفع، وكل عضو من أعضاء هذه الجمعية يمكن للاجتماع العمومي، وللإدارة المركزية رفضه من العضوية متى تبين وثبت أنه يسعى ضد مصالح الجمعية.

الفصل الخامس

القيادة العامة للجمعية هي بيد الإدارة المركزية التي لا يقل أعضاؤها عن أحد عشر نفرًا، (أي رئيسًا ونائبه، وكاتبًا أولًا، وكاتبًا ثانيًا، وأمينًا للصندوق، ومفتشين، ومستشارًا واحدًا).

ولا يزيدون على سبعة عشر نفرًا، ويكون انتخابهم بواسطة الاجتماع العمومي لمدة ثلاث سنوات، ولا مانع من إعادة انتخابهم مرة أخرى، وللإدارة حق رفع مساعدين وإقامة لجان وهيئات متى بدت الحاجة.

أما إدارات الفروع فلا يقل أعضاؤها عن ٤ أنفار بما فيهم الرئيس والكاتب وأمين الصندوق والمفتش، ولا يزيدون على أحد عشر نفرًا، وانتخابهم كعزلهم موكول إلى أعضاء ذلك الفرع نفسه ما لم يخالفوا القانون الأساسي (وإلا فللإدارة المركزية حق عزلهم)، ويجب في الحال رفع معلومات كتابية إلى الإدارة المركزية، وعليها المصادقة ما لم يخالف ذلك القانون الأساسي، وانتخابهم لمدة سنة، ويجوز انتخابهم مرة ثانية.

والمركز مسؤول في تنفيذ نظام الجمعية، وعليه أن يفكر فيما يرقيها ويحقق مقاصدها، وكل إدارة تنوب عن الجمعية التي تديرها أمام المحاكم وغيرها كما أن لها أن تنيب من تشاء.

وفي كل سنة يجب على المركز عقد اجتماع عام يدعى إليه أعضاء إدارات الفروع للنظر في أعمال الجمعية وميزانيتها، وثروتها، وبروجرام عملها للسنة القادمة، وليس للمركز حق إيقاف أي فرع من فروعه إلا إذا خالف القانون الأساسي وأصر على المخالفة، وفي حين حدوث خلاف بين الفرع والمركز يحكم بينهما الاجتماع العام لإدارات الفروع والمركز، ويكون حكمه نافذًا مقبولًا.

وأية إدارة أخلت بواجبها يجوز عزلها قبل انتهاء مدتها المقررة بواسطة اجتماع عمومي لهذا الغرض وحده، يعقد في البلدة التي فيها الإدارة المخلة.

ولا يجوز لأحد من آل باعلوي أن يكون عضوًا من أعضاء الرئاسة أو وكيلًا لها[1].

(١) السبب لمنع العلويين عن رئاسة الإرشاد: هو أن هؤلاء كانوا يقولون عند بدء حركة الإرشاد: إن الحضارم من غير العلويين لا يستطيعون أن يقوموا بمشروع إن لم يكن قائدهم علويًا، فأراد هؤلاء أن يبرهنوا بالمقدرة والكفاءة على العمل.

الفصل السادس

كل كتاب يصدر عن إدارة الجمعية يجب أن يكون ممضى عليه بإمضاء الرئيس والكاتب المعتمد.

الفصل السابع

بقية الشؤون المتعلقة بالجمعية ستسطر في قانونها الداخلي الذي يجب إبرامه أو إبطاله بواسطة اجتماع أعضاء هذه الجمعية، وحينئذ يجب الخضوع له ما لم يكن مخالفًا لقوانين الحكومة المحلية.

الفصل الثامن

هذا القانون لا يجوز تغييره ولا تبديله إلا بموافقة ثلاثة أرباع أعضاء هذه الجمعية الحاضرين في الاجتماع وقبول الوالي العام لذلك.

الفصل التاسع

للإدارة المركزية وإدارات الفروع أن يبتاعوا للجمعية العقارات، ولهم حق بيعها وإيجارها، وليس للإدارة المركزية حق التصرف في مالية الفروع، وعند سقوط أي فرع من فروع الجمعية يكون جميع ماله وممتلكاته للمركز بعد دفع ما عليه من الدين، والمركز في أي حال من الأحوال غير مسؤول عن دين الفرع.

الفصل العاشر

مالية الجمعية تتكون من الاشتراكات التي يدفعها الأعضاء، ومن الإعانات والصدقات والأوقاف والوصايا، ولمجلس الإدارة المركزية أن يوسع موارد الجمعية بالطرق المشروعة الشريفة، وكل من وهب أو أوصى أو وقف شيئًا على الجمعية، فليس له ولا لورثته الرجوع فيه مطلقًا في أي حال من الأحوال.

الفصل الحادي عشر

لا يجوز إيقاف الجمعية قبل تمام المدة المأذون فيها بموجب ما ذكر في الفصل الثالث، إلا إذا اتفق تسعون في المائة من أعضائها على إيقافها، ويجب عليهم حينئذ أن يراعوا حقوق الديون على حسب القانون، وإذا بقي بعد ذلك شيء من المال، فعلى أعضاء الإدارة أن يوزعوه على المشروعات الخيرية الإسلامية على حسب تقرير الاجتماع العمومي.

وأما الفرع فسقوطه يكون بتوقيف المركز له كما هو مذكور في الفصل الخامس أو باتفاق ثلاثة أرباع أعضاء ذلك الفرع نفسه. اهـ.

لقد أثار ظهور (جمعية الإصلاح والإرشاد) غضب العلويين؛ لأنهم يعلمون أنها ستقضي على سلطتهم الروحية، وعلى تلك الامتيازات التي يتمتعون بها، فأخذوا يتكلمون ضد الشيخ أحمد السوركتي وضد أنصاره في مجالسهم، ويحطون من قدرهم، ويرمونهم بالزندقة والكفر، لينفروا الناس عنهم، ويحولوا بينهم وبين الانضمام إلى صفهم، وأخذوا يكتبون في الصحف الجاوية ضد الشيخ، ويوجهون إليه الأسئلة لقصد تعجيزه ولكن الشيخ رد عليهم ببيان نشره بالعربي، ووزعه على الناس كان له الأثر الحسن فيهم حيث انضم إلى جمعية الإرشاد جمع كثير، وسحب بعض العرب أبناءهم من مدرسة جمعية خير، وألحقوهم بمدرسة الإرشاد، وهذا نص البيان:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وبه نستعين، وصلى الله وسلم على رسوله الصادق الأمين.

حضرة الفاضل مدير جريدة (صولوه هنديا) المحترم، تولاه الله آمين.

بعد تقديم صحف الاحترام نعرض أننا قد قرأنا بواسطة الترجمان في جريدتكم الغراء عدد ٢ صحيفة ٢ الصادرة في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٥م مقالًا صادرًا عن بعض

الإخوان المتحمسين من ذكر المساواة بين المسلمين، تحت إمضاء حرف z، فهذا الأخ الفاضل قد رمز إلينا في مقاله هذا، وأتى فيه بما لا يليق، وهول الأمر في موضوعه، وأطال التشنيع، وخرج عن جادة الإنصاف، وسلك طريق التشفي والاقتراف، فنزل بذلك عن مرتبة من يستحق منا الجواب. ولعله يريد زيادة حطب في نار العصبية التي أوقدها بعض الجهال.

ولما كان مقاله هذا يشف عن عدم إدراكه لحقيقة هذه المسألة، وعن عدم حفظه لشروط المباحثة وقانون الأدب، وكان مقصوده به هتك أعراض المسلمين المصونة فقط، عدلت عن جوابه، وضربت عنه صفحًا، وأكرمت نفسي بعدم مجاراته في هتك الأعراض، ومقابلته بمثل كلامه، كما صفحت عن غيره من قبل، ممن سب وصاح واخترع الأكاذيب وأشاع وآذى بما استطاع، ولست عائدًا إلى مخاطبته؛ لأن التصدي لرد الكلام الذي ليس مبنيًا على أساس المعقول، ولا معضدًا بحجج المنقول، عبث وضياع وقت، فلا يشتغل به إلا من لا شغل له، كما أنه لا يعتمد على مثله إلا من لا عقل له.

ولكن سؤال حضرتكم عن الحق، واستفساركم عن الحقيقة، ضغط على ضميري، وقهره على إجابتكم، وساقه إلى كتابة هذه الكلمات بزاجر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وقوله ﷺ: «**من سئل عن علم يعلمه فكتمه؛ ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**».

غير أني أتأسف كثيرًا من خفاء مثل هذا الأمر المعلوم من الدين بالضرورة على أمثالكم، ومن توهمكم في دين الإسلام المقدس عدم المساواة بين المسلمين،

وإضاعة حقوق الأعمال بمراعاة الأنساب، حتى احتجتم إلى السؤال عنه، ومع ذلك فإني أشكركم على طلب الحقائق، وأبشروا فقد وافاكم الحق نزيهًا يسيرًا، وسألتم عنه خبيرًا.

إن النكاح بين المسلمين، كالبيع والإيجار من جهة أنه متى عينت المنفعة المقابلة من المهر، أو الثمن، أو الأجر وسمح من بيده الأمر، وقبل الآخر؛ صح العقد، وحل بذلك الانتفاع والتمتع. ولا خلاف في ذلك بين علماء الأمة المحمدية المعتبرين، وكلا الفريقين حر مختار فيما في يده أو تحت حكمه قبل المعاقدة، وقد ينوب عن صاحب السلعة وليه أو وكيله، إذا كان ناقص الرشد أو المعرفة؛ لدفع المغابنة.

ولما كان جُل ذلك معلومًا عند حضرتكم بالضرورة، ولم يداخلكم الشك إلا في مسألة النكاح فقط من جهة حكم الدين؛ فإني أذكر لكم في هذه الأسطر بعض ما بلغني من قضايا الرسول ﷺ وأصحابه في ذلك؛ لتعلموا حكم الدين الحقيقي وعدله وبراءته عن الأدناس والسفاسف السياسية، لأن ما جاء به الرسول، وما فعله، وما أمر به، وما أقر عليه؛ هو الدين لا غيره، وإليه التحاكم وإليه الرجوع لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

ثم إن شئتم بعد ذلك مزيدًا من أقوال أهل العلم المتبعين لآثار الرسول، أذكر لكم من نصوص علماء الأمة المعتبرين من أهل المذاهب الأربعة ما يكون به الإقناع، وينكشف به القناع، في مقالة أخرى إن شاء الله تعالى؛ لأن الأئمة الأربعة المجتهدين متفقون على أنه إذا رضيت المرأة ووليها الأقرب أو أولياؤها الأقربون

لتزويج مسلم، وعين المهر، وحصل الإيجاب والقبول بغير شرط بحضور شاهدين صح النكاح بدون نظر إلى شيء وراء ذلك.

وتبعهم على ذلك علماء الأمة المعتبرون، وأما من شذ وخرج عن هذا المنهج الذي أجمع عليه النبي وأصحابه، والأئمة المجتهدون، وعلماء الأمة، وحكماؤها المعتبرون، وغض النظر عن حكم الشرع؛ لمجاراة عادة، أو لإرضاء ذي سلطان، أو عصبية، فليس منا، ولسنا منه.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

كل ذلك مبني على عدل الإسلام ومساواته بين المسلمين، ومحافظته على حقوق الشعوب المتشرفة بتفيء ظلاله، وهاك من كتاب ربك برهانًا على ما أدعيه، وسراجًا يضيء لك ما تبتغيه. قال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إن تقسيم القبائل والشعوب أو تسميتها بالأسماء المختلفة إنما هو لأجل التعارف، كتسمية الأشخاص من أبناء الرجل الواحد لتميزهم عن بعضهم فقط، وهي كتقسيم البحار والرياح والأقطار، ولا تفاضل بينها إلا بالنتائج والآثار.

إن جميع أهالي الأديان متفقون على أن أصل جميع الناس واحد بلا خلاف، ولا فضل لأحد على أحد بذات دمه، ولحمه، ولكنهم يتفاضلون بالصفات والآثار وحسن التربية، كالأثمار المأخوذة من شجرة واحدة فإنها تتفاضل في حلاوة الطعم، وعظم المقدار، والسلامة من الفساد، وكذلك الناس يتفاضلون في العلم، والعمل، وحسن الأخلاق.

وكما أن البذرة المأخوذة من الشجرة الصغيرة تنتج بحسن التربية والعناية شجرة كبيرة ذات أثمار عظيمة فائقة على أصلها في الحلاوة والنضارة، كذلك البذرة المأخوذة من الشجرة العظيمة الجيدة من ذلك النوع يصغر ثمرها، وتنقص حلاوته ويفسد؛ إذا ساءت التربية ونقصت العناية بها.

فكذلك الحال في بني آدم، وفي بني كل رجل فاضل عظيم من البشر، فإن ابن الكريم العالم الفاضل الحسن الأخلاق يكون بليدًا جبانًا خسيسًا سيء الأخلاق إذا ساءت التربية، ويكون ابن البليد الأحمق الخسيس الجاهل كريمًا شجاعًا فاضلًا عالمًا حسن الأخلاق إذا حسنت تربيته، فلا محل للاغترار بالانتساب إلى كريم، أو عالم، أو نبي من الأنبياء.

ولتقرير هذا المبدأ وإقناع المتوهمين خلاف ذلك؛ قال رسول الله ﷺ: «**من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه**»، وقال ﷺ: «**ليس لأحدٍ فضلٌ على أحد إلا بدين أو عمل صالح**»، وقد أخرج الله كنعان بن نوح من آل نوح حينما ساء عمله -مع رجاء أبيه وشفاعته فيه- بقوله الأسمى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فزجره الله بذلك عن إلحاق من لا يعمل مثل عمله. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فقيد الله الإلحاق في الدرجة بالإيمان والاتباع.

لست أعني الإلحاق اللحمي الموضوع لأجل التمييز والتشعيب، أي أن يقال فلان بن فلان، ولكني أعني الإلحاق في الفضيلة. فإذا فهمت ذلك، فاعلم أن شرط الإيمان بالله ورسوله أن يكون هوى المؤمن تابعًا لأحكام الله ورسوله بدون تردد ولا اختيار، ولا نظر إلى ما يحبه، أو يتخيله مصلحة له، أو تكليفًا عليه، لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ

إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.

وعليه فلا يظهر إيمان المرء وقوته إلا عندما يأتي حكم الله مخالفًا لما يهواه، أو لما يتخيله مصلحة له، فإن رأيته خاضعًا لحكم الله مسلمًا له بالقلب والقالب، فذلك برهان إيمانه، وإن رأيته حرج الصدر متضجرًا من الحكم متعاظمًا عليه يتطلب التخلص منه بالاحتيال، أو بالتأويل إلى ما يناسب هواه، أو بتغطيته على الناس، فهو عبد هواه، ولم يبرهن على إيمانه بالله ورسوله.

ولا ينفعه حينئذ ما يعمله من الأعمال الدينية الموافقة لهواه، لأن دينه حينئذ يكون تابعًا لشهواته لا متبوعًا لها، فيكون داخلًا في مضمون قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعبدالله عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

فإذا تأملت فيما ذكر يظهر لك أن الإلحاق في الفضيلة مشروط بالإيمان والاتباع في الأعمال الصالحة، وأن الإيمان شرطه التفويض لأحكام الله ورسوله، وأن الفضل بالأعمال والآثار، لا بالأنساب والأحساب.

ولو كان الفضل بالتوارث والانتساب لما رأيت في بني آدم ساقطًا ولا جاهلًا ولا شريرًا، لأن انتساب جميع الناس إلى آدم وإلى نوح عليهما الصلاة والسلام، وهما أبوا الرسل، والأصفياء، والعلماء، والحكماء، والملوك، والأمراء، وهما أيضًا أبوا الفاسقين، والملعونين، والجهال، والحمقاء، والساقطين.

وانظر إلى آل إبراهيم وآل عمران الذين اصطفى الله منهم الرسل المقربين كموسى، وعيسى، ويحيى، وإسماعيل، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، فانظر كيف لعن الله المعتدين منهم والعاصين الذين لا يتناهون عن المنكر بقوله

تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

فالمدح والذم والفضل والنقص تابعة للأعمال، لا لذم مخصوص، ولا لنسب مخصوص، فقد أفلح من زكى نفسه بصالح الأعمال، وقد خاب من دساها.

وأما دين الإسلام - فكما علمه كل من اطلع على قواعده العالية وأصوله الشريفة؛ هو دين العدل والمساواة، هو الدين الذي يمكن للعقل أن يرضى لأحكامه بدون ضغط ولا إجبار ولا تخويف، وهو الذي جعل الحكم والتمييز في الأمور للعقل والعلم خاصة، وجعل التفاضل بين الناس بالعلوم والأعمال فقط.

هو الدين الذي لا يؤاخذ فيه الوالد بذنب الولد، ولا الولد بذنب الوالد.

هو الدين الذي يقول شارعه على رؤوس الأشهاد: «لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي؛ إلا بالتقوى، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود؛ إلا بالتقوى».

ولو كان الإسلام دين سياسة أو تفضيل أشخاص وأنساب بغير عمل، أو كان يميز قريبًا من بعيد في حكمه، لما انتشر هذا الانتشار الذي لم يعهد له مثال في الأديان بغير دعاة ولا سعاة، مع فقر أهله وسقوطهم وفشلهم في هذا الزمان.

ليس ذلك إلا لترامي العقول والقلوب عليه، لسهولة مبادئه، وعدله، وإنصافه، وسماحة قواعده.

فإذا فهم ذلك، فالقول بأن بعض الشعوب أفضل من غيرهم لذات دمائهم ولحومهم بدون اعتبار عمل أو علم، ونسبة هذا القول إلى الشرع الشريف تلويث له بما لا يناسب شيئًا من أصوله، وإيقاظ لفتنة عظيمة بينه وبين العقل الذي جعله

الله ميزانًا لكل شيء، وإثبات لدعاوى أعدائه المتعنتين عليه، فمن دس على الدين شيئًا من ذلك فهو مردود عليه، والله ورسوله براء منه، قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**».

وأما مسألة الكفاءة بين المسلمين التي خاض فيها بعض العلماء، فليست مبنية على تفضيل أحد ولا على تنقيص أحد، وإنما النظر فيها إلى وسائل حسن المعاشرة، والاتفاق بين الزوجين والنظر في حالة معاشهما.

فإن بنت الغني التي تلبس كل يوم فستانًا جديدًا، وتأكل كل يوم ألونًا كثيرة، وتبيت على الفراش اللين الناعم؛ إذا دخلت في بيت فقير ليس عنده شيء من ذلك؛ فإنها تتكدر وتسوء حالتها، فيجر ذلك إلى بغض الزوج واحتقارها له، فيكون ذلك سببًا لعدم الاتفاق ولسوء المعاشرة، فرأوا أن المناسب أن يتزوجها من يناسب حالتها، وكذلك الحال بين المتعلمة والجاهل، وبين المتربية وقليل التربية، وغيرها مما لا مناسبة بين أحوالهم وأخلاقهم.

ولما كان هذا الاعتبار تابعًا لأمر المعاش والمعاشرة، كان ساقطًا عند حصول رضى المرأة مع العلم بحال الرجل الخاطب إذا كان مسلمًا، وإذا كانت رشيدة تميز بين محاسن الرجال ومساوئهم، لأنه ربما كان رضاؤها به مع ما ذكر لمزية أخرى تعادل ما فقدته من خصوبة العيش، ونعومة اللباس والفراش والعلم والحضارة، وشرف المحتد، كالقوة والشباب وحسن الأخلاق، وحسن المنظر، وغير ذلك من الصفات التي ترضي النساء.

ولذلك جعل الشارع المدار على رضائها مع الرشد، فإن لم تكن رشيدة كان أقرب الناس إليها نائبًا عنها في ذلك، ومن ادعى على الشارع شيئًا وراء ذلك، فقد افترى عليه ما هو بريء منه.

هذا حكم الله، وهذا حكم رسوله، فمن اتبعه وأسلم وجهه، فقد استمسك

بالعروة الوثقى، ومن تكبر على أحكام الله، وأعرض عنها، فليبتغ نفقًا في الأرض، أو سلمًا في السماء، فالله يحكم لا معقب لحكمه. وهاك أمثلة من قضايا رسول الله ﷺ وأصحابه في ذلك، لتكون على بينة من أمرك:

أولًا: زوَّج النبي ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبدالمطلب من زيد بن حارثة مولاه، وكانت قد استنكفت من ذلك على عادة الجاهلية في أول الأمر، فأنزل الله فيها وفي أخيها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾، فلما نزلت الآية رضيت به، والقصة مشهورة، في القرآن، وفي التفاسير.

ثانيًا: زوَّج النبي ﷺ أيضًا زيد بن حارثة المذكور بعد طلاقه لزينب من أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، فأنزله رسول الله ﷺ في منزلة نفسه في زواجها وهي قرشية.

ثالثًا: زوَّج رسول الله ﷺ فاطمة بنت قيس القرشية بأسامة بن زيد كما في صحيح مسلم، وقدمه رسول الله ﷺ على معاوية بن أبي سفيان وعلى أبي جهم، لأن الأول كان صعلوكًا لا مال عنده في ذلك الوقت، وكان أبو جهم كثير الضرب، ولم يعب أسامة كونه مولى في نظر الشارع ﷺ.

رابعًا: زوَّج النبي ﷺ ابنتيه -رقية وأم كلثوم- من سيدنا عثمان بن عفان على التعاقب، وهو غير هاشمي رضي الله عنهم.

خامسًا: زوَّج سيدنا علي ابنته (هي أم كلثوم من السيدة فاطمة عليهم الرضوان) من سيدنا عمر رضي الله عنه، وهو غير هاشمي أيضًا.

سادسًا: زوَّج عبدالرحمن بن عوف أخته من بلال الحبشي رضي الله عنهم، كما في كتاب (زاد المعاد).

سابعًا: زوَّج أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي، وهو أحد الصحابة البدريين سالمًا من بنت أخيه هند بنت الوليد بن عتبة القرشي، وكان سالم هذا مولى لامرأة من الأنصار، كما في صحيح البخاري.

ثامنًا: في سنن الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**». قالوا: يا رسول الله، وإن كان فيه ما فيه، فقال: إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه (ثلاث مرات) أيضًا، فيه أن النبي ﷺ قال لبني بياضة: «**بنو بياضة بطن من الخزرج أحد قبيلتي الأنصار**» «**أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه**»، وكان حجامًا.

فهذه قضايا سيد المرسلين، وإمام المصلحين، محمد ﷺ، وقضايا أصحابه، نقدمها لمن يريد أن يتبعها، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

ومن ادعى أن الله حرم إنكاح مسلم مسلمة، مع حصول التراضي بين الفريقين، لأجل اختلاف نسب أو غيره، فليأتنا ببينة من كتاب الله أو من أحكام رسوله، فإنا عبيد الحق وأنصاره.

ومن يرد أن يجعل رأيه أو رأي أحد من الناس فوق حكم الله وحكم رسوله، فإنا برآء منه ومن حكمه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران (٨٥)] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة (٤٥)].

فصل

يلمزني الجهال ويعيبونني بالاشتغال بصناعة التعليم، ويقولون لي: كن معلمًا وما أنت إلا معلم، على سبيل التنقيص، فيا ترى إذا كان ما أنا فيه من تعليم الدين عيبًا أكون بسببه محتقرًا، فأي صنعة أشرف منها أكون عظيمًا محترمًا إذا تمسكت

بها؟ ويا ليت شعري إذا كانت إجابتي عن مسألة دينية سئلت عنها على مقتضى ما علمت قد عد غلطًا وفضولًا وخوضًا فيما لا يعني، ففي ماذا أكون معلمًا؟

إن من احتقر صنعة التعليم وأهلها، فقد احتقر ما عظَّمه الله وصغَّر ما كبره الله، إن أفضل الفضائل هو الاشتغال بتعليم الناس، وهو صنعة الأنبياء والمرسلين، ومحمد رسول الله ﷺ يقول: «**إنما بعثت معلمًا**».

وعنه ﷺ أنه قال: «**خيركم وخير من طلعت عليه الشمس المعلمون**».

وعنه ﷺ: «**خيركم وخير من يمشي على ظهر الأرض المعلمون**».

وعنه ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

والتعليم هو أساس كل تقدم ومبدأ كل مجد، والسبب الأول لكل نجاح في العالم، فلا يحتقر أهله إلا جاهل غبي، فكل أمة عز فيها المعلمون عزت وسادت، وكل أمة ذل فيها المعلمون ذلت وشقيت، وكل أمة تتهاون بأمر تعليم ناشئتها فمصيرها إلى سجون الذل والصغار، ووادي الخسف والدمار، تلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

إن من أصول الدسائس التي بها سقط المسلمون من منصة المجد، وبها استولى عليهم الجهل استيلاء النار على الحطب، احتقار المعلمين ورخص قيمتهم، فبسبب ذلك هربت النفوس الكبيرة من مباشرة التعليم، واستنكف أهل الهمم العالية عن النظر في تربية الناشئة وإصلاحها.

فشب الشبان في حضانة الجهل وكفالة الغباوة، وشابوا في دائرة محيط الغرور، فأصبحوا بذلك أعداء العلم وأنصار الجهالة، فرانت القلوب واستعدت لقبول الأباطيل والخرافات، فاغتنمت الفرصة جمعيات الفرس واليهود والرومان السرية لبث أنواع الدسائس المفسدة للوحدة الإسلامية، القاتلة لروح الإسلام في قلوب المسلمين.

وقد أصابوا المقتل -لا رحمهم الله- حيث تمكنوا من زرع هذا السم في قلوب من بيدهم قيادة الأمة من الفقهاء، وأهالي البيوت الكبيرة من أهل الأحساب والأنساب المحترمين، وأهل المناصب المعتقدين، لتعميم هذا الداء، حتى جعلوا المسلمين كالمجانين، يلعبون بقطع الأخشاب، ويلتمسون الأرزاق والوظائف من سكان القبور، ويستنجدون في مهمات أمورهم أقطاب الأوهام، وينسبون كل داهية تنزل بهم إلى أغواث الخرافات، حتى وصلوا إلى دركة يتفاخرون فيها بالخمول، ويتسابقون في التكاسل والتماوت، حتى صاروا يرون العلم نقصًا والعمل عبثًا، واستلذوا بالذل والمسكنة، واستأنسوا بالهمجية.

فانحطوا بذلك إلى أسفل السافلين، فسبقتهم الأمم بصنائعها وعلومها، وسادتهم بفضائلها وعقولها، وتركتهم في ظلمات الجهل مبلسين، وفي سلاسل الخرافات يسحبون، ونسوا ما ذكروا به من الكتاب، وما هذبوا به من السنة، وما رفعوا به من قبل من الأصول الشريفة، وما أمروا باتباعه من الحكم والأحكام الجامعة لأنواع السعادة.

أفنمتد في هذا الضلال مع علمنا به ونترك كتاب الله وراء ظهورنا؟! أفبالباطل نؤمن، وبنعمة الله نكفر؟ أو ترضون أن نبيع ديننا بثناء الناس وإرضاء المغفلين من الأمة؟! أو ترضون أن تموت الأمة بين أيدينا ونحن نضحك ونلعب ونتعطر ونتبختر؟ ما هذا إلا خسف وخذلان.

نعوذ بالله من شرور الأنفس ونزغات الأهواء، ونسأله اللطف فيما قدر والصبر على ما ابتلانا به بعدله، والثبات والتأييد على ما وفق إليه بفضله، إنه قريب مجيب.

كاتبه: **أحمد محمد سوركتي**

أخذ مبدأ المساواة الشرعية ينمو ويترعرع، وأخذت الفكرة الحرة تتمدد وتندفع إلى الأمام، وتسري تياراتها بسرعة عظيمة، فاتجه الناس إلى جمعية الإرشاد أفرادًا وجماعات، محطمين تلك الأغلال التي طوقتهم قرونًا، ناقمين على تلك الحقب التي قضوها في العبودية، على أن حزب المحافظين وهم العلويون وأتباعهم هو الحزب الأكبر عددًا والأكثر أنصارًا، وبالرغم من أن مقاومتهم كانت عنيفة شديدة، فإنهم لم يستطيعوا خنق حركة جمعية الإرشاد ويعرقلوا سيرها، فقد انتشرت فكرة المساواة ليس فقط في بتافيا بل في غيرها من بلاد جاوة، وأخذ الناس يؤسسون فروعًا للجمعية، وينشؤون المدارس تحت اسم الإرشاد وعلى مبدأ الإرشاد، ولكن الخلاف ازداد واتسع نطاق الشقاق والعراك، وصارت جريدة الإقبال وهي لسان حال العلويين تدافع عن مركز هؤلاء، وتحمل حملات شديدة على الإرشاديين، كما أخذت جريدة الإرشاد، وهي لسان حال الحزب الآخر تبذل كل مجهود في الدفاع عن الإرشاديين، وتسعى بكل مستطاع في تبيان حقيقة مبدأ جمعية الإرشاد للناس.

السعي لتوحيد صفوف العرب

على أنه ظهر من بين الحزبين المتنازعين أفراد آلمهم افتراق الحضارم أشد الألم، وسعوا لجمع شملهم، ولـمّ شعثهم، واتحاد كلمتهم، وتوحيد صفوفهم؛ ليستطيعوا القيام بالعمل للمصلحة العامة، وللدفاع عن كيانهم بين الجاليات المحيطة بهم، ولمطالبة حقوقهم من الحكومة الهولندية، وقد تألفت لجنة لذلك الغرض في ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ - يناير سنة ١٩١٩م تحت رئاسة الشاب المثقف السيد إسماعيل العطاس، وأذاعت منشورًا عامًا لكافة العرب بجاوة، تدعوهم فيه إلى التكاتف والتناصر والاتحاد والوئام، وهذا نص المنشور:

«لائحة لجنة الإصلاح ببتاوى»

«من لجنة الإصلاح ببتاوى إلى رؤساء العرب وإلى رؤساء الجمعيات العربية وأعضائها وإلى عموم إخواننا العرب بالبلاد الجاوية:

حضرات الأفاضل المحترمين: مع هذا تتشرف لجنة الإصلاح ببتاوى بإرسال قانونها إليكم، وكما ترون فيه أن الغرض الذي ترمي إليه لجنتنا المؤقتة هو بحث الطرق القانونية التي تؤدي بأسرع ما يمكن:

أولًا: إلى عقد مؤتمر عربي يحضره نواب العرب في جاوة (أي نواب الجمعيات العربية الموجودة، ونواب القبائل، ونواب العرب الآخرين الغير الداخلين في الجمعيات) وكل من يهتم بهذه المسألة من العرب.

ثانيًا: إلى إنشاء وحدة عربية في جاوة (كما هي مبينة في قانون اللجنة)، والاتحاد التام بين العرب في كل البلاد الجاوية (وفيما بعد لجميع الجزائر الهندية الشرقية الهولندية) للعمل معًا لما فيه مصلحة الجميع، وللدفاع عن حقوق العرب، ولطلب الإصلاحات.

وبما أن مجلس الأمة (أي مجلس فولكسراد) سيجتمع على الأغلب في ١٥ فيبرواري الآتي، وحيث إن هنالك مسائل مهمة جدًا تخص عموم العرب على السواء، وبما أن إحدى تلك المسائل هي المسألة العسكرية أو التجنيد العام الذي سيبحث فيه مجلس الأمة، فاللجنة رأت ضرورة سرعة العمل ولزوم إتمامه قبل انعقاد مجلس الأمة.

لذلك تتشرف لجنة الإصلاح بدعوتكم لإرسال نوابكم إلى المؤتمر العربي الذي سينعقد في بيت مدرسة جمعية خير الكائن بحارة طانه ابغ ببتاوى، وذلك في يوم الأحد ٨ شهر جمادى الأولى ١٣٣٧هـ، الموافق ٩ لشهر فيبرواري ١٩١٩م،

الساعة ٨ صباحًا، للمشاورة والتباحث، وأخذ القرارات في المسائل الآتية:

أولًا: إنشاء الوحدة العربية الكبرى للدفاع عن مصالح عموم العرب وانتخاب أعضاء لجنتها.

ثانيًا: مسألة العرب المهاجرين إلى هذه البلاد، ورفض قبول كثير منهم، وإخراج كثير من الذين سكنوا هذه الديار، والصعوبات التي يلاقونها.

ثالثًا: مسألة العسكرية أو التجنيد العام لأن الحكومة عملت ابتداء قانون للعسكرية، وبموجبه يلزم على العرب أن يصيروا عساكر، فنحن نريد أن نعرف فكر العرب المجتمع عليه إذا كانوا راضين بالعسكرية أم لا.

رابعًا: مسألة إنشاء جريدة بالملايو لتكون لسان حال العرب للدفاع عن مصالحهم، ولإظهار ما يرغبون وما لا يرغبون.

هذه هي المواضيع التي ستتكلم عليها نواب العرب في المؤتمر، وهي كما ترونها من الأهمية بمكان، وتخص العرب جميعًا على السواء، واللجنة قررت باجتماع الأصوات سفر الأعضاء الآتية أسماؤهم، وهم: السيد محمد بن عبدالرحمن بن شهاب، والشيخ أحمد محمد سوركتي الأنصاري، والشيخ غالب بن سعيد بن تبيع، تحت رئاسة رئيس اللجنة السيد إسماعيل بن عبدالله العطاس لبيان المواضيع السابقة ذكرها ولدعوتكم إلى المؤتمر العربي، وإنشاء الوحدة العربية الكبرى التي نرجو الله منها الخير العميم للعرب، والرئيس والأعضاء المنتخبين للسفر المذكورة أسماؤهم أعلاه قبلوا طلب اللجنة.

فنحن أعضاء لجنة الإصلاح ببتاوى الواضعين أسماءنا أدناه «والواضعين إمضاءاتنا في دفتر التقرير في الصحيفة السابعة المثبت فيه قرار اللجنة بسفرهم لذلك الذي سيأخذونه معهم»، فقدم لكم رئيس اللجنة والأعضاء المسافرين الذين

أعطيناهم الحق للتكلم باسمنا جميعًا، ونرجوكم أن تعاونوهم قلبًا وقولًا وعملًا.

وقد تقرر أن يكون سفرهم من بتاوى يوم السبت ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ، الموافق ٢٥ لشهر جنواري سنة ١٩١٩م، ويكون مجيئهم إلى البلدان الآتية أسماؤها في الأيام الآتية بالتقريب:

في سربايه يوم الأحد ٢٣ ربيع الثاني - ٢٦ جنواري، وفي الصولو يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الثاني - الموافق ٢٨ جنواري، وفي سماراغ يوم الأربعاء ٢٦ ربيع الثاني - ٢٩ جنواري، وفي فكالوغان يوم الجمعة ٢٨ ربيع الثاني ٣١ جنواري، وفي التقل يوم الأحد ١ جمادى الأولى - ٢ فيبراوري، وفي شربون يوم الإثنين ٢ جمادى الأولى - ٣ فيبراوري، وأما وقت وصولهم بالمضبوط فسيخبر رئيس اللجنة أحدكم بذلك تلغرافيًا.

وللتسهيل والسرعة قررت اللجنة أن يكون لكل جمعية عربية من كل بلدة الحق في إرسال ثلاثة من نوابها مع حق التكلم باسمها، وأما البلدان التي ليس بها جمعية عربية فلعرب كل بلدة من هذه البلاد الحق في إرسال ثلاثة نواب كذلك ينوبون عنهم للتكلم باسمهم.

ولتسهيل العمل أيضًا نرجوكم إذا أمكنكم انتخاب نوابكم من الآن قبل مجيئنا على البلدان المذكورة، وأما البلدان الأخرى التي نتأسف لعدم إمكاننا زيارة أعرابها لضيق الوقت، فنرجو من رجالها العاملين تفهيم الآخرين هذه المسائل ونرجوهم أن يرسلوا نوابهم إلى المؤتمر العربي في اليوم الموعود.

ونرجو أيضًا من الجمعيات العربية ومن إخواننا العرب الساكنين في البلدان التي ليس بها جمعية عربية أن يخبروا رئيس اللجنة السيد إسماعيل بن عبدالله العطاس بجواب عن أسماء نوابهم قبل يوم المؤتمر بعنوانه في جاتي نمرة ٢ ولتفريدن، ونرجوكم

أن تفرقوا هذه الأوراق لإخواننا العرب العاملين، وتنشروا فيهم هذه الفكرة والسلام.

من الرئيس: السيد إسماعيل بن عبدالله بن علوي العطاس، والكاتب: الشيخ عبدالرحمن بن عمر جواس، ومن الأعضاء الشيخ: عمر بن يوسف منقوش، والسيد أبو بكر بن عبدالله العطاس، والشيخ سالم بن عوض بلوعل، والسيد أبو بكر بن علي بن شهاب، والشيخ سعيد سالم مشعبي، والسيد محمد بن عبدالرحمن بن شهاب، والشيخ عوض بن عبدالله باسلامة، والسيد عبدالله بن علي العيدروس، والشيخ غالب بن سعيد بن تبيع، والسيد محمد بن عبدالله بن علوي العطاس، والشيخ محمد بن علي باجنيد، والسيد محمد بن عبدالله الشاطري، والشيخ محمد بن عبيد عبود، والسيد محضار بن حسين العيدروس، والشيخ أحمد محمد سوركتي الأنصاري، والشيخ سعيد بن عبدالله باسلامة، والشيخ محمد بن سالم عسكر، والشيخ عوض بن سالم بن عيلي بن سعيد». انتهى.

ولكن أكثر العلويين عارضوا ذلك ونفروا من لجنة الإصلاح كل النفور؛ لأن الشيخ أحمد السوركتي زعيم الإرشاديين عضو في اللجنة، واجتمع أعضاء إدارة جمعيتهم بسرابايا يوم ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٣٧هـ، وقرروا في جلستهم ما يأتي:

سورابايا في يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ.

اجتمعت هيئة رئاسة الجمعية الخيرية العربية بسورابايا للمفاوضة والمداولة بشأن ما دعاها إليه رئيس لجنة الإصلاح ببتاوى السيد الغيور إسماعيل بن عبدالله العطاس من الاشتراك في عقد مؤتمر لإقامة لجنة الوحدة العربية الكبرى، وبعث مندوبين لحضور عقد هذا المؤتمر، وبعد المناقشة والمباحثة تقرر لديهم أنهم لا يتداخلون باليد في هذه اللجنة ما دام أحمد السوركتي السوداني عضوًا فيها.

كاتب الجمعية الخيرية

محمد بن حسن بن محمد بارجا

نشر ذلك في (الإقبال ٢٠) وكتب محرر هذه الجريدة لتنفير الناس من مشروع الإصلاح ما يأتي:

«.. وقد قابلنا جملة من رؤساء وأعضاء جمعية مراعاة الإخوان وجمعية اتحاد الإخوان بسرابايا ومكارم الأخلاق بقرسى، وأظهروا لنا مزيد ارتياحهم من قرار الجمعية الخيرية العربية وكونهم مستعدين لعقد اجتماع وتقديم قرار على شاكلة أهل سرابايا متى اقتضى الحال، ولولا إدخال السوركتي في اللجنة وقدومه مع الوفد لاستقبلتهم كل الجمعيات بأحسن الاستقبال، ولرجعوا ظافرين بما يؤملون.

وقد استاء كل أهل الجمعيات الشهيرة وشاركهم في ذلك السواد الأعظم من أهل سرابايا ونواحيها من إصغاء السيد إسماعيل العطاس لأتباع السوركتي وتخلفه لعقد اجتماع في فرع الإرشاد الذي لم يكن موجودًا حتى يوم الأربعاء الذي أخبر السيد إسماعيل أنه متوجه فيه إلى الصولو.

ومع تخلفه وإلجام السوركتي عن الخطابة فإنه لم يحضر تلك الجلسة التي عقدت في فرع الإرشاد الحادث في تلك الليلة (أي ليلة الخميس) سوى مائة شخص تقريبًا، ولم يصوت على انتخاب المندوبين سوى بعض الذين حضروا، لأنه حينما تم السيد إسماعيل خطابته التي شرح لهم فيها المواد التي سيعقد المؤتمر من أجلها قام على أثره إبراهيم الملا حيث إن هذه الجلسة الافتتاحية لفرع الإرشاد كانت في بيته (وقال ما قال). وحينما أتم الملا خطابه نهض السيد إسماعيل للخروج، وخرج معه كثير من الذين حضروا حيث كانت الدعوة عمومية، ولم يبق إلا البعض وهم الذين أعطيت لهم الحرية في انتخاب مندوبين من قبلهم لحضور المؤتمر ببتاوى.

ومما تقدم يظهر للقارئ أن تأخر كل الجمعيات الشهيرة قاطبة وسائر السواد الأعظم من أهل سرابايا ونواحيها سببه إدخال السوركتي في هذا العمل، وهو

جرثومة الخلاف وأصل الافتراق. وقد أخطأت لجنة الإصلاح ببتاوى في إدخالها هذا الرجل في اللجنة وإرساله مع الوفد.

وإن ما لدينا من البراهين والإيضاحات يدل على أن الاستياء من تداخل السوركتي ليس في سرابايا ونواحيها فقط، بل هو عام في جميع هنديا نيدرلند، بل في بتاوى نفسها، بل وعند أعضاء اللجنة، وما نشر بهذا العدد عن استقالة السيد عبدالله بن علي العيدروس، وما بلغنا عن الكثير من أعضاء اللجنة أنهم سيقدمون استقالاتهم في هذه الأيام، دليل واضح وبرهان ساطع على أن إدخال السوركتي أفسد أعمال اللجنة بالكلية، وأساء سمعتها، وصيَّر أتعابها هباء منثورًا». انتهى.

وجاء الشيخ عبدالله العيدروس، وزاد الطين بلة، والخرق اتساعًا؛ فقد نشر كتابًا مفتوحًا موجهًا لأعضاء لجنة الإصلاح، وهذا نصه:

كتاب مفتوح

كيف يتم الاتفاق؟؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، وعلى آله وصحبه وسلم.

إلى جناب رئيس لجنة الإصلاح العربية وأعضائها الكرام، وفقني الله وإياهم إلى الحق والصواب.

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أفيدكم أني أعد نفسي منفصلًا عن عضوية اللجنة السابق ذكرها التي انتخبت في إدارتها بالمجلس الأساسي الأول، وإن لم أكن قد حضرت جلسة من جلساتها.

أما الأسباب التي ألزمتني الانفصال فلا بد أنكم تعقلونها كما يعقلها العاقلون.

وما الفائدة من قولنا للأجانب إن لنا لجنة وإننا اصطلحنا، ما دمنا نعلم والأجانب يعلمون أن هذا القول منمق بعبارات مزوقة. كيف الاتفاق والله يعلم

والناس أجمعون أن الفصل السابع من قانون جمعية مدرسة الإرشاد العربية يقول بما معناه: لا يجوز للأعضاء تولية أحد من السادة في إدارة الجمعية.

يعني يحرم في قانون هذه الجمعية العربية بل الحضرمية تولية فرد من الأفراد يكون من آل فاطمة الزهراء في إدارتها، ومن أغرب الغرائب أن هذه الجمعية أقيمت بأموال آل كثير الحضرميين، ورئيسها كثيري حضرمي الميلاد، غير أن معلم المدرسة كما تعلمون سوداني.

ولا يخفاكم أن الإصلاح الذي ننشده لا بد له من أسباب مهيئة وأسباب متممة. فالأسباب المهيئة للإصلاح والاتفاق إلغاء الفصل المذكور أعلاه من القانون الأساسي لجمعية مدرسة الإرشاد الحضرمية، ونزع كلمة جمعية السادة وجمعية المشائخ من أفكارنا، وعدم اعتبارها بل عدم ذكرها وكتابتها.

والأسباب المتممة للاتفاق بل والاتحاد معًا فرارنا من الدجالين الذين هم رأس التحزب والانشقاق والفتنة بما يبثونه في أفكار البسطاء من إخواننا الحضارم ليعيشوا في الماء العكر ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

ونقف في وجه كل من يحاول أو يسعى للتفريق وإلقاء الشقاق بيننا، لأننا من وطن واحد، ودين واحد، ومذهب واحد، وعقيدة وطريقة واحدة. وحث الخطباء ورجال العلم الصحيح وكتبة الجرائد على تناول هذا الموضوع، ونزع التعصب من أدمغة الجهلاء والبسطاء، وتفهيمهم أن ذلك يضرهم في دينهم ودنياهم، ويجعلهم لقمة سائغة للدخلاء والدجالين.

بهذه الوسائط يمكن نيل المطلوب من أقرب الطرق، بينما ننشر العلم بين طبقات

الأمة ويضمحل الجهل. ومتى جعلنا الإخلاص رائدنا في كل الأحوال ولا نخاف لومة لائم، فبشرنا بالإصلاح المطلوب، والعاقبة للمتقين».

تحريرًا في بتاوى ٢٣ جنواري سنة ١٩١٩م

كاتبه الفقير إلى ربه

عبدالله بن علي بن شيخ العيدروس

أما الإرشاديون فقد قابلوا اللجنة بكل احتفاء وإجلال، ولم يخرج عن الجماعة واحد منهم ورحبت جريدتهم (الإرشاد) باللجنة، وأبدت كل ارتياح نحو أعضائها، بل حثت الناس على مناصرة اللجنة في مشروعها، ودعتهم إلى الانضمام تحت لواء الوحدة العربية، فقد جاء فيها ما يأتي:

«وليسمح لي كل حضرمي غيور على حضرميته أن ألاحظ أن رجال الحركة اليوم على اختلاف أحزابهم يجب أن يكونوا كأفراد جيش واحد في ساحة هذا المعترك، ولينتبهوا إلى حياتهم الاجتماعية، ولا ينبغي لهم إن كانوا عقلاء أن يقع بينهم أي نزاع أو تخاذل، ومن يسبب ذلك النزاع أو يشترك فيه فهو خائن لأمته ووطنه، يجب نبذه وإبعاده، إذا صح بالقرينة أنه سيء القصد، شعر أو لم يشعر، وإن تظاهر بالإخلاص. فالمودة والتعاضد اليوم أمر محتم على كل من يسمي نفسه حضرميًا، وبدون ذلك لا بد أن تدور الدائرة عليهم بشؤم المشاحنات التي ستزلزل أقدام العاملين ولم تثبت بعد على الوضع النظامي سوى الذهاب في حب الجعجعة الفارغة كل مذهب، والله الهادي إلى سواء السبيل». (الإرشاد ٤٣).

وقالت: «يرحب الإرشاد والإرشاديون بهذا المؤتمر، ويودون من صميم أفئدتهم لو يحقق، فوالله إنه لمما يحببنا ويرغبنا في أن نضع أيدينا في أيدي إخواننا، فمن لنا بمن يمد يده فنصافحه على هذا.

هلموا يا كرام، واجمعوا كلمتكم، ولموا شعثكم، ووحدوا آراءكم، واعملوا لأمتكم كي ينقشع عنها جهام الجهل والغباوة، وليضع كل منكم يده في يد أخيه ويعاونه ويساعده ويشاركه في العمل للصالح العام». (الإرشاد ٣٩).

اتسع نطاق معارضة كثير من العلويين لدعاة الوحدة، وانتشرت من سرابايا وقرسى وفكلوغن وبتافيا وغيرها، واستطاعوا أن يقضوا على تلك الحركة وهي في مهدها، فعاد أعضاء لجنة الإصلاح من سرابايا خائبين، وازداد النزاع والخصام بين الفريقين.

محاولة ابن عابدين الصلح بين الإرشاديين والعلويين

وحاول السيد حسين بن عابدين من سنغافورة الصلح بين الحزبين، فبعث كتابًا لجمعية الإصلاح والإرشاد، وهذا نصه:

سنغافورة في ٥ فبراير سنة ١٩٢١م

«حضرات الكرام مديرو ومستشارو جمعية الإصلاح والإرشاد العربية بجاوة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - صباح يوم تاريخه قابلت أحد كبار رجال الحكومة هنا، وكان معي حضرة الشيخ سليمان بن مرعي، وتحادثنا بخصوص الإصلاح ما بين السادة والمشائخ بجاوة وتصريح حكومة مستعمرات البواغيز (حكومة سنغافورة) للإرشاديين بالدخول لبلادها وبلاد الملايو أسوة كغيرهم.

وقد وافقت الحكومة على عدم لزوم تقبيل يد السيد (الشمة)، وعدم لزوم احترام من لا يستحق الاحترام سواء كان علويًا أو شيخًا، وعدم التعصب في مسألة الزواج، فلكلٍّ الحرية في تزويج بنته أو أخته أو غيرهما لمن يريد، لا فرق في ذلك بين السيد والشيخ.

وطلبت الحكومة الإنجليزية أن يبدي لها الإرشاديون الصداقة، وطلبت أيضًا

أن جميع المدارس العربية بجاوة تقبل جميع الطلبة على حد سواء، أولاد سادة كانوا أو أولاد مشائخ، وأن لا يسعى المعلمون في تعليم الأولاد التفرقة ما بين الأمة العربية وغيرها ولا بين أفرادها، بل يعلمونهم الاتحاد والمساواة وحب العلم، وأن لا تكتب جريدة الإرشاد شيئًا ضد المشائخ ولا ضد السادة، بل تكون موادها كمواد جميع الجرائد الأخرى.

فإن رضيتم بذلك أرجو إفادتي تلغرافيًا لأحضر لطرفكم وأجمع بينكم، وأعرض شروط الحكومة المذكورة أعلاه عليكم، وسيحضر جلسة الوفاق والصلح جناب قنصل بريطانيا ليكون شاهدًا على الطرفين، ومتى حضرت لطرفكم سنتفق على جميع الأمور، ولا بد من علمكم أن حضوري سيكون رسميًا بمعنى الكلمة، وقد حاولت أن أحضر معي الشيخ سليمان بن مرعي، لكنه أبى، مع أن الحكومة تعهدت بإعطائه ضمانة في رجوعه ثانيًا لسنغافورة، ومتى عزمت على السفر سأخبركم تلغرافيًا، ولي أمل في أن تقبلوا، والسلام».

المخلص

حسين عابدين

وبعثت الجمعية إليه ردًا، هذا نصه:

بتاريخ ١ من شهر مارس سنة ١٩٢١م

إلى جناب المكرم السيد الماجد حسين أفندي عابدين دامت معاليه آمين:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بعد تقديم ما يليق بمقامكم السامي وأياديكم العميمة من الشكر والإجلال، ننهي إلى مسامعكم الكريمة أن كتابكم العزيز رقيم ٥ فيبراوري سنة ١٩٢١م قد وصل ووقع منا موقع القبول والانشراح. وبناء على ما تضمنه كتابكم المذكور من المطالب والشروط الإصلاحية التي هي عين مطالب

كل مصلح منصف، نجيبكم بما يأتي موافقين على ما قدمتموه من الشروط.

فنقول ونحن الواضعون أسماءنا أدناه من مديري جمعية الإصلاح والإرشاد العربية ومستشاريها:

إنا موافقون على عدم لزومية تقبيل أيدي العلويين أي الشمة، وعلى عدم لزومية احترام من لا يستحق الاحترام سواء كان علويًا أو غيره، وعلى عدم التعصب في مسألة الزواج، فلكلٍّ الحرية في تزويج بنته أو أخته أو غيرهما لمن يريد، كما أنه له أن يتزوج من أي جنس كان، لا فرق في ذلك بين العلوي والشيخ وغيره إذا رضوا به.

وعلى أن تكون جميع المدارس العربية بجاوة حرة تقبل جميع الطلبة على حد سواء، سواء كانوا أولاد علويين أو أولاد مشائخ أو غيرهم. وأن لا يسعى المعلمون في تعليم الأولاد التفرقة بين الأمة العربية وغيرها ولا بين أفرادها، بل يعلمونهم الاتحاد والمساواة وحب العلم كما كانت جارية عليه خطة جمعيتنا الإرشادية منذ أُسست، وكما هو صريح قانونها.

ونبدي للحكومة البريطانية استمرار صداقتنا بكل إخلاص واحترام. وأما جريدة إرشاد فهي شركة تجارية مستقلة ولا تعلق لها بجمعية الإصلاح والإرشاد العربية.

هذا، وفي الختام اقبلوا فائق احترامنا، ونسأل الله أن يوفق الجميع لما فيه صلاح الدنيا والدين، والسلام.

فرصيدنت	سكتاريس	أمين صندوق	مستشار
غالب بن تبيع	محمود عبود	عبدالله بن هرهرة	عوض بن سالم بن سنكر

ولما رأى ابن عابدين رغبة الإرشاديين في الصلح وإقبالهم على السِّلم جاء جاوة وبذل كل مجهود لدعوة العلويين للصلح، فلم يصغوا إليه ولم يعيروه التفاتًا فعاد إلى سنغافورة خائبًا.

مساعي العلويين لدى الحكومة الهولندية ضد الإرشاديين

لم يسكت آل باعلوي عن إلصاق التهم بالإرشاديين، ولم تهدأ أقلامهم عن الحملات القاسية على الشيخ أحمد السوركتي وأنصاره، وكان خمود الإرشاديين عن الدفاع عن أنفسهم والذود عن حياضهم من أكبر العوامل التي دفعت رجالات العلويين لمضاعفة جهودهم لقتل حركة الإرشاد، وكانت جريدة (الإقبال) هي الطائرة التي يلقون بها قنابلهم على الإرشاديين، ولم يقفوا عند هذا الحد، ولم يكتفوا بالدعاية الواسعة لدى الجمهور ضد الإرشاد، وكتبوا المقالات الطوال في الإقبال وفي بعض الصحف الملايوية، وتكلموا كثيرًا في المجالس، وخطبوا في المحافل والمساجد ضد الإرشاد، قالوا إنها نصرانية أسست للتبشير بالديانة المسيحية، وقالوا إنها شيوعية أقيمت على حساب روسيا لإثارة الأفكار ضد السلطات العامة، ولتحرير النفوس من كل قيد. قدموا للحكومة الهولندية عرائض ضد الإرشاد، ووشوا بالإرشاديين لديها، ولما لم تجد الحكومة ما يؤيد تهمهم ضد هؤلاء لم تقم لتلك العرائض وزنًا ولم تصغ لأقوال الواشين، فخابت آمال آل باعلوي وعادوا بالفشل والخذلان.

مساعيهم لدى الإنجليز

لما رأى العلويون أن وشاياتهم ذهبت جفاء ولوا وجوههم شطر الإنجليز فوشوا لدى القنصل الإنجليزي ببتافيا ضد الإرشاد، وقدموا له عرائض بواسطة علي بن شهاب[1] ومحمد الجنيد، قالوا له: إن جمعية الإرشاد أسست لمناوأة السياسة الإنجليزية في الشرق، وأنها تساعد ألمانيا ضد بريطانيا، واستطاع العلويون

(١) بذل علي بن شهاب كل مجهود لدى الدولة العثمانية لسحق حكومتي حضرموت وإنشاء ولاية عثمانية جديدة، وكاتب لذلك السلطان عبدالحميد، ووشى لديه ضد قبائل حضرموت، وسعى لدى كمال بك قنصل تركيا في بتافيا للحصول على امتياز خاص به ليقوم بدعوة الحضارمة في جاوة للتجنس بالجنسية التركية، ولكنه فشل.

بجهودهم المتواصلة أن يؤثروا على القنصل الإنجليزي، وحيث إن الإنجليز يعدون حضرموت داخلة في حمايتهم، فقد أرسلوا تنبيهاتهم لسلاطين حضرموت ليأخذوا حذرهم من الإرشاديين، وبعث أولئك السلاطين بلاغًا لآل جعفر بن سالم في سرابايا ليطبعوه وينشروه لكافة الحضارم، وهذا نصّ البلاغ:

بلاغ رسمي

إلى كافة الحضارم المقيمين بجاوة ونواحيها

إننا تلقينا كتابًا من عدن رقم ١٧ رمضان سنة ١٣٣٧هـ من السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي ومن السلطان علي بن المنصور بن غالب الكثيري بعد وصولهم إليها لإتمام إصلاح القطر الحضرمي بأجمعه بواسطة دولة بريطانيا العظمى، وقد تم ذلك، وضمن الكتاب بلاغ رسمي ألزمونا بطبعه ونشره بين كل الحضارم بهاته الجهات، فرجاؤنا من الجميع أن يقدروا هذا البلاغ قدره ليسلموا ويشكروا.

سرابايا ٢٠ شوال سنة ١٣٣٧هـ (آل جعفر بن سالم بن طالب)

وهذا نص البلاغ:

إنه بتوسط الحكومة البريطانية وجميل سعيها قد تم الوفاق والاتحاد والمحالفة بيننا، فصرنا شيئًا واحدًا، وتعاهدنا على نصر الشريعة ومشرعها وأهل بيته، وصممنا العزم على تنظيم حضرموت كلها برمتها وفتح الطرق فيها، ونشر العدل والأمن، واجتثاث عروق التفرق والمشاجرات منها، والسعي في توسيع دائرة الزراعة، واستنباط العيون، واستخراج المعادن، وما يجري مجرى هذا.

وقد عقدنا النية على الاهتمام بكل ما يصلح الحضرميين عامة وأهل البيت خاصة في حضرموت والمهجر. وهالنا ما بلغنا عن الواصلين، وما رأيناه في جريدة (الإقبال) من التنازع والتنافر الجاري في جاوة بين الحضارم بسعي الدخلاء وأهل الأغراض والأهواء.

وقد تلقينا تعليمات صارمة من صديقتنا الحكومة الإنكليزية توجب السعي في الإصلاحات النافعة، وفي منع وصول جراثيم داء الشقاق، وموجبات التفرق، ومثيرات الأضغان والأحقاد إلى حضرموت؛ لئلا يتفشى المرض فيها بالعدوى، فيحتاج في استئصاله إلى عملية جراحية.

ولذلك قدمنا نصحنا وتحذيرنا لجميع الحضارم من الاسترسال في اتباع الدسائس التي تنخر وحدتهم، وتفرق جماعتهم، وتجعلهم شيعًا يعادي بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، حرصًا على الوئام والاتفاق التام، وتناسي ما مضى، والتبري من أهل الأغراض والأهواء ونبذهم والبعد منهم.

وقد ألزمنا بعض خواصنا أن يتتبعوا البحث بكل دقة عن أسماء من يصر على موالاة دعاة الفتنة والبقاء في حزبهم من بعد نشر هذه النصيحة، ومن لم يصغ للنصح وأصر، فحينئذ يحسب عدوًا لوطنه ولمواطنيه عاقًا لهم مخالفًا لجماعتهم في كل مقوماتهم ساعيًا في تسميم عقولهم وأفهامهم.

وهذا بعينه هو المحاربة لله ولرسوله، والسعي بالفساد في الأرض، وربنا جل وعز يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الآية.

السلطان	**السلطان**
غالب بن عوض القُعَيْطي	علي بن المنصور بن غالب الكثيري

مساعيهم لدى حكومة الحجاز

وحاولوا منع الإرشاديين من تأدية فريضة الحج، فكتبوا لملك الحجاز الشريف حسين بأن الإرشاديين يبغضون الرسول ﷺ وأهل بيته، وأنهم يدسون الدسائس ضد حكومته ويوقدون الفتن، والتمسوا من جلالته منع الإرشاديين من دخول

الحجاز، كما طلبوا إليه إقامة وكيل عن حكومته بجاوة للدفاع، ولكن الملك لم يجبهم إلى طلبهم، بل فضحهم على رؤوس الأشهاد، حيث نشر عريضتهم في جريدة (القبلة) في شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٨هـ، وهذا نص العريضة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه.

يقبل الأرض بين يدي مولانا المعظم تاج العصابة الهاشمية، ملك الأقطار الحجازية، أبو الأملاك مولانا الشريف الحسين بن علي، أقام الله سعده وتوفيقه وتسديده، آمين.

وبعد: فإن شيعتكم ومحبيكم من العلويين وأنصارهم يقدمون لكم وافر التهنئة بالعيد المجيد، وبما تم من الإصلاح على عهدكم السعيد، وينهون إلى مقامكم السامي أنها نجمت منذ مدد قريبة فرقة من الخوارج في هذه الديار، عقيدتها بغض أهل البيت الطاهر، وتحقير النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبث الدسائس، وإيقاد الفتن، ولهم من المنشورات الجمة ما يبين خبيث قصدهم، وقد نشروا جريدة سموها (السلام) لتكون لسان حالهم، وتكفي نظرة بسيطة فيما حواه العدد الأول المرسل مع هذا للحكم عليهم، فاقتضى الحال أن نطلب منكم:

أولًا: إقامة وكيل لكم بهذه الجهات يدافع عن حقوقكم المقدسة وحقوق رعاياكم ومصالح الحجاج، ويعطي كل مسافر إلى الحجاز جوازًا قانونيًا.

ثانيًا: لئلا تسري عدوى دائهم العضال، ولكي لا يتصلوا بإخوانهم من أهل البغي والغي والضلال؛ يلزم منعهم عن دخول الحجاز فلا يقربوا المسجد الحرام ولا في عامهم هذا، وقد عاملتهم إمبراطورية البحار بالمنع من دخول بلادها رحمة برعاياها، وصيانة لهم عن سريان الفتن والشر:

فإن النار بالعودين تذكى   وإن الحرب أولها الكلام

وفي حسن نظر مولانا المعظم ما يغني عن الإطالة، ونسأل لكم ولأنجالكم النصر المؤيد، وأن يجعلكم أوتادًا للملة الإسلامية، ورجومًا لأهل الدسائس من أعداء الإنسانية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حرر في مدينة بتاوى ٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٨هـ

السيد يحيى بن عثمان بن عقيل بن يحيى. السيد محمد هارون العطاس. السيد علوي بن عبدالله الصلبية العيدروس. السيد علي بن أحمد بن محمد بن شهاب الدين. عبدالقادر بن علي الشويع. السيد عقيل بن سالم العطاس. السيد علي بن أحمد الحبشي العلوي. السيد علوي بن محمد خرد. السيد حسين بن سالم العطاس. السيد محسن بن هادي الحبشي العلوي. السيد محضار بن حسين العيدروس العلوي. السيد عيدروس بن شهاب الدين. السيد حسين بن شهاب الدين. السيد محمد بن عبدالرحمن بن شهاب الدين. السيد عبدالله بن أبي بكر الحبشي العلوي. السيد علوي بن عمر عيديد. السيد محمد بن عقيل بن عثمان بن عبدالله بن يحيى. السيد شيخان بن شهاب. السيد شيخ بن علوي بن شهاب. السيد حسين بن أحمد بن شهاب. السيد محمد بن هاشم بن طاهر.

تأثير مساعيهم على المحضار وزير حكومة حضرموت

ولكنهم نجحوا في وشاياتهم بحضرموت، واستطاعوا أن يؤثروا على السيد حسين حامد المحضار وزير الحكومة القُعَيْطية، ويوجدوا في قلبه الكُره ضد الإرشاديين، وقد قام بأعظم قسط من تلك الوشايات الشيخ محمد المحضار ببندوسو، فقد كان يبعث للوزير وهو أحد أقربائه الرسائل لعرقلة كل إرشادي يأتي إلى حضرموت، وإيقاع الأذى به، ولقد ضيق الوزير الخناق على الإرشاديين وعاملهم بالشدة والقسوة، فكان الإرشادي إذا نزل ميناء المُكَلَّا أو الشِّحْر يعامله كما يعامل الجاسوس ضد الحكومة القُعَيْطية، ويدقق التفتيش عليه حتى إذا لم يجد

في أمتعته ما يشم منه كراهية ضد الحكومة، أو يقلق الأمن، ويسبب الفتن، استمر في ضغطه بحجة التحري في التفتيش، وكذلك عمل السيد عمر بن أحمد باصرّة والي دَوْعَن، فقد شدد الخناق على كل من يأتي دَوْعَن من حزب الإرشاد وأنزل به الأذى، وقد شجعه على ذلك وزير الحكومة نفسه.

عريضة فرع الإرشاد بسرابايا للحكومة القُعَيْطية

ولما رأى حزب الإرشاد تفاقم الفتنة التي أيقظها الحزب العلوي، وامتد لهبها إلى حضرموت، الأمر الذي ألجأ بعض ضعاف الإيمان من الإرشاديين للانسحاب من جمعية الإرشاد.

لما رأى نجاح مساعي رجالات آل باعلوي ضده رفع جماعة منهم وهم بعض القائمين بفرع الإرشاد بسرابايا عريضة إلى السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي اليافعي بينوا له فيها أغراض أعمال باعلوي ضدهم، كما بسطوا له مقاصد جمعية الإرشاد، وما تقوم به من الأعمال للمصلحة العامة، وهذا نص العريضة:

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة جمادى الأولى ١٣٣٨هـ.

الحمد لله المطاع أمره، القاهر فوق عباده، العدل حكمه، الذي جعل في الأرض ملوكًا، واستخلفهم فيها ليحكموا بين الناس بالعدل، ولينظر كيف يعملون، والصلاة والسلام على سيد الأنام، وخيرة الأنبياء والرسل الكرام، الذي بلَّغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، صاحب الشريعة الغراء والمنهج القويم، الهادي إلى الصراط المستقيم، سيدنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا معه في الله ولله، وصدقوا وصدّقوه، ونصروه وعزروه، فاتبعوا النور الذي أنزل معه، فكانوا من المفلحين.

نتشرف بتقديم هذه السطور نيابة بالمثول عنا، ونقدمه إلى جناب جلالة مولانا ودولتنا السلطان المعظم، حامي الأقطار الحضرمية وسواحلها، ناشر لواء العدل والميزان بين الرعية، درة العترة الحاكمية، وممثل السلطنة القُعَيْطية، السلطان غالب بن عوض بن عمر القُعَيْطي لا زالت دولته باهية، ورايات عدله على الأقطار الحضرمية منشورة، ولا زال مؤيدًا ومنصورًا من الله، آمين.

أيها السلطان المعظم: بكل رجاء وأمل في شيم جلالتكم نقدم شكوانا، ونستمنح العدل والرأفة والحنان، والفصل فيما سنمليه الآن.

نعرض على جلالتكم أننا الممضين تحت هذه السطور من جملة من تكتنفهم رعايتكم، ومن عداد رعاياكم، ومن الذين لا يميلون عن محبتكم ونصرتكم من أهل وادي ليسر ودَوْعَن المهاجرين بالأقطار الجاوية، والمنضمين إلى جمعية الإصلاح والإرشاد، فلا ارتياب في أنه يهمكم العناية بنا، والتفقد لأحوالنا على كل حال، والاستماع لشكوانا، فأنتم رعاتنا، وكل راع مسؤول عن رعيته.

نعرض على جلالتكم التشكي مع الإيضاح لما نالنا من الضرر، ونال إخواننا في الوطن، ومن معاملة واليكم الحالي، إنصاتًا منه لما افترى به علينا المفترون والمزورون ونسبوه إلينا من أنواع الأباطيل والأكاذيب التي لا توجد لها حقيقة بتاتًا، ولئن صح وصدرت هذه المعاملات والأحكام القاسية بغير ذنب صدر منا وبغير فحص وتدقيق وتصور وإمعان، فإنه مما يسبب لنا الأسف ويسيء غيرنا كما يسيء سمعة حكومة جلالتكم.

وإنا لا نصدق أن تصدر مثل هاته المعاملات لحسن ظننا في عدل جلالتكم، كما أنه لا نتصور أن حكومة إسلامية مثل حكومتنا السنية تعاملنا بالقساوة بغير ذنب جنيناه، ولا مخالف للشريعة السمحاء أتيناه، ولئن قيل ما قيل عنا فإن الحقيقة لا يمكن أن يسدل عليها الغطاء بالاختلاق والافتراء، ولا محل للتأثر لأن الأيام

والليالي كفيلة بإظهار الحقائق، ويحسن من جلالتكم ومن بيده وظائف الأحكام ومن يهمه أمر الرعية أن لا يتخذ العجلة.

إن كل عاقل يعلم أن أعداء الحقيقة يختلقون جميع الزور والبهتان كما اختلق علينا المفترون أمثال هذه الطريقة لأجل تنفير الناس منا، انتقامًا وتشفيًا وحسدًا من أنفسهم، وما دروا أن أعمالهم هذه مما تعود عليهم بالخسران، تبلى السرائر وتظهر الحقائق، أو كأنهم غير عالمين أن مطية الكذب زاحفة، وأن الساعي بالنميمة والغيبة، وإلحاق الضرر والأذى بالمسلمين لا يجيزه الشرع الحنيف، ولا تميل إليه الطباع الشريفة والأخلاق الكريمة، وإن إزعاج خاطر المسلم، وإدخال الخوف على قلبه بغير ذنب أتاه مما يغضب الرب ويشق على الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبما أنَّا نحب دولتنا ونتمنى لها النجاح، فلا نرتاب في أن ممثلها مولانا السلطان يحبنا وأمته من صميم فؤاده، ويتمنى لها الفلاح والارتقاء، ودليله الأنباء المبشرة السابقة المعلنة بإتمام الاتفاق والصلح بين سلاطين القطر الحضرمي، وتصافحهم على تأمين القطر وتقدمه، وعلى إصلاحه وترقيه.

ولكن سرعان ما اختلجت الشكوك صدرونا من الأنباء الأخيرة، غير أن لنا حسن الأمل في جلالتكم في أن تفحصوا كل مسألة بغاية التروي والإمعان، وتصدرون في ذلك كل حكم عدل، وتجازون كل مخطئ، وتدانون كل مصيب.

وعليه، فقبل كل شيء نعلم جلالتكم أن المنضمين إلى جمعية الإصلاح والإرشاد بجاوا ليسوا من أهل ليسر ووادي دَوْعَن فقط، بل هم من كل فرقة من القبائل والمشائخ على اختلاف أجناسهم، وليسوا من العامة بل فيهم الفقيه والعارف والغني والفقير والمتوسط والمتعلم وغيرهم.

ونعيذكم ونشهد الله على قولنا إن الجمعية لم تؤسس إلا لعمل خير يرضي الله ورسوله، أسست لتعليم أبنائنا وأبناء المسلمين قاطبة بغير نظر إلى الجنسيات ولا

العصبيات، ويشهد بذلك أعمالها الجارية على مقتضى قانونها، والمصادق عليه من حكومة هولندا.

وليس من العجب أن تمس الجمعية وتمس بأعضائها وأفرادها من غوائل الزمان وتشفيات الحاسدين، فإنما ذلك دليل تقدمها ونجاحها وبرهان صوابها، والباطل لا يزال ولن يزال يصارع الحق، ولكن أخذ الله على نفسه أن يجعل الباطل زهوقًا.

على أنَّا كنا نتمنى أن تكون انتقادات المضادين لنا ولهذه الجمعية مبنية على الصحة ومؤسسة على قواعد الحق والعدل، بذلك يكونون ماشين على سنن الانتقاد الحقيقي الذي يرجى من ورائه نفع الأمة والوطن، فلا يفترون علينا بالكذب ولا يلصقون بنا ما نحن بريئون منه، بل يصارحوننا بالصدق وينظرون إلينا بالعين التي نظر بها الدين الإسلامي إلى عموم المسلمين صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، فلا يحتقروا أحدًا ولا يظلموا الناس حقوقهم.

ولقد سعينا في إخماد نار الافتراق، وحذرنا الذين يروق لهم الاصطياد في الماء العكر من أسيال القول جزافًا، ومس الأعراض، وهتك الحرمات، ونفث السموم بين الناس، ونبهناهم خطورة العاقبة واتساع الخرق، ويشهد بذلك منشورنا الأول الصادر بطيّ هذا.

فإنا وجهنا القول فيه إلى من كانوا جرثومة هذه الفتنة، وهم صاحب (الإقبال) ومن ينشر مقالاتهم بشأن جمعية الإرشاد تحت إمضائهم الصريحة والمرموز منها. وأعلنَّا للعموم أن هؤلاء لا يقصدون من وراء كتاباتهم في الإقبال وغيرها إلا توسيع الخرق واشتداد الفتنة، وإيقاع سوء التفاهم.

وقد رجونا بذلك المنشور تفهيم العقلاء، فيتلافون الأمر قبل استفحاله، ويحسمون الخلاف قبل امتداده، غير أن ذلك المنشور قد ذهب كنفخة في رماد أو كصيحة في واد.

ويا ليتهم سكنوا ولم يتعرضوا لما فيه ويؤولوه حسب أهوائهم وأغراضهم، فيقف الخلاف عند نقطته الأولى، بل ثاروا ثورة الأسود من مرابضها، وجالوا بأقلامهم على صفحات الإقبال والجرائد الوطنية الملايوية والإفرنجية، وملأوا أنهرها بما حسنته لهم أهواؤهم من سبنا ولعننا وتكفيرنا وجرح عواطفنا كما تشهد بذلك أعداد الإقبال ومنشوراتهم الأخرى، وبطي هذا واحد منها، وهو الجواب عن منشورنا الآنف.

والأمل من جلالتكم أن تتصفحوا العدد ومنشورنا، لتنظروا من منا المخطئ، وقد قالوا لما عجزوا إنا في أقوالنا غير صادقين، وأن بواطننا تخالف ظواهرها، وإنا لم نقصد من منشورنا إلا ذر الرماد في العيون وتغطية الحقيقة بحجاب من الباطل.

وهذا القول لا يقبله العقل، ولا يسيغه لهم الشرع، ولا يقوله إلا كل مفتر كذاب؛ لما فيه من منافاة ذات الواقع ومغالطة القواعد التي أسست عليها أعمالنا ومخالفة الحس والعيان، إذ لو كان باطننا كما يقولون لظهر ذلك على فلتات ألسنتنا، وأسلات أقلامنا، وتجسم في حركاتنا وسكناتنا، لأن الظاهر عنوان الباطن.

ولا ننكر أن المنافق يتلون ويقول ما لا يفعل، غير أنه إذا امتحن حاله أسفر عن كذب ورياء، وإن طلب منه التطبيق امتنع وتعلل.

أما نحن فقولنا شاهد علينا، فإن كانوا طالبين حقًا وناشدين حقيقة، فما عليهم إلا أن يصافحونا ولنصافحهم على خدمة وطننا ودولتنا، ونشر لواء العلم والتعليم في مهجرنا ووطننا، مع نبذ التعصبات الجنسية والمفاخرات الشخصية، وترك كل ما نحن عليه من العوائد السيئة والأخلاق الذميمة، والعمل يدًا واحدة على اتباع السنة والكتاب الكريم.

فإنه يأمرنا بالتعاضد والتكاتف والاعتصام بحبل الله والاتباع لرسول الله في أفعاله حسب طاقتنا البشرية، ويأمرنا باعتزال منكر القول والسعي بالغيبة والنميمة، وأن لا نتحاسد، ولا نتباغض، ولا نتنابز بالألقاب، ولا نتشاتم ونتلاعن.

وبالجملة فإنه العروة الوثقى للمؤمنين وصراطهم المستقيم والضامن لهم السعادة والفلاح في الدنيا والمعاد.

استمر هؤلاء الغشمان ومن يقول بقولهم ويوافقهم على فعلهم من السادة وغيرهم يتقوَّلون علينا، ويجرحون عواطفنا، ويهتكون أعراضنا، ويكتبون في حقنا، وينفرون الناس منا، غير أنَّا لم نقابلهم إلا بالصفح والإغضاء، رجاء منا أن ينتبه عقلاؤهم خصوصًا الحبيب المفضال محمد بن أحمد المحضار فيرجع بالناس إلى الصراط السوي.

لأن ما وقع بين الناس إنما مصدره ما ذكرناه، وهو صغير في نظر العاقل الحليم، غير أنه ويا للأسف إن تمكن هؤلاء المفتونين على التسلط على فكر الحبيب المشار إليه فبلغوه عنا أضعاف ما أبلغه الناس الآخرون، ومقصودهم من ذلك إلحاق الضرر بنا وبإخواننا في الوطن بواسطته.

ومما بلغوه أن هذه الجمعية لا تقصد إلا بغض أهل البيت، وأنها لم تؤسس إلا للحط من قدر السلف الصالح، ومعاكسة الكتاب والسنة، إلى غير ذلك من الأكاذيب والأقوال، فحسبهم الله على أقوالهم وحركاتهم وسكناتهم وسرهم وجهرهم فإنه عالم المفسد من المصلح، والفاصل بين العباد فيما كانوا فيه مختلفون.

إن من جملة المصائب التي طرأت علينا هو ما حل بإخواننا في الوطن العزيز، وما نالوه من التهديد والتقريع من نائب جلالتكم الوالي عمر بن أحمد باصرة، حكم على إخواننا، وألزمهم بأن يكتبوا إلينا ويأمرونا بالخروج من الجمعية، وأمهلهم إلى شهر شعبان القادم حتى ترد منا لهم الجوابات المشفوعة بشهادة السيد محمد بن أحمد المحضار بأننا خرجنا من الجمعية وتبنا ورجعنا إلى الدين الإسلامي، وإن لم نفعل فستكون العاقبة وخيمة، وستكون معاقبة إخواننا في الوطن بنهب أموالهم، وتهديم قصورهم، وذبح أطفالهم، وتغريم جيوبهم.

فما كان من إخواننا إلا أن كتبوا إلينا ووصلتنا كتبهم مشحونة بالصياح والعويل ما لا حد له، ومن آيات الترجي والاستمناح على سبيل النصيحة بأن نخرج من هذه الجمعية التي بلغهم المفتري الكاذب بأنها جمعية كفر، وأننا كفرنا وحدنا عن الدين القويم، فيا لله من هذه الأمور، ويا لله من هذه الأحكام الصادرة بغير ترو.

فماذا ذنبنا حتى نعامل هكذا؟ أو ما ذنب إخواننا حتى يعاملهم الوالي بتلك المعاملة؟ أمن العدل أن يجازى المرء بذنب غيره إذا كان هناك ذنب صدر منا حقيقة؟ والله يعلم ويشهد الناس أنا بريئون مما قيل فينا، فلمناسبة هذه الأمور نقدم إلى جلالتكم شكوانا مع بيان الحقيقة، مؤملين في عدل جلالتكم الإنصاف والعدل.

مولانا: قد تمل جلالتكم من هذا التطويل، ولكن عفوًا فإن الحقائق لا بد من ظهورها ولو كره المفسدون.

مولانا: إن الأمة الحضرمية مرت عليها مئات السنين وهي تتخبط في ظلمات الجهل والتوحش، حتى سافر الكثير من أبنائها وهجروا أوطانهم، وهاجروا إلى كثير من الأقطار النائية طلبًا للمعاش، وفرارًا من الجوع والفقر المتسبب من عدم اعتنائهم بالعلم والتعليم والناشئ عما أحاط بهم من الجهل، ونالهم من الانحطاط، ونزل بهم من التقهقر.

واختلطوا بالأمم أدوارًا ليست بالقصيرة، وهم على حالتهم هذه من الجهل والتوحش والذل والمسكنة، ومضت عليهم الأيام والليالي وهم يخبطون في عشوائهم، وأخيرًا انتبهوا مما هم فيه من الجهل، وأحسوا بشدة الحاجة إلى العلم والتعليم، فأقاموا الجمعيات، وشيدوا المدارس، وخسروا الأموال.

ولكن من الأسف راحت أتعابهم أدراج الرياح؛ لما كان يبثه كثير من السادة من إحباط المساعي ومعاداة كل هذه المشاريع الخيرية، وكانت أزمة تلك الجمعيات

والمدارس إذ ذاك بأيديهم، فبقي الجمهور باهتًا حيال هذا التسطير الغير الحق صابرًا على ما يقاسيه من هؤلاء المتغلبين.

لكن كثرة الضغط تولد الانفجار، وشدة الاحتكاك تولد النور، وبفضل ذلك الاحتكاك وضغط أولئك المتغلبين جعله يقوم ويعمل ما تعمله الأمم الحية من نشر المعارف، وفتح المدارس، وتأسيس الجمعيات، وتصافح الأيدي. وبما أن السبب الوحيد في جعل الأمة الحضرمية فرقتين هي جمعية خير ببتاوى وجب أن نبين ذلك.

إن جمعية بتاوى التي تدعى جمعية خير ولها مدرسة بهذا الاسم، قد مر عليها زمن ليس بالقصير وهي هي، لا هي تقدمت ولا ماتت لعدم وجود معلم عارف بطرق التربية، فلما رأى رؤساؤها أن مكوث المدرسة على هذه الحالة لا يأتي بالفائدة المرجوة، طفقوا يفحصون ويفتشون على معلم لها.

فقيض الله لهم الحصول على ما يريدون على يد من كاتبوه في ذلك وطلبوا أن يفتش لهم على معلم، ألا وهو السيد المفضال المخلص الهمام صاحب الفضل العلامة المرحوم حسين بن محمد الحبشي المتوفى بمكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فقد أرسل لهم الأستاذ الشيخ أحمد بن محمد السوركتي الأنصاري، لما يرى فيه من الكفاءة والمقدرة على التعليم.

فلما وصل إلى بتاوى استلمه العرب قاطبة وفرحوا به وأحبوه وقلدوه وظيفة المدرسة والتعليم، ومكث نحو سنتين كانت النتيجة حسنة. وفي ذلك الوقت دخل السادة القائمين بأمور المدرسة الحسد على الأستاذ وكرهوا للأمة أن تنتبه من غفلتها، كأنهم لم يحبوا أن تتفتق العقول وتتنور الأذهان، فكانوا يحاولون حينئذ إيقاف المشار إليه من وظيفته، غير أنهم لم يجدوا سببًا يسوغ لهم ذلك.

وبالأمر المقدر والقضاء المبرم جاءت مسألة من الخارج صدفة موجهة إلى الأستاذ وهي مسألة الكفاءة وأعقبها مسألة التقبيل، فأفتى فيهن بما أفتى به قبله العلماء المحققون والأئمة المهتدون الهادون، فاتخذ أولئك السادة ذلك سببًا لإيقاف الأستاذ، وفعلًا أوقفوه من المدرسة.

فعندما أراد الرحيل إلى وطنه طلب منه المشائخ أن لا يرحل، وتفكروا في أن يتخذوه معلمًا لأولادهم، فأقاموا لذلك الغرض جمعية ودعوها بجمعية الإصلاح والإرشاد، وأسسوا مدرسة باسمها، وجعلوه ناظرًا للتعليم ومدرسًا بها، ويرجع أمر المدرسة وما تفرع منها وأمر الجمعية إلى أعضائها وأفرادها، وهم المشائخ على اختلافهم. ولا نقول إنها تضم جميع المشائخ، بل فيه من لم ينضم لأعذار فارغة بعيدة عن الصدق، ولا نقول إنه لا يوجد في السادة من يحب هذه الجمعية، كلا بل فيه ولكن تغلبت عليه العصبية.

وعندما أقيمت جمعية الإصلاح والإرشاد، وحمل السادة لها العداء، وللأستاذ ولمن انضم إليها وقالوا في حق الأستاذ ما يخجل القلم، وفي حق يافع وآل كثير وفي المنضمين ما لا نقدر أن نسطره خجلًا من ذكره، وقد زوروا ودسوا عليها حتى عند الحكومة الإنجليزية بالطرائق التي تضر الحكومة وتجعلها تعامل كل منتسب إلى هذه الجمعية بالمعاملة القاسية، وتنظر إليها بعين الحذر، وتمنعهم من الدخول إلى مستعمراتها خوفًا وحذرًا من الأعمال التي نسبوها إليها من أنها جمعية سياسية بلشفيكية، وجاسوسية لتركيا وألمانيا، وإلى أمثال ذلك.

ثم عمدوا إلى جلالتكم على أيدي قوادهم، وقالوا إنها جمعية مكفرة، وأن ما فيها خارج عن الملة، وأننا نبغض أهل البيت، ونسب الصحابة، ونلعن بعضهم، وننكر الكرامات وزيارة القبور ونفطم التقبيل وغير ذلك، وعمدوا إلى حكومة هولندا بطرق شتى، غير أنها لما كانت عالمة بمآرب هذه الجمعية وعارفة مقاصدها

وتنظر تعاليمها لم تعر قولهم أذنًا، ولم يمسنا نحن منها أذى، ولو كانت تعلم أو علمت أن جمعيتنا هذه هي الجمعية السياسية أو المخالفة للدين والقوانين لما أعطت الامتياز فيها.

غير أن الضرر أتانا وأتى إخواننا من أماكن أخرى ما كنا نحلم بها، حتى أن إخواننا في الوطن أنفسهم تضرروا من زرع افتراءات أولئك الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذه المسألة.

إن جمعية الإرشاد كانت ببتاوى، فلما عرف الحضرميون أنها هي الخادمة للدين والناشرة للمعارف طلبوها من كثير من البلدان، فأصبحت الآن بعونه تعالى متفرعة عروقها وفروعها بكل بلد، فمنهم من قد أقام مركزًا لها، ومنهم من لم يقم لها مركزًا. وبحمد الله فهي فتحت المدارس لأبناء المسلمين، وسهر أعضاؤها ورؤساؤها، وخسروا الأموال وتحملوا المشاق والأتعاب والأقوال، شأن المعلم الخيري تعترضه الأحوال، وما القصد إلا التعليم الديني والدنيوي، وكل ما يعود بالمنفعة التامة على الأمة والوطن.

أما ما يشيعه السادة وما يقولونه من أن المنضمين لهذه الجمعية خارجين عن الدين، يبغضون أهل البيت، ويسبون الصحابة ويلعنون البعض منهم، وإلى أمثال ذلك كما ذكرناه أعلاه، فإنما ذلك لسان فعلهم وبرهان أعمالهم وطريقتهم التي ابتدعوها هم أنفسهم مقدر من غير بعيد. وتشهد عليهم كتبهم وكتب قائدهم لهذه الطريقة السيد محمد بن عقيل بن يحيى ساكن سنقافورة، وأمثاله كثير نجل القلم عن التصريح بأسمائهم، ونعتزل الفتنة لأنها أشد من القتل.

الخلاصة

إن جمعية الإرشاد والإصلاح أقيمت لفتح المدارس الإسلامية ولتعليم أبنائنا وأبناء المسلمين، خطتها كتاب الله وسنة رسوله ومذهب الإمام محمد بن إدريس

الشافعي، والله يشهد والناس إنا لصادقون، ونشهد الله والملائكة ونشهد جلالتكم إننا مسلمون موحدون إلى يوم الدين إن شاء الله.

وزيادة على ذلك وخدمة للدين والأمة والشرف الإنساني نطلب أن تسمح جلالتكم وذلك ما نؤمل بإرسال مفتشين من قِبل جلالتكم للاطلاع على كل شيء وفحص المسألة وأخذ البيانات الكافية، وليكونوا من العلماء المحققين الصادقين الذين لا يخادعون الله ما أمرهم، ولا متحيزين لفئة دون أخرى، ثم يعودون إلى جلالتكم حاملين ومزودين بكل ما تحصلوا عليه من الإيضاحات والبيانات، وكل مصاريفهم ذهابًا وإيابًا إلى الوطن تحت مسؤوليتنا وملتزمين بها، كل هذه خدمة للحقيقة والدين.

فإن فعل جلالتكم ذلك فقد أكرمت بمكرمة عظيمة، وبعد ذلك فلجلالتكم الحكم بالعدل الشرعي، وإنا عبيد الحق. وإن أحب جلالتكم أن تسعف المرسلين بقانون جمعيتنا وكتب السادة وما قالوه ونشروه مع الأجوبة التي صدرت منا ليتبين الحق من الباطل، فبغاية السرور والابتهاج نفعل ذلك.

وما كان هذا الأمل في جلالتكم إلا لأنه يتعذر على أحدنا الخروج إلى الوطن وحكومة الإنجليز واقفة لنا بالمرصاد على نصف الطريق، خائفة من أن يدخل أحدنا مستعمراتها لما بلغها من الافتراء الكاذب.

أيها السلطان العادل: إلى الله تعالى وإلى عدل جلالتكم نرمي هذه المسألة ونكل الأمر فيها إلى عدلكم ونتظلم ونرفع إلى جناب جلالتكم أيدي التشكي والتظلم من الذين تقوَّلوا علينا بما ليس فينا، وألبسونا ثوبًا من الباطل، كما أننا نستمنح جلالتكم التأني والصبر في معاملة إخواننا في الوطن على غير ذنب أذنبوه، فجلالتكم نصير للمظلوم وعضد وساعد قوي وملجأ وحكم بين الناس.

الإمضاءات

إبراهيم بن عمر بوسبيط، محمد بن رئيس بن طالب، محمد بن سعيد بن عبدالله مرتع، محمد بن أحمد العمودي، محمد باعمر بلحمر، محمد بن أحمد بلحمر، محمد بن عبدالله باصهي، محمد بن بوبكر باسلم، محمد بن موسى باموسى، عبدالله بن سالم البيض، عبدالرحمن باعبود، أحمد بن عبدالله بن شيخ عمر العمودي، بوبكر بن عبدالله بن شيخ عمر العمودي، سعيد بن عوض باشميلة، محمد بن عبدالله حمد بلحمر، ربيع بن امبارك بن طالب، محمد بن سعيد العسل العمودي، حسن بن أحمد بن ماضي، سالم بن سعد بن نبهان، سالم بن عوض باشميلة، أحمد بن عمر بلحمر، شيخ سعيد بن محمد سعيد باسعيد، بوبكر باكراع، عثمان بن عمر العمودي، محسن بن أحمد العمودي، أبو بكر بن أحمد باشراحيل، عثمان بن محمد العمودي، أحمد بن حسين بلحمر، محمد بن سالم باقبص، عمر ابن سالم بلحمر، عبدالله بن سالم بلحمر، سعيد بن سالم باسلم، سعيد بلحمر، سعيد بن أحمد باسلم، عبدالله بن عبدالرحمن العمودي، عمر بن محمد محمد الغد العمودي، عثمان بن عمر باموسى، عمر باكراع.

كتاب جمعية الإرشاد المركزية للقنصل الإنجليزي

وقدمت جمعية الإرشاد كتابًا للقنصل الإنجليزي تنفي فيه التهم التي ألصقها بهم العلويون، وهذا نص الكتاب:

بتاوى في ١٦ أبريل سنة ١٩١٩م

حضرة المحترم معتمد دولة بريطانيا العظمى ببتاوى:

بعد تقديم صحف الاحترام نعرض أن جريدة (الإقبال) العربية نشرت في اليوم نشرة مضمونها أن حكومة إنجلترا ناقمة على جمعية الإرشاد والإصلاح، وأنها تمنع كل عربي من أعضاء تلك الجمعية من إعطاء الجواز دخولًا وخروجًا لجزيرة جاوة.

نشرت جريدة الإقبال -عدوة جمعية الإرشاد اليوم كما كانت من قبل عدوة للإنجليز- هذا الخبر وعزته إلى إشاعات عن سنقافورة، غير أن الثابت رسميًا لدى جمعية الإرشاد أن تلك الإشاعة صادرة من بتاوى بواسطة رجل عربي اسمه السيد علي بن شهاب.

إن جمعية الإرشاد لا تجهل أن السيد علي بن شهاب منذ أكثر من سنة يعمل ضدها ويرفع أشياء إلى جنابكم مضرة بمصالح الجمعية، غير أن الجمعية لم تعر عمل هذا الرجل أدنى التفاتة لأنها تعلم أن السيد علي بن شهاب ليس له مبدأ يعمل له.

فطالما يعرض نفسه لخدمة القناصل التركية سنين عديدة، واتهم مرارًا بالتهييج وإثارة الخواطر ضد الحكومة المحلية (حكومة هولندا)، وسعى ضد وجود إنجلترا نفسها في عدن بطوافه في اليمن وحضرموت فيما سلف، ولم ينجح في شيء من ذلك، زيادة عن كونه ليس بوجيه بين العرب عمومًا ولا بين السادة خصوصًا، وليس هو من أهل العلم أو الرأي.

فإذا كان الأمر كما تقول جريدة الإقبال ويقول علي بن شهاب نفسه: إن دخول العرب وخروجهم أصبح بيد السيد علي بن شهاب؛ فإن هذا الأمر يدعو إلى الدهشة.

ثقوا يا حضرة القنصل جنرال بأن بعض السادة أمثال السيد علي بن شهاب إنما يهولون لكم أمر جمعية الإرشاد، ويظهرون أعمالها أمام أعينكم بغير المظهر الحقيقي، وليس ذلك عن جهل منهم بحقيقة جمعية الإرشاد، بل هو عن قصد وتعمد حتى تكون حظوتهم لديكم عظيمة، ويجازون على تلك التقارير الملفقة بالمجازاة التي تتوق إليها نفوسهم عاجلة كانت أو آجلة، وبذلك يكونون قد أوجدوا لأنفسهم عملًا يغنيهم عن البطالة.

إن أكثر السادة من الحضارمة ينقمون على جمعية الإرشاد كثيرًا لكونها تبث العلم والفضيلة بين جميع الطبقات، وتسعى لتنوير أفكار حتى الفلاحين والصناع، وذلك مما يغيظ السادة الذين يحزنون كثيرًا أن يساويهم غيرهم، ويتألمون أن يقف سواهم في موقف واحد معهم. فالسادة متمسكون تمامًا بمذهب الأكليروس القديم في فرنسا، ولكن تيار العلم اليوم يأبى إلا أن يهدم تلك المبادئ التي لم تعد صالحة بالقرن العشرين. فأين خطة جمعية الإرشاد إذن مما ينسبه السيد علي بن شهاب إلى الجمعية؟ وأنها تحرك آل كثير على محاربة القُعَيْطي حليف إنجلترا.

إنكم لا تجهلون أن تنازع الرئاسة، والمزاحمة بين النظيرين طبيعي في البشر، خصوصًا بين القبائل التي لم تعهد الخضوع للنظام، فإذا كانت هناك محاربة بين القُعَيْطي والكثيري فلا نعتقد أنها مبنية على عداوة الإنجليز قط، بل ربما تكون مبنية على المنافسة بين الرئيسين، خصوصًا وهاته المواقع الدموية بحضرموت لم تكن بالشيء الجديد الذي حدث في هاته السنة أو ما قبلها، بل إن ذلك شيء قد عرفته البلاد والعباد من منذ أحقاب من السنين.

فإذا كانت جمعية الإرشاد تحاول أن يتغلب آل كثير على حكومة إنكلترا، كان ذلك إهانة وتحقيرًا في إدارة الجمعية يجب أن يسجل على كل من ينسبه لها، لأنه لم يبق إذن في إدارة الإرشاد رؤوس تعقل أو أدمغة تفكر. كيف تحرض جمعية الإرشاد قبائل آل كثير الذين لا يصل عددهم الخمسة آلاف نفر بما فيهم الشيوخ والنساء والأطفال عزلًا عن كل قوة على محاربة حليف إنكلترا التي لا تغيب الشمس عن أراضيها، والتي أظهرت الحرب الحاضرة مهارتها بتفوقها على أقوى عدو.

١ - أي عداوة ارتكبتها إنكلترا ضد جمعية الإرشاد؟

٢ - أي صداقة لأعداء إنكلترا مع جمعية الإرشاد؟

فإذا كان بعض أعضاء الجمعية لهم علاقة ببعض من عساه يكون عدوًا للإنجليز، فإن تلك العلاقة يجب أن يعود نفعها وضررها على أشخاصهم رأسًا، ويجب أن يحاسبوا عليها فرديًا، وإن إدارة جمعية الإرشاد بصفتها تسعى لنشر العلم والفضيلة، فكل من مد لها يد المساعدة المالية عدته عضوًا من أعضائها، بقطع النظر عن جنسه ودينه وسياسته.

إن جمعيات الصليب الأحمر تعمل وراء مساعدة المصابين في أجسادهم بقطع النظر عن دينهم وسياستهم، وكذلك جمعية الإرشاد والإصلاح تبحث عن معالجة الأرواح والنفوس الجاهلة بنشر العلم، وبث التربية والفضيلة، فهل تُحارب مثل هاته المبادئ، يا حضرة القنصل جنرال؟

وبلسان جمعية الإرشاد نسجل لديكم على كل من ينسب للجمعية تهمة العمل ضد حكومة إنكلترا أو حلفائها، أو أي عمل لمصلحة أعدائهم، وأي عمل سياسي على الإطلاق، ونرجو أن تتفهموا معنا رأسًا لعله يزداد لديكم الحق إشراقًا، وينكشف لكم ما عساه يكون مطويًا. وثقوا يا حضرة القنصل جنرال باحترامنا لشخصكم.

إدارة جمعية الإصلاح والإرشاد

ثم تواترت الأنباء بأن الإنجليز لا يسمحون لكل إرشادٍ بالسفر إلى إحدى مستعمراتها، وإن السيد سعيد مشعبي أحد رؤساء الجمعية أوذي من ولاة الأمور بسنغافورة حينما نزل في مينائها أذى عظيمًا، فاضطرت لذلك إدارة الإرشاد لتقديم عريضة أخرى يوم ١٥ أكتوبر ١٩١٩م لقنصل الإنجليز، وهي لا تخرج عن معنى العريضة الأولى من حيث نفي التهم الموجهة إلى الجمعية، وتبيان مبادئها الحرة وأغراضها الشريفة، واجتمع الشيخ أحمد السوركتي بالقنصل الإنجليزي ليتحقق عن الإشاعات التي يذيعها آل باعلوي ضد الإرشاديين فاندهش للأمر، وصرح أنه

لا يعرقل أمام كل إرشادي يريد السفر إلى أية مستعمرة إنجليزية، وقد اتخذ الشيخ أحمد ذلك حجة لدحض إشاعات العلويين، ونشر منشورًا هذا نصه:

جاء الحق وزهق الباطل

بما أنه قد تكرر في جريدة (الإقبال) خبر أن الحكومة البريطانية تعتبر جمعية الإصلاح والإرشاد، وكل من ينتمي إليها من الأعضاء أعداء لها، وصرحت بأن هذا الخبر مصدره السفارة البريطانية ببتاوى، ذهبت أنا بنفسي إلى مركز القنصلات وقابلت القنصل جنرال الإنجليزي وسألته عن هذا الخبر وعن أسبابه، فاستغرب الأمر وتبرأ من هذا الخبر بتاتًا، وقال: إنه ليس عنده أدنى مسيس من هذا الأمر، وإن الحكومة لا تتهم جمعية الإرشاد بعداوة، ولا تضمر لها بغضًا مطلقًا، وأمرني أن أعلن ذلك لأهل الجمعية.

فبناء على ما ذكر، فهذه الأخبار التي تشاع من أن القنصل الإنجليزي لا يعطي الناس لمن هو من أعضاء جمعية الإرشاد، أو أن الحكومة البريطانية تعد أهل الإرشاد أعداء لها أو أنها تحذر من الدخول فيها أو المساعدة لها، كلها أخبار مكذوبة اخترعها أهل الأغراض وأعداء العلم والحرية؛ ليرهبوا بها الناس وينفروهم من جمعية الإرشاد ومدارسها، وليوغروا قلوب الإرشاديين على الحكومة الإنجليزية.

هدانا الله وإياهم إلى صراطه المستقيم، ووفق الجميع لما يحبه ويرضاه آمين.

كاتبه
أحمد بن محمد السوركتي

البلاغ المنسوب إلى الحكومة القُعَيْطية

وتجرأ جماعة من العلويين في تزوير منشور كله تهديد ووعيد للإرشاديين، وإنذار وإعلام بإيقاع العذاب وإنزال العقاب بكل من يبقى عضوًا في الإرشاد، ونسبوا المنشور إلى السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي، ودفعوا اثنين من أتباعهم لنشر

المنشور وتوزيعه على الحضارم، وحيث إن طبع ذلك المنشور وتوزيعه من غير إذن الحكومة الهولندية يخالف قانون البلاد، وحيث إنه يهدد وينذر بالعقاب جالية آمنة مطمئنة تحت ظل حكومة جاوة، وهذا بالبداهة يخالف القواعد الدبلوماسية، فقد حكمت الحكومة على ناشريه سالم باوزير وعبدالرحمن جواس بغرامة مالية، وهذا نص المنشور المزور:

بلاغ رسمي

الحمد لله الذي أظهر سيف العدل والحق، ودفع الباطل وأزهق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ما طلع فجر الحق وأشرق، وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى ومصابيح الغسق.

السلام التام إلى حضرة كافة الأمة الحضرمية المقيمين بالممالك البريطانية والهولندية هداهم الله إلى الصواب.

صدرت من المُكَلَّا لقصد إبلاغكم أنه طالما امتلأت أسماعنا من الأقاويل والكلام الممزوج بالأباطيل، وكنا نظن أن فيكم عاقلًا يسد هذا الخرق، فإذا نار الخطأ شاعلة، حتى إنه وصل إلينا كتاب من بعض أهل الإرشاد -أمة البغي والفساد- كلام مزخرف وعليه من الحق مسحة وهو كما قال سيدنا الإمام علي -كرم الله وجهه-: كلمة حق أريد بها باطل.

وحاصل ما نبديه لكم وننهيه إليكم أن حكومتنا حرسها الله حكمت حكمًا جازمًا على كل من ينتمي لجمعية الإرشاد ممن تلزمه الطاعة لنا بحقوق التبعية بإبطال هذه الجمعية مع جميع فروعها، وأن يرجعوا إلى متابعة السلف الصالح في الأقوال والأفعال.

وكل علم أو عمل أتى به أحد كائن من كان غير ما مضى عليه السلف الصالح وما مشوا عليه، فليس له قبول، وهو رد عليه ومردود في وجهه، وليس لنا التفات إلى أحد، ولا إلى قول أحد سوى ما درج عليه السلف الصالح من أهل جهتنا من العلوم والأعمال والنيات والاعتقادات، وبحمد الله سيرتهم ليست خافية على أحد، ومن زاغ عنها فهو سفيه بشاهد القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾. وملة إبراهيم هي ما مشى عليه الحبيب الكريم كما أرشده إلى ذلك في قوله: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وما مشى عليه بعده ورثته ومتبعوه من حبائبنا من السادة آل أبي علوي، والمنتسبين إليهم من المشائخ والمحبين وكتبهم وتراجمهم والتواريخ شاهدة وطافحة بذلك، وليس على الحق غبار.

وحيث شهدت الجمعية الإرشادية على نفسها بلسان ساستها بأنها مضرة على حكومتنا، فقد حكمنا حكمًا صارمًا على كل من لنا عليه سلطة الولاية بالانفصال عن جمعية الإرشاد وفروعها، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، وقد صادقتنا على العمل بهذا الحكم حكومة السلاطين آل عبدالله الكرام.

فمن رجع وتاب وأقلع عما هو عليه الآن من الاختلاف والأخلاق والشقاق والافتراق، وظهرت عليه أشائر التوبة بسلوكه على ما كان السلف الصالح عليه من الاعتقاد والأعمال، وانسلخ عن كل فرع من هذه الجمعية التي أوجبت للناس هذه البلية، وصادقه على رجوعه حبائبنا فهو المقبول.

ومن بقي مصرًا على ما هو عليه أو منضمًا إلى هذه الجمعية، فالضرر واقع به وواصل إليه في نفسه وأهله وماله وولده في أي محل كان، وكل آت قريب، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وليس خافيًا علينا أن هذا الخطأ والفشل والافتراق، منشؤه جمعية الإرشاد ذات البغي والفساد، بل هي بلشفيكية غير منظمة، وذلك محقق ومعروف لدى كل الناس، فرأينا حسم المادة بمحاربة هذه الجمعية، وأن نرجع إلى قوله ﷺ: «**كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد**» ولا شك أن هذه الجمعية وفروعها مخالفة لهدي السلف الصالح المتبعين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع كمال التحقيق للمتابعة بلا نزاع.

وكل ما تدعون أنه علم أو عقل واقتراح وهو مخالف لما مضى عليه السلف الصالح، فلا بد أن يعود ضرره علينا وعلى أصدقائنا وعلى الأمة الحضرمية خصوصًا، فأوجبنا الرجوع إلى طريقة السلف. وكل جمعية ليست مشتملة على ما هم عليه، وليس رؤساؤها وزعماؤها من أهل الفضل الثابتين على المنهج القويم، فسيلحقها ما يلحق الجمعية الإرشادية وأعضاءها.

وقد حكم نائب حكومتنا بدَوْعَن على أهالي جمعية الإرشاد أصحاب الفساد بما حكم وهو بعض مما حكمنا به، وسيكون أكثر، وسنستأصل الحال والمال إن بقي أحد منهم على طغيانه، ولا بد أن يذوق الهوان ويدخل هو ومن والاه في خبر كان، والله تعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

فمن بلغه هذا البلاغ الرسمي وبقي على تماديه وعتوه فسوف يندم ولات حين مناص، ولا تقبل فيه شفاعة شافع، ولا سيسمع منه الاعتذار، وليس بعد الحق إلا الضلال، وبالله التوفيق.

السلطان غالب بن عوض القُعَيْطي

المُكَلَّا تحريرًا في ٢٢ رجب الأصم ١٣٣٨هـ

عريضة الإرشاد للوزارة الإنجليزية الخارجية

ولمَّا رأى الإرشاديون أن العريضتين اللتين قدموهما للقنصلية الإنجليزية لم ينتج شيء منهما، وأن التأشير على جوازات السفر لا يزال محظورًا عليهم بعثوا عريضة طويلة إلى وزارة الخارجية الإنجليزية وهذا نصها:

حضرة السيد الماجد الغني بشمائله العالية، وأياديه الفائقة، ومنزلته الرفيعة في العلم والأدب عن ترديد أساليب المدح والإطناب، لا زال كعبة للآمال وملجأ لأولي الحاجات.

بعد تقديم مراسم السلام والاحترام، وأداء الآداب اللائقة بالمقام، نولي وجوهنا شطرك، ونمد أيدينا إليك من هذه البلاد النائية، مستغيثين بك، ملتمسين من إنسانيتك المقدسة أن تمد إلينا يد المساعدة والاهتمام في إنقاذنا من هذ الورطة الصماء التي لا طاقة لنا بدفعها ولا مسايرتها.

إننا من العرب المهاجرين من بلادنا حضرموت إلى جزائر الهند الهولندية لطلب المعيشة، ولنا بها سنين طويلة حتى أصبحنا نعدها وطنًا لنا، إذ بها أموالنا وذرارينا وجميع مقومات حياتنا، والأمة الحضرمية على الإجمال سواء كانوا في وطنهم أو في مهجرهم عنصران كبيران. أحدهما يسمى بالعرف العام عندنا باسم المشائخ وهم أهل البلاد الأصليون، ونحن المقدمون إلى جنابكم هذه العريضة منهم.

والعنصر الثاني يسمون بالعلويين، وهم الذين نشتكي نحن منهم ونستغيث بكم من شر ما نتج من فتنهم وحيلهم علينا، وهم -أي العلويون- قوم أجانب عنا، هاجروا إلى بلادنا منذ قرون يدعون الانتساب إلى علي بن أبي طالب، وإلى نبي المسلمين محمد ﷺ من جهة بنته.

إن حضرموت كانت ولا تزال بلادًا منقطعة عن جميع البلدان المتمدنة والأمم الراقية، وليس بها إلى الآن شيء من المعاهد العلمية، ولا من المعامل الصناعية،

وأهلها -وهم آباؤنا- قوم بسطاء يميلون إلى البداوة، وكان من أخلاقهم الفطرية المبالغة في إكرام الضيوف وحسن الظن بمن يدعي الانتساب إلى أحد من الصالحين المشهورين، وبالأولى إلى أحد الأنبياء أو الصحابة المكرمين. فلذلك وجد هؤلاء المهاجرون منهم حفاوة واحترامًا، وفتحوا لهم بيوتهم، وسهلوا لهم طرق الراحة، حتى اطمأنوا بها وتربعوا في ربوعها، ولما طاب لهم العيش وطال بهم المقام استمالهم الطمع، فطفقوا يؤسسون فينا قواعد جائرة باسم الدين، كلها ترجع إلى تقديسهم وتأليههم وإذلال من عداهم، وليست من الدين الحقيقي في شيء، ولا الدين في شيء منها.

فأوجبوا أولًا على الناس تقبيل أيديهم كبيرهم وصغيرهم، برهم وفاجرهم، بزعم أن الدين أوجب ذلك لهم، وقائلين للناس: إن تقبيل أيديهم يبرئ من البرص والجذام وجميع الأمراض العسرة، ثم أخذوا يفسدون العقائد ويوجهون الناس إلى عبادة قبور آبائهم، بزعم أن بأيديهم قضاء الحاجات، وبإرادتهم سعادة الدنيا والآخرة، وأنهم أهل الكشف والكرامة والتصرف في الكون، وأولو الأمر والنهي على عالم الغيب، وأنهم مطهرون غير مؤاخذين بما يرتكبونه من المعاصي كغيرهم، وأن ذنوبهم صورية يجب أن تؤول بنقائضها مهما كانت.

ولما كان العلم والدين الحقيقي يقاومان هذا المبدأ وهذا التأسيس ويناقضانه، بدأوا أولًا بقتل العلم وقلع جذوره من البلاد، وتبديل معنى الدين الحقيقي مع إبقاء اسمه وبعض صور مراسمه، ولم يألوا جهدًا في تعمية القلوب وسد فرج الفكر بالخرافات، حتى بلغ الناس درجة أنه إذا قال أحد هؤلاء الناس: أنا الذي بنيت السماء، وأنا محيي الأموات، وفي قبور آبائي خيول خضر ومدافع عظيمة يضربون بها جميع العالم؛ لا يكذبونه ولا ينازعونه، وبالفعل كان ذلك كله مع كونه يرتكب كل قبيح يخجل منه أسقط الساقطين.

إلى هذا الحد كان مبلغنا من الجهل والسقوط، وفي تلك السجون المظلمة كان محبس عقولنا وأفكارنا عدة قرون بفضل مساعي أولئك الأولياء الذين يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وصفوته من خلقه، وأن جميع ما في العالم مخلوق لهم، وهكذا كانت مكافأتهم لنا ولآبائنا في مقابل إكرامنا لهم وحفاوتنا بهم وفتح ديارنا لهم ولذراريهم وتقديسنا إياهم، ولبثنا تحت هذه الأثقال سنين كثيرة، ظانين أن خالق الكون هو الذي حكم علينا بهذا الحكم الجائر.

هذا صنيع المتقدمين منهم معنا من ابتداء القرن الحادي عشر المسيحي إلى أوائل القرن السابع عشر، وبه ينتهي دورنا الأول معهم.

دورنا الثاني

من أوائل القرن السابع عشر كثرت ذراري أولئك المهاجرين بيننا، وتعددت فخائذهم، وأخذت كل فخيذة منهم تسابق الأخرى في الخرافات، لتنال الرتبة العليا بين الناس، وتختص بوفرة الهدايا والنذور والجاه والفخفخة دون غيرها، ودخل بينهم التنافس، فاستمال كل فرقة منهم قبيلة أو قبيلتين. ثم أخذوا يفتنون بين القبائل ويضربون بعضهم ببعض، حتى استحكمت بينهم العداوة والبغضاء وصُبغ أكثر تراب ذلك الوادي بدماء قبائله، ففقد الأمن، وخربت البلاد، وضاقت المعايش، ففر أكثر أهلها هاربين مهاجرين منها إلى البلدان القاصية عنهم كالهند وجزائر جاوا وسواحل أفريقيا طلبًا للمعيشة والأمن، ونحن المقدمون لهذه العريضة إلى جنابكم السامي من جملة المهاجرين إلى جزيرة جاوا.

وبما أن العلويين لا صنعة لهم إلا التحيل بالخرافات، تبعوا المهاجرين منا إلى مهجرهم للتعيش منهم والمحافظة عليهم من عدوة العلم والدين الصحيح، وقد اتسع لهم باب التدجيل والخرافات في المهجر، وقطعوا من ثمراتها قطوفًا دانية من الأهالي الوطنيين الماليزيين الذين بالجزائر الهندية، لغرامهم بالمعنويات وجهلهم

المطبق. فبالغ العلويون هنالك في تأليه أنفسهم وتقديسها وقدموا لهم أيضًا أيديهم وأرجلهم للتقبيل، وبصاقاتهم للتداوي، وقلامة أظفارهم لتحصيل الأرزاق والأولاد، ثم أخذوا يبيعون جنات الآخرة على الناس بالباع والذراع وتبدلت جنتهم بجنتين، فسكروا وطربوا وغنوا ورقصوا وتكبروا وتجبروا، وتطاولوا على أعراض الناس وأموالهم بدرجات فظيعة حتى طفحت الكأس، وغلت مراجل قلوب العقلاء منا.

وبينما نحن كذلك نئن من ثقل هذه الآصار نكاد نتميز من الغيظ، فإذا بطالع السعود أخذ يبدو في ربوع الشرق بواسطة الانقلاب الهائل في مجاري السياسة الشرقية في أوائل القرن العشرين، فحور كثيرًا من سلوك الحكومات في البلاد الشرقية وخفض وطأة القائمين على إبقاء ما كان على ما كان، فانتشرت الصحافة وأصبح تناولها ممكنًا للعموم، وازداد عدد المتخرجين من مدارس الحكومة الهولندية وغيرها.

فأشرقت على الحارات فوانيس العلم، وأخذ الحق يسطع شيئًا فشيئًا، وتناول البحث أغراضًا كثيرة، وتحولت فكرة المتعلمين من الماليزيين عن موالاة العلويين الذين كانوا يصدونهم عن التعليم في مدارس النصارى، ويمنعونهم من التطبب عند حكماء الصليب، ويحرمون عليهم كل كتابة وقراءة سوى هجاء بعض آي القرآن بغير فهم، والمعالجة بغير لعاب الحبيب العلوي، ويعدون غير الممتثل لأوامرهم مارقًا من الدين الإسلامي.

وقد كانت مدينة سنقافورا هي المركز الأول لظهور الحرية الفكرية وخلع النير القديم ومكافحة الخطر الذي رمى بالحضارمة في الهوة السحيقة والسعي في نشر العلم، والمساواة بين الناس.

قد لعبت هاته المباحث دورًا مهمًا في النوادي العربية، وأسست لهاته المناقشات صحف سيارة بعضها أسبوعي وبعضها شهري، واشتركت الصحافة المصرية في هاته الحركة، وأيدت حزب الأحرار الناهضين الذين يسعون لفتح المدارس النظامية وفك عقال الجمود وسلطة الآباء الروحانيين.

وبانتشار تلك الأفكار بسنقافورا، وتداول الصحف لها، تسربت تلك الحقيقة إلى العرب القاطنين بجاوا وما حواليها، وأخذ الكل يبحث:

١- لماذا نحن في جهل؟

٢- لماذا نحن ننقسم إلى طبقات؟

٣- لماذا كان العلم محظورًا علينا دون غيرنا؟

٤- على أي شيء نحن نقتتل في بلادنا حضرموت؟

٥- لماذا لا نحول وجهتنا هنالك بدل القتال إلى الأعمال النافعة؟

٦- لماذا لم تنل بلادنا نصيبًا من الرقي كما نال غيرها من بلاد الله؟

٧- بأي طريق أم بأية كيفية نستحصل على حياة بشرية سعيدة؟

٨- وأخيرًا ما هي الجناية ومن هو الجاني؟

هذه هي المواضيع والنقط الأساسية للبروجرامات التي أخذت تبحث فيها الفئة الجديدة، بعدما أيقنت أن التقاليد التي كانت تتبعها في بلادها وفي مهجرها مستهجنة في نظر الدين الإسلامي وفي نظر المدنية الحديثة، وأن المنازع القديمة ليست سوى خطة كان يعيش عليها البشر في أوائل القرون الوسطى، أو هي أشبه من الوجهة الدينية بخطة الإكليروس في فرنسا في القرون الغابرة.

لم تكن هاته الأبحاث بالتي تروق في أعين خرافيِّ العلويين طبعًا -كما لم ترق في أعين الإكليروس من قبلهم- لأنهم كانوا يرونها قضاء نهائيًا على عبادتهم من دون

الله، ورأوا أن هؤلاء المفكرين أتوا شيئًا إدًّا، وخالفوا الدين والشرع، فشمروا لإثارة العامة والغوغاء ضد الأحرار، فتارة يكفرونهم، وأخرى ينسبونهم إلى الاعتزال، وأخرى لتقليد الإفرنج والمروق مما كان عليه الآباء المقدسون.

غير أن الثبات والتؤدة والسير في نهج الحكمة والتدبير جعل الكفة الراجحة مع الناهضين، فقد دافعوا عن أنفسهم بواسطة النشرات والكتب والصحف مدافعة من يحب الخير لنفسه ولقومه ولدينه وللبشر أجمع، مدافعة بعيدة عن البذاء والفحش والهجر الذي لم يترك العلويون بابًا من أبوابه إلا ولجوه في نشراتهم وفي الصحف التي تنطق بلسانهم.

فانتبه كثير من أهل العقول الخاملة بواسطة البحث والمناقشة، وأصبح حزب الحق يتزايد يومًا فيومًا، وهناك كانت الطامة الكبرى على العلويين، ودخل في سيرهم الارتباك، فأغلقوا أبواب المعاهد الدينية التي كانت سلطتها تحت أيديهم، وطردوا الأساتذة المنتصبين للتعليم رغبة منهم في إطفاء الحقيقة وإيصاد أبواب التعليم كيفما كانت الحالة حتى تعود العقول إلى جمود وخمود أشد مما كانت عليه.

ولكن هيهات فقد انفك العقال وتبدلت الأحوال، ولم يعد في الوسع سجن الحق وتمويهه، وقد تمكن الكل من معرفة طريق الدين الذي كان وقفًا عليهم، ولم يكن في وسع السادة الوقوف في التيار حيث انهار السيل وانفتح المجرى القاضي بإزالة السلطة المقامة على الوهم والتضليل وجعل أراضي الجنة تحت إرادتهم يُقطعونها لمن شاءوا من عبادهم المخلصين.

أثناء الحرب

الأساتذة الذين طردهم السادة من التعليم في المعاهد الدينية لأنهم شاركوا الأحرار في أفكارهم، انضموا طبعًا إلى الأحرار، واستمروا يعملون جميعًا على

تهذيب الناشئة وتأسيس المدارس وتعليم من يوجد بين جدرانها حسب البرامج المقررة لها، لا فرق في ذلك بين الجاوي والعربي والسيد والشيخ.

والنتيجة الفائقة التي كانت تأتيها المدارس استلزمت الزحام على أبوابها، فتطلعت رقاب الجميع إليها، ولا ريب أن ذلك مما ينافي مصلحة السادة العلويين، فكانوا يعقدون المجالس السرية والعلنية للبحث عن الطريقة الحاسمة للإيقاع بالأحرار.

وقد اتخذوا فيما اتخذوا من الطرق الوشاية بالأحرار إلى حكومة هولندا، ورفعوا لها تقارير منبئة بأن هناك يدًا عاملة على إثارة البلاد، ويتبرؤون فيها سلفًا من العاقبة السياسية التي سيؤول إليها أمر هؤلاء الناس إن تركت مدارسهم تفتح وجموعهم تجمع، وغير ذلك من أمثال هاته الترهات التي اتخذوها ذريعة للتشفي.

وقد كانت الحكومة على جانب شديد من الحذر والاحتياط من هؤلاء الناس، ولعلها لم تزل كذلك حتى الآن، غير أنه ربما يكون قد خف عما قبل، لأنها لم تر من الأحرار إلا اعتدالًا، ومن المحافظين على القديم إلا التهور، فطالما أسال العلويون دماء الأحرار بأنفسهم ووسائطهم، فكان رائد الأحرار الصبر ومقابلة السيئة بالحسنة، وصحبة هذا يصلكم منشور نشره حزب الأحرار إثر واقعة دموية صدرت من خرافي ضد حر.

إن العلويين فشلوا فشلًا بيِّنًا، غير أن أملهم ورجاءهم لم ينقطع لأن حركات الاصطكاك لا تزال تبدو منهم، كذنب الوزغة التي ينقطع ويستمر ينزو وينط.

نعلم ذلك ونتأكده حينما نراهم حولوا وجهتهم نحو الوكالات الإنجليزية بجاوا وغيرها، متخذين المناوشات الدموية التي سالت في حضرموت بين قبائلها ذريعة للقضاء على الأحرار مؤسسي مدارس الإرشاد بجاوا، بزعم أن تلك التحرشات ناتجة عن إحساسات غير ودية ضد الإنجليز، وقائلين إن جمعية الإرشاد مؤسسة لمعاداة الإنجليز أو مساعدة الأتراك ونحو ذلك من الترهات.

هاته هي الطريقة الأخيرة التي التجأ إليها السادة العلويون الذين أخذ نفوذهم الديني يتقلص من الأفئدة، حيث لا رجاء في تلبك سحابات الجمود على العقول التي ابتدأت تشرق عليها شموس المعارف.

إن هاته الخطة وإن تكن في نفسها قد ألحقت أضرارًا جسيمة بالإرشاديين، غير أنها في نفسها خطة غير منتجة وفكرة غير ناضجة، وليست هي مما يعرقل سير الأحرار الإرشاديين، بل ربما كانت من أقوى البواعث والعوامل على ثبات الأحرار واستمرارهم على مبادئهم التي لا تخالف المبادئ الإنجليزية أو غيرها من الأمم المتمدنة في شيء؛ لأن أحرار الإرشاد ليسوا دعاة سياسيين ولما يصلوا بعد إلى هذا المنصب الخطير الذي أعطاهم إياه السادة العلويون.

ولكنهم دعاة اجتماعيون وعمال مصلحون، يسعون لقلب حالتهم من التفرق إلى الاتحاد، ومن التقاطع والتقاتل إلى التواصل والسلم، يدعون لعمارة البلاد ونشر العلم بين الجهال، يسعون لنشر الفضيلة بين إخوانهم، وهاته المبادئ التي لا بد أن تثمر ولا بد أن تنتصر، وإن اعترتها في أولها لطمات الأمواج وعواصف الرياح، لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه.

نحن قوم ديننا الإسلام، قمنا ندعو وننصح أنفسنا وإخواننا إلى تعلم الدين الصحيح والمدنية الحقة ونرشدهم إلى طريقها؛ لأن لعصرنا الحاضر مطالب غير مطالب العصور الغابرة، قمنا نتنصل من الشكل الجامد الذي لا يفي بحاجة الزمان والوسط الذي نحن فيه، وطفقنا نفتح المدارس ونعقد الجمعيات لمساعدتها لنلج بأنفسنا وقومنا جنات الحكمة والسعادة سعيًا وراء الكمال، وأصبحنا مدفوعين بشعورنا إلى طلب الارتقاء الأدبي والعلمي.

ومن جملة هذه الجمعيات العلمية جمعية عقدناها في سنة ١٩١٣م مسيحية لفتح المدارس وتعليم أولادنا على القواعد الحديثة، وسميناها: (جمعية الإصلاح

والإرشاد)، فتحنا بها مدارس لتعليم الدين الصحيح وبعض العلوم المعاشية على نمط بروجرام مدارس الحكومة الهولندية الابتدائية.

ولما بذله معلمو مدارسها من الجد والاجتهاد وما أظهروه من النتائج الحسنة، تفرعت مدارس الجمعية في جميع بلدان جاوا الكبرى، وصار لها الصيت البعيد بين الجمعيات والمعاهد العلمية والدينية، وانهزم أمامها جنود التدجيل والخرافات، فاشتد عند ذلك غضب العلويين الخرافيين على الجمعية وعلى معلميها ومؤسسيها، وأخذوا ينفرون الناس عنها بأساليب مختلفة متناقضة.

فبينما يقولون لقنصل جنرال تركيا: إن معلمي الإرشاد ومؤسسي مدارسها من جواسيس الإنجليز ومروجي سياستهم، ويقولون للأهالي الوطنيين: إن هذه المدارس أسست بأموال كنيسة روما لتنصير أولاد المسلمين، فإذا هم يقولون لعمال الإنجليز: إن هذه الجمعية متصلة بجمعية الاتحاد والترقي التي في تركيا، أو البلشفيك وشأنها تدبير الثورات في البلاد الشرقية ضد إنجلترا وحلفائها.

وبينما يشيعون في جرائدهم أن هذه الجمعية مقامة لتفريق العرب والحضارمة بإيعاز من الحكومة الهولندية، فإذا هم يقولون: إن معلمها الأكبر الشيخ أحمد بن محمد سوركتي هو ابن أخت المتمهدي السوداني، يريد أن يقوم بثورة مهدوية ضد الحكومة الهولندية.

يرتكبون جميع ذلك لعلهم يتوصلون به إلى إسقاط الجمعية ومدارسها أو إلى الإيقاع بمؤسسيها، والحق يشهد أن أهل جمعية الإصلاح والإرشاد برآء من كل ما ينسب إليهم من قبل أولئك الخراصين المفتنين الكذابين.

ومن الغريب أن ترهات أولئك الدجالين التي لم تؤثر حتى في الأهالي الماليزيين راجت عند عمال الإنجليز الذين نعدهم في أعلى طبقات الذكاء والتروِّي، فإنهم طفقوا يضغطون على أعضاء جمعية الإرشاد بمنع جوازات السفر، وسد الطرق في

وجوههم بغير ذنب جنوه، ولا غلطة ارتكبوها نحو حكومتهم، تصديقًا لما قدمه العلويون لهم بغير تحقيق ولا تنقيب، ظانين أنهم أعداء لهم.

وكلما سألنا قنصل جنرال بريطانيا الذي ببتافيا عن ذنبنا، قال في الجواب: أنتم أدرى بأغلاطكم، وكلما كتبنا له تقريرًا لم يعره لفتة اعتبار ولا بحث، فاجتمع إليه أغنياء الجمعية وقالوا له: إنَّا مستعدون أن نضع أموالنا وأولادنا تحت ضمان الحكومة البريطانية حتى تحقق عن صدقنا، ونحب في مقابلة ذلك أن ترفع عنا الحجر وتعطينا جواز السفر لمن يريد الذهاب أو الرجوع إلى بلاده، فلم يفعل، فاحتار الناس من ذلك الظلم الأصم الذي لا مفتاح له.

كل ذلك مبني على ثقته بأولئك الأعداء وتصديقه بما يقدمونه إليه من التقريرات بغير بحث ولا تحقيق، وهذا الأمر إن دام فلا شك أنه يضر بالحكومة البريطانية أكثر مما يضر الإرشاديين؛ لأنه يغرس بغض الحكومة في قلوب الناس، ويمثل الحكومة في أعين الناس بمثال الظلم والجور والسخافة والحمق، زيادة على الإضرار بهؤلاء الأبرياء الذين لا غرض لهم من الجمعية إلا تعليم أولادهم.

ولا قدرة للإرشاديين على أكثر من أن يقولوا: إننا أبرياء من السياسة ومن كل عمل ضد الإنجليز وضد الحكومات، وإنا مستعدون أن نضع أموالنا وأولادنا رهنًا عند الحكومة حتى تحقق في أمرنا، لا نظن أن في طاقتهم أكثر من ذلك.

فإذا كان هذا لا يكفي، فماذا عسى أن يفعله الإرشاديون لحل هذا الطلسم العجيب الذي عقده المفتنون في أدمغة عمال الحكومة البريطانية؟ وإذا كانت الحكومة البريطانية التي نعدها ناشرة العلم والمدنية تسعى في إسقاط مدارسنا بالضغط على المنضمين إلى هذه الجمعية -وهي الجمعية الوحيدة في نشر العلم بيننا- فمن الذي نرجوه لنصرة الحق والمساعدة في نشر العلم والحرية.

إننا والله نستغرب غاية الاستغراب في كون مكيدة المفسدين التي انكشف أمرها

عند جميع رجال الحكومة الهولندية وجميع رؤساء الأهالي الوطنيين لم يدركها عمال الحكومة البريطانية المشهورون بالتروي والبحث، حتى بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد الذي يسيء السمعة ويخجل المدافع عنهم، اللهم إلا إذا كان هناك غرض سياسي آخر يريدون التوصل إليه بتضحية هؤلاء الأبرياء المساكين، مع العلم ببراءتهم، فلا علم لنا به.

والذي نظنه أن عمال الإنجليز الذين في جهتنا فهموا أولًا غلطًا وخطأ بسبب ثقتهم بأولئك المفتنين الذين أظهروا لهم الإخلاص للتوصل إلى أغراضهم، ثم قدموا للحكومة تقريرات مبنية على هذه الأوهام التي تلقوها من زعماء الفتنة، ثم لما ظهر لهم الحق وفهموا الحقيقة خافوا على مراكزهم، وأبت نفوسهم تكذيب ما قدموه من التقريرات، فتعصبوا لها وأخذوا يطلبون لها الشواهد والمؤيدات بواسطة الضغط والإرهاب، ولو كان ذلك مضرًا بالحكومة ومسيئًا بسمعتها بين الناس، ومهلكًا لألوف من الأبرياء، كل ذلك يحتمل، لأن الشواهد التي يتوكؤون عليها لا تساوي شيئًا في الحقيقة إذا كانت هي على ما نعلم.

وهاك خلاصة ما نعلم مما يسمونه حججًا على الإرشاديين:

الأول: إن القنصل التركي بعد أن كان عدوًا لمعلم الإرشاد -الأستاذ الشيخ أحمد بن محمد سوركتي- وكان ممن يحذرون منه الناس، بزعم أنه من جواسيس إنجلترا أو مروج للسياسة الإنجليزية، ثم ظهرت له براءة الجمعية والمعلم من كل سياسة، كما ذكرناه سالفًا، أراد أن يمسح هذه الغلطة التي صدرت منه، فحضر محفل امتحان تلامذة جمعية الإصلاح والإرشاد مرتين في ضمن مئات من الأهالي والعرب والهولنديين ورجال الحكومة المدعوين للحضور، وحضر مرة ثالثة افتتاح إحدى مدارسها من جملة الناس بدعوة فرد من أعضاء الجمعية، هذا أعظم شواهد تهمة الجمعية بالسياسة.

الثاني: قد وصل قبل عامين مركب مخرق من مراكب الجرمن إلى تانجوغ فريك، مرفأ بتافيا، فنزل لرؤية هذا المركب المكسر ألوف من الصينيين والأوروباويين والأهالي للفرجة، وكان من جملة المتفرجين واحد من أعضاء جمعية الإرشاد، فحفظ ذلك الشخص الواحد من بين تلك الألوف وجعل حجة على أن جمعية الإرشاد جمعية سياسية مقامة لمساعدة الجرمن أو البلشفيك أو الاتحاديين، ونُزِّل ذلك العضو الواحد منزلة الجمعية، على أنه ليس من أعضاء الرئاسة، ولا من المستشارين في مجلس الجمعية.

هذا أهم ما نعلمه من الأغلاط المنسوبة إلينا، وربما تكون هناك أكاذيب ملفقة لا علم لنا بها. ومن أغرب ما يطرق سمعكم الواعي ما سمعناه من قنصل جنرال بريطانيا الذي وصل إلى بتاوى في هذه الأيام، فقد أرسل إلى رؤساء جمعيتنا العلمية رسالة شفهية مع حضرة الفاضل الدكتور سخريك مستشار الحكومة في الشؤون العربية، مضمونها ما يأتي:

قال له حينما سأله عن سبب ضغطهم على الإرشاديين هكذا:

إني لا أعلم شيئًا من حال جمعية الإصلاح والإرشاد وأهلها، ولكني وجدت في ديوان القنصلاتو أوراقًا كثيرة تدل على أن هذه الجمعية سياسية ضد حكومة الإنجليز، تباعًا لذلك فإني أعد هذه الجمعية كما يقال عدوة لنا، وعليه فإن كان أهل الجمعية يحبون أن نسهل عليهم جوازات السفر، فليفعلوا ثلاثة أمور، وهي كما يأتي:

أولا: أن نكتب له كتابًا مضمونه أنا لا نقاوم الحكومة البريطانية ولا نسائر شيئًا من الجمعيات التي تطالب في مسألة الخلافة الإسلامية، وأننا نصادق الحكومة ونوافقها في جميع الأمور التي لا تخالف قوانين هولندا.

ثانيًا: أن نحل ونبطل جمعية الإصلاح والإرشاد بتاتًا، ونوكل أمر مدارسها وماليتها بعد إسقاطها إلى أشخاص يوافق هو عليهم.

ثالثًا: إسقاط شركة جريدة الإرشاد.

هذا ما بلَّغنا عنه الدكتور سخريك، وقد أجبنا على الأمر الأول بأننا ما قاومنا الحكومة البريطانية قط قبل اليوم، وليس لنا أدنى نية على مقاومتها بعد اليوم بوجه من الوجوه، وأننا لم نساعد عليها أحدًا قط فيما مضى، كما أننا لا نساعد عليها أحدًا بعد اليوم، ولا نضمر لها عداوة في المستقبل، كما أننا لم نضمر لها عداوة فيما قبل، وأننا موافقون لها في كل أمر لا يخل بشرفنا، ولا يضاد ديننا، ولا يخالف شيئًا من قوانين حكومة هولندا التي نحن اليوم في معيتها.

هذا جوابنا له عن الأمر الأول. وأما أمر حل الجمعية وشركة الجريدة المذكورتين، فإننا أجلنا الجواب عنهما حتى نعلم مصدر هذا، هل هو من شخص حضرة القنصل جنرال، أو هو من الحكومة البريطانية؟ وإليك طي هذا صورة الجواب الذي قدمناه إلى القنصل بنصه، مع صور بعض التقريرات التي قدمها الإرشاديون أيضًا إلى هذا القنصل وإلى الذين من قبله.

وعلى كل حال فنحن لم نفهم إلى الآن ماذا يستفيد القنصل جنرال أو الحكومة البريطانية من إهانة أعضاء جمعية الإرشاد إلى هذه الدرجة، وتشميت أعدائهم بهم، وقتل نهضتهم العلمية بدون ذنب يعلمونه من أنفسهم، فإذا كان أعضاء الإرشاد أعداء للحكومة البريطانية كما يزعم أولئك المفتنون، فهل تحسن سمعتهم عند الحكومة بحل الجمعية ويكونون أصدقاء بمعنى الكلمة بهذه الطريقة بدون أن تثبت براءتهم أو جنايتهم؟

وهل من مصلحة الحكومة البريطانية أن يتكلم الناس ومعهم الشواهد بأنها عدوة العلم والتعليم؟ أو يسر الحكومة أن تكثر أعداؤها ويعدها المسلمون عدوة لدينهم،

ويتخذون معاداتها لمدارسهم وجمعياتهم العلمية والدينية شاهدًا على ذلك؟ ولا ندري لماذا لا تعرِّف الحكومة الإرشاديين بخطئهم، حتى يكونوا مؤاخذين بذنوبهم على رؤوس الأشهاد إن كان لهم خطأ معقول؟

والخلاصة أننا مظلومون من العلويين أولًا، ومن عمال الحكومة البريطانية الذين بجاوا وسنقافورا ثانيًا، حيث صدقوا فينا كلام أولئك الدجالين المفتنين بغير تحقيق، وضيقوا على أعضاء جمعيتنا السبل، ومنعوهم جوازات السفر، وعدوهم أعداء للحكومة البريطانية بدون ذنب جنوه ولا غلطة ارتكبوها نحو حكومة بريطانيا العظمى.

ونطلب باستغاثتنا هذه من إنسانيتك المقدسة أن تبلغ صوتنا لأهل الحل والعقد من رجال الحكومة المنصفين، ليرفعوا عنا الضغط ويعاملونا معاملة الأصدقاء الأبرياء، لأننا برآء من كل عداوة للحكومة البريطانية كما أننا برآء من معاداة أي حكومة، ومن التداخل في أية سياسة دولية، وإن كان لديهم شبهات تدل على نقيض ما ندعيه، فليبارزونا بها بكل صراحة حتى نمحصها، ليحق الحق ويبطل الباطل بالنقد والتحقيق.

وليس لنا أكثر من أن نقول لجنابكم إن آمالنا قد انتهت إلى ساحتكم الرحيبة، ولنا الثقة التامة في شريف إحساسكم أن لا يهمل أمر من عوَّل عليه واستغاث به.

وفي الختام دوموا محفوفين بكل ما خصكم الله به من الفضل والشرف والسعادة في لطف وعافية.

أعضاء إدارة جمعية الإصلاح والإرشاد العربية

بيتافيا جاوا

ولقد أثمرت هذه العريضة التي بسطت للإنجليز مبادئ جمعية الإرشاد، وأظهرت أعمال العلويين ضدها، فقد رفع عن الإرشاديين الخطر وزال كل تضييق

وتشديد من لدن الحكومة الإنجليزية، الأمر الذي جعل كثيرًا من الحضارم ينضمون إلى حزب الإرشاد، ويرسلون أبناءهم إلى مدارسها.

أسطورة منسوبة إلى جمعية الإرشاد

واجتمع فريق من آل باعلوي وكتبوا قانونًا مكونًا من ٣٣ مادة وادعوا أنه قانون الإرشاد ونشروه بين الناس في جاوة، وبعثوا نسخة منه إلى السيد حسين حامد المحضار وزير الحكومة القُعَيْطية بحضرموت لإشعال نار الحقد في قلبه، وإضرام البغضاء على الإرشاديين كي يزداد في اضطهادهم والتنكيل بهم.

ولكن إدارة الإرشاد اجتمعت بدارها يوم ١٨ يناير سنة ١٩٢٢م، ونشرت منشورًا تكذيبًا لذلك القانون، وهذا نص المنشور:

براءة من إدارة جمعية الإصلاح والإرشاد العربية

قرأنا في جريدة بورو بودور عدد ٥٣ مقالًا مرسلًا من بعض الكذابين من أعداء الإصلاح والإرشاد، يزعم مرسله فيه أنه أسرار جمعية الإرشاد في قالب محاورة، وأنه وجده في أوراق الشيخ محمد عبود الذي كان الكاتب المعتمد بجمعية الإرشاد سابقًا، وركَّب هذا الكاتب أكذوبته المفضوحة على ثلاثة وثلاثين فصلًا كما رآه القراء.

ولكونها ظاهرة البطلان والافتراء عند من له أدنى بصيرة أو أقل ذوق من الناس قد كنا عازمين على أن لا نكتب سطرًا في تكذيبه، ولكن أشار علينا بعض الفضلاء بتكذيبه رسميًا، نظرًا لحال الوسط، وعليه فإننا بصفتنا مديري هذه الجمعية نعلن على رؤوس الأشهاد براءة جمعيتنا جمعية الإصلاح والإرشاد العربية من كل ما نشر في تلك المقالة.

ونعلن أيضًا أنه ليس لجمعيتنا أسرار ولا قوانين سوى ما في قانونها المطبوع المنشور المصادق عليه من معتمد الحكومة الهولندية، وأنه ليس لجمعيتنا غرض البتة سوى تعليم الدين الإسلامي، ونشر اللغة العربية، والعلوم الحيوية النافعة للعموم، وأنه ليس لجمعيتنا تداخل في سياسة أية حكومة من الحكومات، ولبيان ما ذكر حرر هذا بتاريخ ١٨ جولي سنة ١٩٢٢م.

الرئيس	السكرتير
سالم بن عمر بلفاس	عبدالله بن عقيل باجري
المستشار	أمين الصندوق
علي بن سعيد بن مغيث	عبدالله بن عبدالقادر بن هرهرة

مساعي الشيخ محمد المحضار ضد الإرشاد

كان لهذا الشيخ نفوذ واسع وجاه عظيم، وكانت سلطته الروحية على يافع قوية، وسلطانه عليهم كبيرًا، وكان يافع قبل انضمامهم إلى جمعية الإرشاد يشعرون بالعبودية له، ويعدون أنفسهم كالأرقاء يتصرف فيهم كيف شاء، ويديرهم أنى أراد، وكان في أول أمره بمعزل عن أعمال قومه ضد الإرشاديين؛ لأنه كان يعلم يومئذ أن المقاومين من عشيرته العلويين للإرشاديين إنما هم من غير ذوي المناصب[١]

(١) المناصب: جمع منصب، وهو صاحب النفوذ الروحي العظيم، وتنحصر المنصبة في حضرموت في أربع طوائف من آل باعلوي وهم: آل الشيخ أبي بكر، ومنهم المحضار نفسه، والعيدروس والحبشي والعطاس، واستطاع المناصب بدهائهم أن يستندوا على القبائل ذات الشوكة والقوة، فآل الشيخ أبي بكر استندوا بيافع، وآل الحبشي بآل كثير، والعيدروس بتميم، والعطاس بالجعدة، ولذلك كانت لامتيازاتهم الدرجة الأولى ولمقامهم السماك الأعلى، ولقد دب التنافس في قلوب غير أصحاب المناصب من العلويين، فعملوا للوصول إلى تلك المنزلة العليا فلم تساعدهم الظروف، وحاول بعضهم وفي مقدمتهم علوي بن طاهر الحداد، ومحمد بن عبدالرحمن بن شهاب، ومحمد بن عقيل أن يقضوا على ذلك النفوذ فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا.

الكبرى بحضرموت، ففضل القبوع في بيته وعدم التدخل في النزاع والخلاف، ولكن استطاع الشيخ محمد بن عقيل العلوي الذي قام بقسط وافر لإشعال الفتنة وإضرام الفرقة أن يجذبه إليه وينزله إلى الميدان، ولقد خرج المحضار من مخبئه، وأبدى نشاطًا كبيرًا تحمده عليه عشيرته، وبذل جهوده لتنفير يافع عن جمعية الإرشاد، وإقصائهم عن الانضمام في صفوف الإرشاديين مستعملًا لذلك نفوذه وجاهه العظيمين، كان يبعث لشيوخ يافع وأعيانهم رسائل ينصحهم فيها عن الانضمام إلى الإرشاد، ومن تلك الرسائل كتابه الذي أرسله للسيد علي بن حسن بن النقيب، وهذا نصه:

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، ونهدي السلام التام للخاص بعد العام للشيخ المكرم والمحب المحترم علي بن حسن بن النقيب، وعلى من بقي له اتصال بالحبيب، والشيخ مولى الكثيب، وأما من خرج عن دائرة أهل البيت فيأكله الكلب أو الذيب، وما له في الآخرة من نصيب، وكتاب الشيخ علي وصل وفرحنا به، وزواج الأولاد صالح وصالح مبارك، وقدوم إلى خير، وودنا أن نرسل واحدًا من الأولاد، ولكنهم معذورون، وبالنية حاضرون.

والسلام سلموا على الخال طالب عوض، وسمعنا بعزمه للحج والزيارة وربح التجارة، فرحنا له ومنَّ الله على الجميع، والسلام منا ومن الأولاد عليكم ولأهل الوداد، أما أهل الإفساد فلهم الإبعاد أشد من بُعد عاد، والمولى بالمرصاد، والشفيع سيد الرسل يوم التناد ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

وبلغنا أن الإمام مجهز على يافع، ولا يصلح الأمر ويطفئ الجمر، إلا الأخ محمد بن علي الحيد؛ لأن الإمام يكاتبه ويافع قدهم حقه، إن بغيتموه يعزم أجمعوا على الذي يليق به من الخرج والفتح على يده، وخبر الإمام واجب الانتباه له، لأن الأمر

مهم جم جم، ومعه قصد، لا يقدرون يافع ولا غيرهم يقاومونه، وهو هزم التركي وهو دولة كبيرة، والله يختار.

الداعي

محمد بن أحمد المحضار

حرر في بندواسا ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٨هـ

وبعث رسالة أخرى لكافة يافع في بومبي آيو (كليران)، وهذا نصها:

الحمد لله، ونسأله بالاسم الأعظم، والحبيب الأكرم ﷺ، ومحبهم يغنم، نخص المحبين بني مالك، ولا يزالون ملوك الممالك، ما زال الكل في مسلك المصطفى سالك، والشيخ أبو بكر ضمين لهم بذلك، وفوق ما هناك، ونهدي السلام للجميع، ونخص منهم الشيبان والشبان.

جاء العزم إليكم بعد مولد ربيع الأول، الحذر شيء يدخل عليكم مما دخل على كثير من أهل الزمان، الذين استحوذ عليهم الشيطان، وخرجهم من الأمان، وسيخرجهم من الإيمان.

بلغنا أنه وصل عندكم باعشر[1]، عشير العشير، وحمار الحمير، وخنزير الخنازير، قطبوا حبله وسعفه بالنكير، وخبث الحديد ما يصفيه إلا الكير، وشنوا النكير، وإن بلغنا دخول شيء المكان، تركنا كليران، والله المستعان.

محمد بن أحمد المحضار

ولكنه لم يستطع مقاومة تيار النهضة الفكرية، فلم تؤثر رسالاته في يافع ولم يقيموا لكلامه وزنًا، ولا لترغيباته ثمنًا، ولا لترهيباته قيمة، بل بالعكس كانوا يضحكون من عقليته، ويهزؤون برسائله كل الهزء، وأقاموا فرحًا للإرشاد في بومبي آيو.

(١) هو من أوائل المحببين لدعوة الإصلاح، ومن أكبر القائمين بفرع الإرشاد بمدينة تقل.

وفي الوقت نفسه كان يرسل كتبه لوزير الحكومة القُعَيْطية ولوالي دَوْعَن ليضيقا الخناق على الإرشاديين، وقد قاما بقسط كبير من الاضطهاد، وأخذ باصرّة والي دَوْعَن يقاوم فكرة الإرشاد بكل قوة، ويضطهد الإرشاديين وأقرباءهم أشد الاضطهاد، وليس لهؤلاء ذنب اجترحوه سوى أنهم قالوا أو يريدون أن يقولوا للناس: إن المسلمين إخوان لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالعلم والعمل الصالح، ولا جريمة ارتكبوها سوى أنهم أرادوا ترك تقبيل أيدي العلويين، ونبذ العزائم والتمائم التي كانوا يعتقدون أنها تنفعهم من دون الله، ولكن باصرّة والمحضار عدًّا ذلك جريمة يعاقب عليها الإرشاديون.

ولنأت هنا برسالة بعثها أحد المضطهدين بدَوْعَن لأخيه الإرشادي بجاوة يسأله الانسلاخ من حزب الإرشاد ليرفع باصرّة عنه العذاب، وهذا نص الرسالة باللغة العامية:

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إلى جناب الأكرم المكرم المحترم العزيز الأخ سالم بن أحمد بن عمر بامصفر، سلمه الله تعالى آمين.

وعليه منا السلام وأزكى التحية والإكرام ورحمة الله وبركاته على الدوام، صدر المرقوم من قيدون والعلم خير ولطف وعافية، نرجو الله الكريم أنك وكافة المعارف بخير وعافية.

قد سبقت يليك جملة كتب وفيها من الحقائق كفاية، وعرفناك أن نحن بغيناك تخرج من هذه الجمعية، الله الله لحيث المشقة ظاوية علينا في لرض وقد وصا لنا المقدم وبتينا إلى عنده وعطا نحن مهله يلما شهر شعبان، من خرج من هذه الجمعية يخبر الحبيب محمد بن أحمد المحظار ولعاد عليه شي، ومن لا خرج بايوصي المقدم لأهله، وأنت نضرك، الله الله في الجواب مطلوب.

ولنا مدة من كتبك، لعل المانع خير، ومن شان لرض وأخبارها وأسعارها بلسن الواصلين يليكم كفاية، الله الله في الكتب مبادرة شفها باتقع عقوبه، الله الله، وأما فينا معاد تحتاج وصاه، والسلام.

وسلم لنا على المعارف الجميع خاص العم أحمد باعبود بلخير وأولادك عمر وأحمد وكريمتهم، ومن عندنا يسلمون عليك أعمامك وكرايمك والولاد عمر وكرائمه فاطمة وعيشة، وخص نفسك منا بألف سلام، ومن راقمه محمد بن أحمد بلخير.

طالب الدعاء أخيك

محمد بن أحمد بن عمر بامصفر

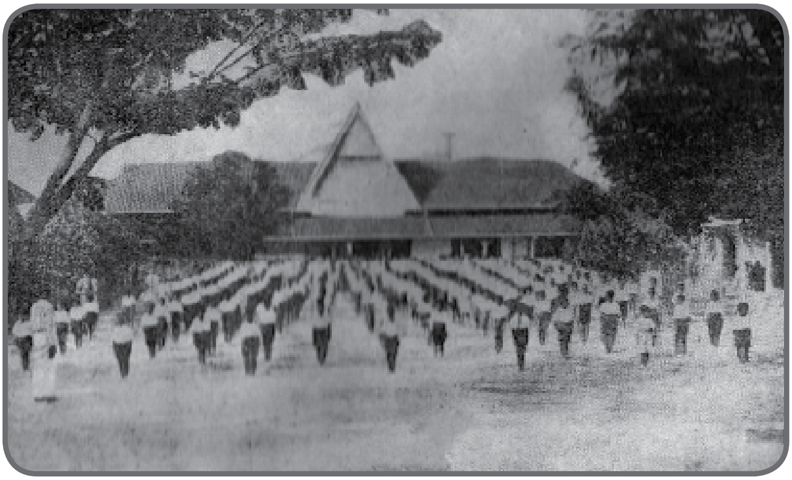
حرر في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ

اتساع نطاق دعوة الإرشاد

لم تكن دعاية جمعية الإرشاد قوية عنيفة، ولم يجهد الإرشاديون أنفسهم لنشر مبدئهم، ولم يلجئوا كثيرًا إلى الفكر والقلم للبرهنة على صحة عقيدتهم وصلاح وجهتهم، ولكن الحضارم من أكثر الشعوب استعدادًا للحرية، وأسرعها إدراكًا للآراء والأفكار الحرة، وكان ضغط ذوي السلطة الروحية على الحضارم شديدًا، واستعبادهم بالغًا حدًا كبيرًا، فلا غرو إذا هرع كثيرون منهم إلى نداء الحرية، وأجابوا دعوة الحق مهطعين.

خطت الإرشاد خطوات نحو الأمام وسط تلك الزوابع والأعاصير التي أحدثها العلويون، وشقت لها طريقًا في أرجاء جاوة، بالرغم عن تلك العقبات والعراقيل التي خلقها هؤلاء، ومن أكبر فروع الإرشاد التي أقيمت في غير مدينة بتافيا فرعا فكلوغن وسرابايا، وقد قام بأعظم قسط في تكاليف مدرسة الإرشاد بفكلوغن السادة آل عرقبي فقد تبرع السيد سعيد عرقبي وأخوه السيد صالح عرقبي بدار واسعة

للمدرسة، أما فرع سرابايا، فهو أكبر فروع الإرشاد في جزائر الهند الشرقية، وحيث إن سرابايا أعظم مدينة في جاوة بعد العاصمة بتافيا، وتعد أكبر معقل للعلويين، فإن افتتاح فرع الإرشاد فيها بمثابة قنبلة عظيمة ألقيت على هؤلاء، ولقد قام بأكبر قسط من تكاليف مدرسة الإرشاد بسرابايا حضرات الأفاضل شيخ الإرشاديين السيد ربيع بن طالب، والسيد عثمان بن محمد العمودي، والسيدان أبو بكر باشراحيل وأخوه سالم، والسيد سالم باشميلة، والسيد سالم بن نبهان، فقد تبرعوا بأكثر من ثلاثين ألفًا من الروبيات، وأوقفوا هذا المبلغ للمدرسة.



مدرسة الإرشاد بمدينة سرابايا وأمامها فريق من تلامذتها

الرابطة العلوية

ومن البديهي أن تدب الغيرة في قلوب آل باعلوي، وتشتعل الحماسة في نفوسهم مما يرونه من تقدم مبدأ الإرشاد وانتشار دعايتها وتعدد فروعها، فأنشأ جماعة منهم وحدة علوية سموها (الرابطة العلوية) لتوحيد جبهة آل باعلوي وجمع كلمتهم، كي يستطيعوا القيام بالمحافظة على مركزهم الذي أخذ ينهار ويتمكنوا من مقاومة تيار النهضة الفكرية الحرة الذي أخذ يندفع بعنف نحو الأمام، ولقد بذل الشيخ علوي

بن طاهر الحداد، والشيخ محمد بن عبدالرحمن بن شهاب كل مقدور، واستطاعا بما أوتيا من ذكاء ثاقب، وفكر بارز، وقلم نافذ أن يصلا إلى ذلك الغرض، فأنشئت (الرابطة العلوية) في بتافيا وانضم إليها كثيرون من آل باعلوي وأقيمت فروع لها في كثير من بلدان جاوة وتجمع لديها مال، فأصدرت مجلة باسمها، وانتعشت جريدة (حضرموت) على حساب الرابطة، فاستأنفت هذه الجريدة حربها على الإرشاد من جديد. أما مجلة الرابطة فكان موقفها أشبه بموقف المحافظة على كيان آل باعلوي من الانهيار، والحريصة على بقاء امتيازاتهم كما كانت قبل الإرشاد. وكانت الرابطة في بادئ بدء تضم كثيرًا من غير ذوي المناصب من آل باعلوي، ثم انضم إليها أفراد من أهل المناصب الذين جنحوا للتنازل من عليائهم إلى صف آل شهاب، وآل باعبود، وآل جفري، وابن يحيى وغيرهم بدافع العصبية ضد الإرشاد، ولكن آل الحبشي انسحبوا من الرابطة بفضل الجهود التي بذلها أحد رجالاتهم، وهو السيد حسن بن جديد الحبشي، فقد بعث كتبًا إلى عشيرته آل الحبشي يستحثهم فيها على الانسلاخ من (الرابطة العلوية) وعدم التدخل في النزاع القائم بين الحزبين، وهذا نص إحدى رسائله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

حضرات السادة الكرام الإخوان: سالم بن طاهر، وعيسى بن عبدالله آل أحمد بن زين الحبشي، داموا أعزاء. آمين.

سلامًا واحترامًا عليكم ورحمة الله وبركاته، نرجو الله أنكم بخير وعافية كما

نحن كذلك. وبعد، فقد وصلني كتابكم المؤرخ ٧ من شهر أقوستس ١٩٣٢م[1] وعرفت كل ما احتواه من أوله إلى آخره، ويسرني أن أعلن لكم فرحي وسروري به غاية؛ لأنه برهان ناصع، ودليل قاطع على ما بيننا من الأخوة والمحبة والمودة، (بقطع النظر عن ما فيه)، فشكرًا لكم على قيامكم بذلك الواجب الذي يجب أن يصان (للحقيقة والتاريخ). ثم تبين لي منه أنكم في شك مما خطته يمناي، فثقوا وتأكدوا واعلموا علم اليقين أن ذلك كله مني أنا نفسي وذاتي «حسن بن جديد الحبشي»، وإنني قلت ذلك وأنا في حالة الصحة والعافية...

ثم إن كل ما هنالك ليس هو إلا مواعظ باهرة، وآيات رائعة، وعبر رائقة، «ولكن لا تعلمون»، فعيدوا الكرة إلى ما جاء في مقالاتي فلا شك أنكم ستجدونها (حِكمًا)

(١) هذا نص الرسالة بالعامية: تانة ابغ في ٧ أقوستس ١٩٣٢م
الحمد لله وحده، جناب المكرم الأخ حسن بن جديد بن عيسى بن أحمد الحبشي المحترم شريف، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، نرجوكم بعافية ونحن بأتمها، موجبه سيدي نعلمكم بأن نحن اطلعنا على كم عدد في الهدى وعلى بعض من جرائد الملايو مثل بنتغ تيمور وغيرها لكم ينسبون مقال كثير أن دهشت عقولنا، وجادلنا من جنابكم وفيما بعد أخذن نحن الشك لأنه ما هو في عدد واحد، والآن يا أخي إذا كان حقيق على موجب ما سطرته أوراق الخبر، فالمراد منك إذا ما وصل منك جزاء لأهلك طيب لعاد يكون منك سوء إذا كان حقيق، إنما نحن ما نظن فيك إلا بكل خير لحيث إن نحن ياالأحمد بن زين واسطة بين الناس، ولا يظهر مننا إلا كل زين، وأهلنا من قاموا ما بد أحد ذكرهم بسوء وأنت يا أخ حسن إذا ما هو منك وذلا ينسبون إليك أفدنا، فلا ربما أنك ما أنت داري بالقذف الذي على جدودك في أوراق الخبر التي بالملايو، ولو هي إلا بالعربية عاد فيها، وأما اللاتينية كلين يقرأها فرنج وشينه وملايو وغيرهم، ولو أردت نحن نرسل لك عدد من ذلك لشان تصدق لقولنا وما ألقوه فينا وفي أجدادنا الإشارة بإرسلها، وهذا جعلناه بداعي ما ذكر أعلا والحليم فهيم ولا كتبنا لك هذا إلا من جور ما نسمعه ويسندون إليك شق علينا جم يومك خونا ولا هو سوى نكون قدوة في هذا الكلام وإن تزوروا عليك ما قالوه كذب حسبهم الله السميع العليم، ودمتم بعافيه والسلام.

إخوانك
عيسى وسالم الحبشي

لا غير ... فقط ما عليكم إلا أن تتجردوا من الأهواء والأغراض المصادمة للحقة، فإن ذلك أحرى بكم وخير لكم إذا أردتم الحق. قلتم إنكم جادلتم فينا لكتابتنا تلك المقالات، فهذا الجدال نشكركم عليه، وإن كان ليس في محله لأنني أنا الكاتب لا غير... وأنا إذا كتبت لم أكتب وأنا بين لجج من التعصب، فحاشا علي بل إنني أتجرد عن كل عاطفة شخصية.... أنا إذا كتبت ما أكتب وأنا راجٍ شيئًا لا من قومي (العلويين) ولا من الإخوان الإرشاديين (معاذ الله) لأنني ما أبيع ضميري مثل بعض الخونة!... بل إنني إذا كتبت أكتب بالقسطاس المستقيم بدون ميل إلى حزب من الأحزاب، أو تحزب لفئة من الفئات سوى أنني متحزب إلى (الحقة) ومتعصب (للحق) وناصر (للحق) في جميع كتاباتي كلها... وإن كنتم في شك مما قلته لكم فارجعوا لمراجعة مقالاتي السابقة وانتظروا الأحقة؟... فإنني ما تهجمت فيها على أحد لا من (قومي) ولا من (إخواني) سوى أنني صببت صاعقة نارية على أعداء الله وأعداء الحق وأعداء الناس أجمعين الذين هم سبب كل خلاف بيننا وبين إخواننا ومواطنينا الكرام... وأنا واثق أنكم لا زلتم غافلين عن أعمال (علوي) - وعيدروس و(إبراهيم المخدوع) وأتباعهم وذويهم... فلو علمتم بما يعملونه للقضاء عليكم لنبذتموهم وراء ظهوركم، بل لوطئتموهم بأحذيتكم... لأنهم يحفرون لكم حفرة عميقة، مرادهم دفنكم فيها حتى يصفو لهم الجو، وإلا فمن هو (علوي) لأن يكون أولى بالزعامة من غيره؟.. وما هو تاريخه؟ وما هي نزعته؟ وما هو مشربه؟ وكذلك عيدروس أو غيرهم من أتباعهم الذين فرقوا بينكم وبين إخوانكم ومواطنيكم الذين هم لكم كالموالي والخدم في الوطن، فإذا أردتم الانتقام من قبيلة سلطتم عليها قبيلة أخرى من نوعها على مبدأ (الضرس يدقع الضرس)، أما اليوم فإن الزمان قد استدار، وإن الأفكار قد تغيرت، والأمكنة قد تبدلت... وكل ما اختطه العم علوي بن طاهر الحداد هو وأتباعه من الإيقاع بنا

معشر (المناصب) وقع وحل بنا لأنهم حسدونا على ما آتانا الله من فضله، فلو خالفتموهم لما وصلتم ما وصلتم إليه الآن... ألا قاتل الله الأغراض، فإن القوم أو تلك الطائفة قد عملت لنا معشر (العلويين) هوة عميقة، فتريثوا فعمَّا قليل يقذفون بنا فيها إن بقينا على سكوتنا وسباتنا العميقين؛ لأنهم قد تسيطروا علينا وعلى أرواحنا مثل ما يسيطر المغناطيسي على المجذوب... وناهيكم بتلك السيطرة وما يتبعها من الاستبداد والانفراد بالأمر... فإن سيدنا محمدًا ﷺ، لم يكن كذلك، وكيف بعمنا علوي وأتباعه هل أعمى الله بصائرهم وأبصارهم عن قوله لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾، وكما قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ بلى بلى ... إن الأمر لكذلك يا إخواني إن كانوا ينظرون: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، ثم إن العم علوي هو شخص (هوى)، دائمًا وأبدًا يتبع هواه، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وذلك يظهر من إصراركم على عدم القبول للصلح، فلو قبلتموه بدون تردد ولا تملص ولا غير ذلك لما حدث ما حدث بشأن (المسيدة) التي لو خضتم البحار، وقطعتم البراري والقفار، وجاريتم في السماء الأطيار، لما وجدتم لإثباتها لنا بالخصوص دليلًا البتة.

أقول هذا وسترون عاقبة الأمر الوخيمة علينا نحن (معشر المناصب) لا على العم (علوي وقومه الغير المناصب)، لأنهم كلهم يلعبون الآن على نفقتنا فهم رابحون في كل حال، لأنهم (داخلون في الفائدة وخارجون من الخسارة)، أما نحن العلويين (الأقحاح المناصب)، فالويل كل الويل لنا من حبكات (علوي) الذي سعى متعمدًا لإسقاط مركزنا من بين إخواننا ومواطنينا ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾.

وقد دبت الإرشاد في أكبر عمود نتوكأ عليه (أي في جفل حضرموت وغيرها)، وأعظم حصن نلتجئ إليه في الوقت الحرج، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا

لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾، فكل ما حدث ليس هو إلا نتيجة الإصرار الذي ولده فينا زعماؤنا الحاليون عمدًا لا سهوًا، لأنهم رسموا لأنفسهم خططًا لو انتبهتم لها قليلًا من الزمان لعرفتموها وعرفتموهم بسيماهم، أما الآن فقد تمكن الداء، وصعب الدواء اللهم إلا بالاستئصال والقطع لأن القوم سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، والحضارم تقول: (الميت ما يسمع قرحة البندق)، وهكذا نحن فإننا سلمنا قيادتنا إلى أناس هم دائمًا وأبدًا تبع لأغراض سافلة، ومآربهم الدنيئة، وإلا فهذه جريدة (حضرموت)، أو بالأحرى (الحمارة) بحق فهي في كل عدد تتهجم على إخواننا الإرشاديين وتعتدي عليهم (ظلمًا وعدوانًا)، مع أنها تعلم أن ذلك يورث الحقد والعداء والحسد فيما بيننا وبين إخواننا، وإن اعتداءها ذلك يشعل نار الفتنة، ولكنها لا تبالي بذلك كله؛ لأنها تمشي على حسب النظام الذي اختطته لها إدارتها (علوي - وعيدروس) فهم كلما خبت نار الفتنة أشعلوها، لأنها قوام حياتهم التعسة الشقية، ولكن كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله... ورغم كل ذلك فهم دائبون على خطتهم يدَّعون أنهم ينصروننا والحال أنهم ينتقمون منا لكون السلطة ليست إلا لنا في الوطن والمهجر، فقاموا بمناوأة الإرشاديين ومناوشتهم، هل للإيقاع بهم كلا وألف كلا؟ بل للإيقاع بنا نحن المناصب، وفعلًا حصل ووقع ذلك كله، وتحققت أمنيتهم ومقاصدهم الفاسدة، فلو لم يقاوموا الإرشاديين من قديم الزمان (أي من حين بدئها) لماتت الإرشاد في مهدها وهي وليدة الفراش... ولكن شاءت الأقدار.... قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

ثقوا (يا إخواني) أن كل ما قيل على الإرشاديين في جريدتنا الفاجرة المنافقة (على قول العم عبدالرحمن بن عبيدالله) لا بد أن الجواب عليه واصلنا إما بالقول أو بالفعل، إذ العرب تقول: (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به)، والشاعر يقول:

وعـــامـــل الـــنـــاس بـمـا | تــحــب مــنــهــم دائــمــا
فـــالـــمـــرء بـــالإخـــوان | والـــيـــد بـــالـــبـــنـــان

وهكذا يا إخواني وكما يدين الفتى يدان، وكما يعامِل يعامَل، ولنضرب لذلك مثلًا وهو: «ليمسك الشخص مرآة -كاجا- وليتفرس في بحرها ثم لينظر محياه... فلا شك أنه سيراه كما هو... فإن كان ضاحكًا فالمرآة ستريه وجهًا ضاحكًا بلا شك ولا ريب في ذلك، وإن كان وجهه عابسًا فالمرآة لا بد أنها ستريه وجهًا عابسًا». وهكذا شأننا مع إخواننا الإرشاديين، فإن (الحمارة) ترميهم بكل ما هم بريئون منه، وتنهش أعراضهم، وتتهجم على حزبهم، فلا بد من حصول (رد فعل) منهم علينا جميعًا، وهذا شيء طبيعي في الكون، سنة الله في خلقه ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾، ومثال ذلك: (إذا هتف شخص في سفح جبل بشيء حسن فلا بد أنه يسمع صدى هتافه حسنًا، وإن صرخ بشيء قبيح فلا بد أنه يسمع صدى صراخه قبيحًا وهكذا)، وها نحن الآن نرى (الحمارة) ترمي إخواننا بكل نقيصة فلا بد أنني أنا (حسن بن جديد الحبشي) سأقوم بالرد عليها وعلى غيرها انتصارًا للحق خصوصًا إذا كان ذلك التعدي على رجال (همدان) فإنني ما سآخذ وما سأعطي فيهم أبدًا ولو في ذلك موتي! وهم لعمر الحق أهل لذلك بدون مغالاة... فلقد كانوا لنا عبيدًا وخدمًا وحشمًا وجندًا بل أشركوا بنا الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فهل يكون جزاؤهم منا السب واللعن والشتم كما يفعل محررو (الحمارة) الذين لا همَّ لهم سوى التصيد في الماء العكر.. لا والله الذي خلق السماء، وعلم آدم الأسماء، إن الجزاء يجب أن يكون من جنس العمل (كما تقول العرب)، فلقد عاملونا سادات الوطن وأهله بالإحسان.. فهل من السياسة والكياسة والدربة واللياقة أن نعاملهم بالسوء... كلا ثم كلا، وجزاء سيئة سيئة مثلها، أما الحسنة فجزاؤها حسنة مثلها على الأقل (إن لم تكن أحسن منها)،

فإن الله جل وعلا يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، وذلك قياس لهذا القول.

ثم إن إخواننا الإرشاديين ما تعدوا علينا في شيء البتة، فعلام ننازعهم، وعلام نقاطعهم، وعلام نحاربهم؟ على عدم تقبيلهم لأيادينا، أفٍّ لنا إن كان الأمر كذلك.

وأخونا ابن الوردي يقول:

أنا لا أختار تقبيل يد   قطعها أجمل من تلك القبل

إذًا فعلى ماذا يا إخواني؟ على عدم قولهم لنا (يا حبيب فلان) أو يا حبابة فلتانة، أم على عدم دعواهم لنا بكلمة (سيد)، وقد ظهرت منا أعمال تنافي المسيدة، بل إنها تدخل الشك والريب إلى قلب كل متأمل ومتفكر لأن العرب تقول: (فعل المرء يدل على أصله). إذًا فعلى ماذا قاومتم إخوانكم الإرشاديين، هل رموا أنسابنا التي لا نعرف إلا بها مثل (الحبشي أو العيدروس) أو (ابن الشيخ بوبكر) أو (الحداد) أو غير ذلك مثل: العطاس، أو الكاف، أو مشهور، أو السقاف، أو الشاطري، أو ابن شهاب، أو الجفري، أو خرد، أو عيديد، أو ابن صميط، أو الهدار، أو الجيلاني أو .... إلخ. فهذا شيء مستحيل؛ لأن الإرشاديين ما يرون لهم في ذلك حقًا، كما أنكم ما لكم في أنسابهم التي لا يعرفون إلا بها حقًا، فهل يمكن أن يقول لي بدل من (حسن الحبشي) حسن بن طالب، أو باسواد، أو بادباه، أو ابن غودل، أو باتانة، أو ابن هبوع، أو باقهاول، أو باصاع، أو غير ذلك من هاته الأسماء والألقاب الشتيمة المشوهة في ذاتها الذي ظلمنا أصحابها (نحن معشر العلويين)، فهذا شيء مستحيل ومستحيل. إذًا فما هو ضركم إذا قيل (السيد فلان بن طالب)، وقد علمنا من هو ابن طالب، دعونا يا إخواني من هذه الغطرسة والعجرفة، فإن الزمان والمكان غير قابلين لذلك... واعلموا أنكم إن بقيتم تابعين «لعلوي الحداد، لا شك أنكم هالكون

هالكون»، فلقد دعاكم الإرشاديون إلى ما قال فيه رسول الله ﷺ: «**إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله وسنتي**»، فهل بعد هذا شيء، نعم دعاكم الإرشاديون إلى التحاكم إلى أخيكم (السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الأغر العلوي) فأبيتم وامتنعتم وأصررتم إصرارًا واستكبرتم استكبارًا، فلم ذلك كله؟ أجل لكون الحكم لا بد أنه سيحكم بالعدل والقسطاس المستقيم، أي أنه سيحكم بما جاء في (كتاب الله وسنة نبيه)، ولقد أحسن الإرشاديون إحسانًا لتنازلهم لكم إلى التحاكم إلى أحدكم، فماذا غدًا يكون عذركم بين يدي الله عز وجل، حين يقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾؟ أليس الله القائل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؟ فذهبتم بعد رميكم أخاكم إلى الأمير (شكيب أرسلان)، ولو كانت بيني وبينه مراسلة لحذرته منكم، اللهم إلا إذا عزم على بيع ضميره (حاشا من ذلك) لأنه إن حاول الحكم فيما بينكم بما جاء في (الكتاب والحديث) لا بد أنكم ستنفرون منه فراركم من قسورة (أسد)، وفرار السليم من الأجرب، فخير له أن لا يتداخل في شأنكم ما دام علوي فيكم زعيمًا لأنه طبقات من التعصب والغطرسة لا يقدر أحد على خوض عبابها مهما كانت قوته ومقدرته؟؟

هذا سادتي (بالإجمال) وإليكم (التفصيل) إن أحببتم، فرجائي الوحيد هو أن تعيروا اهتمامكم الكلي، كما أرجو منكم أن تقرؤوا كتابي هذا على كافة الإخوان والأصحاب والأصدقاء والأحباب. ولو تسلموه إلى إدارة الرابطة هو الأحسن والأجمل كي تقرأه في اجتماعها على جميع أعضائها، فإنه تذكرة لمن يخشى على حسب قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾، ففكروا وتأملوا وتدبروا واعتبروا واتعظوا (فإن العاقل من اتعظ بغيره)، واعلموا أن هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، و﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فاهدنا اللهم يا رحمن يا رحيم إلى الصراط المستقيم ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ آمين.

لبوان حاجي لمبوك: السيد حسن بن جديد، وهود بن حسن آل أحمد بن زين آل الحبشي العلويين، ونرجوكم الجواب عن كل نقطة في كتابنا هذا لنعلم بأفكاركم وتعلموا بأفكارنا، والخط مننا ومن الولد هود واحد وهو يتعلم في مدرسة الإصلاح والإرشاد فرع لبوان حج لمبوك، ودمتم.

التوقيع

لابوان حاجي

وقد بعث جماعة من آل الحبشي، ومنهم رئيس الرابطة في مدينة بانقيل كتابًا للسيد حسن الحبشي يؤيدونه فيما قاله في رسالته للسيدين سالم وعيسى، وهذا نص الكتاب:

بانقيل بتاريخ في ١ جمادى الأول سنة ١٣٥١هـ

الحمد لله المعين على الحق والصواب، ثم بعد؛ اطلعنا على كتاب أخينا المكرم السيد حسن بن جديد الحبشي جوابًا على الإخوان السادة المكرمين، وهم سالم بن طاهر وعيسى بن عبدالله الحبشي، فلما قرينا ذلك الكتاب وقدحنا الألباب وجدنا ذلك حق وصواب، ونسأل الله الكريم أن يكثر من أمثاله في قومنا، وأن لا يجعلنا ممن اتبع هواه، قالوا ذلك.

الإمضاءات:

عيدروس بن صالح الحبشي	السيد صالح بن عبدالرحمن الحبشي
عبدالله بن علي الحبشي	السيد عبدالرحمن بن عمر الحبشي

رئيس أول للرابطة العلوية

السيد حسن بن سالم الحبشي

المعارك الدموية بين الحزبين

لم ينحصر الخصام بين العلويين والإرشاديين في الكلام فحسب، ولم يقتصر النزاع على كتابة النشرات، ونشر المقالات الشديدة اللهجة في الصحف، لم يكتف المتطرفون من الفريقين بالسباب والشتائم ونواقر الكلام، بل تعدى النزاع إلى أكثر من ذلك، فقد اعتدى جماعة من آل باعلوي على السيد سليمان بن رباع في بتافيا بالضرب. وتضارب تلميذان في مدينة شربون أحدهما يدعى محمد باصنديد، والآخر من مدرسة معاونة الإخوان العلوية، وتدخل في هذه الحادثة ثلاثة منهم صالح محمد بن عتيق أحد مدرسي مدرسة معاونة الإخوان، وانتهت عن قتل ابن عتيق بطعنة في صدره، وجرح باصنديد في يده. واعتدى جماعة من آل باعلوي على ابن حميدان في قرسي بالضرب، وكاد يقتل لولا أنه استطاع الدفاع عن نفسه بفرده. وآخر حادثة بين الحضارم معركة بندوسو التي وقعت منذ بضع سنين فقد اشتبك أكثر من خمسين نفسًا من آل باعلوي وأتباعهم مع ستة أشخاص من الإرشاديين[١] في مسجد النور ببندوسو في أثناء صلاة التراويح، وانتهت الحادثة بإصابات الإرشاديين بجروح طفيفة وبقتل رجلين من آل باعلوي.

مساعي الصلح بين الإرشاديين والعلويين

وحاول السيد عوض شحبل أن يوفق بين الحزبين، ويؤلف بين قلوبهم، فلم يوفق إلى ذلك، ولم تساعده الظروف للوصول إلى غرضه المنشود، وفي سنة ١٣٤٦هـ جاء من حضرموت العلامة السيد عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف وبذل جهودًا جبارة للتوفيق بين الفريقين، وكان مخلصًا في دعوته كل الإخلاص، وقد ألقى خطبة بليغة على جمع كبير من العرب في مسجد الصرنج يوم ١٨ رمضان سنة

(١) هم السادة سالم بن يسلم بن طالب، وعامر بن يسلم بن طالب، ورزق بن يسلم بن طالب، وطالب بن بدر بن طالب، وعمار عبيد عمار.

١٣٤٦هـ. ومما قاله ما يأتي:

«ولو أنكم تعاملتم بينكم كما تتعاملون مع الأجانب لكنتم على خير. وصف الله المؤمنين بالتراحم بينهم، والشدة على أعدائهم، فعكستم القضية، ووقعتم في البلية، وصرتم مثل نوع من الكبريت لا يُرى إلا في صندوقه، أو مثل حجام ساباط الذي لم يقدر إلا على حجامة أمه. لله در قيس بن زهير فإنه لما أدرك ثأره من بني عمه، أضأرته الرحم، وعطفته القرابة، فقال:

شفيت النفس من حمل ابن بدر ... وسيفي من حذيفة قد شفاني

وإن أك قد شفيت غليل نفسي ... فلم أقطع بهم إلا بناني

أُخوّة الإسلام لها حقوق، والوطنية عدلها عند الأحرار كذلك عروق، ولا تزال تتحرك بها القلوب ما لم تقع في العقوق. لو ذهب واحد مثلًا إلى العراق ووجد بها واحدًا من أبناء وطنه، ألا تهش له نفسه؟ ألا تنبسط به روحه؟ ألا ينسى به كثيرًا من وعثاء السفر؟ بلى! لا بد من وجود ذلك، إلا عند من انسلخ من الإنسانية، وصار أضل من البهيمة المرعية، أترضون لأنفسكم بهذه المرتبة الدنية؟

لقد تكرر التذكير فأين ما حصل به من التأثير؟ فالذكرى تنفع المؤمنين، والتنبيه يرشد الحائرين، والمذكر ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ولكنه لا يحيي الموتى ولا يسمع الصم الدعاء، إلامَ هذا الافتراق الذي لم تخلقوا له، ولم تؤمروا به؟ ألا ذاكر رمسه؟ ألا تارك ما لا يعنيه؟ ألا راجع عما لا يسمنه ولا يغنيه؟:

إلامَ الخلف بينكم إلى ما ... وهذي الضجة العظمى علاما

وكيف يكيد بعضكم لبعض ... وتبنون العداوة والخصاما

أليس الموت غاية كل حي، ومآل كل شيء، حصل بين الحسنين شيء من الخصام، فلما رجع الحسين إلى بيته كتب إلى أخيه ما معناه: إن الدنيا أقل من

أن تفرق بين الإخوان، ومدتها أقصر من أن تتسع الهجران، فإن أحببت أن يكون الفضل لك فترضى، وإلا جئتك وترضيتك، ثم قال:

«لا نطيل الكلام، ولا نتوسع في المقدمات والتمهيدات، بل نأتي بالحاصل، وهو أنا تفاوضنا مع بعض إخواننا العلويين وطلبنا منهم التسامح، والتصافح، والتصافي، والتعافي، مع أهل الإرشاد الذين ما زالوا وآباءهم قبلهم بمئات من السنين ممتزجين بنا امتزاج الماء باللبن، حتى نزغ الشيطان بين الناس في الوقت الأخير في قصص طويناها على أنكادها. واقترحت أن يكون الصلح على هذه الأصول الثلاثة:

الأول: ترك السباب والشتم من الآن، ويدخل فيها عدم الطعن في الأنساب، وعلى الطرفين منع صغارهم وسفهائهم من ذلك.

الثاني: مذهب الحضرميين جميعًا واحد وهو مذهب الشافعي، فما اختلفوا فيه من شيء فمردهم إلى المعتمد منه.

الثالث: حقوق الإسلام مبذولة، وما مضى موضوع كله تحت الرجل.

تفاوضت في هذا مع الإخوان، ولم يردوا إليَّ جوابًا إلا بعد ستة أيام في بيت السيد محسن بن عمر باعقيل، فاجتمعت بجملة منهم، فقال كلهم: رضينا بالصلح، ومذهبنا كلنا شافعي، وما اختلفنا فيه أرجعناه إليه. وأهل الإرشاد ما جلست معهم إلا البارحة في بيت الشيخ ربيع بن طالب، ومع ذلك لم أفاوضهم في الصلح، وإنما رأيت من حسن معاملتهم لي وإقبالهم علي ما أطمعني في قبولهم إياه...».

ولكنه غادر سرابايا إلى بنجر ماسين قبل أن يكمل عمله ويبلغ غرضه، فانحل مشروعه، وذهبت جهوده جفاء.

وحاول الصلح بين الحزبين صاحب المنار بمصر العلامة السيد محمد رشيد رضا، والعلامة الشيخ أحمد الظواهري شيخ الأزهر الشريف، ونهضت الرابطة

الشرقية بمصر للصلح بينهم، فكتبت لكل من الزعيمين الشيخ أحمد السوركتي والسيد إبراهيم السقاف لينوبا عنها في العمل لتسوية الخلاف والنزاع ولدعوة الحضارم إلى الاتحاد والوفاق، ولكن ذهبت تلك المساعي الشريفة أدراج الرياح.

سيد العرب

يدعو الإرشاديين والعلويين للصلح

وتألم صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد مما حل بالحضارم في إندونيسيا من التخاصم والتنازع، فتفضل جلالته وبعث كلماته الغالية لبعض زعماء الحزبين يدعوهم بها إلى تسوية الخلاف، وإلى الوفاق والوئام.

وقد أرسل السيد إبراهيم السقاف كتابين لكل من جمعية الإرشاد والرابطة العلوية، وهذا نص كتابه لجمعية الإرشاد:

الحمد لله

من سنقافورا إلى بتاوى ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ و٢١ جولي سنة ١٩٣٣م إلى الهيئة المركزية العليا لجمعية الإرشاد والإصلاح، وفقها الله وإيانا لما فيه الخير والفلاح، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أتقدم لحضرتكم بما يأتي:

لقد تشرفت باستلام ثلاثة كتب من جلالة الملك المعظم عبدالعزيز بن سعود وفقه الله، كلها استحثاث وتحريض على السعي في إزالة الخلاف بين العلويين والإرشاديين، وأيضًا كتب لي سمو السلطان الغيور على قومه علي بن منصور الكثيري مرارًا في هذا الصدد، وناشدني الله في ذلك. وقد علمت أيضًا أن جلالة الملك المعظم عبدالعزيز بن سعود كتب لبعض زعماء الفريقين بالنصح بتسوية الخلاف والاتفاق، ولما بلغني أن هناك مساعي لذلك عندئذ سررت وبقيت منتظرًا

نتيجة مثمرة لها، لأن القصد الوصول إلى تسوية الخلاف، والصلح بأي واسطة كانت، ومع أني علمت -مع الأسف- عدم ثمرة تلك المساعي، رأيت التريث وقلت: عسى أن يوصل ما انقطع من مراسلات، أو تجد مفاوضات، ولما لم يظهر شيء إلى اليوم تقدمت إليكم بما أنتظر منه نتيجة عملية إن كانت هي دون المراد وهو الصلح التام، إلا أنها ستكون إذا أثمرت بحسن النية خير ممهد له إن شاء الله، وهو عقد هدنة بين العلويين والإرشاديين بموجب الشروط المذكورة أدناه وسيكون لقبولكم ذلك صدى حسن لدعوة جلالة الملك المعظم عبدالعزيز الذي سيرى أننا لم نصم آذاننا عن ندائه الأبوي الكريم، الذي ما أراد به إلا خيرًا كبيرًا للفريقين، وقد كتبت بمثل هذا للرابطة العلوية الجليلة وفي انتظار جوابكم وجوابها، أرجو الله أن يوفقكم جميعًا لما يحبه ويرضاه، ويرعاكم.

تعقد هدنة لمدة سنتين بين العلويين والإرشاديين على الشروط الخمسة الآتية:

- كف الفريقين عن المنابذة في الجرائد والمجتمعات.
- مقاطعة كل من يلجأ إلى ذلك.
- يجب أن تكون المناقشة إذا وجد ما يستدعيها بين الطرفين سيما في الصحف باللطف والأدب سيما نحو الزعماء.
- ما وقع من أمور وصلت إلى المحاكم أو الحكومات ينبغي أن لا يزيد التشويش بشأنها، ويترك لتلك المحاكم أو الحكومات معالجتها والتصرف فيها.
- في أثناء هذه الهدنة يعمل الفريقان على الوصول إلى الصلح بينهما أو التحكيم في الخلاف إن لم يتوصلا إلى اتفاق.

المخلص

إبراهيم السقاف

وكتبت جمعية الإرشاد لحضرته كتابًا هذا نصه:

حضرة الفاضل السيد إبراهيم السقاف المحترم، دام عزه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كتابكم المؤرخ ٢٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ وصل وقرأناه بتأمل.

قد وصل كما سمعتم من جلالة الملك ابن السعود كتب لزعماء الفريقين، وقد اجتمع الإرشاديون وعينوا للمفاوضة في الصلح نقيب العرب بتاوى السيد حسن بن صالح عرقبي، وبالفعل فاوض المذكور كبار رجال الرابطة، فرفضوا تدخله في الأمر بحجة أنكم أنتم والسيد محمد رشيد رضا في المفاوضة في ذلك، فسكتنا لعلمنا بما تحت ذلك الرفض من الغرض الأساسي.

فيا حضرة السيد إذا كان المقصود حقيقة هو الصلح، فتلك الشروط التي صرفتم في تحريرها سنتين كاملتين أنتم والأستاذ أحمد السوركتي مع المفوضين من الجهتين هي الشروط العادلة التي لا يتم الصلح على أقل منها، وهي الشروط التي رضي بها الفريقان وأمضوا عليها ثم مزقتموها بابتدائية وانتهائية ومفسرة ومجملة وغير ذلك من الألفاظ التي لا قيمة لها عند الحقيقة، وهي تتضمن ما اقترحتموه في ذيل كتابكم هذا، فإن كان لك نفوذ في قومك فما عليك إلا أن تقنعهم لتنفيذها فهي أصلح لهم، وينتهي الأمر بسلام، وبدون حاجة إلى ضجيج جديد، وإن كان المقصود هو المخادعة والتظاهر عند أحزاب المسلمين الذين لا يعرفون حقائق أمورنا في الخارج بأنكم تدعون الصلح دون الإرشاديين وأنكم تحبون الإصلاح، وأنكم، وأنكم، فهذا الأساس أحقر من أن نضيع أوقاتنا في الأخذ والرد عليه، وأسخف من أن يجعل مطية للانتصار على قوم يمشون على مبادئ راسخة وأقدام ثابتة، لا يهمهم سوى إرضاء الله ثم إرضاء ضمائرهم بأداء ما يرونه واجبًا عليهم.

وأما جمعية الإصلاح والإرشاد فهي لا تزال مهادنة من يوم إمضائها على شروط الصلح، ولم تسحب إمضاءها إلى الآن، وهي مستعدة على المصافحة على الصلح على أساس تلك الشروط مرة أخرى، هذا جواب ما فهمنا من كتابكم.

وأما قولكم: ما وقع من أمور وصلت إلى المحاكم والحكومات ينبغي ألا يزيد التشويش بشأنها، ويترك لتلك المحاكم والحكومات ومعالجتها والتصرف فيها، فلم نفهم المقصود منه، هذا ما لزم، ولكم منا جزيل الشكر في سعيكم ودمتم والسلام.

السكرتير العام

بدر بن سالم بن تبيع

وعدَّ السيد إبراهيم السقاف رد الجمعية له شديدًا في لهجته الأمر الذي جعله ينسحب من مشروع الصلح ويعتزل التدخل بين الحزبين.

وهكذا ذهبت تلك الجهود جفاء، وكان حظ مشاريع الصلح الفشل والخذلان.

لقب (سيد)

ومثَّل هذا اللقب دورًا كبيرًا بين الحزبين، وأذهب بجزء كبير من أوقاتهم في النزاع والخلاف حول استعماله، فالإرشاديون الذين كانوا يستعملون لقب (شيخ) لكل حضرمي من غير آل باعلوي يريدون استعمال (السيد) بدلًا من (الشيخ) لكل شخص سواء أكان من العلويين أو من غيرهم، وسواء أكان من العرب أو من العجم أو الفرنجة كما هو مستعمل لكل الناس من غير تمييز في الأقطار العربية لا سيما في سوريا وفلسطين والعراق. والعلويون لا يرضيهم ذلك، ويرون أنه من الواجب تخصيص لقب (السيد) بهم فقط دون غيرهم، وبالرغم من أنهم كانوا يستعملون

لقب (الشيخ) لأهل العلم منهم[1] فإنهم يغضبون إذا نودي أحدهم بلقب (الشيخ) ولو كان هذا عالمًا دينيًا، فهم يحرصون كل الحرص على بقاء هذه البقية الباقية من تلك الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها قبل ظهور جمعية الإرشاد، وبالرغم عن الجهود الجبارة التي بذلوها لحصر لقب (سيد) لهم، وعن المساعي التي قاموا بها لدى الحكومة الهولندية لمنع استعمال ذلك اللقب لغير العلوي، بالرغم من ذلك كله تخطى لقب (سيد) دائرة العلويين، وذاع عند غير هؤلاء، وأصبح الإرشاديون يستعملون لقب (سيد) لكل شخص بقطع النظر عن جنسه ودينه ولونه.

حالتهم الأدبية

كان من نتائج النزاع والخلاف بين العرب أن وجد التنافس في الإرشاديين والعلويين في إنشاء المدارس ونشر التعليم، وكانت الحماسة ظاهرة بارزة في الإرشاديين، ولذلك فعدد مدارسهم أضعاف مدارس العلويين، فهي تبلغ نحو الثلاثين مدرسة في جاوة وسومطرا وغيرهما من جزائر إندونيسيا، ولقد حاول كل من الحزبين ضم الجاويين إليهم لتقوية مركزهم، وتثبيت أقدامهم، وتوسيع نطاق دعوتهم، فلم ينجحوا كثيرًا، ولكن الظروف ساعدت مدارس الإرشاد في

---

(١) جاء في صفحة ١٣٥ من (الكواكب الدرية) العيدروس بن حسين العيدروس ما يأتي: «...... سيدي وشيخي وقدوتي، أبي الحسن شمس الدين الشيخ علي بن الشيخ أبي بكر ابن الشيخ عبدالرحمن ابن الشيخ محمد ابن الشيخ علي ابن الشيخ علوي ابن الشيخ الفقيه محمد ابن الشيخ علي ابن الشيخ علي ابن الشيخ محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن عبدالله بن أحمد بن عيسى»، وجاء في (المشرع الروي) لمحمد بن أبي بكر الشلي صفحة ١٨٠ ما يأتي: «... أخذ عن الشيخ علي بن أبي بكر السقاف عدة علوم، وكذلك عن الشيخ عبدالله العيدروس بن أبي بكر السقاف وتخرج به كثيرون منهم العارف بالله الشيخ حسين بن عبدالله العيدروس والشيخ أحمد شهاب الدين بن عبدالرحمن بن علي». راجع أيضًا صفحة ٤٨، ١٤٩، ١٧٠، ١٧٢.

رسالتها للمسلمين، فقد أنشأ جماعة من الإندونيسيين الجمعية المحمدية في مدينة جكجاكرتا، وانتشرت مدارسها بسرعة عظيمة جدًا في كل جزائر إندونيسيا، ومبدأ هذه الجمعية يتفق ومبدأ الإرشاد من نواحٍ جمة، فهي تنكر التوسل بالقبور والأحجار والأشجار والعزائم والتمائم، وزادت العلاقات توطيدًا بين الإرشاد والمحمدية. تخرج أفراد من الإندونيسيين من مدارس الإرشاد وقيامهم بمهنة الوعظ والإرشاد في الهيئات المحمدية.

وشعر العرب بحاجة البنت إلى التعلم، وكانوا قبل ظهور الإرشاد يحرمون عليها طلب العلم، لذلك بعثوا بناتهم إلى المدارس العربية يتعلمن مع البنين جنبًا لجنب، وأصبحت كثيرات منهن يتكلمن بالعربي، ولو أن الجو العائلي عربي لبرزت في اللغة العربية، ولكن الأمهات يجهلن العربي كل الجهل، ولا يتكلمن سوى باللغة الجاوية[1] فالبنت بمجرد عودتها من المدرسة إلى البيت تخاطب من حولها من أعضاء العائلة الجاوية، وأنشأ العرب نحو ثلاث مدارس للبنات في بتافيا، وفكلوغن، وسرابايا، ولكنها لم تأخذ حظها من البروز والرواج لعدم وجود مدرسات قديرات، أما مدارس البنين فقد استطاعت أن تؤدي بعض واجبها نحو الشباب من الناحية الدينية والأدبية، وقد تخرج منها وبالأخص من مدارس الإرشاد أفراد كثيرون، أمثال السادة: عمر هبيص، وعمر ناجي، وعلي هرهرة، ومحمد منيف النهدي، وحسين بامشموس، وعبدالله العطاس، وحسين البكري، وسلطان بن تبيع، وسعيد بن طالب، وعوض البرقي، وزين باوزير، وعبدالمجيد التميمي، وعبدالله باجري، وحسن عرقبي، وطاهر عرقبي وغيرهم، ويقوم أكثر هؤلاء المتخرجين بمهنة التدريس، وتمنح لهم المدارس مرتبات قد تبلغ ٢٠٠ مائتي روبية، أي عشرين جنيهًا تقريبًا في الشهر.

(١) لا يوجد فيما أعلم حضرمي أتى بزوجته من حضرموت إلى جاوة، فكل النساء العربيات ولدن في إندونيسيا، فالعنصر ينحدر من الدم العربي والجاوي.

وجميع المدارس العربية أهلية، وليس للحكومة الهولندية أي دخل فيها، وهي تعيش على حساب تبرعات المحسنين من العرب.

أما العلوم التي تدرس فيها، فلا يتجاوز أكثرها حدود المقرر في المدارس الابتدائية المصرية، وتسود المدارس الروح الدينية في جميع مظاهرها، والحشو في مناهج التعليم مرهق، فالتلاميذ يدرسون كتبًا مطولة في الفقه والتفسير والتوحيد قد يدرسها طلاب الشهادة العالمية في الأزهر بمصر، ولذا فأولئك التلاميذ يدرسون تلك الكتب دون أن يفهموها تمام الفهم، وينتهون منها على لا شيء، اللهم إلا فيما له علاقة بالعبادات فإنهم يفهمونه فهمًا لا بأس به، وذلك لأن تلك الكتب الدينية فوق مستوى عقول التلامذة، ولعل المدرسين مدفوعون إلى ذلك لإرضاء آباء التلاميذ الذين يسر كل منهم السرور العظيم حينما يعلم أن ابنه يدرس كتاب أبي شجاع، أو تفسير الجلالين، أو مصطلح الحديث، وما إلى ذلك من العلوم الدينية، ولكن المؤرخ لا يجد بدًا من إلقاء المسؤولية على أولئك المدرسين فقط، لأن الآباء يجهلون التربية تمام الجهل.

والمتخرج من المدارس العربية لا يستطيع الالتحاق بمدارس الحكومة الهولندية لتتميم الدراسة العالية لاختلاف المنهج، فنصيبه مقطوع، ومستقبله متوقف على مهنة التدريس أكثر من غيرها.

ولقد شعر كثير من العرب بضعف مدارسهم وبحاجتها إلى علوم حديثة ونظم عصرية تخلق الناشئين خلقًا جديدًا، وتدفعهم إلى ميدان الحياة، فجلبت جمعية الإرشاد مدرسين من مصر بمرتبات ضخمة، ولكن كانت ثقافة هؤلاء دينية فلم يخلقوا شيئًا جديدًا في المدارس، ولم يدخلوا على المناهج نظامًا يجعلها تسير من حسن إلى أحسن، وكانت النتيجة فصلهم من مدارس الإرشاد.

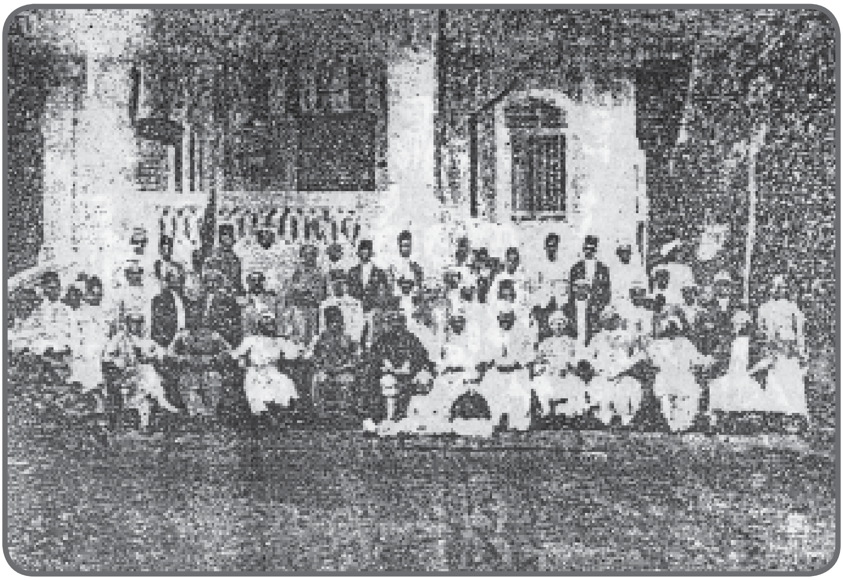
وظهر أفراد في القوم نادوا بإصلاح المدارس وترقية التعليم، وبإرسال بعثات علمية إلى الخارج، وقد كانت للمقالات التي كتبتها في (الدهناء) و(الهدى) أثر كبير.



فريق من الطلبة الحضارمة بمصر أثناء احتفالهم بالسيد عثمان محمد العمودي من أركان النهضة الإرشادية بجاوة، وعلى يمينه أحد التجار الحضارم بمكة، وعلى يساره مصري من كبار التجار

وفي سنة ١٩٣١م تكونت في مدينة سرابايا لجنة لإرسال البعثات العلمية إلى مصر، كان من أكبر القائمين فيها السادة: عوض شحبل، ومحمد عبود العمودي، وعايض التميمي، واستطاعت اللجنة بما بذلته من الجهود أن ترسل إلى مصر سنة ١٩٣١م بعثة مكوَّنة من ستة أعضاء، ثم تواترت البعثات العلمية إلى مصر، وقد بلغ عدد الطلبة الحضارم في مصر اليوم نحو ٤٠، وجميع هؤلاء الطلبة على حساب آبائهم.

واتجه فريق من الحضارم إلى المدارس الهولندية، فألحقوا أبناءهم بها، وهؤلاء هم الذين يستطيعون مواصلة الدراسة العالية، ونهض السيد عوض شحبل في مدينة صولو فأنشأ مدرسة ابتدائية عربية هولندية، تحت رقابة وزارة المعارف وبمساعدتها، وهي الأولى من نوعها في المدارس العربية، حيث يستطيع خريجوها الالتحاق بمدارس الحكومة الثانوية والعالية.



النادي الأدبي العربي بسنقافورة، وأمامه جماعة من أعضائه من العلويين وغيرهم

ويوجد للعرب اليوم نحو عشرة نواد لإلقاء المحاضرات وعقد الاجتماعات فيها، وأكبر هذه النوادي دارًا، وأوسعها نطاقًا وأنشطها عملًا نادي الإرشاد بسرابايا، ثم نادي العرب بسنقافورا.

أما الصحف فقد ظهرت لهم نحو ٢٠ صحيفة أسبوعية وشهرية[١]، ولكن لم

(١) منها: حضرموت، الإرشاد، الإقبال، الذخيرة، الرابطة العلوية، النهضة الحضرمية، الدهناء، الأحقاف، بروبودور، الهدى.

يطل عمر كل منها حيث توقفت عن الصدور لقلة المشتركين فيها، وعدم تنشيط الجمعيات لها، مع أن كثيرًا من الحضارم مشتركون في الصحف المصرية والأجنبية.

وللشباب الحضرمي ولع بالرياضة، فقد أنشأ جمعيات ونوادي رياضية، وقد تكون للحضرمي الغلبة على غيره حينما ينزل في ميادين المباراة، وتعليم الكشافة منتشر في المدارس العربية لا سيما في مدارس الإرشاد.



كشافة فرع الإرشاد بسرابايا

الوحدة العربية الحضرمية

في سنة ١٩٢٩م تكونت لجنة من ذوي الرأي من العرب في مدينة سرابايا تحت رئاسة السيد محمد عبدالله العمودي لتوحيد الأحزاب العربية وتوجيهها كتلة واحدة إلى غرض سام يكون من ورائه حياة سعيدة للعرب ومستقبل منير.

تألم السيد العمودي وأعوانه أعضاء اللجنة مما حل بالحضارم من التخاصم والتشاحن والتفرق والتشتت والتدهور والانحلال، وصعب عليهم أن يبقى العرب

أحزابًا متنافرة، وجماعات متقاطعة، شعب كان فيما مضى عزيز الجانب، قوى الشكيمة، لا يهضم له حق، ولا يتعدى عليه عات، كان رفيع الشأن عالي المقام، فأمسى بسبب الجهالة الضاربة أطنابها في كل نواحيه، والناشبة أنيابها في كل أجزائه، لا يقام له وزن، ولا يرفع له ذكر. أرسلوا نداءهم إلى كل الحضارم للدعوة لتكوين وحدة عربية، وأخذوا يجوبون البلاد، ويجتمعون بالزعماء، وقادة الأحزاب لتأليف القلوب، وتوحيد الصفوف، لتعود للحضارم شوكتهم، ويحيا مجدهم.

كان من أهم أغراض الوحدة العربية المطالبة بحقوق العرب في مجلس العموم (فولكس راد)، وفي مجالس القرى والمديريات، وتأسيس الشركات التجارية، وترقية المدارس العربية، وإنشاء النوادي الرياضية. واستطاع دعاة الوحدة أن يؤثروا في القوم، ويستميلوهم لتلبية ندائهم حول مشروعهم الجليل، فاندفعت كل الأحزاب لإنشاء الوحدة العربية ما عدا الرابطة العلوية، فقد فضلت البقاء بمعزل عن تلك الحركة الجديدة. وقد أقيم في سرابايا مؤتمر كبير هو الأول من نوعه، فقد اشتركت فيه الجمعيات والأحزاب على اختلاف مشاربها، واحتشدت لحضور المؤتمر الجموع الزاخرة من أرجاء جاوة، وتكونت الوحدة المنشودة، وتدفق إليها المال من كل جانب، وقد اشرأبت الأعناق بعدئذ، واتجهت الأنظار إلى الأعمال التي سيقوم بها السيد العمودي ورجاله، وإلى الثمار الشهية التي سيجنيها العرب من الوحدة العربية، ولكن حادثًا حل بدعاة الوحدة فجأة، ودب إليهم الخلاف والشقاق، وأمسى السيد محمد العمودي قائد الوحدة غير مرضي في تصرفاته، ولا مقبول في اتجاهاته، حتى من أعوانه الأقربين، وكانت النتيجة أن تلاشت الوحدة العربية، ولم يمض لها غير سنة وبضعة شهور، فتألم العرب لذلك أشد الألم، وأذرفت عيون المخلصين من الدمع مدرارًا، وقد اضطرت جمعية الإصلاح والإرشاد التي بذلت للوحدة كل مرتخص وثمين إلى إعلان الانسحاب

والانفصال عنها في مؤتمرها المنعقد سنة ١٣٥١هـ ليأسها من إصلاحها وضياع الآمال في هداية دعاتها.

نهضة المواليد

ومن الحوادث الجديرة بالذكر حركة مواليد العرب في إندونيسيا، وبالأخص في جاوة، وقيامهم يدًا واحدة لتكوين وحدة خاصة بهم، وأهم الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك ثلاثة:

أولًا: عجز المدارس العربية عن تكوين ناشئة مثقفة تثقيفًا عاليًا.

ثانيًا: النزاع والخلاف القائم بين العلويين والإرشاديين، والذي طال أمده، وامتد عمره، وأضاع من أوقاتهم جزءًا كبيرًا كان يجب أن يقضى فيما هو أنفع للناشئين وأصلح لمستقبلهم.

ثالثًا: شعور أولئك المواليد بالعجز عن مجاراة مواليد الصينيين والهولنديين في مرافق الحياة ومشاركتهم في الحقوق السياسية والاقتصادية التي يتمتع بها هؤلاء ويحرم منها أولئك لجهالتهم.

نهض مواليد العرب مدفوعين بتلك العوامل وأنشأوا لهم وحدة [P.A.I] في بتافيا، وأقيمت فروع لها في كثير من بلاد جاوة. وأهم الأغراض التي ترمي إليها وحدة المواليد هي:

أولًا: المطالبة بنصيبهم من الحقوق السياسية والمدنية التي يتمتع بها مواليد الجاليات الأخرى.

ثانيًا: إنشاء مدارس هولندية عربية ليستطيع الناشئون مواصلة الدراسة العالية في مدارس الحكومة وليكونوا في مستوى غيرهم من الشباب المثقف، وقد أنشأوا مدرسة هولندية عربية [H.A.I] في سرابايا خاضعة لوزارة المعارف العمومية.

ثالثًا: توطيد العلائق وتقوية الصلات بين العرب وبين غيرهم من سكان إندونيسيا، وبالأخص الإندونيسيين، وقد أصدرت الوحدة لذلك مجلة بالملايو لتستطيع تفهيم غير العرب أغراضها السامية.

وبإنشاء وحدة المواليد العربية اتحد كثير من أبناء الحزبين المتخاصمين، وتألفت قلوبهم، واجتمعت كلمتهم، وتكاتفوا وتناصروا على العمل للمصلحة العامة، غاضين النظر عن الخلاف القائم بين آبائهم من الإرشاديين والعلويين، وليس من شك أن استمرار هؤلاء المواليد على هذه الخطة يقضي تدريجيًا على النزاع القائم بين الحزبين، ويوحد صفوف العرب، ويزرع في قلوب الناشئين حب التآلف، والإخاء، والوئام.

بحمد الله تعالى تم طبع الجزء الثاني من (تاريخ حضرموت السياسي) مصححًا بمعرفتي مع مراجعة المؤلف[١].

أحمد سعد علي

أحد علماء الأزهر ورئيس لجنة التصحيح

القاهرة في يوم الخميس ٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٥هـ، الموافق ١٨ فبراير سنة ١٩٣٧م.

ملاحظ المطبعة	مدير المطبعة
محمد أمين عمران	رستم مصطفى الحلبي

(١) وردت هذه الفقرة في نهاية طبعتَي ١٩٣٧م، و١٩٥٦م اللتين كانتا في حياة المؤلف رحمه الله. وقد قام بمراجعة هذه الطبعة الجديدة وتدقيقها كل من: د. عبدالرزاق سعيد الفحّة، وأ. أنور سالم باكركر، وأ. نادر سعد العُمَري بإشراف الشيخ محمد سالم بن علي جابر. (الناشر).

أهم مصادر الكتاب
(الكتب المطبوعة)

«القضاة» للكندي.

«الأغاني» للأصفهاني.

«العرب قبل الإسلام» لجرجي زيدان.

«صفة جزيرة العرب» للهمداني.

«العبر وديوان المبتدأ والخبر» لابن خلدون، ٧ أجزاء.

«التيجان في ملوك حمير» للحميري.

«بلوغ الأرب في مآثر العرب».

«هداية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن» للأمير أحمد العبدلي.

«العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية باليمن».

«ذكر البلدان والأقطار».

(الكتب المصوَّرة تصويرًا شمسيًا)

«قلائد النحر في وفيات أعيان الدهر» لابن مخرمة، ٣ أجزاء.

«السلوك في طبقات العلماء والملوك» للجندي، ٣ أجزاء.

«مختصر العجائب والغرائب».

(الكتب المخطوطة)

«اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية» للكبسي.

«أنباء الزمن في تاريخ اليمن».

«خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار ملوك التبابعة».

«مواسم الأدب وآثار العجم والعرب»، ٣ أجزاء.

«البداية والنهاية في التاريخ»، ٥ أجزاء.

«السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر».

«معجم ما استعجم».

«قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان».

(الكتب الإنجليزية)

1 - D. Van Der Meulen . H. Van Wissmnn. Hadramaut.

2 - O. H. Little. The Geography And Geology of Makalla.

3 - Bertam Thomas. Arabia Felix.

(الكتب الفرنسية)

4 - Guillain. Docoments Sur Lhistoire La Geographie Et Le Commercel de Lafrigue Orientale.

5- Normal. Manuel de L histoire Ancienne de Lorient.

6- L. W. C. Van Den Berg. Le Hadramout Et Colonies Arabes.

الصحف: (العربية)

«الإرشاد». «الدهناء».

«الإقبال». «الهدى».

«حضرموت». مجلة «الشفاء».

«الأحقاف». مجلة «المنار» (مصر).

(الجاوية)

1- «Simpo».

2- «Bintang Timoer»

صلاح البكري في سطور



- كاتب ومؤرخ عربي كبير ملأ الدنيا وشغل الناس، ولا يزال يشغل الناس بعد وفاته.
- من أبناء حضرموت ذوي الأصل اليافعي.
- في٢١/ ٤/ ١٩١٣م ولد بإندونيسيا بمدينة (تيجال) وتلقى تعليمه الأولي بمدرسة الإرشاد العربية.
- سنة ١٩٢١م في سن الثامنة أرسله والده إلى حضرموت، فالتحق بمدرسة الحوطة بالقَطْن.
- سنة ١٩٢٦م توفي الده في سن ٣٥ عامًا في أثناء إحدى رحلاته التجارية إلى الخليج ودفن في البحرين.
- سنة ١٩٢٩م اختير صلاح البكري ضمن بعثة دراسية إلى مصر وهو في سن السادسة عشرة.
- سنة ١٩٣٤م التحق البكري بجامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول آنذاك) بقسم التاريخ.
- سنة ١٩٣٨م تخرج في الجامعة مع زملائه باكثير والسحّار ونجيب محفوظ. ولما لم يستطع العودة إلى وطنه بسبب ظروف الحرب العالمية قرر البقاء بمصر والتحق بمعهد التربية العالي.

- سنة ١٩٤٠م حصل على دبلوم التربية وعلم النفس وعُيِّن مدرسًا بالإسكندرية.
- سنة ١٩٤١م تزوج في الإسكندرية من فتاة مصرية، لكن هذا الزواج لم يدم طويلا.
- سنة ١٩٤٣م حصل على الجنسية المصرية ونُقل إلى القاهرة للتدريس وانضم إلى لجنة النشر للجامعيين (التي أسسها السحّار وباكثير ونجيب محفوظ).
- سنة ١٩٤٤م أسس مع صديقيه باكثير وعزان عبدات (جمعية النهضة الحضرمية) بالقاهرة.
- سنة ١٩٤٧م زار حضرموت لأول مرة بعد غياب ١٨ عاما.
- سنة ١٩٥٠م طلبته هولندا للعمل مُعدًّا ومذيعًا بالقسم العربي بإذاعتها لمدة سنتين.
- سنة ١٩٥٣م غادر مصر إلى المملكة العربية السعودية أستاذًا لمواد التاريخ والجغرافيا واللغة العربية بمدرسة الفلاح الثانوية بمكة المكرمة.
- سنة ١٩٥٤م قررت المعارف السعودية كتابه (جغرافية البلاد العربية) على طلاب المدارس.
- سنة ١٩٥٤م زار يافع لأول مرة، ودوّن رحلته في كتابه: (في شرق اليمن يافع).
- سنة ١٩٥٥م إنشاء أول مؤسسة إعلامية رسمية سعودية رأسها عبدالله بلخير الذي استعان بصلاح البكري مُتعاونًا في مختلف مراحل التأسيس وكاتبا بمجلة الإذاعة.
- في ٧/ ١٠/ ١٩٥٥م تزوج من «حبيب العمر» نادرة عارف الزين الفتاة الشامية.

- سنة ١٩٥٦م برز صلاح البكري في مجلة الإذاعة السعودية كاتبا باللغتين العربية والإندونيسية.
- سنة ١٩٥٧م انتقل إلى جدة بعد تعيينه مديرًا لقسم الأحاديث بإذاعة جدة.
- سنة ١٩٦٢ م ساهم في إنشاء (إذاعة صوت الإسلام)، وكان أول مدير لها لمدة ٩سنوات.
- سنة ١٩٧١م تم الانفصال الصعب بينه وبين زوجته بعد أن أنجبت له «شفاء» و«وائل»، وفي السنة نفسها عُيِّن مراقبًا دينيًا لإذاعة (نداء الإسلام) واستمر بها حتى بلغ السبعين.
- سنة ١٩٨٢م أحيل للتقاعد من العمل في الإذاعة، فاستعانت وزارة الإعلام به موظفًا غير متفرغ بمكتب الرقابة على الكتب التاريخية.
- سنة ١٩٨٥م استعاد جنسيته الإندونيسية بعد أن يئس من تحسن الظروف السياسية في وطنه.
- سنة ١٩٨٦م غادر المملكة العربية السعودية نهائيا إلى إندونيسيا ليمضي بها بقية عمره.
- في ١٢/ ١٢/ ١٩٩٣م توفي صلاح البكري إثر نوبة قلبية مفاجئة ودفن هناك حيث وُلد رحمه الله.

مؤلفات الأستاذ صلاح البكري

١- تاريخ حضرموت السياسي (جزآن):

الجزء الأول، صدر عن المطبعة السلفية بمصر، عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، في (١٩٧ صفحة).

الجزء الثاني، صدر عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، في (٣٥٦ صفحة).

الطبعة الثانية: صدرت في مصر، بدون تاريخ الطبع، أو دار النشر، لكن مقدمة المؤلف لهذه الطبعة كتبت في ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م. وقد صوّرتها فيما بعد مكتبة الصنعاني وأخرجتها مطموسة الصور، ثم أخرجتها مصوّرة دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، و١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢- في جنوب الجزيرة العربية:

الطبعة الأولى: صدرت عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

والثانية: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٩م.

والثالثة: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، وهي طبعة كثيرة التحريف، وخالية من الصور.

٣- تاريخ الإرشاد في إندونيسيا:

الطبعة الأولى: نشر الإدارة المركزية لجمعية الإرشاد الإسلامية جاكرتا، إندونيسيا، ١٩٩٢م.

٤- اتحاد الجنوب العربي:

طبع في دار العلم، جدة، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

٥- حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي:

نُشر عن مكتبة الإرشاد بجدة، وطبع في مطبعة المدني، بالقاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

٦- في شرق اليمن: يافع:

صدر عن مطبعة دار الكشاف، بيروت، ذو الحجة ١٣٧٤هـ/ أغسطس ١٩٥٥م.

٧- الجنوب العربي اليوم:

صدر في القاهرة، ١٩٥٠م.

٨- الجنوب العربي قديمًا وحديثًا (٤٠٠ ق.م -١٩٦٧م):

صدر عن دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٩٦٧م.

٩- الاتجاهات الجديدة في سياسة التعليم:

صدر عن مطبعة المدني القاهرة، ١٩٥٦م.

١٠- جغرافية البلاد العربية:

صدر عن المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م.

١١- القرآن وبناء الإنسان:

صدر عن دار تهامة، جدة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

١٢- في الشمال الغربي للحجاز:

صدر عن مكتبة الجسر، جدة، وطبع في مطابع الهيثم، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٣- حضرموت بلاد الأحقاف:

محاضرة ألقاها في دار (جماعة التعارف الإسلامي) بالقاهرة، ونشرتها مجلة (الفتح) في الأعداد ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٩ لسنة ١٣٥٣هـ في القاهرة. وأعيد نشرها في كتاب: (حضرموت: فصول في التاريخ والثقافة والثروة)، جمع مادتها وقدّم لها د. محمد أبو بكر حميد، ونشرتها جمعية أصدقاء علي أحمد باكثير الثقافية بالقاهرة سنة ١٤٢٠هـ، صفحة ٣٧ وما بعدها.

الفهرس

الموضوع	**الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

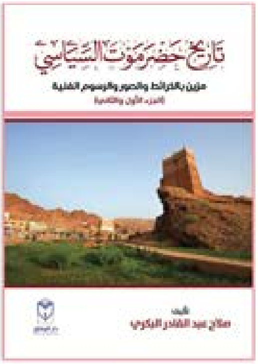
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



لا يوجد في الكتب العربية وغيرها كتاب واف بتاريخ (حضرموت) قبل الإسلام وبعده، ولسنا نعرف من المؤرخين وأصحاب السير والأخبار واحدًا أفرد كتابًا خاصًا في هذا الموضوع الذي نحن بصدده، وإنما هي نتف متفرقة، وشذرات مبعثرة في كتب كثيرة، لمؤلفين كثيرين من العرب والفرنجة، على أن هذه النتف يناقض بعضها بعضًا، ويخالفها من نواحي جمة، وبعضها يبالغ في وصفه القصَاص، ويتجاوزون حد المعقول، لا سيما فيما يتعلق بالتاريخ القديم (عاد، وأقيال التبابعة، وملوك حمير).

ولقد بذلنا جهودًا جبارة، وتكبدنا متاعب شاقة في غربلة تلك النتف وتصفيتها، وحذف ما لا يقبله العقل، ولا تثبته المراجع المعتمدة، والذي أوردناه منها أشرنا إلى عدم صحته، وأخذنا الخلاصة من ذلك وأبرزناها...



صلاح عبد القادر البكري (١٩١٢م - ١٩٩٣م)، ولد في إندونيسيا، وتلقى تعليمه الابتدائي بجاكرتا ، ثم سافر إلى مصر عام ١٩٣٠م، ودرس مرحلتي الكفاءة والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة، وتخرج في كلية الآداب قسم التاريخ عام ١٩٣٨م، ثم التحق بـ(معهد التربية العالي) وحصل على دبلوم التربية وعلم النفس عام ١٩٤٠م، وعين مدرسًا بـ(مدرسة القباري) بالإسكندرية، ثم نقل إلى (مدرسة محمد علي) بالقاهرة. وفي عام ١٩٥٠م ترك التدريس وسافر إلى هولندا واشتغل مذيعًا بالقسم العربي بإذاعة هولندا. وفي عام ١٩٥٢ انتدب للتدريس بـ(مدرسة الفلاح الثانوية) في مكة المكرمة. وفي عام ١٩٥٧م اشتغل مديرًا لقسم الأحاديث بالإذاعة العربية السعودية بجدة، ثم مديرًا لإذاعة (نداء الإسلام)، ثم مراقبًا دينيًا لهذه الإذاعة. وهو من المؤرخين القلائل الذين اهتموا بجغرافية الوطن العربي وتاريخه خاصة الجنوب العربي، صدرت له العديد من الكتب منها:

1. تاريخ حضرموت السياسي (الجزء الأول والثاني)
2. في جنوب الجزيرة العربية
3. حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي
4. الجنوب العربي قديمًا وحديثًا
5. في شرق اليمن يافع
6. اتحاد الجنوب العربي
7. جغرافية البلاد العربية
8. في الشمال الغربي للحجاز
9. تاريخ الإرشاد في إندونيسيا
10. حضرموت بلاد الأحقاف
11. الاتجاهات الجديدة في سياسة التعليم
12. القرآن وبناء الإنسان

دار الوفاق
DAR AL WEFAQ
دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع
واتس آب: 2001008170225+